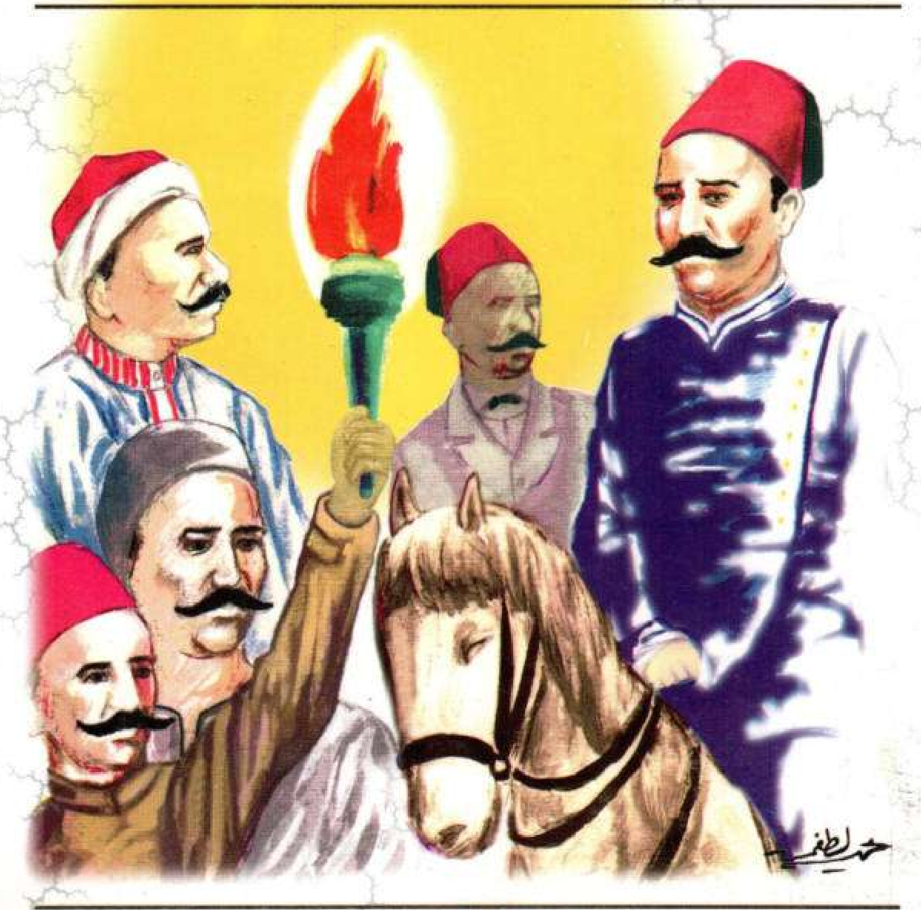
د. لطيفة محمد سالم

القوى الإجتماعية فى الثورة العرابية

الجذور والأحداث



مكتبة مدبولى



القوى الاجتماعية
فى
الثورة العرابية

الجذور والأحداث

الـكــتـــاب : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية
الجذور والأحداث
تـأليف : أ. د. لطيفة محمد سالم
الطبـعـة : الأولى ٢٠٠٤
النـاشـر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
الإخـراج والتنفيـذ : مكتب النصر للجمع التصويرى والتجهيزات الفنية
مساكن المنصورية بالدراسة بلوك ٣ مدخل ١ شقة ٤
تليفون : ٧٨٦٣١٩٩
رقـم الإيـداع : ٢٠٠٣/٢١٠٥٢
التـرقـيم الدولى : ISBN: 977-208-460-0

القوى الاجتماعية
فى
الثورة العرابية

الجذور والأحداث

أ. د. لطيفة محمد سالم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

ورئيس قسم التاريخ بكلية آداب بنها

مكتبة مدبولى

٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

... عرف المصريون الثورة منذ أن أيقنوا أنه لابد من الإطاحة بالظروف التى تجعلهم يئنون تحتها ، ومن الممكن القول بأن الثورة تُعد سمة مميزة ، وعلامة واضحة ، وظاهرة مسجلة عبر التاريخ المصرى ، فهى تفرض نفسها على المصريين عندما يكونون فى حاجة ملحة إليها ، بهدف تغيير الأوضاع القائمة لما فيه مصلحتهم وتحقيق ذاتهم . ومن اللافت للنظر أن الثورات المصرية بصفة عامة لم تكن ثورات دموية ، وهو أمر يعود إلى طبيعة المصريين التى لا تتفق مع العنف والبغض والانتقام، هذه الطبيعة اتسمت ببصمة طُبعت عليها ، نتيجة تأثرها بالدين السمح والنيل الخيِّر والسماء الصافية . وسواء نجحت الثورة وحققت ما تصبو إليه أو فشلت ، فإنها تجربة دوَّنها التاريخ لتكون نبراسًا يُهتدى به على طول الطريق .

والثورة المصرية المعروفة بالثورة العرابية والتى أطلق عليها هوجة عرابى - للتقليل من شأنها - هى ثورة متكاملة قامت على قواعد ثابتة ، جاءت فى وقت كانت مصر فى أشد الاشتياق لها ، لكنها لم تعط حقها ، نظرًا للظروف التى أحاطت بها ، ففى ظل أسرة محمد على غُبنت للموقف الذى وقفته منها وكان سببًا فى هزيمتها ، ولم تنل حظها مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى حرصت على أن تكون الشعلة التى أضاءت تاريخ مصر الحديث ، رغم وجود ملامح مشتركة بين الثورتين .

وفى الواقع ، فإن الثورة العرابية تمثل أهمية بالغة فى سجل الحياة المصرية ، حقيقة أنها فى البداية قامت على أكتاف الجيش ، لكن ما لبث أن تحول المصريون جميعهم إليها ، حيث شاركوا فيها على اختلاف مستوياتهم ، وكل نظر إليها بصفة خاصة ، فقد حملت المبادئ التى تسربت وتغلغلت فى الأعماق فى فترة تطلّعت فيها مصر لإسقاط النظام القائم بأبعاده المتعددة ، المتمثل داخليًا فى حكم أوتقراطى ،

وتهاو اقتصادى ، وتخلخل اجتماعى . أما خارجيًا ، فذلك التدخل الأوربى الذى أطبق بيده على مقدرات مصر ، ومن ثم كان لابد من إقامة نظام جديد ، يخضع لدستور وينهض بالاقتصاد ويحرر الفكر ويطبق العدالة الاجتماعية برفع المعاناة عن الكادحين ، وإقصاء الظروف المادية الصعبة وعلاقات الإنتاج القديمة . إذن فهى ثورة مصرية أصيلة ، اشتركت فيها قوى مصر الاجتماعية ، وتمكنت من أن تصل أصداؤها للخارج ، وبذلك تعد أول ثورة تحررية فى المنطقة العربية آنذاك .

وإذا كانت الثورة العرابية قد درست ، فليس ثمة دراسة أو بحث تعرض لهذه الزاوية بتحليل صادق ووجهة نظر شاملة ، حيث انصبت معظم أعمال المؤرخين على تصوير الوقائع ، أما الأدوار التى لعبتها القوى الاجتماعية من أجل إخراج تلك الثورة إلى حيز الوجود ، وحملها لمبادىء وخطوات لا تقل عن ما جاءت به الثورة الفرنسية فلم تتناول بعد . وبذلك فإن هذه الدراسة - فى حد ذاتها - تشكل ميدانًا خصبًا للدراسات التاريخية ، إذ تلقى أضواء جديدة على المحتوى الحقيقى للثورة العرابية فى محاولة لإعطاء بُعد سياسى ومضمون اجتماعى لكثير من الحقائق التاريخية .

ومما يزيد من أهمية الدراسة أنها جمعت المصادر من وثائق غير منشورة ومنشورة ودوريات ومراجع ، وتعد محاولة التوفيق لاستقاء المعلومات الصحيحة وتمحيصها من الأهداف المنشودة ، فالحذر واجب ، والمعايشة الكاملة للأحداث مع التحليل ضرورى لمواجهة الصعوبات ، حتى تخرج إلى حيز الوجود دراسة لها الأهمية والأصالة بما يسهم فى خدمة مصر والمصريين .

وهذه الدراسة تدور حول أطروحة رسالة دكتوراة للمؤلفة نوقشت عام ١٩٧٩ بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وقد سبقت لها أن قامت الهيئة المصرية العامة للكتاب بنشرها عام ١٩٨١ بمناسبة مرور مائة عام على قيام الثورة العرابية ، وسرعان ما نفد الكتاب ، ولم ويكن هناك البديل الذى يسد الفراغ فى المكتنبة التاريخية الاجتماعية ، لذا وبناء على أهمية الموضوع والرغبات المتعددة بشأن إعادة النشر مرة أخرى ليصبح بين أيدى الباحثين والقراء ، كان لابد من الاستجابة ، مع إجراء بعض التعديلات التى تخدم الدراسة حتى يتحقق الغرض المنشود ، وتخرج إلى النور مرة أخرى فى ثوبها الجديد .

وتنقسم الدراسة إلى أربعة أبواب ، تضم أربعة عشر فصلاً ، تتقدمها تلك المقدمة وتمهيد ثم يعقبها المشهد الأخير والببليوجرافيا . وشمل التمهيد « مصر والتسلط الأجنبى ١٨٤٨ - ١٨٨١ » أشكال هذا التسلط ، حيث توطنت الرأسمالية الأوربية ، وتبعها توطيد النفوذ عن طريق الامتيازات الأجنبية ، والمحاكم المختلطة ، والقروض التى أدت فى النهاية إلى الإشراف الأوربى الذى واكبه التدخل السياسى الأوربى ، وقد كان لحكام مصر الدور الإيجابى فى هذه الخطوات .

وتناول الباب الأول « القوى الاجتماعية فى مرحلة التكوين الثورى » ، وهو بالغ الأهمية ، حيث طرح على بساط البحث سؤالاً : لماذا اشتركت تلك القوى فى الثورة وأعطتها كل شىء ولم تبخل عليها ؟ واستغرقت الأسباب صفحات وصفحات ، وكان الإلمام بكل دقائق الظروف التى عاشتها القوى ضروريًا وملحًا ، وذلك لبيان الأسس والدعائم التى قامت عليها الثورة والتحمت فيها قوى الشعب . وقد انتقلت مع كل قوة فى ميدانها ، وصاحبتها فى فترة من أحلك الفترات التى مر بها المجتمع المصرى، فالفلاحون قاسوا فى عصر الأسرة العلوية ، تلك القسوة التى بلغت القمة مع إسماعيل الذى عدهم عبيده على أرض مصر ، فعمل مع معاونيه على تسخيرهم، وفرض الضرائب التى دمرتهم ، واستخدم وسائل التعذيب معهم ، وملّك الأجانب السلطة عليهم . وتبعه من خلفه فى سياسته ، مما جعلهم يعانون تحت أعباء الديون بعد أن سلبوا تمامًا ، فكان لابد لهم أن يثوروا . ولم يكن التجار والحرفيون بأحسن حالاً منهم ، فخضعوا للظروف نفسها من قسوة سلطة حاكمة وضرائب باهظة وتحكم لأجانب .

وتعرض المثقفون بجناحيهما المدنى والعسكرى لمساوئ المجتمع ، وإن كانت المؤسسات الثقافية قد أعطتهم الفرصة للتعبير عن فكرهم ، ذلك الفكر الذى أثار قوى مصر كلها عن طريق الصحافة والجمعيات العامة والسرية التى كانت بمثابة تنظيمات نمّت الوعى القومى وبلورت الرأى العام ، وأيضًا المسرح الذى دفع للصحوة. وغُبن العسكريون فى ظل النظام القائم ، إذ وقع عليهم الجور والعسف ، مما خلق بينهم رغبة أكيدة فى التخلص منهما . وأخيرًا تأتى قوة ملاك الأراضى لينضم كبارهم للسخط السائد ، وإن اختلفت الأسباب التى جعلتهم يعلنون عدم

الرضا والاستياء عن باقى القوى . وانضم لهم العمد والمشايخ ومشايخ البدو الذين خضعوا لظروف المجتمع الصعبة ، وتتفتح الأذهان ، ويشتد نشاط الحركة الوطنية مع مجلس شورى النواب وتكوين الحزب الوطنى الذى استقطب مؤيدى الحرية .

وبيَّن الباب الثانى « العسكريون والتضامن الثورى ومجابهة القوى المضادة » كيف مضى التخطيط بناء على الظروف السابقة ، إذ كان لابد أن تخضع مصر لأسلوب ثورى موحد يصب فى قالب هدفه العصف بالظلم والاستبداد . وقُدِّر للعسكريين الحاملين للسلاح التعبير عن رفض قوى المجتمع للأوضاع القائمة ، وبدأ انطلاقهم ليكون بداية التحرك الثورى ، ونجحوا فى تحقيق مطالبهم ، ليعطيهم ذلك المزيد من المكانة والقوة والثقة ، ولتتكاتف القوى وتسقط الحكومة المستبدة ، لتقوم حكومة ثورية وفقًا لرغبة الشعب ، لها مبادؤها وبرنامجها ، تلبى مطالب الثورة بإقامة دستور وحياة نيابية لتعيش مصر فى كنفهما بعد أن يسدل الستار على النفى والاعتقال والسجن . وعندما يقف من يحد من هذه الحريات التى أوجدتها الثورة يخلى مكانه على الفور ليحل محله من له القدرة على تسيير المسيرة الثورية ، تلك التى وقعت مسؤليتها على العسكريين .

ولكن كانت هناك المجهودات المضادة التى قام بها أعداء مصر فى الميدانين الداخلى والخارجى ، فالأتراك والشراكسة الرافضون للثورة يحاولون وأدها بمساعدة الخديو الذى رأى فيها خطرًا يهدد عرشه ، وبعض ملاك الأراضى الذين أسهموا منذ البداية فى الثورة ، يتراجعون ويؤيدون المعارضة نظرًا لأهواء ومصالح خاصة ، وبريطانيا وفرنسا تسعيان جاهدتين لإحباطها بغرض المزيد من التدخل فى شئون مصر ، الأمر الذى رفضه القائمون على الثورة . ومن ثم تتحدى قوى الثورة وتشتعل النفوس ضد المعسكر المضاد ، وتنتصر ليتربع عرابى زعيم الثورة على قمة السلطة باختيار ورغبة قوى مصر جميعها وإصرارها ، لتمضى فى طريقها ، ويتأجج الموقف الذى بدأ بالاحتكاك بين السكندريين والأجانب ، وكانت له نتائجه على طرفى النزاع ، وينتهى الأمر بالعدوان الإنجليزى على مصر ، ويصبح على قوى الشعب أن تحارب فى أكثر من ميدان بعد أن صممت على تنفيذ برنامجها وتحقيق أهدافها ، وتم التكاتف والتعانق بين القوى ضد الأخطار القائمة ، وكانت المواجهة الحربية للغزو التى أثبت فيها العسكريون كفاءة وشجاعة شهد بها الإنجليز أنفسهم ، لكن

الخيانة لعبت دورها ، والنفوس الضعيفة للبعض خدمت الأعداء ، والمآخذ التى أخذت على قادة الثورة ، كل ذلك كان له دوره فى إجهاض الثورة .

وشكَّل الباب الثالث « القوى الخارجية والموقف من الأحداث الثورية » نموذجًا لتلك الأهمية التى أحدثتها الثورة المصرية فى الأرجاء الخارجية ، وكان لتحركات الدولة العثمانية الأثر الكبير فى حياة الثورة ، كما كان لقوى الثورة أسلوب تجاه الدولة صاحبة السلطة الشرعية على مصر ، ونظرة خاصة للحاكم الإسلامى ، وهذا خلق نوعية معينة للعلاقة التى نشأت بين الطرفين، وانتهت بأن أعلن السلطان عصيان عرابى . كذلك كانت هناك محاولات بذلها كل من حليم وإسماعيل من أجل عرش مصر ، واتخذت قوى مصر منها موقفًا ، فأحيانًا تؤيد الأول ، ودائمًا وأبدًا ترفض الثانى . وأخيرًا يأتى التأييد الخارجى للثورة المصرية ، إذ لقيت الموقف المشجع من المغرب العربى والسودان والشام والحجاز ، وعضدها العالم الإسلامى فى مقر الدولة العثمانية نفسها وغاليبولى وسالونيك ثم فى الهند التى مالت ناحيتها بدرجة كبيرة ، أما أوربا فقد تعاطف معها الأوربيون ، وشاركوا بمجهوداتهم ليس فقط على أرض مصر وإنما أيضًا خارجها ، فى إيطاليا وألمانيا والنمسا وروسيا وسويسرا وبلجيكا حتى فى فرنسا وبريطانيا ، وكثيرًا ما أشادت الصحافة الأوربية بالثورة وقائدها .

وركَّز الباب الرابع « القوى الاجتماعية وتناغم التلاحم الثورى » على ما قدمته كل قوة فى المجتمع ، وكيف أصبحت من الثورية التى جعلتها تشارك بكل كيانها فيها، الفلاحون الذين غدوا على درجة عالية من الوعى ، وقد كونوا ركيزة أساسية فى الثورة ، ولولا التضحيات التى قدمتها باقى قوى مصر من أجل الثورة ، لأمكن أن نطلق عليها « ثورة الفلاحين » نظرًا لشغلهم المكانة الوطيدة فيها ، حيث ذاقوا حلاوة الحرية على يدها ، بعد أن سمعت لهم ، وفتحت أحضانها للقائهم . ومن هنا جاء التنفيذ الثورى لإجراءاتهم سواء تجاه كبار الملاك أو الأجانب ، كما أدوا أروع أدوار التضحية فى الميدان الحربى عن طريق تقديم كل إمكاناتهم المادية ، وتطوعهم بنفس راضية وروح عالية .

كما أن ما قام به التجار والحرفيون من اندماج كلى داخل الثورة قد شكّل كيانًا له وزنه فى الميدان الثورى ، إذ كانوا معها قلبًا وقالبًا بتلك المجهودات المادية والمعنوية التى لم يبخلوا بها . أما الجناح المدنى من المثقفين فله الثقل الكبير فى الإعداد الثورى لقوى مصر والتشجيع على المضى والاستمرار ، وأسهم التيار الدينى بنصيب وافر ، ولقادة الطليعة الثورية المثقفة الأثر الكبير فى الفكر الثورى ، وعلى رأسهم محمد عبده وعبد الله النديم ، وقد لعبت الصحافة دورها لحماية أهداف الثورة ، وشُكِّلت الجمعيات التى ألقيت فيها الخطب أهمية بالغة ، إذ عُدَّت لقاءات سياسية بلورت الفكر الليبرالى . أيضًا عمل المبتعثون والموظفون على نصرة الثورة ، واستمر ملاك الأراضى - ما عدا قلة - فى تأييدهم للثورة ، وتفانوا من أجل المحافظة على المكاسب الثورية ، ووهبوا أنفسهم لخدمة العمل الثورى ، كذلك وضح الدور الإيجابى للعمد والمشايخ خلال تلك الفترة . ومن ثم أصبحت مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث وحدة متماسكة ، جمعت كل مصرى من الفلاح البسيط والصانع الأجير حتى صاحب الرتب الرفيعة للعمل المشترك على أرض الكفاح ، ومن هنا كانت الثورة العرابية ثورة شعبية طبيعية صادقة ، نطقت فيها كل قوة معبرة عن داخلها بطريقتها الخاصة .

وأخيرًا يأتى المشهد الأخير للثورة ، ليتمثل فى تلك المحاكمات التى عمدت إلى اجتثاث جذور الشعور الثورى من الأعماق ، ولكن كان من الصعب أن ينال شىء من ذلك الشعور المتأصل فى وجدان المصريين ، فبقى متحفزًا إلى أن هيأت له الظروف العمل الثورى مرة أخرى . وتنتهى صفحات الدراسة بتقويم للثورة العرابية .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

الإسكندرية

٦ مايو ٢٠٠٠

لطيفة محمد سالم

■ ● ■ ● ■

التمهـــــيد

مصر والتسلط الأجنبى (١٨٤٨ - ١٨٨١)

... جاءت معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وفرمان الباب العالى عام ١٨٤١ لكى يقضيا على تلك الانتصارات التى حققها محمد على ولتعود مصر إلى حدودها بعد انتصار السياسة الأوربية ، ولتبدأ فترة جديدة من تاريخها أصبحت فيها تحت الوصاية الدولية والرأسمالية والأوربية ، وساعد على تحقيق ذلك خلفاء محمد على وما هم إلا غرباء عن مصر اجتهدوا فى أن يحققوا مصالحهم الخاصة دون مصلحتها .

ومن المعروف أن المصالح الأوربية وجدت منذ القرن التاسع عشر على وجه الخصوص بسبب الثورة الصناعية ، فالدول الغربية تسعى للحصول على المواد الخام وعلى الأسواق وعلى توظيف رؤوس الأموال ، ومصر كانت المجال المناسب لذلك .

ووجدت المصالح الأوربية فى مصر منذ فترة مبكرة ، ومع محمد على بذل الرأسماليون الأجانب المساعى ، لكن محاولاتهم كانت محدودة ، ما لبث أن قضى عليها مع عباس الذى كان يكره النفوذ الأجنبى ، وبالرغم من ذلك تمكنت بريطانيا بدهائها أن تعالج تلك الشخصية القاسية ، وأن تتوغل فى أعماقها فتظفر فى النهاية بالحصول على مشروع السكة الحديدية بين الإسكندرية والسويس وتفوز بالقرب منه ، ومن هنا وضعت الرأسمالية الإنجليزية بصماتها على مالية مصر واقتصادها ، وأصبحت تتفوق على بقية الدول الأوربية بفضل الامتيازات التى حصلت عليها .

ومع سعيد انقلب الميزان لصالح الوجود الفرنسى خاصة والأوربى عامة ، وتوسع الرأسماليون الأجانب فى تصدير الأموال للسوق المصرية على شكل قروض لتنفيذ المشروعات ، واقتضى الأمر إقامة أول بنك على أرض مصر عام ١٨٥٦

واستتبع ذلك إنشاء الشركات ومنح امتيازاتها للأجانب ، وفازت فرنسا بامتياز قناة السويس ، وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية ، وتربعت على عرش الاقتصاد المصرى .

ووفد الأجانب على مصر على اختلاف جنسياتهم وتجمع أغلبهم صفات المغامرة والاحتيال ، وفتحت مصر أبوابها على مصراعيها أمام سيلهم المتدفق ونشأ ما سمى بالمصالح الأجنبية ، وألقى على مصر حماية هذه المصالح فى إطار نظام الإمتيازات الأجنبية الذى عانت منه الأمرين ، وأعطى الأجانب بسخاء على حساب المصريين .

ونجم عن الإمتيازات وجود سلطات متعددة لعدد كبير من القناصل قدر بسبعة عشر قنصلاً كل منهم الحاكم الفعلى لجاليته ، طبقوا قوانين مختلفة دائمًا وأبدًا تنصر رعاياهم وترعى مصالحهم . وشاع الفساد وانتشر على أرض مصر بفضل المحاكم القنصلية وانقلبت الأوضاع ، فبعد أن كانت الإمتيازات تعتبر منحة لحماية التجار الأوربيين أصبحت سلاحًا قويًا فى أيدى هؤلاء يستخدمونه لإذلال المصريين والسيطرة عليهم حتى هدموا أركان السلطة .

وصاحب النشاط الاقتصادى الأجنبى فى مصر نشاط ثقافى ، ففتحت الجاليات الأجنبية المدارس ، وقام التعليم الأجنبى فى مصر مستظلاً بالإمتيازات الأجنبية غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطان ولا ملتفت إلى حاجة الشعب ولا معنى إلا بنشر ثقافة البلاد التى جاء منها .

وكان محظورًا على الأجانب أن يمتلكوا الأراضى ، لكن مؤسس الأسرة الحاكمة أنعم عليهم بالأبعاديات ، وسمح سعيد لهم بشراء ما يريدونه من الأراضى ، ورخص لهم بإنشاء وابورات لحليج الأقطان فى هذه الأراضى . وهكذا امتلك الأجانب كل شىء وتمتعوا بتلك الأوضاع التى أعطتهم المزيد من السيطرة ، وقد كللت بالقروض ، ورحب بها حكام مصر وسعوا إليها .

وعقد سعيد أول قرض دولى فى تاريخ مصر ، فهو مبذر حتى فيما لا يمتلكه ، وأمام ذلك كان لابد من القروض وهى وسيلة حيوية للمال الأوربى فى الربح السريع. هذه القروض كان من ورائها أهداف سياسية ، إذ أن أصحاب البيوتات المالية بإيعاز من حكوماتهم كانوا يطلبون ويلحون فى السماح لهم بالإشراف على مالية البلاد

ضمانًا لقروضهم . ومضى سعيد فى هذا الطريق مؤيدًا ومشجعًا من فرنسا ، وارتفعت الفوائد وأعطيت الضمانات ودائمًا كانت إيرادات أراضى المديريات .

ويستلم إسماعيل الأمر ، ومصر محاطة بالديون ليستمر هو الآخر على الدرب نفسه ، وكان من الأسس التى اعتمد عليها فى برنامجه اللجوء والاستعانة بل والاعتماد الكامل على الرأسمالية الأجنبية التى راحت تتسابق خاصة بعد افتتاح قناة السويس رأس المصالح الاقتصادية والسياسية ، وبعد ذلك التغلغل لمظاهر الحياة الأوربية فى مصر ، وشهد حكم إسماعيل قمة النفوذ الرأسمالى الذى ظهر واضحًا فى تلك الشركات الزراعية والتجارية من ناحية وفى القروض من ناحية أخرى .

وكانت مهمة البيوتات المالية فى مصر تزويد أوربا بالخامات المصرية ، والتحكم فى زراعة المحاصيل وفقًا لحاجة أسواقها ، ووضح ذلك بالنسبة للقطن كمحصول نقدى ، وكثرت الشركات الإنجليزية ومنحت الإمتيازات الواسعة ، وتعانقت المصالح الإنجليزية والفرنسية ، وكان للنجاح السريع الذى أحرزه بنك « دى إيجبت » مشجعًا للدول على إنشاء البنوك الأجنبية ، كما أقيمت بنوك فردية ذات صلات وثيقة ببنوك لندن وباريس ، وراح التسلط البريطانى يطغى على مصر ودخل معه النفوذ الفرنسى ليشاركه بعد أن ثبت أقدامه بامتياز قناة السويس ، وبتلك المشروعات التجارية ، ولا ننسى أن إسماعيل نشأته باريسية ويميل إلى كل ما هو فرنسى ، وهذا ما دعاه أن يجعل لفرنسا المكانة الأولى فلغتها هى المستعملة ، وقانونها هو المرعى الإجراء ، وبذلك أصبح الجزء الأكبر من مصر واقعًا بين الأيدى الإنجليزية والفرنسية ، أما باقى الأجزاء فكان لبقية الدول بعد أن سيطر الأجانب على المجتمع المصرى سواء فى المدن أو الريف .

وازداد التمتع بالإمتيازات الأجنبية مع إسماعيل ، ولم تكن للأوربيين فقط فهناك شرقيون من شوام ويهود ، واستمر استغلال القناصل فى الحصول على المزيد من الطلبات ، وأغدق الخديو العطاء عليهم ، فمنحهم الأراضى والهبات ، وامتلأت صحافة الفترة بالإكراميات التى قدرت بآلاف الفدادين لهؤلاء الأجانب الذين لم يحمدوا تلك النعم ، وتمت على أيدى معظمهم حوادث الشغب التى كان لها الأثر

السيئ على المجتمع بكل قواه ، فقد خالفوا شريعة مصر وقوانينها وهددوا أمنها . وأمام ذلك كانت السلطات المصرية تقف مكتوفة الأيدى أمام سلطات القناصل . كل هذا على مسمع من إسماعيل وهو لا يتحرك ، وعندما أراد التحرك كانت النتيجة المحاكم المختلطة التى كانت لها هى الأخرى المساوئ .

وفقدت مصر كيانها بذلك النظام الدولى الذى أنشأه إسماعيل ، إذ حد من سيادة مصر فى التشريع والقضاء ، وأعطى الحقوق للأجانب وأجبر المصريون على الخضوع لتشريع وقضاء أجنبيين عنهم فى حقيقتهما ومظهرهما ولغتهما . وهكذا راح التسلل إلى السلطة القضائية ، وفُرضت المحاكم المختلطة على مصر تلك التى كانت لها سلطة أقوى من سلطة الحكومة بل وعليها .

لقد أراد إسماعيل أن يصلح الحال ويقضى على جبروت المحاكم القنصلية ، فرأى إنشاء المحاكم المختلطة للفصل فى الدعاوى المدنية والتجارية والجنائية ، وأعطى امتيازها لخمس عشرة دولة أوربية ، وحصلت على حقوق لم تكن فى معاهدات الإمتيازات نفسها ، وكان من أسوأ نتائج وجودها تشريع رهن الأراضى لضمان القروض ، ونزع ملكيتها فى حالة عدم الدفع .

وبذلك خضعت العدالة فى مصر لأوربيين من مختلف الجنسيات ، وكانت أحكام المحاكم المختلطة من أشد الضربات ، فقد أسرفت فيها ، وحكمت لصالح الأجانب من المقاولين والموردين والأفاقين المختلفى الملل ممن كانوا يطالبون بما ليس لهم حق فيه أو بأضعاف ما يستحقون . وهذا بطبيعة الحال أدى إلى تضخم الديون التى زادت من المتاعب ، وبهذه المحاكم أصبح المصريون أجانب فى بلدهم وعلى أرضهم ، والأجانب هم أصحاب المصالح الحقيقية فيها .

ومضى إسماعيل فى مسألة القروض ، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات فى عقدها ، فهى تعطيه الراحة النفسية التى تتفق مع أهوائه ، وكان من أدوات عظمته تلك المظاهر وذلك الإسراف الذى سهل له طريق البنوك ، واغترفت يداه من الخزانة، لا ليرضى نزعاته الشخصية فحسب بل ليشبع نهم الطامعين الملتفين حوله . فهو يعتقد أنه حاكم لبلد لم يعد جزءاً من أفريقيا بل هو قطعة من أوربا ، وبالإضافة إلى إسرافه الذى كشفته لجنة التحقيق عام ١٨٧٨ ، فهناك حبه للتوسع فى أملاكه

الخاصة من الأراضى ، كما جاءت رغبته فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ليبذل الكثير والمزيد من الأموال ، فداخليته كانت تتوق إلى ذلك ، فأعطى الذهب حتى يشترى الفرمانات التى تهيئ له ما يريد ، وكان آخرها الفرمان الشامل لعام ١٨٧٣ الذى أطلق يده فى شئون مصر . هذا وقد تأثرت السوق المصرية بالتغيير الفجائى لأسعار القطن ، فانخفضت أسعاره عقب نهاية الحرب الأمريكية . فكان كل ذلك فرصة لأصحاب رؤوس الأموال الأجنبية لتمويل الخزينة المصرية . وارتمى إسماعيل فى أحضان القروض ، وكان على هذه البيوتات المالية التى صارت لها الكلمة الأولى فى سياسات الحكومات أن تقدم القروض أمثال « أوبنهايم ، أرلانجر ، فرهلن ، جوشن » وتستحوذ على أعلى الفوائد ، وكانت جميع عملياتها وأرباحها التى يحصلون عليها مؤيدة من دولها ، وأصبح لبريطانيا النصيب الوافر من تلك القروض .

وهكذا نمت سياسة التوسع فى القروض ، وازدهرت تبعًا لذلك سياسة الاستثمار المالى المصرفى فى شكل الرهونات على الأراضى التى شكلت خطرًا كبيرًا على مصر ، وأصبحت الإسكندرية مأوى للمرابين الذين تنافسوا على أن يقدموا عروضًا سخية يحققون من وراءها الثروات الضخمة وازدادت الديون ، وأخذت البنوك الإنجليزية والفرنسية تزين لإسماعيل طريق الاستدانة ، واستمر هو يمد يده ويأخذ وبشروط عجيبة لم تحدث فى تاريخ أية دولة ، واشتملت القروض على تسعة وكان أولها فى نهاية ١٨٦٤ وآخرها فى عام ١٨٧٨ وارتفعت أسعار فوائدها فعجزت مصر عن السداد حتى بعد أن باعت نصيبها فى أسهم قناة السويس والذى التهمته بريطانيا بأزهد الأسعار .

وأمام ذلك ، فلابد للمزيد من التدخل الأجنبى ، وهنا كان الإشراف الأوربى ، وهو بداية الخطوات للزحف السياسى والتدخل السافر خاصة بعد الإرتباك المالى واهتزاز ثقة البيوتات المالية فى مقدرة مصر على سداد الديون . ورغبة فى بث الطمأنينة طلب إسماعيل من بريطانيا أن ترسل إليه موظفًا ماليًا كفئًا لدراسة حالة مصر المالية وإصلاح ما بها من خلل ، وجاءت « لجنة كيف » الإنجليزية ، واقترحت الإصلاح بأن تخضع مصر للمشورة الأوربية ، هذا فى الوقت الذى أرسلت فيه

فرنسا أحد موظفيها ليعاون إسماعيل فى تنظيم ماليته ، هادفة ألا تنفرد بريطانيا بمصر .

واستمر إسماعيل فى سياسة التهدئة ، فوحد الديون وقرر إنشاء إدارة خاصة للدين - صندوق الدين - عين فيها موظفين أجانب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، كان لهم السلطة الكاملة فى التصرف ، ولم تكن بريطانيا راضية عن هذا الوضع الذى أشرك غيرها معها فى مسائل تريد الانفراد بها ، فرغبتها ألا ترى سلطة إلا سلطتها ، فراحت تمارس ضغطها الذى كان من نتيجته « لجنة جوشن وجوبير » وذلك لإجراء دراسة دقيقة عن الحالة ، وفرضت المراقبة الإنجليزية الفرنسية على المالية المصرية، وغدت مصر ، كأنها تحت الحكم الثنائى الذى طرق باب الممارسة السياسية ، وأسست لجنة تحقيق أوربية لصالح حملة السندات ، وعلى يدها كان لابد من ممارسة الضغط الكامل على شعب مصر . وفيها سعى العضو الإنجليزى لإحلال نظام يكون بديلاً عن المراقبة ، ويحد من سلطة إسماعيل بل وينهيها ، ألا وهو تأليف وزارة مسئولة يكون لبريطانيا وفرنسا نصيب الإشتراك فيها ، وتم له كا أراد ، وخضعت مصر لنظارة أوربية رأسها نوبار الأرمنى وتحكم فيها ناظر المالية الإنجليزى وناظر الأشغال العمومية الفرنسى .

وبذلك أُنزل الخديو من على عرشة فعليا ولكنه بقى اسميا ، فلابد له من أن ينقذ موقفه ويعيد السلطة التى سلبت منه خاصة وأن قوى الشعب كانت تعانى تحت حكم تلك النظارة ، وتم التعاون بينه وبين الحركة الوطنية وسقطت النظارة ، لكن تكونت غيرها بنفس الوضع بناء على إصرار بريطانيا وفرنسا ، وعارضت الجبهة الوطنية ، ومضى الزحف الثورى واشتعل مجلس شورى النواب وقدمت « اللائحة » تلك التى قبلها إسماعيل على الفور وأقصى النظارة ، وسقط الناظران الأجنبيان ، وكلف شريف بتشكيل نظارة وطنية ، وراح يعد الدستور الجديد . وكان لابد من بريطانيا وفرنسا من الوقوف أمام ذلك الخطر الذى يهدد مصالحهما فتم الإتفاق مع الدول وتحققت رغبتهما بعزل إسماعيل وتعيين توفيق الممثل الشرعى لسياستهما ، والذى أدرك منذ اللحظة الأولى أنه مدين بعرشه إليهما .

واستقالت نظارة شريف بعد أن رفض توفيق الدستور ، وتم إسناد النظارة إلى رياض ، وعادت سلطة المراقبين مرة أخرى ليكونا مع رياض ثلاثيًا أوتقراطيًا له النفوذ المطلق على أرض مصر جميعها ، فمضت إجراءاتهم غير المحدودة ، وملكوا السلطة فاستولوا على كل شيء حتى حصة مصر فى الأرباح السنوية لشركة قناة السويس بيعت وانتهى ما كان يربط مصر بها ، وصدر قانون التصفية بناء على توصية لجنة التصفية التى تكونت من أعضاء أوربيون لإعادة تنظيم الديون ، وتبعًا لذلك القانون وضعت مصالح الدائنين فى المرتبة الأولى ، وعانت مصر وزادت الأعباء المالية على الشعب الذى تحول إلى حطام والتف حول عنقه حبل الديون .

وبعد ذلك الانتصار المالى والسياسى الذى أحرزته بريطانيا وفرنسا مضى المزيد من استغلال الأجانب ، فازدادت الاستثمارات المالية ، وصدرت أوامر توفيق المتلاحقة بالموافقة على تكوين شركات أجنبية ، وتابع النفوذ الأجنبى سيطرته فى شكل بنوك لم تعد قاصرة على القاهرة والإسكندرية بل زحفت إلى عواصم المديريات ، وانتشر المستوردون للعملات المزورة والمرابون والمستغلون من السماسرة الأجانب ، وصدرت أحكام المختلطة لصالحهم . وأمام كل ذلك كانت مصر ضعيفة فاقدة لكل شيء ، سلبت منها السلطات جميعها ليتولاها الأجانب بأنواعهم ، وما عليها إلا أن تتحمل المزيد من الأثقال لتئن قواها بهذه الأعباء ، وليزداد سخطها بتلك التبعات ليتجمع ذلك كله فى بوتقة واحدة هى الثورة .

اشتركت قوى مصر الاجتماعية فى الثورة ، ومن خلال ذلك كان الحكم على العمل الثورى من حيث تأثيره على القوى الأساسية فى المجتمع ، والذى أعطاها دفعة للمطالبة بالرغبة فى إيجاد حياة أفضل تسودها العدالة التى لا تتحقق إلا بتغير جذرى يشمل الشكل السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

ومن هنا كانت الثورة العرابية بمثابة الضرورة الاجتماعية أو الأمر الطبيعى الذى فرضته الظروف التى مر بها المجتمع من الإنحراف والظلم واستغلال الأقلية المحدودة للأكثرية الساحقة وتداخل الأجانب تداخلاً شل معانى القومية ، وقضى

على القيم ، واحتكر الاقتصاد وتغلغل فى السياسة ، فكان لابد من دفع هذا الجور الذى لا حدود لسلطانه ، ففرضت الثورة على مصر لتكون حركة شاملة تهدف تغييرًا أساسيًا فى كيان وتركيب وأيديولوجية المجتمع ، فهى شاملة ، عميقة ، عامة ، لا تحفل بالأشياء السطحية بقدر ما ركزت جهودها على أساسيات المجتمع وركائزه .

■ ● ■ ● ■



القوى الاجتماعية في مرحلة التكوين الثوري

الفصل الأول

الفلاحون .

الفصل الثاني

التجار والحرفيون .

الفصل الثالث

المثقفون :

(أ) الجناح المدني .

(ب) الجناح العسكري .

الفصل الرابع

ملاك الأراضي .

الفصل الأول

الفلاحون

... مصر تلك الأرض الطيبة التى عاش عليها أبناؤها منذ آلاف السنين ، جرى فيها النيل ليطبعها بذلك الطابع الذى تميزت به فى التاريخ ، وليجعلها خضراء بفضل تلك الأيادى الطاهرة التى تعمل فى صمت من أجل مصر .

والفلاحون هم سكان مصر حيث إنهم إذا قيسوا بالقوى الأخرى كانت لهم الغلبة ، فعدد زراع مصر فى عام ١٨٨٢ كان ٤,١١٩,٦٧١ نفسًا من عدد السكان البالغ ٦,٨١٢,٩١٩ نفسًا(*) فمصر بلد زراعى إيرادها أرضها وهذه نتيجة طبيعية لما تتمتع به من خصب تربة واعتدال مناخ وليونة سطح ، من هنا نصل إلى إمكانية إطلاق لفظ الأهالى على هؤلاء الفلاحين .

والحياة المصرية تعتمد أساسًا على الأرض والفلاح ، ذلك الفلاح الذى غرس نفسه فى تربة وطنه فزاد من خصوبتها حتى ليصح أن يقال إن مصر هبة الفلاح كما أنه هبة النيل . والفلاح رجل قوى البناء شديد الأواصر صلب العود ، يتحمل الصبر ويعمل ليلاً ونهارًا ، يقاسى لهيب حر الصيف تحت وهج الشمس وزمهرير البرد فى الشتاء ، وهو يمثل البيئة المصرية الحقيقية التى تشخص الأمة المصرية من حيث العادات والتقاليد والصفات الاجتماعية والعنصرية ، أليس أبناؤه هم الضباط والعلماء والقضاة ، هذه الفئات النابعة من الريف والتى شكلت عناصر الأمة .

(*) يوسف نحاس ، الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية ، ص ص ٦٩ ، ١٠٤ .

الفلاحون وعميد الأسرة

بمجيء محمد على إلى مصر ، وتوليته الحكم (١٨٠٥-١٨٤٨) رأى أن يملك أرض مصر وما عليها ، فقد اعتبر أن الأراضى ملك للحكومة مدعيًا التسلط عليها لأنه الحاكم النائب عن السلطان العثمانى ، فقام بانتزاع الأراضى وتحولت مصر تقريبًا إلى مزرعة حكومية كبيرة . ووزع منفعتها على الفلاحين كأطيان مؤجرة ، وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أو أربعة أو خمسة أفدنة ، وذلك بعد أن ألغى نظام الالتزام الذى كان سائدًا قبله ، فآلت حقوق الملتزمين وسلطتهم إلى الحكومة التى صارت علاقاتها مباشرة مع الفلاحين الذين أصبحوا ينتفعون بالأرض ماداموا يدفعون ضريبتها[١] ، وأخضع الفلاحين لنظام أصبحوا بموجبه تحت رحمته ، وغدا هو سيدهم الأعلى ، هدفه الوحيد تنمية الثروة وتوسيعها على حسابهم ، وهنا تحول الفلاح إلى وضع شبيه بوضع القن ، وذلك فى ظل نظام الاحتكار ، فقد كان يبذر ما يؤمر به فى الوقت الذى يحدد له ، ثم يقدم ما يحصده إلى الحكومة ، ولم يكن فى استطاعته أن يبيع محصوله ، ولكنه كان يجبر على تقديمه للدولة وبالأسعار التى تقرر وغالبًا لا تغطى ما يفرض عليه من ضرائب[٢] .

ولم يكن من الممكن بيع الأرض أو رهنها أو وراثتها شرعيًا ، وكان للدولة الحق الذى كثيرًا ما كانت تمارسه فى نزع الأرض دون تعويض ، وبذلك ساءت حالة الفلاح، فلم يكن له الحق فى تلك الأرض التى يزرعها ، إنما هى ملك للحاكم والباشوات الأتراك .

أما عن الضرائب فقد وصلت إلى أقصى حد حتى أنه أصبح من العسير على الفلاحين أن يمدوا أنفسهم بضروريات الوجود ، وإذا تأخروا عن آداء الضريبة نزعت الأرض من تحت أيديهم وأعطيت لفلاحين آخرين ، وإذا استطاع الفلاح عن طريق التحايل أو المهارة أو القوة الإنسانية الخارقة فى الاقتصاد أو أى شىء آخر أن ينجح فى تسليم كميات زائدة كانوا لا يدفعون له نقدًا ، ولكن بالأجل مقابل الضرائب المستقبلة ، وقد طبق محمد على المسئولية الجماعية فى مسألة الضرائب وكانت هذه الطريقة منافية للمبادئ الاقتصادية ، وقد تحملت القرى أثقالاً باهظة ، وتعذر على أخصب الجهات تسديد الأموال المتراكمة عليها . وبالرغم من مشروعات

(١) أحمد زكى بدوى ، تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٢٢٣ .

(٢) لاندز ، دافيد ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس ، ص ٧١ .

محمد على الخاصة بالرى ، فإن استفادة الفلاح منها لم تعوض تلك الضرائب التى ارتفعت بسببها .

أضف إلى ذلك السياسة العسكرية التى انتهجها الحاكم ، فقد كان الفلاح يجبر على التجنيد ويترك أرضه ويرحل ، وأمام هذه الظروف القاسية التى تعانقت حول الفلاح كان عليه أن يترجم ذلك الضيق بطريقة عملية فقد ترك الأرض ورحل بعيداً فى هدوء ، وعندما كان يضيق به الأمر ، كانت النتيجة إحراق وتخريب المحاصيل ، وهذا مما أدى إلى صدور « لائحة الفلاحين » التى توقع أقصى العقوبة لذلك ، ثم تلك الانتفاضات التى قام بها الفلاحون وتمكن محمد على من إخمادها . وكثيراً ما كان يهمل الفلاحون زراعة الأرض إحساساً منهم بأن ما تغله ليس لهم ، إنما هو لغيرهم .

الفلاحون وحتى بداية حكم إسماعيل

رغم أن فترة حكم إبراهيم كانت أشهراً قليلة (١٨٤٨) ، فإنها تركت بصماتها السيئة على الفلاحين الذى أساء معاملتهم ونكل بهم . أما عباس (١٨٤٨-١٨٥٤) فقد استطاع أن يخفف العبء المالى عليهم ، وأن يعيد عشرات الألوف من الرجال إلى الأرض ، كما سمح لهم بالتصرف بالبيع فى منتجات الأرض - خاصة الأرز - كما يشاءون على شرط أن يتعهدوا بتسديد الأموال المطلوبة منهم نقداً ، وفى بعض الأحيان كانت الضرائب تسدد عيناً « بقبول القطن للميرى »[١] .

وفى عهده استمرت السخرة ، وكثيراً ما كان الفلاحون يتركون أراضيهم وزراعتهم للعمل فى مناطق بعيدة عنها ، فتأخرت عليهم الضرائب ، لذا رأت الحكومة أن تجعلهم يستغلون الأرض ، بينما ترسل إلى تلك الأعمال من « لا يملكون أطياناً »[٢] ، ليقع العبء على المعدمين الفقراء كما هو المعتاد دائماً .

وجاء سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣) ليكون له الفضل فى تحويل الزراعة من الشكل الحكومى إلى الزراعة الحرة نسبياً ، ومن نظام السوق المقفلة إلى نظام السوق المفتوحة للقطن ، حيث كان فى ذلك الوقت قد ازداد الطلب على القطن المصرى من أسواق أوربا ، ومن ثم لابد من التوسع فى زراعته ، وفى الحقيقة فإن ولاية سعيد

---

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، الفلاح ، دفتر ٤٦٦ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٦٩ ، رقم ٣٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، رقم ٢٠٩ .

تعتبر نقطة مهمة فى تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى ، إذ أنها أعطت التكوين الكامل والموقف المحدد للفلاحين ، فقد كان نظامه الذى وضعه للأراضى ثورة اجتماعية .

كانت باكورة أعماله إلغاء الاحتكار نهائيًا ، فأصبح الفلاح غير مرغم على زراعة الأصناف التى تعينها الحكومة ، وبالرغم مما قدمه فى اللوائح التى أصدرها بشأن الملكية الزراعية ، فإنه صرح فى عام ١٨٥٥ لمن يشاء من الفلاحين أن يترك أطيانه الخراجية ، إذا كان غير قادر على زراعتها ودفع أموالها ، فترك الكثيرون أراضيهم للحكومة ، وقد بلغ ما ترك فى مديريتى الشرقية والدقهلية وحدهما ٤٦,٨٦٦ فدانًا وهى الأطيان التى عرفت باسم « متروك » وكان نتيجة ذلك انتقال جزء كبير من أراضى الفلاحين إلى كبار الملاك[١] .

وفى عام ١٨٥٦ رفع سعيد الضريبة على الأراضى الخراجية المتوسطة والقليلة الجودة من الربع إلى الثلث ، وهذا أيضًا دفع الفلاحين لترك أراضيهم[٢] ، واستمرت السخرة مع سعيد .

أما عن العلاقة بين سعيد والضرائب ، فقد أصبحت تقضى نقدًا لا عينًا ، ولكن أعطيت التسهيلات بأنه من الممكن فى بعض الحالات وعند الضرورة إذا تعذر النقد تُقبل العينية وخاصة القطن ، كذلك رأى أ ن توزع الضرائب على الأفراد لا على القرى ، وأن يقوم بتحصيلها الصيارفة المخصصون لها لا مشايخ البلاد ، وتنازل عن جميع متأخرات الأموال المطلوبة من الفلاحين ، أيضًا عدلت أوقات جمع الضرائب ، فأصبحت تتناسب مع موسم حصاد المحاصيل ، كما حددت قيمة الضرائب نفسها وقيدت فى سجلات خاصة[٣] .

ويعتبر عهد سعيد هو فترة التعاطف مع الفلاح ، حيث إنه قد أغلظ مع كبار الملاك الذين فرض على أراضيهم ضريبة العشر بعد أن كانت معفاة من الضرائب ، كما حرم على مشايخ القرى إرغام الفلاحين على العمل دون أجر أو تعويض ، وفى عام ١٨٦١ أمر بشنق أحد المشايخ فى منوف بسبب ممارسة الظلم والطغيان على الفلاحين[٤] .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٣٠ ، تراجم عباس وسعيد وإسماعيل .

(٢) Bear , A History of Landownership in Modern Egypt 1880 - 1950 , P. 30 .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٦ ، رقم ١٤٧ .

(٤) بير ، ج ، دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال ، ص ١٢٣ .

وكانت الخدمة العسكرية لا تتجاوز طبقة الفلاحين ، فجعلها سعيد إجبارية فى كل الطبقات ، وسن لها نظامًا للاقتراع يدعى بموجبه جميع المصريين بلا فارق بينهم إلى حمل السلاح .

ومنذ أن وجدت الملكية الفردية مع سعيد ، أصبح هناك فلاحون من متوسطى الملاك يعيشون من ريع أطيانهم ويزرعونها بأنفسهم ، وكانوا أصغر من صغار الملاك بالنسبة للمكانة الاجتماعية ، وقد استطاعوا أن يوسعوا فى بعض الأحيان من أملاكهم عن طريق مشتروات الأراضى من الميرى(*) ، أيضًا هناك أصحاب الملكيات الصغيرة - صغار الملاك - الذين يزرعون أراضيهم وأحيانًا لا تكفيهم ، فيعملون لدى كبار الملاك ، وأخيرًا نجد من لا يمتلكون شيئًا ، وكانوا السواد الأعظم ، وهما ثلاثة أنواع، يقومون على الدوام فى أراضى الملاك ليزرعوها ، ويكدون كدهم اليومى بأجور مختلفة .

النوع الأول يتمثل فى العمل لقاء الربع أو الخمس أو السدس من جميع حاصلات الأرض وفقًا لخصوبتها . ومتوسط هذه الحصة يرجع إلى نحو ثمانية جنيهات فيما عدا القطن الذى يستولى عليه صاحب الأرض ليبيعه بالأثمان التى يراها . ويكون الفلاح فى حالة سلف مستمرة من صاحب الأرض فيخصم نصيبه من ريع القطن . وحتى ما يأخذه من أصناف عينية كان صاحب الأرض هو الذى يقدر ثمنها كما يشاء ، ويتحمل الفلاح ما ينفق على الأفراد الذين يستخدمون لمساعدته خصوصًا عند جنى القطن . ويشبه هذا النظام إلى حد كبير نظام الأقنان الذين هم مسخرون لصاحب الضيعة ، لا يملكون من أنفسهم شيئًا بل هم وأزواجهم وأولادهم خدم عنه صاحب الأرض .

والنوع الثانى يتمثل فى العمل باليومية ، فالمقيمون بأراضى كبار الملاك والذين تستأجر كل عائلة منهم عددًا من الأفدنة ، عليها أن تضع تحت تصرف صاحب الأرض عددًا معينًا من العمال الزراعيين يستخدمهم فى أرضه ، ولهم أجر يومى يتراوح بين قرشين أو ثلاثة قروش تخصم من الإيجار المطلوب للمالك ومن الديون التى تكون على العائلة ، وكثيرًا ما كان الملاك يتحكمون فيهم ، وذلك عن طريق الخصم من يومياتهم ، وهذا يعطى إحساسًا للمالك بذل العامل ، وأنه لايشاركه فى محصولات أرضه فيصبح الآمر الناهى عليه .

(*) على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ - ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية ، ص ١٤٦ .

والنوع الثالث يتمثل فى عمال التراحيل المعذبين فى الأرض ، الذين يعانون الجوع والفقر ، وهم أتعس الفئات دائرون للبحث عن عمل ، أجورهم زهيدة جدًا ، وفى الوقت نفسه ملزمون بإحضار طعامهم معهم ، ويكثر هذا النوع فى الوجه القبلى، حيث تقل زراعة القطن ، وأيضًا المساحات الزراعية ، وحالتهم هى أسوأ الحالات يتألمون طوال مدة العطلة ، وهذا يجلب عليهم المضار فتتخفض أجورهم ، كما كانوا يتعرضون للضرائب التى تبلغ قيمتها من « عشرة أيام إلى خمسة وعشرين يومًا كل عام »[1] .

السياسة الضريبية ودمار الفلاحين إلى قيام الثورة

بديهى جدًا أنه عندما يذكر اسم إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) يقترن فورًا بالأموال ، تلك التى كان على شعب مصر أن يقدمها بمختلف الطرق ، والتى تمثلت فى الضرائب ، وقد اجتمع أكثر من سبب ليؤدى إلى هذا الوضع الضريبى الذى قاست منه مصر أثناء هذه الفترة ، وقد ارتبط بشخصية إسماعيل والمحيطين به والتغلغل الأوربى الذى نخر فى مصر .

كان أساس الدخل فى مصر هو الضريبة العقارية ، فالأراضى تنقسم إلى خراجية وهى التى يدفع عنها ضريبة الميرى كاملة ، وأراضى عشورية ويدفع عنها ضريبة مخفضة إلى الثلث ، وفى خلال عهد إسماعيل ، كان هناك ٤,٨ ملايين من الأفدنة من الأراضى الخراجية ، ١,٢٥ مليون من الأراضى العشورية ، وقد زاد الميرى المفروض على كلا النوعين من الأراضى فى بداية عهد إسماعيل بنسبة ٢٥٪ ، وكان متوسط الضريبة في نهاية عهده يبلغ ١,٢ جنيهًا إنجليزيًا على الصنف الأول ، ٠,٣٧ من الجنيه الإنجليزى على الصنف الثانى ، والدخل الذى يدره الميري سنويًا يقدر بـ ٤,٥ ملايين من الجنيهات المصرية[2] . ولم يكن هذا كافيًا لسد متطلبات الحاكم حتى بعد أن كان يجمع لمدة أعوام قادمة ، لذا فلا بد من زيادة الإيراد عن طريق رفع ضريبة الأرض ، واستعمال كافة الضغوط لتحصيلها ، بل وخلق ضرائب جديدة ، كل هذا من أجل مصلحة الحاكم لخدمة الديون وفوائدها ، وبذلك لم تكن هناك قاعدة معينة تسير عليها الضرائب .

---

(١) يوسف نحاس ، المرجع المذكور ، ص ص ١٠٨ ، ١١٤ ، ٢١١ ، فارمان ، مصر وكيف غدر بها ترجمة عبد الفتاح عنايت ، ص ٣٢ .

(٢) مارلو ، جون ، تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ١٧٩٨ - ١٨٨٢ ترجمة عبد العظيم رمضان ، ص ٢٣٩ .

وجاء المفتش الوزير المالى لإسماعيل لكى يساهم مساهمة فعالة فى تحطيم الفلاحين ، فهو صاحب تلك السياسة الضريبية الفادحة التى صنعها لتعذيب أهل مصر من أجل مصلحة سيده ومصلحته هو الآخر .

بدأ بواكير أعماله بزيادة الضرائب على الأراضى الخراجية والعشورية بنسبة السدس وتحصيلها لمدة أربع سنوات متوالية ، كما فرض ضريبة على الرى بلغت قيمتها ١٠٪ من الميرى المفروض ، ثم ضريبة دمغة مقابل الورد الذى تعطيه الحكومة كل سنة ، وضريبة دفاع على كل فدان ، ولم يكن هناك عدالة فى التوزيع بين الأراضى الخراجية والعشورية ، ومعروف أن الأولى خاصة بالكثير والثانية خاصة بالقليل ، ففى عام ١٨٧٧ بلغ مجموع الضرائب الخراجية ٣,١٤٣,٠٠٠ جنيه أى تسعة أضعاف المتحصلة من العشورية بالرغم من أن مساحة الخراجية لا تزيد علي العشورية إلا ٢,٦ مرة ، ومضى الارتفاع حتى وصلت الضريبة الخراجية إلى ٢٠٠ قرش بينما كان متوسط العشورية ٣٠ قرشًا[١] .

ونُفِّذ قانون المقابلة على يديه ليكون شكلى المظهر واقعى الفعل ، بل وأصبح إجباريًا ، فمالك الأرض إذا دفع الضريبة السنوية مضافًا إليها ستة أمثالها دفعة واحدة أو على ستة أقساط على الأكثر له فوائد ٥,٨٪ على المبالغ التى يدفعها مقدمًا، وبذلك يخفض له نصف الضريبة السنوية إلى الأبد ، وقد ثبّت ذلك حقوق الملكية الفردية ، وفيما بعد اعتبر قرضًا من الأهالى وصار توقيف خصم الامتياز[٢] .

وكانت ضريبة الملح عبئًا جسيمًا وعانت منها الأمة ، إذ احتسبت كمية الملح التى تستهلكها كل قرية على حسب تعداد سكانها وتحصل ضرائبها ، فأصبحت إلزامية ونتج عن ذلك « تسحب وتشتت الأهالى من بلاد إلى بلاد للتخلص من هذه الورطات التي منها تكاثرت البقايا عليهم واضمحلت أحوالهم »[٣] .

وزاد على ذلك ضريبة الرأس ، تلك التى أجبر الفلاحون على دفعها ، وحتى من لا حرفة ولا مهنة له ، مورس الضغط عليه حتى دفعها ، كما فرضت الضريبة الشخصية عام ١٨٧٥ وهى من أشد الضرائب ظلمًا وأقلها عدلاً ، وفرضت لمدة أربع سنوات مؤخرًا ، ودافعها يدفع أيضًا ضريبة الويركو - الفردة - وهى لا يطالب بها

(١) Cromer, The Earl of , Modern Egypt, Vo. I, pp. 144, 145.

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ٢٦ محرم ١٢٩٦ (٢ فبراير ١٨٧٩)، ص٥٧.

(٣) المصدر نفسه ، محضر ١١ صفر ١٢٩٦ (٢٣ فبراير ١٨٧٩) ، ص ص ٦٣-٦٦ .

فقط كل ذى حرفة من دافعى العوائد بل تلقى على كل من لا يستطيع أن يبرهن على دخل عقارى بأن يبدى حجة ملك ، وتراوحت بين ٥٠، ٧٥ قرشًا[١] ، أما ضريبة الدخول فكانت تقام على حدود كل مدينة . وجميع ما يدخل في هذه الحدود ، تؤخذ عنه رسوم ، وبالرغم من دفعها ، فلم يكن يسلم الأمر من الاستمرار فى الدفع لنفس السلعة « فإذا بيع الخروف فى البندر بمائة قرش دارجة يؤخذ عليها أولاً خمسة قروش صاغ ، ثم عشرة رسم دخولية ، ثم خمسة عوايد ذبيح ، ثم قرش ونصف رسم قبالة ، وثمن علف ، جملة ذلك واحد وعشرون قرشًا ونصف قرش صاغ تساوى ثلاثة وأربعون دارجة وهى تقارب ثمن الخروف هذا فضلاً عما يدفعه صاحب الخروف لخدمة الملتزم بدعوى سمسرة »[٢] . كذلك أوجدت ضرائب من لا شئ لمجرد الظلم والعدوان ، وخضع النخيل للضريبة أيضًا ، فكل نخلة عليها عشرة قروش سنويًا وحتى ذلك النخيل الذى لا يطرح ، فمقررة عليه الرسوم كما تؤخذ ضرائب على السعف والأفرع والليف والخوص ، أى أنه كان يفرض « ست ضرائب على النخلة خلاف التى تؤخذ على نتاجها »[٣] . وفرضت على الفلاحين ضرائب الطرق ، كما اختلقت ضريبة الوطن وضرائب أخرى ليس لها اسم ولكن لمجرد الحاجة للمال ، وبإقرار الجميع من الذين أرّخوا لتلك الفترة وخاصة من الإنجليز ، أنه لا يوجد شعب علي الأرض تحمل ما تحمله شعب مصر في ظل ذلك الإسراف من الظلم على يد إسماعيل .

ولم تكن يد إسماعيل فقط ، بل أيضًا المراقبة التي قامت بالتزاماتها خير قيام نحو دفع الكوبونات حتى كانت تدفع قبل أن تحل آجالها ، وفى فترة بسيطة تمكنت من تحصيل ضرائب قدرت حصيلتها بمبلغ ١٠,٦٠٠,٠٠٠ جنيه[٤] . ورأت الإدارة الأوربية أن تقرب ميعاد استحقاق فوائد الدين الموحد من فوائد الدين الممتاز ، فبدلاً من تأخيرها إلى ما بعد مواسم الحصاد ، جعلتها فى أول مايو وأول نوفمبر ، وبذلك أصبحت أوقات دفع الكوبون لا تتفق مع أوقات الحصاد ، وكان لهذا أبلغ الآثار السيئة . وجاءت النظارة الأوربية الأولى لتمضى رحلة العذاب الطويلة للفلاحين ، وعلى كل محطة القسوة والبؤس والفقر والظلم ، تجمع ذلك كله فى إطار موحد كانت منه الضرائب ، فقد فرضت ضرائب جديدة وزادت من الضرائب القديمة ، وأصبح هناك إدراك عام حيث ظهر الاستياء على الجميع ، بعد ذلك

---

(١) الوقت ، عدد ٧٧٩ فى ٢١ يناير ١٨٨٠ . (٢) التجارة ، عدد ١٣٩في ٣٠ نوفمبر ١٨٧٨ .

(٣) الوطن ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٤) Hansard's Parliamentary Dabates , Commons, Vol. CCLIII, August 4, 1882, p. 1691.

الإحساس الذى سيطر عليهم من أن مصر مدارة بالأجانب ، وهذه المعاناة التى عاشها فلاحو مصر كانت لها الأصداء خارج أرض مصر ، فنرى صحيفة السلام التركية تقول « إن العرب من فلاحى مصر المنكود حظهم قد سلب منهم كل شىء حتى لم يبق عليهم سوى جلودهم »(١) .

وعندما ذهبت النظارة الأوربية وجاءت نظارة شريف ، استمر الأمر ولم ينقطع، فشاهين باشا وعمر لطفى باشا من أصحاب السمعة فى ابتزاز أموال الفلاحين ، ومشهوران بتلك القسوة الزائدة ، فذهب الأول إلى البحيرة والثانى تنقل بين المديريات ، وذلك لتعجيل تحصيل الضرائب لأجل استحقاق مايو ، وكان المبلغ المطلوب مليونًا ونصف مليون جنيه ، ففرضا على كل بقعة بأن تؤدى فى الحال المبلغ المطلوب منها(٢) .

القائمون على الضرائب والفلاحون

كان الجهاز الإدارى الذى أخذ على عاتقه تكثيف قواه من أجل المزيد من الأموال جهازًا فاسدًا يعمل ليفيد ويستفيد ، يفيد الحاكم ومن حوله ومدينيه ، ويستفيد لصالحه على حساب ذلك ، والذى يدفع ويتحمل ذلك الفلاح المطحون والمحاط بأسوأ الظروف .

وبيعت الوظائف فى ذلك الجهاز على أساس أن من يتولاها سوف يعوض ويرتفع إلى أعلى درجات الثراء ، فمدير المديرية يدفع ألف جنيه ، ووكيلها من أربعمائة إلى خمسمائة جنيه ، ومحصل الضرائب الرئيسى أربعمائة جنيه ، وناظر القسم من مائة جنيه إلى مائة وخمسين جنيهًا ومحصل الحى مائة جنيه(٣) .

وأصبح يكفى أن يحتاج الخديو أو الحكومة إلى مبلغ معين ، فتصدر الأوامر ، وهنا تتحرك السلسلة المعهودة لتصل إلى الفريسة فى النهاية لتبدأ المأساة مع الفلاحين « فالمأمور دائر فى البلاد بالعدة ورجال السوء المستعدة لضرب النساء والرجال والخدم والعيال لا يعرف من العربى إلا إرم الأرض ، فالضرب عندهم هو الغرض ، والرحيم هو من يقول اضرب على رأسه واكتم على أنفاسه ولا تسمع من كل متعوس إلا هات الفلوس »(٤) . وكان هؤلاء يطبقون أبشع طرق الاستغلال ، وجاء

---

(١) السلام عدد ١ فى ٢٤ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) صدى الأهرام ، العددان ٦٠٤ ، ٦٠٥ فى ١٢، ١٥ أبريل ١٨٧٩ .

(٣) Blue Books , Egypt, No. 1, (1880), Inclosure I, No. 31, April 1879, p. 22.

(٤) عبد الله النديم ، مذكرات جمعها محمد خلف الله أحمد تحت عنوان عبدا الله النديم ومذكراته السياسية ، ص ١٥ .

فى التقرير التمهيدى الذى وضعه بارنج وكرامر فى ٦ أغسطس ١٨٧٨ ما يفيد : «ينفذ الشيخ أوامر المدير ، والمدير أوامر المفتش العام ، والمفتش العام أمر من له السلطة العليا وأمره هو القانون ، يمتثل له رجال الحكومة ولو كان شفويًا ولا يخطر على بال ممول أن ينازع من وجوده أو يحتج على مضمونه ، وأما من جهة الضرائب فالفلاح لا يجرؤ أن يشكو لعلمه أن الأمر صادر من فوق ، وإذا كان الطالب هو ولى الأمر فإلى من يذهب المشتكى ؟ »[١] .

وقد لعب المأمورون دورهم فى مضاعفة الضرائب المقررة ، وانحاز المديرون إلى جانب السلطة القوية لكبار الملاك على حساب الفلاحين ، فعندما كان يلجأ إلى أحدهم في تداعيات « فيستبيح العدول عن نهج الحق في التحقيق رعاية وميلاً لجانب البك وتكون النتيجة إضاعة حقوق الأهالى »[٢] .

وكان المدير يؤدى إلى ناظر المالية المبلغ المطلوب منه ، فلا يصل كله إلى الخزينة بل يقتطع الخديو جزءًا منه سَريًا ثم يليه الناظر ، والمدير لا يفوته قبل ذلك أن يستقبض لنفسه نصيبًا مما جباه ، ومأمورو المراكز يسبقون المدير إلى هذه الوسيلة « وقد تجبى الحكومة أكثر مما هو مطلوب إذ أنها لا تعطى إيصالات »[٣] ، وكثيرًا ما لجأ الفلاحون للقروض حتى ترفع عنهم أعباء القسوة ليدفعوا الرشوة ويؤجل المطلوب منهم، وقد وُضع لذلك قائمة بالأسعار. أما الصيارفة - مأمورو التحصيل - فدائمًا ما كان الفلاحون يتعرضون لنياتهم الخبيثة فى المغالطة في الحساب[٤] ، فلم يكن لهم أجور ثابتة بل يتقاضون نسبة معينة من جملة الأموال التى يحصلون عليها . ومن هنا لعب الطمع والجشع دورًا كبيرًا ، هذا بالإضافة إلى احتياجات الحياة التى جعلتهم يمدون أيديهم ، بل وتفننوا فى أساليب الاختلاس حتى لقد وصل الأمر أن بعضهم « قد ألزموا الفلاحين على بيع أطيانهم بغيًا وطغيانًا »[٥] . وكان لمشايخ البلد دورهم ، فكل شيخ سعى فى أن يعين ابنه فى جهاز التحصيل ، ليتمتع بذلك النفوذ والثراء ؛ وضغطوا على الفلاحين ، ففى شكوي من فلاحى واهايا بناحية سندبسط مركز زفتى غربية من شيخ بلدهم يصفونه بأنه

---

(١) يوسف نحاس ، المرجع المذكور ، ص ٤ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر رقم ١٩٠ ، أوامر عربى ، صورة الأمر الكريم رقم ٥ فى ١٢ جمادى الآخرة ١٢٨٠ (٣٠ نوفمبر ١٨٦٣) .

(٣) Bemlan , Van , L'Egypte et L'Europe, p. 60.

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ٨٣٨ فى ٧ ديسمبر ١٨٧٩ .

(٥) الوطن عدد ٦٠ فى ٤ يناير ١٨٧٩ .

« رجل جبار ويسلب أموال الناس بالباطل ويتداخل فى الحقوق الميرية بقصد خراب الفلاحين »[١] .

وسائل التعذيب ونتائجها

اختلف التحصيل وطرقه من قرية إلى أخرى ، ومن مسئول إلى آخر ، فكل على شاكلته ، وكل وله طريقته ، لكن الإطار العام كان الاستمرار فى التحصيل الجبرى وفقًا لقانون محمد على « القانون المنتخب لعام ١٢٦١ » (١٨٤٥) القائم علي العقاب بالضرب ، والكرباج الذى سرى على الفلاحين وتألم به ظهورهم .

فكان المدير له السلطة المطلقة ، يقول النديم : « يمر فى البلاد ومعه الجزار والخازوق والسيَّاف والمشنقة ، فلا يمر عليه صباح إلا بقبض الأرواح وربما لف الرجل بالقماش والزيت الحار وأحرقه بالنار ، أو يلبس رأسه طاسة محماة أو يدفنه بالحياة ، حجته عند الوالى أنه متأخر فى المال أو عاصى عن الأشغال »[٢] .

ومن أجل دفع الكوبونات ، ومع السيطرة الأوربية من مراقبة وغيرها ، كان لابد من المزيد من الأموال وبالتالى المزيد من التعذيب ، فازداد استعمال الكرباج على أجسام الفلاحين ، ومع النظارة الأوربية الأولى أصدر ولسون منشورًا للمديرين والمأمورين ، مفاده أن يحصل من الفلاحين الأموال المتأخرة عليهم لسنوات ٧٦، ٧٧، ١٨٧٨، وإذا كان هناك تمنع فيكون الإلزام «بيع الأرزاق والمحصولات ، ثم بيع المواشى والأطيان بل زاد على ذلك بأن أمر بالاستعانة بالقساوة القديمة » ، كما أنه استدعى مأمورى التحصيل وقدر لكل منهم قدرًا من المال وحتمية إحضاره[٣] ، وكثيرًا ما كان الفلاحون يعذبون من أجل ضرائب لم يؤمر بها فقد ذُكر « أن ناظر المساحة وصل فجأة إلى قرية فوجد العِدَّة أى الفَلَقَة والكرابيج ملطخة بالدماء وعرف بأن السبب ضرب ستة رجال لدفع ضرائب لم يأمر بها ناظر المالية ، بل كان المقصود من جمعها أغراض غير جائزة »[٤] . وكلما شدد الدائنون الأوربيون فى المطالبة ، كلما ازداد الكرباج من أجل تحصيل الضرائب مضاعفة ، وكما قال أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى « إن صوت الكرباج يسمع علي ظهر الفلاحين المرهقين المثقلين بالضرائب والأعباء ، من أجل الحصول على الذهب لإمداد البيوتات المالية لجوشن

---

(١) محافظ الداخلية ، محفظة ٤٥ ، غاية جمادى الأولى إلى ٢٩ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

(٢) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) التجارة ، عدد ١٦٦ فى ١٤ يناير ١٨٧٩ .

(٤) الوطن ، عدد ٣٧ فى ٥ أبريل ١٨٧٩ .

ومماثلين »(١) ، وكان ذلك هو الصدق بعينه . أما عن السجون فقد كانت دائمًا مرحبة بروادها ، فقد زج بالفلاحين فيها مكبلين بالحديد ليلاً ونهارًا متحملين أشد أنواع العذاب والقسوة ، يتركون ثلاثة أيام بدون طعام ويعملون بالأعمال المضنية الشاقة ، بل ويضربون أثناء القيام بها وتصف صحيفة التجارة حالة الفلاحين فى السجون فتقول : « فمن صارخ من ضيق القيد الحديد ، ومن متوجع من أحكام التخشيب ، ومن متضجر من ثقل الخشبة »(٢) .

كذلك كانت هناك طرق أخرى لتعذيب الفلاحين التعساء ، فالمدير يأتى بقطعة من القماش بعد أن يغمسها فى الكحول ويشعلها بالنار ويقربها من فم الفلاح فى الوقت الذى يلكم فى صدره وبهذه الطريقة يستنشق اللهب المشتعل ، كما يحضر قطعة من ناب فرس البحر لها جزء مدبب ويوخذ بها جسم الفلاح ، وأحيانًا كان العاجزون عن الدفع يؤخذون إلى مراكز المديريات للعمل كخدم ويسمون « طوافة السائرة بكل مركز سبعون وهم من مستضعفى الفلاحين عليهم للميرى أموال ، وهم ذوو عيال وبعضهم يجوب البلاد بالجوابات ساترا الآنات ، وبعضهم فى خدمة عمال المراكز كل الأوقات ، وبعضهم فى خدمة الكتاب ، وبعضهم فى خدمة الأصحاب ، فما كان هؤلاء المساكين الضعفاء المظلومين إلا غنيمة لهؤلاء »(٣) .

أما عن القواسين وهم من أدوات العذاب ، فكم قاسى الفلاحون منهم فقد كانوا لا يرحمون أبدًا ، وتشير صحيفة الطائف إلى ذلك القواس الذى اعترض إحدى الجنازات ، وأمر بإنزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على الميت(٤) .

وبذلك مارس القواسين سلطتهم إلى أبعد الحدود وعدوا من بين البلاء الذى حل بالفلاحين ، وكان بجوارهم عساكر « الباشبوزق » وهم خليط من الأجناس يوجدون فى سناجق المديريات يعيثون فى الأرض فسادًا ويحصلون أيضًا الضرائب بطريقتهم الخاصة ، وكان سعيد قد أعطاهم الكثير من السلطات بعد أن حلهم محل عساكر الضبطية ، فمارسوا جميع الوسائل المتناهية فى القسوة مع الفلاحين .

وقد بلغ الأمر أنه عندما يكون هناك أحد المراكز عليه ضرائب ، كان مأمور الضبطية يصاحبه مأمور التحصيلات مصطحبين بكباشى ومعهم بلك جهادية ، لاستخدام الطرق الموصلة للحصول عليها .

(١) Commons, Vol CCXXIII, August 12, 1882, P. 1898 .

(٢) التجارة ، عدد ٩١ فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٨ .

(٣) الوطن ، عدد ٦٢ فى ١٨ يناير ١٨٧٩ ، Cromer , op. cit., Vol II, PP. 389, 397 .

(٤) الطائف ، عدد ٦ مايو ١٨٨٢ .

وساءت حالة الفلاحين إلى أقصى درجة ، فتقول التيمز : « دعتهم الضرورة أن يستعملوا الأطعمة الخشنة والملابس الغليظة الرثة ، وذلك لما يعانونه من أثقال الضرائب التى أدت بهم إلى بيع زراعتهم قبل نموها أو بيع محصولاتهم مقدمًا قبل أوانها بأبخس الأثمان »(١) ، وازداد الأمر قسوة حينما طولبوا بالضرائب مقدمًا وضغط عليهم فى ذلك ، فكان التحصيل إما لتسعة أشهر مقدمًا أو لسنة لدفع الكوبونات ، وساعد هذا فى دمارهم ، بالإضافة إلى أن الضرائب كانت تطلب فى غير زمن الحصاد ، وقد نوقش الأمر فى مجلس شورى النواب « فالتحصيل جار فى هذا الوقت الذى لم يكن فيه محصولات أقطان بالجهة البحرية ولا محصولات شتوية بالجهة القبلية ، فمن أين يكون التحصيل إلا أن ببيع مواشى بأثمان دون القيمة ، وقل أن يوجد مشتر ، وإما بيع المحصول أخضر بما لا يوازى قيمة النصف فى زمن المحصول(٢) .

وبناء على هذا انخفضت قيمة العملة لكثرة ما بيع من « فضة أو نحاس » ، وسرى هذا الانخفاض على الأسعار جميعها ، وكان له أثره على الاقتصاد المصرى الذى أصبح فى قمة الانهيار ، وفى إطار ذلك وصل الفلاحون لأقصى درجة من الفقر وكفاف العيش ، هؤلاء البؤساء الذين عملوا من أجل ملء جيوب المغامرين ، الذين شجعوا على صرف الأموال فى التبذير ، وعرضوها فى كل وقت فى ظل الفوائد التى كانت ترتفع تدريجيًا . ووقع العبء على أكتاف من تحملوا الظلم والغبن والعذاب ، إذ قدموا كل ما يمكن لهم أن يقدموه ، وكثيرًا ما تركوا الأراضى دون زراعة ، فليس لديهم ما يمكنهم من زراعتها ، باعوا كل شىء حتى الحلى الغالية على الفلاحات ضحين بها ، فقد كان جانب من الضرائب المدفوعة عبارة عن قطع مربوطة معًا على شكل قلائد وعقود وفى ذلك الدليل المؤلم على مقدار الضغط والشدة اللذين استعملا فى تحصيل الضرائب ، ويشاء القدر بأن يلقى عليهم مزيدًا من الأعباء والصعوبات والآلام ، حيث إنه فى وسط تلك الأجواء يتضاعف الظلم باضطهاد الطبيعة لهم ، هذا الاضطهاد الذى قضى على البقية من كيانهم .

كوارث الطبيعة

كان مرض الطاعون البقرى أحد تلك الكوارث ، فقد انتشر أكثر من سنتين ، وعم مصر كلها حتى النوبة وقدرت الخسارة بخمسة ملايين من الجنيهات بعد أن

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٥ فى ١٢ يونيو ١٨٧٩ .

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١٤ صفر ١٢٩٦ (٢ مارس ١٨٧٩) ، ص ص ٧٦ ، ٧٧ .

فقد الفلاحون مواشيهم وساءت حالتهم ، « إذ بلغت نسبة الوفاة ١٠٠٪ وامتلأت فروع النيل البطيئة الجريان بآلاف الرمم المتعفنة ، وتوقفت آلاف السواقى التى تديرها تاركة فدادين من الأرض الخصبة للصحراء(١) » .

بعد ذلك تأتى كوارث النيل سواء بنقصانه أو بزيادته ، وكل منهما نتيجته المجاعة التى كان لها أبلغ الأثر السيئ على الفلاحين . وازدادت المعاناة عندما انخفض منسوب المياه ، فقل الإنتاج ، ووفقًا لقوانين الاقتصاد ، أنه إذا قل العرض كثر الطلب ، وبالتالى ارتفعت الأسعار ، ولكن جاءت الضرائب الإجبارية الملحة لتقضى على ذلك ، وقد بلغ عدد الأفدنة التى لم ترو ثمانمائة ألف فدان ، والنتيجة رداءة محصول القطن « وكان النساء والأطفال يتنقلون من قرية إلى أخرى يأكلون بقايا الفضلات من الشوارع ، ومات حوالى عشرة آلاف نفس من الجوع وتبع ذلك ظهور الأمراض »(٢) .

أما عن الفيضان فقد كان أكثر سوءًا ، إذ ثار النيل وخرجت ثورته قبل ثورة المصريين ليعبر عن السخط والآلام ، ولكنه فى الحقيقة أساء من الوضع إلى أقصى درجة ، فقد غمرت الأراضى بالمياه عام ١٨٧٨ ، وعمت المجاعة وعانى الكثيرون ، وكان الوجه القبلى فى هذه المرة فى غمرة الفيضان ، فأثر ذلك على الزراعة فقلت المحاصيل ، وبالتالى قل الإنتاج ، وأعطت لنا صحافة تلك الفترة وصفًا شاملاً لمأساة الفلاحين فتقول صحيفة التجارة « رأيت أهل البلاد المبتلعة يسيرون فى الطرق زرافات حفاة عراة رفعت عنهم ستور الصيانة وزالت عن وجوههم آثار الحياة ، فحسب أن يومنا يوم النشور » وتمضى « إن بعض أهل القرى التى ابتلعها الماء هاجروا إلى المحلة ، وهم على أسوأ حال لا يملكون ما يقيهم من التضرر جوعًا تلقيهم فيها السجاعى وأعوانه وطلبوا العوائد مع العلم أنهم لا يملكون شروى نقير ، وترتب على ذلك تعذيبهم وإهانتهم »(٣) ، من هنا يتضح تلك الفظاظة والقسوة لمعاونى الحكومة والحاكم ، وافترى ملتزمو الدخولية أمام الحشود المهاجرة .

لكن ماذا عن دور الحكومة وما قامت به ؟ أصدرت الأوامر بزيادة الضرائب وتحصيلها فورًا دون اعتبار بما حل بالبلاد الذى كان السبب فيه إهمال الحكومة حيث إن نظام الرى لم يتم على أسس علمية سليمة ، هذا بالإضافة إلى إهمال بعض

---

(١) لاندز ، المرجع المذكور ، ص ١٣٣ .

(٢) Sammarco, No. 241, 1817 - 1886, Chap. VI .

(٣) التجارة ، عدد ١١٣ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٧٨ .

المأمورين وعدم يقظتهم وانتباههم ، إذ كانت همتهم الأنانية والجشع وما على الحكومة إلا التهام الأموال وجمعها بمختلف الطرق دون النظر إلى تقديم الخدمات لهؤلاء الذين أفنوا فى سبيلها . كذلك فإن الحكومة لم تتخذ أية إجراءات وقائية أمام الكارثة .

وتجمعت هذه الظروف أمام الفلاحين لتسجل أسوأ صفحات المعاناة ، فقد أدلى أحد السائحين الإنجليز بمشاهداته فى مصر لصحيفة الدالى فرى برس فكان وصفه أدق تعبير لهذه القوة المعذبة يقول « رأيت الناس يموتون فعلاً من الجوع ، غير أن حالة الأولاد كانت تفتت الأكباد ، وفى محل رأينا ولداً يلتقم قشر القصب ، وكنا نسمع أنين الأهالى فى كل قرية مررنا عليها ، إن الناس الذين يتجمعون حولنا كل يوم عندما نأكل فى الطريق فإنهم كانوا يتخاطفون فتات خبزنا وزيت الساردين الذى كان معنا ، وفى حالة مرورنا إلى قنا رأينا وابور الخديو تأثرنا من حسن منظره وحالته المباينة لحالة الأهالى وقيل لنا بأن بداخله اثنين من الإنجليز وبلغنا أن حضرة الخديو اتخذ مأدبة فاخرة للأورباريين فى القاهرة »(*) . وفقد الفلاحون كل شىء ، وأصبح من المتعذر أن يجدوا العدالة أو حتى الأمان سواء على شخصهم أو ممتلكاتهم .

العدالة والضرائب

وأمام كل ذلك هل كانت هناك عدالة فى توزيع الضرائب ؟

كان معظم الأغنياء - إن لم يكن جميعهم - يعاملون فى هذه المسألة بكل رفق ووفقًا لأهوائهم ، ولم تستعمل معهم أية وسائل القسوة أو الشدة التى اتبعت مع الفلاحين ، وحتى تلك الضرائب غير العادية ما كانت تفرض إلا على صغار الملاك ، وأحيانًا قليلة كان بعض من هؤلاء الأغنياء يدفعون الثلث أو النصف من الضرائب التى كان من المفروض أن يدفعوها ، وهذا بسبب التحايل والتهرب من جهة، ولأنهم يملكون الأراضى العشورية التى تتمتع بالإمتيازات الكثيرة من ناحية أخرى ، أما الضرائب الأخرى التى كان عليهم أن يدفعوها أيضًا مع الفقراء تمنعوا عن أدائها ، ومن ثم وقعت الأثقال جميعها على الفلاحين ، بينما الذوات فرشت الأرض أمامهم بالزهور ، يكتنزون الأموال ، ويوسعون الأملاك ولا يدفعون .

كما تمتع بالإعفاءات الأجانب وذلك على حساب المصريين ، فعدم المساواة أصبح واضحًا ، مما جعل لورد دوفرين يذكر ويعبر عن شعور المصرى « يرى عدداً

(*) الوطن ، عدد ٧٢ فى ٢٩ مارس ١٨٧٩ .

من المسيحيين يتقاطرون إلى بلاده لينتفعوا من منافع تربتها وهوائها ، ويشاهد نفسه مثقلاً فى تحصيل معاشه بسبب دفعة عوائد عُفى منها مناقضوه الأوربيون »[1] ، فبينما نرى الفلاح يسدد عن كوخه المبنى من اللبن الضرائب ، ينعم الأجنبى من أية أعباء مالية ، هذا فى الوقت الذى أثقل فيه الفلاحون بها ، وحتى أنه عندما تقرر إعادة المقابلة وضرورة التحصيل على أراضى مصر جميعها ، كان الأجانب يمتنعون عن الدفع ، وقد أقر بذلك نائب القنصل الإنجليزى إذ يقول « تأكدت من عدة مصادر أن الأوربيين ملاك الأراضى لا يدفعون المقابلة » وفى موضع آخر يقر بأن ذلك « ليس من العدالة بشىء »[2] . ومع هذا فإنه لم تتخذ أية خطوة من جانب السلطات المصرية حتى مع القناصل وذلك بسبب رفض رعاياهم لدفع الضرائب .

هذا ويجب أن نذكر بطبيعة الحال تلك الإعفاءات التى تمتع بها الحاكم وأسرته بالرغم من تلك الأملاك الشاسعة ، لكن لم يكن من المعقول أن يدفعوا شيئًا فكل ما يمتلكونه العمل على امتصاص دم الفلاحين . كما أن أخطاء المساحة كانت دائمًا ضد الفلاحين ، فقد أظهرت جميع التحقيقات ذلك الإخلال فى جميع الأعمال التأريعية ، فنظام الأرض المعمول عليه بالأوراد غير مضبوط ، لأنه مبنى على مساحة تمت فى عام ١٨١٣ ، ولأمر جلى فإن الموظفين راعوا خواطر الأغنياء الذين رشوهم ، هذا بالإضافة إلى أن النيل قد ابتلع أقسامًا من الأراضى ، وبعضها أخذ لأجل الترع والجسور والسكك الحديدية دون دفع تعويض لأصحابها ولا إسقاط أصل زمامها . وكانت هذه هى العدالة التى قدمها إسماعيل والأوربيون لشعب مصر .

وباعتلاء توفيق عرش الخديوية (١٨٧٩-١٨٩٢) لم تتغير حالة الفلاحين واستمر الوضع على ما هو عليه بل ازداد ، وقد أوضح لاسلز بأن السبب كالعادة أنه أصبح يطلب من الفلاح أن يدفع تلك المبالغ الإضافية زيادة على ما ربط عليه[3] ، وجاء رياض بمساوئه ، وفوضه توفيق الأمر للتصرف فى كل شىء حتى مع الفلاحين. فوصل النظام التعسفى إلى أقصاه ، لدرجة أن شيوخ بعض القرى ساقوا الفلاحين للسوق مع قطعانهم من أجل بيعها ، وتشدد فى جمع الضرائب والمقابلة ، وأصبح الجميع فى أسوأ حالات الفقر .

(١) دوفرين ، تقرير ، ص ٤٧ .

(٢) Egypt, No. I (1880), Inclosure I in No 31. P. 79 .

(٣) Ibid P. 67 .

ومضى نظام التحصيل سواء من ناحية المقدار أو الطريقة على نفس المسيرة حتى لقد اعترفت لجنة التحقيق منذ البداية أن كثيرًا من المظالم وقعت بسبب هذا النظام ، وأمام ذلك من ناحية ، وأصداء ما وصل إليه حال الفلاحين خارجيًا من ناحية أخرى ، كان لابد لرياض والمراقبة من التحرك لتهدئة الموقف ولو تهدئة وقتية وعلى الورق فقط ، فأعد رياض مشروعًا أخذ الموافقة عليه بإلغاء بعض الضرائب . أعقب ذلك التجاوز عن جميع متأخرات الميرى عام ١٨٧٥ ما عدا دين الفلاحين الذى توزع دفعه على سنين عديدة ، لكن إلى أى مدى نفّذ ذلك ؟

منذ البداية كانت انعكاسات هذا الأمر على الفلاحين لا شىء ، فلم تبد عليهم علامات الارتياح ولا الرضا والسرور ، فإن تلك الإجراءات ما هى إلا تضليل أكثر منها حقيقة ، مجرد ذر الرماد فى العيون حتى لا ترى الحقيقة الواقعة ، فقد كثرت الاستثناءات ، فمثلاً لم تلغ الدخولية من كل البنادر ، إنما اختصت بمناطق دون أخرى ، فنرى أن مدينة دسوق تطلب رفع الدخولية عنها « إن البلدة صغيرة وغالبية أهاليها فقهاء وعلماء ومجاوريين بجامع سيدى إبراهيم الدسوقى ، والباقون فلاحون وأن الإيراد الجارى تحصيله مأخوذ على الحطب والبرسيم والتبن الوارد من غيطان لوازم مواشيهم »[١] ، وارتفعت بعض الضرائب كتعويض ، فتقرر على فدان الدخان ستة جنيهات بخلاف المقرر على الأرض ، وذلك بدلاً من الدخولية وحرمت زراعته إلا بإذن الحكومة ، وأعطت الأوامر لكل مأمور بأن يطوف بالجهة ويفتش الأرض بكل دقة واعتناء[٢] .

وألغى الأمر العالى الصادر فى ٦ يناير ١٨٨٠ العامل بقانون المقابلة ، وجاء قانون التصفية فى ١٧ يوليو من العام نفسه ليقضى بأن ما دفع منها يخصم منه ما كان مطلوبًا للحكومة ويرد الباقى إلى أصحابه موزعًا على خمسين عامًا ، وخصص لهذه الأقساط مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه سنويًا . وكل ما يهمنا هنا أن هذا الإلغاء قد أثر أيضًا على الفلاحين الذين جُمع بينهم وبين كبار الملاك تحت هذا البند ، إذ قدرت خسارة الفلاحين على حسب ما ذكره نينيه بعشرين مليون جنيه استرلينى ، كانت النسبة الكبرى فيها قد تمت بالقروض من المرابين ، وهذا أشعرهم

---

(١) الوقت ، عدد ٧٧٩ فى ٢١ يناير ١٨٨٠ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٤٦ فى ٢٣ يناير ١٨٨٠ .

بالغبن والحرمان من العدالة ، وانتشر هذا الشعور فى كل قرية[١] . وكان من المفروض أن ترد الحكومة ما أخذته ظلمًا وجبرًا وعدوانًا لأصحابه بحيث إنها لا تلغى قانونًا إلا بعد أن يسترد أصحاب الحق حقوقهم .

واستمر أيضًا المحصلون يتحايلون على الفلاحين فيستولون على سندات ملكياتهم بدون القيمة ، وأيضًا تقرر تحصيل الضرائب نقدًا وعدم فتح الشون بالمديريات وخاصة فى الوجه القبلى . وكانت الأوامر قد صدرت فى ٢٥ فبراير ١٨٨٠ بالتحصيل على تقاسيط ، وفى ميعاد الحصاد بأوقات محددة فى السنة . وتكونت لجنة مخصوصة واقترح وضع لائحة توضع فيها شهريًا مقادير الأموال المقتضى تحصيلها من كل مديرية ، إلا أن المديريات المخصصة لخدمة الدين وهى البحيرة والمنوفية والغربية وأسيوط زيدت فيها المقررات عن باقى المديريات قيراطين[٢] . واستتبع ذلك وقوع الحجوزات على من لا يدفع فى المواعيد المقررة ، وكان توقيعها على الثمار والمحصولات والموجودات والمواشى ، وفى حالة عدم الكفاية يكون الحجز على العقار ويشرع فى بيعه بمزاد بمعرفة العمد والمساحين بعد مضى شهر واحد . ورغم ما قرره رياض من تحسين وسائل التحصيل وإبطال الكرباج ، لكن أوامره فى ذلك لم تنفذ تنفيذًا تامًا ، فبقى الكرباج حيث كان الاعتقاد بأن الفلاحين لا يدفعون إلا به .

الفلاحون والديون

كانت الديون هى إحدى نتائج السياسة الضريبية ، لجأ إليها الفلاحون اعتقادًا منهم أنها ستخفف من أحمالهم لكن العكس هو الصحيح ، إذ أنها أصبحت عبئًا ثقيلاً ، أدانتهم أمام المحاكم ، وأخرجتهم من أراضيهم . ولم يكونوا مخيرين فى بداية الأمر ، فكثيرًا ما كان يتم ارتهان أراضيهم بإكراههم تحت الكرباج ، وكان سائدًا أمر الاقتراض على المحاصيل قبل حصدها بأعلى الفوائد .

لكن من سيقدم لهم تلك القروض ، وبذلك الربا الفاحش ؟ ومن سيدخل رهن الأراضى فى حيازته ؟ إنهم الأجانب بجميع نوعياتهم وأشكالهم ، منهم الأوربيون وساكنو البحر المتوسط والمشمولون بالحمايات ، وتربع اليونانيون على عرش الربا ،

---

(١) Ninet.J. Origin of the National Party in Egypt, P. 132 .

(٢) محافظ الداخلية ، تركى ، محفظة ٦٧ ، تقرير رياض باشا فى ٢٤ فبراير ١٨٨٠ .

وتبعهم الأرمن والمطاليون ثم السوريون واليهود ، وأصبحت مصر مسرحًا لعمليات ربوية على أوسع نطاق ، وغدا عهد إسماعيل هو العهد الذهبى للمرابين بعد أن تخصصوا فى المناطق باقتسامها بينهم من أجل استنزاف الفلاحين .

وقد رأينا كيف كان الفلاحون مجبرين على الدفع ، ومن هنا التجأوا إلى المرابين ، وهم كما يصفهم محمد عبده : « تجار وأرباب بنوكه ، هم أعظم أعوان الظلم وأشد أنصاره ، فإذا رأوا حاجة الأهالى إليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم أن الكرباج وراءهم فلا قدرة لهم على الصبر ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ولو مؤقتًا ، إلا بالرضا بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة ، فكان التاجر لا يؤدى نقوده سلمًا ولو قبل الحصاد بعشرين يومًا إلا ستين فيما يساوى مائة وقت الحصاد فتكون الغاية أربعين أو يزيد فى الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطى بفائدة فى المائة عشرة بل أزيد فى كل شهر ، ومن الناس من يأخذ المائة بمائتين فى أربعة أشهر ، وكان سعدًا وربيعًا للتجار وأرباب البنوكه الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الأغنام ، فأثقلت كواهل الفلاحين بالديون الهائلة واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ عنها بالكلية فأحاط بهم الفقر وصاروا فى أسوأ الأحوال »(*) ، وكان هذا الوصف أصدق تعبير على هذا السيل المتدفق من الأجانب المستغلين الذين وجدوا من حسن رعاية الحكومة لهم الشىء الكثير ، واعتمدوا على الامتيازات واحتموا فى القناصل ، وهؤلاء بدورهم شركاء معهم فى هذه العمليات .

أما عن طريقة التسليف ، فقد كانت تتم عن طريق مشترى المحاصيل بواسطة المرابين ، وهم دائمًا يفضلون القطن ، ويكتبون سندات على الفلاحين قبل نضج المحصول ، وعندما يقترب الجنى ، يرسل المرابى وكيله ليقيم فى الأرض المرهون محصولها ، ويشرف على الجمع ، ويعين المقدار الذى يراه سدادًا لما دفعه المرابى ، وكثيرًا ما يُترك الفلاح غارقًا فى الديون بعد أن يدفع مبلغًا من المال لتجديد الدين أكثر مما يكفى لسداد الدين الأصلى ، وغالبًا كان المرابى يكتب سندات بمبالغ كبيرة تعلو المبلغ المسلم على أنها قروض فى مقابل فائدة باهظة للغاية ، حيث إنها تتضاعف فى نفس الوقت الذى يتضاعف فيه الدين المستحق ، وإن لم يسدد الفلاح يحرر عليه سند آخر بمبلغ يزيد على السابق ، ويستحق الدفع فى نفس الميعاد ليصل ٢٥٦٪ عن المبلغ الذى اقترضه ، وقد يصل إلى ٤٠٠٪ مما يتسبب فى النهاية إلى بيع

(*) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

أرضه بسعر منخفض أو وضعها تحت تصرف هؤلاء المستغلين ودائمًا يجعل المرابى ميعاد استحقاق جميع السندات شهر أكتوبر أى الشهر الذى يبيع فيه الفلاح قطنه ، والفائدة تحسب على السنة كاملة أيا كان الوقت الذى تقع القروض فيه ، وكم من خيبة وكم من منهبة يخبئها للفلاح المسكين شهر أكتوبر الذى يسميه الفلاحون شهر المرابين ، فإذا حل أجل السلفة ، وقد لا يشعر الفلاح بحلول هذا الشهر لجهله السنة الميلادية ، ولأنه غير متعود على الدفع فى المواعيد ، وبالنظر إلى أن الفلاح لم يستعد للدفع ، فإنه يبيع على المرابى قطنه بثمن بخس سببه الاضطرار من جهة ، وجهله الأسعار من جهة أخرى . ومعلوم أن للقطن تقلبات فى الأسعار ، فقد يرتفع دون أن يعلم الفلاح ، ويُكره على بيع قطنه بأدنى سعر ، ويُسرق فى الوزن بلا استحياء[1] . وقد كان للفوائد التى وصلت إلى ٢٠٠٪ من المعدل أثرها على النقود السائلة من ملايين الجنيهات الإسترلينية التى ظهرت فى الإسكندرية والقاهرة ، مما مكن هؤلاء المرابون من التوسع فى البيوتات التجارية وإنشاء البنوك بالإسكندرية .

وإذا رجعنا لأصول هؤلاء المرابين ، نجد أن اليونانى منهم يحضر إلى الإسكندرية ، وهو غالبًا ما يكون خادمًا ، وقد ازدحمت المدينة بأمثالهم ممن سبقوه إلى هذا الحقل ، وبتتبعه لخطواتهم يبدأ من التجوال ليبيع للفلاح حاملاً حقيبة على كتفه متنقلاً من بلد إلى آخر ، مكللاً بالنجاح مستعملاً اللغة العربية باليونانية ، وأخيرًا يستقر به المقام فى إحدى القرى ليفتح حانوتًا يبيع فيه الأصناف المغشوشة ، ويجمع بين أن يكون بقالاً وصيدليًا وصاحب مقهى ، ويبيع البضاعة بعشرة أمثال أثمانها ، وفى الوقت نفسه يرابى المراباه الجزئية فيعطى العشرة قروش ليأخذ خمسة عشر فى نهاية الأسبوع أى فى يوم السوق ، فإذا حال الحول يكون قد ربح ما يمكنه من توسيع تجارته ، ومنها القروض ويلقب « بالصيرفى » وتدريجيًا يصبح هذا اليونانى من أكبر الماليين والتجاريين بسوق القطن بالإسكندرية ، حتى وصل الأمر إلى أنه بعد أن كان يسلف الفلاح الفقير أصبح يسلف الخديو إسماعيل ، وصل إلى ذلك بعد أن حطم القرية ومن عليها فقد قال طلعت حرب : « كم أثرى كثيرون بما أفقروا من أهل البلاد[2] .

---

(١) Bemlan , op. cit., pp. 131, 135, 136 ، يوسف نحاس ، المرجع المذكور ، ص ص ٩٢ – ٩٥ .

(٢) Wallace, D. M. , Egypte and the Egyptian Question, p. 288. ، هنرى عيروط ، الفلاحون ، ترجمة محيى الدين الليان ووليم داوود مرقص ، ص ٢٠٩ .

وأصبح منظرًا مألوفًا أن يُشاهد مأمورو التحصيل - ومعظمهم أتراك - مصحوبين بالقواسين وهم حاملون الفلقة والكرابيج ومعهم المرابون أثناء آدائهم لأعمالهم المعهودة ، وهنا يهرول الفلاحون وراء المرابين وهم بائسون راجين طالبين الأموال موافقين على الفوائد مهما كانت للتخلص من العذاب ، ويحسب عليهم الجنيه الإسترليني بـ ١٥٠ قرشًا رغم أنه كان أقل من الجنيه المصرى ، ويصبح علي الفور قنطار القطن بسعر جنيهين فى حين أن ثمنه ثلاثة ونصف[١] ، ولم يكن الربا من أجل الضرائب فقط بل أيضًا من أجل الرشوة التى فرضت على ذلك الفلاح المسكين من سلسلة الموظفين الذين يتعامل معهم ، فيحاول أن ينشل نفسه من عذاب السوط المعرض له ، في الوقت الذى يضطر فيه إلى إطفاء لهب ذلك الطمع والجشع المطلوب سده ، فيضطر للالتجاء للربا الفاحش ، كما أنه كانت هناك علاقة مؤكدة بين المرابين وهؤلاء الموظفين ، فمأمور التحصيل كان يرافق المرابى الذى يدفع له جزءًا من أرباحه الدنسة ، وإذا فشل الكرباج مع الفلاح يقول له المدير « كل هذا الضرب ولا تقر بما عندك من نقود ، يجيبه بالنفى فيقول له اقترض ، فيرد من يقرضنى فيقول المدير ، الأمر يتدبر ، وبعد فترة وجيزة يظهر المرابى اليونانى المدعو ديمترى الذى كان منتظرًا فى خلفية المكان ، وقبل حضوره يكون قد درس حالة الفلاح وما عنده فيقرضه دون سؤال ، ويقبل الفلاح الأمر الواقع ، وديمترى هذا يعطى الحصة المقررة للمدير ، حيث أن تلك عملية مرتبة بينهما »[٢] .

وكان للمرابين طرقًا كثيرة للاحتيال على الفلاح الساذج ذلك الذى وقع فريسة لهم ، فعلى سبيل المثال فقد « قصد أحد الفلاحين تاجرًا يهوديًا من تجار البلدة بشبين القناطر ليستدين منه مبلغ عشرين جنيهًا ، وبعد أن اتفقا علي الفائدة وعيناها وكتب السند بقيمة تسعة وعشرين جنيهًا ، أخذ التاجر السند من الفلاح مختومًا وقال له انتظرنى لأجيئك بالنقود ، وذهب ولم يعد ، وطال على الفلاح الانتظار واشتد به القلق وحار فى أمره إلى أن مضت بضع ساعات ، فرأى التاجر خارجًا من منزله فأدركه وطلب منه النقود ، فأجابه التاجر أنا لى عند رفاقك مقدار هذا المبلغ فاستخلصه منهم ، فاضطرب الفلاح وقصد بعض الناس يطلب إنصافه فلم يجد من يعينه »[٣] .

وبجوار الضرائب والرشوة التى أجبرت الفلاحين علي الالتجاء للربا كان هناك مضار الاعتماد على محصول نقدى كالقطن ، فبعد أن صار الفلاح حرًا فى اختيار

---

(١) Egypt, No. 1 (1880), Inclosure 2 in No 31, p. 23.

(٢) Wallace, op, cit., p. 284.

(٣) التجارة ، عدد ١٢٨ فى ١٤ نوفمبر ١٨٧٨ .

زراعاته وبيع محصولاته ، وبعد أن أصبح مجبرًا على دفع الضرائب نقدًا ، وبعد أن انقصت الدولة ضريبة الجمرك علي الصادرات من القطن ، ذلك جميعه جعل إنتاجه يعطى ربحًا وأصبح السلعة الأساسية لإنتاج الفلاحين .

وجاءت الحرب الأهلية الأمريكية ليكون من نتيجتها مجاعة قطنية فى أسواق أوربا ، فبرهن القطن المصرى على وجوده لطول شعرته وقوة تيلته وجمال لونه ورقة ملمسه ، وراح إسماعيل يشجع زراعة القطن فى أراضيه وقلده كبار الملاك ومن ثم الفلاحون ، وأصبح الذهب الأبيض وبعد أن كان يصدر منه ٧٢٣,٠٠٠ قنطار وصل إلى ٢,٠٠٠,٠٠٠ قنطار في السنة(١) ، وارتفعت الأسعار لدرجة أنها كانت فى الإسكندرية أعلى منها فى ليفربول ، وبعد أن كان ثمن القنطار ١٢ ريالاً فى عام ١٨٦١ أصبح ٤٥ ريالاً عام ١٨٦٥(٢) ، وعم الرخاء حتى على الفلاحين البؤساء ، لتلك الحالة الفجائية التى رفعتهم فجأة مرة واحدة من الفقر إلى الغنى والثروة ، ولكن كالعادة لم يتعود هؤلاء على الادخار ولم يعملوا حسابًا لأية طوارئ مع أيام الازدهار ، وبالرغم من ذلك فقد لجأوا للمرابين للتوسع فى زراعة القطن ، لمزيد من المكاسب ولبى اليونانيون الطلبات ، وعرضوا البذور وكل الأموال المطلوبة ، فارتفعت أسعار الأراضى وارتفع الإيجار بالتالى ، نتيجة لهذه الظروف ، وكان ذلك علي حساب المحاصيل الأخرى .

وانتهت الحرب الأمريكية ، وعاد القطن الأمريكى إلى أسواق أوربا ليؤثر علي القطن المصرى ، فتنخفض الأسعار وتكون الصدمة القاسية ليتحول الفلاح إلى الاستمرار فيما بدأ فيه ، بأن يلجأ إلى القروض التى كانت سببًا فى بيعه كل شىء حتى أصبح معدمًا ومتسولاً يمد يده ، وانخفضت أسعار الأراضى وبيعت بأثمان بخسة حيث إن القروض الأخيرة لم تكن كالسابقة على المحصول وإنما على الأراضى، وبأمر الحكومة بيعت الأملاك والأطيان لسداد الميرى المطلوب ، وتقسيم الباقى على الدائنين الذين سبق أن أقرضوا الفلاحين بالربا وتعذر سداده ، وعندما استفحل الأمر فى عام ١٨٦٥ تدخلت وتحملت ديون الفلاحين وأصبحت أراضيهم البالغ مساحتها ٤٠٠ ألف فدان مرهونة للدولة ، وتسلم الدائنون ما عرف باسم سندات القرى وفائدتها ٧٪ ، وتولت الخزانة تحصيل هذه المبالغ من الفلاحين خلال سبع سنوات(٣) .

(١) Wallace, op, cit., pp. 316 - 320.

(٢) أحمد أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، ص ١٦٢ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٠٣ ، دفتر رقم ١٩١٥ ، صرة الأمر الكريم رقم ٤٩ فى ٢٢ جمادى الآخرة ١٢٨٢ (١٨٦٥) ، Bear , op. cit., p. 35.

وهكذا كان من الأخطاء وضع الثقل الاقتصادى فى سلعة واحدة لأن أسعار الأسواق غير مضمونة وعادة تكون الخسارة بانخفاض الأثمان ، كذلك كان لبعض من كبار ملاك الأراضى نشاط فى مسألة القروض وإغراق الفلاحين بها ، فهم يحصلون على قروض كبيرة من البنك العقارى بفائدة ٩٪ ثم يجزئون تلك القروض إلى مبالغ صغيرة يقدموها للفلاحين من مزارعيهم ومستأجرى أراضيهم لقاء فائدة كانت تتراوح فى معظم الحالات بين ٢٥٪ ، ٤٠٪[١] ، وبناء على ذلك ارتفعت ديون الفلاحين ، فبعد أن كانت ٤٠٠,٠٠٠ ,١ جنيه ، وصلت فى نهاية عام ١٨٨٢ إلى ١٥ مليونًا من الجنيهات ، ساهم فيها البنك العقارى بثلاثة ملايين ، والاثنى عشر مليونًا كانوا من المرابين الأجانب المحليين[٢] ، هؤلاء المرابون الذين لعبوا دورًا كبيرًا فى عملية الإنهيار التام للفلاحين .

الفلاحون والمحاكم

أُنشئت المحاكم المختلطة فى عام ١٨٧٦ لكى تزيد الأمر قسوة ومرارة ولتشارك فى عملية الربا ، ولتمارس الرهونات ، وكان ضررها كبيرًا على مصر وخاصة على الفلاحين ، حيث لم يكن حكمها فوق الاعتبارات السياسية والشخصية مما زاد من بلواها ، وقبل إنشائها كان الأجانب السلابون يستطيعون عن طريق امتيازاتهم وقناصلهم أن يبسطوا إراداتهم ورغباتهم على الفلاحين ، الذين لا يستطيعون أن يقاضوهم ، وإذا تصادف وتم فقد كان الانتصار للقناصل ورعاياهم . وبعد إنشائها كانت هيئة هذه المحاكم تستدعى أى فلاح أمضى أية ورقة بقرض أمام قضاة أجانب ، وبعد إجراءات أجنبية لم يتعودها ، بلغة أجنبية لا يفهمها ، وبغير أن تسمح له فرصة الدفاع عن نفسه إن كان فقيرًا وإقامة الحجة على أن الأرقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة ، تحكم عليه بما قد لا يقل عن تجريده من كل ما يمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرِّف بأى شىء ، أنه فى الحقيقة مطالب[٣] ، ووفقًا للشريعة الإسلامية لم يكن هناك حق بيع أملاك المدين بالحكم الغيابى ، لكن جاء القانون المختلط لكى يعطى حق رهن الأراضى وحق المرتهنين فى بيعها ، وليطبق نظام الرهونات ، فقد سمح بالبيع الوفائى ، وللدائن حق الاستيلاء على أرض المدين وتجريده منها إذا عجز المدين عن الدفع ، ويوضح دوفرين ذلك فيقول : « بناء على السجلات التى حفظتها المجالس المختلطة منذ إنشائها فى عام ١٨٧٦ أى فى مدة

---

(١) رؤوف عباس ، النظام الاجتماعى فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٣٧ - ١٩١٤ ، ص ١٤٥.

(٢) Malortie, B. D., Egypt, Native Rulers and Foreign Interference, p. 269 .

(٣) Blunt, W. S. , Secret History of the Egnlish Occupation of Egypt, p. 46 .

ستة سنين ، قد ارتفع المبلغ المسجل فى قلم الرهونات من ٥٠٠ ألف جنية إلى سبعة ملايين جنيه ، والمبالغ المرهونة باسم الفلاحين قدرها خمسة ملايين جنيه ، على أن المجالس المختلطة تراعى بغير حق مصالح المرتهنين الذين يقدرون فى الغالب أن يجبروا الفلاحين على بيع الأراضى ليأخذوها بنصف قيمتها ، وبلغت الأطيان المرهونة ٤٠٠,٠٠٠ فدان »[١] وقد مثل جميع الفلاحين أمام هذه المحاكم حتى أولئك الذين تعرضوا للفيضان وساءت حالتهم ، وكان إحساس الفلاح نفسه أنه يحاكم أمام محكمة غير عادلة لا تحقق له دستور الإسلام جعله محطمًا ، وبالرغم من ذلك فإنه عندما يمثل أمامها ومعه المرابى اليونانى ، فإنه يقول الحقيقة حتى أن الأمر لم يعد يحتاج إلى استدعاء شهود إثبات فهو واقف وحيد فى وسط أجانب من القاضى إلى كاتب الجلسة ، وحتى الحكم الذى يصدر عليه باللغة الأجنبية ، اللهم إلا ملخصًا بسيطًا باللغة العربية يرفق مع الصورة الأصلية[٢] .

وأصبحت لتلك المحاكم السلطة القوية المجحفة بالأهالى والمتحيزة للأجانب، وقد كان لها التأثير السياسى ، فهى أسست من أجل استغلال مصر وأدت إلى الدمار ، وشجعت المرابين وباع قضاتها ضمائرهم ، وأصدروا أحكامهم التى لم يكن من نتائجها بيع الأراضى فحسب بل وامتلاك المرابين لها والزج بالفلاحين فى السجون .

وصرحت الحكومة بممارسة المحاماة للدفاع عن الفلاحين فزادت من الظلم الواقع عليهم ، فقد كان المحامون أيضًا أجانب « وهيهات إذا وقفوا على المعنى المراد وإذا عرفوا المراد ، وهيهات إذا سلكوا فى طرق الرشاد ، فإنهم لا يعتنون بالفلاح بسبب فقره ولا يرثون لعجزه وكسره »[٣] .

ومن بين ما اشتهرت به من الأحكام غير العادلة أنها توقع مبايعة العقارات بدون حجج شرعية ، ولربما تكرر بيع العقار ثلاث مرات ، وذلك لتجديد القضايا وكثرة الإيرادات ، ولا غرو فى ذلك فإن مرتبات مستخدميها باهظة ، هذا فضلاً عما يظهرونه نحو المصريين من الاحتقار والازدراء .

وإذا انتقلنا إلى دور المحضرين ، فكم قاسى الفلاحون من هذه الطائفة ، يتكلمون الفرنسية أو الإيطالية ويطوفون فى القرى ليعلنوا الفلاحين « ويقفان الاثنان - المحضر والفلاح - بإزاء بعضهما وقوفًا مضحكًا إذ يرطن كل منهما للآخر بكلام أعجمى ، وينفصلان غير فاهمين بعضهما »[٤] .

---

(١) دوفرين ، المصدر المذكور ، ص ٢٧ . (٢) Bemlan , op. cit. , pp. 56, 63 .
(٣) الوطن ، عدد ٥١ فى ٢ نوفمبر ١٨٧٨ . (٤) مصر ، عدد ١٣ فى ١٩ سبتمبر ١٨٧٩ .

وانتحل كثيرون من الأجانب صفة المحضرين ويحتالون على الفلاحين ، ومعهم إعلانات كاذبة تتضمن الإلزام بدفع المبالغ والحجز على الموجودات « وأصابوا الضرر بهذه التصرفات »[١] .

ومما زاد الأمر سوءًا أنه كان على الفلاح أن يترك قريته ليذهب لمقر المحكمة ، وهو القروى الساذج فكثيرًا ما يتعرض لعمليات من السرقة والنصب التى تخصص فيها حثالة الأجانب « حضر إلى الثغر أحد فلاحى مديرية البحيرة لكونه مطلوبًا فى المجلس المختلط بناء على طلب رجل يهودى له دين عليه ، فسطا عليه شخصان من الأروام وسلباه »[٢] .

وكان هناك شكل آخر للاحتيال ، وهو إفهام الفلاح بإمكانية تخفيف الحكم عليه عن طريق العلاقة والمداخلة بين هؤلاء الأجانب المحتالين وبين أعضاء المحكمة ، وتكون النتيجة اختلاس ما مع الفلاح والهروب .

هكذا قست المحاكم المختلطة على الفلاحين ولم تكن بمفردها بل شاركتها المحاكم المحلية التى أخضعته هى الأخرى للظلم إذا احتاج إليها ، فلم يكن يمكنه عن طريقها أن يأخذ حقه أيًا كان ، فهو لا يستطيع أن يشكو لأن الشكوى ستجر عليه العذاب ، وكيف يجد العدل والقائمون عليه أتراك ظالمون ، فضاعت الحقوق بسبب الرشوة ، وتأخرت القضايا لأنه غالبًا ما يكون المطالبون بالعدل هم الفقراء والمطلوب منهم الأغنياء « فبعد أن يفرغ صبر الفقير مما يتكبده من التذلل للكتبة والرؤساء ، ويصرف ما هو فى جهده من النقود والدموع ، وتتعطل أشغاله التى يحصل منها على قوته ، يرجع بخفى حنين لا يحصل من حقه على شىء ، وربما لا يعود إلا وهو محكوم عليه بجزاء »[٣] .

أما القضاة فمنهم ضباط أتراك متقاعدون يجهلون اللغة العربية ، ويعينون قضاة لضرورة إيجاد مناصب لهم فى الحكومة بدون فقه القانون . وكثيرًا ما كانت تقوم المنازعات وينتصر القوى ويستحوذ على أرض الضعيف مستندًا على عامل الزمن وطوله ، فحتى لو رفع الضعيف القضية فالحكم يأتى بعد وقت طويل ، ويكون القوى قد استولى على محصولات الأراضى ، هذا إن كان الحكم سيكون فى صالح الضعيف ، ولم يحدث ذلك إلا نادرًا .

وبلغت الفوضى إلى أقصى درجة لعدم الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٤٥ فى ١٩ مارس ١٨٨٠ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٤٤ فى ٢٢ فبراير ١٨٨١ .

(٣) الكوكب المصرى ، عدد ٢٣ فى ١٧ أكتوبر ١٨٧٩ .

القضائية ، فالمدير له حق تعديل الأحكام ، وحتى فى القضايا الجنائية يسيطر عليها الخلل ، وتتم فى كثير من الأحيان فى مكاتب البوليس ، ويتولى إيضاحها أحد الكتبة، والأمر موكول إلى الشاكى والمشكو فى حقه ، وهنا توجه القضية وفقًا للمصلحة الشخصية لرجال البوليس ، ويصبح البوليس بل ومعه المحاكم فى أيدى الأغنياء لسلب الفقراء[١] ، ويجد القاتل والسارق وقاطع الطريق طريق الخلاص من القانون على يد القائمين عليه عن طريق الرشوة ، وفى وسط ذلك ضاعت الحقوق .

واقتصرت مسألة بيع الأراضى على محاكم المديريات ، فإذا « أراد فلاح أن يبيع فدانًا واحدًا وهو ببلده بجوار رشيد عليه أن يذهب إلى محكمة طنطا ، وقد تلجئه الفاقة إلى ذلك السفر راجلاً ، ويصلى نار العذاب ويصرف الكثير من أجل هذا الفدان »[٢] .

وبناء على ذلك نرى أن الكثيرين قد تجنبوا هذا القضاء خوفًا من ضياع حقوقهم باختلال القوانين ، أو بخداع خصومهم ، أو بقوة سطوتهم ، ويفضلون التراضى حتى ولو فقدوا جانبًا من حقوقهم ، وربما فضلوا فقدها برمتها ، لكن كانت هناك أمور ألحت فى ضرورة الالتجاء إلى تلك المحاكم ، وبذلك تضاعفت الأعباء ، ولجأ الكثير إلى الربا ، للصرف على القضايا والانتقال والرشوة وطول التحقيقات .

وكان الأثر الكبير الذى أوجدته المحاكم المختلطة هو « نظام الرهونات » ولم تختص بالأراضى فقط وإنما خضع لها كل ما له قيمة ، وإذا انتهى أجل السداد ، يتم الاستيلاء على ما هو مرهون . وتأسست الشركات لذلك ، منها « شركة لاند أند مورنكيج كومبانى ، والبنك العقارى » ولجأ إليها الفلاحون لوضع رهوناتهم ، ولو أن البنك العقارى قد حد من الإقبال عليه لفرضه شروطًا كثيرًا ما كانت لا تنطبق على الفلاحين عامة ، الذين التجأوا إلى المرابين ليقرضوهم بفوائد عالية ، وانتشرت البنوك التى زعموا أنها جاءت لإنقاذ الفلاح ، لكن فى الحقيقة كان غرضها الحصول على العظام التى سبق لليونانيين أن أكلوا لحومها ، ولهذا استمر الوضع السيئ للفلاح ولم يتحسن أبدًا . وهكذا وصل الفلاحون إلى درجة الغليان ، لكنهم كانوا متحملين لكل هذه الأثقال حتى تتجمع فى النهاية .

---

(١) جمعية اتحاد مصر الفتاة ، لائحة إصلاح مرفوعة إلى الأمير توفيق الأول خديو مصر ، ص١٠.

(٢) الكوكب المصرى ، عدد ٢٤ فى ٢٤ أكتوبر ١٨٧٩ .

السخرة

كانت السخرة الضريبة الجسمانية التى يؤديها الفلاحون بالإكراه ، وطبقت على الفقراء دون غيرهم ، فأصبحت منبعًا لعدم العدالة ، وهى أنواع منها ما هو خاص بالأعمال العامة من حفر قنوات ومد طرق وإقامة قناطر ، فعند الفيضان وقت أن تنذر الحالة بالخطر ، يجمع لها مئات الألوف من الفلاحين ، يعملون ليل نهار لتقوية الجسور وإصلاحها والمحافظة على السدود ، ومنها ما كان بسبب حشرات تهدد الثروة العامة مثل دودة القطن ، فيساق الرجال والنساء وحتى الأطفال لتنقية الدودة ، أو غزو جراد فيخرج الأنفار لمقاومته ، أما سخرة الأعمال الخاصة فهى تخص الفلاحين بالعمل لدى الحاكم وأراضيه وكبار الملاك والعمد ومشايخ البلد وأيضًا الأجانب الذين يمتلكون الأراضى .

وخضع المصريون دون غيرهم للقيام بهذا العمل ، وقد استثنى قانون يناير ١٨٨٠ بعض الفئات من السخرة مثل العلماء والفقهاء وطلبة العلم والمأذونين وخدمة المساجد والقسس والرهبان والحاخامات وأرباب الصنائع والحرفيين(١) ، فمن غير هؤلاء ؟ طبيعى أنهم الفلاحون يخرجون من ديارهم وقراهم ليعملوا فى جهات نائية تحت أحلك الظروف تاركين أرضهم وماشيتهم وأهلهم .

وتمتد السخرة من ثلاثة إلى أربعة أشهر بدون أجر أو طعام ، وحتى إذا قدم ، كان من أردأ الأنواع ودون الكفاف ، فهذا مع العمل المضنى أودى الفلاح إلى التهلكة وسبب له سوء التغذية ، لدرجة أن البعض منهم كان يموت من شدة الجوع .

ويصف أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى ، وكان قد زار مصر ويدلى بما رآة « يجمع مئات الرجال من زراعاتهم فى أحرج الفصول ويساقون كالماشية ويعاملون بقسوة بالعصا والكرباج للعمل لدى الباشوات والرؤساء الرسميين أو للدولة، وفى الأخيرة فإن طعامهم يقوم على فتات الخبز ، ومن الجوع وسوء المعاملة كان المساكين يتساقطون كالذباب »(٢) .

وكانت الحكومة تعين العدد الواجب تقديمه على كل مديرية ، وشيخ البلد هو الذى يجمع العمال تبعًا لهواه ، فيعفى الذين يرشوه ، فإذا طُلب منه أربعون نفرًا « فينادَى بطلب خمسين ، وينشر الأمر فيشرع فى انتخاب خمسين نفرًا من الأغنياء، فيتعهدون له بإحضار البدلية ، فيأخذ العشرة الزيادة غير العطايا التى يأخذها من الأربعين نفرًا » ، بالإضافة إلى ذلك فقد استبدل شيوخ البلد أبناءهم وأقاربهم

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٨٤٥ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .

(٢) Commons, Vol. CCXXIII, August 16, 1882, p. 1953 .

وأصدقاءهم ومحاسبيهم بالفقراء ، وسلكوا هذا المسلك ، حيث كان عليهم هم الآخرون أن يدفعوا لرؤسائهم(١) .

ومُنح المسخرون حق تقديم بدل عنهم ، وبالرغم من أن الكثير قد دفع البدل للتخلص من السخرة ، لكنهم أكرهوا عليها ، حيث إنه لم تبح الحكومة أداء البدل النقدى لغير العاملين بالأطيان والأباعد العشورية والتفاتيش ، ولم يعمم على جميع الفلاحين(٢) .

وكان العاملون بالسخرة سواء لدى الحكومة أو كبار الملاك يخضعون لألوان من العذاب ، وكأن الفلاح ليس له وجود فى تلك الحياة التى قست عليه ، وكثيرًا ما يتم ذلك لمجرد اللذة فى عذاب الفلاحين ، وبتعدد الأعمال العامة ازدادت السخرة .

ويصف ديسى كشاهد عيان حفر أحد الطرق « كانت الحرارة مرتفعة والعمال فى غاية الإرهاق والسوط فوق الظهور للاستمرار فى العمل بدون توقف ، هذا الفصل من تلك المسرحية لم يكن يسر أى متفرج عليه ، ولكنه كان يبين كيف تحكم مصر ، هذا فى الوقت الذى رأينا فيه العظمة والإسراف للحاكم ، وتلك الموائد المدودة والتى لا تنقطع أبدًا »(٣) .

وكانت السخرة فى أراضى إسماعيل غاية فى القسوة وخاصة فى مزارع قصب السكر ، فقد أنشأ لها خصيصًا خطًا حديديًا امتد من القاهرة إلى أسيوط ، واستعمل مائة ألف فلاح فى شق قناة لها هى ترعة الإبراهيمية التى استخدم فيها حتى الأطفال ، فكأنه اشترى هؤلاء الفلاحين وأصبحوا عبيدًا عنده ، وحرص كل الحرص على ألا يتوقف العمل أبدًا ، لذا خضعوا لنظام صارم للمراقبة والملاحظة أثناء العمل وصفه النديم « يخرج القواس على حصانه يعلن المديرين والمأمورين بأن المفتش سيمر ، فلا تسل عن أتباع المديرين فيقطعون الأغصان الغليظة من الأشجار وينزلون بها على أجسام الفلاحين العرايا فلا تسمع إلا بكاء أو نحيبًا وصراخًا »(٤) .

وأجبر المسخرون على العمل بأيديهم ليملأوا تلك المقاطف الصغيرة التى ينقلون بها الأتربة ، ومعهم ماشيتهم التى يرغمون على إحضارها ، ويعملون من الشروق إلى الغروب دون انقطاع فى ظل ذلك التعذيب ، وأثناء الحفريات التى قام بها الأثرى كارتر عثر على من خضع لذلك النظام وعليه الآثار « رقبته منحرفة

---

(١) Egypt, No. I (1880), Inclosure I in No 31, p. 22, Inclosure 7, p. 29 .

(٢) Ibid, No. 3 (1880) Inclosure 3, p. 3 .

(٣) Dicey, E. , The Story of the Khedivate, p. 78 .

(٤) الطائف ، عدد ٦ مايو ١٨٨٢ .

إلى الجنب وذقنه على كتفه وأرجله قرفصاء مفتوحة إلى الخلف ويداه منطبقتا على معصميه على قطع خشنة من الخشب فوق بعضهما بمسمارين من حديد نافذين من المعصمين ومربوطين فى الرقبة ، مع وجود آثار تسلخات فى الظهر ، وكان واضحًا تورم اليدين من شدة ضرب العصى »(١) .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد كانوا مطالبين بفلاحة أطيانهم وأداء ما عليها . لذا نرى أنه كثيرًا ما لجأ الفلاحون للعمل عند كبار الملاك من الذوات والأجانب متنازلين عن ملكياتهم في مقابل خلاصهم ، وهنا عمل كبار الملاك على استنفاد كل إمكاناتهم ، فسخروهم فى أراضيهم ، وأخضعوهم لقسوة الظروف فى تطهير وتعميق المصارف لمصلحتهم ، وفى تقرير لأحد المسئولين البريطانيين فى الزقازيق يذكر أنه رأى بعينه ثمانية آلاف رجل جمعوا لحفر قناة الزقازيق ينقلون الأحجار والطين لأرض أمين بك الشمسى ليحولوا مستنقع إلى مبانى تفيد زراعاته ، وأقاموا قمينة كبيرة كان يحرق فيها ٣٠ ألف طوبة ، ولم يجرؤ أحد على سؤاله(٢) .

وسرت السخرة على الدواب ، فهى مطلوبة وتوزع على القرى أيضًا بنسب معينة ، وهى الأخرى لا يعطونها حقًا فى العلف ، فتأخذ فى الضعف تدريجيًا حتى إذا تم العمل قضيت آجالها ، وكان أخذها ضريبة باهظة على الفلاحين « يحسبونها من مصائب الحكومة وبلاياها ، ويتضجرون منها كما يتضجرون من نفس السخرة »(٣) .

وقد طبق مبدأ التضمين فى المسئولية بالنسبة للسخرة ، وذلك بسبب عمليات الهروب التى كانت تتم ، بمعنى أنه إذا هرب أحدهم فيلزم شيخه بإحضاره أو بدلاً منه لأداء العمل المخصص عليه ، بحيث إن البدل يكون من عائلة الهارب ، وإذا كان التسحب عائلة فيكون البدل على باقى الأنفار ، وعندما تسلم رياض مقاليد الحكم كتب أوامره بإبطال السخرة وما يصحبها من استعمال الكرباج ، لكن الأوامر والقرارات شيء والتنفيذ شيء آخر ، فمضت السخرة واستمرت بما يصاحبها من آلام وعذاب .

وارتبط نظام السخرة بنظام الجهادية الذى لم يقل ضغطًا بل ازداد عنفًا فى كثير من الأحيان ، ذلك النظام الذى أخضع الفلاحين لأسوأ ظروف أحاطت بهم ، فقد استمر قانون الخدمة العسكرية يطبق بغير عدالة حيث تحكم شيوخ البلد فى تلك المسألة ، فكان يُحدد لهم عدد معين ، فمن دفع له رشوة أو دفع لطبيب

(١) Cromer , op. cit., Vol I, P. 50 .

(٢) Egypt, op. cit., May 19, 1880 .

(٣) الطائف ، العدد نفسه .

الجيش يصبح غير لائق ، أما من لا يدفع فيساق ، وغالبًا كان المساقون هم الضعفاء المساكين « كابن يعول أمه وأخواته البنات فيترك الأرض والزرع مصدر رزقهم ويذهب للجندية »(١) ، كما كان المديرون المكلفون بأمر الخدمة العسكرية يجرون التجنيد بكيفيات وحشية لا سيما فى الصعيد ، وكثيرًا ما يأخذون من المطلوبين نقود البدلية التى كان قد صرح بها ثم يجندونهم بالرغم من ذلك ، واستمرت مسألة الهروب وكانت تقام الحملات للبحث عن الهاربين ، ومضت عملية إتلاف الأعضاء لوضع حائل بينهم وبين الجندية « فشيخ ناحية كفر هلال بمركز الجعفرية وضع أجزاء سمية فى أعين سبعة أنفار ، وحث أغلب الأهالى على فعل ذلك »(٢) . كل ذلك من أجل التخلص من أعباء التجنيد ، بعد أن قاسى الفلاحون الأهوال فى تلك الحروب التى خاضتها مصر .

الفلاحون والمياه

تحتاج أعمال الفلاحة للمياه خصوصًا إذا كانت الأراضى تبعد عن الترع والقنوات ، لذا كانت أعمال الرى من أساسيات نظام الزراعة فى مصر . وقد تعودنا أن تكون جميع الخدمات لصالح الخديو وأسرته أولاً ثم كبار ملاك الأراضى من أتراك ومصريين وأجانب ، أما الفلاحون فكان آخر شىء ممكن أن ينظر إلى مصالحهم ، وفى إطار العذاب دخلت مسألة الرى ، فحرموا من المياه لتروى بها أراضى الأسياد .

ومسألة توزيع المياه هى مسألة حيوية وجوهرية حيث إن غالبية المحاصيل تتوقف على رى الأراضى فى وقتها اللازم ، وكانت جميع أشغال الرى قد وجدت من أجل أراضى الخديو وجفالك الأسرة ، وإذا ابتسم الحظ للفلاحين أحيانًا وزادت المياه ، رويت أراضيهم ، أما إذا كان الرى قليلاً فيستخدم جميعه لأراضى السيد ويحرم الباقى ، وأصبح من المألوف أن تنقطع المياه عن أراضى الفلاحين ، مما كان يلجئهم إلى بيع أراضيهم دون السعر الحقيقى ، هؤلاء الذين وقعت عليهم كل تلك الأعباء ، فكان أقل ما يجب أن يعطوا حقهم فى المياه ، لكن كانوا مهندسو الرى الذين يتولون أعمال السدود والبرابخ ووابورات الرى يفرضون المزيد من الطلبات عليهم ليسمح لهم برى أراضيهم فى النهاية ، تلك المياه التى تزيد عن حاجة الأغنياء الذين كان منهم مهندسو ومفتشو الرى ، فأراضيهم تروى فى المرتبة الأولى لدرجة

(١) Egypt, op. cit., pp. 24, 79 .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦١ فى ١٠ نوفمبر ١٨٨٠ .

أن مشروعات الرى كانت أيضًا تنفذ وفقًا لأهوائهم ومصلحتهم بالرغم من أن الفلاحين هم المنفذين لتلك الأعمال ، فكان ما يحدث أنه بعد أن تُخدم الأراضى المعهودة ، يوقف المهندسون العمل « فكانت أراضى الأغنياء تفيض بالمياه بينما تبقى أراضى الفقراء متعطشة إلى قطرة واحدة »(١) .

وكانت مسألة رفع المياه لرى الأراضى تخضع لضرائب ثقيلة ، وقعت أيضًا على عاتق الفلاحين إذا أرادوا مياهها وحتى الترع المشتركة بين الجفالك والأباعد وبين أراضى الفلاحين ، كان مفتشو الجفالك ونظار الأباعد يضعون أيديهم على هذه الترع ، فيديرون الوابورات ويمنعون الفلاحين من أخذ المياه بدعوى أنها غير كافية لمزروعاتهم مع أنها واردة من النيل الذى لم يخصص فئة معينة ليعطيها ماءه ، فيضطر الفلاحون لدفع الثمن « فيروون الفدان الواحد ببنتو أو جنيه دفعة واحدة ، وهيهات أن سمحوا لهم بذلك قبل تلف مزروعاتهم ، فترعة سنديس تنتفع بها ست جهات غير أن الترعة مشغولة بوابور التفتيش ، فيحجر على المياه الواردة إليها فلا يسع الأهالى إلا مواساة الخولى ومن فوقه طلبًا لأخذ المياه بالثمن ، وقل أن يتحصلوا عليه »(٢) . وبذلك اشترع الإختصاص الذى اعتمد على النفوذ والقوة واحتقار الفقير والأنفة من مشاركة الفلاح للأمراء فى نعم الله الذى خلق الاثنين بلا امتياز بينهما .

وأكثر من ذلك فإن القائمين على التفاتيش أقاموا السدود لمنع المياه منعًا باتًا من الوصول إلى أراضى الفلاحين ، وكثرت المطالبة ببعض المياه من الفلاحين ومشايخهم ولكن من يسمع ومن ينصف ؟ وتحكم الباشوات تمام التحكم ، فقد حدث أن أقام عمر لطفى باشا مصرفًا بأراضى الفلاحين بكفر سعفانة - مركز فرسكور دقهلية - لصرف المياه من أراضيه وبذلك أتلف جميع المزروعات ، وهاجر الفلاحون بعد أن أصبحوا عاجزين عن دفع الضرائب على المحصول التالف وبعد أن فقدوا كل شىء(٣) .

وأخذت الرشوة مكانها مع المياه ، فمن يأخذ يدفع ومن امتنع خرم ، فأين للفقير من أموال لدفعها إلى جميع تلك المجالات ؟ كما تمكنت العلاقات أن يكون لها أثرها ، فإذا تضاغن مهندسو الرى مع مدير المديرية ، عاقبه بقطع المياه عن المديرية كلها خلال وقت الرى ، وبهذا العمل أضر بالفلاحين جميعهم .

(١) Egypt, op. cit., pp. 20, 24 .

(٢) المحروسة ، عدد ٢٥ فى ١٤ فبراير ١٨٨٠ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة رقم ٣٩ ، محرم - صفر ١٢٩٩ (١٨٨١) .

وخضع الرى لتحكمات الأجانب بعد أن سمح لهم بممارسة كل شىء على الأرض المصرية ، كان على رأس المتحكمين فى الريف المصرى « باولينو باشا » إذ كانت له أراضى كثيرة فى البحيرة فاستغل ترعة (السعرانية) لمنفعته الخاصة ، ومنع الاستقاء منها مدعيًا بأنها أنشئت خصيصًا له مع أنها قديمة الإنشاء ، وتظلم الفلاحون ولكن دون جدوى ، واستطاع أحدهم أن يقيم بريخًا لتوصيل المياه إلى أراضيه « فما كان من الخواجة إلا أن أرسل ثلاثة خواجات لمنع إقامته ، بل أن ما أقيم منه قد هدم أمام الباشا والعساكر التى أحضرها »[1] . كذلك امتلك هؤلاء الأجانب ومن دخلوا تحت الحمايات وابورات الرى ، وكان من بين شروط عقود الامتلاك أن ينتفع الأهالى لكن إلى أى حد طبق ذلك ؟

« الخواجة بشارة صليبة مالك الأراضى بدمنهور أذن له بوضع وابور على الترعة لرى أراضيه على شرط أن يكون له الخمس فى الانتفاع ، فيكون استعماله لها يومًا وللأهالى أربعة أيام ، فلما تمكن من وضع الوابور منع الأهالى بالمرة من الرى واستأثر بالترعة ، ولما ارتفعت مياه النيل وطلب الأهالى إجراها إلى أراضيهم ، سد عليهم مجراها وأقام على ذلك السد محافظين من تبعته أجروا فيهم الضرب ورفعوا عليهم الطبنجات وهددوهم بالقتل إذا تقدم أحد منهم لقطع السد »[2] . وأصبحت آلات الرى تجارة رابحة على أيدى الأجانب ، فكم استفادوا من بيع الماء للفلاحين ، حتى فى زمن الفيضان الذى يكون الماء فيه وفيرًا وبغير ثمن ، وذلك بعد أن منعوا الفلاحين من الاستحواذ على قطرة الماء ، والنتيجة المعاناة التى تؤثر على الإنتاج ، فقد كان واضحًا أن ما تغله أراضى الفلاحين أقل مما تغله أراضى كبار الملاك الذين وجدوا كل شىء ممهدًا لهم وبدون أدنى مجهود بينما وقعت الأعباء كلها على فلاحى مصر .

الفلاحون ودوائر الظلم

مورس الظلم بكافة أنواعه على أيدى كبار الملاك وخاصة الأتراك الذين كرههم الفلاحون وثاروا بسببهم ، فقد كان قدوم الباشا التركى إلى أراضيه ، يومًا ترتعد له

(١) المحروسة ، عدد ٦١ فى ٩ أبريل ١٨٨٠ ، عدد ٦٧ فى ١٧ أبريل ١٨٨٠ .

(٢) التجارة ، عدد ٥٥ فى ٢ أغسطس ١٨٧٩ .

أبدان الفلاحين ، فكأن وحش كاسر قد حل بالأرض ، فهو مصاحب بمجموعة مسلحة من جيشه ، وهنا يرتعد حتى العمد والمشايخ ويقدموا له فروض الطاعة والولاء ، ويمارس سلطته وجبروته فيحضر من الفلاحين من أصاب أرضه بشىء أو تمرد عن العمل المكلف به ليشنقه فى أعلى مكان بالبلد كتحذير لباقى الفلاحين(*) . ووقع الفلاحون لظلم التجار الذين سلبوهم كل شىء ، فعندما يريد الفلاح أن يبيع قطنه ، فإنه يوزنه عند ملتزمى القبان فى بلدته ، ويتكرر الميزان فى كل بلدة يمر عليها ولا يعلم أيهما أصح ، وفى كل مرة ينقص الوزن بدعوى البلل ، فهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا صفة الموازين وحساب القناطير ، وأصبحت حلقة الأوزان هى مقر اغتيال فقراء الفلاحين من السماسرة ورؤسائهم وشيخ القبانية وناظر الحلقة .

وقد برهن العمد والمشايخ على ممارسة الظلم فى أوسع مجالاته ، فإدارة القرية منوطة بالعمدة ، وله الحق فى أن يصدر فى الشئون المدنية أحكامًا وله مساعد أو أكثر من رجال الشرطة « الخفراء » ، والحياة فى القرية تعتمد على العمدة الذى يستخدم الفلاحين فى زراعة أرضه الخاصة باعتباره من أصحاب الأراضى ، وبذلك يصبح ذا سلطتين سلطة الامتلاك وسلطة الحكم ، وكم تكاتف العمد مع مديرى المديريات على حقوق الفلاحين الضعفاء ، وفرض العمد على الفلاحين مبالغ على كل فدان كانوا يقومون بتحصيلها لأنفسهم ، كما امتلكوا الكثير من الأموال عن طريق إعفاءات السخرة ، وبلغ بهم الأمر أن استولوا على الأراضى جبرًا، وتداخلوا فى الاستيلاء على الملح والتحكم فيه بصرفة بزيادة عن المقرر وأخذ الأموال من صراف الناحية عن طريق السلفة وإعطاء أقل مما فى حوزتهم ، ووصل بهم الجبروت إلى ضرب الفلاحين حتى الموت لذا لا نعجب عندما نرى كثيرًا منهم يتركون أملاكهم ويرحلون بعيدًا ليخلصوا من هذا العذاب .

أما عن مشايخ القرى ، فقد كانوا أسوأ حالاً وأعظم وبالاً على الفلاحين ، فسلطتهم إخراج الفلاحين للسخرة ، وتحصيل أموال الضرائب ، وتجميع عساكر الجهادية ، وترتيب الخفر ، وملاحظة الضبط والربط . ومن هنا مارسوا الجور

(*) Wallace, op. cit., pp. 260, 261 .

وحادوا عن الحق واستنفدوا كل طاقات الفلاحين وسلبوا الكثير ، وكتب نائب القنصل الإنجليزى يقول « سلطة المشايخ غير محدودة ، فقد زج أحدهم أربعة فلاحين بالبحيرة فى السجن بدلاً من أربعة أشخاص آخرين »(١) . والسبب واضح ، فإما أن يكون قد ارتشى ، أو على علاقة بهم .

وتعددت طرق احتيالهم ، فبعد انسحاب الفلاحين من أراضيهم كانوا يستولون على هذه الأراضى ويسجلونها بأسماء لأقاربهم ويستخرجون الحجج بعد إحضار من ينتحل الأسماء ، ومنهم من يتحد مع المرابين الأجانب من أجل الاستحواذ على الأراضى الخاصة بالفلاحين « وأربابها ينظرون إليه ولا يقدرون على خلاصها »(٢) .

وكان من نتيجة ذلك أيضًا أن ترك الفلاحون أراضيهم ليعملوا لدى كبار الملاك ، وكما فعل الهاربون من السخرة فعل هؤلاء أملاً فى حمايتهم من ظلم المشايخ ، ومن ثم جنى الفلاح البؤس والهوان وحرم من مقومات الحياة وأصبح فقيرًا مذلولاً ، وقعت عليه الأعباء جميعها ، فهو الممول لأرباب الديون وفوائد السلف التى لم يكن له صوت فى اقتراضها ، ولم تعد عليه بفائدة بل هو خاضع لشرذمة من الأتراك وضعته تحت أرجلها عدة قرون ، ووقع عليه جبروت الأجانب من ربويين ومالكين ، ثم ذلك النظام الإدارى الفاسد الذى خضع له ، وبذلك عاش الفلاح سنين طويلة تحت أثقال المصائب ، وتحمل كل أصناف العذاب والآلام ، ومات غير آسف على ما فات ، فقد أصبح مجردًا من كل شىء « فكان من الأمور النادرة فى تلك الأيام أن يرى الإنسان شخصًا فى الحقول وعلى رأسه عمامة أو على ظهره شىء من قميص »(٣) .

الأملاك الشاسع على حساب الفلاحين

عندما تولى إسماعيل الحكم كان يمتلك ٣٠,٠٠٠ فدان وانتهى به الأمر أن أصبح مالكًا لخمس أرض مصر ، وكلما ازداد شراهة فى اقتناء الأراضى كلما كان ذلك على حساب الملكيات الصغيرة للفلاحين ، فقد اعتبر الخديو نفسه القوة المطلقة على مصر والمصريين ، وأنه المالك الوحيد لتلك الأرض وله الحق فى استغلال ممتلكاته كيفما يشاء ، وكانت طريقته فى الاستحواذ على الأراضى تتم

(١) Egypt, op. cit., p. 118 . (٢) الوطن ، عدد ٦٢ فى ١٨ يناير ١٨٧٩ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, P. 11 .

جبرًا واغتصابًا ، فيتخير له أعوانه خير البقاع وأخصبها ، ويُلزم الفلاحون بالبيع وهم مكرهون عليه وتتم المبايعة بالشهادة الزور ، ويسجل فى المحكمة على أنهم قبضوا الثمن ، وحوَّل الأراضى إلى زراعة القطن وجعل أصحابها عبيدًا فيها . وبذلك آل إليه أكثر من مليون فدان من أجود الأراضى وأخصبها[١] .

وجاءت الحرب الأمريكية لتزيد شغفة فى حب الأراضى ، فكانت أراضيه على قمة الأراضى التى استفادت من ارتفاع الأسعار ، وبنهاية الحرب اتجة إلى السكر فانشأ ١٧ معملاً على أحدث طراز ، وبالتالى استولى على تلك الأراضى للسكك الحديدية والقنوات التى تخدم هذه المصانع ، مستعملاً أعنف الوسائل لذلك ، ليتمكن فى النهاية من امتلاك ٥٠٥,٠٠٠ من الأفدنة لنفسه ، ٤٢٥,٧٢٩ لعائلته[٢] ، فكانت تلك الأراضى عبارة عن مؤسسة للزراعة قائمة بذاتها . أما عن اغتصاب الباشوات ، فقد ساروا فى طريقه ، لتكتمل الدائرة التى يخرج منها الفلاحون معدمين يعملون فى مزارع السادة كعبيد الأرض .

فعندما أراد حسين باشا ضم خمسمائة فدان من أراضى أعالى « صفت الملوك » إلى أراضيه ، تم له ذلك لا لغرض إلا لتكون أراضيه وحدة واحدة لها طابعها المتكامل ، واستولى حليم باشا على ثلاثمائة فدان من فلاحى « الرويسية » ، واستحوذ داوود باشا على أراضى بعض فلاحى مديريتى المنوفية والقليوبية ، وقد اتضح أن هذه الأراضى تبلغ ١٠١٧٧ فدانًا منها ١٧٦٢ بالقليوبية ، ٨٤١٥ بالمنوفية « وقد أجبر الأهالى عن التنازل عنها » . واستولى إبراهيم باشا الألفى على أراضى فلاحى ناحية بشلة بالدقهلية[٣] .

وقد خضع الفلاحون لأعنف إجراءات الاغتصاب ، فمثلاً أحد فلاحى « أبيا الحمرة بحيرة » اشترى نحو العشرين فدانًا بحجة وتقسيط ، وصرف على إصلاحها وبنى بها ساقية ، وكان بجوارها أرض لسفرجى باشا الخديو إسماعيل مشتراه من أرض على بك الميهى ، وضم إليها من الأرض الميرية بطريق التدليس حتى بلغ مقدار

---

(١) الوطن ، عدد ٧٢ فى ٢٩ مارس ١٨٧٩ .

(٢) Affaires Etarngeres, Egypte, LXXX, p. 128 .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر رقم ١٩١١ ، أمر رقم ١٠٣ فى ٦ رمضان ١٢٨١ (١٨٦٥) ، محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، دوسيه ١٠ ، محضر ٦ مارس ١٨٨٢ ، محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، ٢٢ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

ما يمتلكه ثلاثمائة فدان ، واستخدم الأنفار بالسخرة فيها ، وتراءى ببصره ناحية العشرين فدانًا المملوكة لهذا الفلاح ، فكتب إلى مديرية البحيرة بأن زمامه عاجز ولا يكمّل إلا بإضافة العشرين فدانًا ، وعلى الفور عينت له المديرية مندوبين ومساحين ، وبتداخل بين الباشا ومدير البحيرة ، أُحضر الفلاح ووضع فى السجن ، وأحيلت المسألة على مجلس دمنهور ، وأدخلت فى حيازة سفرجى باشا أربعون فدانًا لا العشرون الخاصة بالفلاح الذى أُخرج من السجن وخُيِّر بين « قبول الحكم أو الضرب بالتيلة »[١] ، فكان ذلك أبشع صور الاستغلال .

وبالنسبة لاستيلاء الأجانب على الأراضى عنوة فإنها استمرت أيضًا ، فقد كان « للخواجة يعقوب منشة قطعة أرض فدانًا ونصف خراجى بناحية طلخا ، وبحسب لزومها أخذت منه على ذمة الدائرة على أن يعوض عنها ، فاشترت له الدائرة قطعة خراجى بالمنصورة ، ولكن الخواجة اشترط أن تعطى له أيضًا الأرض المرفقة ، وكانت ملكًا للأهالى وعليها ثلاث سواقى ، وتم له ما أراد »[٢] .

وكثيرًا ما كانوا يغتصبون الأراضى الجيدة الخصوبة بما عليها من سواقى وفلاحين ، ويعطونهم بدلاً منها أراضى قاحلة لا تصلح للزراعة لكثرة ما بها من خلجان وعلوها عن المياه ، ويحولون تلك الأراضى التى استولوا عليها إلى عشورية .

أما عن الجفالك وما قدمته لفلاحيها ، فقد ذاقوا الأمرين منها ، زيدت إيجاراتها فتشتت أهلها فى أرجاء البلاد ، وقسى مفتشوها فكانوا « ينكبون على الفلاحين ويطوقوهم بالإيجار طاقتين ، وعمدوا إلى المواشى فسلبوها ، وأضافوا إليهم عجز محصولات الجفالك عن السنين الماضية ، وكذا إضافات لم تقرر إلا على أصحاب الأراضى منها زيادة العشور ، فأضافوها على أصل مربوط الإيجار ، ومنها فرق الفرز وحفظ النيل ومصاريف الرى وعوايد الحرب ومعامل الدجاج ، مع العلم بأنهم مؤاجرون عليهم دفع الإيجار الأصلى فقط ، وبذلك كان يصل الفدان إلى أضعاف مضاعفة عن الإيجار الأصلى »[٣] .

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٩ فى ١١ يوليو ١٨٧٩ .
(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، دفتر رقم ٩٠٨ ، أمر ١٦٨ فى ٣ ذو الحجة ١٢٨٠ (١٨٦٤) .
(٣) الإسكندرية ، عدد ٣٤ فى ٢٧ فبراير ١٨٧٩ .

كما كان هناك اغتصاب لأراضى الفلاحين باسم المنافع العامة دون أن يعوضوا عنها ، ولم تكن تلك المشروعات المقامة على هذه الأراضى إلا لخدمة الطبقة العليا دون سواها . وهكذا تفتت ملكيات الفلاحين وكثيرًا ما تحملوا تلك الأثقال حتى انهكوا وخارت قواهم ، لكنهم استطاعوا أن يصمدوا إلى أن قامت الثورة من أجلهم فلبوا نداءها .

الحركات الإيجابية للفلاحين أمام قوى القهر

كان طبيعيًا أن تثور هذه الجموع وأن تنطق وتعارض ، فقد فاضت نفسيتها بذلك الكبت ، وأصبح عليها أن تتخذ أى أسلوب يعبر عن ضيقها وتبرمها وتشعر أنه سيكون ضربة موجهة لمستغليها .

سجلت أولى الخطوات ومنذ البداية الهروب ، حقيقة أن ذلك أسلوب سلبى ، لكنه كان ناجحًا حيث عانى أصحاب الأراضى جميعهم من هذا الأمر ، وأولى أسباب هروب الفلاحين عجزهم عن سداد الضرائب ، وعندما مكنت قوانين سعيد من أن تخرج الأرض كلية من أيديهم عن طرق الإرتهان كان التسحب واضحًا ، وقد كثر فى الوجه القبلى أكثر منه فى الوجه البحرى ، فيصف نائب القنصل البريطانى حالتهم يقول : « استمرت هجرة الفلاحين ، وعدد كبير من سكان أرمنت تركوا منازلهم بسبب ذلك الضغط المتزايد عليهم وعلى وجوههم مساحات الغم والفقر والعذاب»(*). وقد سمى هؤلاء بالمتسحبين ، وكثر عددهم بدجة أقلقت بال الحكومة ومجلس شورى النواب ، خرجوا من أراضيهم بعد أن تركوا كل شىء منازلهم القديمة ، أهلهم ، أراضيهم التى ورثوها أملاً أن يجدوا حياة أخرى تكون أحسن مما هم عليه ، وتكونت فرقًا خاصة للبحث عن الفارين وإرجاعهم وكان ذلك ضروريًا ، فمن الذى سيدفع كوبونات الديون ؟

إذن لابد من ترك تلك الأعباء جانبًا والهروب منها ، وبالرغم من أن طبيعة الفلاح المصرى هى الاستقرار وحبه لأرضه والصعوبة البالغة إذا طلب منه أن يتركها ، لكنه أمام هذه الظروف تركها ليبرهن على أنه رافض ، وانضم الرافضون ليكونوا ثورة صامتة ضد الظلم والطغيان وانسحبوا من الميدان .

(*) Egypt , op. cit., p. 40 .

أما عن باقى الخطوات التى اتخذها الفلاحون ، فعدت ترجمة عملية وصادقة لما يلاقونه ، كانوا يتحركون تجاه الثورة ضد الحكام الطغاة وضد الأتراك المغتصبين الظالمين بل وضد الأجانب الغرباء . وبدأت التحركات لتعبر عن الإرادة لضرب السلطة الموجودة وإيذائها .

شهدت السنوات الأولى من حكم إسماعيل قدرًا كبيرًا من الشغب والاضطرابات بين فلاحى مصر العليا بوجه عام ، وكانت أسباب ذلك ترجع إلى السخرة ، وقاد التمرد رجل يدعى « أحمد » إدعى أنه من أحفاد الرسول ﷺ واعتبره الفلاحون وليًا ، ونادى بأنه سيكون حاكم مصر ، وما لبث الأمر أن تحول إلى ثورة فى الصعيد ، وأرسل الخديو الجنود المسلحة ، وذهب بنفسه وقتل الثائر ، ودمرت القرى لتكون أراضى زراعية ، ووزعت أهاليها[١] .

وازدادت أعمال الشغب والاضطرابات ضد السلطة الحاكمة بين سنتى ١٨٧٧ - ١٨٧٩ بين سوهاج وجرجا ، وكان ذلك بسبب قلة مياه الرى والضغط فى تحصيل الضرائب ، فتعصب الفلاحون فى مديرية جرجا على مأمورى التحصيلات[٢] .

وفى عام ١٨٨٠ انتقلت الاضطرابات إلى المنطقة التى تزرع الأرز بشمال الدلتا ، والسبب أن أصحاب هذه الزراعة قد جرت العادة على إعفائهم من السخرة ، علاوة على إرسال مساعدين لهم ، ولكن طلبات الحكومة كانت فوق كل اعتبار « فعصوا الأمر ورضخت لهم الحكومة »[٣] ، فالامتناع عن تنفيذ الأوامر انتصار فى حد ذاته .

وحدث فى كفر الشيخ أن « هجم جماعة من الفلاحين على معاون إدارة المركز وكان معه أربعة خفراء لرغبتهم فى تعداد الأغنام التى كانت معهم ، فضربوهم بالنبابيت وشجوا رؤوس الخفراء ، وأصيب المعاون بضربتين فى رأسه ، وعند علم أهالى القرية حضروا جميعهم بنبابيتهم للاشتراك فى المعركة »[٤] .

---

(١) بير ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٢ ، قلينى فهمى ، مذكرات قلينى فهمى باشا ، ص ٢٢ .
(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٢ فى ١٦ مارس ١٨٧٩ .
(٣) بير ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٥ .
(٤) الوقت ، عدد ٩٦٧ فى ٢ نوفمبر ١٨٨٠ .

وأصبح الفلاحون الذين يعملون فى أراضى كبار الملاك - خاصة الأتراك - يسعون بكل الطرق لعدم نجاح تلك الزراعات ، وبعضهم كان يذهب ليلاً سراً إلى حقول القطن وقت بذر البذور لينزعوا تلك البذور التى بذورها فى النهار ، ليضروا أصحاب الأراضى ، وكان يكتشف أمرهم وتنزل عليهم العقوبات القاسية(١) .

واستتبع ذلك الهجوم على العزب للانتقام من أصحابها ، ففى ٣ يولية ١٨٧٩ تم السطو على عزبة فى كفر بالقليوبية ليلاً ، واستحوذ المهاجمون الفلاحون على عدة آلات وملابس وأوانى نحاسية ، وفى ٢٠ يوليو تكرر ذلك فى عزبة محمود أبو صبيح بالسليمانية ثم فى عزبة محمود الشواربى ، وفى ٢٤ يوليو هوجمت أيضاً عزبة محمود الشرقاوى ، وضربه الفلاحون حتى أنه مات فى اليوم التالى ، وفى ٢٦ يوليو اعتدى على عزبة عبد الرحمن أحمد وأخذ منها كردان ذهب وزوج أساور فضة وأوانى نحاسية ، وقد استعمل البوليس القسوة الشدة ولكنها كانت تأتى بنتيجة عكسية(٢) .

هذا فى الوقت الذى بدأ فيه الوعى العام ينمو ، فتلك الظروف الصعبة التى مر بها الفلاحون خلقت منهم أشخاصاً يفهمون ويتدبرون ويحيدون عن الطاعة التى اتصفوا بها ، وقد لازم الوعى تلك المساوئ التى ازدادت مع حكم إسماعيل حتى أن مصر فى نهاية عهده أصبحت أمه تعانى ، فقد أخرج بتصرفاته الفلاحين الصامتين عن صمتهم وأفاقهم من غفلتهم .

وكان الرأى قد تبلور فعلاً والتحرك قد بدأ ، فيكتب مراسل صحيفة التيمز فى ٢٣ يناير ١٨٧٩ يقول : « لست مبالغاً إذا قلت أن فى القاهرة الآن مئات المشايخ يمثل كل منهم قرية من القرى ، لقد جاءوا بمعروضات يسألون فيها تخفيف الضرائب ، وكلهم يُعلن أنه لا يمكن بقاؤها على ما هى عليه ، جموع محتشدة أمام النظارات حيث يعترضون النظار فى غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقلام المصالح »(٣). معنى هذا أن الفلاحين قد تنفسوا وختموا على العرائض وجاهروا علناً بالشكوى غير راضين على أوضاع أوجدتها الحكومة وبالتالى فهم غير راغبين فيها .

---

(١) Wallace , op. cit., p. 264 .

(٢) Egypt , op. cit., p. 49 .

(٣) The Times, January 23, 1879 .

وتابع ذلك أنهم لم يعودوا يكتفون بإرسال من ينوب عنهم بل جاءوا بأنفسهم ، فتقول صحيفة التجارة : « وفد من أهالى الفيوم وفدوا بالأمس على حضرة ناظر المالية حفاة عراة يئنون مما لاقوه من ضرب وسجن وتغرير من المأمورين المنطوين بتحصيل الأموال وحالهم يشهد بصدق مقالهم »[١] . وأرادت الحكومة بكل الطرق أن تجتث على هذا الوعى الذى ظهر وذلك التزمر الذى انتشر ، فمضت فى سياسة القمع لا الإصلاح لتزيد من الأوضاع سوءًا ، فكانت تقضى على حركات المعارضة إما بالنفى خارج مصر أو بالوضع فى السجون ، وقد طبقت مسألة السجون على الفلاحين أكثر من النفى . وأبان لنا وكيل القنصل الإنجليزى ذلك « إن الفلاحين الأربعة الذين اشتكوا مازالوا موجودين بسجن قنا ، هؤلاء الأشخاص الذين وضعوا فى السجن لا من أجل جريمة اقترفوها ولكن لأنهم التمسوا العدل والإنصاف »[٢] . ومما لا شك فيه أنه كان لمجلس شورى النواب الأثر أيضًا فى تحريك الرأى العام الفلاحى ، فالنواب هم من طينة الفلاحين ، تلك الطينة التى تكره الباشوات الأتراك. أليس هم العمد ملوك القرى ؟ أليس هم الذين يعارضون فى مناقشاتهم الضرائب ؟ إذن فقد كانوا عاملاً مشجعًا على أن ينطق الفلاحون .

وتأتى الثورة ليكون الفلاحون هم الدعامة الأساسية فيها ، فهى ثورة صادقة عبرت عما يجيش بصدور هؤلاء المعذبين . لقد استغرق ما سُطِّرت فيه الظروف التى مر بها الفلاحون صفحات كثيرة ، وحصلَ على مجهود كبير كى لا يُفرِّط فى شىء ، خصوصًا تلك الأعباء التى وقعت على كاهلهم وكانت الأساس المتين الذى شكلهم ، وجعلت منهم عنصرًا أساسيًا فى الثورة العرابية التى اشتركوا فيها بكل طاقاتهم ومادياتهم ومعنوياتهم وإيمانهم الصادق ورغبتهم الأكيدة فى التخلص مما حاق بهم لفترات طويلة ، لذا فإنه من الواجب أن تدعم تلك الخلفية لفلاحى مصر حتى يفهم الدور الذى لعبوه فى الثورة .

■ ● ■ ● ■

---

(١) التجارة ، عدد ١٧٩ فى ١ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) Egypt, op. cit., October 16, 1879 .

الفصل الثاني

التجار والحرفيون

... ارتكزت الرأسمالية فى مصر على أصول زراعية ، وذلك بتطور الملكية من عامة إلى خاصة ، وبانفتاح الاقتصاد المصرى على الغرب عن طريق المحاصيل النقدية وخاصة القطن ، فأصبح هناك مجال واسع للتجارة ، صحبه ورود التجار الأوربيين إلى مصر وتحكمهم فى هذا الميدان بعد أن انسحب منه المصريون ، وفقًا لنظام الاحتكار الذى أوجده محمد على مما كان له الأثر السئ فى القضاء على طبقة التجار المحليين .

وبنهاية هذا النظام بناء على توقيع الإتفاق الإنجليزى العثمانى فى عام ١٨٣٨ الذى سمح لرعايا بريطانيا بالإتجار فى المنتجات الزراعية والصناعية فى جميع أنحاء الدولة العثمانية بما فى ذلك مصر دون قيد ولا شرط ، والذى ألغى الحظر المفروض على تصدير بعض السلع ، تحررت التجارة من الاحتكار وبدأت سياسة الباب المفتوح .

ومع سعيد انتقلت التجارة إلى أيدى الوطنيين لفترة قصيرة ، استطاعوا أن يحلوا فيها محل التجار الأجانب الذين كانوا قد بدأوا التوغل فى داخلية البلاد ، كما أنه أصلح من شأن الجمارك فجعلها مصلحة أميرية مستقلة ، وأصبح التجار أحرارًا فى اختيار الوسائل التى ينقلون بها محصولاتهم .

وازدادت الحركة التجارية على يد إسماعيل ، فاعتماد مصر على الزراعة أعطى الفرصة الكبيرة لرواج التجارة الأجنبية ، فالحاجة أصبحت ملحة فى استيراد الوقود والآلات حتى المواد الغذائية جلبت إلى مصر بمقادير وافرة ، وكان لزيادة عدد السكان ، وتدفق الهجرة الأوربية مع سعيد طمعًا فى الثراء حيث جاءت من أجل

المشروعات وفقًا لسياسة الانفتاح ، وتعلق المصريين بالمدنية الأوربية ، والتوسع فى زراعة القطن على حساب المحصولات الأخرى إذ ارتفع الصادر منه فى المدة من ١٨٥٠ - ١٨٨٠ إلى ما يقرب من عشرة أضعاف(١) ، وقناة السويس التى جعلت لمصر مركزًا تجاريًا بين الشرق والغرب ، وتقدم وسائل العمران والمواصلات والاهتمام بالموانى والملاحة ، كل هذا أدى إلى انتعاش التجارة التى أنشئت لها نظارة خاصة بها ، وازدادت أهميتها وأصبح الميزان التجارى دائمًا فى صالح مصر ، فقد وصلت صادراتها عام ١٨٧٤ إلى ١٢,٧٣٠,٠٠٠ جنيه مصرى ، بينما كانت الواردات ٥,٦٩٤,٠٠٠ جنيه مصرى ، لكن كانت هناك العوائق التى حدت من استفادة مصر ، فالالتزامات الملحة والرقابة الأجنبية التى جندت ما تمتلكه مصر من أجل تسديد الديون ومضاعفتها منذ عام ١٨٧٧ الرسوم الجمركية ، ومظاهر إسماعيل ، وتلك الحروب التى خاضتها مصر ، واضطراب النيل فى بعض الأحيان ، وأخيرًا تحكم الدولة العثمانية فى التجارة المصرية وخاصة أنها تصدر منتجاتها إلى مصر أكثر مما تستورد منها ، وتستخلص الرسوم قبل التصدير .

أما النهضة الصناعية التى أقامها محمد على بتلك الأعداد من الورش والمصانع الحربية ومصانع الغزل والنسيج والسكر والنيلة ، ثم إنشائه لترسانة الإسكندرية ، لم تكن وفقًا لأسس وقواعد تنظيمية ، كما أن أخذ الدولة بنظام الاحتكار قضى على أى تقدم ، وأيضًا على طبقة الحرفيين ، تلك الطبقة التى فى إمكانها فى ظروف نمو طبيعى أن تتحول إلى بورجوازية تجارية وصناعية كما حدث فى أوربا(٢) .

وكان عمر تجربة محمد على عشر سنوات ، ولم تترك أثرًا ذا بال على الحياة الاقتصادية أو على شكل الإنتاج ، لأن هذه المصانع أقيمت لخدمة الأهداف التى رمى إليها الباشا ، وهى توفير العتاد والعدة للجيش ، وجاء عباس ليبطل فى يوم وليلة على ما تبقى من معامل القطن والكتان والأقمشة والأجواخ والحرير والمقصبات التى أنشأها محمد على ، وشرد من كان بها من الصناع والعمال ، ولم يحدث فى

(١) أحمد أحمد الحتة ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٧ .

(٢) محمد أنيس ، السيد رجب حراز ، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ، ص ١١٢ .

فترة حكمه أى تطور إلا عندما قامت حرب القرم ، فانتعشت قليلاً الصناعات المتصلة بالجيش والأسطول ، كما أن السياسة الإنجليزية وتقدم صناعة المنسوجات السريعة استدعى أن يعمل الإنجليز على تهيئة الظروف لإيجاد سوق لتصريف المنسوجات واستيراد القطن المصرى .

أما سعيد فقد صب اهتمامه على الزراعة ولم يبذل جهدًا فى الصناعة ، وقد شهد عهده التدفق الأجنبى للسيطرة على الاقتصاد المصرى ، وتوافدت الواردات الأجنبية لتقف أمام أى إنتاج صناعى محلى يمكن له أن يقوم .

وكان من جراء تهاون سعيد أن ارتبط الإنتاج المصرى بسياسة أوربا نحو مصر ، وصارت مصر سوقًا للمصنوعات ورؤوس الأموال الأجنبية ومصدرًا للمواد الأولية ، وتركزت العناية بمطالب الطبقات العليا وإهمال ما عداها ، وهكذا لم تجد الرأسمالية الأجنبية وهى تتسرب إلى مصر قوة فى مواجهتها من البورجوازية أو طبقة الحرفيين بل وجدت السوق المصرى خاليًا تمامًا لها .

وحاول إسماعيل العمل على إيجاد صناعة وخصوصًا بعد تلك الفرمانات التى حصل عليها ، وكان من نتائجها السماح بزيادة الجيش وبناء السفن ، ولكن محاولته هذه ذهبت لصالح الأجانب ، كما أن اتجاهه كان أيضًا للصناعات المرتبطة بالاقتصاد الزراعى ، كصناعة السكر وحلج القطن وعصر الزيوت والجلود وطحن الحبوب والورق وبعض الأنواع من الأقمشة القطنية والطرابيش ، وازدهرت صناعة حلج القطن تبعًا لاتساع زراعته أثناء الحرب الأمريكية ، فزاد عدد المحالج من ٢٤ محلجًا فى يونية ١٨٦٢ إلى نحو ٥٠ محلجًا فى نوفمبر من نفس السنة(*) . لكن تلك الصناعة انتكست عقب نهاية الحرب ، فزاد إسماعيل من صناعة السكر حتى بلغ عدد المصانع ١٧ مصنعًا ، لكن لم يكن العمال يعنون بأمر تلك الصناعة إذ سخروا فيها ، والنتيجة استمرار هروبهم فساء الإنتاج تبعًا لذلك ، هذا وقد تدهورت تلك المصانع بناء على الظروف المالية ، فاستولت عليها شركة فرنسية فى إطار التسلط الأجنبى الذى قبض فيه الأوربيون على الحياة الاقتصادية فى مصر ، بعد أن مهد إسماعيل وسهل طرق السيطرة لهم .

(*) محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، ص ١٩٦ .

وأصبح الاعتماد على أوربا فى كثير من لوازم المعيشة والترف وتغيرت الأذواق ، وتطورت حياة الطبقتين العليا والوسطى ، بينما بقيت حياة الطبقة العامة على حالها، فكانت النتيجة أن قل الطلب على المصنوعات المحلية ، تلك المصنوعات التى لم تستطع أن تواجه ذلك المستوى والاتقان الوارد من الخارج . وهكذا قضت الصناعات الأجنبية على الصناعات الوطنية ، وقتلت الابتكار والتفنن لدى الصناع الذين لم يستمروا فى أعمالهم نتيجة بوار مصنوعاتهم ، أضف إلى ذلك جمود نظام الطوائف الذى كان عاملاً فى تدهور الصناعة الوطنية ، فكل صناعة أو حرفة كان يقال لها طائفة ، ولكل منها شيخ ينتخب ، وتصدق الحكومة على تعيينه مقابل رسم ، وهو يحدد أثمان العمل ويرتب درجات الأجور ويستقبل الأعضاء الجدد ، كما أنه المسئول عن دفع أعضاء الحرفة للضرائب ، ولذلك اعتبر نظام الطوائف الوسيط بين فئات الشعب من ناحية والحكومة من ناحية أخرى .

وكافحت طبقة العمال من الصناع والحرفيين من أجل البقاء ، ففى القرية كان النساجون والصباغون وصانعو الحصير أحسن حالاً إذا قيسوا بالفلاحين ، أما فى المدينة فقد زاولوا نشاطهم فى إطار محدود ، فكان منهم صانع الأسلحة ، الحداد ، صانع الطوب ، النجار ، الحصرى ، صانع الملابس ، الصائغ ، المطرز ، الحفار ، صانع الأحذية ، الخياط ، الجوهرجى ، حارق الجير ، البناء ، الحجار ، الدباغ ، القصديرى ، السمكرى ، المنجد ، المطبعجى ، النساج ، صائد السمك ، النوتى ، صانع الورق ، صانع الزجاج ، القلفاطى ، مركب المرازيب ، القمراتى ، السروجى ، المغربل ، المرخماتى ، الفحام ، النقاش ، عامل الشباك ، الخيال ، الطوابى ، الفخرانى ، وقد وصلت أعدادهم إلى ٩٧٢٧٧ فى عام ١٨٧٧(*) .

وعلى الرغم من امتلاكهم لوسائل بسيطة للإنتاج ، وممارستهم نوع من الإنتاج الحر ، فإنهم كثيراً ما اضطروا إلى بيع جزء من قوة عملهم ، وشعروا دائماً بوطأة الفقر ، وخطر البطالة ، وقد تحول كثير منهم إلى عمال أجراء فى تلك المشروعات التى أقيمت فى عهد إسماعيل و ولكنهم أيضاً وجدوا فيها المنافسين من الأجانب ، فقراء البحر المتوسط .

(*) المرجع نفسه ، ص ٣٣٤ .

وكانت الحكومة متراخية فى ميدان الصناعة المحلية ، فهى لم تقدم المساعدات المالية ، ولم تعف الآلات والأدوات اللازمة لها من ضريبة الوارد ، وتحصيلها أجور غير منخفضة على النقل للمصنوعات الأهلية ، وعدم تشجيعها صرف أية مكافآت ، وتصعيبها التسليف من المصارف المالية ، وعدم افتتاحها مدارس صناعية ، وأخيرًا أنها لم تفكر فى إنشاء نقابات للعمال تمنحها امتيازات تكفل الوقاية لهذه الطبقة بل زادت من أعبائها بتلك الضرائب التى فرضتها عليها .

الصعوبات التى واجهت التجار والحرفيين :

(أ) الضـــرائب

عرقلت الحكومة التجارة الوطنية عن طريق الضرائب التى فرضتها عليها ، فالدخولية حصلت على البضائع والسلع فى جميع مديريات مصر ، وكان ذلك عائقًا للتجارة الداخلية وسببًا فى ارتفاع الأسعار ، وفرضت ضريبة على الوزن ، فتقول صحيفة المحروسة « إذا اشترى التاجر البضاعة ويأتى بها موزونة وعليها رسم المقدار ، فيلزم بإعادة وزنها لدفع العوائد ، فإذا أراد بيع طرد بوزنه ألزم بإعادة الوزن ثالثة ، وهكذا كلما تكرر البيع تكرر الوزن حتى يدفع الطرد قيمة ثمنه ، فتعطلت بذلك تجارة الوطنيين وراجت تجارة الأجانب لكونها معفاة من ذلك »(*) . أيضًا كانت هناك عوائد الحملة على كل ما يباع فى الأسواق وهى تحصل بطريقة الالتزام ، وأخذت من التجار ضريبة « الويركو » ويختلف مقدارها بنسبة ما يكسبه التاجر ، وفرضت الضرائب الشخصية على بيع المواشى والدلالة وبيع المجوهرات والسمسرة ومقالى الحمص واختصت بالتجارة الوطنية دون الأجنبية ، كذلك دفعت الرسوم على المراكب الشراعية والتجارية التى تنقل البضائع ، وأصبحت تجارة السلعة تخضع لأكثر من ضريبة وخاصة إذا كانت مستوردة .

وسادت الضرائب على جميع أرباب التجارة حتى أفقرتهم ، فلم يعف متجر وإن قل من إتاوة يؤديها ، وزاد الأمر سوءًا تصرفات مشايخ الطوائف مع صغار التجار ،

(*) المحروسة ، عدد ٨ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .

وقد عرضت هــذه المسألة على مجلس الشورى النواب حيث كان بعضهــم « يكون معينًا فى الويركو على طائفته فيتهافت على طائفة الآخر فيرميها بمصائب طائفته ، فترى عطارًا مثلاً يتناول مطالبة ثلاثة أو أربعة من مختارة الطوائف ، كل يطلب منه ويركو لطائفته ، هذا كونه عطارًا وذاك على كونه خضريًا لبيعه الأرز والآخر على كونه سكريًا لأنه يبيع السكر وخلافه على كونه بنانًا لأنه يبيع بنًا حال كون ما فى دكانه لا تبلغ قيمته عشر ليرات ، فاضطرت هذه الأحوال التاجر إلى الإفلاس والعامل إلى السؤال »[1] ، وزيادة على ذلك ، فقد أثقل ذلك التاجر بتلك الرشوة التى كانت مقررة عليه لتلك الطائفة .

هذا وقد عانى التجار من تداول العملة بزيادة عن قيمتها الميرية ، بالإضافة إلى الرسوم الجمركية سواء على الوارد أو الصادر وعلى جميع السلع حتى الملح إذ قررت الحكومة « أخذ عشرة قروش على كل تونيلاطة يصير تصديرها »[2] ، أما الوارد فذاق التجار فيه العذاب « فإن تخليص رزمة واحدة من البضاعة يكلف التاجر أن يصرف فى الجمرك نهارًا كاملاً أو نهارين يدور فيها على نحو عشرين مأمورًا ، وما يتبع ذلك من مثمنين ومراجعين وكشافين وباشكتبة ونيشانجية ، ويتكلف نفقات الترجمة حيث أن هؤلاء جميعًا أجانب »[3] ، وشكلت مسألة تهريب الدخان مشكلة أساسية للتجار ، وكانت قد تكونت جمعية من التجار لإنقاذ تجارته من الإنهيار ، ورفعت العرائض إلى الحكومة لتعديل نظام الدخان البلدى بحيث تأخذ رسومه على حسب مساحة أرضه فى كل مديرية وطالبت بمنع تهريبه ، لكن الرشوة والمحسوبية سادتا ، فازدادت الأعباء على التجار فى الوقت الذي انخفض فيه البيع.

وبالإضافة إلى هذا ، تلك الظروف الطبيعية التى تعرض لها التجار على أثر حالة النيل وما تبع ذلك من كساد السوق ، كما كانت الظروف المالية القاسية على الجميع قد أثرت عليهم ، ولدرجة أن مطلوباتهم على المالية قد أغفلت ، فساءت حالتهم إلى أقصى درجة .

---

(١) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١١ صفر ١٢٩٦ (٢٣ فبراير ١٨٧٩) .

(٢) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/حـ ، محضر ٥ يونيو ١٨٨٠ .

(٣) التجارة ، عدد ١٧٦ فى ٢٨ يناير ١٨٧٩ .

وبالنسبة للضرائب التى فرضت على الحرفيين ، فقد ظلت العلاقة بين الحكومة ومشايخ الطوائف قائمة ، فهى التى تعينهم وتطلب منهم المعلومات عن أفراد الطائفة ، فيسترشد بهم فى فرض ضرائب الحرف التى كانت تجبى بوسائل الإكراه .

وفرضت الضرائب على أقل المهن وزنًا ، وحتى الذى ليس له مهنة ، فعندما سُئل أحد كبار الموظفين أمام لجنة الدين عن سبب ذلك أبدى دهشته وقال « هل هى غلطة الحكومة أن ذلك الرجل لا يمارس أى مهنة ، أنه يستطيع أن يشغل نفسه بأى مهنة يختارها ، وأن الحكومة لا تمنعه من أن يفعل ذلك ، ولكن إذا لم يختر أية مهنة فيجب على الأقل أن يدفع الضريبة ، وإلا فيقع الظلم على المشتغلين بالمهن والحرف المختلفة »(١) . تلك كانت القاعدة التى فرضت الحكومة على أساسها الضرائب فلم تترك أحدًا إلا وألزمته بالدفع ، ولم تفلت من يدها أية ثغرة ممكن من أن يأتى منها بالمال .

وتعددت الضرائب : التمغة المضروبة على الأصناف المصنوعة ، ومعاصر الزيت، وضرائب القبانية والصيارفة والطبالين والزمارية والشيالين والحمارين والفخارين ، كما خضعت مصنوعات المنسوجات والمحيك والقماش الخام للضرائب ، هذا بالإضافة إلى ضريبتى الدخولية والويركو التى خضع الجميع لدفعهما مهما كانت حالتهم المالية ، وقد أبان نائب القنصل الإنجليزى كم كانت الضريبة الأخيرة مجحفة بطائفة الفحامين(٢) .

هكذا كانت القاعدة الضريبية مبنية على غير أسس ولم تكن الحكومة فقط لتفرض وتزيد ، بل أن القائمين على الأمر كان لهم مجهودهم الوفير فى المزيد لصالحهم ، « فقزازية الحرير كان المربوط عليهم كل ألف درهم عوائد مقدارها ٢٠ قرشًا ثم تزايدت بطرق غير رسمية ، وقد اتفق الملتزمون مع شيخ الطائفة على أن يغض النظر عن ذلك ، وهم يدفعون له أقمشته بدون أجرة أو رسم »(٣) .

إذن فشيوخ الطوائف وقفوا حاجزًا دون النهوض بالحرف ، فقد بالغوا فى الإساءة للطوائف بملزومهم وزيادة أعبائهم بالضرائب ، وكثيرًا ما غبنوا الفقراء ،

(١) Cromer , op. cit. VOLI, p. 49 .

(٢) Egypt, No. 3 (1880), Inclosure 13, p. 11 .

(٣) التجارة ، عدد ١٢٩ فى ٣٠ نوفمبر ١٨٧٨ .

وبذلك فقد ضاعف الشيوخ الأعباء وحملوا الحرفيين أثقالاً فوق طاقاتهم من أجل مصالحهم الخاصة ، وأصبح وجودهم مقترنًا بالضرائب وساءت الحالة ، وبالرغم من أن حكومة رياض قد ألغت بعضًا من الضرائب لكن الواقع أنه عند التنفيذ كانت هناك الاستثناءات التى أصبحت قاعدة فى المسألة الضريبية .

(ب) الأجانب

مع سياسة الانفتاح والترحيب بالأجانب خضعت مصر ومن عليها لسلطانهم ، ولم يكن الأجانب بأوربيين فقط ولكن وجدت عناصر أخرى من شعوب البحر المتوسط ، وكون الجميع مزيجًا من الاستغلال والاستبعاد للمصريين وسيطروا على الموارد الاقتصادية ، فالأرمن برعوا فى التجارة واحتكروا الدخان ، والسوريون عملوا أيضًا بالتجارة سواء فى الأقطان أو فى الأموال فكانت لهم البنوك الخاصة بهم التى مارسوا الربا فيها ، كذلك التجار المغاربة زاحموا المصريين فى أرزاقهم ولكن الأوربيين حدوا من نشاطهم الكبير ، واليهود الذين اشتهروا بالسمسرة وتجارة الأموال والربا وأنشأوا المحال التجارية للبضائع الأوروبية ، أما اليونانيون ، فاحتكروا تجارة التجزئة وخاصة البقالة ، والمشروبات الروحية كانت من نصيبهم ، ويبدأ اليونانى بسيطًا جدًا فى حانوت حقير ينام ليلاً فيه وعن طريق رفعه للأسعار والربا يصل إلى أعلى المراكز ويصبح رأسماليًا كبيرًا يعمل بتجارة القطن ، أما الإنجليز فقد سيطروا على فروع كثيرة فى التجارة ، فاحتكروا المنسوجات الصوفية والبياضات والفحم الإنجليزى ، وكان للفرنسيين مركز منفرد لدى إسماعيل فى المشروعات التجارية ، وخاصة إذا كان مدير الجمارك فرنسيًا ، ومن هنا أصبحت البضائع الفرنسية تفيض بها الأسواق وخاصة المنسوجات الحريرية والدانتيلات .

وأصبحت الإسكندرية الأساس التجارى لنشاط الأجانب حيث كان عددهم مرتفعًا، ففيها سوق القطن المصرى والبيوتات التجارية والمالية ، فتسلطوا على التصدير والاستيراد لدرجة أنه عندما كانت الحكومة تريد شراء غلال أهالى مكة والمدينة ، كان الشراء يتم من « الخواجات »(*) ، الذين تحكموا فى الأسواق .

(*) معية سنية عربى ، دفتر القيد غير الرسمى ، رقم ٢٤ ، سجل ١٢ ، ٩ رمضان ١٢٦٩ (١٨٧٩) .

وقد شجع الموظفون الأجانب العاملون بالدولة على تصريف تجارة بلادهم رغم وجود ما يحتاجون إليه فى مصر ، فإنهم عملوا على إحضاره من الخارج « فالجنرال ماريوت المسيطر على السكة الحديدية يشترى جميع الأشياء اللازمة لها من بلاده لترويج الذى كان لا يشترى ولا يباع ، وإن كان يوجد منها فى هذه البلاد بأبخس الأثمان ، وهذا من جهة رترويج تجارة أبناء جنسهم »(١) ، ووقعت الجمارك تحت تصرفهم فأساءوا للتجارة الوطنية كما تغيرت سياسة الجمارك بتغير الموظفين الأجانب .

ومن ثم كان وضع التجار المصريين ومآلهم نتيجة التحكم الأجنبى سواء بالسيطرة على التجارة عن طريق عملهم فيها أو على الجمارك ، وبالإضافة إلى ذلك فقد خضعت مصر لعمليات تهريب كبيرة أضرت بالتجارة ضررًا بليغًا ، وكان القائمون عليها الأجانب ، فلا يمكن إقامة مراقبة أو خفر فعال على مراكب تجارية تحت علم أجنبى ، ولا يمكن الصعود إلى السفن المشتبه فيها والراسية فى الميناء لأجل تفتيشها، فأصبحت « واجهة مصر البحرية ميدانًا تجرى فيه جماعة المهربين السلب والنهب بكل وقاحة »(٢) .

وتزعم عمليات التهريب اليونانيون الذين عاثوا فى مصر فسادًا ، وعندما يضيق عليهم الحراس الخناق ، يجردون خناجرهم ويطلقون عليهم الرصاص ، وأثناء عمليات التهريب ، كان المواطنون أيضًا يتعرضون إلى الإصابات وليس الحراس فقط « فالخواجة أنطونيو ينى أثناء مروره بطريق المطرية وهو محملاً أطلق الرصاص وأصاب خمسة أنفار من الأهالى »(٣) . وأمام تحقيق اليونانيين لأهدافهم سلكوا مسلك القتل لمعارضيهم وترتب على ذلك اضطرابات كانت تذهب بضحايا كثيرة من المصريين ، وسرى أمر التهريب على السلع الداخلية ، فحينما حظرت الحكومة من التعامل بالملح الذى كان حكرًا عليها كان البقالون اليونانيون يقومون بتهريبه على أوسع نطاق .

---

(١) الوطن ، عدد ٤٨ فى ١٢ أكتوبر ١٨٧٨ .

(٢) دوفرين ، المصدر المذكور ، ص ٤٦ .

(٣) التجارة ، عدد ٥ فى ٢٠ مايو ١٨٧٨ .

تم ذلك فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية ، فبالرغم من أن الأجانب كانت لهم الأعمال التجارية والمالية الواسعة ، فإنهم بالإضافة لأعمالهم التى أضرت بالتجارة المصرية قد أعفوا من الضرائب ، بينما ألقى عبؤها على التجار المصريين الذين كانوا يجدون فوق ذلك منافسة الأوربيين لهم ، فنرى الحكومة على سبيل المثال ترفع عن الأجانب الرسوم والعوائد الخاصة بسفنهم ، بينما لا ترفع عن الأهالى ، ومن هنا باعوا بضاعتهم أقل سعرًا من الوطنيين ، فراجت تجارتهم بالتالى وزادت ثروتهم، أما المصريون « فاضمحلت أحوالهم واختلفت أشغالهم وضاق بهم الضيق والعسر والضنك والضر فالتزم كثير منهم على قفل دكاكينهم »[1] ، وبذلك خلقت روح الكراهية بين الأجانب المستغلين وأصحاب البلاد الأصليين ، فإن عدم المساواة وجدت عند المصرى ، فهو يصادفها فى كل لحظة إذ يرى الوافدين يتقاطرون إلى بلاده لينتفعوا من منافع تربتها وهوائها ولا يستطيع أن يزاحمهم فى الميدان ، وبذلك كانوا يعودون إلى بلادهم وهم أصحاب ثروة عظيمة ، بعد أن كانوا لا يجدون لقمة عيش عندما حضروا لمصر ، وفوق ذلك فقد مارسوا الاعيب التجارة، وكان منهم من يسىء إلى التجار المصريين الذين تعرضوا لشغبهم ، فكثيرًا ما فقدوا ما فى خزائنهم عن طريق سرقات الأجانب لها ، وفى بعض الأحيان يحدث اتفاق بين التجار الأجانب وهؤلاء اللصوص ضد التجار المصريين . فتذكر صحيفة الوطن « حضر صباحًا الحاج محمد سليمان الدخاخنى من أعيان تجار المدينة وفتح دكانه الكائنة بشارع الميدان ، فوجد ما بها من البضائع على غير ما تعهده قبل أيام ، فتأمل فى خزانة النقود فإذا بها فارغة »[2] ، وقد اتضح أن السارق أجنبى ودخل بمعاونة جاره التاجر الأجنبى .

أما عن الصناع والحرفيين ، فقد تعرضوا لمزاحمة الأجانب ، إذ عمل الإيطاليون فى المهن الفنية والحرف كبنائين ونجارين ، ومنهم من كان « سائق عربات » وكثيرًا ما ارتكبوا الحوادث ووقع تحت العربات التى يقودها أجساد الأهالى ويمضون بدون عقاب[3] ، وبينما فرضت الضرائب على المصريين ، فتحمل عبأها

---

(١) الوطن ، عدد ٦٢ فى ١٨ يناير ١٨٧٩ .

(٢) المصدر المذكور ، عدد ٧ فى ٢٩ ديسمبر ١٨٧٧ .

(٣) التجارة ، عدد ١٨ فى ٨ يونيو ١٨٧٨ .

السقا وماسح الأحذية والعربجى ، تمتع الأجانب بالإعفاء الضريبى ، بالإضافة إلى تحمل هؤلاء الحرفيين لظلم الأجانب والإساءة على أيديهم « حدثت مجادلة شديدة بين أحد التليانيين والعربجية ، فالأول ضرب الثانى بموس جملة ضربات ، فكانت جروحات العربجى خطرة جدًا »[١] . وكان العاملون من المصريين لدى الأجانب يتعرضون للامتهان والذل ، فنرى أحد الخواجات يصلب شيالاً يعمل فى مكبسه ، وذلك بعد أن جرده من الملابس وتركه على هذه الحالة من الغروب إلى صحوة النهار بلا ستر ولا غطاء والبرد يلعب به والأمطار تحلله بملابسها الثلجية ، فضج الشيالون إلى شيخهم فى استنقاذ أخيهم لكن الخواجة أقسم لا ينزله إلا بعد ثمانية أيام »[٢] ، وتصف صحيفة الوطن حالة الحرفى وما وصل إليه من بؤس وشقاء فى صورة « عربجى الحجر » الذى « يدأب نهاره عملاً يقطع الصخر ويحمله فيغلى نافوخه كالمرجل ليبنى القصور ، وأجرته ثلاثة قروش ونصف ، وأسبوعه خمسة أيام لتعطيل يوم الجمعة ويوم آخر فى مقابلة لبحثه عن عمل فيرجع يومه إلى قرشين ونصف ، فلو أكل النخال وائتدم الملح وشرب البحر وستر سوءته بالخيش وسكن الفقر ، ما أقامت تلك الأجرة أوده وهو ذو عيال عاجزين ، هذا وإن لم يسجن على الفردة والتذكرة الشخصية يومًا أو يومين فى الأسبوع »[٣] .

وفقًا لتلك الأوضاع ، امتلأت الشوارع بالشحاذين ، وداقت الأرزاق وكثرت المظالم على الحرفيين وأصبح الغذاء الحيوانى هو غذاؤهم والكساء المتبطن بالأقذار هو ملبسهم ، بل وفى بعض الأحيان كان عليهم لزامًا أن يقبضوا عملهم « سندات » أعطاها لهم الأهالى نظير خدماتهم كطائفة الساقيين[٤] .

وعلى هذا كانت حالة التجار والحرفيين ، فقد وصلوا إلى درجة من الضنك والإذلال ، وانعكس ذلك على المجتمع بعد الكساد الذى رزح تحته التجار المصريون والإعسار الذى مر بالحرفيين ، فالتجار أفلس معظمهم وأعلنت تفاليسيهم بالصحف بعد أن فشلوا فى التصدى لتلك التيارات الجارفة التى أطاحت بهم ، فأصبحوا

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٢٠ فى ٢٦ سبتمبر ١٨٧٩ .
(٢) المحروسة ، عدد ٨ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .
(٣) الوطن ، عدد ٦٤ فى أول فبراير ١٨٧٩ .
(٤) الوقت ، عدد ٩١٣ فى ١ أغسطس ١٨٨٠ .

مثقلين بالديون الفاحشة التى ضاعف منها خضوعها للربا الذى فرضه الأجانب عليهم ، والحرفيون حطموا وأغلقت الأبواب أمام أرزاقهم وباتوا فى أسوأ حال ، وأصبحوا على أهبة الاستعداد للتمرد بكل الطرق على تلك الأوضاع .

وكان للصحافة دورها فى إذكاء هذه الروح ، فساندت التجار وبينت لهم أدوات الظلم الواقع عليهم ، فشنت الحرب على التجارة الأجنبية والقائمين عليها وامتيازاتهم ، كما راح مثقفو مصر يسجلون تلك المقالات عن الاهتمام بالصناعة ، وكان محمد عبده على رأسهم منذ أن كتب فى صحيفة مصر ، فكثرت مقالاته عن الحدادة والنجارة والارتفاع بالصناعة الوطنية ، وتمضى الصحافة لتعطى الوصف الدقيق لحالة « الحمَّار والجمال والبويجى والبواب والإسكافى والزبال والعربجى والعتال ، إنها لا تكسب صاحبها ما يسد به الرمق ، أما الحدادة والنجارة والنحت والبناية والخياطة والصبغ والنقش فمكاسبها حقيرة ، ولا يخلو واحد من أربابها عن دين ثقيل لا يمكنه سداده[1] ، وعرضت تقدم أوربا واستيلاءها على القطن المصرى واستغلالها له ، وأن مستلزمات الحياة جميعها وارد الخارج مع إمكانية صنعها فى مصر وصلاحية صناع مصر لذلك . وطالبت الصحف الحكومة بتخفيف الضرائب حيث إنها العائق فى رواج التجارة وإحياء الصناعة .

وقد كانت لتلك الكتابات صداها وأثرها العميق فى نفوس المصريين ، ففى الخمس السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل أصبح من الصعب أن يكون هناك حمَّار فى القاهرة أو مدن المديريات المختلفة لم يسمع عن يعقوب بن صنوع ويقرأ له وحتى الذى لم يكن يعرف القراءة من الحرفيين فإنه ينصت إلى من يقرأون ، فهو قريب منهم ومن مشاكلهم يصورها ويدعوهم للثورة على الأوضاع فيقول عقب حركة الضباط فى فبراير ١٨٧٩ « يا رب العالمين إحفظنا وإخواننا وبلادنا من شر شيخ الحارة اللعين ومن شر وكلاه المفسدين وانصر اللهم إخواننا الجهادية وأولادنا تلامذة الحربية والصنايعية والورشجية وكل من كان محب للحرية »[2] ، ويمضى ليبين لهم الظلم الواقع عليهم وضربات القواسة ، وأنه من الضرورى أن يجدوا حلاً لذلك لرفع الظلم عنهم .

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٢ فى ١٢ يونيو ١٨٧٩

وبناء على ذلك أصبح الوعى قويًا والرأى العام واضحًا وصريحًا لتأتى الثورة العرابية وتضم بين جناحيها هذه القوى التى طحنت وسحقت لتطالب بحقوقها وتشترك بكل طاقاتها مع الثورة .

وأخيرًا ، هل حاول التجار الرأسماليون المصريون علاج ذلك الموقف والتخفيف من هذه الظروف الصعبة ؟

كانت الرأسمالية فى أيديهم تتحول إلى امتلاك الأراضى خاصة بعد أن استغلوها فى المحصول النقدى - القطن - فرارا شطارهم تجاه ذلك ، وبالرغم من صيحات الصحافة ومحاولات إثارة الحمية لإنقاذ مصر بالمساهمة فى إنشاء المصانع وإحضار الآلات وتشغيل المصانع ، فإن النتيجة لم تكن مشجعة ، وظهرت فكرة إنشاء بنك وطنى لتمويل المشروعات ، لكن المخاطرة فى مجال السوق صعبة للغاية وعليه قلت المضاربات التجارية . فقد ساد الاعتقاد أن هذه المضاربات ترتبط بالربا وخصوصًا إذا كان المكسب هو رائدها ، لكن هذا لم يمنع أن هناك بعضًا من هؤلاء قد امتلكوا الأراضى ومارسوا التجارة ، مثل حسن موسى العقاد كان يملك ١٢٤٩ فدانًا ، فى الوقت الذى كان يستثمر فيه الأموال فى الأسواق سواء فى تجارة الجملة أو التجزئة(*) . حقيقة لقد أثرت الأوضاع القائمة فى نفسياتهم ، وأصبح من الصعب أن يسكتوا وهم يرون الشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وخياطين وصانعى أحذية وصناعة تختفى وتقوم على أطلالها دكاكين مملوءة بالبضائع الأجنبية، لكنهم لم يبذلوا المال من أجل الإصلاح .

ونشط بعض التجار داخل مجلس شورى النواب ، وعن طريقه أمكنهم عرض الموقف التى تعرضت له تلك الفئات ، فنرى عبد السلام المويلحى ومحمود العطار يطالبان بإبطال الويركو عن المدن التى بها عوائد دخولية ، وأن تنظم مسألة التذكرة الشخصية ، وأن يشترك الأجانب فى دفع الضرائب . كما كان من بين هؤلاء التجار من كان على اتصالات وثيقة بالمثقفين ، ومنهم من تزعم لواء المعارضة كالعقاد الذى جهر بفساد الحكومة فى مسألة الضرائب ، وندد بذلك ورأى ضرورة مساواة

(*) على بركات ، المرجع المذكور ، ص ٢١٩ ، محمود متولى ، الأصول التاريخية للرأسمالية

المصريين بالأجانب فى هذه المسألة ، ولمعارضته نفاه رياض إلى السودان الذى امتدت سلطته على المعارضين لسياسته ، فنراه يضطهد أمين الشمسى ويعزله من منصبه ، حيث كان مناوئًا لنظامه ، وسيكون لذلك أكبر الأثر فى اشتراكهما بعد ذلك فى الثورة(*) .

وهكذا وصلت الحالة إلى ذروتها من الضياع ، وكان لابد من قارعة لتنظيم الصفوف وتوحيدها لتقف أمام الأوتقراطية الحاكمة والوصاية الدولية المفروضة وتطالب بحقها فى الحياة .

■ ● ■ ● ■

(*) محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، ٩ سبتمبر ١٨٧٩ .

الفصل الثالث

المثقفون

... (أ) الجناح المدنى :

إن الثقافة ليست غريزية ولا فطرية ، ولكنها تتكون بتفاعل عدة عوامل ، والطبقة المثقفة هى التى استحوذت على تلك العوامل الخاصة بالبناء العقلى للأفكار والمعايير والقيم سواء المادية أو الروحية ، والتى انعكست على مظاهر سلوكها من تلك السمات الثقافية المتكاملة ، وقد أكتسب المثقفون ثقافتهم من خلال البعثات العلمية للخارج ، وتقدم حركة التعليم الداخلى والترجمة ، ثم عن طريق الإحتكاك مع الخبرات الأجنبية المستوردة . والمثقفون طبقة جديدة على المجتمع المصرى ، فلم يكن لهذه الطبقة جذور تاريخية أو تراث قديم فقد تشكلت منذ مطلع القرن التاسع عشر.

جاء بونابرت إلى مصر ، ذلك الفرنسى رمز الثورة البورجوازية والمتشبع بمبادئ الثورة الفرنسية ليستولى عليها ، وأراد أن يتقرب للمصريين بتلك المبادئ ، فكان ذلك سلاحًا ذا حدين ما لبث أن قضى عليه وعلى أطماعه .

وعندما تسلم محمد على مقاليد الأمور فى مصر ، وجد البذور الصالحة التى مكنته من خلق طبقة مثقفة وذلك بنشاطه فى مجال التعليم ، فقد أرسل البعثات إلى أوربا وخاصة فرنسا ، ومنها أنهل المبتعثون من الثقافة الأوربية وعرفوا حرية الفكر واقتبسوا من التقدم الأوربى ، وتشربت نفوسهم بالآراء العصرية الجديدة ، ثم عادوا متشبعين بالفكر الليبرالى ليصنعوا نهضة فكرية ، ولينشروا تعاليم أوربا وأنماطها ومناهجها ونظمها ، وظهر اتجاه جديد يرتبط بانفتاح مصر على الثقافة الغربية ، بحيث لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية ، فقد رئى أن الإسلام يؤيد الاتجاهات السياسية الحديثة .

وكان أعظم نتاج قدمته لنا تلك البعثات هو رفاعة الطهطاوى . ذلك المفكر الليبرالى ، الذى شاهد الثورة الفرنسية لعام ١٨٣٠ وتأثر بمبادئ الفكر الفرنسى بعد

استيعابه لكتابات فولتير ، وكوندياك ، وروسو ، ومونتسكيو ، وانبهر بآثار حركة الاستنارة التى قدر لها أن ينقل تراثها إلى الفكر المصرى الحديث ، ولم يكن الطهطاوى إلا مدرسة وتيارًا جرف الأفكار القديمة ليضع مكانها الحديثة ، وكان لتلاميذه دور فى نشر دعوته ، كما أن لمؤلفاته ثقلها ، تلك التى التمس فيها لمصر أسلوبًا من أساليب الحكم الفرنسى ونادى بالدستور ، ذلك القانون المكتوب الذى يوضح حق الحاكم والمحكوم ومجلسيه ، وشرح الليبرالية والراديكالية والعدالة السياسية ، وبيَّن أن حقوق الإنسان ليست مجرد أشكال سياسية فارغة ، بل نظم لها مضمون اجتماعى واقتصادى المعالم ، وتناول أنواع الحكم الملكى والجمهورى ومعانى الوطن والوطنية ، ودعا إلى حرية الفكر والرأى ، كما ساهم فى وضع أسس القانون المصرى على أساس القانون الفرنسى ، ولعب دورًا بارزًا فى الصحافة المصرية ، ووضع بصماته القوية على الحياة الفكرية ، وكان له مجهوده فى عرض قضايا المجتمع وتركيزه أيضًا على تعليم المرأة وتثقيفها ودورها ومميزاتها .

كذلك كان من طلائع المفكرين الذى أثروا فى الفكر المصرى حسين المرصفى ، فقد طرح على بساط البحث ألفاظ الوطن والحرية والأمة والعدالة والظلم والسياسة والحكومة والتربية . وقد ساعد على ذلك النظام التعليمى الذى أوجده محمد على حيث أسس مدارس الطب والمهندسخانة والألسن ، كما اهتم بإنشاء المدارس والكتاتيب فاستتبع ذلك نهضة علمية .

و تحدد النشاط الثقافى فى فترة عباس حتى أنه قام بنفى طائفة من كبار العلماء كالطهطاوى ، لكنه لم يقطع نشاط التعليم الخارجى ، فأرسل البعثات بالرغم من أنه ألغى كثيرًا من المدارس .

ويأتى سعيد ليطبق سياسته المتقلبة على التعليم أيضًا بين فتح وغلق المدارس وتحويلها ، لكن مما يذكر له أنه أعاد الطهطاوى من منفاه وولاه مقاليد المدارس ، وحرم المصريين من البعثات حيث جعلها وقفًا على غيرهم بعد أن كان محمد على قد منح هذا الحق لأبناء الفلاحين للاستزادة بعلوم أوربا والعودة بأعلى الدرجات العلمية .

وباستحواذ إسماعيل على الحكم ونزعته لفتح مصر على مصراعيها للمؤثرات الغربية ورغبته فى أن تكون القاهرة باريس الثانية ، انتعشت الثقافة وبالتالى الطبقة المثقفة وتقدم التعليم وما صاحبه من آثار ظهرت فى نهايات حكمه ، وازدادت البعثات معه فى وقت كانت أوربا فيه قد فاضت بالحيوية ، كما أن اتجاه الأفراد

ورغبتهم لتعليم أبنائهم فى أوربا زاد إلى درجة أن عدد الطلبة الذين كانوا يتلقون العلم هناك على نفقتهم الخاصة أخذ يتزايد على عدد طلبة البعثات الحكومية ، واعتنى بالمدارس فأعيد فتحها وأرجع ديوان المدارس ، فتقدم على يد مبارك الذى كانت له اهتمامات زائدة فى الثقافة ، فإليه يرجع الفضل فى إنشاء دار الكتب على نسق المكتبة الأهلية بباريس ، وأصبحت المدارس على النمط الأوربى ، وارتفعت من ١٨٥ مدرسة عام ١٨٦٢ إلى ٤٨١٧ فى عام ١٨٧٥ ، وبمعاونة الخبراء الأوربيين وضعت وتأسست دار العلوم عام ١٨٧٢ فكانت أول مدرسة لإعداد المعلم فى مصر ، وعمل خريجوها فى المدارس وكتبوا فى الصحف وخطبوا على المنابر ، وأصبح التنوع فى معاهد التعليم تنوعًا يحول دون أن تصب ثقافة الأمة كلها فى قالب واحد .

وانصب الاهتمام أيضًا على مدارس الإرساليات ، وازدهر التعليم الأهلى على أيدى الجمعيات والأفراد ، فتأسست المدارس الأهلية على نظام مدارس الحكومة ، وافتتحت المدارس الليلية ، وكان المثقفون أمثال محمد عبده يلقون فيها الدروس تبرعًا .

وأصبح لوعى الشعب أثره الكبير فى الإقبال على تعليم أولادهم ، فارتفع مؤشر التعليم فى المدارس الابتدائية من ٨٢,٢٦٠ عام ١٨٧٢ إلى ١٣٧,٥٤٥ عام ١٨٧٨ وتعليقًا على ذلك يقول القاضى الهولندى المعاصر « إنه من الخطأ اعتبار المصريين أميين ، فإنه بحسب ما قدم لهم من المدارس بحسب ما ارتفعت نسبة المثقفين »(*) . وكان معظم المصريين أصحاب رغبة أكيدة فى الاستحواذ على الثقافة ، وقد أثرت نداءات الطهطاوى بالنسبة لرقى المراة ، فأنشئت أول مدرسة للبنات عام ١٨٧٣ ، وأخرى عام ١٨٧٨ وكان التعليم فيهما مجانًا ، وبذلك حصلت المرأة على بعض حقوقها ، وأقبل الناس على تعليم بناتهم وخاصة الطبقة العليا والطبقة الوسطى ، وظهرت إلى حيز الوجود المساواة بين الرجل والمرأة فى مسألة التعليم .

ودعت الصحافة إلى حركة التعليم وحث الشعب عليها ، وطالبت الحكومة والأهالى سويا بالقضاء على الأمية ، وذلك بالإكثار من إنشاء المدارس الابتدائية على الأسلوب الأوربى ، وإن كان الوضع المالى قد أثر على سياسة التعليم ، إلا أنه استمر بفضل مجهود المثقفين .

وأدى محمد عبده دورًا فى مسألة التعليم من خلال صحيفة الوقائع المصرية مع نخبة مثقفة ، وأبرز أهمية التعليم وضرورة أن يكون التدريس بلسان البلد لا على

(*) Bemlan , op. cit., p. 82 .

يد الأجنبى الذى لا يفهم طبيعة المصريين ، كما أن حركة الترجمة ودور مدرسة الألسن فيها قد اكتسبت أهمية كبرى ، فنقلت المادة المترجمة إلى قراء المصريين وأصبح لديهم معلومات كافية عن المجتمع الغربى وأفكاره ، وترجم محمد عثمان جلال روائع الأدب الفرنسى ، وساهم أيضًا يعقوب بن صنوع فى ذلك ، فانتشر فى السوق المصرية مجازات لافونتان ومسرحيات راسين وموليير وكورنى وأصبحت فى أيدى القراء ، وأثرت حركة الهجرة الشامية فى النهوض بما ترجم من مؤلفات أخرى فرنسية قام بها أديب إسحق وسليم النقاش .

ومما لا شك فيه أنه كان لتلك النهضة العلمية فضل لا ينكر على مصر ، فقد ساعدت على الصحوة ، وشكل المثقفون طبقة مثقفة من المدرسين والموظفين فى الحكومة ، ورجال الفكر من الصحفيين والكتاب والأدباء ، وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى نقد المجتمع وازدياد السخط وتوجية الأنظار للتطلع إلى الحريات المفقودة .

مثقفو الأزهر والتيار الإسلامى ودوره السياسى

لم يكن الأزهر بعيدًا عن العلوم الحديثة التى نشأت من عملية الاحتكاك الأوربى ، والتى أنتجت تلك الحركة الثقافية ، فقد كان من بين طلاب البعثات عدد من الأزهريين ، لكنه كان يحمل أيضًا بين طياته العزلة عن الإتجاهات الفكرية الحديثة متبعًا أساليبه القديمة ، وإليه يرجع الفضل فى حفظ التراث الإسلامى وصيانة الآداب العربية ، كما كان له التأثير الدينى فى محيط التثقيف الشعبى ، فعلى مر العصور لم يكن المسجد مكانًا للعبادة فحسب ، وإنما أيضًا حلقة للتدريس وتفقيه المسلمين بشئون الدين والدنيا . والتاريخ لا ينسى أبدًا دور الأزهر فى حركة الكفاح الوطنى .

ويعتبر الأزهر الجامعة الرئيسية وهو أقدم جامعة إسلامية فى الشرق جمع بين جدرانه أبناء الفلاحين الذين نزحوا من كتاتيب القرى ليلتحقوا به ، ومنه تخرج معظم وطنيى مصر ومفكريها وقادتها ، فقد كانت له القوة والأثر الكبير فى المجتمع ، حتى أن الحكام كانوا يعملون له ألف حساب لمعرفتهم بمدى خطورته ، إذ أنه بطلابه وشيوخه يمثل السواد الأعظم من الشعب ، حيث ساد الاعتقاد أن الدراسة فى الأزهر هى أحسن الدراسات وأنفعها ، ففيها تطلق الحرية فى المذاهب والكتب والأساتذة ، وتلك أمثل الطريق لتكوين الإنسان وتنمية عقله وتوسيع ثقافته ، وقد اتضح أنها هى طريقة أكبر جامعات أوربا ، وأنها الوسيلة للتكوين الحقيقى والتربية الاستقلالية .

وتعد فترة حكم إسماعيل فترة بدأ الأزهر يتغير فيها شيئًا فشيئًا ليصبح أكثر مرونة ، وذلك عقب تكوين الرأى العام المثقف ، فقد نظمت فيه قواعد التدريس للحصول على شهادة العالمية ، وتحديد درجات العلماء والعلوم التى يدرسها الطلبة ، وبذلك رُفعت المكانة الاجتماعية للأساتذة والطلاب ، وأيضًا تحسنت الأحوال بالرواتب الثابتة للمدرسين ، وإدخال العلوم العصرية ، وقد كان تأثير الأفغانى واضحًا عليه فهو الذى غير من كل شىء بتلك السنوات البسيطة التى قضاها للتعليم فيه ، وبث تعاليمه عن الحرية الفكرية فى حلقاته ، وشرح علوم الكلام والفقه والفلسفة والمنطق بطريقة عصرية مبتكرة ، والتف حوله العديد ، وكانت هذه الحلقات حدثًا فكريًا واجتماعيًا وعاملاً فى تغذية اليقظة الجديدة التى سرت إلى الحركة الفكرية الإسلامية .

ولم يكن الأمر قاصرًا على ذلك بل تطرق إلى بيان مساوئ المجتمع ، وعن طريق تلاميذه كتبت المنشورات وعلقت فى سواد الليل على أعمدة الأزهر ، وبها موضع الخلل ووسائل العلاج ، وبذلك نفخ الأفغانى فى الأزهر روح النهضة وغرس مبادئ التقدم الفكرى . ومن هنا رأى بعض شيوخ الأزهر فيه خطرًا عليهم ، إذ أصبح بتسليم الجميع القائد الروحى والفكرى للأزهر ، خاصة بعد أن انتشرت مبادؤه الثورية .

وغدا الأزهر إحدى المؤسسات الثقافية - رغم حملات الرافضين للإصلاح - التى خلقت طبقة مثقفة أسهمت بنصيب وافر فى إعداد الدارسين خاصة ، والشعب عامة للاشتراك فى الثورة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان مثقفو الأزهر لهم الدور الفعال فى الثورة ، وبرز منهم الشيخ محمد عبده الذى كان يحاضر طلبته فى علم السياسة ، وبهذا شعر الأزهر بنهضة جديدة تدب فيه ، وبذلك تمكنت مدرسة الإصلاح الجديدة من أن تنتزع القيادة الفكرية من رجال الدين - المتزمتين - وأن تتولى هى الأمر وساهمت بالنصيب الأكبر فى قضايا التغيير الاجتماعى ، وخاصة أن لهؤلاء العلماء مركزًا لدى الشعب ، إذ كان يرى فيهم نوابه والمتحدثين بلسانه والزائدين عن حقوقه ، وأن لهم الكلمة والسلطة فى أن يعزلوا الحاكم الذى يسىء إلى الشعب .

وتعرض علماء الأزهر للظروف الصعبة التى مر بها شعب مصر أثناء حكم إسماعيل ، فقد أجبروا على دفع الضرائب وسبوا وأهينوا ومن امتنع كان جزاؤه الفلقة والكرباج ، لدرجة أن أحدهم لم يتمكن من العودة لمنزله على قدميه بعد أن انهال عليه القواسون بالضرب ، حتى أن العلماء تضرروا من ذلك ، فتكون وفد منهم

وقصد سراى عابدين وشكا من معاملة العلماء بالكرباج كسائر الفلاحين[١] ، لكن إسماعيل كان يؤيد ذلك ما دامت هناك أموال .

وشارك الأزهريون بقية القوى فى عدم الرضا عن الأوضاع الموجودة ، وعطفوا على الثائرين وأيدوهم حتى ولو اختلفت العقيدة ، فنرى الشيخ البكرى يحنو على يعقوب بن صنوع لدرجة أن قبل أن يغادر مصر للمنفى ذهب إليه ليودعه فقال له : « كل إنسان طيرة مربوط على عنقه ، عليك يا بنى أن تسير فى الطريق الذى رسم لك ولا تخف شيئًا إن الله رب العدالة والخير الذى دافعت به عن المؤمنين معرضًا نفسك للقتل سوف يحمى خطواتك أينما ذهبت »[٢] . وعندما قامت حركة الضباط الأولى فى فبراير ١٨٧٩ ، كان يؤيدها الأزهر ، فقد عثر على إعلانات على جدرانه « مهيجة للأفكار » فلما بلغ أمرها لشيخ الجامع - وكان محمد العباس وهو من الرافضين - أمر بتمزيقها وأوصى الخدمة بأنهم إذا عثروا على فاعليها أن يقبضوا عليهم ويسجنوهم[٣] ، وكان للأزهريين دور فى مسألة اللائحة الوطنية الأولى ، ومعارضة مشروع ولسون ، حيث أساءهم التدخل الأوربى فى شئون دولة إسلامية والذى بلغ مداه .

وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الأزهر بعد إدراكهم أن مصر فى طريق الدمار بسبب ما قدمه الأجانب إليها ، وكان البكرى زعيمًا لتلك الاجتماعات ، وتناقش مع إسماعيل بشأن ذلك أكثر من مرة ، بل وذهب إلى فيفيان القنصل الإنجليزى ليرفض ويعترض على التدخل الأجنبى ومن أقواله له « إن أمتنا قد علمت حق العلم ماذا يجب عليها أن تسلكه فى وطنها ، فأقامت به حكومة شورية ، وأخذت على نفسها حماية الشورى والقيام بواجباتها والمحافظة على حقوقها ، وأنها تبذل فى ذلك دماءها ونفيس أموالها ، فكيف بها بعد ذلك أن تجيب طلب الدولتين وترضى بأن يتحكم فيها أجنبى ، وإننا باستقراء تواريخ الأمم لا نجد أمة عرفت حقوقها وسنت لنفسها قانونًا شوريًا ، ثم كلفتها حكومة أخرى بأن تناقض شريعتها وتعدل عن طريقها فى ذلك ، إننا لا نستطيع تحويل رأى أمة عظيمة كهذه اتفقت كلمتها على رفع نير العبودية على أعناقها وأعلنت المحافظة على تمام استقلالها الممنوح لها ، فقال فيفيان : « أنعتمد هذا آخر الكلام ، فأجاب السيد البكرى نعم

---

(١) قلينى فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٧ . (٢) إبراهيم عبده ، أبو نظارة ، ص ٦٠ .
(٣) مصر ، عدد ٣٥ فى ٢٨ فبراير ١٨٧٩ .

وخابر دولتك بذلك »[١] . وقد تم هذا فى إطار الوحدة والالتحام بين بقية قوى مصر الاجتماعية ، وكانت أولى خطوات التعاون التى أثرت فى قيام الثورة .

وانتشر عدم الرضا والسخط على تصرفات إسماعيل بين العلماء ، ولذا فقبل عزله بواسطة أوربا ، كانت هناك حركة على قدم وساق داخل الأزهريين تطالب بعزله ، وطعنوا عليه بأنه سلك سلوكًا مخالفًا للشريعة من حيث استبداده بالناس ، واعتدائه على القانون ، وظلمه الفادح ، وعدم رضا الشعب عنه ، ومن ثم يحق لهم سحب بيعتهم له ، ويذكر بلنت أنهم كثيرًا ما تباحثوا سرًا فى ربيع ١٨٧٩ عن كيفية عزله ، والوسائل التى تمكن من ذلك أو حتى من التخلص منه بالاغتيال[٢] ، وكانوا راضين عن توفيق ولى العهد كبقية القوى التى رأت فيه أنه ممكن للإصلاح أن يتم على يديه ، فقد كان هو نفسه - قبل اعتلائه العرش - خاضعًا تحت تأثير المدرسة الدستورية الأزهرية ، لكن كان الواقع شيئًا آخر ، فبعد أن وصل توفيق إلى ما يريده أنكر كل شىء ، ومضى رئيس نظاره يمارس أوتوقراطيته على المصريين جميعهم ، وبالرغم من ذلك فقد كانت المساجد يخرج منها يوميًا الاحتجاجات والتهديدات ضد رياض وعلى مبارك ، ووجدت أوراق معلقة على منازلهما تنذرهما بأنه إن لم يستعفيا ويخرجا من هذه الأقطار المقدسة فستسفك دماؤهما ، وعندما صدر قانون التصفية ، اعترض عليه الأزهريون وشاركوا بإمضاءاتهم فى حركة الرفض التى حمل لواءها العقاد[٣] .

الأفغـانى والمثقفـون

احتضنت مصر الأفغانى بناء على تطبيق قاعدة إسماعيل فى جعل مصر مركزًا للإشعاع الثقافى ، وكان من حظ مصر والأفغانى أن يلتقى كل منهما بالآخر ، فمصر تعانى الآلام التى تسبب لها فيها إسماعيل لذا كان هبوط الأفغانى على أرضها فى وقت هى فى أشد الحاجة إلى مصلح يأخذ بيدها سببًا فى إخلاصه لها وبعثها عن طريق تعاليمه التى لاقت بالفعل استجابة واعية من المصريين ، ويقول محمد عبده عن الأفغانى « إنه باعث النهضة الوطنية فى مصر وأن هجرته إليها وإقامته فيها

---

(١) مرآة الشرق ، عدد ٢٤ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 125 .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٩٧٠ فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٠ .

من ١٨٧١ إلى ١٨٧٩ كان بعثًا وطنيًا وسياسيًا لها وحدًا فاصلاً بين ماضى مظلم وحاضر مضىء ومستقبل مبشر بالكرامة والحرية »[1] .

تزعم الأفغانى لواء الجامعة الإسلامية ، فقد نشأ وسط النزاع الإنجليزى الروسى ، فخبر السياسة الدولية والأطماع الأوربية وهنا ألقى فى عقول الناس « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وكان يرغب فى أن تتحد جميع الأقطار الإسلامية مع استقلال كل منها عن الآخر ، وسعى إلى هدف واحد هو التحرير السياسى ، وجهاده يرمى إلى إيقاظ الشرق ، وأن هذا لن يتم إلا عن طريق العلم والثقافة مع تنقية العقائد من الخرافات ومقاومة النفوذ الأجنبى . وبالإضافة لدوره مع الأزهر أقام الحلقات فى بيته بحارة اليهود ، فى تلك البيئة الشعبية التى ضمت التجار ، وأصبحت منتدى العلماء والأدباء ، وكانت أيضًا قهوة البوستة بالعتبة ملتقى آخر يضم « اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيماوى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه[2] ، كما كانت له لقاءات للحوار فى بيوت العظماء حين يرد زياراتهم . وطريقته فى تلك الاجتماعات العامة التبسيط ، بينما له طرقه الخاصة فى الدروس العلمية والمحافل الماسونية والصحافة ، وامتد تأثيره على كل الطبقات المتعلمة ليس فى القاهرة فقط بل أيضًا فى المديريات ، وكان يوغل فى صدور سامعيه فلسفته التى تعتمد على التعليم ، الذى يجعلهم أقوياء ، والمعرفة التى تقودهم إلى الحرية ، هذا فى وقت كانت فيه يد إسماعيل الأوتوقراطية مسيطرة على المصرى الذى كان يعمل وبدون مقابل من أجل سيده .

وبذر بذوره فنمت مع نمو الرأى العام المصرى ، فلم يترك بابًا إلا طرقه ، أثار الأفكار فوجد رواده الشىء الجديد ، فهو شخصية قوية تجزم فى الحكم ولا تتردد تحكم فى صحة ما يصح وبطلان ما يبطل .

وكان يربط جزئيات الحياة العملية والعلمية برباط واحد يفتح النوافذ كلها بعضها على بعض حتى تتألف وحدة كاملة ، فخطة الأفغانى من البساطة بمكان ، فإنه يرى أن إصلاح الحكومة لا يتأتى إلا بإصلاح الشعب ، فالحكومة إذا لم يكن وراؤها رأى عام يوجهها لابد وأن يستبد حكامها ، ويؤثر عنه قوله بأن « القوة النيابية لأى أمة لا يكون لها قيمة إلا إذا نبعت من نفس الأمة ، وأن مجلس نيابى

(١) محمد عبده ، مذكرات جمعها وقدمها طاهر الطناحى تحت عنوان مذكرات الإمام محمد عبده ، ص ١٥ .

(٢) السيد محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من استحدثه »[1] . وكان يقصد من وراء ذلك مجلس شورى النواب الذى أوجده إسماعيل ، وحدد أن سلطة الحاكم واجب خضوعها للقانون ، ذلك القانون الذى يستند على إرادة الشعب ، فهو يؤمن بالحكم الدستورى ، وقد فرق بين السلطات بحيث لا تطغى إحداها على الأخرى ، ونادى بمبادئ الثورة الفرنسية من حرية وإخاء ومساواة ، فكان واضع أساس الديموقراطية المدعمة بالإسلام .

ومال إلى المبادىء الاشتراكية التى كان الغرب يحتدم بها ، فأعجب بها أشد الإعجاب ، ومن هنا رأى أن السياسة ليست حكرًا على فئة من الناس دون الفئات الأخرى ، وفضل النظام الجمهورى المبنى على أساس الشورى التى لها الأهمية الخاصة فى حياة الشعوب ، فأنبت الأفكار الحرة فى النفوس ، وبقوته تمكن من إعداد تلك العقول لهذه الأفكار لتداوى كل ما يقاسيه المصريون ، وأكد أن السبيل الوحيد للإصلاح الاجتماعى والسياسى هو الثورات ، فكان يخاطب الأمة بثورية قوية ويدفعها لأن تسلك طريق الثورة « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت به ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » ويمضى ليبين كيف استعبد المصريون « إنكم يا معشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الحيف والجور »[2] ، وبذلك أصَّل الروح الوطنية المصرية ، وبهذه الجرأة والدهشة كان يثير ويتحدث ومن هنا طارت الشرارة الأولى من شرارات الثورة العرابية ، بل كانت الثورة مشبعة بتلك النفحات التى نشرها الأفغانى ، « فقد كان طلبة العلم ينقلون ما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الإجازة ، وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ينشرونه فى الناس ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد وخصوصًا القاهرة »[3] .

وكان من حوارييه الباشوات والأعيان أمثال البارودى وأحمد خيرى ومصطفى وهبى وعبد السلام المويلحى وأخيه إبراهيم ولطيف سليم وسعيد نصر ، أما الشباب المثقف فكان على رأسهم محمد عبده وسعد زغلول وأخوه فتحى وإبراهيم اللقانى

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحيفة فى مصر ، جـ ١ ، ص ٤٥ .

(٢) أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ١ ص ١٠٩ .

(٣) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ٥٧ .

وعلى مظهر والزرقانى وأبو الوفا القونى وسليم النقاش وأديب إسحق وعبد الله النديم ويعقوب بن صنوع وعبد الكريم سلمان وحفنى ناصف وعبد الله فكرى وعلى أبو النصر ومحمود صفوت الساعاتى ، كما أخذ يقرب منه العامة حيث أيقن أنهم أكثر الفئات معاناة وأصبحت مدرسته تمثل المدرسة الدستورية صاحبة المبادئ الحرة.

وقد كانت للإسكندرية - صحفها وجمعياتها وحماسة أهلها - عند الأفغانى حظوة فكثيرًا ما تواجد فيها ، فيحضر إليه شبابها المثقف الذى كان على أيديهم وبمساعدته بلورة الرأى العام السكندرى ، عن طريق الخطابة التى لها الأهمية الكبرى فى تنوير العقول وتفتيح الأبصار لما هو سائد فى المجتمع ، وشكلوا لجنة للاهتمام بشئون مدينتهم ، وكان الحاضرون لتلك المحافل الخطابية المقتدر منهم يدفع ثمن دخوله ، ودائمًا تكون الإيرادات لفقراء الإسكندرية ، وتناولت كلمات الأفغانى الموزعة على الحاضرين فى خطبة الاهتمام بالعلم والحرية والتذكرة بمجد المصريين الذى علَّموا اليونان الحكمة والفلسفة ، وعن سوء الحال وما وصل إليه من الإنحطاط والذل والهوان ، وسلطة الأجانب التى اقتسمت الديار والاستعباد والاستبداد وقيد الأمة بسلسلة رأى واحد لا تتحرك إلا بإرادته ، وأن الحكومة كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية لابد لها من استمرار الغذاء الجديد، وإلا أنها تزول كغيرها من الأجسام بما يطرأ عليها من التحلل ، ويشيد بأهمية الخطابة « فما الخطباء إلا من طبقات الأمة التى ألم الضعف بروحها الكلى ، فسرى إلى طبقاتها وأعضائها ، أنهم ينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق وتعيين الواجبات »(١) .

وعندما خشى الأفغانى على دعوته ومريديه من يد إسماعيل والأجانب ، عمل على تأليف المحفل الماسونى بالإسكندرية ، فكان له ذلك مزيداً من الحرية والبث الثورى ، وأصبح ملتقى المثقفين السابق ذكرهم وانضم إليه الباشوات أمثال شريف وأباظة وبطرس ، وضباط الجيش الذين لهم نشاطهم هم الآخرين وحتى علماء الأزهر ، وأعضاء مجلس شورى النواب ، وكان توفيق وقت ولاية عهده مشتركًا هو الآخر ، وقد ساعد هذا المحفل على تبادل الأفكار بين رجال كانوا على بينة ببواطن الأمور السياسية وأسرار الحكومة ، وأوجد بينهم رابطة من التضامن ، ويرجع البعض أن تلك اللقاءات هى التى أينعت وأزهرت الحزب الوطنى(٢) .

---

(١) الإسكندرية ، عدد ٤٦ فى ٢٢ مايو ١٨٧٩ .

(٢) Sabry , M. 8 , La Genèse d. L'Esprit National, 1763 - 1882 , pp. 142, 143 .

وفى وصف إحدى هذه الحفلات الماسونية تقول صحيفة التجارة « انتظم على مائدتها نيف ومائة قائل بالحرية والإخاء والمساواة معظمهم من وجوه الوطن ونبهائه، وفيهم فئة كبيرة من ذوى المقامات والعلماء من المسلمين وغير المسلمين ، فقام فيهم الرئيس المحترم خطيبًا (الأفغانى) يبين ماهية ذلك الاجتماع ومقاصد الماسونية ، وصفق الحاضرون ونادوا بأعلى الصوت فلتحى الحرية والمساواة والإخاء ثم توالت الخطب للسعى فيما يوجب سعادة النوع الإنسانى وينقذه من ربقة الذل والعبودية ، وتحالفت القلوب على الانتصار للحق والإنسانية ، وألا يخافوا فيها أحدًا »[١] .

وأصبحت الحركة الماسونية مقرونة بالحركة الوطنية ، التى انتشرت بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وذلك بفضل الأفغانى الذى وحد عناصر الأمة ، فمحمد عبده مسلمًا وأديب إسحق مسيحيًا ويعقوب بن صنوع يهوديًا التقوا من أجل هدف واحد .

أما عن رؤية الأفغانى لحتمية وجود حزب وطنى ، فقد رأى ضرورته لحماية الحكومة الثورية ، فالحياة النيابية لا يضمن لها البقاء بدونه ، وكان يعمل فى جميع الاتجاهات مع مؤيديه ، فهناك الجمعية السرية « مصر الفتاة » بالإسكندرية التى أنشأها الشباب المثقف ، فأشرف عليها الأفغانى ، وكونت الجمعية بمساعدته حزبًا أطلق عليه « حزب مصر الفتاة » وصف نفسه « أنه يروم المدافعة عن الوطن من محتال يداجى ومغتال يفاجئ ودخيل يستعلى ونزيل يستولى ، وأنه يبث آراء الحرية ويجمع كلمة الوطن ويؤيد شأن بنيه ويقوم بأمر ذويه »[٢] .

واتجه إلى الصحافة التى ربط بينها وبين حرية الشعوب وساهم فى نشأتها ، واحتضن الصحفيين ، وسعى لهم عند الحكومة لتمنحهم تراخيص الصدور ، وحماهم من إرهاب أولى الأمر ، فتصدوا للدفاع عن الرأى الحر والأفكار الناضجة ، وقلمه كان واضحًا فيها بإمضاء « مظهر بن وضاح » أو بدون إمضاء ، فكتب عن الحرية والاستبداد وتقدم الغرب واستنارة الأفكار ، والشجاعة والقوة والعلم والصناعة والوطن والوطنية ، وكان تأثيره مباشرًا وعميقًا ينفذ سريعًا إلى العقول والقلوب .

واهتم بالمرأة المصرية « إننا لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل ومن محبس الذل والفاقة ومن ورطة الضعف والخمول مادامت النساء محرومات من الحقوق »[٣] ، وقد وصل به الأمر أنه راح يخطب أمامهن فى « قاعة زيزينيا بالإسكندرية » ليغرس فيهن تلك المبادئ .

---

(١) التجارة ، عدد ١٧ فى ٢١ يناير ١٨٧٩ . (٢) الوطن ، عدد ١٠٠ فى ١١ أكتوبر ١٨٧٩ .
(٣) مصر ، عدد ٤٧ فى ٢٤ مايو ١٨٧٩ .

أما تنفيذ الخطوات العملية والاشتراك فى الإصلاح السياسى ، فقد عجل بنهاية حياة الأفغانى على أرض مصر . كان توفيق كما أوضحت منذ ولايته للعهد على علاقة به حتى أنه أثناء الاجتماع الذى أثيرت فيه مسألة خلع إسماعيل كان من رأى توفيق القضاء عليه ، لكن الأفغانى عارض وقال « تذمنا أوربا لو قتلنا إسماعيل إنما نخبره بواسطة الأمر والرأى العام بأن ينخلع على كرسى جلوسه »[١] ، وكان توفيق يردد الوعود بالإصلاحات إذا تولى أمر الحكم وبأنه لن يحيد عن الحكم الدستورى ، واعتقد الأفغانى ورجاله بصدق ذلك ، ولجأوا إلى قنصل فرنسا لعله يساعدهم على تولى توفيق العرش .

هذا فى الوقت الذى كانت فيه الإتصالات تجرى بين الأفغانى وشريف بشأن سعى الأخير لإقناع الخديو بالتنازل ، وعزل إسماعيل وتولى توفيق حكم مصر ، وكان الأمل كبيرًا فيه ، واعتبر المصريون أن عصرًا جديدًا قد بدأ ، فطلب منه الأفغانى مجلس نواب ونظارة مسئولة ، هذا فى الوقت الذى كان شريف يعد إصلاحه الدستورى ، وهنا ظهر توفيق على حقيقته وانضم كلية إلى بريطانيا وفرنسا وتخلى عن كل ارتباط كان قد ارتبط به قبل تولية العرش ، كما كان لرجال حاشيته دور فى مساعدته ، وبالرغم من أن رياضا هو الذى ساعد فى إحضار الأفغانى إلى مصر ، فإن نشاطه وصراحته حتى مع رياض ، غيرت الموقف ، ففى جلسة بينهما أثناء النظارة الأوربية أبان الأفغانى له سيادة الأجانب واستعبادهم للمصريين وسلطتهم ومرتباتهم واعترض على تصرفاتهم ، فكان كره رياض له ، كما كانت مصلحة توفيق تدعوه بأن يعمل ألف حساب لتكاثر تلاميذ وأتباع الأفغانى ، أضف إلى ذلك أن بريطانيا وفرنسا وجدتا فيه مصدر خطر كبير على مصالحهما وسياستهما . وقرر الجميع إسقاط الأفغانى بنفيه خارج مصر ، وألزمت الصحافة بإنزال ذلك الخبر ، وعطلت الصحف التى اعترضت ، وكان من حيثيات النفى « إنه من دواعى الأمن والأمان والراحة والاطمئنان وقطع دابر المفسدين » ، وفى ظرف ساعات قلائل كان قد رحل عن مصر[٢] .

وجاء خروج الأفغانى من مصر متأخرًا وبعد فوات الأوان ، بعد أن امتدت روح الثورة فى مصر كلها بفضله ، وبالرغم من أنه أبعد ، فإن مبادئه وأفكاره وتعاليمه

---

(١) أبو نظارة زرقاء ، عدد ١٢ فى ١٨ ديسمبر ١٨٧٩ .

(٢) مصر ، عدد ٩ فى ٢٩ أغسطس ١٨٧٩ .

غذت الثورة ، فكثير من أقطابها هم من تلاميذه ومريديه ، ويعد من الوجهة الروحية والفكرية أبا الثورة العرابية .

ومضت عقب خروجه حركة واسعة من التجسس على عناصره ومؤيديه ، واستمرت الحركة الوطنية فى طريقها رغم كل ذلك ، فانتشرت المنشورات ضد سياسة توفيق ومحيطيه ، واحتارت الحكومة فى واضعيها وموزعيها ، فأصدرت الداخلية الأوامر بالتشديد « لم يزل يرى بالبلدة طبع بعض رسائل تتعلق بمسائل بوليتيقية وبعض كتب مضادة لأفكار الحكومة »[1] ، وفرضت العقوبات ، لكن كل هذا لم يوقف ما قد مضى فى المصريون .

المثقفون والصحافة

شهد عصر إسماعيل ميلاد الصحافة الأهلية ، فصدرت صحف وادى النيل ، نزهة الأفكار ، النحلة ، كوكب الشرق ، روضة الأخبار ، الأهرام ، صدى الأهرام ، حقيقة الأخبار ، مصر ، أبو نظارة زرقا ، الوطن ، الإسكندرية ، التجارة ، بستان الأخبار ، مرآة الشرق ، الكوكب المصرى علاوة على الصحافة الرسمية ، كما لمعت فى ميدان الصحافة أسماء المنشئين والمحررين مثل رفاعة الطهطاوى ، على مبارك ، عبد الله أبو السعود ، إبراهيم المويلحى ، محمد عثمان جلال ، عبد الله فكرى ، الشيخ المرصفى ، محمود الفلكى ، محمد أنسى ، ميخائيل عبد السيد ، بجانب الصحفيين السوريين .

ومما لا شك فيه أن إسماعيل كان يدرك أهمية الصحافة ومدى تأثيرها إدراكًا واعيًا ، فقد بذل الأموال للصحف سواء فى الآستانة أو العواصم الأوربية لتعينه على تحقيق أهدافه ، فرأى أن يخدم تلك الأهداف داخليًا بتشجيع الصحافة ، هذا بالإضافة إلى أنها مظهر من مظاهر رقى الأمم . لكنه بخلقه للصحافة ، ما لبث الأمر أن تعرضت له وأصبحت ذات حدين أمكنه بأحدهما أن يحارب أعداءه من الأوربيين وغير الأوربيين ، أما الثانى فكان متسلطًا على رقبته مصوبا إلى مقتله[2] .

ولا ينكر أحد مجهودات الأفغانى فى الصحافة التى ألبسها ثوب الحركة الوطنية فخلقت الرأى العام ، كما كان للتقدم فى شئون المواصلات أثر فى وجود تلك الصحف بين الأيادى .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٤٨١ فى ٢٨ ديسمبر ١٨٧٩ .

(٢) عبد اللطيف حمزة ، العقدة الشركسية عند مدرسة محمد عبده ، ص ٢ .

أصبحت مصر ملجأ للمهاجرين الشوام الذين تلقوا دراساتهم على يد البعثات التبشيرية الأوربية والأمريكية ، والذين جاءوا إلى مصر ورحب بهم إسماعيل وسهل لهم سبل العيش ، وعمل منهم الكثير بالصحافة والتمثيل أمثال سليم وبشارة تقلا وأديب إسحق وسليم عنحورى وسليم حموى وسليم النقاش ، ولكن ليس معنى ذلك أن الصحافة المصرية ما كان لها أن تظهر وتستوى لولا وفود هؤلاء ، فمن قبلهم والصحافة موجودة فى مصر ، وهى وحدها التى هيأت لهم فرصة العمل والنجاح، فالبيئة المصرية ، والطبيعة المصرية ، والتفكير المصرى سمح بوجود صحافة تقرأ لأن النهضة المصرية كانت أوسع مدى مما هى عليه فى بلاد الشرق ، كذلك فإن الحركة الوطنية قد أمدت هؤلاء بالعون لإصدار الصحف لتعبر عما يجيش بصدور المصريين ، فأديب إسحق عندما أقبل على إصدار صحيفته « مصر » لم يكن يملك ما يسمح به تنفيذ ذلك ، والمرجح أن الأفغانى قد حصل له على إعانة مالية ليصدر تلك الصحيفة ، وتبعتها « التجارة » على نفس الطريقة ، وقد تمكنتا من النجاح فى الحصول على السبق الصحفى .

وكان للحروب الروسية التركية الأثر الكبير على نمو الوعى المصرى من خلال الصحافة ، حتى للرجل المصرى العادى ، وظهرت الاتجاهات وتعددت فى الصحافة إزاء موقف الدولة العثمانية « وتنبهت الخواطر فى مصر بما مر من حوادث الأيام وما أظهرته الجرائد من أحوال الأمم من خلال الحرب العثمانية وبعد انقضائه »(*) ، فقد كانت أول مسألة خارجية اهتم بها المصريون ، وحدث بين الناس نوع من الجدال لم يكن معروفًا فى تلك السياسة الخارجية التى انصبت الصحافة على ذكرها ، لدرجة أن الأحداث الداخلية قد تركت جانبًا ، وأيضًا راح التفكير فى مصير الدولة العثمانية وهذا الارتباط بين مصر وبينها والشغف على معرفة الوقائع ، وتبع ذلك أن أصبحت الصحافة تنقل أخبار سائر الأمم ، وكانت صحيفة مصر أول صحيفة تسجل شعار « مصر للمصريين » ، بينما كانت صحيفة مصر الفتاة أولى الصحف الوطنية التى تدعو للحرية .

ولمع اسم أديب إسحق فى صحيفته مصر التى لقيت نجاحًا كبيرًا ، والذى عمد مع الأفغانى إلى نقلها للإسكندرية العاصمة التجارية والصحافية مع صحيفة التجارة التى اشترك فى تحريرها سليم النقاش ومحمد عبده وإبراهيم اللقانى ، وكللت بكتابات شخصية لعبت دورها فى المؤسسات المصرية هى شخصية عبد الله النديم .

(*) مصر ، عدد ٦ فبراير ١٨٨٠ .

وساعدت عوامل عدة فى تكوين هذه الشخصية ، فقد نشأ النديم فقيرًا وخالط جميع الأوساط ، وخلقت كثرة اتصالاته فكره الذى تميز به ، فهو لم يتخرج من الأزهر ولم يبعث إلى أوربا ولم ينل مركزًا حكوميًا ، لكنه دخل مدرسة الحياة التى شكلت ثوريته ، فهو ينتقل من بيوت الأثرياء إلى حوانيت التجار والمتاهى والموالد والأفراح سائحًا فى بلاد مصر كلها لامسًا ما تعانيه الطبقات الفقيرة ، فكان دائرة معارف ، وعن طريق إتقانه للأدب كانت صلاته بمجالس الأدباء والعظماء ، فأعجبوا به وبمواهبه المتعددة ، وعرف كذلك بين عامة الناس معرفة لم يحظ بها قائد من قادة الإصلاح .

وكان للأفغانى أثر عليه سواء فى الخطابة أو الكتابة ، وقد انضم إلى جمعية مصر الفتاة ، ولكنه لم يستمر معها لرغبته فى العمل المباشر مع الشعب ، فوجد أن ذلك لن يتأتى إلا عن طريق الصحافة ، وكانت الفرصة أمامه للكتابة فى صحيفتى مصر والتجارة فيقول : « عندما انتقل أديب إلى الإسكندرية اجتمع بى فى جلسة أدبية وطلب منى أن يكون لى عبارة فى مصر والتجارة ، فالترمت تحرير أغلبهما لكونى مشربى من مشربهما »[1] ، وعندما عصف رياض بهما وأنشأ سليم النقاش صحيفتى المحروسة والعصر الجديد تناولهما قلم النديم ، وكانت موضوعاته الصحفية تلفت إليها الأنظار ، لأنها جاءت تعبيرًا عما فى نفوس الناس من ثورة مكبوتة ، وأيضًا اتسمت بذلك الأسلوب السلس ، وهو الأسلوب الذى امتازت به ودعت إليه مدرسة الأفغانى .

أما عن صحف يعقوب بن صنوع والتى اهتزت لها مصر فكان لها أثرها العميق والبالغ لدى المصريين ، وبإيحاء من الأفغانى أنشأ صنوع صحيفته « أبو نظارة » فكانت صحيفة هزلية باللغة العامية أتقن صنوع فنه فيها وطبق السخرية السياسية، فهو خارق الذكاء متعدد المواهب ، لجأ لطلب الحماية الإيطالية ليستمر فى التمتع فى إصداره لصحيفته ، وغاص بها فى أعماق الحياة المصرية ، ويقول النديم عنها « كانت تحرر بأقلام أفاضل الرجال من تلامذة الشيخ جمال »[2] ، وكان صنوع معروفًا على مدى واسع بين المصريين وحتى عند طلبة الأزهر بالرغم من أصله اليهودى ، فقد أصبح الكاتب الشعبى المصرى وعلا صيته بنقده السافر للأوضاع التى كانت عليها مصر .

---

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٤ . (٢) المصدر نفسه .

أما عن تيار الإصلاح الذى تزعمته صحيفة الوقائع المصرية بالرغم من كونها الصحيفة الرسمية ، فإنه بوصول محمد عبده إلى تحرير فقرات منها ثم إلى رئاسة التحرير ، انتقلت إلى عهد من النشاط والفاعلية ، ولم يكن ذلك أول عمل لمحمد عبده بالصحافة ، فقد كتب فى الأهرام عندما كان طالبًا فى الأزهر مشيرًا إلى عظمة مصر وتمدنها « فكان التمدن فيها كهلاً حين كان عند غيرها طفلاً »[(١)] ، كما كتب عن الظلم والعدالة وتاريخ تمدين الممالك ، واسترعت مقالات الشيخ محمد عبده أنظار الناس إليه .

كانت دعوته ترمى إلى تحرير الفكر من قيد التقاليد ، وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفة إلى ينابيعها الأولى ، وإصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

ولقد حاول التوفيق بين الدين والعلم الحديث ، وبين الحضارة الأوربية والقيم الإسلامية ، فمن رأيه أن الإسلام يهتم إهتمامًا كبيرًا بالعقل باعتباره وسيلة لكشف الحقيقة ، وكان يرى أن السبب فيما أصاب المسلمين من إنحلال يرجع إلى خطأ ربط الدين بالسياسة ، وأن النهضة السياسية إذا لم تقرن بنضج اجتماعى وعلمى وثقافى لن تؤتى ما يراد منها من ثمرات[(٢)] .

ويمكن القول بأن فكر محمد عبده كان منقسمًا إلى ثلاث شعب ، شعبة دينية وراءها الإصلاح الدينى ، وشعبة تعنى الإصلاح اللغوى والأدبى ، وشعبة سياسية ، وفى البداية كانت الأخيرة فى آخر مراتب فكره ، لكنه عدل وحولها إلى أولى المراتب . ويمضى ليبث أفكاره السياسية والاجتماعية للتلاميذ عندما كان مدرسًا ، وللناس جميعًا عندما كتب فى الصحافة ، فأيقظ حمية الرأى العام ، وعندما أمسك بصحيفة الوقائع المصرية اختار لها من المحررين المهرة أمثال عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوى والشيخ سيد وفا ، وهم ممن كانوا قد برعوا فى الكتابة معه على يد الأفغانى .

وعن طريق هذه الصحيفة ألمَّ بالسياسة ، وكلَّف المقربين بأن يكتبوا أعمالهم فيها ، وكثرت مقالاته التى تحمل الإصلاح فى القسم غير الرسمى ، فدعا

(١) الأهرام ، عدد ٥ فى ٢٥ سبتمبر ١٨٧٦ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، ص ص ٣٥ ، ٣٦ .

إلى التعاون ونادى بالحرية ورفع المظالم وأيد التربية والتعليم وحمل على الرشوة وأهلها ، وبين أن الحق للقانون لا للقوة ، وكان للشورى والقانون أهمية لديه ، وهدف من كل مقالة إلى رفع مستوى الأمة فى تدرج وتؤده ، وسار على هذا المنوال إلى أن قامت الثورة .

ومضى الإصلاح مع صحف أخرى غير صحيفة الوقائع المصرية ، فعملت على تنبيه الرأى وإيقاظ الوعى وتعليم السياسة ، فكثرت المقالات عن الوطنية وحب الوطن والتفانى فى خدمته ومحاربة التدخل الأجنبى ، وكتب النديم فى صحيفتى مصر والتجارة عن الإصلاح السياسى الذى كان يرى أن يصحبه إصلاح اجتماعى ، فعبر عما فى صدور الناس ، وكان هذا طبيعيًا فهو أقرب الصحفيين إلى شعبه الفقير الذى ينتمى إليه ، أليس هو المعبر عن ضيقهم وفرحهم ؟ أليس هو أكثر الصحفيين حنانًا عليهم ؟ وبالتالى يدرك تمامًا ما يقاسونه ، لذا فعندما كتب فى الإصلاح كان صادقًا ومعبرًا .

وأيضًا فإن حسن الشمسى أحد مثقفى الثورة - وكان مدرسًا للعلوم العربية فى المدارس الأهلية - دوام على الكتابة فى الصحافة ، فتناولت مقالاته العدل وضرورة النهوض بالتعليم والأخلاق .

أما عن الاتجاه النيابى والصحافة ، فقد سيطر على عقول المثقفين ، فقاموا بتلك الحملات التى ملأوا بها صحفهم عن الحياة النيابية فى أوربا محط التعليق ، وشرح أميل شميل أسس النظام النيابى والتزاماته ، وتكلم عن حرية الفكر ، وحرية العقل ، وحرية القول[1] .

وذهبت صحيفة الإسكندرية إلى ضرورة إطلاع الشعب على أعمال المجلس الذى يجب أن يكون له الحق فى النظر « فى المصاريف وفى تعيين الأموال والضرائب »[2] ، ذلك الحق الذى أعطته الثورة العرابية لمجلسها ، وكان الهدف من ذلك تنبيه الشعب إلى وظائف المجلس وإختصاصاته .

وتشرح صحيفة الأهرام القوة الوزارية والأخرى المجلسية ، فالأولى مسئولة أمام الثانية، والثانية مسئولة أمام الأولى[3] . وأصبحت كلمة الشورى لا تخلو أية صحيفة من شرحها وتحليلها وتطبيقها ، ونرى بعضها يطالب بمجلسين مجلس نواب ومجلس أعيان ، فالأول بمثابة الحواس الباطنة والثانى الحواس الظاهرة ، والاثنان

(١) الوطن ، العددان ٢٩ ديسمبر ١٨٧٧ ، ٢٠ يوليو ١٨٧٨ ، التجارة عدد ١٠ يوليو ١٨٧٩ ، مصر ، عدد ٩ مايو ١٨٧٩ .

(٢) الإسكندرية ، عدد ١٥٧ فى ١٥ يناير ١٨٨١ . (٣) الأهرام ، عدد ١٢ مارس ١٨٧٩ .

لصالح البلاد ، وتشرح مهمات مجلس الشيوخ فى فرنسا ، واللوردات فى انجلترا ، وأنه لا شرط لنوع الحكم حتى تكون هناك شورى ، بل وتحذر الصحف الحكومة بأنه إذا لم يعمل بالشورى فستكون الثورة هى النتيجة[١] .

وتهاجم الصحافة مجلس شورى النواب الذى أوجده إسماعيل وتطالب « بمجلس نواب عن أبناء الوطن للذب عن الفلاح فى فلاحته ، والمستخدم فى خدمته والتاجر فى رواج تجارته والعسكرى فى تحديد مدة خدمته ، وللنظر فى تصرف الحاكم وليس مقصودنا ترتيب مجلس شورى كالسابق الذى كان عدمه خيراً من وجوده »[٢] .

ومضى الأمر فى محاولة الصحافة إرشاد المجلس الموجود فتطالب الحكومة بعلنية الجلسات والسماح للصحفيين بالحضور فيها . وعند افتتاح المجلس فى ٢ يناير ١٨٧٩ طالبته صحيفة التجارة « بأن يحذو هذه المرة حذو مجالس أوربا فى استعمال حرية الأفكار فى مناظراته ومداولاته »[٣] .

ولم يقتصر الأمر على مسألة المجلس النيابى ، إنما كانت مسألة الدستور جميعها الشغل الشاغل للصحافة ، ذلك العقد الذى يحد السلطة الأوتوقراطية ويجعلها عادلة ، والقانون الذى يحدد الحقوق والواجبات وهو مما طالب به أديب إسحق الخديو إسماعيل ، ورأت الصحافة أن « الحكومة الدستورية هى الحكومة الفضلى »[٤] ، وجاء دور الصحافة فى المعارضة والهجوم نتيجة لما طرأ على مصر من أحداث ، فانتهزت الصراع بين النفوذ الأوربى وإسماعيل ، وألقت ثقلها الهجومى على الطرفين ، فالنظارة الأوربية تسمح بالاعتراض على تصرفات إسماعيل ، والأخير يسمح بمهاجمة التدخل الأوربى .

كما كان للصحافة دورها فى الهجوم على الأجانب « إن الأجير يعد نفسه أميراً والمستعير مالكًا والدخيل أصيلاً ، وهذه حال الأجانب بالنسبة إلينا ، ضاقت عليهم سبل العيش فى بلادهم ، فأتونا يطلبون رزقًا ويحاولون نشر سلطة سياسية ، إنهم لم يأتوا بلادنا إلا لإحدى ثلاث غايات وهى الدين والسياسة والتجارة »[٥] ، وتعدد الصحافة الإمتيازات التى يتمتع بهما الأجانب رغم ثروتهم وغناهم وفقر الفلاح

---

(١) العصر الجديد ، عدد ١٢ فى ٢٥ مارس ١٨٨٠ ، التجارة ، عدد ٤٣ فى ١٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) الوطن ، عدد ٤٨ فى ١٢ أكتوبر ١٨٧٨ .

(٣) التجارة ، عدد ٢ يناير ١٨٧٩ .

(٤) صدى الأهرام ، عدد ٦٠١ فى ٨ أبريل ١٨٧٩ .

(٥) التجارة ، عدد ١٦٣ فى ١٠ يناير ١٨٧٩ .

وتحمله عنهم جميع الأعباء لدفع ديون الحكومة ، وتذهب إلى تشبيه الحالة التى عليها مصر بتلك التى كانت عليها فرنسا قبل عام ١٨٧٩ ، معنى ذلك أنها كانت تعد الأمة لثورة تجرف كل هذه المظالم ، وبذلك علَّمت المصريين أن ينطقوا بما ينقدون ، وفتحت أبوابها لمن يريد ذلك ، ومضى كل من كانت له القدرة فى النقد غير مبال بما يتم من حركات القمع .

أما صحف يعقوب بن صنوع ففاضت بالمعارضة ، فقد قاد حملة صحفية سافرة الوجه وصلت إلى أعماق الريف وتناولها رجل الشارع ومن فى القصور كما كان لها صداها خارج مصر ، فهو واقعى حبب الناس فى الصحافة ومطالعتها إذ جعلها على شكل محاورات عامية متناهية فى النقد والسخرية للأحوال العامة والتنديد بالحكومة والحكام ، وعلى اثر ذلك أغلقت صحيفته بأمر إسماعيل وغادر القاهرة فى ٢٢ يونيو ١٨٧٨ إلى باريس « وسافر جيمس إلى باريس وساعده المصريون بالأنفس والنفيس »[١] . ومضى فى نفس الطريق وهو فى باريس ، وأتت صحفه إلى مصر بمختلف الطرق وكثيرًا ما أوقفت ، لكنه كان يدخلها تحت اسم آخر ، وراحت توزع سرًا وتنقل من يد إلى أخرى وتنتشر بسرعة فائقة ، ومما ميزها الصور التى تحتويها حيث صورت الواقع إذ شدت انتباه الجميع ، وامتلأت بنداءات الثورة للقضاء على ذلك الفساد « الله يخيبه توفيق ويخيبنا إحنا اللى ساكتين له»[٢] . وتلك كانت رسالة يعقوب بن صنوع الدفاع عن الشعب والحملة الواسعة على إسماعيل وتوفيق والهجوم العنيف على السياسة الإنجليزية .

وتابعت الصحافة مسيرتها فهاجمت الموقف الإستعمارى للدول الأوربية وخاصة مؤتمر برلين ، وتبلور الرأى العام ، ولم يمنع الخوف عامة المصريين من التحدث عن الفساد ، ووصل بالبعض إلى قراءة الصحف الأجنبية واستقاء الأخبار السياسية والاقتصادية من الأجانب المقيمين والوافدين . وانتهى الأمر بأن دخلت إلى البيوت وتداولت فى المقاهى والدكاكين .

ومما لا شك فيه أن كل ذلك قد هيأ للثورة تربة صالحة من أجل أبنائها ، فتلك الحملات المكثفة وهذه الجرأة الصحفية التى عبرت عن الأمانى والطموح بل على السخط الذى أحس به المصريون جميعًا قد ظهر جميعه مع الثورة ، وبالرغم من

---

(١) عبد الله النديم ، المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٢) أبو نظارة رزقا ، عدد ٢٤ فى ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ .

مجهودات الحكومة بشأن إجهاض تلك الثورة الصحفية ، فإنها استمرت فى الطريق الذى رسمته لنفسها ، لتبين وتوضح معالم العدالة فى الحكم وأشكاله وخاصة الجمهورى الذى وجدته مناسبًا ، فأفردت له الصفحات موضحة فوائده ، ففى تعليق لصحيفة التجارة على حفل أقامه الفرنسيون لانتصار الجمهوريين فى انتخابات المجلس قالت « فإذا كانت فرنسا والشعب الفرنساوى فى احتياج إلى الإصلاح ، فماذا نقول نحن المصريون ؟ »[١] .

وعلى صفحات نفس الصحيفة نرى إعلانها لذكرى إعدام الملك لويس السادس عشر « الذى حكم عليه الشعب عندما ازداد حنقًا وغيظًا » ، كما يشرح « شبلى شميل » أبعاد الثورة الفرنسية وأسبابها وقيام الجمهورية الأولى فى فرنسا[٢] . إذن لم تكن فكرة الجمهورية التى راودت الثوار إلا امتدادًا لتلك الأفكار التى كانت ترى جعل مصر جمهورية وطنية شورية ، ولم تكن قاصرة على القاهرة والإسكندرية وإنما وصلت إلى الأقاليم .

وكان كثيرًا من المثقفين الذين برزوا فى الميدان الصحفى قد تناولوا نشر المبادئ الاشتراكية وتحمسوا لها ، فقد دافع أديب إسحق عن « الفعلة » فيمضى ليعبر عن وجودهم بأنهم « حصون البلاد وسور الدولة وروح الأمة »[٣] . ويعد حركة السوسياليست فى ألمانيا امتداد للثورة الفرنسية وأولاها اهتمامًا خاصًا ، وكان مدافعًا عن الطبقة الفقيرة ، فتناول الظلم والاستبداد اللذان تعانى منهما ، وبيَّن أن المساواة والحرية هما الدعامتان الطبيعيتان لكل مجتمع ، ومن هنا سيطر عليه الفكر اليوتوبى الذى يرمى إلى إيجاد مجتمع أمثل تختفى فيه مظاهر الفقر والتحكم، وقد تأثر بمونتسكيو وروسو وخصوصًا فى العقد الاجتماعى ، فأكد على سيادة الشعب . ومضى الصحفيون على ذلك المنوال أيضًا ، وفى النهاية دائمًا المطالبة بالمساواة[٤] .

وتولت نظارة شريف فى أواخر عهد إسماعيل ، ورغم أنه كان يرى أن حرية الصحافة أصل من أصول الديمقراطية ويجب أن تتاح لها الفرصة فلا يحجر

---

(١) التجارة ، عدد ١٧١ فى ٢١ يناير ١٨٧٩ .
(٢) مصر ، عدد ٤٥ فى ٩ مايو ١٨٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، عدد ٣ أكتوبر ١٨٧٨ .
(٤) التجارة ، عدد ١٠٧ فى ١٥ أكتوبر ١٨٧٨ .

على أقـلام كتابها ولا تقوم عليهـا رقـابة من الحكومة بل تكون هى الرقيب، فإن نظارته لم تطق صبرًا على ما سطرته الصحافة ، فكانت تعطل البعض وتنذر الآخر ، بناء على قانون مطبوعات وهو غاية فى القسوة ، وكثيرًا ما اشتكت منه الصحف وطالبت بتغييره ، ووصفته بأنه « جلادًا وقف على رؤوس الجرائد بسيف الإلغاء والتعطيل ، وأن حكمه مشبه للحكم الموسوى فى مقابلة الهفوة الطفيفة بالعقاب العظيم »(*) .

وجاءت أيدى رياض لتقصف قلم الصحافة ، وكم كان متشددًا فى تصرفاته ، فعطلت مرآة الشرق أكثر من مرة ، وأنذرت التجارة لأنها خرجت عن حدود وظائفها، وما لبث الأمر أن أقفلت مصر والتجارة وخرج أديب إسحق من مصر إلى باريس ، وأنـذرت مصـر الفـتاة ثم عطلت نهـائيًا ، ومنعت صحف النحلة وأبو نظارة وأبو صفارة والقاهرة والشرق ، وعطلت المحروسة والإسكندرية . وأيضًا عطلت الصحافة الأجنبية La Reforme, La Phare d'Alexandrie, Missagro Egyptiano، وكما جاء فى الحيثيات « لاحتوائها على المقالات المثيرة للأفكار » .

هكذا أقام رياض المذابح وعلق المشانق للحريات وللصحافة وللمعارضين ، حكم بالبوليس والسجون وبالنفى إلى النيل الأبيض ، ولكنه لم يستطيع أن يصل إلى مراده، فتدخل الصحافة الممنوعة لتؤجج الصدور ، فكانت ترد إلى مصر من باريس منبع الحرية ومدينة الثورة الفرنسية ، فنرى على صفحاتها ما يصل إلى القلب ويغذى الروح مباشرة ، مبادىء الثورة الفرنسية ، الكلمات التى اهتزت لها مشاعر المصريين، الوطن والوطنية والأمة والحرية والمساواة والدين والدولة والاستبداد والظلم . وبذلك وعن طريق الثورة الفرنسية تسربت إلى النفوس معان جديدة لأصول الحكم العادل ، وأصبح المجتمع يموج بتلك التيارات والمفاهيم ، وازداد الوعى ، بحيث إنه عند قيام الثورة كانت قوى مصر جميعها منغمسة فيها بدون تفكير أو وعى بعد أن تشبعت بتلك المبادئ وبعد أن سرى ذلك الشعور بالتبرم من الأوضاع ، وصار قاموس الحرية بين الأيادى ، فهمه الجميع وأدركه وارادوا أن يطبق ويخرج إلى حيز التنفيذ .

(*) المصدر نفسه ، عدد ١٢٥ فى ١١ نوفمبر ١٨٧٨ .

الجمعيات والرأى العام

استطاعت الحركة الوطنية عن طريق الجمعيات سواء كانت علمية أو خيرية أو سياسية أن تنفذ وتنتشر داخل المجتمع المصرى فى فترة كان الظلم والاستبداد وتكميم الأفواه سائدًا ، وعن طريقها تبلور الرأى العام بتوسيع تلك النشاطات التى مارستها .

وكانت أولى تلك الجمعيات جمعية علمية ثقافية تعتبر كمنظمة لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسست عام ١٨٦٨ على يد محمد عارف باشا ، وكان الغرض منها نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتأليفها وتهذيبها ، ولقيت إقبالاً عظيمًا وتعضيدًا من أفراد الطبقة العليا فى المجتمع كإبراهيم جميعى وإبراهيم المويلحى ، وحسن بك الشريعى ، وبدراوى عاشور ، وحسن موسى العقاد[١] .

وأُنشئت الجمعية الجغرافية الخديوية ، بهدف العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية ، وتبع ذلك أن كون يعقوب بن صنوع جمعيتين أدبيتين « محفل التقدم » ، « محفل محبى التقدم » وذلك بعد أن أغلق إسماعيل مسرحه ، وكانت المحاضرات فيهما عن تقدم العلوم والآداب فى أوربا والدعوة للإخاء دون تميز عنصرى أو دينى ، وقد أقبل عليها طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش ليغترفوا من منهلها مبادئ الحرية الأوربية عامة والفرنسية خاصة ويقول فى صحيفته عن تلك الاجتماعات « وكان يحضرها ناس عظام ومشايخ الأزهر الكرام ونور العلم الأستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغانى » معنى هذا أنها على درجة عالية من الثقافة ، ويبين يعقوب بن صنوع كيف امتدت يد إسماعيل للقضاء على ذلك النشاط أن الإنجليز أفهموه « أن هاتين الجمعيتين إنما هما مركز للثورة ، فما كان منه إلا أن منع التلاميذ والطلبة والعلماء من حضور اجتماعاتنا ، واضطرت الجمعيتان إلى إغلاق أبوابهما عام ١٨٧٤ »[٢] .

أما جمعية مصر الفتاة ، تلك التى ضمت الشبان المثقفين فقد تأست بالإسكندرية عام ١٨٧٩ وكان هدفها القضاء على ديكتاتورية إسماعيل والعمل على خلعه أو قتله ، ووضعت برنامجها الذى تضمن الإصلاح العام ، ونادت بحكم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر إسماعيل ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) أبو نظارة زرقا ، عدد ١٥ فى أول يوليو ١٨٧٩ .

الشورى، وأصبحت منشوراتها متداولة ، ورفعت مطالبها إلى مجلس شورى النواب عارضة ما حاق بمصر من تغلغل أجنبى حتى فى استعمال اللغة الأجنبية فى الجهات الرسمية « إن مجلس النظار على جلالة قدره لم تصدر عنه إلى الآن مراسلة بلغة الوطن ، فكان ذلك داعيًا للعجب »[١] ، وقدمت لائحة بها من الأفكار ما يجعلنا نقر بأن واضعيها أصحاب عقلية مستنيرة ، كما نددت بالأوتقراطية المستبدة التى تعيشها مصر .

وكانت هناك جمعية أطلقت على نفسها « اتحاد الشبيبة المصرية » وهى ذات طابع اقتصادى واجتماعى ، دعت إلى إنشاء بنك قومى وطنى لإنقاذ مصر من الاستبداد الأجنبى ، وطالبت بالإهتمام بالتعليم وتشجيعه وجعله مجانًا .

ويأتى النديم ليجعل الجمعيات ومنابرها الشعلة المتقدة التى أنارت الطريق للثورة ، والتى جمعت كل الفئات تحت شعار موحد من أجلها ، ونراه يعلن رسميًا بأن تلك الجمعيات « تسعى فيما يعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية »[٢] ، كما أبان أنها بعيدة عن السياسة وسيقتصر نشاطها على المحيط الثقافى والاجتماعى ، وذلك حتى يبعد عنها الشبهات التى تلصق بالعاملين بالسياسة .

وتكونت أولى هذه الجمعيات بالإسكندرية وهى « الجمعية الخيرية الإسلامية » وتقرر أن يكون النديم نائب رئيسها ، فالرئيس عباس حلمى ولى العهد ، وكان الهدف الحقيقى الذى يرمى إليه النديم ، هو بث الروح القومية فى البلاد للتحرر من نير الظلم والاستعباد ومقاومة استئثار الأجانب . وفى الإسكنزرية خاصة كان منبع نشاط النديم ، فقد وضح فيها الرأى العام وأصبح الناس يتكلمون عن صندوق الدين والشورى والاستقلال والحرية ، وتحولت الحفلات المدرسية التى يقيمها إلى ندوات تناولت جميع شئون مصر وتكلم فيها كل قادر وتهافت عليها الناس جميعهم ، وكان ذكاء النديم فائقًا للحد فرأى أن يتقرب ولو بصورة ظاهرية للحكومة والقائمين عليها ويموه عن مساعيه ، وراحت الصحافة تشجع ذلك وتبين فوائد الجمعيات فى رفع الفقر والفاقة، وإنشاء المدارس والمستشفيات والمكاتب[٣] .

وبمساعى النديم واتفاقه مع فريق من أقباط مصر ، أقيمت « الجمعية الخيرية القبطية » وتأسست لها مدرسة على نمط نظام النديم ، وترددت أصداء الخطابة

---

(١) التجارة ، عدد ١٧٥ فى ٢٧ يناير ١٨٧٩ .

(٢) عبد الفتاح نديم ، سلافة النديم ، جـ ١ ، ص ٧٠ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٩٤٢ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨٠ .

فيها منذ افتتاحها على لسان النديم وأديب إسحق والتى انصبت على التعاون والاتحاد والبعد عن التعصب .

وأراد النديم أن يأخذ طابعًا عامًا لدعوته ، وكانت ضربته العلنية بتنظيم محافل خطابية فى ساحة مدرسته ليلة الجمعة من كل أسبوع ، وأصبح ذلك الطابع منتظمًا فى اللقاءات والموضوعات ، وتحقق ما كان يرجوه الأفغانى فى الدعوة لإتخاذ الخطابة وسيلة عملية للنزول إلى ميدان الكفاح والتطرق لكل ما يعانى منه شعب مصر .

واهتزت الإسكندرية لخطب النديم ، وهرع الناس إلى محافله ، ومضى فى استعمال الرمزية حتى يبعد عنه يد الأذى ، وعبر عن فكره السياسى بتلك الطريقة ، ولوعى الناس أدركوه ، ونشرت الصحافة خطبه ووقفت بجواره فهو أحد جنودها ، وعند بدء أية خطبة له « كان ديوان الخطابة يمتلئ بما يزيد عن سبعمائة رجل ليسمعوا النديم فى حب الوطن »(١) .

وما لبث الأمر أن جاء دور رياض مع محافل النديم ، فأراد أن يضع له ما يسىء إليه عن طريق أعوان له فى الجمعية ، وعندما أحس النديم قدم استقالته ، ونجح رياض ظاهريًا فى إبعاده عن الجمعية توطئة لإبعاده عن الرأى العام ، لتخمد تلك الحماسة التى غرسها فى قلوب المصريين ، ولكن أتت النتيجة عكسية فقد إزدادت قيمته ومحبة الناس له .

أما عن جمعية القاهرة « جمعية المقاصد الخيرية » فقد صدر قرار إنشائها إلى أحمد السيوفى وكانت أهدافها كسابقاتها ، وجاء فى قانونها أنه لن تتعرض للسياسة والدين ، وأعطيت رئاستها فى بداية الأمر لولى العهد عباس حلمى ، لكنه عين عنه نائبًا هو البارودى وكان ناظرًا للأوقاف(٢) . وبرزت فيها شخصية محمد عبده فأكثر فى محافله عن التقدم للعلوم والآداب ، وبين الحقوق والواجبات وفوائد التربية والتعليم والرقى باللغة العربية. وحث الأغنياء على إنشاء الكتاتيب والمدارس ، ومع قيام الثورة ساهمت تلك الجمعية بكل طاقتها من أجل خدمة مصر .

المسرح والوعى القومى

تمشيًا مع السياسة الإسماعيلية فى جعل مصر قطعة من أوربا ، كان لابد من الإهتمام بالتمثيل ، ولكى تظهر مصر بمظهرها الحضارى والمدنى أمام ملوك أوربا

(١) المحروسة ، عدد ١٦٣ فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٠ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٩٤٢ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨٠ .

وعظمائها عند افتتاح قناة السويس ، أنشأ الخديو الأوبرا واستدعى بعض الفرق الأجنبية للتمثيل فيها .

أما عن ظهور المسرح العربى فى مصر ، فقد بدأ على يد يعقوب بن صنوع الذى فهم دور المسرح فهمًا جيدًا من حيث قوة تأثيره ، وعظمة رسالته التوجيهية فى قيادة الجماهير بجانب رسالته النقدية ، ولذلك أراد أن ينشئ مسرحًا خاصًا للشعب يعرض لهم فيه مشاكلهم الاجتماعية والسياسية ، ولقد لقبه إسماعيل بموليير مصر ، فحاول يعقوب بن صنوع أن يرضيه فى البداية ، فهاجم فى مسرحه الأتراك وسلاطينهم فى وقت كان الشعب فيه متبرمًا من تلك الطبقة ، فلاقت هذه النغمة الاستحسان عند الخديو .

ونجح يعقوب بن صنوع فى توجيه المثقفين إلى مسرحه ، وأصبح الجميع يتحدثون عن مسرحياته ، وبدأ ينقد إسماعيل وأسرته ، فازداد إقبال الناس على مسرحه وكان منهم من طلبة الأزهر[1] ، بعد أن تحرروا من قيودهم وباتوا يذهبون للمسرح ، واستمر فى الهجوم والنقد ، فضاق الخديو بالأمر ومن ورائه الأوربيون ، فأمر بإغلاق مسرحه .

وعندما نزلت الهجرات الشامية مصر ، وكان بها المفكرون والأدباء والممثلون ، رحب بهم إسماعيل فاتجه البعض منهم إلى التمثيل ، فكون سليم النقاش فرقة يساعده أديب إسحق وذلك قبل عملهما بالصحافة ، وعلى أيديهم عربت أندروماك لراسين وشارلمان ومثلا فى الإسكندرية ، وجاءت فرقة يوسف خياط لتمثل على مسرح زيزينيا ثم الأوبرا روايات ذات مغزى اجتماعى وإصلاحى ، وكان لموليير النصيب الكبير فى ذلك ، فقد ذُكر الظلم والتعريض بالظالمين ، فظن إسماعيل أنه المقصود فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر ، وهذه هى طبيعته فهو يسمح بكل ما يطلب منه وعندما يتجاوز المسموح له حدوده ينتهى أمره ، ولكن يكون ذلك بعد فوات الأوان ، بعد أن تشبعت قوى المجتمع بروح النقد ، وقد أسهمت تلك المسرحيات فى نمو الوعى الذى ترجم فى الإقبال عليها جماعات « فكان تلاميذ المهندسخانة يرغبون أحيانًا التوجه جماعات »[2] .

وينزل النديم إلى هذا الميدان ، أليس التمثيل هو نوع من أنواع الدعاية للأفكار ؟ وأفكار النديم يسيطر عليها الإصلاح بأنواعه الاجتماعى والأخلاقى والسياسى ، إذن لابد أن يشارك فى ذلك ، فاختار الإسكندرية ليمثل فيها سواء على

(1) Ninet , Arabi pacha, p. 128 .

(2) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ٥٨ .

مسرح مدرسته أو على مسرح زيزينيا بالإسكندرية الذى طالما اعتلي منبره الأفغانى ، وكان ذلك الوقت هو بداية حكم توفيق ، ووصول الضيق والتبرم إلى مداه ، فأراد النديم أن يفكر توفيق بأنه قبل اعتلائه العرش كان مع الحركة الوطنية ، ويذكره بما جرى لأبيه ، لهذا مثل روايتين مشهورتين حضرهما توفيق والنظار ورجال الدولة ، والأولى « الوطن وطالع التوفيق » تبين حالة الوطن وما عليه من الخشونة والجهالة ، وورود المبشرين بعصر الإصلاح ومذاكرة أهله فى تقدم المعارف وعودة شباب الوطن وحوله من المعامل والصنائع والمكاتب ما يتم به العمران واختتم الرواية بإسداء النصح إلى توفيق ، وقد لقيت إقبالاً شديداً حتى أن إحدى الصحف تقول « لم يبق منها تذكرة فإن الناس أسرعت عليها إسراع الظمآن إلى المورد العذب ، أيد الله هذه الجمعية الخيرية وكلل مساعيها بالنجاح »(*) .

وصب النديم أفكاره فى الروايات التى كان يقوم بالتمثيل فيها مع مدرسى المدرسة وتلاميذه ، وقد تناولت موضوعات شتى دلت على ما أدخله فى قلوب محبيه ، فكثرت محاوراته بين الغنى والفقير وطالب بالمساواة بل وهاجم الأغنياء وما أصابهم من جهل وفقدانهم لفضيلة العلم . ومن هنا نتبين أن للمسرح دوراً فى إيقاظ الوعى وتكوين وبلورة الرأى العام ، كل ذلك ساعد على أن القوى الاجتماعية أصبحت على أهبة الاستعداد عندما أنذرت الثورة وألقت الزهر .

الموظفون

استخدم محمد على المثقفين المصريين فى الدواوين الحكومية ، وتبعه سعيد الذى كان يكره الأتراك ، فأحل المصريين محلهم فى الوظائف الإدارية العليا ، وعندما توسع إسماعيل فى سياسته ، تعقدت إدارته الحكومية فزاد من محيط دائرة استخدام المصريين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان يهدف إلى ركيزة تدين له ولأسرته بالولاء ، لذا نجده يفسح المجال أمامهم فى شغل مناصب الدولة ، لكن لم يصل منهم إلى مناصب رئيسية إلا القليل ، حيث استحوذ عليها الأتراك .

وكان من نتائج الإحتكاك بين الحضارة الشرقية والمدنية الغربية ، وذلك الانفتاح الذى شهده حكم إسماعيل ، أن غدت طبقة الأفندية من موظفى الدولة فى مقدمة طبقات المجتمع انفعالاً بالمؤثرات المختلفة من داخلية وخارجية ، وكانت أكثر

(*) المحروسة ، العددان ٥٨ ، ٦٠ فى ٥ ، ٧ أبريل ١٨٨٠ .

تقبلاً للجديد ، فهى تمثل الوسط بين طبقة الأتراك وبين سواد الشعب ، وحرصت على الارتباط بالأصول الريفية سواء عن طريق رباط الأصل أو طريق الأرض ، إذ سنحت لهم قوانينها وخاصة فى عهد سعيد على أن يكون لهم ملكيات متوسطة « فقد حصل صغار الموظفين على مساحات من الحجم المتوسط فى حدود ٥٠ فدانًا »(١) . وتأثرت هذه الطبقة ، وعانت من تلك الظروف التى أحاطت بها من كل جانب وتعددت وأوصلتها فى النهاية للمشاركة بكل قوتها وثقلها فى الثورة العرابية .

وكان الوجود التركى أول هذه والمنغصات ، إذ أوجد محمد على طبقة أرستقراطية اعتمدت على الأتراك ، وجعل اللغة التركية لغة الحكام والدواوين والإدارة ، واستمر ذلك الأمر مع أسرته ، وبذلك أصبحت القيادة الإدارية والاجتماعية فى أيديهم ، وأضحى المصرى محتقرًا مستهزأ به ، وأطلقوا على المصريين « كور فلاح أى الفلاحين الأجلاف » وسيطروا على دوائر البلاد ، وكان الانتماء إليهم مبررًا كافيًا للترقية ، هذا بالإضافة إلى علو مرتباتهم إذا قورنت بالمصريين الذين فى نفس الدرجة وذلك إن تصادف ، وعلى هذا الأساس أصبحوا باشوات من كبار ملاك الأراضى وكونوا طبقة مميزة خاصة بهم بلغت حوالى العشرة آلاف حتى عام ١٨٧٩ حملت لواء الكراهية للمصريين(٢) ، وبالتالى فقد مقتهم المصريون وتكونت العقدة الشركسية بنشأة ذلك الخضوع الذى تعرضوا له ، فحكامهم ليسوا بمصريين بل هم من نفس العجينة التركية ، وإحساسهم أنهم عبيد - بالرغم من أنهم كانوا عصب مشروعات النهضة الخاصة بالتعليم والجيش والصناعة والتجارة والصحافة - بالقياس إلى السادة من الأتراك والشراكسة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ذلك الشعور الذى انتاب مسلمو مصر بأنهم أعلى من الأتراك وأعظم حيث إن أصحاب الخلافة ليسوا بعرب ، وأنهم حديثون بالإسلام بينما أبناء مصر هم البكر له ولا ينسون أن الأتراك هم الذين سلبوا الخلافة من القاهرة ، ومن هنا اعتبروهم دخلاء على الدين وعلى السياسة أيضًا بإخضاعهم مصر فهم الغزاة المحتلون والأرستقراطيون أصحاب الكبرياء . أما الأتراك فقد غمرهم إحساس بالغيرة من مصر التى أشرقت عليها شمس الحضارة العربية ، وأن القاهرة لازالت تحتفظ بالمركز الدينى الرئيسى رغم وجود العاصمة التركية .

والنتيجة أن تأصلت الصورة القاتمة بين الفريقين . واستمر طغيان الأتراك ،

---

(١) على بركات ، المرجع المذكور ، ص ١٤٤ .

(٢) Bemlan . op. cit., p. 28.

فما هى الحكومة المصرية إلا حكومتهم فتحكموا فى المصريين ، فقد كان حاكم مصر وحاشيته ورجاله فى قصورهم ومساكنهم في جانب ، والمصريون فى الجانب الآخر يزدادون فى العدد والذكاء والطموح وأيضًا فى الكراهية .

وخضع الموظفون المصريون للأتراك ، وبالرغم من تمتعهم بتلك الثقافة الواسعة وخاصة العائدون من البعثات والحاصلون على درجات علمية ، فإنهم فلاحون فى نظرهم ، قدموا لهم المناصب البسيطة ، حيث خافوا أن يمنحوهم الفرصة وهم الأذكياء فيكتسحوهم من الطريق ، لذا عملوا علي إبعاد ذلك الشباب المثقف من أصحاب الأفكار المستنيرة عن العاصمة ، ونقلوا معظمه إلى المديريات ، لكى يعمل فى وظائف الكتبة والمترجمين ، تلك الوظائف التى كانت تختلف كل الاختلاف عما تعلموه وتدربوا عليه .

كانت هذه إحدى المحن التى منى بها الموظفون ، وتبع ذلك انتشار مساوئ الإدارة التي يتحكم فيها الأتراك « فلم يكن هناك قانون يبين وظائف المأمورين ومسئوليتهم حتى أن رؤساء المأمورين بل النظار أنفسهم لا يعرفون حقيقة وظيفتهم ، ولقد كانوا بمنزلة الآلة لإدارة واحدة لا يستطيعون التظاهر بأدنى استقلال فكرى ولا قوة لهم إلا على من دونهم ، واتسعت دائرة المخادعة والتجسس والإفتراء وحل الدهاء مكان الأهلية ، واستولى الانقياد علي الشهامة وأصبح « لا يوجد إلا سلطة واحدة وهي سلطة القوة الحاكمة ، وأن هذه القوة تعم جميع أقسام القطر بحيث إن أصغر مأمورى الإدارة له فى وظيفته الصغيرة سلطة غير محدودة »(١) .

وساس الأتراك مصر بمحض إرادتهم ووفقًا لأهوائهم لا قانون يهديهم ولا أحد ينتهون إليه ، فقد كانت وظائف الحكومة التى ينعم بها على من استحق المكافأة والإحسان لا لأنه جدير بالعمل وذو دراية فى تولى مصالح الناس ، ولكن لأنه محسوب على زيد من الناس أو لأنه من الطبقة الأولى التى التفت حول لواء الحكومة أو من أتباعهم أو أتباع أتباعهم ، وكان المديرون هم أصحاب اليد العليا وذوى الكلمة النافذة فى جميع الشئون ، يعتبرون أن مصر كما يقولون « جفلك لنا ولآبائنا من قبلنا فلنتزود منه ما اشتهينا لأن الله خلق المصريين خدامًا لنا وليس لهم حق قبلنا »(٢) ، وتضاعف الفساد أثناء حكم إسماعيل سواء منه أو من أتباعه الذين خطوا خطواته ، فانتشرت الرشوة فى كل المصالح ، فالمصلحة الخاصة كانت مسيطرة وتجرى على أساسها كل المفاهيم ، ولم يكن من الممكن أن تتم أية عملية

(١) جمعية اتحاد مصر الفتاة ، المصدر المذكور ، ص ص ١٣ ، ١٥ .
(٢) أحمد فتحى زغلول ، المحاماة ، ص ص ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

دون أن تكون هناك الرشـوة وتدرجت وكـثـرت لدى المسـئولين ، فـالقـاضـى ورجل البوليس والمدير يتمتعون بها .

ومع انهيـار المالية المصرية ساءت حالة الموظفين بعد أن توقفت الحكومة عن الدفع الذى استبدلته بأذونات على الخزينة ، فكانوا يعطونها لدائنيهم . وبالتالى يجتمع على أبواب نظارة المالية دائنو الموظفين من الخبازين والجزارين ومن إليهم ، ليطالبوا بقيمة الأذونات التى فى أيديهم ، وقد بلغ مجموعها حوالى أربعة ملايين من الجنيهات[١] .

وبتقلد النظارة الأوربية الحكم وحتى قيام الثورة ، وصل الموظفون إلى حافة الهاوية ، وعم الغضب الواسع الأرجاء فى الدولة كلها ، فلأجل الكوبونات والدفع للخارج سحب كل شىء من الداخل ، وأصبح الموظفون يتضورون جوعًا فلم تصرف مرتباتهم لمدة عشرة شهور ، والبعض مدة ستة عشر شهرًا والبعض مدة سنتين ، فأقبل بعضهم على « بيع حلى نسائهم ليبردوا بثمنها حر الشعب وإطفاء نيران اللهب، بل وصل بهم الأمر إلى بيع أمتعتهم وأثاث منازلهم »[٢] ،ولم يقتصر الأمر على ذلك ، إذ راح ولسون ناظر المالية يتبع طريقة الفصل من الوظائف ، وبناء على أوامره نرى مصلحة السكة الحديد تستغنى عن موظفيها المصريين ، ومصلحة وابورات البوستة تفصل الباشكتبة وخدمة المخازن القبودانية المصريين ، وتستبعد نظارة المالية الكثير من « المستخدمين الشاكين الذين يرثى لحالهم بسبب فقرهم وعسرهم»[٣] . وكان هؤلاء الموظفون مشهورين بالخدمات الصادقة والخبرة الطويلة ، وحتى مرتباتهم المتأخرة لم يتحصلوا عليها ، حيث تصل إلى الموظف التذكرة التى تفيده الشكر على مساعيه الماضية ، والاستغناء عن خدماته دون أن يدفع له حقه فى المتأخر من مرتبه .

وأمام هذا السيل فى إقصاء الموظفين من وظائفهم ، كان تعيين الأجانب وخاصة الأوربيين فى أماكنهم ، « فمن كان راتبه ٢١٨ قرشًا عين بدلاً منه إنجليزى براتب قدره أربعين جنيهًا ومعه ترجمان راتبه ٨ جنيهات ، والقصد من ذلك الاقتصاد فلا حول ولا قوة إلا بالله »[٤] . ولم يكن الاقتصاد إلا فى الأسماء المصرية التى هى أهل لأسمى الوظائف وأدرى بأحوال البلاد ، وتساءل الناس هل من العدل والإنصاف إرهاق الأمة وهؤلاء الموظفون المصريون أولادها ، واغتصاب آخر قرش معها ، وآخر قرش قد يكون لديها فى السنوات التالية بدون أن ينال أبناؤها من أموالها شيئًا ، مع أن اليسير المرتب لهم إنما هو حق عرقهم ، وبالرغم من ذلك فقد

(١) محمد فهمى لبيطة ، المرجع المذكور، ص ٢٤٠. (٢) الوطن، عدد ٤٥ فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٨ .
(٣) المصدر نفسه ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ . (٤) التجارة ، عدد ١٨٤ فى ٧ فبراير ١٨٧٩ .

حرموا منه ومن وظائفهم ، فى الوقت الذى رأوا فيه الأجانب يتمتعون بتلك المرتبات الضخمة . وشنت الصحافة حملة واسعة على ذلك ، وهاجمت الأجانب ، الذين لم يتمتعوا بالوظائف الكبيرة فقط ، بل وتغلغلوا فى أعماق الإدارة المصرية واستحوذوا أيضًا على المناصب الصغيرة ، فقد كانت هناك منافسة بين بريطانيا وفرنسا فى مسألة الموظفين هذه ، وحتم الإتفاق الذى عقد بينهما فى برلين على تعيين موظف فرنسى نظير كل موظف إنجليزى ، أضف إلى ذلك أن كلاً من المراقبين كانا يسارعان فى تعيين بنى جنسهما لتوطيد نفوذ دولته ، وكان للبريطانيين نصيب فى الوظائف الرئيسية الإدارية ، وفى ذلك إثارة كافية لشعور الموظفين المصريين وخلق الاستياء والسخط بينهم بعد أن أدركوا أن هؤلاء الأجانب ينتزعون من أفواههم لقمة العيش ، وساعد نوبار ورياض على ازدياد سوء الأوضاع ، فهما أجنبيان مشربًا ومقصدًا ، فلا فرق بعد ذلك بين القبعة والطربوش .

وأساء هؤلاء الأجانب إلى مصر بالفساد الذى تفشى معهم فكونوا مجموعات لصوصية ، ووضح ذلك من الخلل الذى طرأ على الجمارك ، وكانوا قمة فى عملية الإرتشاء ، وليس للحكومة طائل عليهم ونرى ولسون يدافع عنهم فيقول « إنهم أطول باعًا فى الإدارة وأوفر دراية »(*) . والعكس هو الصحيح ، فكثيرًا ما أثبتوا جهلهم فى الأمور التى تولوها ، وأضروا مصر ، فكانوا يقفون ويعارضون فيما يكون صالحًا لها .

وأضيف إلى الأوربيون تلك الجالية الشامية التى شغلت قطاعًا فى وظائف الدولة وزاحمت المصريين واستولت على ما لهم نظرًا لاتقانها اللغات الأجنبية ، لذلك كان الارتباط بينها وبين الأوربيين قائمًا ، ومضى نشاطها إلى ما كان له الأثر على المجتمع سواء فى تزييف النقود أو الاشتغال بالربا ، بالإضافة إلى الصفات التى جعلت المصريين يكرهون فيها ذلك الاستغلال ونكران الجميل .

وأيضًا كان للأرمن حظوة فى مصر ، فمنهم من شغل وظائف رئيسية فى الحكومة أمثال بوغوص ونوبار وتيجران ، ومنهم من احتل الوظائف العادية ، وكانوا من الطبقة الوسطى التى قدمت فروض الطاعة والولاء للباشوات أصحاب النفوذ ، ففضلوهم على المصريين الذين ازدادوا عليهم حقدًا ، وقد أغدق المسئولون فى مصر الإمتيازات على الأجانب جميعهم بدون استثناء ، بينما حرم أهل مصر الذين خضعوا لأسوأ الظروف ، وأصبح المصريون يتألمون لوضعهم الوظيفى فنشأ وتأصل ذلك الشعور المعادى للأجانب عامة ،الذى وصل إلى درجة الغليان مع الثورة العرابية .

(*) التجارة ، عدد ١٤٣ فى ٩ ديسمبر ١٨٧٨ .

... (ب) الجناح العسكرى :

مر على مصر وقت لم تملك فيه جيشًا من أبنائها ، وذلك بسبب خضوعها لأجانب عن أرضها ، كونوا بمعرفتهم الجيش الذى يدافعون به عن أنفسهم ، سواء من الغزو الخارجى أو من أية حركة داخلية يمكنها تقويض حكمهم .

وبتولى محمد على شئون مصر ، دخلت فى عهد جديد اتسم بالخصوصية المصرية، التى كان من أهم وجودها إشراك المصريين فى جيش مصر وخروجهم للحرب بعيدًا عن أرض الوطن . فقد أراد محمد على أن يكون جيشًا عصريًا ، وفى بداية الأمر رأى أن يجند السودانيين لكنه فشل ، فلجأ إلى فلاحى مصر .

واستعمل حاكم مصر العنف فى تجميع جيشه ، مما أدى فى النهاية إلى اقتران الجندية بالسخرة ، وخصوصًا بعد أن أيقن الفلاح أنه يذهب ليحارب ليس دفاعًا عن وطنه إنما لأطماع شخصية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كانت الظروف التى يحارب فيها غاية فى القسوة سواء أكانت حربه فى الفيافى والصحارى أو المعاناة من نقص المؤونة ، وقد أثبت الفلاحون كفاءة فى ميادين الحرب ، لكنه لم يثق فيهم كقادة ولا ضباط ، حيث خشى على سلطته منهم ، كما كان من سياسته القضاء على أية قوة وطنية يستشف منها أنها ممكن أن تناوئه ، لذا جعل القادة والضباط من مماليكه .

ولم يذكر الجيش شيئًا لإبراهيم ، إلا أنه قام بتخفيض عدده ، وجاء عباس ليكون مغرمًا بالحربية لدرجة أنه عندما أغلق المدارس ترك ما يختص بها ، وبالرغم من أنه أنقص عدد الجيش ، فإنه أدمج فيه نحو ستة آلاف من الأرناءوط فجعلهم خاصة جنده ، وكانت لهم السطوة « وعاثوا فى الأرض فسادًا بما اشتهر عنهم من الظلم والعسف والإرهاق »[1] .

واستطاع سعيد أن يقدم على خطوة تعد من أهم الخطوات التى جعلت الجيش المصرى يتصدر الحركة الوطنية ، ألا وهى إدخال البورجوازية الصغيرة ، بانتظام أولاد العمد والمشايخ فى المجال العسكرى ، فيقول أحمد عرابى : « ولما تولى المرحوم محمد سعيد باشا ولاية مصر فى ٢٤ شوال سنة ١٢٧٠ أصدر أمره بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية »[2] ، وكانوا قبل ذلك يعفون من الخدمة العسكرية وعندما إحتج المشايخ وأبناؤهم على هذا القرار ، نجده يحذرهم من أنه

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر إسماعيل ، جـ ١ ، ص ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) أحمد عرابى ، مذكرات مخطوطة ، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، جـ ١ ، ص ٤ .

سيجند ألبانين محل أبناء الشيوخ ، وبعدئذ ستدبر مساكن الألبانيين فى القرى على نفقة المقيمين بالقرية .

وقدم سعيد فى البداية ما يحبب إلى العسكرية ، فأنقص مدة التجنيد وجعلها سنة واحدة ، وسمح للفلاحين بالترقى كضباط ، ولم تكن العناية بالترقية فقط ، وإنما أيضًا بالغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة ، وشجع شعراء عصره على التغنى بالجندية ، فبدأت تظهر لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كلمة الوطن والوطنية . وبذلك دخل العنصر المصرى الصميم الذى شمل معظم فلاحى الميدان العسكرى وأصبح منتميًا إليه ، وتكوّن الجناح العسكرى المثقف بعد أن وضعت النواة الأولى لخلق طبقة الضباط المصريين الذى سيتولون قيادة الثورة ، وبعد أن كان الجيش قاصرًا على الطبقة الفقيرة دخل فى زمرته طبقات أخرى فارتفع مستواه ، وربط الحب بين سعيد وطبقة الفلاحين العسكرية ، فلم يبخل عليهم بشىء ، فحصلوا على المراكز المرموقة فى الجيش التى كانت قاصرة قبل ذلك على الأتراك والشراكسة .

وبناء على أمر سعيد بتجنيد أبناء العمد والمشايخ ، طُلب عرابى للجندية، وهو أحد أبناء شيوخ قرية هرية رزنة بالشرقية ، كان والده قد أُقطع فى فترة محمد على ستة أفدنة لاستغلال محصولاتها ، ويبدو أن له بعض المؤهلات حتى أنه كان يعلم أبناء القرية مبادئ القراءة والكتابة والدين بمسجدها بعد العصر والعشاء، وكان منهم ابنه الذى عهد به بعد ذلك إلى صراف الناحية ، فلازمه خمس سنوات ، ثم أمضى أربع سنوات بالأزهر كبقية أبناء قريته ، وعاد إليها لينخرط تحت لواء العسكرية وهو فى الرابعة عشرة من عمره .

وساعده الحظ فى عملية الترقى التى أضفاها سعيد على الفلاحين إذ يقول « دخلت العسكرية نفرًا بسيطًا فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ وترقيت فى درجات العلا بسرعة غريبة وهمة عالية لا تعرف الملل حتى نلت رتبة قائمقام الآلاى فى ٢٤ صفر الخير سنة ١٢٧٧ ، وهى الرتبة التى لم يصل إليها أحد قبلى من العنصر المصرى »(*) .

وقد كان ذلك راجعًا أيضًا إلى ذكائه الطبيعى ونباهته الغريزية ومعرفته القراءة والكتابة والحساب وما خصه الله من تلك المواهب العقلية والطبيعية التى صعدت به إلى أوج التقدم ، لذلك فقد حظى عرابى برضا سعيد « كنت عزيزًا مقربًا من حضرة المرحوم سعيد باشا وكثيرًا ما كان يشركنى معه فى ترتيب المناورات الحربية ،

(*) المصدر نفسه ، ص ص ٤ ، ٧ .

ينيبنى عنه فى تلقينها إلى أكابر الضباط بمعرفته وعلى مسمع منه رحمه الله تعالى، ولشدة إعجابه بى أهدانى تاريخ نابليون بونابرت »[١] . ووصل الأمـر إلى أن اتخـذ سعيد عرابى أركان حربه ، وراح يرافقه فى رحلاته .

هكذا نرى الأصول الفلاحية تتبلور فى الجيش ليس فقط عرابى ، وإنما جميع رجال الثورة الذين خرجوا من تحت السلاح مع قرارات سعيد ، فعلى الروبى هو ابن أحد مزارعى قرية دفنو بمديرية الفيوم ، وعلى فهمى وعبد العال حلمى هما من أبناء الفلاحين ، وأيضًا طلبة عصمت ابن أحد فلاحى كفر حرزة بمديرية الجيزة .

وبالتدريج أصبح الضباط الفلاحون يشعرون بالقوة داخلهم ، ويؤمنون أن من حقهم المضى فى ذلك الطريق الذى فتحه لهم سعيد للوصول بمصر إلى أعلى درجات الكمال ، ومن هنا بدأ يدب الحقد بينهم وبين الضباط الأتراك والشراكسة الذين كانوا مسيطرين كلية على الجيش قبل سعيد ، فامتلأ كل منهما غيرة وحقدًا على الآخر .

وكان لسعيد أمام تلك السياسة التى اتبعها اتجاهاته الخاصة ، فمنذ البداية أراد خلق قوة تقف بجواره ويستند إليها إذا دخل فى صراع مع الدولة العثمانية ، وإذا رغب أن يناوئ العنصر التركى الشركسى فى الجيش الذى كان يكرهه ، ولذلك نراه بكل همة ونشاط يمضى فى تلك السياسة ، ويطبق أقصى العقوبات على الفارين من الجندية ، تلك التى امتدت إلى « عيال وأقارب من يفر هاربًا من العسكرية بضبط أطيانهم ونخيلهم ومزارعهم ، وهدم أماكنهم ، ومبيع ذلك مع ساير موجوداتهم وورود الثمن للميرى ، وكان حصول هذا الأمر باعثًا على الخراب وعدم عمارية الأهالى وتشتيتهم بعد سلب ما كانوا عليه من التوطن وأساسيات المعاش »[٢] ، وكشوف المديريات مثبت فيها ما صودر وما بيع من أطيان ومحصولات ونخيل وأشجار وثمارات وعقارات ومواشى وآلات زراعة . كذلك أصدر قراراته القاسية على من يفسدون الأعضاء لعدم التحاقهم فى الجندية .

وكعادة سعيد لم يستمر على وتيرة واحدة ، فهو ضعيف الإدارة متردد فى الرأى ، وقد طبق ذلك على الجيش فكان كل يوم فى تغيير وتبديل وإنشاء ونقض وإبرام وإلغاء ، وساعده على هذا الوضع المالى الذى وصل إليه وديونه التى تراكمت عليه ، فخفض عدد الجيش إلى ٦٠٠٠ ثم إلى ٢٥٠٠ وسرح الباقى ، وباع بالمزاد

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر ١٩٠٢ ، صورة الأمر الكريم رقم ٢٦ ، ٩ شوال ١٢٧٩ (١٨٦٢) .

أكوامًا من مهمات الجيش ، وتخلص من مئات الخيول والجمال والهجن ، وألغى المدارس الحربية ومارس أوتقراطيته التى أوصلته إلى أنه منع الضباط المترقين من تحت السلاح ، « بعدم تمكينهم من نسائهم حتى ولا بالنظر إليهن »(*) .

وجاء إسماعيل ولم يكن نصيرًا للضباط الفلاحين ، فلم يترق أحد منهم طيلة سنوات ، فقد ظل عرابى قائمقامًا تسعة عشر سنة ، ولم يكتف بالوقوف أمام ترقى الضباط المصريين ولكن شُنت الحرب ضدهم ، فكان يكفى أن تلصق بأى منهم تهمة، ولو لم تكن صحيحة ليكون جزاؤه أن تنتزع منه درجته ، أو يقصى عن منصبه ، أو ينفى إلى أقاصى السودان وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهن الأسباب .

وأراد الخديو أن يخضعهم لنفوذه بتزويجهم شركسيات من حريم قصره ليسهل التأثير عليهم ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، إذ كان يكره من كل قلبه المصريين ويحب كل الحب المنتمين لجنسه من الأتراك والشراكسة الذين حظوا بحنانه وأمواله، ومن هنا تأصل الصراع العنيف بين الطرفين ، والذى دخلت فيه الثورة حربًا من أجله قبل حربها على التدخل الأجنبى .

وأصبح الجيش معسكرين ، معسكر القيادة يمثله الأتراك والشركس والألبان والأرناءوط والأناضوليون والجورجيون منذ أن احتضنهم محمد على ، ومعسكر الفلاحين من الجنود إلى صف الضباط إلى الضباط حتى رتبة القائمقام ، الأول : كانت معيشته رغدًا وملذة وفسادًا وثراء وله من الكبرياء والعظمة على الفلاحين ، والثانى متشبعًا بالروح الدينية ، متقشفًا وبعيدًا عن الترف ، صلب فى التكوين وله أخلاق القرية المصرية .

وتمشيًا مع سياسة إسماعيل فى التوسع أولاً ثم فى الاستقلال ثانيًا ، كان عليه أن يزيد عدد الجيش ، ويخوض تلك الحروب والمعارك إما إرضاء للسلطان وذلك للحصول على المزيد من الامتيازات ، أو لإرضاء غروره ، فوقع عبء ذلك كله على المصريين ، وتعددت الحروب من أجل الآستانة ، بدأت بحرب إخماد ثورة عسير (١٨٦٣ - ١٨٦٥) وحارب فيها المصريون لمدة عامين وحققوا ما ذهبوا من أجله ، وحرب الجبل الأسود (١٨٦٢) وحرب كريت (١٨٦٦ ، ١٨٦٧) ، كما اشتركوا فى حرب الصرب (١٨٧٦) وفيها أظهروا بسالة نادرة فى القتال ، وجاءت الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ ، ١٨٧٨) ليواصلوا مجهودهم الحربى . وأما عن الحروب التى خاضوها من أجل رغبة إسماعيل ومصلحته واستجابة لنزواته ، فقد كانت

(*) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ٣٣ .

حملات السودان ودارفور والتوسع فى السودان الشرقى ، وأخيرًا حرب الحبشة (١٨٧٥ ، ١٨٧٦) .

من هذا المنطلق ، كان العمل على تكوين الجيش بتلك الأعداد التى اعتمد فيها على الفلاحين الذين كانوا معظمهم يذهبون ولا يعودون ، فإنهم دائمًا وأبدًا كارهون للجندية يعملون كل ما فى وسعهم من أجل التخلص منها .

ودعم الخديو الحقد الذى نشأ بين عنصرى الجيش أصحاب البلاد الأصليين والوافدين عليها من الأتراك والشراكسة الذين مارسوا أساليب الاضطهاد على المصريين ، وتذكر لنا المصادر على سبيل المثال ما حدث بين خسرو وعرابى ، يقول النديم « فاشتعلت فى السيد عرابى نار الحمية وغضب لسب الأباء والجنسية وقال له : إن الفلاح اسم قبيح عندك ولولاه لما رأيت سعدك فإنه سيدك الذى رباك بنعمته ومولاك الذى أعتقك بمنحته ، فهو الحر وأنت الرقيق وهو السيد وأنت العتيق »[1] .

فكانت النتيجة أن أوقف خسرو تسليم الأراضى المنعم بها على عرابى ، وحاكمه أمام مجلس عسكرى من الشراكسة ، ويحلل عرابى ذلك بأن السبب هو رغبة خسرو فى ترقية أحد بمباشة الآلاى لكونه من أبناء الشراكسة ، وتم حبس عرابى بعد تلفيق تهمة له مدة واحد وعشرين يومًا ، فاتهم المجلس الذى حاكمه بمروقة عن العدل ولم يقبل الحكم ، فأمر إسماعيل بإبعاده عن الخدمة العسكرية[2] ، وقد كان هناك من يطالب بنفيه لكن اكتفى برفته ، ثم رجع بفضل الساعين بعد أن أدخل فى خدمة دائرة الأمير إلهامى باشا وتزوج من ابنه مرضعة الأمير وهى أخت زوجة توفيق بالرضاعة ، وعاد للخدمة العسكرية ليبدأ من جديد .

وجاءت حملة الحبشة لتضع حتمية الثورة للعسكريين ، بعد وضحت لهم المفاسد التى تعيشها مصر ، فعادوا من تلك الحرب ليبدأوا نشاطًا ملحوظًا كانت نتيجته الثورة التى حمل لواءها العسكريون ، وانضمت إليها باقى القوى الاجتماعية.

تكونت تلك الحملة فى أحلك الفترات للأزمة المالية التى عرّض إسماعيل مصر لها ، للدرجة التى أفقدتها نصيبها فى أسهم قناة السويس لتغطية نفقات الحملة ، والهدف لا شىء سوى إرضاء حاكم يميل للظهور والعناد . وكان القائد العام هو راتب باشا سردار العساكر المصرية ، وتولى عرابى مأمورية مهمات للذخيرة والميرة

---

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٣٢ .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨ .

فى الحملة ، فيقول « وكان فى عهدتى عشرة آلاف حيوان من الجمال والخيل والبغال ، وأغلبها أخذ من المصريين قسرًا من غير ثمن ، وكذلك العلف من الشعير والذرة والتبن »(١) . وقادة الحملة جميعهم شراكسة ومنهم عثمان رفقى ، ومارسوا القسوة والجبروت على الضباط المصريين « يؤاخذونهم بالعنف والشدة ويلقونهم فى أضيق الحبوس عند أقل حادثة ، فكانوا يشكون الجوع لعدم إعطائهم القوت الكافى، وتفشت الأمراض فى الجيش ، وكانت قنابل المدافع تكنس الأجسام من العسكريين ، وقد امتلأ الوادى بالجثث والجرحى وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره ، كما وقع فى الأسر كثيرًا فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب »(٢) . وخسرت مصر الكثير بإبادة هؤلاء وهم من خيرة شبابها .

أما عن العقدة الشركسية فقد ازدات تعقيدًا فى تلك الحروب ، حيث فاض الكيل بالعسكريين من تصرفات السادة الشراكسة ، كما أن هذه الحرب أثبتت جهلهم بأصول وفنون القتال ، فكانوا من أسباب الهزيمة ، وبالرغم من ذلك فلم يعاقبوا بل كرموا ، ومن الأوراق التى ضبطت بمنزل عرابى عقب الثورة ما يثبت هذا الكرم « كانت حربًا مشؤومة عادت بالخيبة والعار لسوء تدبير المماليك وعدم معرفتهم بمكايد الحرب ، ومع ذلك كافأهم الخديو المطرود بوضع نياشين الافتخار بيده الخائنة على صدورهم الفارغة(٣) .

وكانت نتيجة هذا كله المزيد من الكبت والانهيار والسخط الذى انتاب العسكريين وجمعهم فى إطار تعاون مشترك ، بالإضافة إلى الوضع العام الذى وصلت إليه مصر ، والتدهور المالى الذى جعل دفع المرتبات أمرًا عسيرًا ، وتلك الأعباء التى أثقلتهم ماديًا ومعنويًا ، فقرروا اتخاذ الخطوات العملية للوقوف أمام هذا الظلم ، وخاصة تلك التفرقة والقسوة التى كانت تتم على أيدى هؤلاء الشراكسة.

وأراد العسكريون أن يكون لهم التعاون الذى يمكنهم من توحيد أفكارهم ، ووضع برنامج لعملهم للوقوف أمام طغيان حاكمهم الذى لا يصلح لحكم مصر بعد ذلك الوضع الذى أوصل مصر إليه ، فقد علمهم نظام العسكرية وحمل السلاح الذى كانوا يشهرونه فى الحرب أمام الأعداء خارجيًا ، انه ممكن أن يشهروه أمام الأعداء داخليًا ، ضد الظلم والطغيان ، وأن ينالوا حقوقهم ، وأيضًا يعطوا مصر حقوقها ،

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ٢١ .-

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢ / د / ٥ .

فتقوى قلوبهم وتثبت عزيمتهم ، وخصوصًا أن مصر كانت تنظر إليهم برؤية إمكانية أن يخلصوها مما هي فيه من فساد ودمار .

نتج عن ذلك أن نشأت تلك الجمعية السرية التي تعد كتنظيم لعمل موحد جمعهم ، أسسها على الروبي عام ١٨٧٦ ، وما لبث أن ضمت جميع الضباط المصريين وعلى رأسهم عرابي فكان له نشاطه الهجومي الملحوظ ، حيث أثقل اللعنات على إسماعيل وجنسه ، وأصبح عضوًا بارزًا في تلك الجمعية يعاونه ويشاركه بحرارة على فهمي وعبد العال حلمي ، ولم تكن قاصرة على العسكريين المترقيين من تحت السلاح ، ولكنها ضمت أيضًا خريجي المدرسة الحربية[1] .

وتدريجيًا أصبح عرابي رئيسًا لها ، وتولى عملية الخطابة فيها التي اتسمت بالروح الحماسية الوطنية وأصبح لها أهمية كبيرة في طرح الأفكار وجذب السامعين ، ومن خلال رئاسته أراد أن يضم عناصر أخرى غير العسكريين لهذا التنظيم ، فكان يتوجه إلى الأزهر ويلقي على مسامع الطلبة والأساتذة « الخطب الدينية المؤثرة مما يهيج فيهم العواطف ويجعله بينهم مسيطرًا محبوبًا »[2] ، كانت تلك الخطب صورة حثيثية تشرح الأوضاع التي ترزخ مصر تحتها ، فنجده يطرق حالة الموظفين السيئة ، ويهاجم الأجانب وتقدمهم في مصالح الحكومة ، وانتفاعهم من جانبها بالمنافع الجمة والمرتبات الجزيلة التي يتقاضونها .

وبذلك لم تعد الجمعية خاصة بالعسكريين بل زاد روادها من بقية الفئات وخاصة المثقفين ، وكانت تجتمع مرة أسبوعيًا وترسل بيان اجتماعاتها ليعقوب ابن صنوع في باريس ، ولم لا وأثره كان واضحًا في تربية هؤلاء الضباط الشبان ، فقد مروا من بين أصابعه وقت أن كان بالقاهرة وقبل نفيه ، فإليه يرجع الفضل أيضًا في جعل العسكريين يتشبعون ويعتنقون مبادىء الحرية من خلال صبه للأفكار في عقولهم بحذر شديد في وقت كان التكلم فيه بالسياسة يشكل أمرًا خطيرًا ، وكثيرًا ما نطقت صحيفته الثورية باسمهم وأظهرت حالتهم وشرحت أوضاعهم وما يقاسون منه . فقد كانت تدخل مصر وتتسرب بين صفوف الجيش رغم القيود التي فرضت عليها .

---

(١) Dicey , op. cit., p. 254 .

(٢) إلياس زاخورة : مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر ، ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

وبعد أن علمت الجمعية بأن هناك جمعية أخرى مماثلة لها فى الأهداف ، رئى أن تتوحد الجهود بينها وبين جمعية حلوان للوصول إلى إصلاح مصر ، ومن هنا خرج الحزب الوطنى إلى حيز الوجود كتنظيم سياسى كان له أكبر الأثر فى تاريخ الحركة الوطنية ، وازداد النشاط لجميع القوى وأصبح للعسكريين مكان أيضًا فى محفل الأفغانى .

علم إسماعيل عن طريق على مبارك الذى كان فى بداية الأمر فى نظر العسكريين فلاحًا من طينتهم ، وصاحب ثقافة عالية ، ويمكن أن يقدم لهم المساعدة والمساندة ، لكن جاء موقفه غير ما كان متوقعًا منه ، إذ أحاط الخديو بتلك الإتجاهات الوطنية السائدة فى جيشه والتى تريد التخلص من حكمه ، فما كان من إسماعيل إلا أن استدعى ثلاثة من الضباط أصحاب النشاطات ، وهم عرابى وعلى الروبى وطلبة عصمت « ووبخهم توبيخًا لطيفًا مقبولاً ، فأظهروا ضياع حقوقهم الوطنية بعدم ترقيتهم إلى المناصب العليا ، فأنعم على سبعين ضابطًا وطنيًا برتبه قائمقام وفى مقدمتهم عرابى »[١] .

فعل الخديو ذلك من ناحية ومضى فى سياسة الاضطهاد من ناحية أخرى لبقية العسكريين الذين قاسوا من السخرة فى حفر الترع ومد السكك الحديدية ، وكان وقت الفيضان بالنسبة لهم هو الحرب التى يخرجون إليها لعمل الاحتياطات اللازمة لوقاية المديريات من الغرق ، أو لبناء القناطر كقنطرة فم الإسماعيلية والقنطرة البولاقية وقنطرة فم رياح ترعة الإسماعيلية ، وتشهيل قطع الأحجار بجهات العباسية والبساتين وطرة والمعصرة وبناء الكبارى ، ولم يقتصر الأمر على الجنود فقط بل تعداه إلى ضباط الجهادية الذين وكل إليهم حفظ هذه الجسور .

ومع التغلغل الأجنبى ، بدأ التدخل فى شئون الجيش ، فقد رأت لجنة التحقيق ضرورة تخفيض عدده إلى ٣٦٢٤٧ ضابط صف وجنديًا ، ٩٣٣ ضابطًا ، وأن يستمر تدريجيًا فى إنقاص هذا العدد حتى لا يكون فى مصر سوى نصفه ، وترتب على ذلك إلغاء مدارس المدفعية والمشاة والخيالة وأركان الحرب والطب البيطرى[٢] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٤ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة رقم ٤٢ ، معيه تركى ، ص ص ١٥ ، ٢٠ .

وبناء على ترتيبات الماليين الأجانب وحتمية دفع الكوبونات بعد أن رهنت مصر لحملة السندات ساءت حالة العسكريين ، فنقصت ميزانية الجيش ، فإذا نظرنا لعام ١٨٧٧ الذى بلغ إيراده ٩,٤٣٠,٠٠٠ جك دفع منه ٧,٤٧٣,٩٠٩ فوائد لحملة السندات ، وحوالى مليون من الجنيهات لبريطانيا فائدة على نصيبها من أسهم قناة السويس ، بالإضافة إلى سداد الجزية ، لم يتبق إلا مبلغ محدود لكل المصروفات الخاصة بالحكومة بما فى ذلك الجيش وكبار الموظفين الأجانب ، ونفس القول ينطبق على عام ١٨٧٨[١] . وبناء على ذلك حرم الجيش من مرتباته وضاق الحال بأفراده ، فساءت أحوالهم ، وانعكس الأمر على حياتهم حتى أنهم لم يجدوا ضروريات المعيشة .

وتدهورت الحياة بعد أن امتنعت الحكومة عن الدفع ، بينما فرضت على العسكريين الدفع ، وكانوا قد تدربوا على الخدمة العسكرية دون غيرها ، فلم يمتلكوا أى دراية بأية وسيلة أخرى من وسائل العيش ، فأصبحوا هم وعائلاتهم فى حالة من الفقر يرثى لها لدرجة أن بعض الضباط اضطروا إلى تأجير أراضى كفلاحين ، بل أن بعضهم قد اقتات بالشعير « ذلك الغذاء الذى يقدم للخيول »[٢] . وحتى من كان منهم يعرف اللغة الفرنسية والتمس التعيين فى المصالح الحكومية لم ينظر إليه حيث كان المسيطر على تلك المصالح الموظفون الأجانب .

وبدأت الخطوات العملية للتعبير عما يجيش بهم من سوء الحالة ، ففى ٣٠ يناير ١٨٧٩ ، وفى رشيد حيث عرابى قومندانًا لآلاياتها ، اجتمع العسكريون وتوجهوا متقلدي سيوفهم إلى قائدهم عرابى عارضين حالتهم مطالبين رسميًا « بالعدل والمساواة وصرف المستحقات لأربابها فى مواعيدها المقررة خصوصًا أرزاق الجند الذين لا يتعاطون شيئًا من أنواع الكسب إلا أرزاقهم المقررة ، وأنه ليس من العدل أن يستولى الأورباويون مقدمًا مع ما فيهم من الثروة والرفاهية رواتبهم ، ونحن معشر العسكرية نتكبد المشاق ليلاً ونهارًا فى سبيل حفظ الوطن يتأخر صرف استحقاقاتنا مدة ثمانية عشر شهرًا فضلاً عن قطع مرتباتنا التى لا تستقيم معيشة الإنسان إلا بها ، فأجبرنا على تحمل الديون بالفوائد الفاحشة ، وأخيرًا لما انتهت

(١) فارمان ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٧ .

(٢) Bréhier L. l'Egypt 1798 - 1900, p. 199 .

مواعيد الاستقراض وما أمكن لنا السداد انعدمت معاملتنا مع التجار لعدم الأمان ، فأكرهنا هنا على بيع أثاث بيوتنا بأقل قيمة حتى نفد جميعها وصار أولادنا يتضورون جوعًا على مرآى منا ، وقد عيل صبرنا وصرنا محقرين بين الجميع » وأخيرًا طالبوا « صرف مستحقاتنا وكامل مرتباتنا اتباعًا للعدل والمساواة »(*) ، وعلى الفور بلغ قدمندان آلايات رشيد المطالب لناظر الجهادية .

وجاءت الخطوة التالية لتكون ترجمة صادقة لثورة حقيقية على هذه الأوضاع القائمة التى كللت بمجهودات النظارة الأوربية سواء عن طريق سيطرة الأجانب على السياسة العليا لمصر أو من ناحية الإجراءات التى اتخذتها بتسريح تلك الأعداد التى وصلت إلى ٢٥٠٠ ضابط ، وتسليم أسلحتهم وذلك بعد أن أمضوا عامين بدون مرتبات ، وعُلِّل ذلك بسبب إجراءات الحكومة الاقتصادية من أجل ديون مصر .

لكن فى واقع الأمر فقد كان أمر تحديد الجيش بل وتصفيته مهمًا بالنسبة لبريطانيا وفرنسا حتى لا تزداد قوته وسلطته ، فبالعدد الصغير يمكن حصر تلك القوة والقضاء على أية سلطة ، وشمل قرار التخفيض جميع وحدات الجيش ، لكن لم يكن هناك ما يمس أى شركسى فى إطار ما تم . وشنت الصحافة حملة واسعة على ذلك ، فهى تهاجم تصرف النظارة الأوربية ، وتعرض تفرقة المعاملة بين المصريين والأجانب ، وتستلهب حماسة أعضاء المجلس للذب على حقوق مصر .

وبلغ التأزم أشده وكانت النتيجة ذلك الائتلاف والالتحام بين المثقفين بجناحيهما المدنى والعسكرى وكبار ملاك الأراضى من أجل العمل المشترك لوضع حد لما وصلت إليه مصر .

كان الحل والربط بيد كل من ولسون ناظر المالية ودى بلنيير ناظر الأشغال العمومية ، يبعدان من يريدان ويدخلان الأحباء والأقارب والأصحاب - وهم أجانب بطبيعة الحال - فى خدمات الحكومة ، واشتكى العسكريون واعترضوا على ما وصلت إليه حالتهم ، لكن ما من شكوى قد أتت بأكلها ، فقرروا العمل .

وفى يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ توجه الضباط إلى مجلس شورى النواب الذى اعتبروه الهيئة النيابية ومن أعضائه ما هم أعضاء فى الحزب الوطنى وفى محفل

(*) التجارة ، عدد ١٧٩ فى أول فبراير ١٨٧٩ .

الأفغانى ، واختاروا منهم خمسة ، لطيف سليم وكان مديراً لمدرسة الحربية ومشهوراً بخطبة الحماسية التى تحمل بين طياتها التعاون والشجاعة والمطالبة بالحقوق ، وسعيد نصر مدرس الحربية ، وثلاثة آخرين ، وذلك للتكلم باسمهم والجهر بشكواهم لدى المجلس والتى كانت تتضمن الرغبة فى صرف استحقاقاتهم المتأخرة ، وتشرح ما يقاسونه من أعباء الدين مع الرفت الذى تم والفقر الذى وصلوا إليه ، وبتلك التضحيات التى قدموها سواء فى كريت أو الحبشة ، وأن الكثيرين منهم استشهدوا وتيتمت أولادهم ، وأن غيرهم من الأجانب فى رغد من العيش فى حين أن بالجهادية من هم أكفأ منهم لتولى الوظائف ، إذا ما تم الاستغناء العسكرى ، وأن الحكومة من الضرورى أن تطبق عليهم قانون معاش الجهادية ، ووقف الضباط بباب مجلس شورى النواب ودخل الخمسة المختارون بعد أن استأذنوا ، وتكلم لطيف سليم وبيَّن لأعضاء المجلس بأنهم نواب الأمة ووكلاؤها ، وأن عليهم أن ينظروا فى شئون الجهادية ، وهم أولى الناس بالنظر بعد أن شرح الحالة التى وصلوا إليها .

وقد أراد الضباط عقد المجلس فى الحال للنظر فى أمرهم ولكن اللائحة كانت لا تجيز ذلك ، فاستصحبوا معهم بعض الأعضاء الذين بلغ عددهم اثنى عشر عضواً لعرض الأمر على رئيس النظار الذى التقوا به فى الطريق » فأرادوا أن يستوقفوه ليسمعهم فأبى ولم يلتفت إليهم ، فهاجوا وماجوا وتعلقوا بالعربة التى كانت تقله ، فأغلظ لهم فى القول وهددهم ، وضربهم سائقه بسوطه فأصابه بعضهم بقراب سيف فى جبينه فشجه ، وأراد البعض أن يقصد نوبار بمكروه » وصاحوا فى وجهه « لا يحل لك يا ظالم أن تعيش رغداً متمتعًا ونحن نموت جوعًا » ، كما جهروا بالقول بأن نوبار وولسون يعملان سويًا من أجل تسليم مصر لبريطانيا ، ولم يكن الهجوم منصبًا على نوبار وإنما أيضًا على ولسون الذى كان بعربته وراء نوبار ، وكان عدد الضباط المسلحين ٤٠٠ منهم طلبة بالمدارس الحربية ومعهم ألفان من الجنود ، ودخلوا مقر نظارة المالية وحاصروها ومنع الخارج من الخروج والداخل من الدخول وسجنوا النظار ، وذلك حتى يقطع الضباط فيهم أمرًا ثم قامت فى الحال مظاهرة شعبية(*) .

(*) F.O, 78 - 2998 , political, No. 60, February 19, 1879، مصر، العددان ٢٤، ٢٥ فى ٢٠، ٢٨ فبراير ١٨٧٩، الإسكندرية عدد ٣٤ فى ٢٧ فبراير ١٨٧٩، الوطن : عدد ٦٥ فى ٨ مارس ١٨٧٩ .

وعلى الفور حضر إسماعيل إلى مقر النظارة ومعه قناصل الدول والحراس وبطانته ورجال ديوانه وعبد القادر باشا محافظ القاهرة ، وحاول تهدئة الموقف فلم ينصرفوا فتقدم إليهم عدد من الحراس ليفرقوهم فمانعوا ، « ثم اجتهد الخديو بعد ساعتين بالذهاب فقاوموه حتى أمر العساكر بأن يطلقوا عدة طلقات نارية ، فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء ، حتى خيف من انقلاب الأمر إلى ثورة صحيحة وخشى الأوربيون على أنفسهم من ذلك الجمع الغفير »(١) ، وقد حاول بعض المتظاهرين أن يقضى فى هذه اللحظة على إسماعيل ويحقق رغبة ثورة الجياع ، لكن الحظ لم يساعده فتقول صحيفة الإسكندرية « الذين خسروا عقولهم أن يضرب الحضرة الخديوية فلم يصبه غرضه ، وذلك أن سعادة أفندم عبد القادر باشا تعرض لذلك الباغى »(٢) ، فكانت النتيجة أن أصيب فى يده وتعرض لبندقية أحد الجنود ، وتصف صحيفة مصر هذا العمل بأنه جرأة من ذلك الضابط بل وشجاعة أنه اخترق التحصينات التى كان محاطًا بها الخديو ، ولا ريب فى أن حياة إسماعيل فى هذا الوقت كانت فى خطر عظيم ، إذ سيطرت الرغبة فى الانتقام منه هو الآخر ، وانتهى الأمر بإصابة عدد من الأشخاص من كلا الجانبين ، جانب الضباط الثوريين وجانب حرس الخديوى ، أعقب ذلك أن أمر عبد القادر باشا بإحضار مجموعة من الجنود السودانيين الكائنة بقصر النيل لحماية سراى عابدين ، وبعد حضورها وزع عليها خرطوش ، فلم تقبله قائلة « لا يليق لنا مقاتلة إخواننا »(٣) . وكان هذا دليلاً على أن الحركة كانت موجهة ضد إسماعيل وليس ضد النظارة الأوربية فقط .

وتم القبض على كثير من الضباط الموجودين بالحركة ، وأرسلت الضبطية بعض معاونيها مع ثلاثين من الجند لإحضار لطيف سليم ومعه اثنان من مشاهير الضباط وسجنوا ، وبُلِّغ معاونى الأثمان بالتنبيه على جميع الضباط الكائنين بأثمانهم أن يبكروا فى مراكزهم بالعباسية ، وقبض على الكثيرين من المارين فى تلك الليلة ، وقد تولى ناظر الداخلية وناظر الخارجية مساءلة كل من المسجونين على

---

(١) مصر ، عدد ٣٤ فى ٢٠ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) الإسكندرية ، عدد ٣٤ فى ٢٠ فبراير ١٨٧٩ .

(٣) المصدر نفسه .

حدة ، ونقلوا من سجن الضبطية إلى سجن الطوبخانة ، وكان من بين المستدعين إلى الضابطية عبد السلام المويلحى هو ومن شاركه من النواب فى تأييد الضباط(١) .

وكان من بين المتهمين عرابى على اعتبار أن له يدًا فى تدبير ذلك ، وبالرغم من أنه كان فى رشيد فإن نشاطه واضح فى بث بذور الثورة على الأوضاع ، وجُمع بعض الضباط ومعهم عرابى ومثلوا أمام مأمور الضبطية لكى يلحقوا بمن سبقوهم وينالوا العقاب ، ومن حظ الثوار أن يكون المأمور هو محمود سامى البارودى ، فيقول عرابى عن تلك اللحظة « وآنست فيـه تأففًا من الظلم والاستـعبـاد ومـيـلاً إلى العدل والدستور »(٢) ، ومن هنا نشأت تلك العلاقة التى بدأت سرية وانتهت علنية .

وانعقد مجلس عسكرى فوق العادة برئاسة إستون ، وحكم على عرابى وعلى الروبى ومـحـمـد النادى بالتـوبيخ وفـصل كل منهم عن آلايه ، فـأبعـد الروبى إلى المنصورة ، وعـرابى والنـادى إلى الإسكندرية ، وفيها مضى عرابى فى طريقه حيث كانت هناك الأرض خصبة للثورة .

وينفى عـرابى عن نفسـه الاشـتـراك فـيـمـا حدث ويعود ويقـول أمـام المجلس العسكرى أنه لو فرض وكان موجـودًا فيها ضباط آلايه فهو غير ملوم لأن « نساء الضبـاط وأولادهم بلا مـأوى فى العـباسـيـة ولا دراهم بأيديهم ينفقـون منهـا على عـائلاتهم ، ولا خبـز ولا تعـيين يصـرف لهم » ويمضى ليذكر « إنه بعد أن انصـرف المتجمهرون ورجعوا إلى محلاتهم وكلهم متأففون ، هاج الضباط إلى جميع الآلايات وتشاوروا فيما بينهم ، وصرحوا بوجوب عزل الخديو واعتلاء ولى عهده توفيق باشا فوق مـسند الخـديوية المصـرية ، فلما علم الخديو بذلك ، ذهب إلى مـركـز كل آلاى على حدة وطيب خواطر الضبـاط ووعـدهم بصـرف استـحـقـاقـاتهم المتـأخـرة وعـزل النظارة المذكـورة »(٣) . فـواضـح أنه كـان يؤيد كل خطوة ، ويذكـر بلنت أن عـرابى اشترك فى مشروع لم ينجح كان مؤداه خلع الخديو ، والراجح أن هذا الخلع كاد يتم لو لم تتداخل أوربا(٤) ، وهذا هو هدف جمعية الضباط التى كان عرابى رئيسًا لها ، إذن فلا يستبعد إطلاقًا أن عرابى من المحركين الأساسيين لهذة الحركة .

---

(١) مصر ، عدد ٢٥ فى ٢٨ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 133.

اتفق الكثيرون من كتاب معاصرين لتلك الفترة ومحدثين من أن إسماعيل كان وراء حركة العسكريين هذه لكى يتخلص من السيطرة لتلك النظارة الأوربية التى أفقدته كل السلطة ، حيث أن لطيف سليم صهر شاهين باشا أحد موظفى البلاط ومن أحب المقربين لدى إسماعيل[١] .

لكن معروف أن لطيف سليم قد أودع فى السجن ، وأخرج منه بتدخل نائب القنصل الإنجليزى بناء على طلب جماعة الماسون التى كان يديرها الأفغانى وكان عضواً فيها وليس بناء على أمر الخديو ، كما أن إسماعيل قد تعرض للهجوم فى تلك الحركة .

ويكتب القنصل الإنجليزى لحكومته ليبين بأن هذه الحركة ليست فقط للضباط بل هى نتيجة لاستياء عام وعدم رضا ساد بين الأهالى الذين بدأوا يرفضون دفع الضرائب ، وازدادت شكواهم لتعيين وزيادة عدد الأوربيين فى الوظائف واستحواذهم على أعلى الدرجات والمرتبات ، وقد شاركهم العسكريون فى ذلك ، وأكد فيفيان بأن ما فعله الضباط هو أيضاً ضد الخديو الذى اعتبروه سبباً للحالة التى وصلت إليها مصر ، وأنهم أرادوا عزله[٢] .

كذلك نرى أن لاسلز بعد شهرين يكتب للندن ، ليوضح لها بأن هناك شعوراً عدائياً من الضباط فى الجيش ضد الخديو ، ووصل هذا الشعور إلى حرسه الخاص ، وإنهم يمثلون ذلك الشعب المعذب ، وينظرون إليه على أنه المسئول عن التدخل الأوربى ، وعن تلك المصائب التى أحلت بالبلد[٣] .

إذن فمن المستبعد أن يكون إسماعيل وراء الحركة ، ومن المحتمل أنه اتهم بذلك لدى الدوائر الأوربية بواسطة أعضاء من النظارة الأوربية نفسها ، لكن مهما كان الأمر ، فما حدث قد اتفق مع هوى إسماعيل فى نقطة واحدة فقط وهى أنه يمكنه الوصول على أكتاف تلك الحركة للتخلص مما كان يشل يده فى مصر ، فدعا القناصل وأخبرهم أن وضعه الحالى كمسئول دون سلطة يجب أن يتغير ، وأن نوبار

(١) محمود فهمى ، البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

(٢) F.O. 78-2998, political No. 65, February 22, 1879, political No. 273, May 10, 1879 .

(٣) Cromer , op. cit., Vol. 11, pp. 133 , 134 .

ملوم لما حدث ، وطالب بإعادة السلطة إليه ، وتألفت النظارة الأوربية الثانية وفرضت الشروط القاسية على الخديو ، وأعطت حق الاعتراض للناظرين الأوربيين . أما بالنسبة للعسكريين ، فإن هذه الحركة قد هزت وبعنف تلك الطاعة التى ورثها المصريون ، وأيقنوا للمرة الأولى أنهم أقوياء بل وأصبحوا سادة الموقف ، وكانت البشيرة النذيرة للثورة العرابية .

فقد كانت أول حركة بعث من نوعها فى حياة الجيش فى مصر الحديثة ، وأول تآزر بين العسكريين والوطنيين المدنيين ، وأثبتت أن مصر لم تعد صامتة وإنما يعمها تيار وطنى جارف ، وأطلقت العنان فقد حدث أن هدد الضباط الذين لم يشتركوا فى الحركة الوطنية عثمان رفقى ، وذلك لإطلاق سراح إخوانهم الذين سجنوا بسببها « وإلا فإننا نقوم ، فقد شاهدنا المعارك وسفكنا الدماء ، وصادفنا الكلل والرصاص وعاينا الموت ، فلا ريب أننا نجعل لتراب وطننا من كؤوس دمائنا إن لم تطلقوا لنا إخواننا »[1] .

وأعلن علماء الدين تأييدهم للحركة وأفتوا بشرعيتها « إنهم لم يتعدوا الحقوق بما فعلوا ، وإن تخفيض العسكر وقفل المكاتب الحربية داعيان إلى الإخلال بالجندية » ، وكان الأعيان من المؤيدين لدرجة أن أحدهم « قدم من أطيانه ألف فدان ليعين ناتجها لخدمة العسكر »[2] .

ومضت الشكاوى تأتى من كل مكان لتشرح الظروف القاسية للعسكريين ، حتى من العريش نرى تأزمهم من الحالة « عساكر جهادية هجانة وطوبجية العريش يتظلمون فيها من قلة قيمة تعييناتهم وماهياتهم فى هذه الجهة البعيدة والغالية فى أثمانها والصعبة فى ظروفها من جدب شديد وعدم نزول المطر »[3] ، إذن فكل أرض مصر ومن عليها ثائر وغير راض .

وخضع ضباط البحرية لنفس الظروف التى تعرض لها ضباط الجيش ، ولم تفرج الحالة بعد استقالة النظارة واستمر تأخير الرواتب ، ففى الإسكندرية توجه

---

(١) مصر ، عدد ٣٥ فى ٢٨ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) صدى الأهرام ، عدد ٥٩١ فى ٢٥ مارس ١٨٧٩ .

(٣) محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، من غاية جمادى الأولى إلى ٢٩ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

ثلاثون ضابطًا من البحرية نيابة عن زملائهم ، وبعثوا ببرقية إلى النظارة يطلبون رواتبهم المستحقة ، ويصرحون بأنهم مستعدون لترك وظائفهم إذا لم يرد الجواب إيجابيًا[١] . وبما أن العسكريين البحريين كان معظمهم بالإسكندرية التى كان يسيطر عليها العنصر الأجنبى من أصحاب البنوك، فحملوا للأجانب كل البغض والكراهية .

ويأتى دور ضباط البوليس - المستحفظين - ليطالبوا بحقوقهم ، « فقد بعث ضباط محافظة الإسكندرية إلى الجهادية ببرقية يطلبون رفع رواتبهم المستحقة عاجلاً »[٢] .

واستمر العسكريون فى كفاحهم ، بعد أن خلقوا حالة من الرعب للحكومة «فتجمعوا فى العباسية وأرسلوا برقية لناظر الجهادية يطلبون صرف متأخر استحقاقاتهم ومراعاة حقوقهم ، فصدرت لهم أوامر إقامة فى وظائفهم ، وأرسلت إليهم رواتبهم من أكل وخلافة لأنه خشى من حصول حركة كالسابقة ، وأشيع جملة إشاعات ، فقيل أن الضباط تجمعوا مع العرب وقصدوا حصر المالية ، فاستولى الجزع على قلوب البعض »[٣] . كذلك أرسلوا إلى الحكومة بتلك الاقتراحات التى تمكنهم من الالتحاق بالوظائف الحكومية بمرتباتهم الأصلية ، وأن يفصل الأجانب ويعوضوا بالوطنيين ، وخاصة أولئك الذين يعملون فى العسكرية كأطباء وصيادلة وأصبحوا بدون عمل[٤] .

وجاء توفيق إلى الحكم ، والأمل فيه كبير أنه سيصلح من الأمور وكان البارودى أول من واجه توفيق بجراة متزعمًا التيار الوطنى الموجود ، مطالبًا إياه بسياسة الحزم والإنصاف والعدل حيث جعل تهنئته له بولاية العرش ضرورة إقامة الحكم على أساس الشورى وتقوية الجيش فيقول :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة ... إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم ... شورى وجند للعدو بمرصد

---

(١) صدى الأهرام ، العدد نفسه .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٤ فى ٣٠ مارس ١٨٧٩ .

(٣) الوطن ، عدد ٧١ فى ٢٢ مارس ١٨٧٩ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ٨٢١ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ .

ولكن توفيقًا مع نظاره ومراقبيه أساءوا إلى قوى مصر جميعها ، وبالنسبة للعسكريين ، فقد أنزل الجيش إلى أقل مما حدده الفرمان ، واستتبع هذا النقص إحالة كثير من الضباط إلى الاستيداع ، واستمرار خضوعهم للضيق المالى مما كان له أسوأ الأثر .

وكان عدد المُسرَّحين حوالى عشرة آلاف ، واستمرت الشكوى ، فرفع الضباط عريضة إلى الخديو فى يوليو ١٨٧٩ ، ولكنها هذه المرة تطلب إسقاط ناظر الجهادية واستبداله بغيره ، وذلك بعد أن خفض الجيش وأمر ببيع كمية وافرة من المهمات الحربية[1] . هذا عن الأسباب العامة أما عن الأسباب الخاصة فتتلخص فى عدم صرف المعينات اليومية نقودًا ، حيث إن ما يعطى لهم من الأقوات ناقصًا عن المقدار المعين وفاسدًا لا يصلح للطعام ، وعدم النظر فى أمور المستودعين الذين قطعت عنهم المعينات فساءت حالتهم وضاقت أبواب رزقهم . وسقطت النظارة ، ووعدوا بالإصلاح فى الوقت الذى تدهورت فيه حياتهم وازدادت عليهم الأعباء ، وخاصة تلك الضرائب التى قاسى منها شعب مصر عامة ، فبسبب ضريبة الدخولية كان مفتشها لا يتورع عن ضرب الرجل العسكرى لحملة « مقطفين من الحمص أتى بها من السيد البدوى إلى دمنهور »[2] .

وبالنظر إلى ميزانية الجيش لعام ١٨٨٠ نرى أنها أنقصت من مليون جنيه إلى ٤٣٠,٠٠٠ جنيه بعد أن اعتبر المراقبان أن هذا المبلغ يكفى ، فانهارت حالة العسكريين حتى أن يعقوب بن صنوع يصور فى صحيفته جهادى ومعه ابنه الطفل يمد يده « من عدم دفع الماهيات صبح الجهادى المسكين بيقول إحسان يا مسلمين ، حق رغيف عيش يا أسيادى أعيش به عيال الجهادى اللى شاف الهلاك فى بلاد الحبش والأتراك »[3] .

وبتقلد عثمان رفقى أمر العسكريين طغت سطوة الشراكسة ، وقد اقترنت شخصية رفقى برياض الذى اقترن هو الآخر بلجنة التصفية ، تلك التى وقفت

(١) الوطن ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) التجارة ، عدد ٥٥ فى ٢ أغسطس ١٨٧٩ .

(٣) أبو نظارة رزقا ، عدد ٢٧ فى ١١ نوفمبر ١٨٧٩ .

موقفًا عدائيًا من أهل مصر باتحادها مع رياض ونظارته ، وكان لما قامت به إزاء المعارضين مثل حسن موسى العقاد أثر عميق ليحمل تلك الكراهية لها ، حيث ربطت العلاقة بين المعارضين والعسكريين ، خاصة عرابى والعقاد .

ومضت الحركات التهديدية من العسكريين لمن لا يرغبون فيه إذا كان على غير إرادتهم أو أساء إليهم ، فوقعوا على مذكرة وقدموها للداخلية بالطعن فى باشكاتب الجهادية « عياد بك » وكتبوا أنه إذا لم يتم مرغوبهم بعزله من وظيفته تعرضوا لسفك دمه ، وكان هذا الباشكاتب شركسى بطبيعة الحال ، وتكونت لجنة لتحقيق ذلك وضايقها « التجارؤ على النظارة السنية بما يهيج الأفكار ويثير الاضطراب»[١] . وواضح أن ما قدم لم يكن تهديدًا فقط بإهدار دم هذا الشركسى ، أيضًا فيه هجوم على النظارة .

ويمضى العسكريون فى اتجاه تقديم العرائض التى تعتبر فى حد ذاتها تعبيرًا عن السخط وعدم الرضا بالأمر الواقع ، ولم تكن هذه المرة تهديدًا للمطالبة بالإصلاح ، ففى ٢٠ مايو ٨٠ يتقدمون بمذكرة لناظرهم الشركسى تضم مطالب عادلة ، وكان عرابى أحد المقرين عليها ، وهى لا تختلف عما سبقها فى الإحتجاج على حبس المرتبات وتسخير الجنود والغبن والمحسوبية والأخيران كانا يشتمل عليهما نظام الترقية ، وقد اتضح أن هناك علاقة أيضًا بين العسكريين وبين قنصل فرنسا « دى رنج » إذ وجدوا منه التأييد والتعضيد إلى الحد أنه عند تشكيل لجنة للتحقيق فى تلك المطالب نشأ بينه وبين رياض خلاف بشأن ذلك[٢] .

وكان رفقى قاسيًا ويريد أن يقضى على أى قوة أو سلطة للعسكريين ويذيقهم الذل ، ولم يكن هناك أقصى من تسليم السلاح للعمل بالسخرة فى حفر الرياح التوفيقى ، وهنا رفض عرابى وعارض العسكريون واحتجوا ، وكانت هذه أول معارضة صريحة لتنفيذ أوامر رفقى .

وأخذت اجتماعات القوى المعارضة للنظام القائم تتوالى ، وكان للعسكريين دورهم الواضح أمام تصرفات رياض ورفقى ، فتوفيق كان مشلول الحركة والأمر كله

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٤٩ فى ١٦ أبريل ١٨٨٠ .

(٢) Sabry , op. cit., p. 186 .

لرئيس النظار والمراقبين حيث راحوا يجهضون كل حركة مناوئه بالسجن والنفى ، كما أقاموا مذبحة للصحافة ، وكان رفقى أغلظ قلبًا منهم على من تحت يده من العسكريين ، لذا كثرت اجتماعاتهم ، وتم بعضها فى دار « محمد أفندى فنى » رئيس المترجمين بديوان المالية ، وفيها يتشاورون فى أمرهم ، ويبحثون أحوالهم التى وصلت إلى أقصى درجات الشدة والفاقة ، وتطرقت موضوعاتهم إلى الوضع السياسى واستئثار رياض بالسلطة ، وظلمه وحكمه الحديدى ، وكثرة المعتقلات والسجون وتكدسها بالوطنيين ، وفى أثناء أحد تلك الاجتماعات ، حرر محمد أفندى فنى عريضة تضمنت الطعن والتنديد بالحكومة والإدارة المالية ، ولم يكن رياض بغافل عما يفعلون ، فله جواسيسه فى كل مكان ، وتم القبض على أعضاء هذا الاجتماع وشكل مجلس عسكرى لمحاكمتهم ، « فأصدر حكمه على محمد أفندى فنى بالطرد من الخدمات الميرية والسجن بالطوبخانة سنتين ، وأيضًا الحكم بحبس سعيد بك ناظر قلم الترجمة المستخدم بسواحل البحر الأحمر لسماعة تلاوة العريضة على الضباط ، وحبس محمد أفندى اليوزباشى لحضوره وقت تلاوتها ، وخفض رتبة عبد الحميد اليوزباشى الذى كان من المشتركين فى كتابتها إلى ملازم أول ، وتزيل إسماعيل نظيم اليوزباشى عن رتبته إلى ملازم أول ، لأنه أخذ الصورة من محررها لإعادة نسخها ، وعلى حسن صفوت ملازم ثانى الذى نقل تلك الصورة وأعطاها إلى أحمد أمين المهندس بالأوقاف بتنزيله إلى رتبة صولقول أغاس ، وعامر رشدى ملازم أول الذى نقلها إلى ملازم ثانى ، وكذا عبد السلام زكى ملازم ثانى بتنزيله إلى رتبة صولقول أغاس ، وذلك خلاف المدة التى يلبثها أغلبهم فى السجن »(*) .

وبالرغم من تلك الأحكام وهذا التشدد فإن رياضا لم يستطع أو أحد من نظاره أن يقضى على التحام قوى الأمة والتصاقها ، ولم يقدر على إسكات أصوات المعارضة . وأصبح العسكريون الخطر الذى يهدد السلطة الدكتاتورية لرياض وأتباعه ، حتى أن كرومر وهو فى طريقه إلى الهند فى ديسمبر ١٨٨٠ حذر رياض

(*) الوقائع المصرية ، عدد ٩٥٦ فى ٨ نوفمبر ١٨٨٠ .

من الجيش فيقول « وألححت عليه لكى يعالج أية مظالم يكون الجيش محقًا فى شكواه منها ، وألا يتردد فى معاملته بأقصى الشدة عند أية بادرة من بوادر العصيان »(*) .

ولكن مضت إجراءات القمع وبكل قسوة دون النظر إلى أية حقوق ممكن أن تراعى لصالح العسكريين ، وبولغ فى التضيق عليهم بإصدار قانون العسكرية الجديد الذى خرج من تحت يد رفقى ليكون فاتحة ثورة سافرة اشتركت فيها قوى مصر جميعها بزعامة العسكريين الذين نظر إليهم كممثلين للأمة جمعتهم العسكرية وربطت بينهم ، ويتم التآلف بين القوى الاجتماعية من أجل إنقاذ مصر من ذلك الانهيار الذى كانت تهوى إليه .

■ ● ■ ● ■

(*) Cromer , op. cit., Vol I, p. 174 .

الفصل الرابع

ملاك الأراضى

... عندما تسلم محمد على مقاليد الأمور فى مصر ألغى نظام الالتزام حيث أيقن أن الملتزمين يمثلون سلطة داخل سلطته ، كما أراد ألا تفقد الدولة جزءاً من دخلها الزراعى الذى يؤول إلى هؤلاء الوسطاء نصف الإقطاعيين . وأصبحت ملكية الأراضى الزراعية من حق االحكومة ، ولم يكن هناك حد فاصل بين ملكية الحكومة وملكية الحاكم الذى أنعم على المقربين من رجاله وكبار موظفيه وبعض زعماء قبائل البدو وهؤلاء الأجانب الذين كانوا محيطين به ، بمنح من الأراضى عرفت باسم « الأبعاديات » وهى تشمل الأراضى الزائدة عن زمام القرى والأراضى البور التى كانت فى حاجة إلى إصلاح ، وعرف قسم من تلك الأراضى « بالجفالك » ، وهى التى استولى عليها الباشا لنفسه ولأفراد أسرته ، وكانت معفاة من الضرائب ، وقد توسع عباس وسمح بها للذوات وأعطى حق توريثها .

وفى الواقع أنه منذ عام ١٨٤٢ وعقب انهيار نظام الاحتكار ، وتشجيعاً لحركة استصلاح الأراضى واستثمارها ، منح أصحاب الأبعاديات والجفالك من أصحاب الثروة والوجاهة بموجب تقاسيط من الروزنامة حق ملكيتها المطلقة والتصرف فيها كيفما شاءوا بعد أن كانت تقتصر على حق الانتفاع فقط .

وبمجىء سعيد ، وفى عام ١٨٥٤ فرض ضريبة العشر على الجميع ، فقد ألزم بتوريد عشور المحصولات صنفاً ، وضمت بجوار الجفالك والأبعاديات أطيان المتروك وأطيان الانتفاع الدائم ، وهذه كانت خاصة بالأتراك والشراكسة والأجانب ، وحصل المصريون تدريجياً على الحق فيها عندما سمح لأصحاب المعاشات بالحصول على أراضى الأبعاديات ، ومنح موظفو الحكومة المفصولون من الخدمة مساحات من الأطيان المتروكة للانتفاع بها بصفة دائمة . من هنا تكونت الملكيات الكبيرة ، التى

كان من حق الحاكم استردادها ، لذا فقد أصبحت تلك الطبقة الأستقراطية دائمًا على وفاق وخضوع لهؤلاء الحكام .

أما أراضى الأوسية ، فهى التى منحت للملتزمين السابقين تعويضًا لهم عن إلغاء الالتزام للانتفاع بها طوال حياتهم ، وخضعت لضريبة العشور ، وأصدر سعيد أمرًا بتوريثها .

وكانت هناك أراضى المشايخ والتى أطلق عليها « مسموح المشايخ والمصاطب » منحت للمشايخ بواقع ٤٪ من مساحة زمام كل قرية فى مقابل الخدمات التى يقومون بها للحكومة ، وكانت معفاة من الضرائب ، وباللائحة السعيدية أصبح لهم فيها حق المنفعة ، وصارت فى حكم الأطيان الخراجية ، وأضحت نواة لقيام ملكيات شيوخ القرى والأعيان الذين استمدوا مراكزهم فى المجتمع من أملاكهم الزراعية . ووجدت أيضًا أطيان الرزقة وهى الأراضى المعفاة من الضرائب ومنحت للمعلمين والمهندسين لإنشاء الحدائق .

أما بالنسبة للأراضى التى وزعت على الفلاحين ، فكانت تتراوح بين ٣ - ٥ فدانًا ، واعتبرت أراضى خراجية (اثرية) وهى ملك للدولة كأراضى أميرية مثبتة باسم أشخاص ما ، ولهم فيها اثر وهو حق منفعة الزراعة ، ولم يكن لأصحابها حق الرقبة ، بل حق الانتفاع يزرعونها مقابل دفع الضرائب عنها .

وفى عامى ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ أصدر سعيد أوامر عالية قضت بأن على من يرغب من الفلاحين العاجزين عن زراعة الأراضى الخراجية وأداء ميرها أن يتركها ، فترك الفلاحون مساحات عرفت باسم « المتروك » فاستولى عليها وقيدها باسمه وأنعم منها على بعض أفراد الأسرة وكبار الموظفين ، ثم بعد ذلك حولت إلى أراضى عشورية .

وأخيرًا كانت هناك أطيان العهدة ، فبعض القرى لم تتمكن من دفع جميع ضرائب أطيانها فيتبقى جزء منها يضاف إلى ضرائب السنة التالية وهكذا ، مما اضطر محمد على لإنشاء نظام العهدة ، وذلك بأن يلتزم المتعهد للحكومة بدفع ما على القرية من ضرائب ، ويزرع هو الأطيان لحسابه الخاص بواسطة الفلاحين ، وكان المتعهدون هم محمد على وأفراد أسرته والوجهاء وكبار الموظفين والأعيان ومشايخ القرى وبعض الأجانب والبدو . هؤلاء كونوا ملكياتهم وتوسموا فيها منتهزين تلك الظروف للمزيد من الضغط على الفلاحين ، وقد تحولت تلك الأراضى إلى ملكية خاصة بعد صدور اللائحة السعيدية ، وساهم نظام العهد فى خلق قطاع من

الملكيات الكبيرة أن معظم المتعهدين كانوا من العناصر التى حصلت على الأبعاديات والجفالك ، وقد أبطل ذلك النظام بناء على طلب مجلس شورى النواب ولكن بعد أن دعم الملكية الفردية .

وكانت اللائحة التى صدرت فى نوفمبر ١٨٤٧ قد أعطت حق رهن الأرض أو التنازل عنها للغير بموجب حجة شرعية أو أمام الشهود ، كما نصت على أنه لا يمكن انتزاع الأرض من واضع اليد عليها إلا إذا كان قادرًا على زراعتها وأداء خراجها ، وأباحت له استرداد الأرض متى دفع ما عليه من متأخر ، وأضافت لائحة ١٨٥٤ أحقية الورثة فى وضع اليد على الأرض التى تركها مورثهم ، وأن يكون التصرف فى هذه الأرض بحجة تكتب فى المديرية ، وتكون المدة القانونية للقضايا المختصة بالحقوق العقارية ١٥ سنة . وجاءت اللائحة السعيدية عام ١٨٥٨ لتتيح الملكية العقارية للأراضى الزراعية وأن يستقر أمرها ، وقررت أن لمستغل الأرض الحق فى تأجيرها لمدة لا تزيد على ثلاث سنوات وأن يرهنها أو يبيع حقه فى استغلالها للغير ، وأكدت حق توريث الانتفاع بالأرض وفقًا للشريعة الإسلامية وحق التعويض لمن انتزعت منه أرضه .

ومضت سياسة الإنعام من الحكام بالأبعاديات ، فتوسعت طبقة الملاك الزراعيين واستطاعت أن تجعل لنفسها وضعًا متميزًا ، وكان إسماعيل معطاء للمحيطين به ، فقد منح آلاف الأفدنة لأسرته ولأتباعه ولكبار موظفيه ، وكل هذا الإغداق على حساب الانهيار لملكية الفلاحين ، وقد كان الانتزاع يتم لأجود الأراضى، كما أن عملية استبدال أراضى الأبعاديات التى بدأت منذ عهد إسماعيل كان لها أثر فى قيام ملكيات كبيرة لأراضى موحدة وخصبة[1] .

تلا الأسرة الحاكمة فى امتلاك الأراضى كبار رجال الدولة من الأتراك ، إذ اعتبروا أكبر ملاك للأراضى فى القرن التاسع عشر فى مصر وذلك بناء على تلك المنح التى منحت للنظار والمحافظين وسكرتارى الخديو ومديرى الجفالك والعاملين فى الدوائر ومديرى المديريات وكبار الضباط ، وهؤلاء كونوا أرستقراطية خاصة بهم كانت خليطًا من نوعيات الأتراك والشراكسة والأكراد وعناصر آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل والجزائر وتونس جمعتهم العادات والتقاليد واللغة التركية كدليل على رقيهم ومركزهم المرموق[2] ، واحتفظوا باحتكارهم للمناصب القيادية ، وبذلك جمعوا

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر ١٢ ، صورة الأمر الكريم رقم ٨ ، ٥ شوال ١٢٨٢ (١٨٦٥) .

(٢) Milner, S. A., England in Egypt, p. 319 .

بين السيطرة الإدارية والسيطرة الاقتصادية على المصريين ، فيقول كرومر « أنه عندما إحتل الإنجليز مصر وجدوا مجموعة من الأتراك المصريين يحتلون المراكز الأساسية فى الحكومة وهم كبار ملاك الأراضى »(١) ، وترفعوا على المصريين ومارسوا ساطاتهم وسلطانهم عليهم ، وآمنوا بأن حقهم الطبيعى هو شغلهم لتلك المناصب وامتلاك الأراضى الشاسعة ، ولكن مقدرتهم لم تكن مساوية لطموحهم ، وقد استفادوا من وضعهم حتى أنهم أصبحوا يمتلكون مصادر الثورة من أرض ورأسمال وفلاحين .

هذا وقد قامت أملاك الكثيرين وتوسعت بناء على عمليات الاغتصاب الدائم لأراضى الفلاحين ، وكان شاهين باشا يمثل هذا الاتجاه ، تأكد ذلك بتلك الشكوى المقدمة من ورثة محمد أبو حمزة تقول « إن شاهين باشا منذ أن كان مفتشًا لجهة بحرى داخله الطمع وأخذ أطيانهم وهى ١٠٠ فدان عشورية من أطيان كفر الدوار بحيرة مقامة على زمام ناحية البرنجات من أعظم أطيان تلك الجهة بمهماتها ومفروشة بكافة دوايرها أشجارًا من سنط وجميز وساقيتين وآلات وعزبة قائمة بنفسها بطاحونة » ، كما أنه اغتصب من فلاحى ناحية بتوفر - غربية - مائتى فدان(٢) .

وسرت روح الاغتصاب فى هذه العناصر ، وخصوصًا الذين كان لهم مراكز إدارية رئيسية حتى مديرى المديريات كانوا مبتزين للأموال حاصلين على الرشاوى ، سلكوا تلك الطرق وأصبحوا من كبار ملاك الأراضى .

أما عن كبار ملاك الأراضى من المصريين ، فقد وصلوا بتلك الإنعامات التى استحوذوا عليها إلى مكانة مرموقة فى المجتمع ، فرفاعة الطهطاوى وهو من عائلة فقيرة جمع ممتلكاته من منح منحها له محمد على وسعيد وإسماعيل ، وتوسع هو أيضًا فى الشراء حتى وصلت أراضيه إلى ٢٥٠٠ فدان عام ١٨٨٠ ، وعلى البدراوى وهو تاجر منح عهده فى عهد محمد على ومنحه سعيد أطيانًا وأضاف هو بشرائه فوصلت أملاكه إلى ٤٠٠٠ فدان ، وحميد أبو ستيت وهو فلاح عادى تمكن من أن يصل إلى أن يكون حاكم جرجا وكانت ممتلكاته تربو على ٥٠٠٠ فدان(٣) ، أما محمد

---

(١) Cromer , op. cit., Vol. II, p. 171 .

(٢) محفوظات الداخلية ، تركى ، محفظة ٦٤ ، ٨ ذو الحجة ١٢٩٧ (١٨٧٩) ، الوقت ، عدد ٨٩٣ فى ١٢ يوليو ١٨٨٠ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٩ ، ١٢ محرم ١٢٩٩ (١٨٨١) .

سلطان وعلى مبارك وأباظة والشريعى وسليمان عبد العال والمنشاوى والهجين والعقاد فقد جمعوا أيضًا ملكيات كبيرة من الأراضى وأصبحوا من كبار الملاك[1] .

وازدادت تلك الملكيات وتثبتت فى أيدى أصحابها بما أصدره إسماعيل من قرارات ، ففى عام ١٨٦٥ تقرر بيع أطيان الأبعادية القابلة للزراعة ، وكذلك الناتجة من زيادة المساحة بصفة أطيان خراجية وبيع أطيان الأبعادية التالفة التى لم تحرث بعد بصفة أطيان عشورية . وصدرت أحكام تنظيم كيفية التصرف فى أطيان المتسحبين وإعطاء الأراضى البور لمن يرغب فى استصلاحها ، فقدم عليها الأثرياء ، وأيضًا أبيحت الوصية فى الأراضى الخراجية .

وجاءت لائحة المقابلة فى ٣٠ أغسطس ١٨٧١ تلك التى خفضت الضرائب إلى النصف مقابل الدفع مقدمًا ست سنوات ، وأعطت حق الملكية لنوعين من الأراضى : الأولى أطيان الأواسى التى هى فى أيدى الملتزمين من عصر محمد علي ، وكانت معفاة من الضرائب ، ثم أصبح يدفع عنها عشر محصولاتها بناء على أمر سعيد ، وبذلك دخلت فى عداد الأراضى العشورية ، والثانية الأراضى العشورية التى أعطيت لبعض موظفى الحكومة ليتعيشوا منها ، ولم يعط لهم تقاسيط ديوانية ولا رخصة بالتصرف فيها ، فهذه الأراضى متى رغب واضعو اليد عليها دفع المقابلة عنها يجابون إلى ذلك ، وبعد دفع ما يستحق عليها من المقابلة بالكامل يتحرر بها التقاسيط الديوانية لتصير ملكًا لهم ويتصرفوا فيها بكامل الأنواع - البيع ، الهبة ، التوارث ، الوصاية ، الوقف - المصرح بها لأرباب الأبعاديات[2] .

وأصبحت المقابلة إجبارية ومنحت تلك الأراضى التى دفعتها كلية أو جزئية حقوق الملكية ، ووافقت الحكومة على إعطاء حجج لها مجانًا تثبت الملكية بسبب دواعى الرهن فى البنك العقارى الذى كان يقدم القروض بشرط هذه الحجج[3] .

وصدر قانون فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٠ بتسجيل الأراضى البور للأفراد الذين يدفعون عنها ضريبة الخراج ، وبذلك دعمت الرأسمالية الزراعية ، وساعدها على صب نشاطها فى المجال الزراعى مسألة الرى واهتمام الدولة به من أجل مصلحة

---

(١) على بركات ، المرجع المذكور ، ص ١٨٢ .

(٢) محمد كامل مرسى ، الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن، ص ص ٨٠ ، ٩٠ .

(٣) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/جـ ، محضر ٢٥ مايو ١٨٨٠ .

الأسرة الحاكمة ، وقد استفاد كبار الملاك من وراء ذلك مما ترتب عليه زيادة مساحة الأراضى ، وكانت الحرية الاقتصادية وسمة التخصص وتلك المحاصيل النقدية والسلع الرأسمالية وربط ذلك بالسوق الأجنبية أهمية لزيادة الأراضى ، وخصوصًا مع قدوم الحرب الأمريكية وارتفاع أسعار القطن المصرى ، فقد ازداد الإقبال على طلب شراء الأراضى للمكاسب التى اصطحبت رواج القطن ، فوصل تصديره من ٢ إلى ٣,٥ مليون قنطارًا سنويًا وارتفع سعر القنطار عام ١٨٦٧ إلى ٥٢ ريالاً بعد أن كان متوسط السعر ١٠ - ١٢ ريالاً ، فازداد كبار الملاك ثراء ، وساعدهم على ذلك التربة والمناخ والرى ووسائل النقل والآلات الحديثة ، وحتى بعد انتهاء الحرب ورغم تأثر السوق القطنية ، فإن بريطانيا كانت تسعى فى الحد من كل زراعة أخرى بجواره لتكفى حاجة مصانعها منه[١] ، هذا فى الوقت الذى تغلغلت فيه الرأسمالية الأوربية بمشروعاتها الاقتصادية والمالية داخل مصر والتى اعتمد عليها ملاك الأراضى للحصول على القروض ومولوا بها زراعاتهم الواسعة ومضارباتهم بالأرض ، وكان نتيجة ذلك الاهتمام بالأرض دون سواها وتركيز الرأسمالية عليها .

أما عن حياة أصحاب تلك الأراضى ، فقد كان معظمهم غائبين عن أراضيهم يعيشون فى القاهرة والمدن الكبرى والبنادر وهم لا يتحملون تجاه فلاحيهم أية مسئوليات اقتصادية أو اجتماعية ، يستمدون دخلهم من تأجير أراضيهم والأرباح التى يحصلون عليها من بيع وشراء الأراضى ، ومارسوا ضغطهم على الفلاحين الذين تحملوا كل شىء وحتى ولو تصادف وجرى تحقيقات بناء على تظلمات هؤلاء الفلاحين ، نرى مديرى المديريات يصبحون فى صف الملاك ضدهم ليساهموا فى الظلم الواقع عليهم وإضاعة حقوقهم[٢] .

مجلس شورى النواب والقيادة البورجوازية

يعود العامل الرئيسى لظهور مجلس شورى النواب إلى شخصية إسماعيل ، الذى كان يميل لتقليد الحكام الغربيين - ظاهريًا - فى أساليب الحكم ، فهداه تفكيره إلى إنشاء هذا المجلس لكى يزيد من أبهة حكمه ويظهر أمام الدول بأنه حاكم

---

(١) راشد البراوى ، محمد حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، ص ٦٩ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر ١٩١٠ ، صورة الأمر الكريم رقم ٥ فى ١٢ جمادى الأخرى ١٢٨٠ (١٨٦٤) .

دستورى ، ويرد الاتهامات التى وصفته بالاستبداد . كما كان فى حاجة إلى ذلك المجلس لكى يتستر وراءه إما للاقتراض بما يشاء ، وذلك بكسب ثقة البيوت المالية ، أو ليتمكن من فرض الضرائب عن طريقه ، وليستطيع أيضًا أن يقف بنواب الأمة أمام أى سلطة أجنبية يمكن أن تحد من سلطته .

ورأى إسماعيل فى طبقة الملاك المعين له ، فأراد أن يقربها ويشعرها بحاجته إليها ، ووقع نظرة على زعماء الريف دون غيرهم ، وحرص على أن يكونوا مصريين ، وأبعد الطبقة التركية الأرستقراطية ، فقد رغب فى أن يخلق طبقة من المصريين تسانده ويعتمد عليها حتى إذا اقتضى الأمر أمام المصريين أنفسهم . فأعلن أن المصريين محكومين بشىء من الضغط وأن التباعد بينهم وبين الحكومة ظاهر الأثر ، ورأى أن يجنى ثمار هذا التقرب بين حكومته والملاك .

ولم يكن المجلس ليمثل المصريين عامة بل طبقة منهم هم كبار ملاك الأراضى، وكان منهم عدد كبير من العمد والمشايخ ، إذ تدخلت نظارة شريف لترشيح العناصر الثرية من العائلات ذوات النفوذ فى مناطقهم ، ومثل المدن فى المجلس التجار والأعيان ، وكان عدد الأعضاء ٧٥ عضوًا منتخبين لمدة ثلاث سنوات ، يتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها والأعيان فى المحافظات ، ومدة اجتماعه شهرًا فى السنة ، وجلساته غير علنية ، وللحاكم الحق فى جمع المجلس أو تأخيره أو مد مدته أو تبديل أعضائه(*) .

وبذلك ظهرت طبقة الملاك المصريين على المسرح السياسى ، لتثبت وجودها ، ولتحقق مسعاها تدريجيًا للحد من نفوذ طبقة الأتراك ، ومن أوتوقراطية إسماعيل ، مما جعلهم يكونون ركنًا أساسيًا فى الثورة العرابية .

وفى البداية رأى إسماعيل جعل المجلس ذا سلطة استشارية فقط فى المسائل التى ترى الحكومة أن تعرضها عليه على أن تكون قراراته بمثابة رغبات ترفع له ، وكان يرسل عند المداولة من يخبر الأعضاء بإرادته ، فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، وتؤكد صحيفة الوطن أنه عند افتتاح المجلس حضر عضو من أعضاء مجلس « بارلمنتو إنجلترا لكى يعرف شيئًا عما يجريه مجلس مصر ، فتحصل على مترجم ودخل على أحد العمد وسأله عن نوع العمل الذى يشتغل به المجلس ، فأسر العمدة للترجمان بأن عنده صاحب فى المحل الآخر ويجب عليه أن يراه واختفى فى

(*) محمد خليل صبحى ، تاريخ الحياة النيابية فى مصر ، جـ ٤ ، ص ١٦ ، عبد العزيز رفاعى ، فجر الحياة النيابية فى مصر ، ص ص ١٨ ، ٢٢ .

الحال »[1] . أما مسألة المعارضة ومقاعد اليمين التى انحاز لها الأعضاء جميعهم فيذكرها جميع المؤرخين ، لكن مهما يكن من أمر فقد كانت البداية صعبة ومفتعلة ، لكن مع الأيام والأحداث وتبلور الرأى العام فى مصر أصبح هناك نضج فى المجلس ، وأن ما تم كان خطوة أولى ، وما لبث أن مارس السلطة التى راحت تتسع لتفرض نفسها على الحاكم نفسه .

كان للانهيار المالى أثره على مصر جميعها ، وأحس الملاك بفساد الحكم وبتغلغل الأجانب ، وبدأت الروح النيابية تسرى فى المجلس وخصوصًا بعد أن تعرضوا لبعض الأزمات مثل انخفاض أسعار القطن ، وذلك بعد أن جنحوا إلى الإسراف كعادة المصريين عمومًا ، وكان نتيجة ذلك أن التجأوا إلى المرابين فرهنوا الأراضى التى انخفضت أسعارها .

وقد أدرك المجلس هذه المعاناة التى يعانى منها المصريون فأصبحت أهم المسائل المعروضة عليه ، وتمكن الأعضاء من إلغاء ضريبة المواشى والفردة وطالبوا التخفيف من السخرة بشراء الآلات كالكراكات ، واتسع النطاق لأكثر من ذلك بمساءلة نظارة المالية عن مبالغ منصرفة بدون بيان ، وزيادة مصروفات الميزانية عن العام السابق ، والسؤال عن أصول المعاشات وطلب بيانات من الحكومة . ونجح المجلس فى إلغاء العهد التى كان أثرها بالغ السوء على الفلاحين ، وكثرت مناقشاته حول قانون المقابلة وضرورة استمراره ، لذا عملوا بكل طاقاتهم من أجل ذلك[2] ، وتعمقت الكراهية للمراقبة الثنائية صاحبة رأى الإلغاء . هذا فى الوقت الذى ازداد فيه تفتح الأذهان من خلال وجود الأفغانى وازدهار الصحافة وفاعلية الجمعيات ، إذ كان الكثير من الأعضاء من رواد المحفل الماسونى الأفغانى .

وغدا لذلك نتيجته ، فقد طالب المجلس بحقه فى أن ينظر فى الميزانية ليقف على الإيرادات والمصروفات ، ويعلم حجم الديون ومدى استهلاكها ، وشكلت لجنة من ثلاثة أعضاء توجهت إلى نظار المالية للإطلاع على الميزانية والحصول على البيانات المطلوبة .

ومثلما حدث بالنسبة للصحافة حدث للمجلس ، فمما لا شك فيه أنه كان يلقى تشجيعًا من إسماعيل بعد أن طبقت على روحه السيطرة الأجنبية ، فأراد متنفسًا عن طريق المجلس ، لكن لم يكن ذلك أكثر من عامل مساعد فقط إذ أن المجلس قد

---

(١) الوطن ، عدد ٦٣ فى ٢٥ يناير ١٨٧٩ .

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١٧ رجب ١٢٩٣ (١٨٧٩) .

سيطرت عليه الروح الوطنية ، وراحت خيوط المعارضة تنتشر بفضل تلك الظروف التى أحاطت بمصر .

ووقفت الصحافة بجوار المجلس تعضده وتؤيده وتوجهه وتقويه وتلهبه ، فانتهى الأمر إلى تكوين طليعة ثورية داخل المجلس حاولت العمل على إنقاذ مصر ، فيقول روثستين « قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين للانقياد لإسماعيل ومساعدته فى رفع النير الأوربى عن بلادهم ، ولكن مع ذلك كانوا يمقتونه لأنه علة علل شقائهم وبلائهم ، وقد بلغ بهم الأمر بعد الانقلاب السياسى أن فكروا فى عزله »[1] .

وقد كانت مصر تموج بالسخط جميعها ، وشارك النواب شعب مصر فى ذلك ، ومثل إسماعيل صورة لهذا السخط ، كما مثلته النظارة الأوربية بسياستها الضريبية سواء فى الفرض أو التحصيل ، فكان لابد من التحرك والمعارضة التى تصدى لها مثقفو الأعضاء من تلامذة الأفغانى .

وعندما دُعى المجلس فى دورة يناير ١٨٧٩ ، كان اجتماعه ثورة على مسألة الضرائب ومدى ما أحدثته من شلل فى التجارة وطالب الأعضاء بإنفعال رفع ضرائب الويركو والدخولية وعوائد الذبيح والسدس والرى والتخفيف من ضرائب النخيل والملح ، وراحوا يبينون الحالة السيئة التى وصل إليها الفلاحون ، وطرقوا باب الهجوم على الأجانب ، فنددوا بمزاحمة البضائع الأجنبية كالزيوت التى أوقفت معاصر الزيوت المصرية فى أسوان وجرجا وإسنا وقنا ، وبدأت المعارك بين المجلس والإدارة الأوربية ، فقد أرسل ناظر المالية إلى المجلس يلتمس من أعضائه أن تتفضل عليه جماعة منهم بالحضور لديه ليسترشد منهم عن بعض مسائل تتعلق بميزانية المالية « فاستنكر المجلس هذا الالتماس من رجل أورباوى يعلم يقينًا ما هو البارلمانتو ويقدره حق قدره ولا يجهل مقامه ولا ينكر حقوقه »[2] .

واستمرت مناقشات المجلس فيما أصاب مصر وأدى لانهيار أوضاعها ، وعرضت رغبات النواب على صفحات الصحافة فى المطالبة بمنح مجلسهم الحقوق المقررة للمجالس النيابية فى الحكومات الشورية أو أن يفض مجلسهم فترفع عنهم التبعة ، وهكذا أصبح هذا التصميم القوى للتحدى واضحًا .

وتسارعت الأحداث لتسقط النظارة الأوربية الأولى وليتفجر السخط فى كل

---

(١) روثستين ، ت ، تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠ ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، ص ٨١ .

(٢) التجارة ، عدد ١٦٤ فى ١١ يناير ١٨٧٩ .

مكان ، وهنا رأى رياض ومساعدوه الحد من تيارات المعارضة ، فهداهم التفكير إلى فض مجلس شورى النواب لإسكات تلك الأصوات .

وتظهر الحرية على أحسن وجه فى ذلك الموقف بعد أن سيطرت روح الوطنية ، وبعد أن أراد المجلس أن يثبت وجوده ويظهر أمام الجميع ذلك الوعى التام للحياة البرلمانية ، فقد رفض الأعضاء إنفضاض المجلس ، وجرت مشادة بين بعضهم وبين رياض ، واستخدم طريقته التى ركزت على التحقير بالمصريين والاستهزاء بهم ، وجاء عبد السلام المويلحى على رأس من صفعوه حتى لقد أجمع الكتاب الأوربيون على تسميته « بميرابو مصر » ، فقد كان تحديه لرياض سافرًا فأنزل من مكانته ووبخه بكلامه واتهمه بالجهل وضيق الأفق والخضوع للأجانب ، وبيَّن له أنهم نواب عن الأمة ، ولن يبرحوا أماكنهم إلا بعد أداء واجباتهم ، وتبعه ثان وثالث ورابع على نفس المنوال ، جميعهم رافضون مصرحون بالامتناع عن فض المجلس ، وعلى الفور قاموا بتحرير مذكرة برفضهم قرار رياض وختموها بإقامة الحجة على منح حرية المطبوعات ، وبأنهم ليسوا أقل من إمارة البلغار التى أصلح مجلسها من أمورها ، « وأن مصر أوفر منها ثروة وأعظم منها شأنًا وأكثرها سكانًا وأحسنها نظامًا وأحكامًا وأكثرها فى العلوم والمعارف »[1] .

ولم ينفض المجلس وواصل اجتماعاته ، وكثرت مطالبه فى شأن مسئولية النظارة أمام المجلس ، وإبعاد أمور الدين والضرائب من أيدى الأجانب ووضعها فى أيدى النواب ، وتكليفهم ببحثها واتخاذ ما يرونه بشأنها من قرارات تتفق مع مصلحة البلاد وبدأت عملية الالتحام بين القوى ، فنرى الشيخ البكرى « نقيب الأشراف وزعيم سبعين ألفًا من الدراويش » يحضر إلى مجلس شورى النواب ويثنى على الأعضاء لما قاموا به فى سعيهم لخدمة الوطن ، ويسألهم أن يثبتوا أقدامهم ، بل لقد ذهب به الأمر إلى أن يجمع الأعضاء فى منزله ، وفى تلك الاجتماعات كان المويلحى يقوم خطيبًا ليبين فوائد مجالس الشورى ، فأسهب وأظهر التأسف فى تشبث النظارة بمعارضة المجلس وإهمال شئونه ، ثم انتقل إلى الاستدلال على ارتباط المجلس بها ، وبيان ثمار ذلك الارتباط ، كذلك حضر البكرى رسميًا بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن بطريارك الأقباط وعلماء الإسلام كافة اجتماعات المجلس وأبلغ أعضاءه بأنهم معضدون ومؤيدون ، كما طلب أن يكتب كل منهم لأهل ناحيته «لتسكين خاطرهم وإخماد جأشهم عند بلوغهم مسألة طلب انفضاض المجلس»[2] .

---

(١) مصر ، عدد ٤٠ فى ٤ أبريل ١٨٧٩ .

(٢) الوطن ، عدد ٧٢ فى ٥ أبريل ١٨٧٩ .

وبذلك أصبحت مصر قوة ، فالإرادة تفرض نفسها ، والمطالبة بالحقوق تبلغ مداها وتشق عصا الطاعة ، ويسود المد الثورى فى ظل الشعور الوطنى الذى وصل إلى ذروته للإعداد للثورة .

اللائحة الوطنية وتلاحم القوى

عقد ولسون عزمه على إلغاء المقابلة وكان سهلاً عليه أن يسمح بجرة قلم ما دفعه ملاك الأراضى ، وأظهر ذلك فى تلك اللائحة التى أعدها ورأى فيها أن يزيد الضرائب العشورية ، وأنزل من فوائد الديون القريبة الآجال ٢٪ وأطال مواعيدها وأوصل الموحد والديون المتفرقة إلى ٥٪ ، هذا بالإضافة إلى إعلانه عدم قدرة مصر على دفع التزاماتها وتأجيل كوبون أبريل عقب إعلان الإفلاس الذى تضمنه تقرير لجنة التحقيق ، وراح يتخذ الإجراءات التى أثارت عليه سخط ملاك الأراضى ، فوضع مشروعًا فرض فيه السخرة على أراضيهم ، والتى كانت معفاة منها كضريبة عينية لا يعفى منها أحد إلا مقابل جعل مالى يدفع .

وأمام ذلك بدأت الخطوات الفعلية للرفض، ففى أول يناير١٨٧٩ عقدت جمعية وطنية بمنزل راغب باشا حضرها الذوات والعلماء واستدعى إليها المويلحى بصفته نائبًا واثنان آخران من النواب ، وكان من الذوات شريف باشا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وخيرى باشا ، ومن العلماء الشيخ البكرى والشيخ الخلفاوى والشيخ العداوى ، وبطريارك الأقباط وحاخام الإسرائيليين وبعض الضباط والتجار والموظفين ، ودارت بينهم المفاوضات لما وصلت إليه حالة مصر ، وقد كان المصريون جميعهم تموج بهم الرغبة فى التخلص من الكابوس الأوربى ، وهذا ما يتفق فيه الأتراك الدستوريون مع شعب مصر ، وانتهى الأمر إلى وضع لائحة وطنية للرد على لائحة ولسون تتلخص فى أن يكون مجلس النظار وطنيًا وأن يختار الخديو رئيسه الذى بدوره يختار باقى النظار ، وتكون الحكومة دستورية على النمط الأوربى ، ويحكم الاقتصاد فينقص على الموازنة نحو نصف مليون جنيه ، ويعطى مجلس النواب حقوقه مع الحرية التامة ، وإعطاء الأهالى حقًا فى انتخابه ، وتكون النظارة مسئولة أمامه وهو مسئول أمام الأمة ، وجعل مفتشين من الأوربيين لتأمين الدائنين على ديونهم أحدهم على الإيرادات والثانى على المصروفات ، والتعهد بالقيام بتسديد الديون بتمامها وقت استحقاقها بضمان أموال وأملاك المجتمعين، مع تأدية٥٪ فائدة واستهلاك ١٪ من الأصل ، وتسديد الناقص عن المستحق وقدره مليون جنيه ، ويحفظ دين الروزنامة ، بناء على القانون المختص به ويدفع عندما تسمح إيرادات الحكومة ، وأن تبقى المقابلة مع امتيازاتها على حالها ، ورفض أية ضرائب جديدة .

ووقع على تلك اللائحة ستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الأعيان وسبعون من الموظفين وعدد كبير من ضباط الجيش قدر بما لا يقل عن تسعين ، بالإضافة إلى العلماء والتجار والموظفين ، عرضت على إسماعيل فاستصوبها ، وأمر بترجمتها وأرسلت إلى قناصل الدول[1] . وبعث المجتمعون بصورة إلى السلطان العثمانى لتدعيم موقفهم وإمكانية حصولهم على صفة الشرعية لمطالبهم بضم صوته إليهم .

وأرسل لاسلز تقريرًا إلى حكومته ينسب ما تم إلى الإثارة الدينية ضد النظارة الأوربية ، وأنه أعلن فى المساجد أن رياض باشا صديق للمسيحيين ، وأنه حذر من البوليس بأن حياته مهددة ، وكان من أثر ذلك سفر رياض لأوربا وتركه لمصر ، ويصور فيفيان العداء الظاهر للأوربيين فيقول لوزير خارجيته « إن الصلوات تقام فى كل مساجد مصر وتدعو بالتخلص من الأوربيين الطغاة »[2] .

ومما لا شك فيه أن إسماعيل كان راضيًا كل الرضا عن هذا الوضع الجديد ، فقد صرح فى ٧ أبريل ١٨٧٩ باجتماع له ضم القناصل والأتراك الدستوريين والمويلحى وبعض أعضاء آخرين للمجلس والشيخ البكرى بأن للأمة حقًا فى تولية وعزل حكامها وأن الواجب هو قبول اللائحة الوطنية التى أُجمع عليها ، وأعلن عزمه على تأليف نظارة وطنية وسن قانون مالى جديد . واستقالت النظارة الأوربية الثانية وتشكلت نظارة شريف الوطنية ، وأيقنت الأمة أن لديها القوة التى لم تمارسها من قبل .

ولم يكن ما تم وقفًا على طبقة معينة دون الأخرى بل هى طلبات الأمة جميعها، فالالتحام كان واضحًا ، وقد صرح القنصل الإنجليزى عقب مقابلة له مع شريف أن الاستياء وعدم الرضا ليس قاصرًا على فئة معينة بل أنه يعم جميع الطبقات التى ربط بينها ذلك القسم على التعاون للوقوف أمام التدخل الأوربى[3] .

وكان ذلك نقطة انطلاق وانتصارًا للحركة الوطنية للوقوف أمام القوى المضادة، وتناسب الاختلافات من أجل الدستور ، وأقرت نظارة شريف استمرار مجلس شورى النواب ، وفى ١٠ أبريل ١٨٧٩ اجتمع المجلس ليناقش مواد الدستور الجديد ، وذلك

---

(١) Affaires Etrangeres, LXXX, 5 Mai, 1879, pp. 170 - 172. ، الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٦ فى ١٣ أبريل ١٨٧٩ .

(٢) F.O., 78 - 3000, Political, No. 176, 273, May 10, 1879.

(٣) Commons, Vol. CCLXXII, p. 1704.

بعد أن قدم شريف للمجلس نصوص الدستور ولائحة الانتخابات للمناقشة فيها وتعديلها أو إقرارها ، وجاءت التشريعات مماثلة لما هو جار لدى الدول الراقية ، وبناء على ذلك أحق للمجلس الإقرار التشريعى ، فصار مناصفة بينه وبين الخديو ، وأصبح له الاقتراع على الثقة بالنظارة ، ورفع عدد النواب إلى ١٢٠ نائبًا وجعل الانتخاب على درجتين ، فوسعت دائرته ومنح النواب حق الحصانة البرلمانية ، وكان ذلك نتيجة لأول وثبة لحركة وطنية عميقة ، وأصبح المجلس على أساس أكثر ديمقراطية ، فله الإشراف على المصروفات وفرض الضرائب وتقرير الميزانية ، كما أن فصل السلطات بدا واضحًا فلا تجتمع وظيفة النظارة والنيابة فى شخص واحد ، وعدم قبول موظفى الحكومة ضمن أعضاء المجلس .

أفقد هذا بريطانيا رشدها ، وراح قنصلها يطالب بضرورة وجود الناظرين الأوربيين ، ويرفض الخديو ويبين « أن هذا أمر نزعت إليه الأمة بجملتها ورأت فيه صلاحها » ويرد عليه البكرى بإصرار وثقة بل وتحد فى أحقية مصر بالشورى « وأن ليس لأى أجنبى أن يتحكم فيها »(١) .

ومضت التعبئة للشعور العام ، فعقدت الاجتماعات تلك التى ترددت فيها الخطب عن الحرية والديمقراطية . وبذلك سيطر الوعى والإدراك والأبعاد السياسية على تلك العقول ، وقد ساعدت الصحافة على هذا الإيقاظ « فجميع الذوات والأعيان علموا ما لهذه الجرائد من الأهمية وأدركوا أن المطالعة أفيد الأشياء ، فنزعوا إلى الإشتراك فيها واهتموا بمطالعتها وينتظرون ورودها بفروغ الصبر ، ويجتهدون فى رواج سوقها غير آسفين على أربعة أو خمسة جنيهات قيمة الاشتراك فيها »(٢) .

لكن لم يكتمل الانتصار ، وكان واضحًا أنه لابد وأن تقف بريطانيا وفرنسا أمامه، وانتصرا ، وخُلع إسماعيل وتولى توفيق ، لتكون النتيجة الطبيعية رفض الدستور الوطنى ، واستقالت النظارة الوطنية عقب الرفض ، وتعطلت الحياة النيابية واضطهدت الصحافة ليستمر الكفاح .

الحزب الوطنى والعمل السياسى

تبلور الرأى العام ونضج الوعى السياسى فى عهد إسماعيل وأسفر عن تعدد النشاطات وكان من بينها الجمعيات بأنواعها التى استطاعت فى النهاية أن تنصب فى قالب واحد عرف باسم الحزب الوطنى ، ولم يكن حزبًا سياسيًا بالمعنى المفهوم ،

(١) مرآة الشرق ، عدد ٢٤ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ .

(٢) صدى الأهرام ، عدد ٦٠١ فى ٨ أبريل ١٨٧٩ .

لأنه الحزب الوحيد بينما الأحزاب السياسية تعنى الاختلاف على طرق الحكم ووسائله وأشكاله فى الدولة الواحدة ، إنما هنا فى مصر فى ذلك الوقت كان هيئة شملت مختلف الاتجاهات والمصالح المختلفة ، لكنها فى النهاية حافظت على شكل الوحدة الوطنية ، وتعددت قوى ذلك الحزب .

شملت قوة الأتراك الدستوريين أعداء المصريين ، لكنهم انضموا إليهم فى حركتهم الوطنية للوقوف أمام عدو مشترك هو الأوربيون . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد طالبوا بالدستور للحصول على مزيد من السلطات حرموا منها بسيطرة إسماعيل عليها ، أضف إلى ذلك نفسيتهم التى امتلأت حقدًا على الأسرة المالكة ، حينما نظروا إلى أملاكها الشاسعة من الجفالك التى هى من أجود أنواع الأراضى بينما تتمثل أراضيهم فى الأبعاديات .

وعبَّرت هذه القوة عن نفسها فى شكل جمعية سرية فى حلوان ضمت شريف باشا وهو من أصل تركى ، ولكنه تمصر ويتميز بذلك الطابع الفرنسى الذى تدعم بزواجه من فرنسية ، وشخصيته محبوبة وسياسته وكفاءته خلقت له تلك الشعبية التى غمر بها ، فأثناء نظارته للحقانية والخارجية كان الوحيد الذى قاطع لجنة التحقيق الأوربية ورفض الحضور أمامها ، بل ورفض أيضًا الاشتراك فى النظارة حينما عرضها عليه نوبار ، ومن هنا اعتبر ممثلاً للوطنية المصرية أمام المصريين[1]، هذا بالإضافة إلى أفكاره الحرة ونشاطه واتصالاته مع الوطنيين .

وكان شاهين باشا من ضمن أعضاء الجمعية وهو من رجال إسماعيل ، وله دور الوساطة بينه وبين الحركة الوطنية ، ويكره النفوذ الأوربى ، وتربطه الصلات مع العسكريين ، واحتضن كل ما هو يناوئ الأجانب[2] . وضمت الجمعية عمر لطفى باشا محافظ الإسكندرية وراغب باشا الذى فتح منزله للزعماء الوطنيين حيث اجتمعوا ووضعوا اللائحة الوطنية .

أما عن زعماء الريف فكانوا غير راضين على التدخل الأجنبى والسلطة المطلقة لإسماعيل ، ورأينا كيف مثلهم مجلس شورى النواب أصدق تمثيل ، وقد حرموا من العدالة خصوصًا بعد ذلك التمتع الذى تمتع به ملاك الأراضى من الأجانب ، الذين لا يدفعون ضرائب ، معتمدين على الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة التى كانت فى جانبهم ، وهم المالكون لوابورات حليج القطن ، وتدرس أموالهم تتدخل على

(١) Blovès, A., Francais et Anglais en Egypt 1881-1882, p. 29

(٢) الكوكب المصرى ، عدد ٦٢ فى ١٦ يوليو ١٨٨٠ .

الريف المصرى للاستثمار فى الزراعة على حساب مصالح كبار الملاك المصريين مما جعل الأخيرين يسعون إلى التغيير لهذه الأوضاع .

وكانوا ينظرون أيضًا إلى أملاك الأسرة والأتراك التى تتوسع أكثر من ممتلكاتهم وليس فقط فى المساحات ولكن أيضًا نوعية الأراضى وخصوبتها ، وما أصابهم من جنون إسماعيل فى امتلاكه للأراضى التى راح ينتزعها من أصحابها ، وكان ولسون قاسيًا عليهم فزاد من الضريبة على الأراضى بأنواعها ، كما أن عملية حصر الزمام لتوزيع الضرائب قد ضايقتهم ، حيث كانت هناك أراض غير مدرجة ولا يدفع عنها ضرائب ، وبالحصر أصبح لزامًا عليها الدفع ، ذلك فى الوقت الذى فقدت فيه الأرض كثيرًا من قيمتها ، فقد وصل سعر الفدان ٢٨ جنيهًا بعد أن كان سعره ٦٠ جنيهًا[١] .

وكان على رأس تلك القوة سلطان باشا ، وهو أول طبقة الملاك صعودًا إلى أسمى مراتب الإدارة ، وكانت نفسه تمزقها شهوة الجاه والعظمة ، فأزاد من أملاكه حتى أوصلها ١٣ ألف فدان تارة بالإنعامات وأخرى بالشراء[٢] ، وهو من أصل بدوى وصل إلى وظيفة عمدة زاوية الأموات وعين ناظرًا لقسم قلوصنًا ، ووكيلاً لمديرية بنى سويف ، ومديرًا للغربية ومديرًا لأسيوط ، ثم مفتشًا على جفالك المنيا وتوابعها.

وصل سلطان إلى تلك المراكز لكفايته الإدارية ولولائه للسلطة ، ولمكانته بين الفلاحين التى خلقت له سمعة طيبة ، فكان أثناء مروره على التفاتيش يشتكى له أهاليها مما أصابهم من الظلم فيعد بالإصلاح ويريح من خواطرهم ، ويكفى الراحة النفسية بأن يجد الشاكى من يستمع إليه ، وأحيانًا كان يقوم ببعض إجراءات المعاونة ولو أنها بسيطة ، إلا أنها أعطته ذلك الحب من الفلاحين ، وزاع صيته وغدا يلقب بملك الصعيد ، وأساءه الطغيان الإسماعيلى والسيطرة التركية والتسلط الأوربى وأشفق على فلاحى مصر ، وحمل له الأتراك الكراهية وهذا أمر طبيعى فهو مصرى راح يزحف على المناصب التى يحتلونها ، وانتقلت تلك العدوى إلى إسماعيل الذى كان يستاء من أى نفوذ لغيره ، فأصدر أمرًا بنفيه إلى السودان ، ولكن تدخل توفيق فى الوقت المناسب ، فعاد سلطان ليتنقل فى الوظائف بعد أن حنق على الخديو وازدادت رغبته فى المزيد من السلطة ومن هنا راح يعمل .

---

(١) Malet, S.E. , Egypt 1879 - 1882, p. 301 .

(٢) Bear , op. cit., p. 24 .

والتقى الجناحان الممثلان لكبار ملاك الأراضى ، الأتراك والمصريين الأول يمثله شريف والثانى يمثله سلطان ، فكان لهما تأثيرهما فى حركة المعارضة القوية التى سرت فى مجلس شورى النواب ، وانضم العسكريون بجمعيتهم السرية وسلاحهم ، والمثقفون بفكرهم ليلتقوا جميعًا على صعيد العمل السياسى ، ويتطابق الشكلان المدنى والعسكرى فى الحزب الوطنى ، وأصبحت الصحافة وخاصة « مصر والتجارة » لسان حاله .

وتوهج نشاط العنصر المصرى ، كل يعمل فى منطقته ، فهناك سلطان وسليمان أباظة وحسن الشريعى وعبد الله فكرى وعرابى الذى أصبح له اسمًا وشعبية سواء فى الجيش أو فى الشرقية وزاع صيته كوطنى حر ، وكثرت اللقاءات وتكشفت الاتصالات فى السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل فى وقت لم تكن أوربا تحلم فيه بوجود تلك الحركة الوطنية فى مصر .

وأمام تلك القوة ، رأى إسماعيل كعادته الاستفادة منها ضد توسيع السلطة الأوربية فيقول نينيه « إنه دخل معهم سرًا فى مفاوضات بأن يعترف بهم كحزب وأن يضع نفسه على رأس الحركة على أن توجه ضد التدخل الأجنبى وأن يتم الاتحاد على تصفية الديون »[1] .

كان إسماعيل فى نفس الوقت يخشى الحزب وخصوصًا بعد أن اتسع مداه وضم جميع القوى الثائرة على الأوضاع وأصبح له ذلك التأثير القوى والعنيف فى المجتمع ، وكان يكفى وضع شعاره « مصر للمصريين » ليدخل تحت لوائه شعب مصر أجمعه ، لذا رأى الخديو أن يحابيه ويدخل فى حلف معه ، وقد أكد القنصل الإنجليزى لحكومته أن لإسماعيل نصيبًا فى تلك الحركة الوطنية[2] . لكن يجب أن يؤخذ ذلك الرأى بشكل من الحذر وخصوصًا أن الحزب لم يكن يميل للخديو إطلاقًا، وإنما كان من أساسيات وجوده إسقاط سلطته ، وعندما عزل على أيدى أوربا سعد الحزب بذلك العمل حيث وافق هواه . ومن ثم يتضح أن الاتجاه الوطنى الذى تزعمه الحزب الوطنى كان يرمى إلى خلع إسماعيل ، لكن الخارج سبق الداخل وأتمت أوربا الأمر على يدها ، وهذا مما استاء منه الحزب الذى كان يريد أن يقوم هو بتلك المهمة منفردًا .

واستقبل الحزب الوطنى تولية توفيق بشىء من الأمل فى أن يتم الإصلاح على يديه ومعروف موقفه أثناء ولاية العهد ، وحاول الحزب أن يكسبه بجواره ببيان

(١) Ninet , Origin of the National Party in Egypt p. 128 .

(٢) F.O. 78 - 3011, political, No. 273, May 10, 1879 .

مقاصده « إن الحزب الوطنى لم يقم إلا بالحق ولم يصدر إلا عن الحزم ولم يأخذ إلا بالحكمة ولم يقصد إلا إخراج هذا الوطن من مهاوى الذل والفاقة والعناء » ويشير الحزب إلى مجهوداته واتجاهاته لإبعاد إسماعيل « فاجتمع رؤساؤه فى العاصمة وتفاوضوا فى أمرهم ثم تحالفوا على السعى والاستماتة فى تأييد مبدأ الحق ، فبثوا رسلهم فى أنحاء القطر يستطلعون الأخبار ويستجلبون الأفكار ويحلفون القلوب لرأيهم غير مباليين بالأخطار المحدقة بهم ، وكانت جرائدهم وهى مصر والمرآة والتجارة تمهد بين أيديهم السبل وتبث فى الأنفس أنوار مبادئهم ليعلم أهل الوطن ألا سبيل إلى انتعاش وطنهم من عثرة الشقاء ونجاته من ربقة العناء ووصوله إلى غاية الراحة والهناء إلا بتنازل الخديو وتوليه ولى العهد »(*) . إذن ففى هذا أيضًا دليل على موقف الحزب من إسماعيل .

لقد كان نشاط الحزب متعددًا وضاعف أعضاؤه من مجهوداتهم وخصوصًا الذى كانوا على صلة مباشرة بالشعب ، وسرى فيهم تيار الأفغانى الذى تأصل فى كيانهم وأصبح الجميع وحدة متكاملة الأهداف ، وكان من المنتظر أن يتعاون توفيق معهم ، لكنه تراجع عن جميع مواقفه السابقة وخضع للمراقبين تامًا ، وأصبح رياض موكلاً من الدولتين لتنفيذ سياستهما فى مصر وضرب الحركة الوطنية ، وراح يطبق تلك السياسة .

وهنا بدأ عمل الحزب فى الخفاء ، وكل يسعى ويجد من أجل أغراضه ، وأصبحت الرابطة قوية بين أعضائه ، وكثيرًا ما كانت الاجتماعات تتم فى منزل سلطان ، وأوعز شريف وراغب وسلطان إلى أديب إسحق - الذى نفاه رياض - أن يصدر صحيفة « مصر القاهرة » لتكون لسان الحزب الذى تعارض به رياض ، وقد كان يتم توزيعها بفضل مجهودات الحزب وبالرغم من سلطة رياض وأعوانه .

وفى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ صدر أول منشور عن الحزب الوطنى طبع منه عشرون ألف نسخة ولم يعثر على ناشره أو كاتبه لكنه موقع بكلمة Aali والواقع أنه كان باتحاد بعض العسكريين كالبارودى وبعض الملاك كشريف وسلطان ، وهو أول بيان سياسى يصدر من حزب مصرى .

وفى هذا البيان تتحدد طلبات الحزب ، فهو يندد بالحكم القائم ويهدد بأن الشعب لم يعد يقبل الاستبداد ، ويرفض أى تدخل أجنبى أو وجود نظار يمثلون نفوذًا أجنبيًا ، ويرى إنقاذ مصر من أيديهم حيث إن أكثر من ٦٠ مليون جنيه من

(*) مصر ، عدد ٥٢ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ .

ديون مصر ضاعت مع الوسطاء ، وأن تشرف مصر على ماليتها وتتعهد بسداد الديون التى تحول إلى دين موحد بفائدة ٤٪ ، وأن تكون هناك رقابة دولية مؤقتة للإشراف على أرباح الدين ولا يكون لها سلطة التدخل ، ورد أملاك الخديو إلى الدولة ، والنهوض بالشعب عن طريق التعليم ، ومعرفة حقوقه وواجباته[١] .

وقد طمأن ذلك البيان الأمة التى كانت تموج بالاستياء ، وأشعر أن بمصر قوة ستعيد نفسها بنفسها وستحررها من كل القيود التى فرضت عليها ، وراح رياض يبحث ويهدد لدرجة أن البعض من أعضاء الحزب احتمى بالحماية الأجنبية .

كان هذا الشكل السياسى الذى اتخذته البورجوازية المصرية ، أما الشكل الاقتصادى فلم يتعد أكثر من غيره وطنية لاسترداد المصالح الاقتصادية من أيدى الدائنين الأجانب . فعقب تقديم اللائحة الوطنية تحمست النفوس لاستغلال الرأس مال الوطنى فى تخليص ديون مصر وذلك بمساهمة أعيان الأمة بالاكتتاب بمبالغ وافرة ، وفتح المجال لمن يريد من المواطنين أثناء تلك الاجتماعات التى كانت تقام فى منزل راغب باشا[٢] .

وكان أمين شميل قد حث أغنياء مصر وقدم مشروعًا خاصًا بإنشاء بنك أهلى رأسماله ١٤ مليون جنيه تدفع من البلاد دون إكراه فى مدة ثلاث سنوات على ستة تقاسيط ، ويكون أحكامه أن يشترى بنصف رأسماله وأرباحه قراطيس حكومة ، أما النصف الثانى فيستخدم للأشغال التى تستلزمها البنوك ، وتكون فوائد المشروع جعل الدين وطنيًا وانتظام تجارة البلاد وتعديل الفوائد وإنهاء دين مصر فى ٢٨ سنة[٣] ، وقد نوقش ذلك حيث كان التفكير منصرفًا إلى التخلص من الديون بأية وسيلة ، وشجعت الصحافة هذا الاتجاه ، وفى تلك الأثناء حدثت محاولات من الرأسمالية الزراعية بزعامة سلطان وعمر لطفى فعقدت الاجتماعات لدراسة فكرة إنشاء بنك وطنى ودُعى الوجهاء والأعيان للاشتراك فيه ، ونشر بيان « إنماء المال » بصحيفة التجارة أُوضح فيه أن المصريين يخافون من استثمار أموالهم معتمدين على التراث القديم بنماذجه ، وبين فضل الشركات فى الغرب وخاصة المالية وهى البنوك « ففيها تستثمر الأموال المدخرة ، وفيها يقترض صاحب الحاجة لأن المال أساس

(١) Ninet , Origin of the National Party in Egypt, p. 131 . ، سليم النقاش ، مصر للمصريين ، جـ ٤ ، ص ٧٩ .

(٢) الوقت ، عدد ٦١٩ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ .

(٣) صدى الأهرام ، عدد ٦٠٠ فى ٧ أبريل ١٨٧٩ .

الأعمال » وهاجم الأجانب وتحكمهم فى الاقتصاد المصرى ونادى بضرورة العمل على إنقاذ الأراضى المرهونة من أيديهم(١) .

إذن فقد كان هناك إدراك لضرورة تحرير مصر من السيطرة الاقتصادية الأجنبية وبناء الاقتصاد المصرى على أيدى المصريين ، حقيقة لم يتم ذلك فى هذا الوقت لكن كاتجاه وإحساس بما تعانى منه مصر كان خطوة وطنية .

مواصلة سياسة الضغط على ملاك الأراضى

كانت أكبر ضربة قاسمة استطاع رياض أن يوجهها لملاك الأراضى والتى أكدها قانون التصفية فى ١٧ يوليو ١٨٨٠ هى إلغاء المقابلة ، وقد ظهر طوال جلسات مجلس شورى النواب ذلك العزم القوى وتلك المعارضة لهذا الإلغاء حتى لا تضيع تلك الانتصارات التى حققها ملاك الأراضى عن طريقه ، وكانوا جميعًا قد دفعوها عن أراضيهم منذ عام ١٨٧١ سواء بالاختيار أم الإجبار ، وذهبت كما ذهب غيرها من الأموال فى مهاوى المصارف ولعبت بها أيدى الإسراف .

وفى ٦ يناير ١٨٨٠ صدر الأمر العالى بإلغاء لائحة المقابلة ، وإعادة أموال الأطيان الخراجية والعشورية إلى قيمتها التى كانت عليها قبل الخصم الناشئ من دفع المقابلة ، فعمل ذلك على اشتعال ملاك الأراضى ، وجاء قانون التصفية ليظهر التحيز لأصحاب حملة السندات على حساب المصريين ، وبمقتضى المادة ٨٩ قرر دفع مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه سنويًا لتوزيعه بين الملاك على نسبة ما لكل منهم ، وقرر قيده فى الأوراد ليخصم من الضريبة العقارية وذلك فى مدة خمسين عامًا(٢) .

أثار ذلك ثائرة الملاك ليس فقط ضد رياض ولكن أيضًا ضد المراقبة الأوربية التى تسعى منذ وقت لتحقيق ذلك ، وأخيرًا كانت لها اليد الطولى فى الإلغاء ، هذا فى الوقت الذى رأت فيه خدمة مصالحها على حساب المصريين ، فقد عينت الموظفين الأجانب بأعلى المرتبات وهى تعلم أن ذلك سيكون له نتائج وخيمة ، وقد وضح ولسون « بأن ما دفعه الملاك الذين هم دائنون للحكومة سيسبب حركة تسيطر عليها الكراهية ضد التصفية وأن هذا سيترتب عليه ارتباك »(٣) ، وانهالت الشكاوى تعترض على الإلغاء ، وتزعم لواء المعارضة العقاد وهو من كبار ملاك الأراضى وتقدم بتقرير إلى لجنة التصفية معترضًا فيه على سحب ذلك الامتياز مستندًا إلى

---

(١) التجارة ، عدد ٢١٩ فى ١٥ أبريل ١٨٧٩ .

(٢) جرجس حنين ، الأطيان والضرائب فى القطر المصرى ، ص ص ١٠١ ، ٥٣١ .

(٣) Egypt, No. I, (1881) . p. 9 .

تلك الحجج التى أعطيت لأصحاب الأراضى والتى تعتبر بمثابة عقد لا يجوز فسخه إلا برضا المتعاقدين معًا ، وأن الأهالى فى سبيل دفع المقابلة قد تحملوا بالديون الثقيلة وباعوا من أملاكهم ومصوغات نسائهم أملاً فى الحصول على الامتياز ، وكيف يسوغ للحكومة ارتكاب مثل هذا الخطأ ، ثم طلب من اللجنة أن تحصر ما على الأهالى من الديون ، وما ذهب من أملاكهم فى تلك السنين الأخيرة ، حتى تعلم أنهم وصلوا إلى حالة سيئة جدًا ولا سبب لها سوى كثرة الضرائب وثقل المقابلة ، وأن عليها أن تقيم حدًا فاصلاً بين الحكومة والأهالى يمنعها عن استعمال الاستبداد ديهم حفظًا لأموال الدائنين ، وإن لم يبق الامتياز فيجب أن ترد الحكومة جميع المدفوع إلى أربابه بحيث لا يسرى قانون الإلغاء إلا بعد أن تصل الأموال إليهم .

ونشرت نسخة من هذا التقرير فى جريدة « لارفورم » ورفضت لجنة التصفية قبوله وبعثت به إلى نظارة الداخلية ولم يكتف العقاد بذلك ، بل عدد مثل ذلك التقرير ووقع الكثير عليه وشاع الموضوع واشتهر ، وبعث برسائله إلى جميع الجهات لدعوتهم إلى هذا الأمر بكل حرارة » وكان منزله يغص بالمعارضين ، جاءوا جميعهم لكى يدلوا بأصواتهم ضد تصرفات رياض ومراقبيه » ، وتشهد عليه جماعة بأن الذين ختموا فى بيته كانوا من المجاورين بالأزهر وأبناء البلد وعمد النواحى والفلاحين ، وأنه رغَّب من ليس لهم أطيان بأنه سيعطيهم من ملكه فى المستقبل . إذن حركته هذه لم تكن من أجل مسألة المقابلة فقط ، وإنما كانت لها أبعادها الاجتماعية الأخرى ، وبذلك أمكن له أن يوحد الجهود ويضم القوى ويعمل ضد الحكومة والمسيطرين عليها . وحكم عليه مجلس ابتدائى مصر بسنتين ولكنه استأنف الدعوى وقال « كون الحكومة مستبدة فهذا أمر ليس خفيًا يوجب المعاقبة ، فإن حقيقة الاستبداد أن تكون الأحكام بدون استشارة النواب وهذا محقق ، فتقرر نفيه إلى فيزوغلى »(*) .

كان تقرير العقاد أول بيان ثورى أمضته فئات الشعب ، وجاء فى مناقشات مجلس النظار بأنه متداول بين الناس جميعها ، وعثرت عليه عيون الحكومة بين أيدى العسكريين ، ولم يكن بيانًا مفردًا ، فقد اعترف دى بلنيير أن هناك غيره ومماثل له قدم للتصفية بل لقد وصل الأمر إلى التهديد باستعمال السلاح ، وأعلن بارنج أن العقاد ليس المذنب بمفرده فهناك كثيرون مماثلون له فى الذنب ، وجملة ذوات متداخلين فى هذه الحركة ، وكان شريف قد قدم للجنة التصفية تقريرًا يطلب

(*) الوقائع المصرية ، عدد ٩٧٠ فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٠ .

فيه تأمينات دستورية[١] ، وواضح أيضًا أن المعارضين هم الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى .

وصدر المزيد من الأوامر لمأمورى الضبطية ومفتشى البوليس « لملاحظة أرباب الحركات مع التيقظ » وكثرت الاعتقالات وامتلأت السجون ، وتركزت سياسة رياض على المركزية الإقليمية المطلقة ، تلك التى أعطاها للمديرين الأتراك .

لم يغبن ملاك الأراضى فى المقابلة وحدها ، ولكن أيضًا فى دين الروزنامة والذى دفعوا فيه ما يقرب من أربعة ملايين من الجنيهات على شكل سندات بفائدة ٩٪ وأجبروا على دفعها مثلما حدث مع المقابلة ، وقد أهمل قانون التصفية تلك الأموال وأصبحت لا قيمة لها « فلا غرو أن قوبل صدور قانون التصفية بالسخط والاستياء وكان من أهم أسباب قيام الثورة العرابية »[٢] .

وصاحب تلك السياسة ضغوط مالية أخرى ، حيث مضت السياسة الضريبية للرغبة فى المزيد من الأموال ، فأجبر الباشوات على دفع الضرائب بعد أن كانوا يسوفون إذ أن أراضيهم عشورية لم تفرض عليها الضرائب العالية رغم خصوبتها ، لكن كانت الامتيازات التى حصلوا عليها أن يدفع البعض ضريبة رمزية والبعض ضريبة ضئيلة . وعندما فرضت عليها حكومة رياض والمراقبة الضرائب كانت النتيجة الغضب الذى سرى بين الملاك .

وشكلت لجان مخصوصة تناط بتحقيق وجود العقارات الكائنة بكل جهة ، ومعرفة الأطيان المنزرعة والتى بدون زراعة والمؤجر منها وغير المؤجر ومقدار إيجاره، وجمع كافة الأوامر واللوائح المتعلقة بتقدير ضرائب الأطيان ، وذلك من أجل ضبطها وحتى لا يتهرب أحد من أدائها .

وبعد إلغاء المقابلة زيد مبلغ ١٥٠.٠٠٠ جنيه ضريبة على الأراضى العشورية ووزعت على جميع تلك الأراضى ، وانبث أصحاب الجباية يعيثون فى البلاد لجمعها. وكانت الأراضى العشورية وحتى عام ١٨٨٠ غير مدرجة فى حسابات الصيارف، ويدفع أصحابها العشور - إن دفعوا - لخزانة المديرية أو المالية ، ولكن رياض قرر « إلحاق حسابات الضرائب العشورية بأعمال صيارف البلاد ودرجها بحساباتهم

---

(١) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥ / جـ ، محضر ٢٢ مايو ١٨٨٠ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، ص ٥٤ .

وبأوزاد المولين والزام إعلان الذوات وأرباب الأباعد وما يماثلهم بذلك »[1] ، ومثل ذلك تحديًا من رياض لملاك الأراضى .

وكانت قد صدرت أوامر المالية لتحصيل المتأخرات من الأموال المطلوبة من جميع أصحاب الأطيان عن سنوات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٨٧٩ ، وفرضت العقوبات على من يتوانى فى ذلك « ومن يتأخر يعامل بحجز وتحصيل إيجار أطيانه إن كانت مؤجرة أو حجز وبيع محصولاتها إن كانت منزرعة ويجرى بيعها بالمزاد »[2] . وتم فعلاً تنفيذ ذلك ، فقد استحوذ على أراضى بعض كبار الملاك نظير متأخرات عليها ، وجرى بيعها لمن يسدد عليها ديون الميرى ، وشدد على زراعة الدخان التى كان يميل إليها الملاك للمكاسب التى يتحصلون عليها منها ، فحرمت إلا بإذن من الحكومة ، وجعلت ضريبة الفدان ٦٠٠ قرش بخلاف المقرر على الأرض وصدرت الأوامر بتفتيش الأراضى[3] . وأصبح الباشوات يتحسرون وبحرارة على وقت هنائهم الذى مضى ، وكونوا فيه تلك الثروات وقت أن كانوا متمتعين بالامتيازات ومحميين من العقوبات .

وجاء إبطال رياض للسخرة - وإن كان ظاهريًا - ليزيد ملاك الأراضى إثارة عليه ، فقد كانوا يطبقون هذا النظام بكل قوة وجبروت على الفلاحين فى الوقت الذى لا يدفعون فيه البدلية للعمال الذين يعملون فى أراضيهم .

ونتج عن ذلك جميعه تأزم الأوضاع لملاك الأراضى وسوء حالتهم المالية ، فالتجأوا لرهن أراضيهم وتصف صحيفة الوقائع المصرية ذلك بقولها « بعض أعيان بلادنا رهن أرضه الزراعية الخصبة على ٢٥ ألف جنيه يدفعها فى خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور ، وهذا ذل الدين وأثقاله إذ رسم على الذوات أن تكون فى قبضة الدين »[4] . وغدت الأراضى الزراعية مثقلة بالديون والرهونات ، ومن هنا أصبح كثير من الملاك يئنون تحت هذه الظروف بعد أن وجدوا أنفسهم مثقلين بالديون التى ألجأتهم للبيع ، وفى أحد التقارير يبين طلبة عصمت بأن « ملاك

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٨٥٧ فى ٢٤ فبراير ١٨٨٠ .
(٢) المصدر نفسه ، عدد ٨٣٢ فى ١٩ أكتوبر ١٨٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، عدد ٨٤٦ فى ٢٣ يناير ١٨٨٠ .
(٤) المصدر نفسه ، عدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

الأراضى المصريين قد باعوا أراضيهم » ويؤكد فيه على فهمى بأن « الفقر ساد حتى على المالكين ، ولم يبق شىء فى يد مصر »[١] .

ومن أجل ذلك كله اشترك ملاك الأراضى فى الثورة بعد أن وصلت حالتهم إلى أقصى درجة من التبرم والاستياء ، ورغم ضغوط رياض التى لمسناها فإن النشاطات مضت فى ممارسة العمل السياسى الذى وضع مفهومًا اجتماعيًا على ما كان يقوم به، فقد انضم الملاك إلى الجمعيات القائمة ، كما شكلت لجنة من سلطان باشا وأحمد بك حمدى ومحمد بك مقبل والسيد أحمد افندى بسيونى والشيخ على الليثى وإبراهيم اللقانى والشيخ على نايل وعبد الفتاح بك رحمى ومحد أمين بك ومحمد بك الشواربى ويعقوب بك ، ووصل أعضاؤها من كبار الملاك إلى أربعين عضوًا ، وانضم إليها البارودى ناظر الأوقاف وعلى الروبى رئيس مجلس المنصورة وأيضًا معاونين وعمد ، وكان الهدف العلنى أمام الجميع منها هو النهوض بالتعليم ورعاية الحقوق الإنسانية[٢] وواضح من الأسماء أنهم المشتركون فى الثورة .

العمد والمشايخ

يمثل مشايخ القرى حلقة اتصال بين الحكومة والفلاحين لما لهم من مركز اجتماعى تكون على مر الأيام فى القرى ، وقد تمتعوا بمكانة إدارية منذ عصر محمد على وخصوصًا بعد منحهم أراضى « مسموح المشايخ والمصاطب » ، وامتدت سلطاتهم على الفلاحين ، فأثروا على حسابهم ، وكانوا كلما ضغطت الدولة عليهم ضغطوا بدورهم على الفلاحين ، وقد ألقى عباس عليهم مسئولية جمع الضرائب وإعادة الفلاحين الهاربين وإعداد المطلوب للسخرة والجهادية ، وأشرفوا على الزراعة ، وكان عليهم دفع التعويض لما يتلف للميرى « فقد ألزموا بدفع أموال وتقاوى البرسيم من أجل المواشى الأميرية أكله الدود »[٣] ، وكان سعيد قاسيًا على المشايخ فحد من سلطتهم وجعلها تحت سيطرة الحكومة ، وفرض عليهم تقديم أبنائهم للجهادية بعد أن كانت قاصرة على الفلاحين ، ووحد بين المسلمين والأقباط

(١) مجلس الوزراء ، محفظة ٣٨ ، مجموعة ٤٧ حربية ، تقرير .

(٢) الوقت ، عدد ٩٤٣ فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨٠ ، عدد ٩٤٩ فى ٨ أكتوبر ١٨٨٠ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، دفتر وارد معية تركى ، ترجمة الوثيقة رقة ٧٦٨ فى ٢٠ ربيع الأول ١٢٦٥ . (١٨٤٩) .

فى هذه المسألة ، كما منع عنهم تحصيل الضرائب ووكلها للصيارفة ، وأصدر القوانين التى حدت من ثروتهم ، وفرض الضرائب على أراضيهم .

وجعل سعيد بجانب المشايخ فئة أخرى من كبار الملاك وهم العمد ، ولم يكونوا متميزين عنهم إلا فى انتخابهم وتخيرهم لأقوى العناصر الريفية نفوذاً وثراء مع قصر وظيفة الشياخة على من يلى هؤلاء فى المركز الاجتماعى، وأصبح أغنى من فى القرية هو شيخها، وأغنى الشيوخ يكون عمدتها الذى كان يعرف القراءة والكتابة .

وأعطى إسماعيل العمد كافة السلطات التى أوصلتهم إلى أعلى قمة النفوذ فى الريف ، فأنيط بهم تصنيف الأرض وتقييمها ، وبناء على رأيهم يتقرر نزع الأراضى للمنافع العامة ، ويقدرون الضرائب على أطيان الميرى المباعة للأفراد ، وعليهم تقديم الفلاحين للتجنيد والسخرة[١] .

وبذلك أصبح العمد الحكام الطغاة للقرى ولكن طغيانهم كان أقل درجة من طغيان الباشوات ، وبحكم ذلك ازدادت أملاكهم على حساب الفلاحين ، فامتدت أطماعهم إلى الأراضى التى ليس لها ورثة ، والتى كان القانون يجعلها للدولة ، وإلى أراضى المستحبين وذلك بعد الضغط عليهم الذى يجعلهم فى النهاية يتركون أراضيهم ، وقد مارس العمد مسألة إقراض الفلاحين ، وعند العجز يكون الاستيلاء على الأراضى ، هذا بالإضافة إلى شرائهم أطيان الميرى ، وكان منهم من نال حظوة الإنعام عليه بالأطيان ، كما نمت ثروة البعض عن طريق الاشتغال بتوريد البضائع لجهات الحكومة ، وعندما جاءت الحرب الأمريكية وكانت لها انعكاسات على الاقتصاد المصرى أكثروا من اقتناء الأراضى ، وأعطتهم اللوائح والقوانين الخاصة بتثبيت الملكية الفرصة للمداومة على ذلك .

وكان للعمدة امتيازاته ، فهو يعفى من ضريبة خمسة أفدنة من ممتلكاته والسخرة والجهادية عن نفسه وأبنائه ، وأمام الفلاح فقد كان العمدة قاموس القانون والسياسة ، فيمد مأمور المركز بالمعلومات ، ومعه من ٢٠ إلى ٢٥ من الخفراء والحراس وذلك لحفظ أمن القرية ، وسلطته القضائية غير محدودة ويقول كرومر « عندما يعتلون الأرائك فى غرفة الديوان لإصدار الحكم كان الفلاحون يطيعون أوامرهم على الفور »[٢] ، فحكمهم لا مرد فيه ، وفوق ذلك فهم يمتعون بنفوذ دينى كبير ، ويتحكمون فى كل مظاهر الحياة فى الريف المصرى .

(١) Cromer , op. cit., Vol II , p. 190, Bear , op. cit., p. 52 .

(٢) Cromer , op. cit., Vol II , p. 178 .

أما عن خضوع العمد والمشايخ للسلطات العليا ، فقد كان يتلخص فى الانقياد التام والطاعة لأوامر المديرين فى كافة المسائل ، فكانوا يعاقبونهم بالغرامة والسجن إذا تأخروا فى تنفيذ الأوامر ، وإذا تكررت مخالفاتهم أوقفوا من وظائفهم ، ووصل الأمر أيضًا إلى فصلهم نهائيًا ، وكان ذلك يتم دائمًا بسبب عدم استكمال الأنفار المقررة للجهادية وعدم موافقة التعداد .

وكان أول مرة يظهر فيها النفوذ السياسى لهذه الفئة داخل مجلس شورى النواب ، إذ يتم اختيار هذا المجلس بمعرفة عمد ومشايخ القرى بالدرجة الأولى ، ومن بين أعضاء المجالس البالغ عددهم ٧٥ عضوًا كان هناك من ٥٨ - ٦٤ من العمد، وذلك نتيجة للائحة المجلس التى قصرت حق الانتخاب والترشيح عليهم .

فقد أدرك إسماعيل أن مشاركة هؤلاء الريفيين فى حصة من الحكم وسيلة لا غنى عنها لتوطيد سلطانه ، وزاد من أهميتهم سماح الخديو لهم بتوليهم « منصب مدير » فبلغها البعض بالإضافة إلى عدد من الوظائف الإدارية الأخرى[١] ، وكان منهم من يجمع بين وظيفته الأساسية وبين « أمير جنالك وناظر زراعة » ، ومنهم من يجرى وراء مصالحه التجارية ويترك القرية وفلاحيها من أجل أن يحقق المكاسب .

أما عن التعيين فى مناصب العمد والمشايخ ، فأحيانًا يستمر فى عائلة واحدة بالتعاقب الإرثى ، وفى القرية الواحدة كثيرًا ما يكون هناك أكثر من عائلة تتنازع ذلك المنصب ، وكانت بداية التعيين ترشيحًا من الحكومة ونهايته انتخابًا يجرى تحت إشراف مأمورى الأقسام والمراكز ، وفى أبريل ١٨٨٠ صدرت الأوامر بانتخاب مشايخ القرى والبلدان بمعرفة الأهالى ، وأن يكون الانتخاب بأكثرية الأصوات مع مراعاة أمرين ، الأول أن يكون الناخب عارفًا بالقراءة والكتابة ، والثانى أن يكون مطلعًا على القوانين والنظام[٢] .

ومن خلال السلطات الممنوحة لهم مارسوا الظلم على أوسع نطاق على الفلاحين ، مما جعل الأخيرين يلجأون للعمل لدى الذوات والأوربيين أملاً فى حمايتهم من شيوخ البلد ، فهم مصائب الفلاح الضعيف ولهم القوة والسلطة عليه وقد وصفتهم لائحة مصر الفتاة بأنهم « ظلموا الفلاح بما لم تسمع بمثله أذن ولم تره عين حتى ألف أكثرهم الظلم والجور وخلوا من الذمة والرحمة والأدب »[٣] .

---

(١) بير ، المرجع المذكور ، ص ١٢٥ .   (٢) المحروسة ، عدد ٦١ فى ٩ أبريل ١٨٨٠ .

(٣) جمعية إتحاد مصر الفتاة ، المصدر المذكور ، ص ٧ .

وألقى عليهم تعداد السكان لتعيين الضرائب التى ضغطوا فى تحصيلها مما اضطر الفلاحين لبيع أراضيهم وماشيتهم لهم للتخلص من عبء الضرائب ، وأصبح يحق للعمدة أن يسرق ويضطهد ويظلم بدون أن يحاسب ، بل أن المصاريف المتطلبة من القرية كانت تقع على عاتق الفلاحين ، ويعفى منها تلك الفئة التى وقفت بجوار الباشوات وساعدتهم ضد زارعى أراضيهم .

وبالنسبة لمسألة السخرة ، فقد كان العمد مسئولين عن تقديم العدد المطلوب من الفلاحين ، واستغلوا ذلك أسوأ استغلال ، حيث فرضوا سخرة أخرى على الفلاحين للعمل فى أراضيهم فى الوقت الذى استحوذوا فيه على الرشوة لمن يرغب التخلص من السخرة العامة .

وكان العمد والمشايخ ينجحون دائمًا فى استبعاد أهاليهم وأصدقائهم من سلك الجهادية ، وكثيرًا ما كانوا يخفون أنفار سن القرعة وعدم درجهم بالكشوف المطلوبة وذلك فى نظير مصالحهم الخاصة .

أما عن دخول تلك الفئة فى فلك الحركة الوطنية ومساهمتها بكل ما تملك وتخليها عن طبيعتها السابقة ، وانخراطها فى تيار الثورة ، فقد أرجع ذلك إلى ما عانته كشريحة من شرائح المجتمع الذى تعرض لقوى الظلم والاضطهاد هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت الآمال والتطلعات التى سيطرت عليهم للمزيد من السلطة مع هذا التغير الجديد .

وبدأ التذمر مع التحكم الأجنبى بنوعيه التركى والأوربى ، فكثيرًا ما كان يُستولى على أراض يمتلكونها بسبب وقوفهم أى موقف معاكس للسلطة ، وفى الحال يحكم عليهم « إنهم مرتكبون للأغلاط وتنتزع أراضيهم »[١] وكانت سلطة المديرين ووكلائهم - أتراك - تفوق سلطة الناظر على أعيان الريف من العمد والمشايخ ، فعندما شرع وكيل مديرية الغربية فى تحصيل متأخرات ضرائب عام ١٨٧٨ ، أرسل فى طلب المشايخ والعمد لدفع المال ، فجاءوا وشكوا سوء الحال وضيق اليد فاتخذ بعض الوسائل القاسية ، فضرب بعضهم وسجن الآخر ، ووصل الأمر إلى أن راح بعض العمد - تحت حراسة رجال البوليس - يشتغلون بتنظيف الشوارع[٢] . وشرع أيضًا نظار الأقسام ومأمورو المالية فى استعمال الضرب والإهانة للعمد والمشايخ .

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤١ ، جمادى الأولى ١٢٩٩ (١٨٨٢)
(٢) التجارة ، عدد ١١٩ فى ٣ نوفمبر ١٨٧٨ .

وارتفعت أصواتهم بالمعارضة عن طريق الشكاوى وخصوصًا أمام تلك الظروف والأعباء المالية الصعبة ، فبدأت الترجمة الفعلية للكبت تظهر تباعًا ، فنرى أنه عندما علم عمد ومشايخ مديرية الغربية بقدوم ولسون ذهبوا إليه على المحطة وتجمعوا فاضطر لتهدئتهم « وخطب فيهم على لسان الترجمان ما مفاده أنه سيبذل جهده بتعديل الرسوم ورفع المظالم ، ثم قال ومن وقعت عليه ظلامة فليرفعها إلىّ بعرض ، فرفع إليه على الفور ٢٠٠ عرض تظلم » ، وتبعهم فى ذلك عمد ومشايخ من مديرية المنيا وبنى مزار ، وتقول صحيفة التجارة « قدموا إلى نظارة الأشغال عرضًا يدل على اتجاه أفكار الفلاحين إلى الحرية ، وأنهم قد اشتد أزرهم وتقوى عضدهم »[١] .

وانصبت المعارضة فى التمرد على الأوضاع وعدم الرضا عن السياسة المالية وخاصة الضرائب ، إذ تعرضوا للضغط والإجبار على دفع المقابلة مع تجمع الظروف من رداءة المحصول ونفوق الماشية وتكدس الديون ، وقد رفعوا أصواتهم بأنهم لن يدفعوا ، حيث إن المال المعين فوق الاحتمال . وأصبح لمجلس شورى النواب من الأهمية بالنسبة للأمة ، فأبلغوا أعضاءه بضرورة تخفيف الظلم الواقع عليهم ، وبذلك نرى المطالبة بالعدالة والنفور من عدمها والإحساس بوجود مندوبين يدافعون وأن كلامهم يجب أن يسمع .

ويستاء عمد ومشايخ مديرية أسيوط من إعفاء الأوربيين وذوى الحمايات والذوات من الضرائب وخاصة المقابلة ويهددون بأنهم « إذا فرض عليهم ولم يفرض على المتمتعين بالامتيازات ، وإذا صدرت الأوامر التى تقضى ببيع أطيانهم ومواشيهم إذا تقاعدوا عن الأداء ، فإنهم لن ينقادوا لها ولا يسلمون فى بيع شىء من ذلك »[٢] .

فبعد أن كان العمد والمشايخ يسيرون فى ركب التعاون مع الحكومة فى سياسة الضغط لتحصيل الضرائب ، ما لبث الأمر أن فرضت عليهم وتزعموا المعارضة وهددوا بعدم تنفيذ أوامر الحكومة من ناحية ، وبالضغط على أعضاء المجلس النيابى وطلبهم منهم عدم تقرير شىء يكون خارجًا عن حد المساواة من ناحية أخرى .

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٥٣ فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٨ ، عدد ١٥٩ فى ٢ يناير ١٨٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٦١ فى ٧ يناير ١٨٧٩ .

وأضحى لتلك الفئة الإدراك الكامل والوعى التام فيقول عمد ومشايخ بنى سويف « من المعلوم أن الدول لا تقوم إلا برجالها ولا يستقيم شئون رجالها إلا بالعدل ، ولقد علمنا من مطالعة الجرائد أحوال البلاد البعيدة ، فلم نر فى أحوال الأمم أسوأ مما نحن فيه من حيث كثرة الضرائب التى لا تعرف لها أول ولا آخر ، مع اضمحلال حالنا وتعطل أرضنا واحتمالنا ما لا يطاق من العسف والجور »[١] ، ويعنى القول الإفصاح عن عدم المقدرة لتنفيذ أوامر الحكومة .

وتبع ذلك أنهم لم يكتفوا بهذا السلاح بل زحفوا إلى القاهرة ، وجاءوا من الوجه القبلى ليعلنوا رفضهم لما وقع عليهم ، وللاحتجاج على استعمال الضغط فى تحصيل الضرائب ، وقد وصف ذلك مراسل التيمز فى ٢٢ يناير ١٨٧٩ « لست مبالغًا إذا قلت إن فى القاهرة الآن مئات المشايخ يمثلون كل منهم قرية من القرى ، لقد جاءوا بمعروضات يسألون فيها تخفيف الضرائب ، وكلهم يعلن أنه لا يمكن بقاؤها على ما هى عليه ، جموع محتشدة أمام أبواب النظارت ، حيث يعترضون النظار فى غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقلام المصالح »[٢] .

وبسؤال وفد عمد ومشايخ ناحية دفنو بالفيوم والذى حضر لنظارة الداخلية عن سبب حضوره كان الجواب للشكوى من مأمور تحصيلات المديرية « الذى أرسل حملة من الخفر نحو الخمسين نفرًا ، وأذن لهم بالهجوم على المنازل وجمع مواشيها والحريمات »[٣] . هذا بالرغم من أنهم جميعًا مؤدون للضرائب ، لكنه كان يريد المزيد . وعن سوء تلك المعاملة أرسلوا العديد من التراجى لرياض لكى يوقفها .

لكن ماذا قدمت حكومة رياض أمام ذلك كله ؟ لم تقدم شيئًا بل زادت الأمر وبالاً ، فامتلأت النفوس التى كانت على استعداد للانضمام لركب مسيرة الثورة لو تفجرت فى ذلك الوقت ، وكانت أحيانًا تقوم بعض الحركات التى تنم عن تفريج بعض الكبت الذى بلغ مداه ، فبينما كان مأمور التحصيلات فى مديرية جرجا يمر بجهات المديرية ، امتنع المشايخ عن دفع الضرائب له ، ، فقبض عليهم وأرسلهم مع عساكر المديرية لينالوا جزاءهم على يد أحد القواسين « وأوقف الأهالى المسيرة قسرًا وخلصوا المشايخ وحبسوا من معهم »[٤] ، لكن ذلك لم يكن أكثر من إجراءات

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٧٠ فى ٢٠ يناير ١٨٧٩ .

(٢) روشتين ، المرجع المذكور ، ص ٨ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٨٣٠ فى ٤ أكتوبر ١٨٧٩ .

(٤) الوقت ، عدد ٧٥٢ فى ٦ ديسمبر ١٨٧٩ .

وقتية سرعان ما تنتهى أمام جبروت المسئولين ، كذلك ضاق العمد بضغط نظار الأقسام عليهم « عبد اللطيف أفندى ناظر قسم برديس بمديرية جرجا يمتلك نحو ألف فدان وله وابور ثابت يزرع عليه قصبًا وسواه ، وأن ما يستلزمه من أنفار ومواشى لتحضير الأطيان ووقود للوابور ورأسمال للقصب طالب به العمد ، فضاق صدرهم وضجروا ولم يجدوا سبيلاً للتخلص » واستمرت مسألة الإهانة والضرب مع رياض ، وأصبح كل شيخ يعاقب بالنيابة عن أهالى مشيخته « فالشيخ عطية رئيس مشيخة برج مغيزل ليس عليه شىء للحكومة بل على الأهلين فى مشيختة بواق قدرها ٤٠ جنيهًا ، فطُلب منه أن يدفع هذا المبلغ دون توقف ، ولم يكن فى استطاعته ذلك ، وألقى على الأرض وأخذوا يجلدونه حتى أغمى عليه ، فرفعوا الضرب ، وريثما أفاق أعادوه وجلدوه ووقع هذا بين محل المحافظة وخفر السواحل ولقاء المحكمة ، وشهد بذلك كثيرون من أهل رشيد »[١] .

وكان مأمورو المراكز يجبرون المشايخ على أعباء مالية إضافية لم تقررها الحكومة ، « فمأمور مركز منوف أجبر المشايخ على دفع ثمن أخشاب لزوم شبابيك للمحلات المقيم بها هو وخدمة المركز بدرك البحر ودفع أجرة النجار »[٢] .

كذلك أجبروا على استخراج أنفار فوق العدد المطلوب ، فقد اشتكى المشايخ لنائب القنصل البريطانى فى الزقازيق بأنهم أرسلوا ست شكاوى بشأن ذلك حيث إن مأمورى المراكز يستغلون الأعداد الزائدة لصالحهم[٣] .

وتعرض العمد والمشايخ للاضطهاد على أيدى الباشوات الأتراك من كبار ملاك الأراضى ، الذين أذاقوهم الذل ، فتأصلت فى نفوسهم تلك الكراهية لذلك العنصر ، فالباشا يعزل من يشاء منهم وخصوصًا عندما يكتشف أن العمدة يعمل لمصلحته على حسابه ، فتصدر إليه الأوامر بمغادرة القرية وعدم العودة إليها . وعند حضور هذا الباشا إلى القرية كان المشايخ يرتعدون من وجوده ، فكم كان الأتراك يقسون عليهم ويستغلونهم لصالحهم ، وتعددت مسائل الغبن عليهم « أخذ مراد باشا حلمى ٨٠٠ فدان وكسور متروك الميرى لم يسبق لها زراعة ، ولما وجدها بهذه الصفة أحضر

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ٩٤٩ فى ٨ أكتوبر ١٨٨٠ ، عدد ٩٢٣ فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٠ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٨ ، ٢٥ ذو القعدة ١٢٩٨ (١٨٨١) .

(٣) Egypt. No. 3 (1880), Inclosure 6, April 16, 1880 .

شيخ الناحية (الكوم الأحمر بمركز سبك منوفية) وألزمه بإيجار الأطيان مدة ثلاث سنوات عن كل سنة ٨٠٠ قرش للفدان وذلك بنوع المجبورية ولما أعرض عنها سجن ولده »[١] .

وأضاف إلى المشكلات وعقدها أن فرض عليهم بعد أن يسددوا الضرائب ، أن يساهموا فى دفع ما هو مقرر على أطيان الذوات ، واضطهدوا من أجل ذلك بل وهددوا بالانتقام من أبنائهم . وجاء قانون المقابلة وزيادة الضرائب العشورية ، ليضيف المزيد من الكراهية للحكومة والقائمين عليها ويسود السخط على التصفية ، وقد ساهم بعض العمد فى تقارير الرفض الموجهة ضد قانونها .

وازداد الحنق على رياض ، حتى أنه عندما ارتفع فيضان ١٨٨٠ وأخذ العمد يعملون على تقوية الجسور ، يذكر لنا الهلباوى فى مذكراته « ولما جاء المهندسون وعمال الإدارة لحماية أرض رياض باشا أشار العمدة عبد اللطيف بك بترك الجسر القديم وعمل جسر جديد ، وبهذا العمل الذى قام على سوء النية غرقت ثلاثون فدانًا من أرض رياض باشا وابتلعها ماء النيل » ويتابع عما أصاب العمدة « فانتهى الأمر بحبسه بناء على شكاوى كاذبة لفقها ضده »[٢] .

وعانت أيضًا هذه الفئة مثلما عانت بقية فئات الشعب من الأجانب وتسلطهم ، وكثرت بينهما المشاحنات والمنازعات التى دائمًا ينتصر فيها جبروت الأجانب وخاصة ملاك الأراضى الذين دائمًا هم المعتدون ، فعلى لسان أحد المشايخ أنه كان جالسًا أمام منزله لتحصيل أموال الميرى فى ١٣ ذو الحجة ١٢٩٧ (ديسمبر ١٨٨٠) إلا ووجد أمامه الخواجة ينى كفدورى ومعه اثنان أحدهم يحمل بلطة والآخر بندقية « ولحد وصوله عندنا وهو راكب حصانه وبيده الكرباج وأمر خدامينه أنهم يحضرونى وبوصولى إليه ضربنى بالكف على وجهى بعد أن مسكنى من دقنى وصار يشتم ، وعندما قلت له يا خواجة نزل علىّ ضرب بالكرباج »[٣] . ولم يفعل هذا الشيخ شىء يستحق ذلك سوى أن ذلك اليونانى كان مالكًا لأراضى فى نفس المنطقة ومستحوذًا على مياه الرى لها ، وأراد أيضًا أن يمتلك الأراضى ومن عليها ، فمضى فى جبروته وتسلطه دون أن يجد رادعًا لأفعاله .

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٧ صفر ١٢٩٩ (١٨٨٢) .

(٢) إبراهيم الهلباوى ، مذكرات ، ص ص ٩ ، ١٠ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٧ ، ١٢ يونيو ١٨٨١ .

ومارس الأجانب الإقراض بالربا الفاحش ليس فقط على الفلاحين وإنما أيضًا على العمد والمشايخ ، وكم من الأطيان المرتهنة فقدت عن هذا الطريق ، وكان السبب فى ذلك الأجانب الذين أوجدوا الفساد فى الريف المصرى كفتح الحانات التى جذبوا إليها تلك الفئة وأخضعوها لعملية استنزاف كاملة ماديًا ومعنويًا .

وهكذا أحيط العمد والمشايخ بجميع الظروف الصعبة التى خلقت منهم فئة مضطهدة تعانى من كل ما يحيط بها ، وتنتظر بفارغ الصبر الوثبة التى تقفز إليها لترتمى فى أحضان « مصر للمصريين » .

البـــدو

رأى محمد على فى البدو قوة يمكنه أن يستغلها لتحقيق البرنامج الذى وضعه ، فأراد لهم الاستقرار ، فمنحهم الأراضى وحولهم إلى حالة الفلاحة وهذا ضمن له اتقاء شر هجماتهم المستمرة ، واستخدمهم كحصن واق لحدود مصر ، فبرز الكثيرون منهم وأصبحوا من أصحاب الأبعاديات ، هذا فى الوقت الذى كانوا فيه يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية وأعمال السخرة ، لذلك فقد اعتبروا أنفسهم على مستوى أعلى من الفلاحين الذين كانوا فى نظرهم مخلوقات أدنى منهم فلهم وحدهم تحمل تلك الأعباء .

وقد تمتع شيوخهم بنفوذ قوى فى تلك المناطق التى أصبحت لهم فيها ملكيات ، حيث كانت الأراضى التى تمنح لهم بأسمائهم وحدهم فى حين يبقى أفراد القبيلة مستأجرين أو أجراء عندهم ، واستطاع بعضهم أن يحصل على وظائف كمفتشين ومديرين مكنتهم من أن يزدادوا نفوذًا ، وكان محمد على صاحب فكرة إدماج البدو مع الفلاحين وكسر ترابط البدو لتدعيم أهدافه ، وقد سار بعض خلفائه على سياسته ، فإبراهيم يعطيهم وعباس يكرمهم . أما سعيد فقد قرب الفلاحين إليه ، وكره البدو حتى لقد استثناهم من كل ما منحه لغيرهم ، وأراد إدخالهم فى الخدمة العسكرية .

كانت نتيجة ذلك قيامهم بالثورة فى الفيوم ، فما كان من سعيد إلا أن أصدر أوامره بإبادتهم ، وقضى على تلك الثورة « بعد أن قتل من العرب ناس كثيرون بالمدافع والبنادق وأخضعهم وجلب كثيرًا من رؤسائهم فى ليمان القلعة السعيدية »(*) .

(*) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ١٩٨ .

وكثيراً ما كان البدو يثيرون الاضطرابات ، فقد شهد حكم إسماعيل بعضها فى جهات بالصعيد إذ اعتدوا على الفلاحين مما اضطر الحكومة إلى « انتزاع ما كان بحوزة شيوخ قبيلة الحوازى من أطيان المنيا »(١) .

وتعرضوا كما تعرضت باقى القوى الاجتماعية لأسوأ الظروف التى مرت بها مصر مع إسماعيل وكانوا ناقمين على سياسة الدولة وغير راضين على التغلغل الأجنبى ، هذا وقد حمَّلتهم الدولة بعض الأعباء ، فكان عليهم أن يقدموا لحرب الحبشة الخيل والبغال ، ولم تصرف لهم استحقاقاتهم ، هذا فى الوقت الذى كانت مصر فيه تحت نيران النظارة الأوربية التى أرادت أن تصرف البدو المطالبين بحقوقهم « فأبى بعضهم وحاول إثارة الشغب فألقى القبض عليهم وسلموا للضابطية »(٢) . وكانوا مشهورين بالشغب والقلاقل ، وقد خُشى من غضبهم الذى أصبح واضحًا ، ويأتى إلغاء قانون المقابلة الذى استفاد منه ملاك الأراضى منهم لارتباطه بحجج الملكية ليثيرهم إلى أقصى درجة ، وخاصة شيوخهم أصحاب الملكيات الواسعة ، فيزداد حنقهم على الحكومة ، وبذلك تتجمع لديهم الأسباب للاشتراك فى الثورة العرابية .

■ ● ■ ● ■

---

(١) رؤوف عباس ، المرجع المذكور ، ص ٩٥ .

(٢) صدى الأهرام ، عدد ٥٩١ فى ٢٥ مارس ١٨٧٩ .



العسكريون والتضامن الثورى ومجابهة القوى المضادة

الفصل الخامس

انطلاق العسكريين والوحدة مع كبار ملاك الأراضى.

الفصل السادس

انتصار الثورة وممارسة العسكريين للسلطة.

الفصل السابع

القوى المضادة.

الفصل الخامس

انطلاق العسكريين والوحدة مع كبار ملاك الأراضى

... العسكريون والزعامة الثورية

كان الجيش هو القلعة الحصينة فى نظر المصريين جميعًا ، فهو القوة التى تحمل السلاح فى وقت كتب عليهم فيه الذل والمسكنة ، فأعطوه الثقة وأعطوه النيابة وأعطوه العمل وأعطوه الوعود بالوقوف بجواره ومشاركته فى كفاحه ، ولم لا وهو يمثل وبحق الإحساس الكامل لهم جميعًا ، فالارتباط قوى ومتين ، فتقول صحيفة الثورة « أن عساكرنا المصرية هم من أهل البلاد ، وعلى الأقل موجود فيهم من كل بلدة ثلاثة أنفار ، الواحد منه لا يخلو من أن يكون بينه وبين سكان بلده صلة الأبوة والبنوة والعمومة والأخوة ونحو ذلك من روابط القرابة أو المجاورة ، فأية علاقة أقوى من هذه »(*) .

أضف إلى ذلك طبيعة تكوين هذا الجيش كانت تعتمد على عنصر الفلاحين ، فالقوات المصرية لم تكن إلا فلاحين تحولوا إلى جنود ، قاسوا قبل أن يجندوا وأيضًا أثناء تجنيدهم من أجل أهلهم وضغط الحكومة عليهم وضرائبها ومحصليها ، ومن الأجانب ورباهم وسيادتهم التى تربعت على عرش مصر .

وقدر لمصر أن يتولى زعامتها عسكريون لم يتخرجوا من المدارس الحربية ، بل رقوا من تحت السلاح لكى يتقدموا الصفوف ويصبحوا قادة الطليعة الثورية أمثال عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى الذين كانوا يتبعون أسماءهم بلفظ مصرى ، بل ودائمًا كل منهم يردد ويؤكد مصريته ، ولم يكن هؤلاء بمفردهم فى هذا الميدان ، فقد وجد غيرهم من المنتمين إلى فلاحى مصر أمثال طلبة عصمت ومحمود فهمى وعلى الروبى وغيرهم .

(*) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

ومع بداية حكم توفيق يتولى النظارة رياض ليكون فيها عثمان رفقى ناظرًا للجهادية ، وهو رسول الشراكسة وإمامهم ، وكأن الله قد أوجده على أرض مصر من أجل الانتقام والغدر بالعسكريين المصريين ، فهو عدوهم الأكبر ، ومن هنا راح يطبق تعليماته غير العادية عليهم .

كان بطبيعته ميالاً إلى جنسه ومتعصبًا إلى أقصى حد ، هذا الجنس الذى قاست منه مصر مرارًا ، فآثر الشراكسة على المصريين فى كل شىء ، ولم يكن الحرمان هو فقط الذى تعرض له العسكريون المصريون ، إنما أيضًا الاحتكار والزراية والحقد الذى صوب اتجاههم ، بالرغم من أنه كان جاهلاً قليل الإدراك والذكاء عديم المواهب قليل النظر فى العواقب ، إذ حرص كل الحرص على أن يبقى المصريين مقيدين مدى العمر وأبد الدهر بسلاسل السلطة الشركسية .

وأرادت نظارة رياض أن تقتلع جذور النضال بطرقها المتعددة وكأنها كانت تدرك وتحس بما يمكن له أن يكون على يد العسكريين الفلاحين فوجهت أولى ضرباتها لهم ، فأعطى رفقى سلطة التصرف ، فما كان منه إلا أن أوقف حركة الترقية لمن هم من تحت السلاح، وتقرر «أن تبقى الخدمة العسكرية مدة أربع سنوات، وهى غير كافية للحصول على الترقى ، ثم يذهب الجندى إلى بلده ويستمر مدة خمس سنوات مع تردده على مركز المديرية شهرين فى كل سنة لمباشرة التعليمات العسكرية، وبعد مضى السنوات الخمس يقيم فى بلده بغير عمل ويسمى حينئذ احتياطيًا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمسح اسمه من دفاتر الجهادية »(*) .

كان معنى ذلك هو حرمان العسكريين المصريين من الوصول إلى أى رتبة وجعلهم أنفارًا تحت التسلط الشركسى ، وبدأ رفقى فى تنفيذ خطته وهى فصل الضباط المصريين بدون تحقيق قانونى ، وشرع فى تصفيتهم على حساب الشراكسة، فأمر بإحالة عبد العال حلمى إلى ديوان الجهادية معاونًا ، وكان يبلغ من العمر أربعين سنة ، وعين مكانه خورشيد بك نعمان وهو من أصل شركسى ويبلغ من العمر خمسًا وستين سنة ، وليست لديه القدرة على تحمل الأعباء العسكرية ، وفصل أحمد

(*) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ص ٨٣ ، ٨٤ .

عبد الغفار قائمقام السوارى ، وكان فى الأربعين من عمره وأقام بدلاً منه ضابطًا شركسيًا « شاكر بك طبوذاده » ، والسبب فى اختيارهما أن رفقى كان يملأ قلبه الكراهية منهما فقد كانا « ينبذان أوامره ولا يعملان بها »(١) .

فى ذلك الوقت كانت الخلية العسكرية كاملة التكوين ، وانخراطها فى التدخل بالأمور السياسية أصبح متوافرًا فى تلك الاجتماعات التى أحيانًا سيطرت عليها صفة السرية ، كما كان للعسكريين دور فى المساهمة فى الاجتماعات التى تعقدها القوى الأخرى غير العسكرية ، حتى أثناء مقابلات المجاملات والتهنئة جرت المناقشات فى الحالة التى وصلت إليها مصر .

كان عرابى يكره من كل قلبه العنصر التركى ، وينظر إلى رؤسائه من الشراكسة « نظرة العدو إلى عدوه ويحتقرهم فى نفسه لاعتقاده أنهم دونه فى المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التى يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وكان أجرأ إخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجج »(٢) . وبمثل هذه الروح التى يصبها عرابى فى أعماق الضباط أمكنه أن يُكوِّن جبهة متعاونة ، ويقول عرابى عن ذلك « بينما أنا أتجرع غصص الظلم وأنقم على الاستبداد ، وأفكر فى أهل بلادى وأرجو الوصول إلى إنقاذهم من حب الاستعباد واستخراجهم منه إلى متسع الحرية وأطيل النظر فى أعمال الحكام واستبدادهم ، اجتمعت مع إخوتى وهم حضرات على بك فهمى وعبد العال بك حلمى أمراء الآلايات وأحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى ومحمد أفندى عبيد وخضر أفندى خضر البكباشية ، وتشاورنا فيما بيننا وتعاهدنا على جمع الكلمة واتحدنا على المطالبة بحقوق الأمة وسن القوانين العادلة »(٣) .

وفى هذه الاجتماعات كثيرًا ما كانت تعرض وتبسط سياسة رياض المستبدة وما جرى للعقاد على يديه ، ومنذ البداية كان بيت عرابى له من الصدارة فى اللقاءات ، وسيصبح أول بيت للأمة حيث توافدت عليه وتواكبت للرد على تصرفات رفقى وعدم إخراجها إلى حيز الوجود . وسيطر الغضب وعم السخط ، فمن سمات الإنسانية كره الظلم والقائمين عليه ، وقد ألهب الموقف إيقاظ عرابى وتشجيعه لهم ، وتمضى القوة لتصبح علاجًا لبتر الظلم والجور .

(١) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٠٦ .

(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ .

رأى العسكريون أن يطالب رؤساء الآلايات الثلاثة « عرابى وفهمى وحلمى » بإسقاط رفقى والمدافعة عن حقوقهم ، وخاصة أولئك الذين لم يتخرجوا من المدارس الحربية . وأقسموا جميعًا على تنفيذ ما يأمر به عرابى بعد أن اختاروه قائدًا لهم « فقالوا له أنت الرئيس علينا ، فقال لهم أنظروا غيرى وأنا أسمع وأطيع وأنصح له جهدى فقالوا ليس نبغى غيرك ولا نثق إلا بك ونحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا »(١) . ومنذ البداية كان واضحًا أن عرابى سيكون القائد ليس فقط للعسكريين وإنما لجميع قوى مصر لما تمثل فيه من الأصالة والذكاء وقوة الشخصية .

وبدأ طريق الثورة بعد ذلك الميثاق الذى أخذه العسكريون على أنفسهم بأن يكونوا يدًا واحدة وقلبًا واحدًا ، أمامهم أهداف يجب أن يحققوها ، جمعت الضباط الذين تعهدوا بالمحافظة على ما أقسموا عليه ، وأُعد التقرير الذى قدمه الضباط الثلاثة إلى رئاسة مجلس النظار فى ١٥ يناير ١٨٨١ ، وجاء صريح العبارة ، له قوة يخشى منها على الحكومة ، ممزوجًا بالجرأة المتناهية والكبرياء الشامخ لحاملى السلاح الذين إذا أتيحت لهم الفرصة هددوا به . وقد ختم على ذلك التقرير حوالى الخمسين يوزباشيًا بالإضافة إلى الضباط الثلاثة ، وفيه يتضح الهجوم القوى على الشراكسة ، ومعارضة النظام القائم المستبد ، وبيان أنهم مازلوا هادئين ، وهذا يعنى أنهم على استعداد للثورة إذا ما استمر الظلم(٢) .

وبوصول هذا التقرير إلى أيدى المسئولين استهزأوا بأقوال هؤلاء الفلاحين ، وبناء على ذلك أجل النظر فى الأمر ، وبيَّن رياض أن ما طُلب خارجًا على حدود القانون فازدادوا حنقًا عليه ، وحاول إقناعهم بسحب التقرير ، لكنه لم يفلح أمام إصرارهم ، فأثناء حديث رياض مع عرابى أراد أن يعرف منه من يريده العسكريون ليدير الحكومة ، فأجابه هل مصر إمرأة لم تنجب إلا ثمانية أبناء ثم ابتليت بالعقم ، وكان يعنيه مع نظَّارة(٣) . وفى ذلك تحد سافر من ضابط تحت السلاح إلى رئيس نظَّار شمل عهده التنكيل بالوطنيين ، فأدار الدفه على العسكريين « فتجرد إلى

---

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ١٠٢ .

(٢) Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 136 .

المقاومةوعمد إلى التهديد ، فبث العيون وشدد فى النكير والضباط لا ينفكون عن التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس »[١] .

لقد كان هناك تصميم وقسم فلابد من مقابلة القوة بالقوة ، هذا فى الوقت الذى رأى رياض إجراء حركة تنقلات بين ضباط الجيش الناقمين ، بينما رأى النظّار جميعهم - حيث سرت فيهم الروح الشركسية - ضرورة محاكمة هؤلاء الثوار أمام مجلس عسكرى ، وتعهد رفقى بتحمل المسئولية ودبر الحيلة لتحقيق الرغبة ، وقرر المجلس تشكيل محكمة وذلك « لمحاكمة من انضم إليهم من الأهلين »[٢] . معنى هذا أنه كانت هناك عناصر أخرى مؤيدة لإتجاهات العسكريين ، وعلى يد الضباط الشراكسة تكونت المحكمة ، وصدر الحكم على أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى بتجريدهم من رتبهم ووظائفهم العسكرية وإبعادهم عن مصر وتسليم مناصبهم لضباط شراكسة[٣] . وتم اعتقالهم بقصر النيل فى أول فبراير ١٨٨١ ، وكان الضباط قد أتموا للأمر عدته عندما شعروا بسوء النية التى كانت دائمًا سمة العلاقة بين الحكومة والرعية . وبُدىء فى تنفيذ الخطة وجاءت الإنطلاقة العسكرية التى انتهت بالانتصار ، وحضر البكباش محمد عبيد وتحت إمرته القوة اللازمة ، جميعهم من تحت السلاح ، مستعدون للحرب والإطاحة بالظلم، وأحاطوا بالشراكسة وسجنوا بعضهم وكانوا من أعلى الرتب ، ولم يستطع أحد أن ينطق أمام هذا الزحف من الجنود الثائرين ، واختفى المجلس العسكرى فى الحال وراح كل منهم يبحث عن نجاته[٤] . وخرج القائمون بالحركة من السجن معهم هذا الانتصار مصحوبين بالآلايات إلى سراى عابدين وكلهم اعتزاز ونشوة بما تم على أيديهم وعبر عن نفسيتهم بعد هذا الكبت الذى عانوا منه سنوات وسنوات .

لم يكن العسكريون فقط هم الزاحفين إلى عابدين بل تبعهم العامة فى ضجة عميقة ، فرحين مستبشرين بذلك الانتصار الذى أحرزه المصريون على الذين سلبوهم كل شىء ، وازدحمت عابدين عن آخرها وأصبحت منذ ذلك الوقت ساحة

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٣ .

(٤) Haus Hol - u - Staat, Sarchiv wien, Polit. Arch, No. 15, 3 . Fevrier, 1881, p. I .

للنضال الوطنى ، فقد أتى الناس جميعهم من كل فج عميق . ويقول أحد شهود العيان عن هذا اللقاء « كانت ساحة عابدين إذ ذاك مزدحمة بالجماهير ازدحامًا عظيمًا كأنه كان يومًا معدودًا ، وكان ذلك فى القاهرة يومًا منشودًا »[١] .

إذن لم تكن المسألة خاصة بالعسكريين وإنما هى بشعب مصر جميعه الذى جاء ليدلى بصوته ويسلم أمره إلى هذا الجيش المنتصر ، وفى وسط هذا الزحام قام عرابى ليمارس منذ اللحظة الأولى قيادته الشعبية وتكلم بأعلى صوته وشكر وأثنى على ذلك الموقف البطولى الذى قام به العسكريون ، فزادهم هذا اطمئنانًا ، وساعدهم الانتصار على المضى للمزيد من القوة ، وتقدم عرابى ليخاطب حاكم مصر توفيق ويملى عليه إرادة العسكريين ويتحداه مهددًا بضرورة « خلع رفقى واستبداله بغيره ، فإنهم لا يبرحون إلا بنول بغيتهم »[٢] ، وإن كان قد طلب منه العفو عما حدث ، فإنه تمويهًا للموقف ، وتغطيته بإطار خفيف من الدبلوماسية .

كانت مظاهرة حقيقية فرضت نفسها بقوة السلاح وبقوة الإرادة وبقوة العزيمة وفوق ذلك كلة السيف والمصحف ، وهنا ظهر عرابى على حقيقته ، وفجر كبته ومشاعره ، وتقدم الصفوف وعرض المطالب ، وبدأ يصول ويجول ولا يخاف أحدًا ، ويعد فبراير هذا هو بداية ميلاد عرابى وميلاد الثورة .

وغدا من الصعب الوقوف فى وجه طلبات العسكريين ، بعد أن أصبحت الحكومة غير قادرة على حماية نظارها أمام قوتهم وأيضًا عاجزة عن الحد من أوامرهم الثائرة ، وذهب الأمر إلى أن فوض العسكريون فى شأن من يريدونه ناظرًا عليهم يقول عرابى : « فقال خيرى باشا إن الخديوى فوض لكم اختيار الناظر حتى لا تشكون منه فيما بعد ، فقلنا له إنا نرضى بتعيين محمد سامى باشا ناظرًا للجهادية »[٣] . وانحنى الجميع أمام ذلك العرض العسكرى ورضخوا للأمر ، وسقط رفقى ليتولى البارودى زمام العسكريين ، وقد جاء بحد السيف لتهدأ الأحوال ويعم النظام وتعود القوات إلى معسكراتها آمنة مطمئنة .

---

(١) إلياس زاخورة ، المرجع المذكور ، ص ص ، ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ٨٦ .
(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

كان البارودى هو الذى أفشى للعسكريين سر اعتقالهم فى قصر النيل ونقل لهم تلك المؤامرة التى تحاك ضدهم حيث كان ناظرًا للأوقاف مجتمعًا مع بقية النظار أثناء التخطيط للقضاء على المعارضة العسكرية[1] .

لم يكن مصريًا وإنما حفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف فى عصر محمد على ، فهو بدمائه بعيد عن دماء الفلاحين لكنه بروحه معهم ، فنشاطه ملحوظ مع الحزب الوطنى ، وهواه مع الأحرار واضح ، فقد آمن بعدالة مطالبهم ، لذا انضم إليهم ، وبالرغم من أصله فإنه ضاق بهؤلاء الشراكسة وطباعهم المستعلية على المصريين ، وحكمه صادق عليهم ، فهو فى مكانة رسمية أمكنه منها أن يعيش الواقع الذى يجرى فى ميدان الحكم ، وكان نزّاعًا للديمقراطية ، ويؤمن بأهمية دور المثقفين الذين هو منهم ، إذ تشبع بأفكار الطهطاوى والمرصفى والأفغانى ، وقدم الكثير من ثروته ولم يبخل على الثورة .

انزعجت السياسة البريطانية أمام ذلك ، وأرسل ماليت إلى وزير خارجيته ليترجم الخوف مما تم . وأنه يمكن بمثل هذه الإجراءات ، وعن طريق القوة العسكرية إقالة النظارة جميعها بل والمراقبة أيضًا ، ومن ثم يتمكن العسكريون من السيطرة على شئون مصر جميعها[2] ، وقد كانت مخاوفه كما تصورها إذ تم ذلك بعد حين .

لكن ماذا عن دور قنصل فرنسا فى ذلك ؟ منذ البداية رأى العسكريون ضرورة إضفاء الشرعية على مطالبهم ، فى الوقت الذى كانوا يلتمسون فيه مساعدة قوة خارجية يمكن لها أن تقف بجوارهم لتحقيق تلك المطالب . لذا نرى أنه عقب كتابة تقريرهم وتقديمه للحكومة يرسلون نسخة منه إلى البارون دى رنج قنصل فرنسا فى مصر ، وذلك لإبلاغه للوكلاء السياسيين وبيان أن مطالبهم تنحصر فى العدالة والخلاص من سلطة الشراكسة الاستبدادية الظالمة . وجاء الرد من دى رنج لعرابى يمدحه على ثبات عزيمته ويشجعه على سلوك هذا المنهج مع عدم المبالاة بالحكومة[3] .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/أ .

(٢) Malet , op. cit., p. 101 .

(٣) Broadly . The Trial and Pardon of Arabi Pasha , Vol II .

كان ذلك ثورية متناهية من القنصل ، وشعر العسكريون بها قبل انطلاقهم ، فوضعوا الأمل فيه لإسقاط رفقى وتعيين آخر ، فقد أحس دى رنج بما فى قلب الأمة المصرية من جراح ، وأيقن أن عرابى هو رأس هذه الأمة ، واعتبر توفيق نكرة ولا وزن له ، بينما مثل رياض أمامه المصالح الإنجليزية ، وكان كذلك فالارتباط قوى بين الطرفين ، وهنا اجتمع الصديقان على العدو المشترك ، وأجمع المؤرخون على تلك الصلة الوثيقة التى تأصلت بين الثوار وذلك الفرنسى بعد أن لمسوا أنه سيكون حاميًا لهم أمام أعدائهم ، وكان دى رنج يعمل على توطيد النفوذ الفرنسى ، فرأى أن يدعم الجبهة التحررية من أجل الوصول إلى ما ترضاه ، فكتب لحكومته ، لكنه طمس بعض الحقائق ، حيث قال إن العسكريين طلبوا منه أن يتقدم باحتجاج بالطريقة الدبلوماسية للتخلص من رفقى وأتباعه ، وأنه رفض وإن كل ما فعله باتحاده مع ماليت أن قدم النصح لتوفيق بإقالة رفقى ، كما أضاف أن هذه الحركة موجهة ضد الأوربيين ، وزعزعت مركز رياض الذى أصبح مهددًا بالانهيار[1] . ولكن كانت جميع الأحداث تشير بموقفه المؤيد للثوار ، وقد أرسل توفيق أحد مندوبيه لوزارة الخارجية الفرنسية ، فأدهشه ما سمعه من الموظفين عن أسباب مساعدة دى رنج للحركة ، إذ اعتقدوا أن عرابيا وزملاءه يسعون فى تحرير مصر وإيجاد حكومة أساسها الحرية والإخاء والمساواة ، كذلك لم يخف مسيو جبريل شارم المحرر بصحيفة الديبا اتصال دى رنج بالزعماء قبل وبعد قيامهم ضد الحكومة « فكان يستقبلهم أحسن استقبال وكانوا يستشيرونه فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكومة المصرية فى المستقبل ، ولم يضن عليهم بآرائه لأنه كان يعتبرهم من الوطنيين الحقيقيين »[2] .

من هذا يتبين أن المسألة لم تكن ثورة عسكرية فحسب وإنما هى بداية للتعبير عن شكل الحكم الجديد ، وفرنسا أمام الجميع هى قبلة الحرية ومنها خرجت الثورة الفرنسية التى وصلت إشعاعاتها إلى الغرب والشرق ، وتتبع النظام الجمهورى الذى كانت تتوق إليه مصر .

---

(١) Documents Diplomatique Francaise, Tom III, No. 35, 1 Fev . 1881 .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ص ١١٥ ، ١١٦ .

ومضى دى رنج يستقبل المترددين عليه من الثوار ، وكان البارودى على وفاق معه ينقل إليه جميع تحركاتهم وأخبارهم ، وعندما طلب من القنصل الفرنسى الإدلاء بمعلومات عن تلك الاجتماعات رفض حتى ذكر الأسماء ، واستمر فى مساعدة وتأييد الثوار بكل قواه ، فشكل ذلك خطورة كبيرة على الهيئة الحاكمة وكان لابد من وقفة ، وخصوصًا أن رياضًا يهمه القضاء نهائيًا على تلك الصلات ، فسعى فى الأمر ، وكانت له اليد الطولى فى جعل توفيق يكتب إلى رئيس جمهورية فرنسا فى ١٤ فبراير ١٨٨١ يشكو دى رنج ويتهمه بأنه يخلق الصعوبات أمام حكمه لمصر وضرورة وجوب سحبه منها(*) .

ولما كانت فرنسا حريصة على استمرار العلاقات الفرنسية الإنجليزية ، وصلت تعليماتها إلى قنصلها فى مصر تطالب بالمساواة التامة فى المصالح الخاصة بالدولتين وضرورة تأكيد الوحدة بينهما من أجل العمل المشترك ، ولما كان موقف دى رنج قد ساء لندن لذا رأت فرنسا إتمامًا لسياسة التعاون استدعاءه على أول باخرة ، هذا فى الوقت الذى مالت فيه مع بريطانيا على ضرورة المحافظة على عرش توفيق الذى كان طوع بنانهما ، وهى تعلم كيف يمكن أن تصل ثورات الشعوب للقضاء على مصالح الدول المستغلة ، وفرنسا لها سياستها الاستعمارية التى وضحت فى الجزائر وتونس .

ورحل دى رنج عن مصر لكى توقف الثورة ، ولكنها ازدادت ، بعد أن بلغ عرابى من الشهرة والصيت المدى ليس فقط بين العسكريين أو فى الشرقية بل أصبح على لسان مصر كلها ، فكانت الوفود تأتى إليه لتطلعه على شكاياها ، وساعده على ذلك تلك الشخصية القوية التى أثرت فى الجميع .

وهكذا انفتح طريق الثورة بسلام وبتحقيق الرغبات وبدون إراقة دماء كعادة جميع الثورات ، لكن كان من الضرورى المزيد من المجهودات حتى يتم الحصول على ما تريده مصر جميعها لا أن يكون البارودى ناظرًا فحسب ، لذا كانت الفترة ما بين قصر النيل وعابدين متعددة النشاطات والاتجاهات التى تمركزت فى النهاية على إعطاء العسكريين القيادة فى فرض مطالب الأمة وتحقيقها .

(*) Doc. Dip. F. No. 374, 14 Fev. 1881 .

وبتولى البارودى أمر العسكرية ، أعد برنامجًا شاملاً ومتكاملاً لإصلاح حال العسكريين ، فهو المثقف صاحب العقلية المستنيرة والنشاط والطموح ، ولم يكن يقل ثورية عن باقى العسكريين ، وكانت أولى خطواته الحد من سلطة رياض وتوفيق على العسكريين ، وضمن لهم الترقية بدون تفرقة بين الذين تخرجوا من المدارس الحربية أو من تحت السلاح .

وتم تشكيل لجنة فى ٢٠ أبريل ١٨٨١ للبحث فى الأنظمة والقوانين العسكرية ، وإجراء ما يلزم من التعديلات ، وترتيب المدارس الحربية ، والقبول فى سلك الضباط وترقيتهم واستيداعهم وفصلهم ، وأن تكون قرارات تلك اللجنة بأغلبية الأصوات ، وكان البارودى رئيسها وعرابى عضوًا فيها . وفى نفس ذلك التاريخ رفعت مرتبات العسكريين بناء على عرائض كتب صورها عرابى ، وأرسلها إلى جميع الآلايات ليوقعوا عليها .

وضعفت سلطة المراقبين أمام إصرار البارودى على تنفيذ قوانينه العسكرية ، فقد اعتبر دى بلنيير أن السبب فى ذلك الإصرار هو « أن يتحصلوا على رضاهم » ، أى رضا العسكريين ، بينما رأى كولفن « أن الحكومة قد سلمت لغاية الآن بزيادة عن اللزوم فى طلبات الضباط ، ولا يمكن كذا التسليم فى كل طلب بدون التأمل » ، ولكن البارودى أخافهما وأفهمهما أن « الهيجان موجود فى الأفكار بين الضباط »(*) .

وبذلك أنصفت النظارة وناظرها العسكريين الذين كانوا موفقين فى اختيارهم للبارودى إذ أعطاهم كل ما كانوا يتوقون إليه من قبل ذلك ، وهذا جعلهم مدفوعين بالعمل من أجل مصر ، بعد أن شعروا بلذة الانتصار ونوال الحقوق ، وأصبح هناك شبه جهاز سرى بينهم لنقل المراسلات السرية التى كانوا يتبادلونها ، وكثرت الاجتماعات بينهم وكان أغلبها فى بيت عرابى .

وبدأت الأمور تتقدم وبسرعة ، وراح البارودى يحادث رياض فى مسألة زيادة أعداد الجيش وإبطال الأشغال العامة التى أثقلت كاهله ، وبدأت سحب الحياة النيابية تتكثف فوق سماء العسكريين التى تناولوها فى اجتماعاتهم بعد أن أصبحوا وحدة متكاملة .

(*) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥ / و ، محضر ١٢ ، ١٣ أبريل ١٨٨١ .

وكان لمعاهدة الحماية التى وقعت بين فرنسا وتونس أكبر الأثر السيئ فى الشعور المصرى ، وزادت الصحافة من نيران ذلك الموقف لكى تجنى سخط الشعب وثورته ضد السيادة الأوربية ، وساد الاعتقاد أنه لا محال من سقوط مصر فى أيدى بريطانيا لكى يصبح الميزان عادلاً .

ورأى العسكريون دفعًا لذلك ضرورة الاستعداد للدفاع عن طريق زيادة الجيش إلى ١٨ ألفًا وفقًا لفرمان تولية توفيق ، وبناء الحصون الجديدة على حدود مصر ، وتحصين المدن ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ضرورة تغيير سياسة الحكومة بإيجاد مجلس نواب تكون النظارة مسئولة أمامه ، وله الحق فى التصويب على الميزانية . ولم يكن ذلك اتجاه العسكريين فقط بل أقرتهم فيه عناصر الأمة ، ويؤكد ذلك القنصل الفرنسى لوزير خارجيته بقوله « إن هذه الأفكار بدأت تكبر حتى بين العناصر المدنية وتشكل خطورة كبيرة »[١] .

وضاق توفيق بنشاط العسكريين ، ويأتى التعاون بينه وبين رياض من أجل إسقاط السلطة العسكرية ، وذلك عن طريق خلق مناوئين من الرتب الصغرى للثورة على القادة ، وقد أحصى عرابى تلك الدسائس فأوصلها إلى ثلاث عشرة دسيسة ، لكنها فشلت جميعها وتم اكتشافها والقضاء على مسببيها[٢] .

ومضت السياسة المعاكسة للعسكريين ، فيتم الرفض للعمل فى الأشغال العامة، ويهدد عرابى بتنفيذ بقية القوانين العسكرية التى لم تصدر بعد ، ويبلغ بالجنود الجراة فى مواجهتهم لتوفيق عقب حادثة مقتل أحدهم تحت عجلات عربة يقودها سائق أجنبى ، وتجمعت سحب التبرم لدى الخديو فأصدر حكمه على الذين تجرءوا وحملوا جثة زميلهم إلى قصره ، فاعترض قائدهم وكان عبد العال حلمى ، وانتقد الحكم وطلب إعادة النظر فيه ورفع البارودى طلبه إلى توفيق[٣] .

وأراد رياض أن يرغم البارودى على إبعاد عرابى وعبد العال حلمى وفرقتيهما من القاهرة ، الأول إلى الإسكندرية والثانى إلى دمياط حتى يضع حدًا لهذا التكتل ، وكان ذلك بموافقة توفيق الذى امتلأ غيرة من شهرة عرابى وشعبيته التى نمت

(١) Doc. Dip. F. Tom IV, No. 28, 30 Mai, 1881 .
(٢) Archives de maison, de cour, et d'etat, Vienne, Inclosure 2 in no . 2, Sept. 9, 1881 .
(٣) Doc. Dip.F. Tom IV, No. 94, Aout, 1881 .

سريعًا وانتشرت ، ورفض البارودى وأصر على امتلاك السلطات وعدم السماح لرياض أو لغيره بالتدخل فيها ، وألح فى زيادة عدد الجيش[1] ، وبذلك تجمعت العوامل التى أدت إسقاط توفيق للبارودى وخصوصًا بعد أن أيقن الجميع ذلك النشاط الواسع للعسكريين فى مسألة الدستور ، ويقر رياض فى شهادة له بأنه « لما ضاق الحال بالحضرة الخديوية وصمم على عزله ، وقال علنًا أمامنا جميعًا ما بقى عندى أدنى أمنية فيه ولا صبر على بقائه فى النظارة ، فقلت لسعادة الخديوى الأعظم هذا هو الحق »[2] .

وأحيل منصب البارودى على داود يكن الشركسى ، وهو صهر توفيق وعزل أحمد الدره ملى من ضبطية القاهرة وكان من الثوريين ، وعين بدلاً منه عبد القادر باشا ليكونا ثنائيًا من أجل عرقلة العسكريين وشل حركتهم ، وأمر البارودى بألا يبرح قريته بعد أن حددت إقامته فيها بهدف إبعاده عن العناصر الثورية ، وقطع الصلة بينهما ، ولكن ذلك أدى إلى نتيجة عكسية .

وانتشرت الجاسوسية وأطلقت شباكها على العسكريين ، فتعقبتهم ، وصدرت القرارات والنشرات التى تنهى عن الاجتماعات وعدم ترك الآلايات ليلاً أو نهارًا ، وطبق قانون التجمهر وأعلنت الأحكام العرفية ، وحذر تناول السياسة ، ومن تجرأ واقترف ما يخالف كان مصيره السجن ، وقد وصل الأمر أن داود يكن كان يذهب بنفسه ليلاً إلى مراكز الآلايات ليتحقق من تنفيذ أوامره .

وكره العسكريون الناظر الجديد ، وقد كان ذلك أمرًا طبيعيًا فهو شركسى أصيل ، ومنذ البداية والحرب قائمة ضد هذا العنصر ، ثم إنه كان يتمتع بجهل كبير خصوصًا لجيشه بعد ذلك المثقف المستنير ، هذا بالإضافة إلى كبريائه وكرهه للمصريين .

ومضى الناظر الجديد فى التخطيط والتنفيذ لتفريق الفرق الموالية المقادة العسكريين من العاصمة واستبدالها بفرق أخرى موالية للخديو ، فأصدر أمره بنقل الآلاى الثالث من المشاة ، آلاى القلعة الذى كان يرأسه إبراهيم حيدر إلى الإسكندرية

(١) The Times, August 12, 1881 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ٢٠٩ .

بدلاً من آلاى الإسكندرية الآلاى الخامس الذى يحل محله ، ورفض الضباط الثوريون تنفيذ الأمر[١] ، فكان هذا تحديًا صارخًا .

وعلى الفور جمع عرابى ضباط الجند بالقاهرة وطره والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى ، وقام فيهم خطيبًا وأراد أن يعبئ الشعور القومى فشكا من أعمال الناظر وركز على الاتحاد والتعاون ، واستحلفهم على السيف والمصحف بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء[٢] .

وعقب ذلك تأكدت الأمور بأنه لابد من الإطاحة بالنظام القائم جميعه المتمثل فى حكومة رياض الجائرة ، وإسقاط رئيسها والمتحكمين معه فى مصائر الأمة ، وأيضًا ضمانًا لسلامتهم حيث رأوا إنهم إذا أبعدوا عن مصر وتفرقوا ، سهل على رياض أن يضربهم فرادى كعادته فى البطش بالوطنيين بعد إلصاق تهمة العصيان بهم ، لذا رأوا ألا يتفرقوا وليس هذا فقط بل أن يقضوا على من يريد ذلك ، ويؤسسوا لمصر حياة جديدة قائمة على العدل والحرية والمساواة ، ولن يتحقق المطلوب إلا بالحكم النيابى ، وهذا ما سوف يُسعى إليه فى الخطوة التالية .

الالتحام بين كبار ملاك الأراضى والعسكريين وأصداؤه

اعتبر كبار ملاك الأراضى الممثلون للأرستقراطية الزراعية فى تلك الوثبة التى قام بها العسكريون بداية لتحريكهم ضد النظام القائم ، وخصوصًا بعد أن لمسوا ذلك النجاح الذى حققه هؤلاء ، فرأوا أن يماثلوهم فى الحصول على السلطان بعد أن فقدوه . وما كانوا يعانونه من التسلط الاستبدادى لسياسة رياض التى أطاحت بالمكاسب التى أحرزوها على مرور الأوقات ، ومن هنا كانت حتمية اللقاء الذى أوجدته الظروف التى تمر بها مصر ، ضعف حاكم وظلم حكومة ونفوذ أجانب ، فلا مفر من التعانق ولابد من السير فى اتجاه تيار واحد حتى الوصول إلى الأهداف المرجوة لكل قوة اشتركت فى ذلك الاتحاد ، بالرغم من اختلاف الأهداف ، لكن

---

(١) البرقيات الواردة من استانبول والصادرة إليها أثناء الثورة العرابية ، دفتر ٢٨٧ عابدين ، من خديوى مصر إلى الباب العالى فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٤٣ .

مادام الطريق ينتهى إلى تحقيق الأغراض المشتركة والخاصة فلابد من مواصلة المسيرة .

كانت هناك تلك الطبقة المثقفة التركية وهى من كبار الملاك والتى مثلها الباشوات أمثال شريف وراغب وعمر لطفى وإسماعيل سرى ، وجميعهم أعضاء بالحزب الوطنى ، ذلك الحزب الذى ازداد سطوة ونفوذًا . ولشريف مواقف يعتز بها قبل الثورة ، ونستطيع أن ندرك تمام الإدراك ذلك الاختلاف الكلى والجزئى بين شريف ورياض ، فقد وصل الأمر إلى أن رياضًا أصبحت تصرفاته غير قابلة للمناقشة ، وهو دائمًا يجاب إلى كل ما يطلبه ، وكان هؤلاء الملاك يعلمون تمام العلم أن جميع الأمور المهمة يناقشها رياض ويقررها ، فلم يكن لتوفيق الحق فى البت فى أى أمر دون استشارته وهو المنفذ لرغبات المراقبين ، وبذلك كانت سلطة الخديوى معدومة ، لذا أراد ملاك الأراضى الإطاحة برياض لتعود لهم مكانتهم المفقودة ، خاصة بعد أن لمسوا أنه لن تكون هناك معارضة من توفيق الذى سلبه رياض كل شىء .

انحصرت الفكرة الدستورية فى عقول هؤلاء فى تخليص السلطة من المسيطرين عليها ووضعها فى أيدى الأوليجاركية التركية الشركسية ، إذ أنهم اعتبروا هذه الطبقة هى الوحيدة القادرة على حكم مصر ، وقد انضم إليهم فى التمرد على الأوضاع ، الموظفون الذين تربوا فى نفس المدرسة الفكرية ، فأصبحوا ثائرين يريدون تغيير النظام القائم . ورأى هذا الاتجاه ضرورة وجود قوة تسانده فى مطالبه وتساعده لتحقيق آماله ، ومن هنا كان السعى لضم العسكريين ، بالرغم من التناقض بين الطرفين . فيقول بلنت عن شريف : « إنه كان تركيًا أوربيًا على أخلاق عالية ولكنه لم يخل من الغطرسة واحتقار الفلاحين اللذين كانا من مميزات طبقته فى مصر »(*) .

لكنه أمام الرغبة فى الوصول إلى ما يتمناه فى أن يصبح رئيسًا للنظار ويمتلك السلطة ، راح يعطى الوعود بأنه إذا استلم أمر الحكومة ، فأول شىء سيقوم به على الفور تنفيذ برنامج الحزب الوطنى . وكان لابد من العمل بمختلف الطرق لاستقطاب

(*) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 196 .

تلك القوة النابضة بالنشاط والتى فى مقدرتها أن تنهى حكم رياض وخاصة أن العسكريين أصبحوا على لسان أهل مصر وعلى رأسهم عرابى الذى التجأ إليه المضطهدون ولقبه الجميع بزعيم الأمة .

وهكذا عندما شعر الملاك الأرستقراطيون بهذه الحركة الوطنية المتدفقة ، رأوا الاندماج فيها لا تعاونًا من أجل مصر ، وإنما لمصلحتهم ، فهؤلاء الباشوات لم يكونوا يهتمون بحقوق الفلاحين المصريين الذين كان عرابى منهم ، فقد أذلوهم واستعبدوهم زمنًا طويلاً ، لكنهم وجدوا فيهم المطية التى توصلهم إلى ما يريدونه .

وبدأ التنظيم من أجل التنفيذ بعد أن صرح شريف بأن الوقت قد حان للحصول على الحريات ، وكان لابد من الاتصال بعرابى ، وجاء سلطان ليكون الواسطة والصلة بين الطرفين .

وسلطان من كبار ملاك الأراضى ، وأحد الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى ، وقد صب اهتمامه على الثروة ، وساءه مع شاكلته من المصريين تصرفات رياض واسترضاؤه للأجانب على حساب العناصر المصرية ، وتحميله لطبقة الملاك تلك الالتزامات المالية ، فأخذ سلطان ممثلاً فى اتجاه طبقته يتطلع إلى التغيير بالقضاء على رياض ، وكانت له سمعة طيبة ترددت فى أرجاء مصر ، فهو دائمًا يعمل على نشر صيحة « مصر للمصريين » وله من السلطان والقوة والشهرة والصيت والمكانة والأصالة ترجعه لأصوله المصرية البدوية ما يجعله يختلف عن شريف صاحب الأصول التركية ، فمن أجل ذلك تأصل الحب بينه وبين القادة العسكريين الذين كانوا يريدون من يدعم موقفهم ويساندهم فى مطالب الأمة ، ولكن يجب أن نشير إلى أنه فى ذلك الوقت المبكر كان لسلطان طموح وأمل يصبو إليه ، فالمطامع الذاتية والمآرب الشخصية والتطلع للمعالى والبحث عن السلطة سيطرت عليه للاستحواذ على منصب فى حكومة جديدة يزيده عظمة على عظمته ، حيث لم تكن تغنيه أمواله وثروته وأملاكه ، وكان ذلك هو الدافع الذى أخرجه من الثورة فيما بعد ليرتمى فى أحضان أعدائها .

لهذا كان السعى لضم قوة العسكريين الذين رأوا أنه لا خلاص لمصر إلا بمجلس نيابى « يكون الواسطة العظمى بين الأمة والحكومة ، فتحفظ الأرواح الطاهرة والأعراض الكريمة والأموال العزيزة من العبث بها »[١] .

وفى منزل سلطان دارت الاجتماعات التى كان يحضرها القادة العسكريون ، عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى والبارودى ومحمود فهمى كذلك ضمت سليمان أباظة مدير الشرقية وحسن الشريعى مدير المنيا ، وغيرهم من الوطنيين ، جميعهم متحالفون من أجل عمل موحد لمصر .

ونظر عرابى إلى سلطان نظرة خاصة ، فقد كانت مكانته لديه عالية لما له من سلطة وأصالة تميزه ، فرأى فيه أن يمده بالمعونة قولاً وعملاً فى ضم عناصر الأمة لمطالب الثوار ، ومن هنا تقرب عرابى إليه ، هذا فى الوقت الذى تقرب فيه سلطان من العسكريين بعد أن أيقن أن مطالبهم لم تعد مطالب عسكرية بل هى خاصة بالأمة كلها ، وأنه من الممكن أن تتحقق عن طريق القوة والسلاح ، لذا فكان لابد من التفاهم معهم للحصول على ما كان يرنو إليه من مكاسب ، ومد سلطان يده ليصافح ويوقع عقد الاتفاق الخاص بطلب مجلس نواب . وقد كان ذلك نفس طلب العسكريين الذى انتشر بين الأعيان والعلماء على صعيد مصر . وعليه أصبح التعاون وثيقًا بين كبار ملاك الأراضى بفرعيهما الأتراك والمصريين وبين العسكريين واتفقوا فيما بينهم على أنه متى حانت الفرصة الملائمة ، يلقى عرابى نفوذ الجيش وثقله وتأثيره لحمل الخديو على الموافقة على طلب الدستور .

وفى خطاب من عرابى إلى برودلى عن ذلك الالتحام الذى تم بين البورجوازيين والعسكريين يقول « أما سلطان باشا فهو الذى كان يجتمع عنده الضباط سرًا قبل حادثة عابدين لتدبير طريقه فى عزل رياض ، وكان يتكلم فى المجالس بأفكارهم ويردد بلسان طلق أن مصر يمكنها أن تعد ثلاثمائة ألف عسكرى تحت السلاح وقت الحاجة ، ويجادل فى ذلك مع نظار رياض ، وكان يساعد أفكار الضباط بكل قوته ، وهو الذى دعا بعض الأمراء ليتحدوا معه فى طلب تشكيل مجلس نواب من الخديو وفقًا لرغبة الضباط »[٢] .

---

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ١٠٢ .

(٢) Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha , Vol. II .

وواضح أن سلطان أصبح يهدد بقوة الجيش ، وكانت اتصالاته على أعلى المستويات لنشر أفكار الثورة وهذا هو ما يسعى إليه العسكريون ، فعمل بكل قواه وثقله فى المجتمع لخدمة هذا الميدان وأضحى كل شىء مجندًا من أجل تحقيق الغرض الأساسى الذى قامت به الثورة .

ولم يكن سلطان وحده على أرض تلك الحركة ، فهناك سليمان أباظة وله دوره فى عملية اللقاء بين الجناحين ، وشارك الأعيان بنفس الأفكار فى الثورة ، حيث أرادوا أن ما يخلصهم من الذل الواقع عليهم فى نظرهم هو الاعتماد على العسكريين.

وكان لكبار الملاك تلك الصلات مع أعيان البلاد وعمد ومشايخ القرى ، ودارت المنشورات الثورية السرية ووزعت ، وذلك بعد أن أيقنوا أن الأمل البعيد الذى كانوا يحلمون به قد تحقق بإقامة حكومة دستورية ، وبالقضاء على احتكار رياض واستبداده . ولم يمض إلا القليل حتى أصبحت قوى مصر كلها وراء برنامج موحد جندت له كل الإمكانات .

عرابى نائبًا عن الأمة

كان التيار الذى تزعمه كل من شريف وسلطان يختلف كل الاختلاف عن التيار العسكرى ، وذلك فى طبيعة التكوين ، وفى الفكر ، وفى طريقة التنفيذ ، وفى الأبعاد، وفى المصالح ، وهذا ما كان له أثره بعد أن نالت طبقة كبار الملاك مآربها ، فالعسكريون وعلى رأسهم عرابى مؤمنون بالدستور والنظام النيابى ، لهذا فقد رأوا ضرورة تشكيل مجلس نواب من الأمة لعرض جميع اللوائح والقوانين عليه لتحفظ حقوق المصريين ، وأن يعطى لأعضاء المجلس الحرية التامة فى المداولة ، وأن يكون انتخابهم حرًا(*) .

وأيقن عرابى أن الثورة هى الطريق الوحيد للحصول على الدستور كما يشتهيه المصريون ، وأن ذلك سيتبعه خطوة أخرى هى التخلص من الحكم التركى الذى أساء لهم وأذرى بهم واستهان بحقوقهم ووضعهم فى منزلة تشبه منزلة العبيد .

(*) Ibid .

وبما أنه لم يكن هناك من يفرض حكم القانون ضد الاستبداد والأهواء إلا قوة الجيش ، لذا أراد عرابى النزول به إلى الميدان لتحقيق الآمال ، بعد أن تأكد من تأييد كبار الملاك وثقلهم الاقتصادى والأدبى ، ولم يكن هذا التأييد نابعًا من الطبقة العليا فقط بل دونها أيضًا ، حيث سيطر القلق والظلم والطغيان الذى كان من نتائج سياسة رياض ، هذا وقد كانت للصحافة دورها منذ فترة ، إذ أدخلت فى أذهان المصريين تلك المعانى للدستور ، وفصل السلطات ، وأنظمة الحكم وأنواعها ، فلم يكن غريبًا فى ذلك الوقت أن تدور على الألسنة وتتداول ، وأن يلقى عرابى ذلك التأييد والتشجيع لقيادة الثورة ، واستمرت صحافة النقد والهجوم التى كانت فى أيدى الناس - رغم تشددات رياض - تعطى دفعة القيادة للعسكريين ، وهنا وضع عرابى ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة . ولم يعد الأمر سرًا بعد أن جهر به عرابى علنًا ، فعقد الاجتماعات « وقام فيها بخطب لو وجهت للحديد لذاب ووعظ لو طرق أذن إبليس لتاب ، وجعل يده اليمنى محمد سامى الأمين ، ويده اليسرى على فهمى الكرار »(١) هاجم فيها نفوذ الأجانب وسلطتهم وطالب بإقامة العدل على أساس الحرية والإخاء والمساواة .

وبدأت عملية المد الثورى بتوزيع العرائض على العسكريين لإسقاط نظارة رياض ، وتأليف مجلس للأمة ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على باقى القوانين العسكرية الجديدة . وصرح عرابى لهم « بأن القوة فى يدنا والعلماء والأعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن إجابة طلبنا ، فإن لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة »(٢) ، وبذلك يتضح أن البرلمان لم يكن بمفرده فى الصورة ، ولكن هناك أبعاد أخرى وفكر ثورى جرىء يُعلن للعسكريين ، لينفذوه بقوة السلاح .

وتكثفت الاجتماعات ، وتتابعت المنشورات الثورية ضد النظام القائم لتحث على إسقاطه ، وخاصة ذلك المنشور الذى دار فى البلاد كلها لإنابة عرابى عن الأمة وكتبه بنفسه ليفهم الجميع الأوضاع التى آلت إليها مصر ، وليبين أن هناك من يساند المطالب من الأعيان والعلماء والعمد والمشايخ والتجار ومشايخ العربان .

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٨ .

(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٤٤ .

ووكل إلى النديم مهمة توزيع منشورات النيابة فى مصر كلها ، وجمع التوقيعات من المصريين المؤيدين لذلك ، وكان خير ما اختير ، فقد جاب البلاد طولها وعرضها واستعمل فصاحته وموهبته فى الإقناع ، وكان الناس على أتم استعداد لتقبل ذلك بعد أن طفح بهم الكيل ، وعاد النديم إلى القاهرة يحمل العرائض الموقعة بالتأييد الكامل لمطالب عرابى التى أصبحت مطالب للأمة .

ومضت أجهزة الدعاية لنشر تلك المبادئ الجديدة « وأكثر الرسل فى التطواف على بيوت الأعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس »(*) . وراح عرابى يستقبل تلك الوفود من جميع أنحاء القطر من أسوان إلى الإسكندرية بعرائض التفويض إليه فى النيابة عنهم ، وفى التضامن لجميع الإجراءات التى ستتخذ والنتائج المترتبة عليها .

أما عن دور توفيق فى الحيز الثورى ، فقد كان فى بداية الأمر من المشجعين لقيام ثورة تنهى سلطة الحكومة القائمة ، لكنه سرعان ما تخلى عنها إذ أن الضعف والتردد كانا من سماته ، وبالرغم من أنه مع بداية حكمه صرح برغبته فى تحقيق آمال الأمة « بجعل الحكومة شورى ونظارها مسئولين » ، فإنه لم ينفذ ذلك ، وخضع للنفوذ الأجنبى الذى بفضله تولى عرشه فأصبح أسيرًا له ، ولكن يزداد الأمر سوءًا بالتسلط الكامل لرياض ، فحقد عليه بعد أن طغى وأصبح الرجل الأول فى مصر بفضل ما له من علاقات كانت تفوق العادة مع القناصل وخاصة القنصل الإنجليزى ، وبعد أن أصبح الحكم نظاريًا يعتمد على المراقبة الثنائية التى تحكمت فى رياض كما أرادت ، لا خديويًا يمارس فيه الخديو سلطانه . لهذا نجد توفيق دائم الشكوى من رئيس النظار ، فكان لابد من إنقاذ ذلك الانهيار الذى تهاوت إليه سلطته .

وقبل أن يتولى توفيق العرش كان على صلة بأعضاء الحركة الوطنية ، لذا كان من السهل عليه بعد أن أصبح حاكمًا أن يعيد اتصاله بهم لا لحبه للوطنية ، ولكن للاستعانة بهم فى القضاء على مناوئيه ، وفكر جيدًا فوجد أن القوة ستكون بجواره عند اقترابه منهم ، وأن العسكريين لب هذه القوة فى الوقت الذى راح يجذب فكر المثقفين ، وذلك عن طريق تشجيع الجمعيات التى كان النديم وقودها ، فقام الخديو بزيارات لها ولمدارسها محاولاً استمالة تلك الطبقة لمحاربة رياض .

(*) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٦ .

وبدأ يفتش على من تناولتهم يد رياض من العسكريين بالرغم من أنه لم يكن مرتاحًا للنفوذ الذى حصلوا عليه عقب قصر النيل ، وخاصة عرابى الذى كثيرًا ما كان ينتابه من ناحيته ذلك الحقد العميق وتلك الغيرة الكبيرة كمصرى أصيل له من الشهرة ، والصيت ، والتأييد الشعبى ، والوطنية الجارفة ، إذن فلم يكن مطمئنًا للعسكريين ، وكان يكره سلطتهم مثل كرهه لسلطة رياض ، ولكن ذكاءه أوصله إلى أنه يمكن له أن يضرب واحدة بالأخرى ، ثم يتفرغ للباقية فيقضى عليها ، وبذلك يصبح الأمر سهلاً ويمتلك السلطة ويتربع على عرش مصر فعليًا .

وكان التخطيط لذلك ، فنراه عقب قصر النيل ، وفى ١٢ فبراير ١٨٨١ يجتمع بالعسكريين من رتبة بكباشى فما فوق بحضور البارودى ليقربهم منه « وخطب فيهم فعفا عنهم وأظهر لهم المحبة ووعدهم بإصلاح حالهم »[١] ، فى الوقت الذى ظهر فيه ارتيابه من سطوتهم . وراح يدعم علاقته بعلى فهمى القائد الأول لحرسه ، والذى كان مرتبطًا بالسراى عن طريق زواجه من إحدى شركسياته ، وهو ذو حماس متقد ووطنية صادقة وصلة قوية مع القادة الثوار ، ولعب دور الوسيط بين توفيق وبينهم .

ومضى الخديو فى الدس ضد رياض وتحذير العسكريين من نظارته وما تكنه لهم ، وذلك ليتمكن من ضم قوتهم إليه والوقوف بجانبه ضد رياض عدوه من ناحية وعدوهم من ناحية أخرى ، وقد أدرك أنه بتلك العلاقة الوطيدة التى تربط بين على فهمى وعرابى ، وبهذه القوة يمكن له أن يصبح « ملكًا دستوريًا شعبيًا »[٢] .

وفى إحدى المرات التى كان يتوجه توفيق فيها إلى الإسكندرية ، كان معه آلاى حرسه برئاسة على فهمى ، وهنا بدأ يفاتحه فى إمكانية العمل الموحد للقضاء على العدو المشترك . كان هذا أول تصريح مكشوف لتوفيق للمشاركة فى الحركة الوطنية بأن يكون رابع القادة الثوريين ، إذن لم يكن توفيق يعارض فى الدستور إذا كان سيؤدى للإطاحة بحكم رياض وسلطته ، وأصبح طرفًا فى معارضة النظام القائم ، وهنا كان لقاء المصلحة ، وقد رأى العسكريون أنه لا مانع من إتمام الصفقة ، حيث كانت سياسة رياض فى الاعتقالات ماثلة أمام أعينهم ، ومن ثم فلابد من التحالف .

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٩٣ فى ١٨ فبراير ١٨٨١ .

(٢) Ninet , Origin of the National Party in Egypt , p. 133 .

٩ سبتمبر ١٨٨١

أصدر داود يكن أوامره بتفريق آلايات الجيش وقواده ، لكنها لم تنفذ بناء على الرفض الذى قوبلت به ، ورأى العسكريون فى ذلك الوقت أنه لا يكفى إسقاط ناظر الجهادية فحسب بل النظارة كلها ، فقد أبلغ عرابى توفيق طلب الأمة عزل رياض ووضع دستور لمصر ، بعد أن أيقن أن الوقت قد حان لإنقاذها من العبودية التى كانت ترزح تحت أغلالها ، وكان واثقًا من انتصاره ، وأخبره عن ميعاد ٩ سبتمبر فى العاشرة صباحًا من أجل اللقاء لعرض الطلبات ، وأن ذلك سيكون بمظاهرة وطنية شاملة العسكريين والأهالى ، وكتب إلى قناصل الدول بذلك وأعلمهم أنه لا خوف من هذا التجمع الوطنى على أبناء تابعيهم ، حيث إن الأمر متصل بأحوال البلاد الداخلية ، ووقع على تلك الخطابات بأنه ممثل الجيش المصرى(١) .

وعندئذ ارتاب توفيق من الأمر رغم ما ذكر ، وسيطر عليه ضعفه وخاف من الضياع ، واستدعى كولفن المراقب المالى الإنجليزى والذى كانت له الخبرة الطويلة فى الإدارة الهندية ، وأيضًا رياض واستون وعرض الأمر ، وأبدى كولفن رأيه بأن يرسل الخديو قوة من البوليس للقبض على عرابى عند وصوله إلى عابدين ، لكن توفيق عارض ، حيث كان يعلم تمام العلم أنه لن يطاع أمره فى ذلك .

ومحاولة لإيقاف الزحف ومنع الحشد اصطحب توفيق معه رياض إلى مراكز الآلايات لكنه لم يتمكن من ذلك ، ولربما قام بهذا العمل حتى يبعد عنه أية شبهات يمكن أن تلصق به لإسقاط نظام رياض ، وكان كل شىء معدًا الإعداد الكامل . وفى ساحة عابدين رابطت القوات العسكرية ، وقد اختلفت المصادر فى أعدادها وكل ما يهمنا أنه كانت هناك أعداد كبيرة مسلحة تسليحًا كاملاً حتى المدافع نصبت ، ووقف معها آلاى الحرس الخديوى بعد أن قام على فهمى بحيلة فى البداية بدعوى حراسته للسراى ، لكن قواته كانت ثائرة للغاية ، لدرجة أنه أثناء زحفهم راحوا يرددون « نحن عاصين ، نحن عاصين ، نحن عاصين »(٢) ، أيضًا كان هناك عساكر المستحفظين يقودهم إبراهيم فوزى .

---

(١) Broadly , How we Defended Arabi And His Friends , p. 11 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٨١ .

وامتلأ ميدان عابدين بجماهير الشعب بما لا يحصر عدده ، يصاحبهم شعورهم الذى وصل إلى قمة الاشتعال ، جاءوا لأول مرة ليشهدوا هذا المشهد الذى لم يألفوه من قبل ، ويشاركوا القائد فى طلباته ويشجعوه ويشدوا أزره فى هذا الموقف الذى لم يقفه مصرى من قبل ، ولم يكن الجمهور هو جمهور القاهرة فقط ، بل زحفت الوفود من الأقاليم على رأسها حوالى ألفين من الأعيان والعمد ، بالإضافة إلى وجود أعضاء مجلس شورى النواب فى ذلك الجمع . وعليه أصبح جليًا أمام الجميع أن طلبات العسكريين هى مؤيدة ومصدقة من كافة الأمة ، وكما أقر قنصل النمسا بأن « الثورة ليست عسكرية وإنما ثورة شعبية »[١] .

وفى الموعد الذى حدده عرابى حضر توفيق ومعه كوكسن قنصل بريطانيا بالإسكندرية ، والجنرال جولد سميث مراقب إدارة الدائرة السنية ، وباقى القناصل ، وطالب عرابى بإسقاط النظارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى ، وزيادة عدد الجيش إلى القدر المعين فى فرمان السلطان ، والتصديق على جميع القوانين العسكرية السابق وضعها ، وهنا صاح جميع الضباط وراء عرابى « نريد الناظر محمد شريف » ، فبيَّن توفيق أن هذه الطلبات ليست من شأن الجند أن يطلبها ، وأشار كوكسن على توفيق بالعودة ، وبدأ هو وكولفن وممثل القنصلية النمساوية فى التفاوض مع عرابى بالنيابة عن توفيق ، حتى فى مواجهة الثورة بلغت السلطة الأجنبية مداها على المصريين ، وأفهم كوكسن وكولفن عرابى أن هذه المسألة فيها مخاطرة كبيرة ، وأنه من الممكن من جراء ذلك وأمام إصرارهم على المشاركة فى الحكم ، فإن عليهم أن يستعدوا لملاقاة قوات مشتركة من الباب العالى وأوربا وكلاهما له رغبة فى ذلك ، فأجاب عرابى بأن الجيش يريد الحرية للأمة وأن تُؤَمن تلك الحرية ، وذلك بتشكيل مجلس نواب[٢] .

ولم تسفر المفاوضات عن نتيجة غير التحدى العنيف من العسكريين ، وانقطعت فترة احتار فيها من فى داخل السراى ، فاقترح كولفن على ممثل القنصلية النمساوية أن يخبر العسكريين بأن الخديو على صلة بالباب العالى بخصوص

(١) Politisches Archiv, Fasz XXXVIII / 195, No. 106 pol., 16 Sep., 1881 .

(٢) Ibid, Fasz XXXI . 24, 9 Sept, 1881 .

مطالبهم ، ويطلب منهم الإنصراف حتى يصل رد الآستانة ، وقبل الخديو الاقتراح ، لكن أجاب عرابى ومن معه بأنهم سيبقون فى حالة تأهب تحت السلاح لحين وصول الرد ، وإذا كان غير مرض ، فإنهم لن يعترفوا بالخديو .

وعرض على العسكريين اسمين لرئاسة النظارة ، حيدر باشا يكن وإسماعيل باشا أيوب فرفضوهما ، فالأول شقيق داود يكن وهم يعارضون أن يتولى النظارة أى عضو من العائلة الخديوية ، والثانى ليست له خبرة إلا فى الشئون المالية ، وطالبوا بشريف وأصروا عليه ، فما كان إلا أن تمت الموافقة على ترشيحه لرئاسة النظارة ، وصمموا على أن يكون البارودى ناظرًا للجهادية وأحمد الدره ملى محافظًا للقاهرة . وقرأ عرابى كتب تكليف شريف بالنظارة بصوت عال ، فاستقبل ذلك بهتافات عالية وداوية من جميع المحتشدين .

وهكذا انتصرت الثورة فى خطواتها ، وأمر رياض بمغادرة مصر ، فغادرها منهزمًا محطمًا بعد أن سقطت سلطته وصولجانه وبعد أن أذاق الناس الذل والظلم، وسقط نظام حكم قوى وأوتقراطى مثله رياض أصدق تمثيل ، ليقوم نظام آخر اختاره المصريون ، وتم كل ذلك بدون إراقة نقطة دم واحدة ، إذ انسحبت الحشود فى هدوء تام ، وأصبح عرابى البطل والممثل الصادق لأمة بعناصرها يؤيده الجميع فى كل مكان ، وغدا التاسع من سبتمبر هو الشرارة الوطنية التى اتقدت فى قلوب الشعب .

وبعد ذلك النجاح الذى كللت به جهود الأمة ، وهذا الانتصار الذى حققته الثورة ، كانت مصر تدوى فيها الفرحة فى كل مكان ، فلم يحدث من قرون عدة على شاطئ النيل أن فاض هذا الشعور ، ففى القاهرة كان الرجال فى الشوارع يوقفون بعضهم البعض بدون سابق معرفة ويتعانقون حتى الغرباء ، لتلك الحرية الجديدة التى بدأ عهدها ، وأصبحت الكلمات المعبرة عن الحرية والمساواة والتقدم والوحدة تتداول بين الناس وتسيطر على أفكارهم(*) ، وسرت الطمأنينة إلى النفوس بذلك الإشراق الجديد ، وأحست مصر بأنه قد صار لها كيان ورجال وأيضًا حكام تختارهم بنفسها بعد أن انتهى حكم الظلم والجهالة الذى طال عليه الزمن ،

(*) Sabry , op. cit., p . 195 .

وخصوصًا بعد أن تأكد المصريون أن الحكم النيابى فى الطريق إليهم ، فآن لهم أن يرتاحوا بعد طول العناء ، وقد عبر بلنت عما حدث بقوله « إن نصر الحرية المدهش الذى بدا لهم فجأة وهبط عليهم بعد ليل طويل ومخيف ، قد حرر الصحافة من رقابة رياض الصارمة ، فكان محمد عبده ينشر الأخبار على أقصى سرعة ، وأصبح الرجال يجتمعون ليتكلموا بلا خوف من البوليس أو الجواسيس ، وغمرت روح السعادة جميع الطبقات من مسلمين ومسيحيين ويهود وشاطرهم السرور الأوربيون المرتبطون بالحياة الوطنية حتى القناصل اعتبروا أن النظام الجديد أحسن من البائد »(*) .

وعمت احتفالات النصر كل مكان ، وشارك الجميع فيها تعبيرًا عن ذلك الشعور الفياض الذى غمرهم ، وبذلك يعتبر ذلك اليوم من الناحية العملية بلورة لكل التطورات التى كان يجيش بها المجتمع المصرى .

لكن ماذا عن موقف الخديو من هذه الأحداث ؟ وضحنا الدور الذى لعبه توفيق لتشجيع الانطلاقة الثورية ، لكنه داخليًا وفى قرارة نفسه ساءه ما حدث إلى أقصى درجة ، إذ وجد أن عرشه الذى يسعى لتثبيته قد اهتز ليس بقوة العسكريين فحسب بل من الأمة جميعها التى وقفت بجانبهم ، وبعد أن أصبح عرابى وكأنه الحاكم الحقيقى لمصر لا ينقصه إلا التاج ، واحتار فى الأمر بعد أن نجح فى إبعاد رياض ، لكنه وجد أن النار تقرب منه ، وقد انعكست نفسيته فى تلك المراسلات التى بدأها فى نفس يوم التاسع من سبتمبر إلى الباب العالى ليبين « إن الفساد وروح الثورة قد انتشرا بين العساكر الشاهانية » ونعت عرابى بأنه « رئيس المشاغبين » وسرد أحداث ذلك اليوم والطلبات التى قدمها العسكريون .

وأعقب ذلك طلبه من الباب العالى المعونة العسكرية لمقاومة العسكريين « وبما أن أوان إصلاح هؤلاء الثوار والمشاغبين قد مضت ، ولم يكن هناك مجال أو أمل فى استصلاحهم ، فأرجو إرسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورًا على جناح السرعة على أن تكون قيادتها العامة منوطة بى خاصة » إلى هذه الدرجة اهتز توفيق وأراد أن يقف أمام العسكريين ، ووفقًا لسياسة التردد التى تمتع بها ، نجده

(*) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 153 .

يتراجع عن طلبه لعلمه بأنه على عكس إرادة بريطانيا وفرنسا اللتان تحاولان بكل الطرق أن تبعدا أى تدخل عثمانى فى مصر ، فنراه يعود ليبلغ السلطان عن اختيار شريف ، وأن ذلك كافيًا لحل المسألة ، لكنه فى نفس الوقت أراد أن يعلم السلطان أبعاد العسكريين ومبادئ ثورتهم « لماذا يحكم مصر العنصر التركى وغيره من العناصر الأجنبية العديدة ؟ ولماذا لا يكون زمام الأمر بمصر فى أيدى مصر ؟ ولم تتسرب ملايين الجنيهات إلى الخارج تسديدًا لديون الأجانب ؟ »(*) .

من هنا أراد توفيق أن يبين أن الثورة ضد العنصر التركى ليثير السلطان التركى على الثوار ، وقد مضى على هذه الوتيرة طوال الثورة فهو يردد أن الثورة قومية ، وهدفها فصل مصر عن الدولة العثمانية ، ونصرة العنصر العربى .

أما عن انعاكاسات ٩ سبتمبر على بريطانيا وفرنسا ، فقد كانت الأولى ترى ضرورة بقاء مصر تحت السيادة العثمانية منذ معاهدة لندن ، وعقب افتتاح قناة السويس أرادت أن تهيمن عليها ، وبإحتلال قبرص زادت اهتماماتها بها ، فى الوقت الذى كانت تشرف فيه على ماليتها فى إطار الوحدة مع فرنسا التى مكنتها من عزل إسماعيل ، وعقب إعلان الحماية الفرنسية على تونس بدأت بريطانيا تفكر جديًا فى إحتلال مصر . إذن كيف تسمح بهذه الحياة الوطنية الجديدة التى نشأت على أرضها ؟ إذن فلابد من الوقوف أمامها ، وفى البداية رأت على الأقل أن تشترك معها فرنسا والدولة العثمانية ، ومن أجل ذلك تردد ماليت كثيرًا على الآستانة ، لكنها فى نفس الوقت ترفض بشدة أى تدخل تركى مسلح فى مصر ، فرغم إنها أحاطت السلطان علمًا بثورة ٩ سبتمبر فقد بينت له رفضها فى إرسال أية قوات إليها ، واشتركت معها فرنسا فى ذلك الرأى ، وقد عدت بريطانيا أن سقوط النظارة بناء على الإرادة الشعبية التى جعلت الجيش لسان حالها أمرًا خطيرًا . وأن طلب دستور « لا تؤيده حكومة جلالة الملك » ليس من السهل إعطاؤه ، وتحركت بسرعة ، وأصدرت أوامرها إلى ماليت بالعودة من الآستانة إلى القاهرة ، وأصبح واضحًا تمام الوضوح أنها ستقف عائقًا أمام الحياة النيابية التى تريدها مصر ، حيث رأت أن ما شيدته خلال الفترة السابقة وتلك المجهودات التى بذلتها ، قد انهارت بهذه الثورة

(*) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، دفتر ٢٨٧ ، صادر رقم ٢ ، ٤ ، ٥ .

التى اهتزت لهل هيبة الخديو واسقطت سلطة المراقبين ، وخصوصًا بعد أن أيقنت أنها ليست عسكرية إذ كتب كولفن يقول « إنها حركة مصرية وطنية جاءت نتيجة للتطور الفكرى للعقلية المصرية »[١] .

أما فرنسا فلم ترتح أبدًا لما حدث ، فكيف يحصل شعب عربى إسلامى على حريته وحقوقه ، فهى تخاف كل الخوف أن تنتشر عدوى ذلك إلى الجزائر وتونس ، فالأخيرة لم تمض غير فترة قصيرة على إعلان حمايتها عليها ، لذا نراها تصرح بأن سلطة الخديو قد اهتزت ، وأن الفوضى تعم مصر ، وأنه لابد من حتمية إحتلال أوربى لها ليعيد الأمور إلى نصابها ، فى الوقت الذى رأت فيه إقامة إتحاد حربى إنجليزى فرنسى للرقابة عليها ، حتى لقد وصل الأمر أن طلب القنصل الفرنسى بمصر من وزير خارجيته تجهيز قطع من الأسطول فى ميناء بيريه[٢] .

وواضح أن النية قد عقدت منذ أن تفتحت الثورة للقضاء عليها بعد أن أزعج الدولتان أن تحصل مصر على ما فقدته منذ زمن طويل .

■ ● ■ ● ■

---

(١) Sabry , op. cit., p. 200 .

(٢) Affairs Etrangeres, LXXXII, No. 27, p. 29, Egypt, No. 3 (1882), No. 6, Doc. Dip. F. Tom IV , No. 119 .

الفصل السادس

انتصار الثورة وممارسة العسكريين للسلطة

... نظارة الثورة الأولى

نجح شريف فى الاستيلاء على النظارة ، وقد كانت له من المؤهلات التى ساعدته على ذلك ، فهو خير من مثل العقلية المستنيرة المثقفة ، وله قبل الثورة مواقف لا يمكن أن نغفلها إزاء حركات الرفض المتكررة تجاه التدخل الأجنبى ، وتزعمه للحركة الدستورية فى نهاية عهد إسماعيل حينما ظهر كبطل للوطنية ، كما أنه يتمتع برضا الوصاية الأوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا ، ورأى الخديو فيه الأمين الذى سيرد إليه سلطته المسلوبة سواء التى استولى عليها رياض أو التى بدأت تؤول لعرابى .

ومنذ البداية ، وعقب أن ردد الثوار اسمه وطلبوه رئيسًا للحكومة زاد ذلك من سعادته ، لكنه فى داخله كان يخشى السطوة العسكرية بعد تلك المكانة التى استحوذ عليها العسكريون ، وخاصة عرابى وشهرته التى لم تعد تقتصر على مصر فقط ، وإنما خارجها حينما رددت اسمه الدوائر السياسية والصحافة الأجنبية ، هذا بالإضافة إلى أن فكره قد انصب على أن الحكومة الشورية التى جاء من أجلها يجب أن تكون بعيدة عن القوة والتسلط العسكرى ، حيث إن ذلك هو من سمات الحكومة الديمقراطية .

وهنا يجب ألا ننسى أن شريف كان يريد عودة السلطة التى تسود فى ظلالها الطبقة التركية التى يمثلها أصدق تمثيل ، وبالرغم من ذلك فقد اعتبره العسكريون من أطهر الشخصيات وفضلوه على من سواه ، فيرفضون تلك الخدمات التى عرضها نوبار عليهم ليقود الحركة الوطنية إذا سلموه زمام الحكم .

تمنع شريف فى البداية حتى لا يقال عنه أنه جاء على أسنة الرماح ، وأنه شارك فى الأحداث الثورية ، وفى نفس الوقت ليكسر شوكة العسكريين كى

لا يتحكمون فيه ، إذ أراد أن يدعم موقفه جيداً ، فقدمت إليه التراجى ، فكان هناك نحو الألفين من العمد يلحون عليه فى قبول رئاسة الحكومة(١) ، كما قدمت إليه عرائض مزيلة بأكثر من أربعة آلاف ختم يرجوه أصحابها قبول النظارة وإنقاذ البلاد من رق العبودية وإصلاح أحوال الحكومة(٢) ، أضف إلى ذلك ضغط كل من قنصلى بريطانيا وفرنسا عليه للقبول ، حيث رأيا فيه المعتدل المرضى عنه والذى يمكن له أن ينقذ الموقف ، وذلك لقدرته على فهم نفسية الشعب المصرى ، وإمكاناته التى تؤهله لاستغلال الموقف جيداً « والوقوف أمام أية كوارث ممكن أن تتعرض لها مصر »(٣) ، والكوارث فى نظرهما هى امتداد الثورة .

وكان العلماء والأعيان والعمد قد تعهدوا لشريف بأن يطيع الجيش جميع الأوامر التى تصدرها الحكومة بكل انقياد وامتثال ، وأخذ شريف من عموم المجتمعين الضمانات والوعود القوية ، فقدم كل من سلطان باشا ، وسليمان باشا أباظة ، والشريعى باشا ، والمنشاوى بك ، وأمين بك الشمس ، والشيخ على الليثى ، وعبد السلام بك المويلحى ، والشيخ الصباحى ، والشيخ أحمد محمود ، وإبراهيم أفندى الوكيل ما يقضى بالانقياد التام لأومره ، وخطب سلطان فى ذلك الجمع عن نشر الحرية والعدل والمساواة فى البلاد ، كذلك رفع العسكريون عريضة إلى شريف موقعة بأختامهم يتعهدون فيها بالامتثال لأوامر الحكومة ، وأشاروا فيها بثقتهم فى شريف ، وأن الجيش هو القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر لخير الوطن ، وركزوا على حقوق المصريين التى يمنحها لهم القانون(٤) .

وقبل شريف النظارة على هذا الأساس ، ولكن كانت نشوة الانتصار مازالت مسيطرة على العسكريين بعد أن وضعتهم الظروف فى المقدمة ، وقد انعكس الأمر على نفسياتهم ، فأحسوا بتلك العظمة وبضرورة ممارسة السلطة ، ففى ١٦ سبتمبر ١٨٨١ ذهب عرابى على رأس وفد من العسكريين ليهنئوا شريف بالمنصب الجديد ، كان ذلك ظاهرياً لكن فى الباطن كان الهدف إشعاره بأنه فى ذلك المكان بفضلهم ، ورد شريف على التهنئة التى فهم مغزاها بقوله « فى علمكم ما قال الأقدمون آفة الرياسة ضعف السياسة ، ولا حكومة إلا بقوة ولا قوة إلا بانقياد

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / أ .

(٢) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ص ٧ ، ٨ .

(٣) Affaires Etrangers LXXXII , No. 57 .

(٤) محمد خليل صبحى ، المرجع المذكور ، ص ١٠١ .

الجنود انقيادًا تامًا وامتثالهم امتثالاً مطلقًا »[1] ، ومع هذا طلب منه عرابى تشكيل النظارة من الذين يوافقونه على سرعة تشكيل مجلس النواب ، وأن يكونوا من أصحاب الحريات بل وصل الأمر بأن فرض عرابى من يريده إذ طلب « أن يكون محمود باشا سامى ناظرًا للجهادية ومصطفى باشا فهمى ناظرًا للخارجية لأنهما يميلان إلى العدل والحرية ، وأن العسكرية لا تثق إلا بمحمود باشا سامى » وهنا أراد شريف أن يلعب الاعيبه ويتولى هو الجهادية حتى يسيطر على العسكريين فقال لعرابى « افلا ترضون أن أكون ناظرًا للجهادية فأنى تربيت مثلكم فى العسكرية » ، لكن عرابى قطع عليه خط الرجعة «إننا اخترناك لوثقنا بك أن تكون رئيسًا للنظارة».

وعندما تباطأ شريف فى التشكيل ذهب إليه عرابى وهدده بأنه إن لم تشكل النظارة فورًا « طلبنا تعيين غيرك ، فلا تظن أنه ليس فى البلاد غيرك ، فإن فيها والحمد لله العلماء والحكماء والمهندسين »[2] . وشكلت النظارة واستلم القادة العسكريون زمام مواقعهم خارج القاهرة ، لكن عيونهم كانت ترقب الأمور بكل دقة .

شريف والحياة النيابية

كان على شريف أن يواجه مسئولية الموقف ، وأن يحقق رغبات الأمة فى تشكيل مجلس نيابى ، ذلك المجلس الذى كان أحد طلبات يوم التاسع من سبتمبر ، وأكده تقرير ألف وستمائة من وجوه البلاد وأعيانها وعلمائها قدم لشريف ، وهو يعد من أهم وثائق مصر فى حياتها الدستورية لما ضم من معان متقدمة دلت على عقلية ناضجة ومدركة .

ووقع هذا التقرير من أرض مصر كلها من القاهرة والإسكندرية وطنطا والمنصورة والمنيا وبنى سويف وأسيوط ، وقدم فى ١٠ سبتمبر ومن الواضح أنه أُعد قبل التاسع من سبتمبر بفترة حيث إنه من غير المعقول أن يجمع توقيع الف وستمائة فى ظرف أربع وعشرين ساعة .

وواضح منه مدى الوعى التام والفهم الكامل لأبعاد النظام النيابى الحر السائد فى أوربا والمطالبة بتطبيقه فى مصر ، وبناء على ذلك أصدر الخديو أمرًا بإجراء انتخابات لمجلس نواب فى ٤ أكتوبر ١٨٨١ ، ومن الملاحظ أن حركة انتقال العسكريين من القاهرة لم تتم إلا بعد صدور هذا الأمر بالرغم من أن شريف أعلن أن دورهم

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٢١١ فى ١٧ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

قد انتهى ولم يعد هناك سبب لتدخلهم فى الشئون السياسية التى رأى أنها تترك لمحترفيها .

أراد شريف أن يحقق المسألة النيابية ، وذلك حتى يظهر للأمة حسن نواياه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأى احتواء العناصر التى ستمثل فى هذا المجلس ويمكن لها إذا لم يلب طلبها أن ترتمى فى أحضان القوة العسكرية ، ويشكل هذا خطرًا على سلطة شريف التى يمكن انهيارها أمام هذا التعاون ، وأنه بهذا الاحتواء يسهل إسقاط أية مؤثرات من جانب العسكريين عن طريق المجلس .

من ذلك يتضح أن خطة شريف كانت واضحة من فصل الحزب الوطنى عن الحزب العسكرى ، وقد صرح لماليت « بأنه ينوى دعوة المجلس النيابى للاجتماع ، ويأمل أن يصبح تدريجيًا هو الممثل الشرعى لحاجات البلاد الداخلية ، وبذلك يجرد الجيش من تلك السلطة التى انتحلها لنفسه فى الحركة الأخيرة »[١] .

ورئى تشكيل المجلس وفقًا للائحة مجلس شورى النواب ، وذلك بأن يتم الانتخاب بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات ، ويجتمع شهرين فى السنة ، وتكون جلساته سرية ، ولم تتفق هذه الطريقة مع رغبات المصريين الذين كانوا يريدون تغيير قانون الانتخاب القديم وإحلال آخر محله ، لكن شريف رفض أى تغيير حتى ذلك الذى اقترحه عليه عرابى بأن ينفذ قانون انتخاب كان قد أعد فى أواخر عهد إسماعيل يعطى حقوقًا أوسع للمجلس ، وأيده كثير من الأعيان ، وأصر شريف على المعارضة وهدده بالاستقالة وتأزم الموقف ، وتمكن سلطان من تغيير اتجاه عرابى عن مشروعه ، وقد كان هذا دليلاً آخر على معاكسة شريف للعسكريين والحد من تدخلهم فى أمور السياسة ، وأصدر منشورًا إلى جميع المديريات والمحافظين ينبه المديرين والمحافظين على ترك الانتخابات حرة ، وهذا أول منشور انتخابى فى الحياة النيابية المصرية يقضى باحترام الانتخابات العامة ، ونجح فى ذلك فلم يتدخل المديرون كالمعتاد فى الانتخابات . وطالبت الصحافة بانتخابات حرة، ترددت الدعاية الانتخابية بألا ينتخبوا إلا من « عهد فيه الصدق وعرف فيما بين العموم بالفطانة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد »[٢] .

---

(١) Cromer , op. cit., Vol. I, p. 206 .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٥٩ .

وأسهم الأزهريون بنصيب وافر فى الانتخابات وهم ثوريون ، فنجح مرشحوهم، وكان هذا النجاح تأكيداً لانتصارات التاسع من سبتمبر ، حيث جاء الأعضاء يتسمون بروح التشيع لاتجاهات الثورة فى إقرار قواعد العدل ، ومما يدل على زيادة الوعى الانتخابى ، أننا نرى لأول مرة فى الصحافة أحد المرشحين يطعن فى صحة انتخاب آخر « وانتخب محمد أفندى عوض نائبًا عن مركز دمنهور بسعى أخيه وأقاربه عند عمد ومشايخ المراكز ، وتقدم فى حقه للمديرية بأوجه تفيد عدم لياقته للنيابة ، وأنه أشيع منذ بضعة أشهر أنه قتل حسن عوض ومرجان العبد باتحاده مع أخيه الحاج خليفة »[1] ، وفعلاً لم تمض أيام إلا وتقرر عدم قبول هذا الشخص فى عضوية المجلس .

وجاءت نتائج الانتخابات الجديدة بالعناصر البورجوازية الثورية ، فضمت من كان متزعمًا لحركة المعارضة فى المجلس السابق ، وذوى العصبيات فى المدن والأقاليم، ومرة أخرى يضم المجلس بين جناحيه كبار ملاك الأراضى وزعماء الريف.

وصدر أمر توفيق بتعيين سلطان نائب المنيا رئيسًا لمجلس النواب وهذا الأمر قد أعطى الراحة العامة للجميع ، وتحقق أمل سلطان الذى كان منذ البداية يسعى إليه وجعله يساهم فى تحقيق مطالب العسكريين ، وعين سليمان أباظة وكيلاً للمجلس ، وعبد الله فكرى سكرتيرًا عامًا وأديب إسحق كاتبًا ثانيًا لأعمال المجلس ، ويبدو أنه كان للعسكريين رأى فى هذا الاختيار .

وكان يوم افتتاح المجلس من الأيام الخالدة فى تاريخ الأمة ، إذ غمرت الفرحة كل قلب ولبست مصر ثوب الحياة النيابية الذى حيك على أيدى ثوارها ، وازدحمت الشوارع بالناس وغمرت الأمكنة القوات العسكرية بالقرب من مكان المجلس ، ووقف محمد عبيد على بابه ليثبت للجميع هذا الانتصار . ويصور لنا أحمد شفيق وكان شاهد عيان « كنت أرى النواب فى حركة ناشطة وعلى وجوههم آيات السرور والاستبشار وسمعت بعضهم يقول إن الأمة قد استطاعت أن تحقق أمانيها بفضل ما بذله عرابى وزملاؤه ، وكانوا يضطرمون حماسة فى أقوالهم وحركاتهم »[2] .

ولم تكن الجلسات علنية ، لكن فى جلسة الافتتاح لم يستطع الحراس منع الجمهور من الدخول فدخلوا ، وكان ذلك تعبيرًا عن المشاركة الفعالة للشعب . وألفت لجان المجلس ، فكانت لجنة المدن برئاسة عبد السلام المويلحى ، ولجنة الشرقية برئاسة أمين الشمسى ولجنة الغربية برئاسة محمد المنشاوى ، ولجنة الأقاليم

(١) المفيد ، عدد ١٨ فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٣١ .

الوسطى برئاسة إسماعيل سليمان ، ولجنة قبلى برئاسة محمود سليمان ، واللجنة الدستورية برئاسة حسن الشريعى ، وقد لقى المجلس التأييد التام والتشجيع الكامل من الصحافة وجاءت خطبة الجمعة فى المساجد يوم افتتاح المجلس كلها عن الشورى مبينة محاسنها والاقتداء بالرسول الكريم ﷺ فى تطبيقها ، وعبرت الكنيسة الكبرى البطريركية عن فرحتها بإقامة حفل كبير تكريمًا لذلك .

وقد وضح أن معظم المسيطرين على المجلس من أعضاء الحزب الوطنى ، فكان لابد من تطبيق برنامجه الذى أذيع ونشر داخليًا وخارجيًا لدفع الحياة النيابية إلى طريق العمل السليم ، وكان شريف قد أعد مشروع الدستور الجديد لعرضه على المجلس ، ووضع فيه القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية ، كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام المجلس ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية ، وحقه فى إقرار القوانين والضرائب بحيث لم يعد من سلطة الحكومة استصدار أى قانون أو فرض أية ضريبة دون تصديق المجلس ، وعلى هذا الأساس تضمن هذا الدستور روح الحرية ، لكن كان هناك فى نفس الوقت تخطيط بوضع قيود وحدود له تجعله يحول دون تحقيق السيادة الكاملة للأمة ، فكان هناك شبه إتفاق بين شريف وتوفيق على تقييد سلطة المجلس ، ففى لقاء للأخير مع نظامى باشا بيّن له أنه واثق من شريف باشا المعين لرئاسة النظار ، وأن سلطة هذا المجلس لا تتعدى النظر فى المشروعات العامة[1] .

ومما لا شك فيه أنه عند الإعداد لهذا الدستور كانت سلطة المراقبين مفروضة حيث تم أخذ ورد بينهما وبين شريف ، وفى ٢ يناير ١٨٨٢ قدم شريف المشروع إلى المجلس ، ووجه نظر النواب إلى تعهدات مصر الدولية ووجوب احترامها « حتى يأتى اليوم الذى تستطيعون فيه أن تعيدوا بناء حكومتهم وتحصلوا على ثقة الدول » ، ولهذا اعترض على « حق المجلس فى إقرار الميزانية وسن القوانين الخاصة بمالية البلاد أو مناقشة الخراج الذى يدفع للباب العالى »[2] ، كما أوضح لهم الحالة المالية التى عليها مصر مما أسفر عن عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ، وما نشأ عن ذلك من ترتيب مصالح ، وتعهدها بالتزامات بعضها بعقود خصوصية والبعض الآخر بقانون التصفية ، لكن سمح للمجلس بحقه النظر فى مرتبات الموظفين الأجانب والإدارة الأوربية عند نظر الميزانية .

---

(١) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والآستانة أثناء الثورة العرابية . دفتر ٢٨٨ ، ٧ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٤ يناير ١٨٨٢ .

هكذا وضعت القيود أمام العمل البرلمانى ، وفى لقاء لشريف مع بلنت صرح بأن المصريين « أطفال ويجب أن يعملوا معاملة الأطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الملائم لهم ، وإن لم يرضوا فعليهم أن يعملوا بدونه، فأنا الذى خلقت الحزب الوطنى ، وأنهم لم يستطيعوا العمل بدونى ، فهؤلاء الفلاحون فى حاجة إلى التوجيه »(١) . كانت هذه نظرة شريف إلى الذين أعطوه الثقة وأوصلوه على أكتافهم لحكم مصر .

تصدع نظارة شريف

لم تمض إلا أيام قليلة - وأثناء اشتغال اللجنة الدستورية بالنظر فى الائحة الأساسية - وتواجه الحركة الوطنية تسلطًا خارجيًا تدخل معه فى صراع مرير وطويل لا ينتهى إلا بنهايتها وتحطيمها. لقد عز على بريطانيا وفرنسا أن تجدا نهضة نابعة من الكيان المصرى ولا تقضيا عايها ، فمنذ بداية الثورة كانت النية مبيتة على ذلك ، وازداد القلق مع التاسع من سبتمبر ، فأرسلتا قطعًا من أسطوليهما حتى لا تعطيا الفرصة للآستانة للتدخل فى المسألة المصرية عقب بعثتها الأولى ، وتنفردا بها والمصالح بينهما تجبرانهما على اتباع سياسة التعاون المشترك فى مصر .

وكان لوصول جمبتا للوزارة الفرنسية أثره الكبير على مصر ، هذا الاستعمارى الذى أراد « تقوية مركز فرنسا فى الخارج بتدعيم سياستها الاستعمارية فى شمال أفريقيا ، وتوثيق صلاتها بانجلترا فيما يتعلق بالقارة الأوربية وتسخيرها لخدمة اتجاهه الاستعمارى »(٢) .

وارتاب جمبتا لأحداث مصر الأخيرة ، وكان يتوجس خيفة من ثورة إسلامية تهدد مصالح فرنسا فى الجزائر وتونس وانتشار الشعور القوى للحرية فى شمال أفريقيا ، وقد وصل تفكير فرنسا إلى أنه إذا ما حملت بريطانيا على التدخل فى شئون مصر ، يمكنها تحويل إثارة الرأى العام الإسلامى عنها إلى جهة أخرى .

أضف إلى ذلك أن جمبتا كان من أصل يهودى ، فارتبط بالمصالح المالية فى مصر عن طريق صلته ببورصة باريس وبيت روتشلد وغيره من أصحاب الأموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين المصرى ، هذا وكان لوجود نوبار وولسون فى باريس خير من يتخذ بآرائهما .

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 196 .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ١٧١ .

ومن هنا بدأت الاتصالات المكثفة بين الدولتين ، وأوضح جمبتا فى مراسلاته أنه من الخطر السكوت على ما يجرى فى مصر ، وأن المصلحة تقضى بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس النواب ، ورأى ضرورة مساندة توفيق لاقتلاع جذور الحركة الوطنية ، وقد أيدت بريطانيا هذا الاتجاه ورحبت به حيث جاء متفقًا مع هواها من ناحية ، ولاستمرارية سياسة الوفاق مع فرنسا من ناحية أخرى ، ووصلت تعليمات القنصل الإنجليزى من مصر بأنه لابد من تشجيع الخديو بأعطائه الأمل بالتأييد والمساندة ، وذلك بعد تأكد ماليت من ذلك النشاط والحماس المتقد الذى دب فى المصريين وسيطر على مجلس النواب وجعله واضعًا نصب عينيه حقوقه الكاملة ، وهذا الشعور الفياض بالكراهية للأجانب وخاصة الموظفين منهم .

وأخيرًا ، كانت النتيجة مذكرة ٨ يناير ١٨٨٢ المشتركة إلى الخديو لتعلن فيها الدولتان عن عزمهما تأييد سلطته « للتغلب على الصعوبات المختلفة التى قد تعترض انتظام الشئون العامة فى مصر ، وأنهما متفقتان تمام الإتفاق على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر ، وتعتقدان أن الخديو يجد فى هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة إليها لإدارة شئون البلاد »(*) .

وأصبح واضحًا من تلك المذكرة ذلك التعاون بين لندن وباريس والخديو ، والذى وصل بالدولتين إلى مرحلة التهديد وتكوين جبهة للقضاء على المشاكل الداخلية ، والمقصود بها قوة العسكريين وقوة النواب ، والخارجية وتعنى الوقوف أمام الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر .

ساعدت هذه المذكرة على اشتعال المصريين ، وتأجج الموقف فى مجلس النواب، وزادت حدة المعارضة ، وخاصة بشأن مسألة الميزانية التى كانت مثارًا للخلاف بين الحكومة والمجلس ، وتنقسم ميزانية مصر إلى قسمين ، قسم خاص بإيرادات الدين العام ، وقسم آخر حر ، وأراد المجلس حق التصويت على القسم الأخير ، وكان ذلك معقولاً وليس مبالغًا فيه ، فمن حق مصر أن تمنح الشعور بالحكم الذاتى دون مساس بمصالح الدائنين .

ورفض المراقبان بشدة السماح بذلك ، حيث أرادا أن تكون الميزانية بكاملها تحت تصرفهما ، ولم يكن الرفض من المراقبة الثنائية فقط ، بل جاء أيضًا من

(*) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٣١ / ٢٨ . ٢٠ أكتوبر ١٨٨٢ ، ص ١ .

الخارج ، فأبلغ جرانفيل وزير الخارجية الإنجليزية قنصله فى مصر بالرفض النهائى لتدخل النواب فى هذه المسألة(١) .

ووضعت لجنة مجلس النواب لائحة أساسية تعطى للمجلس حق النظر فى الميزانية ، وتشريع القوانين ، والتوسع فى مبدأ مساءلة النظارة أمامه ، وبذلك ينتهى قانونا ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ ، ١٥ نوفمبر ١٨٧٩ اللذان خولا للمراقبين حق تولى إعداد الميزانية مع مجلس النظار ، وذلك بعد أن وصل الأمر إلى الإصرار على أن يكون للمجلس السلطة التشريعية فى الدولة ، وفى اجتماع ٢٢ يناير ١٨٨٢ صمم أعضاء المجلس على ألا يقبلوا مطلقًا تعديلاً فى لائحتهم ، ورفضوا بالإجماع ما قدمه شريف من اقتراحات ، ورأوا أن هذا التدخل الأجنبى هو تحد بالغ لكرامة مصر وحقوقها ، واجتمع بعض النواب ومعهم سلطان بشريف للبحث فى الخلاف ، لكن كان تصميم النواب مؤكدًا ، وسعى شريف لدى وكيلى فرنسا وبريطانيا فى أن يبقى إختصاص مجلس النواب استشاريًا فيما يتعلق بالقسم الخاص بالديون وقطعيًا فيما عدا ذلك ، وإذا نشأ خلاف بين مجلس النظار ومجلس النواب تشكل لجنة للتحكيم من سبعة نواب والنظار السبعة ويكون لرئيس النظار الصوت المرجح عند الاختلاف ، ورأى اللجنة قطعيًا .

لكن جاء رد جرانفيل بالرفض ، وحاول شريف أن يرجئ ما هو متعلق بالميزانية فى اجتماعات المجلس لكنه فشل ، وطلب ماليت وكولفن من بلنت إقناع النواب بأن مسألة التصويت هذه هى خارجة عن سلطاتهم ، فالتقى بهم بحضور محمد عبده وكانت المناقشة طويلة لم يصل فيها إلى المرجو ، ويقول بلنت « ولم أكف عن المناقشة إلا حين اقتنعت بأنهم لا يرغبون ، ولم يسعنى إلا الإعتراف بأنهم على حق فى طلبهم السلطة على نصف الميزانية إذا كان الحكم النيابى سيكون حقيقة لا تمويهًا »(٢) .

وهنا قدم قنصلا بريطانيا وفرنسا مذكرة بإيحاء من الرقيبين تتضمن « أن الدولتين تريان أن المواثيق المتعلقة بالمالية لا تجيز للحكومة إعطاء مجلس النواب حق تقرير الميزانية قطعيًا ، وأن القنصلين مستعدان المخابرة فى الأمر على رجاء حصول الوفاق ، وأن فتح المخابرة بطلب الحكومة لا يكون إلا بعد تمام الإتفاق بينها وبين النواب على سائر بنود اللائحة »(٣) .

(١) Egypt , No. 5 (1882), No . 56, F.O. January 11, 1882 .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 193, 194 .

(٣) مصر ، عدد ٩ فى ٦ فبراير ١٨٨٢ .

وتأزم الموقف ، وأجاب المجلس بأنه لا حق للقنصلين معارضة ما هو من شئون مصر الداخلية ، وكانت تلك صيحة قوية تأصلت فى النفوس ، ولم تكن قاصرة على النواب فقط ، وإنما إتسعت الدائرة لتضم الناقمين على شريف ، وبرز سلطان على مسرح الأحداث ، وأعلن أن مشروع شريف الدستورى غير متكامل ، وراح يعقد الاجتماعات فى بيته لدراسة الموقف ، وقد لمس من حدة الموقف اتجاهات الثوريين للإطاحة بشريف ، ولم تكن إلا فرصة سانحة أمامه ليقتنصها ويدعو إلى تنفيذها بعد أن إشتم من سياسة رئيس النظار الأخيرة رائحة العهد البائد ، ورأى فى التغيير تحقيق أمل كان يسعى إليه خصوصًا أنه حرم من التعيين فى تلك النظارة ، وفى إحدى هذه الاجتماعات ، تقرر رفض شريف والسعى لإسقاط نظارته ، وتزعم ذلك الرأى عرابى « وتكلم فى استعفاء النظارة ولزوم توجه النواب لطلب ذلك »[١] .

وبالرغم من أن شريفًا كان على علم بما يدور ، فإنه تصلب فى رأيه ، فهو يكره الثورة والثوار ، وكان مؤمنًا بالتدرج فى منح الحريات ، لذا فإن ميوله تتفق مع حرمان المجلس مما رغب فيه ، كما أن مصالحه أرغمته على ذلك ، وسانده فى هذا الموقف بعض من كبار الملاك الذين بدءوا فى عملية الانسحاب ، لكن الباقين لم يرق لهم هذا النهج من الاعتدال المشوب بالسيطرة الأجنبية ، إذ كان معناه الرجوع إلى ما كانت عليه الحال . إذن لابد من التمسك والتصميم ، وتألفت لجنة من النواب المشهورين بمواقفهم الراسخة للحصول على الجواب النهائى من شريف ، فأبى التصديق إلا إذا وافقت الدولتان فكان لهم الرد الثورى والاستجابة الفعالة التى أسقطت شريف فى النهاية ، وتسجل صحيفة المفيد نهاية هذا اللقاء « قالوا له : إن التصديق على جميع بنود اللائحة مما تطالبك به الأمة ، ومن اللازم المبادرة إلى إجابتها ، وأما الدولتان المذكورتان فلا داعى إلى توقفهما فى ذلك . لأن هذه المسألة لا تمس مصالحهما ، نحن نتأسف إذا أحوجتنا لأحد سواك يصدق عليها . ونهضوا فى الحال وكانت اللائحة على الترابيزة أمام دولته فأخذوها ، فقال لهم دعوها لننظر فى أمرها ، فقالوا لا لزوم لذلك وخرجوا قاصدين المعية . فقال لهم الخديو إذا كانت النظارة متوقفة فما العمل ، فقالوا تستعفى وتشكل غيرها ، وهى تصدق على اللائحة »[٢] .

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

(٢) المفيد ، عدد ٣١ فى ٥ فبراير ١٨٨٢ .

وكان تأثير العسكريين على النواب ملموسًا ، ويتضح أنه بالرغم مما فعله شريف من محاولات لإبعاد قوة العسكريين ، فإنه لم يتمكن من ذلك واستمروا حاملين لواء الثورة شاهرين أسلحتهم أمام المعارضين ، ولم تكن فكرة إسقاط شريف مرتبطة بمسألة الميزانية فقط ، حيث كانت رغبة العسكريين أن يكون افتتاح المجلس نهاية للنظارة . وأكد شريف فى شهادته عقب نهاية الثورة أن البارودى كان يستقبل كل ليلة المعارضين من النواب أمثال الشريعى وأمين الشمسى وابراهيم الوكيل ، ويشجعهم على التمسك بما طالبوا به ، وأضاف أنه عند افتتاح مجلس النواب ، حضر أمين الشمسى إلى سلطان برسالة من عرابى مؤداها أن يتوجه سلطان إلى البارودى للإتفاق معه على الطريقة لإسقاط النظارة حيث كانت العادة فى أوربا أن الوزارة تسقط عند افتتاح مجلس النواب(١) ، لكن لم يتم ذلك .

وبهذا يتبين مدى سيطرة العسكريين وتوجيههم للأمور وسمو تفكيرهم لإتباع الأسلوب الأوربى المتحرر وتطبيقه على مصر ، لكن لم تكن سيطرتهم قهرية ، إذ أن التكاتف والتعانق بينهم وبين النواب وأعضاء الحزب الوطنى كان متكاملاً . وانهارت الثقة بين الحكومة والأمة ، وكانت النتيجة هى إسقاط شريف ونظارته بناء على ذلك الالتحام بين العسكريين وكبار الملاك الذى أرادوا نظارة أخرى تنفذ رغبات المجلس المتمثلة فى رغبات الأمة .

ولم يكن أمام توفيق إلا الموافقة وتنازل عن حقه فى عملية اختيار النظارة الجديدة ، وتركها للجنة النواب التى طلبت منه استعفاء النظارة ، وإحلال أخرى « تنفذ لائحة النواب » ، وقد عبر الخديو عن هذا الاختيار لمندوبه بالآستانة بأنه « من الذوات الموافقين لأمزجتهم »(٢) .

كان ضعف توفيق واضحًا فى إجابة طلبات النواب ، رغم ما استند عليه من تأييد خارجى بناء على مذكرة يناير ، فقد أحس أنه لا يستطيع أن يوقف هذا المد الثورى ، كما أنه خاف من ثورة عسكرية يمكن لها أن تطيح بعرشه ، وقد رضخ وسلم بالأمر بعد أن وضح موقف الباب العالى .

والواقع أنه مع بداية الأزمة ، أرسل توفيق للسلطان يعرض عليه طلب المجلس

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، عابدين محفظة ١٦٣ ، ملف ثابت باشا ، ٤ فبراير ١٨٨٢ .

وأبان له أن العسكريين فى جانب النواب ، وجاء الرد بتأييد المجلس نظرًا « لما تقتضيه الحالة والظروف ، ومنعًا لإيقاع النواب فى اليأس والهيجان »[١] ، وبذلك لم يكن من المعقول أن يخالف الخديو رأى الآستانة ، ونراه يحلل موقف قبوله توجيهات الدولتين صاحبتا المصالح فى مصر « أن معارضة المجلس فى مطلبه لابد وأن تؤدى إلى مظاهرات شعبية يؤيدها الجيش ، وأن المجلس قد هدد باتخاذ قرار إنزاله عن العرش ، وإنه لا يملك بين يديه وسيلة لحله »[٢] .

ويظهر أن خوف توفيق لم يكن فقط من ثورة عسكرية ، بل من ثورة عامة ، إذن فلابد من الموافقة على إسقاط النظارة ، وكما ارتفع شريف وعلا بفضل كبار الملاك والمثقفين على أنه رمز للحكم الدستورى ، سقط يتهاوى على أيديهم ، وانفصل عنهم إلى نهاية عهده بهم ، حيث بدأ من جديد يمارس سلطته بعد نهاية الثورة .

إنجازات نظارة شريف

وإحقاقًا للحق وإنصافًا للعدل يجب أن نذكر أن شريفًا كان معتدلاً ولم يكن ثوريًا ولا متطرفًا ، ولا ننكر أن نظارته أعادت الحرية ، وأعطت للرأى العام كثيرًا من حقوقه التى كانت مسلوبة منه ، فعقب تولية الحكم دعا كل ذى ظلامة إلى التظلم مما أصابه ، فأحس المصريون بانتصار ثورتهم ، فتدفقت العرائض على شريف لإسقاط ظلم رياض « فكان منهم كثير حكم عليهم بالنفى والإبعاد ، فاقتضت العدالة توجيه النظر إلى هؤلاء المتظلمين وأسباب الحكم عليهم ، فطلب تحرير جدول بأسماء من أبعدوا عن أوطانهم ، فوجد أن الذين سافروا بمعرفة الجهادية بناء على أمر الداخلية ممن حبسوا فى الطوبخانة يبلغ عددهم ٩١٢ ، وبالنظر فى ذلك الجدول ، علم أن بعضهم اكتفى فيه بإفادة ترد من الجهات تفيد أنه من الأشقياء ويلزم إبعاده وما شابه ذلك من الأسباب التى لا يعتبرها قانون القوانين ، فإن أصول العدالة وشرائعها تقتضى بأنه لا يحكم على جان بجزاء إلا بعد تحقيق جنايته وثبوتها عليه بالطريقة الشرعية المثبتة فى قوانين الحكومة »[٣] ، ولم يكن الأمر قاصرًا على سجناء الجهادية وإنما الطرد والحرمان والتبعيد والسجن كان على كافة الناس ، وفى الحال شكلت لجنة للتحقيق وقامت بعملية حصر شاملة لهؤلاء ، فتبين

(١) المصدر نفسه .

(٢) الأرشيف النمساوى ، المصدر المذكور ، ص ٦ .

(٣) المحروسة ، عدد ٣٩٤ فى ٧ أكتوبر ١٨٨١ .

أن هناك « زهاء الأربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية ، فأطلقوا من بقى منهم فعادوا إلى أوطانهم على نفقة الخزينة »[١] .

كان أول المتمتعين بالعودة للوطن حسن موسى العقاد الذى أصبح من أقطاب الثورة ، وحميد أبو ستيت وولده أحمد والأول من كبار ملاك الأراضى بسوهاج ، وسيسجلان دورًا مهمًا أثناء الثورة ، وقد وصل الأمر أنه حتى من كان عليه حكم بناء على قرار من المحكمة ، خرج من سجنه ، مثلما حدث مع مصطفى بك عنانى الذى صدر عليه حكم المحكمة المختلطة ، لكن سعى العسكريون للإفراج عنه ، فوافق شريف وتم لهم ما أرادوا[٢] .

وبذلك استرد المصريون حريتهم مع التاسع من سبتمبر ليبدءوا إنطلاقة جديدة بعد أن قُضى على مظالم ما قبل الثورة ، وليثبتوا أنهم شاركوا فى الثورة بكل إمكانياتهم ، ولكن كانت الظروف أقوى منهم .

اقترنت نظارة شريف بلائحة تنظيم الخدمة المدنية ، والتى شملت قوانين للموظفين الملكيين تنظم العلاقات وشروط التعيين والترقية والتأديب والفصل . لقد أراد شريف أن يساوى العاملين فى الدولة ، فكما تمتع العسكريون بتلك القوانين التى صدرت والتى كانت فى طريق الصدور لتحسين أحوالهم ، رأى أن ينصف المدنيين « فترتيب الملكية وتحديد أعمالها عادل ، لأنه يمنع رؤساء الخدمات من ارتكاب الرذائل الباعثة عليها الرشوة أو الحامل عليها الخاطر »[٣] .

وبدأت عملية تطهير سرية وواسعة من العناصر الفاسدة ورواسبها ، وتدور الدوائر على المديرين الذين مارسوا الظلم والجبروت ، فقد أقيل مدير الشرقية ، وحقق مع مدير أسيوط بناء على الشكاوى التى قدمت فى حقه ، كذلك خضع مأمورو البوليس لعملية تصفية ، وأحل محلهم من اتصف بالعدل ، وعلى سبيل المثال صدر أمر الداخلية برفت مأمور ضبطية بندر سوهاج لعدم لياقته لهذه الوظيفة ، وتطلب الداخلية من المديرية « إيفاد الأسماء الذين سبق لهم الاستخدام فى الميرى والحاصلين على صفات الاستقامة واللياقة ولا يكون من أهالى المديرية ولا له أطيان بها »[٤] . وذلك ليمارس العدل ولا يعمل لمصلحته أو لمصلحة أقاربه أو يستغل أهالى المنطقة .

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٥٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٢٨ .

(٣) المفيد ، عدد ٢٩ فى ٣٠ يناير ١٨٨٢ .

(٤) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ١٦ سبتمبر ١٨٨١ ، محفظة ٣٨ ، ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ .

ووضعت مسألة الرشوة نصب أعين النظارة ، فيصرح مأمور الضبطية بالقاهرة - أحمد الدره ملى - بأن فساد الأحكام ونقص القوانين لا يتأتى إلا من « البرطيل ومتى دخل البرطيل فى حكومة أفسد قوانينها ، وضاعت حقوق أمتها وأصبحت كالبيت الذى لا باب له يدخله من يريد ويسرق منه ما يشاء »[١] .

وأعد شريف نظام المحاكم الأهلية ، كذلك شرع فى وضع قانون للأمن العام لحفظ النظام والحقوق وليوقف الحاكم عند حده حيث إن الأحكام أغلبها اجتهادية ، وازداد الاهتمام بالتعليم ، فخصصت لميزانيته قدر وتوسعت المدارس ، مما يدل على الإدراك الكامل والوعى للتعليم .

أما عن سياسة النظارة تجاه الأجانب المقيمين فى مصر ، فقد تقوى المصريون بانتصاراتهم وبدءوا يرفعون رءوسهم أمام الأجانب الذين كانوا يعلمون جيداً أن تلك الثورة هادفة للقضاء على سطوتهم وسلطانهم ، فكتب ماليت لوزير خارجيته عقب التاسع من سبتمبر يشرح له ذلك الألم الملحوظ الذى التهب بين جوانح الأجانب فى الإسكندرية والقاهرة لإحساسهم بأنه يمكن أن يتحول الأمر ضدهم[٢] .

وأصبح على نظارة شريف أن تتحمل تلك الأحكام التى أصدرتها المحاكم المختلطة نتيجة لطمع الأجانب وجبروتهم ، وتكثفت حملات الأمن لتقضى على مشاغبى الأجانب ، ولم تكن الضبطية قبل ذلك تستطيع أن تفتش بيوت الأجانب ، لكن الثورية المطلقة التى تميز بها المتحكم فى أمن مصر جرأته على فعل ذلك ، واستمر النشاط فى هذا المجال ، فقبض على المحتالين من « الأفوكاتية والمزورين للأختام ومن على شاكلتهم من أسافل الأجانب وهم متلبسون »[٣] .

وكان التحفز ضد الأجانب قد بلغ مداه ، والتطلع إلى الثأر منهم ووصل لأقصاه، فقد وجد شرطى قتيلاً فى الطريق بالسويس ، وكان من بلغ عنه رجل من إيطاليا يعمل بالإدارة الصحية ، فاعتقد الجميع أنه القاتل ، فما كان من رجال الشرطة إلا أن حملوا بنادقهم للانتقام وتبعهم الأهالى للمشاركة ، وذهبوا إلى المحافظ لطلب الحكم عليه ، فحاول تهدئة الموقف ، لكن علت الصيحات « لا يحل لك ذلك يا مسلم إحضر لنا النصرانى الساعة لنبطش به وإلا ذهبنا بالجثة إلى

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٧ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .
(٢) Egypt, No. 3 (1882), No. 44, Sept 25, 1881, p. 30 .
(٣) المفيد ، عدد ١٠ فى ٢٤ نوفمبر ١٨٨١ .

القاهرة » ، وتأزم الموقف وانزوى الأجانب خوفًا من الأهالى ، وتدخل القنصل الإيطالى ، وأرسل شريف لجنة لتقصى الحقائق[١] .

وصورت الوثائق النمساوية ما حدث بأنه ثورة عسكرية ضد الأجانب ، وأن الموقف أصبح فى غاية الخطورة ، والواقع أن المسألة لم تكن خاصة بالعسكريين بل كان شعور عام انتاب المصريون ضد مستغليهم ، وأن الأمر لم يكن قتل الشرطى ، فكثيرًا ما كانت عملية القتل هذه تتم ، ثم اتضح أن الإيطالى لم يكن القاتل ، لكن روح العداء ضد الأجانب كانت مسيطرة على المصريين ، ولم يكن ذلك خاصًا بمدينة دون أخرى ، فحدث فى دمياط أن راح أهلها يهددون الأجانب ، فقد أهين وسب وكيل قنصل فرنسا ثلاث مرات فى الطريق ، ولم يتخذ المحافظ أية إجراءات ضد هذه الإهانات ، كما لم يرد البوليس على شكاوى نائب القنصل المهان[٢] ، وفى طنطا حدثت إضطرابات بين أهلها والأجانب فدمر الأهالى قهوة وحانوت ليونانى « ونصح القناصل الأوربيين بعدم ترك منازلهم »[٣] .

ومما لا شك فيه أن ذلك يرجع إلى التصرفات الشائنة والشغب الزائد اللذان تزعمهما الأجانب ، وخاصة اليونانيون الذين دائمًا وأبدًا يثيرون الأهالى ، بالإضافة إلى أن هذه الفترة تختلف عن سابقتها ، ففيها نبعت الحرية ، وتوطد فى الأعماق شعار الثورة « مصر للمصريين » ليكون صيحة ضد الامتيازات الأجنبية ، ومن ثم كان الانطلاق السافر لتلك الكراهية ضد الأجانب ، ووصل الأمر إلى أن الحكومة نفسها بدأت فى كسر تلك الامتيازات ، فنرى فى إحدى مناقشات مجلس النظار تتعرض للأوربيين ملاك الأراضى الذين لم يدفعوا البدلية على الأنفار « لتعضدهم بالقونسلات » وبعد المداولة يتوصل إلى إعطاء الحكومة الحق فى تفتيش أراضيهم والعزب الموجودة فيها[٤] . وبذلك أصبحت للحكومة سلطة تمارسها على الأجانب الذين أذاقوا مصر الأمرين .

---

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦١ .

(٢) Egypt No. 5 (1882), No. 92, January 17 , 1882, p. 70 .

(٣) The Times, Feb. I, 1882 .

(٤) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥ / ز . محضر ٢٢ ديسمبر ١٨٨١ .

العسكريون والسلطة

قدر للثورة أن تقوم على أكتاف العسكريين ، ففى أحيان كثيرة يكون للقوة ضرورة ، تلك التى كانت يمتلكونها ، فهم حاملو السلاح ، والفئة الأكثر تنظيمًا ، والأكثر تمرسًا ، والأكثر جراة ، والأكثر غبنًا ، ومن هنا كانت معظم الثورات يتزعمها المسلحون ، وانطبق ذلك على الثورة العرابية ، وقد وضح كيف اجتاز العسكريون المجال منذ فبراير ١٨٨١ فى قصر النيل ، ثم المجهودات التى قاموا بها لتعبئة قوى مصر جميعها ، يساندهم فى هذا المثقفون وملاك الأراضى لتكون النتيجة التاسع من سبتمبر الذى ألهب حماسة الأمة المصرية جميعها .

وكان المخطط يقضى أن يتراجع العسكريون إلى مواقعهم ، ليتولى أصحاب السياسة أعمال الدولة ، وتم ذلك فى بداية الأمر ، فبعد أن اختار العسكريون النظار، وبعد أن أيقنوا أن مطالبهم ومطالب الأمة قد شرع فى تنفيذها ، وبعد أن أصر شريف على إبعاد قوتهم المؤثرة بتفريقهم خارج القاهرة وهذا ما كانوا يرفضونه دائمًا ، أصبح الوضع الجديد مقبولاً لديهم بعد تلك المكاسب التى استحوذوا عليها وانسحبوا إلى معسكراتهم .

لكن إلى أى مدى كانوا صادقين فى البعد عن السلطة والسياسة ؟

أُتهم العسكريون خاصة عرابى والبارودى بأنهما كانا يسعيان للسلطة والحصول على المركز المرموق ، ونحن هنا لا ننفى ذلك ، لكن نعبر عن رأى ربما كان يميل للصحة وهو بعيد عن التحيز . لقد شاءت الظروف أن يكون العسكريون هم محققو أمل الأمة ، ومن هنا ارتبط فى ذهن الشعب عامة أن رمز الحرية والانتصار هو من صنع العسكريين وعلى رأسهم عرابى الذى تدفق الحب عليه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان غالبية العسكريين فلاحين لم يتخرجوا من الحربية كأبناء الذوات ، ولكنهم ترقوا من تحت السلاح ، فهم ممثلون لتلك القوى الكادحة ومعبرون عن رأى مصر تمام التعبير ، وأخيرًا فقد سعت المكانة المرموقة والشهرة لهم قبل أن يسعوا هم إليها ، ثم ما هو المانع من أن يسعى الإنسان إلى السلطة ، خصوصًا إذا كانت مبادؤه تخوله أن تكون تلك السلطة لمصالح العام وليست لمصلحته ، والتاريخ يذكر لنا أنه حتى خلفاء الرسول الكريم ﷺ لم يكن أحد منهم يكره الرئاسة والجميع كان يتمناها من أجل صالح المسلمين .

رحل القادة بعيداً عن القاهرة كما أمروا ، وكان رحيلهم عن طيب خاطر وربما قصد به التمويه أمام المسئولين بأن دورهم قد انتهى بنوال أغراضهم فيقول عرابى: « وافقنا على ذلك مبدئياً اطمئناناً للخواطر وتسكينا للقلوب ، ولكن على شرط صدور أمر الخديو بانتخاب النواب قبل سفرنا »[١] ، ويفهم من ذلك أن هناك موعداً آخر مع العمل الثورى ، وجاء وقت الرحيل وكأن هؤلاء القادة الرؤساء الحقيقيون للأمة فى ترحالهم وحلهم ، وهذا مما عمق فى النفسيات المضادة الأثر السيئ .

كان عبد العال حلمى أول من نفذ الأوامر بالسفر إلى دمياط ، ولم يكن سفراً عادياً ، فقد مر بآلاية فى شوارع القاهرة حتى وصل إلى محطتها التى احتشدت بالمودعين ، وارتفعت الأصوات بالخطب التى كان فحواها الاتحاد وبيان أن الجيش فداء لأرواح الوطنيين ، وأن العسكريين هم الذين أحيوا روح العدالة والحرية والإخاء والمساواة .

أما عن توديع عرابى عند سفره إلى رأس الوادى ، فقد كان له سمة لقاء القائد الذى عاد من ميدان الحرب منتصراً ، فكانت الجموع المحتشدة غفيرة شملت قوى الأمة جميعها ، وكأنه الملك غير المتوج .

وعلى طول طريق القطار ، وعند كل محطة يقابل الشعب عرابى بنفس الحماس حتى وصل الزقازيق مهده وموطنه الأصلى ، فيها أهله وناسه وأحباؤه ومؤيدوه الذين لم يتخلوا عنه وعن الثورة لحظة ، وكان على رأس مستقبلية أمين بك الشمسى كبير تجار الزقازيق ، ومعه حوالى الألف شخص ، جميعهم يتقد حماساً هاتفين داعين مستبشرين ، وكأن العيد قد حل بالزقازيق ، وأقيمت الاحتفالات تشريفاً وتعظيماً ومهابة لعرابى الذى حدثهم عن الإصلاح ، وأبان سوء استخدام الأوربيين فى مصر[٢] .

وبرز دور الأعيان بروزاً واضحاً فى تلك الاجتماعات التى كانت تتم تحت رعايتهم فى الشرقية ، فأمين الشمسى وسليمان أباظة وأحمد أباظة وكثير من العمد أمثال الشيخ أحمد محجوب عمدة العصلوجى ، أقاموا الولائم واللقاءات على شرف العسكريين وعلى رأسهم عرابى الذى كان فيها محفوفاً بأعظم مظاهر التكريم

---

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

(٢) Cromer , op. cit., Vol.I, pp. 208 , 209 .

والتمجيد . وبذلك فشل شريف منذ البداية أن يسلب عرابى مكانته التى فرضت نفسها وأصبحت موضوع الساعة لقوى مصر جميعها .

أراد العسكريون تأليف مجلس نواب يختلف عن سابقه ليس فى طريقة الانتخاب فحسب وإنما فى التكوين أيضًا ، وقد تناولنا معارضة عرابى لشريف فى قانون الانتخاب ، أما مسألة التكوين فقد رأوا ضرورة إشراكهم فى هذا المجلس ، فمن بين أوراق الثورة العرابية خطاب يدل على أبعاد العسكريين مرسل من الزمر إلى أحد الأصدقاء يبدو أنه من القادة العسكريين لاسيما عرابى الذى يعتبر الممثل لهم، يبين فيه « أن المجلس عليه مدار العمل فى بث تمام الحرية وتنقيح القوانين الملائمة، والنظر فى مهام الأمور وفصل معضلات المشاكل . وهذا لا يتأتى إلا بحرية أعضاء المجلس وتدريجهم على سرعة السير ومناضلة الحكومة فى مستبداتها » أما من حيث التكوين « صار من الضرورى وجود من الثلاثة أعضاء إلى الخمسة من رجال الجيش ومن السدس إلى خمس العدد الأصلى من المتوظفين بحيث يكون هذا الخمس من علماء المهندسين والشريعة والكتاب الماهرين ليتيسر لهم ضبط وحساب واردات مصر ومصروفات الحكومة والسير على محور الانتظام » ثم يطلب الخطاب عقد « جلسة خصوصية تتفق أراؤكم فيها على من تستحسنوهم من رجالنا أعضاء فيه وتبذلوا الجهد فى تعينهم »[1] ، وكان هذا إصرارًا على مشاركة العسكريين فى السلطة ، لكن لم ينفذ ذلك إذ غيرت الظروف مجرى الكثير من مخططات الثورة .

ومارس عرابى ومن معه نشاطًا مكثفًا فى الشرقية « أخذ يتجول فى أنحاء المديرية مستصحبًا معه بعض الضباط ، فكان يبث مبادئه وأفكاره فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان »[2] .

وأصبح عرابى ملكًا فى الشرقية فاثره فيها واضح للغاية ، حقيقة أن المصريين عامة تأثروا به ، ففى محاورة جرت بين بلنت وأحد المصريين البارزين قال الأخير « إن جميع الأمة المصرية أشربت افئدتها محبة لما رأوا فيه من الذب عن حقوق الوطن التى يعلمونها جميعًا ولا يريدون السكوت عليها ، ولذلك أنابوه عنهم فى

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٥٤ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ١٠٠ .

إظهار مقاصدهم التى يرغبونها للحكومة لما توسموا من حضرته من الخير ، إن أهل الوطن عمومًا متحدون على محبته »[١] ، كان هذا شعور المصريين عامة ، لكن الشرقية أعطته المزيد ، لذا كان لابد للحكومة من وقف هذا التأييد المتدفق .

وفى هذه الفترة كان عرابى كثيرًا ما يتردد على القاهرة ليكون على مقربة من الأحداث ، وليراقب سير الأمور ، وليتتبع خطوات شريف ، وليرى ما تم إزاء مجلس النواب ، إذ كان من الصعب عليه أن يتخلص من التدخل فى السياسة خصوصًا بعد أن أصبح على رأس الحزب الوطنى ، ومرات أخرى نراه فى القاهرة ، فقد راح يشتكى من أن النمل كثر فى رأس الوادى وأصبح الأمر خطرًا على قواته ، فيرسل شريف البعثات الطبية لإبادة النمل ويرى أن تنتقل القوات إلى رشيد[٢] ، لكن عرابيًا لم يذهب إليها ، وأبلغ أن العساكر الآلاى أصيبوا بحمى كادت أن تكون تيفوسية ، وأن الذين يمرضون منهم فى الشهر ما بين سبعمائة إلى سبعمائة وخمسين، « فسئل هل يريد الانتقال إلى فم البحر ، فأجاب بأنه لا يرغب ذلك لأن هذا المحل رطوبة »[٣] ، كما كان أحيانًا يتناسى ميعاد القطار الذى ينقله من القاهرة إلى رأس الوادى حتى يبقى بالأولى .

ويتضح أن عرابيًا بعد أن اطمأن بعمق أثره فى منطقة الشرقية ، وأنها أصبحت تابعة لمبادئه وأفكاره ، رأى ضرورة أن يكون على مقربة من الأحداث ، لذا فهو يسوق الحجج السابقة علّه يظفر بما يريد ، هذا فى الوقت الذى رأى فيه ماليت أن وجود عرابى خارج القاهرة يزيده قوة وسلطانًا ولذلك نتائجه ، وأنه إذا استخدم داخل القاهرة يكون أفضل مما هو خارجها ، حيث من الممكن الاستفادة من نفوذه[٤]، وشارك القنصل الفرنسى زميله فى الرأى ، كما كان ذلك موافقًا للمراقبين[٥] ، أيضًا كانت الحكومة تعلم ما لعرابى من مكانة فى النفوس وتريد أن تدعم مركزها تجاه المصريين ، فتذكر صحيفة الفسطاط « وقد جريت الدولتان وعموم المصريين أن

---

(١) المفيد ، عدد ١٥ فى ١٢ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Malet . op. cit., pp. 204 , 205 .

(٣) المفيد ، عدد ١٨ فى ١٥ ديسمبر ١٨٨١ .

(٤) Egypt , No. 5 (1882), Jan.5, 1882, p. 35 .

(٥) Cromer, op. cit., Vol I, p. 212 .

طول مكث سعادة أحمد باشا عرابى مدة إقامته فى رأس الوادى أوجب أو كاد أن يوقع اضطرابًا وخيم العاقبة فى القاهرة وغيرها ، ولولا ذلك لما اضطرت الحكومة على غير رضاها إلى إقامته فى القاهرة وجعله وكيلاً للجهادية ، فإن استدعاءه فى ذلك الوقت كان هو بعينه الراحة العمومية والأمن والطمأنينة »[١] .

وكانت الوظيفة التى فُكر فى إعطائها له بعد نقله للقاهرة هى وكالة نظارة الجهادية ، وهى وظيفة مهمة ، واعتقد أنه سيكون عند شغلها أقل خطورة على ما هو عليه ، وبها يمكن أن يتعرض لفقد شعبيته حيث يعمل من خلالها على الاهتمام بما تتطلبه مهامها وينظر إلى مصلحة الحكومة دون أية مصالح أخرى ، وبهذه الطريقة يبعد رويدًا رويدًا عن انغماسه فيما لا تحبه ولا ترضى عنه الحكومة ، وتفتر العلاقة التى ربطت بينه وبين الشعب .

وأخيرًا فقد كانت رغبة البارودى أكيدة فى وجود عرابى بجواره ليستكملا معًا التخطيط المتفق عليه ، فسعى بحجة أو بأخرى لدى شريف لرجوع عرابى للقاهرة ، وعاد وغدت القاهرة وكأنها بين يديه ، وصار بيته مقرًا للاجتماعات العلنية ، وأصبحت رحابه « شبيهة بمجموع دوائر الحكومة لكثرة من كان يفد عليها للزيارة والتظلم ، وكان كثير من الأوربيين ومراسلى الجرائد الأفرنجية يذهبون إلى بيته لاستطلاع سياسته والوقوف على مكنونات أفكاره »[٢] .

ومضت الاجتماعات التى شكلها عرابى ولم تعد قاصرة على العسكريين إذ غدت تضم العلماء والأعيان والتجار يأتون من كل فج عميق ، ويذكر أحمد شفيق « وكنت كلما مررت به - بيت عرابى - أرى الجموع داخلة إليه وخارجة منه ، وكان ظاهرًا أن الحركة تتسع يومًا بعد يوم »[٣] .

وغدا وجوده بالقاهرة مع النواب من أكبر العوامل التى صعدت الموقف إلى الدرجة التى لمسناها ، وفى تقرير للقنصل النمساوى يذكر « منذ أن عين عرابى وكيلاً للجهادية وهو يطالب بقوة بحق تصويت المجلس على الميزانية وهو يعتمد على شعبيته ليعارض شريف »[٤] ، وبذلك أصبح عرابى قلب الحزب الوطنى وروح مجلس النواب .

---

(١) القسطاط ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ١٠٠ .

(٣) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١١٨ .

(٤) Polit . Arch . No. 19, Pol, 15 January , 1882 .

وساءت حالة العسكريين بوصول مذكرة يناير المشتركة ، وعندما علم شريف بها أرسل بلنت لعرابى ليعرف مدى تأثيرها على العسكريين والحزب الوطنى . وكان وقعها سيئًا للغاية ، فقد اعتبر عرابى أنها اعتداء على حريات الشعوب . وسرت روح التحدى للنفوذ الأجنبى ، وذلك عن طريق المعارضة التى تزعمها النواب فى المجلس . وأيضًا بواسطة الصحافة ، فلم تكن تلك المقالات التى نشرت إلا بإيحاء من عرابى لهذا الغرض .

وازداد العسكريون قوة بصدور جميع القوانين العسكرية التى أصلحت من شأنهم ، وكان على شريف ضرورة تنفيذها ليضمن ولاء العسكريين له وحتى لا يثيرهم عليه ، فكانت النتيجة التصديق عليها جميعها ، كما وضع نظامًا للتعليم فى المدارس الحربية وشروطها للالتحاق بها . كل ذلك لم يقلق الحكومة والمراقبين قدر ما أقلقهما الإصرار على زيادة عدد الجيش ، فبالرغم من أن الدولة العثمانية قد أعطت مصر الحق فى أن يكون عدد جيشها ١٨ ألفًا وهذا ما طالب به العسكريون ، إذ أن عدد الجيش كان فى ذلك الوقت ١١ ألفًا ، فإن الإدارة المالية رفضت توصيل الجيش إلى العدد المطلوب .

وشجعت الصحافة على الزيادة « حيث إن ذلك من أهم الضروريات لحفظ الأمن فى داخلية الوطن الذى يطلق فيه الرومى أو غيره عياراته النارية على الوطنى، وأن بوغازاتنا تقضى علينا بالتحفظ عليها خصوصًا طريق الهند »[1] ، وواضح ما تقصده الصحيفة من الاستعداد لأى غزو يمكن له أن يقع لحساسية المنطقة ، وقد تمسك العسكريون بضرورة الزيادة بعد الاعتداء على تونس التى لم يكن لديها القوة الكافية للدفاع عن نفسها أمام فرنسا .

وجاء الإعداد لميزانية ١٨٨٢ ، وطلب البارودى إضافة ٢٨٠,٠٠٠ جنيه لميزانية الجهادية وصمم على رفع عدد الجيش إلى ١٨ ألفًا لجميع الأسلحة « بيادة وسلاح وفرسان وإشارة ومدفعية وسلاح مهندسين » وبطبيعة الحال سيكون لذلك أثره على الميزانية ، وهنا اعترض المراقبان وخاصة كولفن الذى بين أن الميزانية لا تسمح بهذه الزيادة لأن الأموال الموجودة بالخزانة لا تكفى ، فى الوقت الذى جاء فيه الرفض من جرانفيل الذى صرح بأن لندن لا توافق على ذلك[2] ، وكان هذا أحد تحكمات بريطانيا للوقوف أمام قوة العسكريين ، وبعد مفاوضات طويلة ، تم الاتفاق على زيادة عدد الجيش إلى ١٥ ألفًا .

(١) المفيد ، عدد ٢٣ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

(٢) Malet , p. cit., p. 202

وبنهاية تلك المسألة لم ينته نشاط العسكريين ، واستمروا فى العمل والضغط والتأثير على كل قوى الأمة ، وكانت لهم وسائل دعاياتهم الناجحة حتى تمكنوا فى نهاية الأمر من إسقاط شريف بعد ما لمسوا فيه انحرافًا عن سياستهم وميلاً إلى الاعتدال ورفضًا للثورة ، وبعد أن فشل فى ممارسة نفوذه عليهم وفقد سلطته تجاههم .

ولم يكن شريف هو المنسحب من الميدان ، بل أنهم هم الذين أسقطوه كما سقط من قبل نوبار ورياض ، إذ اعتبروا أنه عليه دور معين يجب أن يؤديه ، وحينما انتهى وانكشف أمامهم بأنه لا يمكنه استكمال الطريق الثورى ، كان هناك من أكمل هذا الطريق ، ومرة أخرى تعطى الظروف للعسكريين السلطة لكى يمارسوها على أوسع نطاق أثناء النظارة التى تكونت على أيديهم .

نظارة الثورة الثانية

جاءت نظارة الثورة الثانية أو النظارة العسكرية إلى الحكم بناء على الرغبة الأكيدة للأمة عقب انتشار مبادئ الفكر الثورى للعسكريين ونزولها الميدان ، ودخولها كل بيت ، إذ وافقت الهوى ، والتأمت لها الجروح ، وأصبح الاستعداد لتلبية نداء الثورة أمرًا واقعًا .

نادت هذه المبادئ ببرلمان ينتخب على أساس الحرية وله السلطة التشريعية الكاملة ، ونظارة وطنية مسئولة ، وخديو يملك ولا يحكم - وكان هذا مشابهًا لما نادت به الثورة الفرنسية فى بداية عهدها - ونظام إدارى عادل يجعل مشايخ القرى منتخبين بمعرفة الأهالى ومن الذين اشتهروا بالعفاف وحسن المعاملة ، وأن توضع قواعد عادلة لتحصيل الضرائب وإمكانية إلغاء بعضها (كالويركو) التى كان لها الأثر السيئ على الفقراء أو تعديلها وجعلها مناسبة لحالة الأراضى واستعدادها بدون فرق بين الأغنياء والفقراء ، وإبطال السخرة ، والاقتصاد الدقيق فى الإدارة دون مراقبة سياسية ودون موظفين أجانب على رأس النظارة ينالون المرتبات الضخمة ، وألا يكون هناك موظف أجنبى فى الإدارة إلا إذا اقتضى الأمر ويقدر كفاءته ويعطى المرتب المعقول ، والمدرسون والأطباء منهم لابد من حصولهم على الشهادات لشغل مناصبهم ، وأن تكون مصر للمصريين مع الحرية والسلام لكل الأجانب الذين يجب أن يخضعوا للضرائب ، وألا يكون للدول ووكلائها تدخل فى شئون مصر ، وإنشاء بنك وطنى برأسمال مصرى موزعًا بين الوقف والتركات وكبار

الملاك لإنقاذ مصر من الربويين الذين يندفعون على الفلاحين يأكلون أكبادهم ويدفعون لهم المائة ليأخذوها مائتين بعد ثمانية أشهر من الرهونات ، وأن توحد الديون الخارجية وتخفض فوائدها ، وديون الفلاحين تسددها الحكومة إلى الدائنين على أقساط مناسبة لحالة المديونين ، وأن يبذل الأغنياء أموالهم لإنشاء المدارس وترويج العلوم وإحياء الصناعة ، وأن يصلح حال القضاء وذلك بوجود محاكم مديريات متخصصة ومحاكم أهلية بحتة ومحاكم استئناف ، وتلغى المحاكم المختلطة التى أضرت بالمصريين أكبر الضرر[١] .

كذلك شملت المبادئ مسألة إلغاء الرقيق . فقد صرح عرابى لبلنت بأنه « ما من أحد من المصريين يرغب أن يكون له عبيد غير أمراء الأسرة المالكة والباشوات والأغنياء ، وأن المبادئ الحرة للإصلاح تجعل الناس سواسية مهما اختلفت فى الجنس أو اللون أو الدين »[٢] . وبالرغم من وجود القانون الذى يحرم تجارة الرقيق « فإن الباشوات قد تحايلوا على ذلك وخرج الرقيق من المراكب بدعوى أنهم حريم الباشا الفلانى ، وإذا خرجت الجارية من بيت مولاها والتجأت إلى الضبطية اعتماداً على أمر إلغاء الرقيق فلا يتيسر عتقها »[٣] . وقد حرصت الثورة على إخراج هذا القانون إلى حيز الوجود ، وتحرير الرقيق وغرس المودة بينهم وبين المصريين .

ومضت المبادئ تتوسع وتنتشر وتمس كل كبيرة وصغيرة على أرض مصر ، فتناولت الأبعاد جميعها من حرية ومساواة وعدالة ، وكما أعلن عرابى « سكان مصر كالواحد بدون فرق بين المذاهب والعقائد ، الكل إنسان تجمعنا جامعة الإنسانية[٤] ، وجهر بها فى كل كلمة تنطق وفى كل جملة تنشر ، وفى تقرير للقنصل النمساوى يبين دور عرابى فى نشر تلك المبادئ الحرة التى دعمت الروابط بين الشعب والتى لا تحيد عن الخط القانونى ، وأنه يحترم المعاهدات ، لكنه يصرح علانية بأنه لن يسمح بتدخل لبريطانيا وفرنسا خارج حدود تلك المعاهدات[٥] .

كانت مبادئ وطنية صادقة وديمقراطية نقية حرة ، ففى مقابلة جمعت عرابى وعلى فهمى وطلبة عصمت مع كولفن ، أبان عرابى أن حكم المماليك وحكم العائلة

---

(١) Broadly . The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II

(٢) Blunt . Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 211

(٣) الوطن ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٤) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ص ١٩ ، ٢٠ .

(٥) Archives de maison, de Cour et d'etat, Vienne, Fasz 31 / 24. No. 41. 9 Fev. 1882

العلوية متساويان فى الظلم للمصريين الذين لم يتحصلوا حتى على الحياة الآمنة والذين فقدوا كيانهم فهم ، إما مسجونون أو منفيون أو ملقون فى النيل أو يموتون جوعًا ويسلبون ، ذلك كله وفقًا لرغبة سادتهم ، إن العبد المحرر أحر من المصرى الحر ، وأن أجهل تركى مفضلاً عن أشرف مصرى ، إن الناس جميعهم سواسية فى الحقوق والحرية والأمان[١] .

وسيطرت صيحة مصر للمصريين على شعب مصر ، فكان الكره واضحًا للأجانب ، الأتراك والشراكسة والشوام والأوربيين ، وأصبح الجمع على ألا تكون مصر ملكًا لشخص يحكمها أو لعائلة واحدة ، وألا يكون شعبها عبيدًا لذلك الحاكم أو لتلك العائلة ، وبعد أن صرح فى بداية الثورة أن الخديو يملك ولا يحكم ، تدرجت الرغبة فى أن يكون هذا الخديو مصريًا لا تركيًا ، فعقب إسقاط نظارة شريف أرسل القنصل النمساوى لحكومته يقول « إن الحزب الوطنى أصبح له المكانة ، وأن رد الفعل أصبح موجهًا ضد ثلاثة سلطة الخديو وتدخل القوى الخارجية والخضوع لتركيا ، والشعب يرى أنه من الطبيعى إبعاد الخديو كلية وأسرته ، وبهذا يمكن القول بأن الحزب أدى الكثير لأنه أصبح قوة لا يستهان بها »[٢] .

وكان التصور للحاكم الذى يحكم مصر ، « أن ينتخب من الذين حسنت سيرتهم من المصريين ، ويكون رجلاً عالمًا فاضلاً محبًا عند قومه ، ويتم انتخابه بمعرفة رؤساء الأمة المصرية ونبهائها الذين لم تدنس أعراضهم بالاشتراك فى قبائح الولاة السابقين ، وهذا الحاكم يكون مقيدًا بالقوانين ومنفذًا لها »[٣] .

اعتنقت الأمة هذه المبادئ ورددتها ، وقد أسماها عرابى « قواعد الأعمال » فيقول « وكان يوافقنى عليها كثير من الناس ، وكان ينطق بموافقتها الجمهور الأعظم من أهالى البلاد ، ثم تحرك إليها بالفعل أعيان البلاد وتبعهم عامتها ، فكان الكل متحدين فى المقاصد ، ولكن يوجد بينهم بعض اختلاف فى الوسائل »[٤] ، وبذلك يتضح أنها تغلغلت فى النفوس التى أصبحت على عجل فى انتظار لهذا التغيير الكامل والشامل .

---

(١) Cromer , op. cit., Vol.I, p. 209 .

(٢) Archives de maison , op. cit .

(٣) Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha , Vol. II .

(٤) Ibid .

ومضت جميع أجهزة الدولة تشجع هذه المبادئ وتسعى لإخراجها لحيز التنفيذ، ولقى العسكريون التشجيع من الصحافة حتى الأجنبية منها فيكتب جريجورى فى التيمز يؤيد ما توصل إليه العسكريون « ولا يستعجب من أن عرابيا قد حصل على هذا المركز ، وأنه أصبح من الممكن أن ينال العسكرى رتبة الأميرالاى أو الباشا بل يصير حاكم البلاد ، وأن ذلك ليس خاصًا بالشرق بل له نظير فى أوربا، فإننا لم ننس سلطة الجنرال بونابرت التى عمت حكومة فرنسا ، ويجب أن يعلم أن عرابى بك قام ضد ظلم إسماعيل باشا الشديد ، لأنه لا يوجد أحد يؤسس حكم القانون ضد القوة والأهواء سوى الجيش ، وأن من يميل للمقاصد التى بينها عرابى بك الداخلة تحت كلمة واحدة هى العدل »[1] .

ويؤكد بلنت فى خطاب له إلى جلادستون أن الأفكار التى يعرب عنها عرابى ليست مجرد ترديد للعبارات التى تستعملها أوربا الحديثة ، ولكنها آراء مؤسسة على المعرفة بالتاريخ والتقاليد العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الإسلام ، وليس لعرابى مطامع شخصية ، ولا شك أن الجيش والبلاد مخلصان له كل الإخلاص ، وهو يصرح بأنه ممثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش به ، والجيش ممثل الأمة فهو حاميها ومرشدها ، وهو القوة الواقفة بين مصر وحكامها الأتراك الذين يسعون لتجديد شرور إسماعيل[2] . وبذلك أصبح واضحًا لماذا لقى العسكريون هذا التأييد الكبير ، وكيف انتشر فكرهم الثورى على أرض مصر ، وملكوا الزمام ومارسوا السلطة .

واختير البارودى بواسطة أعضاء مجلس النواب رئيسًا للنظارة ، وكان مرضيًا عنه من جميع الأطراف بالرغم من أنه ليس مصريًا صميمًا ، ولكن أخلاقه وصفاته ومبادئه جعلته لآخر أيامه مخلصًا لمصر والمصريين . وهنا نتساءل لماذا لم يتول عرابى الرئاسة ، وقد كان له من التأييد ما يفوق الحد وعلى مستوى قوى مصر جميعها ، ولديه من الأصالة الوطنية والنشأة الريفية ما يدعم موقفه ؟

أرجع ذلك إلى التبصر التام الذى كان أمام العسكريين ، وخاصة أنه لم يكن هناك تخطيط فى تقديم أشخاص معينين لاحتمال فشل الثورة ، وعليه يكون من يسعى للمنصب فى مأمن من عواقب الفشل ، فلم يدر بخلدهم مثل ذلك ، لكن كانت

---

(١) المفيد ، عدد ٢٢ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

(٢) Blunt . Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 170 .

هناك اعتبارات أخرى على رأسها التعليم والثقافة ، فلا ننكر أن تعليم البارودى وثقافته - فهو خريج المدرسة الحربية متمرن ومتمرس على فنون الحرب والقتال وعقليته دستورية ومستنيرة - رشحتاه وصدرتاه لأن يكون الرئيس ، هذا ولم يكن هناك رواسب من العقد فى نفسية عرابى من أجل استحواذه على الرئاسة وإنما وثوقه فى نفسه إلى أقصى درجة ، وحب الناس له جعلاه على يقين من أنه سيتولى إدارة دفة الأمور ، وخصوصًا أنه يعلم أن المناصب الحكومية لا تدوم ، ومن الممكن لأية حركة أن تسقط النظارة ، لكن المناصب القيادية للشعب هى الباقية ، وقد أثبتت الحوادث ذلك، فعندما كان لا يشغل أى منصب حكومى راح يخاطب الجهات الرسمية بأنه رئيس الحزب الوطنى الذى هو الأمة جميعها . هذا فى الوقت الذى نظر الشعب فيه لعرابى على أنه فرد منه ، إذن فالرئاسة لن تزيد من قيمته شيئًا .

كان البارودى صاحب صفحة نقية فى حياته ، مرضيًا عنه من الجميع حتى من قبل الثورة ، فمنذ كان متوليًا للضبطية بالقاهرة ذاعت شهرته بأنه رجل كامل وأمين ونشط ، وكان من المؤسسين للحركة الدستورية منذ عهد إسماعيل ، وعلى صلة بالوطنيين وخاصة العسكريين يبلغهم بالتيارات المضادة ، وهذا مما دعا رياض للتخلص من نظارته للجهادية التى فرض عليها برغبة العسكريين .

وامتلك أيديولوجية متفتحة ، فلم يكن يمر اجتماع إلا ويصر على أن مصر للمصريين ، ويذكر أسماء وطنيين محررين لشعوبهم أمثال واشنطن ولافيت وغاريبالدى ، ويشرح ويستفيض فى معانى القومية وفضل مصر وحضارتها العريقة صاحبة الآلاف من السنين ، وأنها كانت منارًا للعلوم والمعرفة ، وآن لها الأوان أن تحصل على حريتها وتسترد مكانتها .

ولم يكن بعيدًا عن أذهان العسكريين جعل مصر جمهورية وإسقاط نظام الحكم القائم ، وهو نفس الفكر الذى تأصل لدى المثقفين منذ أواخر عهد إسماعيل . ولا شك أن للصحافة دور كبير ، فكتابات المثقفين عن الحرية والاستبداد والدستور وفصل السلطات وأنظمة الحكم والقانون والحقوق رغّبتهم فى اختيار النظام الجمهورى ، وكانت النية معقودة على أن يكون عرابى رئيسًا للجمهورية ، فمن بين أوراق الثورة العرابية إحدى الوثائق التى تؤكد ذلك(*) .

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢١٨ / ب .

وواضح أن الأمل كان كبيرًا عقب التاسع من سبتمبر مباشرة على اختيار هذا النظام بل وتحديد رئيسه ، وفى اجتماع حضرة الثوار فى بيت العقاد دار الحديث عن السياسة وأنواع الحكومات وأساليبها - وكان ذلك متبعًا فى جميع اللقاءات فى مصر آنذاك - وتحدث البارودى وبيّن « منذ بداية حركتنا هدفنا تحويل مصر إلى جمهورية صغيرة مثل سويسرا وحينئذ تنضم إليها سوريا ثم تتبعها الحجاز ، ولكننا وجدنا بعض العلماء لم يتقبلوا ذلك فهم متأخرون عنا ، لكننا سنجعل مصر جمهورية قبل أن نموت ولنا كل الأمل فى ذلك »(١) ، وبذلك نرى أن الحكم الجمهورى قد تأصل فى أعماق الثوار وسيطر على الأفكار ، وأصبح إسقاط نظام توفيق مُطالبًا به ، ولم يكن العسكريون فقط المطالبين ، ففى خطاب من مأمور ضبطية القاهرة إلى عرابى يقول « ذهب بعض الناس أن بعد عزل الخديو ستطلب الأهالى تنصيب حكومة جمهورية يكون رئيسها سعادة أحمد باشا عرابى »(٢) ، وغاب عنهم أن مركز مصر الدولى الذى حددته التسويات كان يقف أمام ذلك .

وظهرت الاتجاهات الاشتراكية فى الفكر السياسى ، وتبلورت فى إطاره المبادئ التى اتخذتها الثورة ، كما تأكدت بالتصريحات ، ففى مكاتبة من عرابى إلى أحد رؤساء آلاياته يقول « إن الجميع حكام فى بلادهم ماداموا متمسكين بالحق والمنهج القويم ، وأن لكل فرد منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، إننا جميعًا روحًا واحدة مثبتة فى أجسام متعددة ، ولنضرب مثلاً لحضرات الضباط بنفسى لأنى لست من بيت غنى بل من بيت متوسط الحال ، وها أنا بين أيديكم الآن ناظر على جهاديتكم »(٣) . وبذلك انصبت الأحاديث حول المساواة .

كانت هذه أفكار الرجال الذين تولوا نظارة الثورة ، فإلى أى حد كان التطبيق ؟ تم تشكيل النظارة ، واختار البارودى الثوريين ليكونوا نظارًا فى نظارته ، فعرابى للجهادية والبحرية ، ومحمود فهمى للأشغال العمومية . وعبد الله فكرى للمعارف ، وحسن الشريعى للأوقاف ، وعلى صادق للمالية ، أما الخارجية والحقانية فقد أعطيت لمصطفى فهمى ، وكان الوحيد الخارج عن نطاق الثوار ، واختير نظرًا لإتقانه اللغات الأجنبية ، وكان ممكنًا للبارودى أن يبحث عن كفاءة أخرى ثورية

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 344

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / د / ٧

(٣) المصدر نفسه ، دوسيه ٥٣ / د / ٨

ولم يستشر الخديو فى تعيين هؤلاء النظار ، وحتى لو استشاره فلم يكن لرأيه قيمة ، ويقول البارودى فى محضر استجوابه « وصدر لى النطق الكريم بانتخابهم بالاشتراك مع لجنة من النواب »[١] ، وبذلك نرى وضوح عملية الالتحام والالتئام بين العسكريين وملاك الأراضى .

كان فاتحة عهد النظارة دستور الثورة - لائحة الحزب الوطنى - وقد انصب على شكل الحكم وتحديد علاقة السلطتين التنفيذية والتشريعية على هدى المبادئ النيابية الحديثة ، فقد نقل حقوق السيادة إلى الشعب ، ولكنها جعلت مناصفة بينه وبين الخديو ، كما أنه لم يأت بإخلال لحقوق الأجانب العامة فيما عدا مطامعهم غير القانونية فى البلاد ، وجعل الخديو يمارس سلطته بواسطة نظار مسئولين ، كما أعطى الأمة الحق فى ممارسة سلطاتها هى الأخرى بنواب تسأل أمامهم النظارة.

لكن ماذا منح الدستور مجلس النواب ؟ لقد أعطاه كل ما يمكن أن يقدم له فى مثل هذه الظروف التى تعيشها مصر ، لكن لم تكن الحقوق كاملة ، إذ حددت رقابته على الحكومة ، فحرم من حق التشريع الذى منح للخديو ، ويمارسه كحق سياسى بواسطة نظاره ، وقصر هذا الحق على المجلس فى حدود الإقرار التشريعى دون غيره ، لكن انصب الاهتمام على بعض المسائل كالميزانية وحق الانتخاب والمسئولية الحكومية وحق إقرار الضرائب ، وكان الحق الأخير مهمًا لمصر والثورة « لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو ويركو فى الحكومة المصرية إلا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس النواب ، وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوايد جديدة » ، كذلك نص على أن ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم للنواب ، وأيضًا ميزانية عموم الإيرادات ، وأن ترسل الميزانية إلى المجلس فينظرها ويبحث فيها مع مراعاة الويركو للدولة والدين العمومى ، وما قررته التصفية والمعاهدات بشأن الدين ليس له أمر فيه، وأن كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها لا يكون نهائيًا إلا بعد الإقرار عليه من المجلس ، وأن للنواب حق مراقبة أعمال الموظفين العموميين فى دور انعقاد المجلس ، وأن يبلغوا الناظر المختص على لسان رئيس المجلس كل عبث أو شذوذ أو إهمال يرتكبه موظف عمومى فى تأدية أعماله[٢] .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١ / أ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٠ فى ٩ فبراير ١٨٨٢ .

وبالنسبة لرقابة المجلس ، فتكون بالسؤال والاستجواب وإلزام النظارة بالإجابة. وتقررت الحصانة البرلمانية ، ووضعت القواعد لشروط المداولة . كان ذلك هو دستور الثورة ذو الطابع الأوربى الذى أعطى المصريين كثيراً من الحقوق ليدعموا بها موقفهم ، وأصبح عقيدة لشباب مصر الذين تشبعوا بأفكاره وتمسكوا به .

وفى نفس اليوم الذى قدم فيه الدستور رفعت مذكرة احتجاج على تدخل الوكلاء السياسيين الأجانب فى الإدارة المصرية . ونبع ذلك أن قدم دى بلنيير استقالته ، وعين آخر بدلاً منه . أما كولفن فقد امتنع عن التعامل مع النظارة عندما طلب البارودى أن تكون مخاطبة المراقبة معها بالطرق الرسمية ، وقد وصل الأمر إلى أن كان النظارعند عقد مجلسهم لا يدعون المراقبين كالعادة المتبعة ، ويعلنون أن الاجتماع خاص بالأحوال الإدارية والأمور الخارجية التى لا علاقة لهما بالمراقبين « فأصبح المراقبان بعد هذا هملاً مهملاً بلا سقطًا مرذلاً »(*) .

وبذلك انهارت السلطة والصولجان للمراقبين . وكانت النظارة محقة حينما كررت أن اختصاصات المراقبين لم يحدث فيها أى تعديل وإنهما لا يملكان إلا صوتًا استشاريًا . لكن كان الأمر الواقع قبل ذلك أن النظارة لا تصدق على الميزانية إن لم يوافق عليها المراقبان . ورأيهما هو المتبع بشأن احتياجات الحكومة ، وكلاهما السيد المطلق على مصر لصالح النفع الجزيل لحاملى السندات على حساب تلك الجروح التى تسببت للمصريين .

مجلس النواب والعمل البرلمانى

كانت الفرحة التى شملت أرجاء مصر بالدستور الجديد ، وبتلك الحقوق التى فاز بها النواب واكتسبوها بفضل الثورة لا توصف ، فقد تبلور الرأى العام وشمل مصر كلها حتى رجل الشارع أصبحت له دراية بالأحداث . فهو يتكلم عن الميزانية والتدخل الأجنبى والنظارة الجديدة . وأصبح مجلس النواب يتلقى التأييد من قوى مصر المختلفة ، فعلى سبيل المثال نجد أن دمياط تبعث إليه بمذكرة وقّع عليها مائتان وتسعة وعشرون من العلماء والموظفين والوجهاء والأعيان والتجار ومشايخ الحرف والصناعات يعبرون عن شعورهم فتذكر « قد زاد فرح عموم أهل القطر بما دلهم على الوصول إلى درجات التقدم الأولى التى أصبح ذلك المجلس كفيلاً

(*) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ص ٢٧٨ : ٢٨٨ .

بالترقى إليها ، وذلك بسبب حسن النيات ودوام العدل والحرية التى يحبها كل وطنى ، وأن أهل القطر مع المجلس إذ هم منا ونحن منهم ويدنا واحدة وقولنا واحد فى اتباع الحق »[١] .

وأصبح مجلس النواب لا يقتصر مهامه على ما ارتبط به ، فأعطى نفسه حق التدخل فى كل صغيرة وكبيرة اعتقد أنها من مصلحة مصر ، ووصل به الأمر كما وصفه ماليت بأنه وضع أصابعه فى أمور الخديو نفسها[٢] ، ومورست االحرية على أوسع نطاق داخل المجلس ، وغدا كل فرد له الحق فى عرض الاقتراحات وهو يسمع ويشجع ، وكان ما يعرض يمس أدق الأمور ، ففى تقرير لأحمد عبد الغفار يطلب وضع قانون أساسى يشتمل على بيان الحدود والحقوق العمومية وصل إلى أسمى معانى الفكر الحر الذى نم عن طبيعة النواب وإدراكهم للمبادئ الدستورية الحديثة ، فتقول صحيفة مصر « فأذكرنا هذا التقرير بالقانون الذى عرضه النائب الفرنسى لافيت لجمعية الاشتراع فى ١١ يولية ١٧٨٩ ، فقبلته الجمعية والأمة ، وعده العالم المتمدن من بعد ذلك أساسًا للقوانين العادلة »[٣] .

ورأت الثورة أنه لابد من نشر محاضر جلسات المجلس ، وطالب النديم بأن يكون حق النشر لها فى الطائف ، وكان له هدف من وراء ذلك ، فالطائف هى صحيفة الثورة الأولى ونواب المجلس ثوريون ، فأراد أن يظهر أمام الجميع المناقشات وموضوعاتها وأهميتها ، ويبين قوة النواب على الصفحات حتى تصل إلى كل يد ، وتقرأها كل عين لتعيش مصر كلها مع الثورة .

وطُلب فى أول محضر الأصول والعقود التى تمت بموجبها المعاهدات بين مصر والحكومات الأجنبية ، وكان قد تقرر تعيين لجنتين لتحقيق الشكاوى التى رفعت عن مصلحة المساحة ، تلك التى لاقت اهتمامًا من المجلس ، حيث إن العاملين فيها أجانب وخاصة إنجليز .

وقد استدعى ناظر المالية لبيان أسباب اختلال هذه المصلحة وقلة عائداتها بالنسبة إلى كثرة نفقاتها ، وأيضًا مصلحة الجمارك وهاتان المصلحتان لم يكفل تشكيلهما اتفاق دولى ، وظهر أيضًا فى الأخيرة وجوه الخلل فى أعمال الموظفين

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٣ فى ١٤ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) Malet . op. cit., p. 163

(٣) مصر ، عدد ١٣ فى ٢٣ مارس ١٨٨٢ .

الأوربيين . وتعددت الموضوعات التى أثارها المجلس ، فبالنسبة للتجارة ، رأى أمين الشمسى بأنه إذا كان هناك صنف ضرورى للمصريين فيمنع تصديره ، ونوقشت مسألة احتكار التجار للغلال ورفع أسعارها « فأضر ذلك بفقراء الناس عمومًا وصغار التجار خصوصًا » وطالب الأعضاء بإيقاف ذلك .

وخضع كشف فضائح وسلب وغش الشركات الأجنبية للبحث فى المجلس ، وعرضت تلك التعاقدات التى أجرتها نظارة الأشغال مع الشركات الأجنبية من أجل الرى بالآلات البخارية وتم الإتفاق ، لكنها أخلت بالشروط والمواصفات المتفق عليها مما تسبب فى أضرار الزراعة .

وجاء دور عبد السلام المويلحى ليتقدم تقريرًا عن التعليم وضرورة نشر المعارف بين الأفراد على اختلاف مراتبهم ، وبيان أن العلم من ضروريات الوجود المعنوى فى الإنسان ، كما أن الغذاء والماء من ضروريات وجوده الحسى ، وطالب بتعميم التعليم وتسهيل طرق التحصيل ، بحيث تكون ممكنة السلوك لكل وطنى على اختلاف الدرجات فى حدود الإمكانيات المالية بتعاون أغنياء البلاد ، واستدعى ناظر المعارف ليقدم تقريرًا عن حالة التعليم والاقتراحات لنهضته والتشجيع على انتشاره .

وكان للمحاكم المختلطة نصيبها فى التناول ، إذ طالب الأعضاء بتطبيق المعاهدات التى تأسست بموجبها تلك المحاكم والتى تنص على أن رئاستها لا تكون إلا للوطنيين التابعين للحكومة المحلية . أيضًا طالبوا بمحاكم أهلية حيث إن « أساس الممالك العدل وأساسه القوانين الكافية لحقوق الرعية » ، ورئى ضرورة تنفيذ قانون ترتيب المحاكم الأهلية الذى وافق عليه شريف .

ونظر المجلس فى حتمية سن قانون يخص العمد ومشايخ البلد ويتناول عزلهم وتوليتهم وإعطاءهم الحقوق وتنظيم معاملاتهم سواء مع مأمورى الحكومة أو لما هو تحت إدارتهم من الأهالى . كذلك نوقشت مسألة العونة وضرورة تنظيمها ، والبدلية وخاصة فى الأباعد والجفالك وقومسيون الأراضى ، وما يتعرض له الفلاحون من ضرر وضنك وسوء حالة وبالذات فى أشهر الشتاء ، وطُلب من نظارة الأشغال وضع قانون خاص بذلك .

وبما أن الأعضاء ملاك للأراضى ، فطبيعة الحال لابد من الاهتمام بها سواء فى بيان درجات الاستفادة من أطيان البرارى ، أو مسألة الضرائب ، فقد تشكلت لجنة ، وأصدرت قرارها بربط تقسيط الأموال الأميرية على صورة عادلة ، وذلك بأن تحصل فى أوقات المحصولات بالدقة حتى يكون الفلاح آمنا فى تسديدها متمكنًا من بيع محصولاته بالثمن اللائق كى لا يضطر إلى الإقتراض بالربا الفاحش أو البيع بالثمن الغبن ، وبينت ضرورة أن يكون الويركو موافقًا للحق والعدل والمساواة.

أيضًا كان لمسألة المقابلة أهمية بالنسبة إليهم حيث بيّن الأعضاء أن الجميع دفعها مكرهين وعانوا من ذلك عناء لا مزيد عليه ، وطالبوا بخصم سنوات ٨٠ ، ٨١، ٨٢ لأرباب المقابلة من أصل المطلوب منهم من مال ١٨٨٢ . وتم البحث فى مسألة الديون التى على الحكومة للأهالى « وطُلب من المالية كشف ببيان مطالب الأهالى من الديون المتفرقة بمقتضى قرار لجنة التصفية ومواعيد استحقاق الديون » .

وهوجم الأجانب من أصحاب الأراضى والتجار بعنف فى المجلس ، هؤلاء الذين يعملون لمصلحة أراضيهم عن طريق إقامة « الوابورات » والاستحواذ على المياه على حساب بقية أراضى الأهالى ، وأن احتكارهم هذا يترتب عليه أضرار جسيمة(*) . واتهمت الدوائر القنصلية مجلس النواب بأنه أدار الدفة ضد الأجانب ليعلن الحرب عليهم ، وأن اجتماعات مجلس النواب ازدادت حماسة فى المناقشات الوطنية ضد الأوربيين ، ولم يكن ذلك مبالغًا فيه ، بل كان لزامًا على المجلس أن ينظر فيما أنزل بمصر من كوارث ، فقد أصبحت أجور الموظفين الأوربيين تخضع لرقابة المجلس الذى راح يفكر جديدًا فى ضرورة الاستغناء عنهم .

ونادى المجلس بحتمية إرجاع النواحى إلى إدارات الأقسام ، حيث كانت الجفالك الملحقة للدائرة السنية وقومسيون الأراضى قد ضمت النواحى لهما فأساءها الضرر ، والسبب « ترويج زراعاتهما باستخراج ما يلزم لهما من الأنفار بدون مبلاة ولا التفات ، مع أن أهالى تلك البلاد لهم أراضى محتاجون لزراعتها وإذا تركوها تلفت » ، وطالب المجلس بتطهير الحياض فى مديريات قبلى « لأن أهلها يتحملون المشاق عند زيادة المياه أو قلتها ، وبإصلاح وسائل الرى فى الوجهين ،

(*) الوقائع المصرية ، أعداد ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٤ فى ١١، ١٣، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٦، ٢٨، ٣٠ مارس ، ٣ أبريل ١٨٨٢ .

وما فرط النواب من شيء في تقديم التقارير لإصلاح الري وتسهيله وتقسيم المياه بالعدل ودفع أذى الطغيان ورفع الأضرار »(١) .

وأخيرًا فقد طلب المجلس وضع قانون أساسي للحكومة تعرف به حقوق القوى الحاكمة ، ووضع مشروع قانون للإدارة ، هذا وأحست قوى الشعب المختلفة أن هذا المجلس هو مجلسها ، ومن هنا كان منطلق تقديم الشكاوى والتظلمات ، فهناك من يسمع ويفحص ويحل ويرد الحقوق إلى أصحابها الذين دائمًا وأبدًا كانوا مظلومين ، وقام المجلس بهذا الدور خير قيام . كذلك وضح أن النظار أصبحوا مسئولين أمام المجلس عن كل الإجراءات والمشروعات التي تقدم للحكومة ، وقد ناقشها المجلس بعمق وأدخل عليها ما رأى أنه ضروري ، وظهر دور الأعضاء في معارضة ورفض تعهدات والتزامات بموجب مناقصات أو مزايدات(٢) ، كانت غالبيتها تخص الرأسمالية الأوربية . وشجعت الصحافة الأعضاء ، وتناولت فوائد المعارضة ، وضربت الأمثلة بوجودها في شتى المجالس النيابية في بريطانيا وفرنسا وألمانيا حتى اليونان « بأن لا يوافقوا الحكومة على ما فيه شطط أو خطأ ، فإن الإنسان لا يخلو من الهول والنسيان وكذا لا يجب أن يخالفوها فيما يعم نفعه »(٣) .

وبذلك ارتفع صوت برلمان مصر بهؤلاء الرجال الذين جاءوا في وقتهم لإنقاذ بلادهم ، وقد اعترف الجميع بهذه الحيوية ، وتلك الرغبة الأكيدة للتمثيل البرلماني الصادق ، حتى أننا نرى جرانفيل يقر بقوله « لقد برهنت مناقشات مجلس النواب على أن هناك حركة شرعية للشعب المصري من أجل الرغبة في الحصول على الجزء الأكبر من إدارة بلادهم »(٤) .

مواصلة المسيرة الثورية وإنجازات النظارة

جاءت النظارة تحقيقًا للرغبات الوطنية الصادقة ، ومن هنا كان عملها يتسم بطابع الثقة والثورية ، فقد افتتحته بالدستور الذي مارس به نواب الأمة نشاطهم ، وارتاح الجميع وعم الهدوء الأرجاء بذلك الرضا الواسع عليها ، لكنها لم تغفل ذلك التدخل الأوربي الذي أقلقته الثورة ، لذا كثرت الاجتماعات للثوار وكانت تشمل القادة والشخصيات التي لها اعتبارها من كبار ملاك ومثقفين . وحاولت النظارة

---

(١) مصر ، عدد ١١ في ٨ مارس ١٨٨٢ .

(٢) Archives de maison , op. cit , No. 13 Pol, 8 Janvier, 1882 .

(٣) الوطن ، عدد ١٧ ديسمبر ١٨٨١ .

(٤) Egypt. No. 10 (1882) . F.O. July 11, 1882, p. 5

التى تمتعت بالقوة والسلطة ، وهى مؤيدة من كل جانب أن تخلق نوعًا من الود بين الثورة والخديو ، لكن لم يكن لمسعاها هذا توفيق ، لأنها دائمًا وأبدًا تعمل بكل طاقاتها للتقليل من سلطته .

وراحت قوى مصر جميعها تعبر عن شعورها الفياض ورضاها عن النظارة فى تلك العرائض التى كانت تصلها من التجار والعلماء وشيوخ المساجد والضباط والأطباء والقضاة والتراجمة والمفتشين « وهى النظارة الوطنية الحرة التى انتخبت من رجال لنا بهم تمام الثقة متوسلين نجاح المقاصد والمشروعات وفوز آراء وأفكار مجلس النواب »[١] .

كما شمل التعبير الاحتفالات التى أعطت صورة ناطقة للحياة السياسيةوالفكرية وكان الداعون لها دائمًا ملاك الأراضى حيث سمحت لهم إمكاناتهم بالإكثار منها ، وفيها تتلى الخطب التى شارك فيها المثقفون ، وفى أغلب الأحيان كان البارودى وعرابى يخطبان فيها ، ويثيران ما يشغف القلوب ، ويعرضان مساوئ التدخل الأجنبى ، ويأصلان من تدعيم القومية ويلهبان الحماسة الوطنية ، ولم يكن أمر هذا التعبير مقصورًا على القاهرة ، ففى صعيد مصر نرى مدير قنا يرسل ليصف الحالة « إن التصديق على تأليف النظارة البارودية ولائحة النواب أدخلا السرور على الوطنيين عمومًا ، فقد تواردت عمد الهوارة وأعيانهم إلى ديوان المديرية ، وجاءوا منزلنا وفيهم حضرات رئيس المجلس ومأمور المالية ووكيل المديرية وقاضى المديرية ونائبه وضابط الجهادية وجميع موظفى المجلس والمديرية وأعيان البندر ووجوه التجار ، وخطب الجميع ونريد أن نجعل هذا اليوم تذكارًا للحركة »[٢] .

وتدفقت الوفود على القاهرة لتعبر أيضًا عن إحساس شعب مصر ، جاءت للتهنئة ولإظهار الفرحة ، وامتلأت الصحافة بالمقالات والقصائد التى تزف الحرية إلى مصر بفوز المصريين وحكمهم لبلدهم .

وكانت النظارة ديمقراطية حقة ، فهى تسمع لكل صوت يصل إليها ، وبالرغم من أن نفوذ عرابى كان واضحًا فى إدارة دفة الأمور ، فإن الملحوظ أن العمل أصبح

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ دوسيه ٣٨١ / ب .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٦٠ فى ١٨ مارس ١٨٨٢ .

ينفذ بأسلوب جماعي . وبدأت النظارة تسلك المسلك الوطني معتدة بإحساس أنها صاحبة القوة على أرضها ، وأنها مدعمة بالرغبة الشعبية

وعرضت على النظارة موضوعات متعددة . فتمكنت من إصلاح الأمور على القدر المستطاع التي تسمح بها إمكانات مصر . وفي حقيقة الأمر فإنها ورثت تركة مثقلة بالمشاكل ، وكان عليها بالعزيمة الصادقة أن تحلها جميعها . إذ أصبحت في مهب الطلبات ، فكل من تعرض لخسارة مالية صار يطلبها منها . وكان لابد من الإجابة . وركزت اهتمامها تجاه الموظفين الأجانب المكتظة بهم الإدارات ، وعلى رأسها مصلحة المساحة ، وقد أظهرت المداولات في جلسات مجلس النظار ذلك الهجوم .

وشكلت النظارة لجنة لعمل الإصلاحات والتعديلات التي يلزم إجراؤها بشأن المحاكم الأهلية وتحسين حالة تحقيق الجنايات في المديريات ، وانتقاء خيار موظفي المجالس ، وتعيين مندوب في كل مديرية يكون له معرفة بالقوانين ليلاحظ ما يجري بالمديريات من التحقيق في المواد الجنائية وفحص أوراق التحقيق[١] .

وكانت نظارة موفقة في العمل من أجل مصر ، فلم يسع أحد من أعضائها من أجل صالحه ، وعلى يدها أعلنت الحرب على الرشوة . كما بذلت كل ما في الوسع لإمكان وضع مبدأ المساواة وتطبيقه ، فلم يغلق الباب أمام الفقراء الذين فحصت مشاكلهم بكل دقة وعناية ، كما نرى أن النظارة تقف أمام نشاطات الأجانب المختلفة. وتحاول بكل طاقاتها تطبيق برنامجها الثوري من جعل مصر للمصريين ، فهي ترفض المشروع المقدم من دليسبس بشأن إنشاء ترعة حلوة بين الإسماعيلية وبورسعيد ، وترفض دفع المبالغ التي يطالب بها السماسرة المقاولون « قدم ألماني دواليب وطاولات ومكاتب وآلات حديدية وكراسي ودواوين جلوس كعادته وطلب صرف المبلغ مغالي الارتفاع فرفضت النظارة السامية الدفع »[٢] . وصدرت التعليمات للقبض على اللصوص الأجانب ومزيفي النقود وهؤلاء الذين غدت بيوتهم أوكارًا للفساد . وأصبح يكتب في الحال إلى قناصلهم لمحاكمتهم بما يقتضيه القانون[٣] ، وشددت النظارة بيد من حديد على البضائع المهربة من الجمارك والتي أضرت بالاقتصاد المصري

(١) محفوظات مجلس الوزراء محاضر مجلس النظار ، محفظة ٥ / ح ، المحضران ٢ ، ٦ مارس ١٨٨٢ .

(٢) المفيد ، عدد ٤٦ في ٣٠ مارس ١٨٨٢

(٣) الإسكندرية عدد ١٦١ في ٣١ فبراير ١٨٨٢

وقد اعتبرت النظارة أنه للوقوف أمام التسلط الأجنبى داخليًا لحماية المجتمع وخارجيًا للتخلص من الوصاية الدولية وانتشال مصر من الطامعين ، لابد من التركيز على القوة التى يمثلها الجيش لدفع هذه الأخطار ، فزيدت اعتمادات الجهادية ٢٩٠ ألف جنيه ، ووزعت ما بين مرتبات ومعاشات وميزانية ، وعممت جميع القوانين التى كان قد بدئ فى تنفيذها مع الثورة ، ومضت عملية ترقية الضباط ، وكان جميعهم الضباط الثوريون ولم يملك الخديو إلا التصديق على ذلك.

وعلى الأتراك والشراكسة تدور الدوائر ، هؤلاء الذين أذاقو العسكريين الويل والظلم ، فتبدأ عمليات اضطهادهم بعد أن تأصلت الروح القومية بين المصريين ، فلم يكن للضباط الشراكسة نصيب فى الترقيات السابقة(*) ، وتم فرز نحو ٦٠٠ ضابط منهم ، أبعدهم عرابى عن العسكرية التى أصبحت وطنية بحتة ، وذلك بإحالتهم إلى المعاش والبعض رأى أن يرسله إلى السودان ، وفى حقيقة الأمر ، فقد أرادت الثورة أن تطهر الجيش من تلك العناصر التى كانت تحمل منذ القديم لواء الكراهية للمصريين ، وكذلك تفاديا لإمكانية قيامها بأعمال تناوئ الثورة.

وكان من بين الذين وقع عليهم الاختيار للذهاب إلى السودان مائة ضابط وواحد ، منهم تسعة من الشراكسة وستة من الأتراك والباقى مصريون ، فامتنع الأتراك والشراكسة عن الرحيل ، وقدموا عريضة إلى عرابى يطلبون منه « معاملتهم بالعدالة والمساواة » ، وكان من سمة النظارة تطبيق العدل والمساواة على المصريين لا على غيرهم ، ومن هنا تألفت القوى المضادة للثورة لتحاربها بكل إمكاناتها وتستحوذ على المكانة التى أفقدتها إياها الثورة .

■ ● ■ ● ■

(*) Egypt. No. 7 (1882), No. 105, April 12, 1882 .

الفصل السابع

القوى المضادة

... محاولات وأد الثورة ومواجهتها للموقف وانتصارها :

(أ) المؤامرة الشركسية

بناء على النجاح الذى حققته الثورة والمكاسب التى أحرزتها للمصريين على حساب المستبدين والمستغلين الذين وجدوا فيها ضياعًا لسلطانهم وفقدانًا لمراكزهم ، فكروا فى إسقاطها وذلك بالتخلص من زعمائها ، وبهذا يمكنهم أن يستعيدوا كل ما كان لهم ، ويستحوذوا مرة أخرى على مراكز القوى ، وكان المتصدرون لذلك الشراكسة برئاسة كبيرهم رفقى ، فقرروا أن يتم التنفيذ على أيديهم ، وشاء القدر أن يكتشف الأمر وتقرر الثورة محاكمتهم ، وصدر حكم المحكمة فقضى على ثلاثة وأربعين بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان مع تجريدهم من الرتب والنياشين ، وأن يكونوا متفرقين فى الجهات التى ينفون إليها .

وكان من الضرورى أن يصادق توفيق على الحكم ، هذا الحكم الذى أقلقه ، إذ تمنى من كل قلبه أن تنجح حركة الشراكسة ويأتوه برءوس القادة الثوار ليتخلص من ذلك الكابوس الذى يطبق على أنفاسه ، فقلبه يملؤه الحقد والغيرة بعد أن أصبح حاكمًا بلا حكم ، لذا نراه يرفض التصديق على الحكم ، كما نصحه وكيلا بريطانيا وفرنسا ، هذا فى الوقت الذى استند فيه على الباب العالى ، فأرسل إليه يشكو من أن التحقيقات مغشوشة والأحكام غادرة .

وانتهزت الدولة العثمانية الفرصة للتدخل وطلبت أن تحال الأوراق عليها ، وأخيرًا انتهت المسألة بأن عُدِّل الحكم واستبدل النفى مدى الحياة إلى النفى البسيط من البلاد ، ولم يحرموا من الرتب والنياشين .

لقد رأى الثوار التنازل عن تصميمهم فى مسألة الحكم خوفًا من أن تضرب الحركة الوطنية عن طريق التدخل الخارجى ، لكن هذا أعطى توفيق فرصة ليتنفس الصعداء ، فأصر على استقالة نظارة الثورة ، بينما رأت الثورة صراحة أن ينزل توفيق من على عرشه ، وذلك عندما تمسك بإسقاطها ، وجرت مساع من أجل التوفيق بين الطرفين « سعى الكثيرون لدى الحضرة الخديوية لاستمالته إلى الرضا عن النظارة ، ولكن جنابه لا يزال يأبى التساهل بأى شىء ، وعقد عزمه على ألا يتنازل عن شىء أبدًا مهما كانت العقبى »[1] .

وقوى نفوذ الخديو بتأييد المساندين له ، واعتبر أمام الثوار أنه خائن ، وأن الوقت قد حان للفصل بينه وبينهم ، ورأوا أن يعقدوا مجلس النواب لتحال عليه قضية الخيانة الخديوية ، وسيطر التفكير على ضرورة التخلص منه بعزله ونفى جميع نسل محمد على ، وبناء على الحماس الوطنى المشتعل فى نفوس المصريين رئى أن يعين البارودى حاكمًا عامًا لحكومة مؤقتة ريثما ترتب الأمور . وانقطعت نهائيًا العلاقة بين توفيق والنظار ، وأصبح الموقف خطيرًا للغاية . وانتشرت الأنباء عن تصميم الثوار على خلع الخديو ، وإن نظام الحكم الذى ستخضع له مصر هو النظام الجمهورى .

وجاء التأييد من الأمة لقواد ثورتها ونظارتهم . ففى برقية من محمد عبده إلى بلنت إبان تواجده فى لندن يقول له : « البلاد جميعها مع عرابى وسامى ، والفلاحون والبدو والعلماء متحدون وليس بيننا غير واحد فقط ضد الحرية المصرية »[2] .

وتصل التأييدات من جميع أرجاء مصر إلى نظارة الثورة تطالب ببقائها ضاربة باتجاه توفيق عرض الحائط ، فنرى على سبيل المثال إحدى الرسائل تسطر « عن عموم أهالى دمياط البالغ عددهم نحو الأربعين ألف لهيئة النظارة السامية أيدها الله ، وإننا على ثقة تامة من هيئة هذه النظارة ولا نرغب إلا بقاها لما شاهدناه من وحسن مساعيها فى راحة الأهالى ، وخلاص رقاب أهالى القطر من رق الاستبداد وإيصالهم حقوقهم ، والآن لنؤكد لسعادتكم شدة الوقوف التام مع هذه النظارة »[3] .

(١) المفيد ، عدد ٥٧ فى ١٨ مايو ١٨٨٢ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 272 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / د / ٢ .

(ب) خطوات التداخل الأجنبى المشترك

رأت بريطانيا وفرنسا أنه يجب أن توضع نهاية لهذا « العبث الوطنى » كما عدته ، وأنه آن الأوان للتدخل الفعلى لكسر شوكة الحركة الوطنية التى سلبتهما الكثير ، وإرجاع الحال إلى ما كان عليه قبل الثورة ، وأنه لا سبيل لذلك إلا بالقوة وخصوصًا بعد أن تردد على أوسع نطاق مسألة إسقاط نظام الحكم الموجود وإقامة آخر يتفق مع مبادئ الثورة .

وعلى الفور أعلنتا للدوائر الأوربية فى ١٤ مايو ١٨٨٢ عن عزم حكومتيهما - نظرًا للأحداث التى وقعت أخيرًا بمصر - أن ترسلا أسطولاً مشتركًا إلى مصر كمظاهرة بحرية ، الغرض منها تقوية سلطة الخديوى وسلطة القانون فى مصر ، وقد كلفتا سفيريهما فى الآستانة أن يشيرا على الباب العالى تجنب كل تدخل ، واتفقنا على أن ترسل كل منهما ثلاث سفن حربية إلى الإسكندرية حيث تبقى على أتم استعداد لاستلام أوامر أخرى ، وأن الإتفاق تام بين بريطانيا وفرنسا إذا وصل الأمر لاستعمال القوة[1] .

ومما لا شك فيه أن الهدف الأساسى كان إرهاب الثوريين بوجود قطع الأسطولين فى المياه المصرية، فيكون التراجع والتسليم هذا من ناحية، وتثبيت سلطة الخديوى وإعطاءه الثقة بالتأييد والمساندة لضرب قوى الثورة من ناحية أخرى .

وجاءت النتيجة عكسية ، فقد أصبح الخطر كبيرًا بعد هذا التهديد ، فأحس الجميع أن توفيقا وراء ذلك وحنقوا عليه ، وكان للعسكريين النصيب الأوفر فى ذلك لدرجة أن محمد عبيد « أراد محاصرة سراى الإسماعيلية ولكن البارودى منعه »[2] ، وخلق هذا الوضع الجديد عملية التحام قوية للعمل المشترك من أجل الوقوف أمام هذا الاعتداء ، فكان القسم الذى تعاهد عليه ثوار مصر للمدافعة عن أرض الوطن الغالية ، والمكان غرفة خاصة بعلى فهمى فى قشلاق عابدين ، والحاضرون قادة العسكريين جميعهم - البارودى وعرابى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت ويعقوب سامى وعلى الروبى وعلى فهمى ومحمد عبيد وأحمد عبد الغار والزمر وحسن جاد

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٣١ / ٢٨ ، ص ١١ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ .

وعلى يوسف ومحمود فهمى - وإمام المثقفين محمد عبده ، وكان السبب كما أعلن البارودى « حضور مراكب لمحاربتنا وأن القصد من الاجتماع هو أن نحلف يمينًا على أنه إذا حصل حرب فنكون يدًا واحدة مع بعض وأن من يفشى السر تشق بطنه ويقطع إربًا ويلقى »[(١)] .

وهكذا تم الارتباط الوثيق والعهد الصادق والعمل حتى آخر نقطة دم والتمسك بالدفاع إلى آخر المدى ، ومن الغريب أننا سنجد أن من بعض الذين أقسموا كانوا هم من طعنوا الثورة فى النهاية .

ومضت بريطانيا وفرنسا فى باقى الخطوات ، فأعطتا سلطتيهما إلى قنصليهما للتصرف وفق مصالحهما تجاه الحالة فى مصر ، وكانت أولى تلك المصالح إسقاط الثورة والقضاء على نفوذ القادة الثوار ، وحاول ماليت إقناعهم بالانسحاب من الميدان وذلك بترك مصر فرفضوا ، كما عهد إلى سلطان بذلك فأبوا، كذلك حاول على مبارك إذ لم يكن يسعده استمرارية الثورة . إلى هذه الدرجة أراد التدخل الأجنبى أن يكسر الثورة ، وهذا ما تم لبريطانيا فى نهاية الأمر ، لكن فى ذلك الوقت رفض الثوار وبكل شدة وأعلنوا أنه من المستحيل مغادرة مصر .

وعندما وُجد أن التفاهم وديًا لا يجدى مع الثوار جاءت المذكرة المشتركة فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ ، قدمها القنصلان موقعة منهما إلى مجلس النظار والخديو يطلبان فيها إبعاد عرابى مؤقتًا من مصر مع بقاء رتبه ومرتباته ، وإرسال كل من على فهمى وعبد العال حلمى خارج القاهرة مع بقاء رتبهما ومرتباتهما ، وأخيرًا استقالة النظارة ، وأنهما باسم حكومتيهما وبتفويض منهما ينصحان رئيس النظار ونظاره بتقديمها ، وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وأنهما يرميان من وراء هذا التدخل المحافظة على الوضع الراهن وليس لهما مقصد غير إعادة نفوذ خديوى مصر[(٢)] .

ورفضت نظارة الثورة مطالب الدولتين ، ورحب توفيق واحتضن المذكرة وقبلها ، وعلى أثر ذلك قدمت النظارة استقالتها فى ٢٦ مايو احتجاجًا على قبول الخديو التدخل الأجنبى ، فأعطى هذا المزيد من السعادة لتوفيق ، وعلى الفور أرسل منشوره إلى المحافظين والمديرين يبرر وجود قطع الأسطولين فى المياه المصرية ،

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٩ .

(٢) Doc. Dip. F. Tom IV, No. 336, 23 Mai, 1882. p. 323 .

وكان القادة الثوار قد بدءوا فى الاستعداد للدفاع عن مصر بجمع القوات الإمدادية ، فأمر توفيق بإيقاف ذلك وتتلد أعمال النظارة .

(جـ) خروج بعض كبار الملاك من الركب الثورى

مما لا شك فيه أن مبادئ الثورة التى أعلن عن تنفيذها ، وبدأت فعلاً خطوات ناجحة فى سبيل تحقيقها رسَّبت فى الأعماق لبعض من كبار الملاك أن سلطتهم سوف تنهار ، وأن مصالحهم سوف تنتهى ، وأن فلاحيهم سوف تعصى ، وأن أملاكهم سوف يُقتطع منها بعملية المساواة التى غدت أساسية فى نداءات الثورة ، كما كانت تلك الخطب التى تلقى فى الاجتماعات قد أخذت تعطى الإشارة للتحديات الصريحة لهم ولمصالحهم ، ثم أن ثورية النظارة فى حل الكثير من المشكلات ومحاولات القضاء على الأمراض الاجتماعية كالرشوة مثلاً التى كانت فى قمة التطبيق قبل الثورة أقلقتهم .

مثَّل هذا الجانب خير تمثيل سلطان - بعد أن أغرى البعض وضمهم إلى جانبه - الذى لعب دورًا مهمًا منذ بداية الثورة فى توثيق أواصل التكاتف بين الأعيان والعسكريين . وقد لمسنا نشاطه الملحوظ هذا وسمعته الطيبة ، وكان ينظر إلى عرابى فى بداية الأمر أنه دونه ولا يملك ذلك الكيان الاجتماعى الذى يخشى منه على مركزه ، فهو كبير بين ناسه ، سلطان للفلاحين ، لكنه يريد المزيد ، لذا رأى فى عرابى أداة لتحقيق طموحه ، ولكنه لم يكن يتوقع تلك التأثيرات الفعالة لعرابى على الشعب ، إذ استحوذ على الزعامة الوطنية التى ارتبطت مع إحساس المصريين بأنه مبعوث من قبل الله لإنقاذ مصر .

من هنا ، ومن سمات النفس البشرية أن ينتاب سلطان الضيق بعد أن سلب منه عرابى قلوب الأمة جميعها ، حيث إن ذلك يفقده الزعامة والمكانة التى يرنو إليها ، هذا وقد ترسبت فى أعماقه منذ البداية أنه لم يشترك فى نظارة الثورة الأولى ، ولكنه عوض برئاسته لمجلس النواب ، ومضى فى المسيرة الوطنية لدرجة أن محمد عبده يذكر « جاء كلام عن الخديو فى جلسة ، فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابى، وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب »(*) .

ولكن عندما تولت نظارة الثورة الثانية ، ولم يعين فيها شعر أنه لم يقدر التقدير الصحيح ، وكان ذلك نقطة بداية تحوله تدريجيًا إلى جانب معارضى الثورة، ومن ثم ضعفت نفسه بعد إحساسه أنه بفضله أمكن إذكاء روح الثورة ، وعندما جاء ليجنى

(*) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٧٦ .

ثمرة ما غرسه كان غيره أسبق منه . وراح ماليت يرقب الأمر بإتقان ويدرسه جيداً ، فوجد أنه من الممكن جداً سحب سلطان من الثورة ووضعه فى المعسكر المضاد لها ، فإن استقطاب رجل له كيانه المادى والأدبى من الثورة سيؤثر فى الموقف ، ونفس الشىء عبر عنه توفيق ، ومضى الطرفان لتليين قوة سلطان ، فاهتزت وطنيته ومال بعد أن خضع للتأثير .

ظهرت طبيعة الخلاف بين قادة الثورة وبين الخديو من خلال مسألة الحكم على أصحاب المؤامرة ، واستقر رأى القادة على دعوة مجلس النواب للانعقاد للنظر فى هذه المسألة دون صدور أمر من توفيق تطبيقاً للمادة التاسعة من الدستور بالرغم من معارضة سلطان لذلك ، وجاء النواب من كل مكان إلى القاهرة ، وكما يذكر ماليت « وتوافدو على بيت عرابى وتقرر عقد الاجتماع ، وأنه سيعلن فيه عزل توفيق ونفى أسرة محمد على ، وتعيين رئيس النظار حاكماً على مصر »[١] .

ولم يتم ذلك بعد سعى الساعين لتهدئة الموقف والوصول إلى تسوية ظاهرية بين الطرفين على أساس بقاء النظارة وتعديل الحكم العسكرى على المتآمرين ، وكان هذا من سلبيات الثورة ، إذ أن من المفروض المضى فى الإجراءات وإسقاط الحكم الخديوى ، حقيقة لقد سارت فى خطواتها من أجل التحقيق ، لكنها عند وقت التنفيذ يكون التراجع، وربما كان التدخل الأجنبى ماثلاً أمامها إذ أقدمت على ذلك .

بدأ سلطان فى العمل من أجل إسقاط النظارة ، فعقب وصول قطع الأسطولين إلى المياه المصرية ، وصّل إليها إبداء رغبة توفيق فى استقالتها . وعندما رفضت ، نراه يبلغ ماليت عن إمكانية طلب استدعاء مجلس النواب لسحب الثقة فيها فتسقط، لكنه عاد مرة أخرى وأبان أنه لا يمكن الاعتماد على النواب لشعورهم السيئ نحو وجود قطع الأسطولين .

واشتد موقف النواب بمذكرة مايو ، إذ تركت الأثر الجارح فى نفوس الجميع . فقرروا أن يرسلوا بصورتها للدولة صاحبة السيادة لتتدخل فى الأمر ، هذا فى الوقت الذى تكثفت فيه الاجتماعات فى بيت البارودى ، تلك التى ضمت « العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان ، وانضم إليها أعضاء المجلس ، وتكلموا فى خلع الخديو وتنزيله ، وفيمن تصبح ولايته »[٢] . وهذا ما يؤكد موقف كبار الملاك من النواب وغيرهم فى استمرار مسيرتهم مع المد الثورى .

---

(١) Egypt, No. 7, (1882), No. 173 . May 11, 1882, p. 120 .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٩٣ .

قوى الثورة والتحدى والانتصار

انتـهى الأمـر باسـتـقـالة النظارة ، وفى الوقت الذى وقَّع فـيـع نظار الثـورة استقالاتهم « وقعوا بينهم قرار خلع الخديو »[١] ، الذى أحس أنه بهذه الاستقالة قد ملك الأمـر ، فـفى ٢٧ مـايو ١٨٨٢ جمع النواب والعلماء والعسكريين - كـانوا اثنى عشر ضابطًا منهم يعقوب سامى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى وعلى فهمى - وأعلمـهم « أن النظارة فضت ، والجـهادية صارت تحت ملاحظته ، وأن كلاً منهم مسـئول عن وظيـفـتـه ، وإذا وقع من أحـدهم أو من تحت إدارتهم أدنى خلل يضـر الراحة العمومية والأمن العام فيكون مسئولاً عن ذلك ، فضلاً عن مسئولية جميعهم بالحفظ والصيانة واستتباب الأمن » ، كما أعلن قبوله لمذكرة مايو ، فما كان من يعقوب سامى وطلبة عصمت إلا أن ثارت ثورتهما ، وتقول صحيفة الفسطاط أن الضباط قالوا « نحن رافضـون جميع ذلك ولا نقبل النوتة المتقـدمة من الدولتين ولا عزل عرابى ، فسعادة سلطان باشا نادى طلبة باشا ليرجع فما امتثل . ثم خرج سعادة عمر باشا لطفى وناداه ، فرجع إلى وضعه الأصلى وتكلم مثل كلامه الأول وخرج بالحالة الأولى ، وتوجه طلبة باشا ومن معه إلى قشلان عابدين حيث محمود باشا والعرابى وعمر بك رحمى »[٢] ، وقد صادق على هذا القول كثير من المجتمعين، وهنا يستلفت النظر أن الثورة أصبـحت مقـرونة بوجود عـرابى وليس بأحد غيره ، ونراه عقب اسـتقالة النظارة مباشرة يرسل إلى العسكريين ليخبرهم بالاستـقالة وبرئاسته للحزب الوطنى . وواضح أنه لم يهتم بمنصب النظارة قدر اهتمامه بأنه مازال القائد لتلك الثورة .

لم يكن من السهل على الأمة عامة والعسكريين خاصة أن يتقبلوا إبعاد عرابى عن السلطة الرسمية ، وبدا الأمر وكان العسكريون سيدخلون معركة من أجل فرض إرادتهم بقوة السلاح والتهديد لإعادة عرابى ، وفى محضر استجواب السيد قنديل أقر بأنه « ثانى يوم استعفاء النظارة بلغنا أنه حاصل هيجان فى البلد ، وناس كثير متوجهين إلى قشلان رأس التين فقمت وتوجهت وأخذت وكيل المحافظة ووجدت مصطفى عبد الرحيم وسليمان سامى وسليمان غليب وجملة ضباط يقولوا هيا نصرف الجيخانة ولما سألتهم عن السبب فقالوا بأنهم سيكتبون للمعية بألا يقبلوا ناظر جهادية خلاف عرابى ، وأن لم يجابوا سيستعملون قوة السلاح »[٣] .

---

(١) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٢ . (٢) الفسطاط ، عدد ٧ فى ٣١ مايو ١٨٨٢ .

(٣) محاكمات الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١١٦ .

وانهال سيل البرقيات على توفيق وسلطان بطلب العسكريين جميعهم من جهادية وبحرية وشرطة بإسقاط الأمر الخديو بالاستعفاء ، وبذلك فرض التهديد إذا لم يجابوا إلى ما طلبوه ، ووصل الأمر من البحرية أن طالبوا ليس فقط بعرابى بل النظارة جميعها « ولا يرغبون عنها بديلاً »[١] .

حدث ذلك أثناء محاولات مكثفة من أجل إنقاذ الموقف ووضع الحلول ، وكان قد تم إتفاق بين المجتمعين لدى الخديوى على اجتماع آخر بمنزل سلطان ، وفيه تجلت زعامة عرابى ، فقد كانت ثقته لا حدود لها ، قام خطيبًا فبين ظلم الأسرة المالكة ، وهاجم توفيق هجومًا عنيفًا ، وطالب بإسقاطه فوافقه العسكريون ، كما أعلن أمين الشمسى وفهمى عمر ومراد المسعودى وأبو عبد الله من نواب الشرقية ومحمد أفندى جلال من نواب المنيا تمام موافقتهم لما طالب به عرابى ، كما أظهر العلماء تأييدهم للموقف ، ويقر سلطان فى شهادته أنه كان معروف اتجاههم[٢] . وهنا ظهر سلطان فى الاتجاه المعارض ورفض الطلب وبيَّن أنه لا ينبغى التكلم بخلع الخديو حيث إنه تولى بأمر االدولة العلية بالإتفاق مع الدول العظمى . وعلى أثر اختلاف وجهات النظر ، هدأ الموقف وطلب المجتمعون من عرابى حفظ الأمن العام .

كذلك فإن القناصل عندما أيقنوا أن الأمر بيد عرابى وخصوصًا بعد أن أعلن الضباط تخليهم عن الأمن فى تهديدهم لتوفيق ، طلبوا من عرابى الأمان لرعاياهم[٣] .

وجد عرابى نفسه فى موقف يدعوه للمحافظة على الأمن ، وليس فقط أهل مصر الذين يطلبون منه ذلك ، ولكن أيضًا القائمين على أرضها ، وكان من السهل أن يوافق توفيق على إعادة عرابى أمام هذا الضغط ، وخصوصًا بعد أن وردت برقية من السلطان تفيد بالاعتماد على عرابى فى حفظ الأمن العمومى ، وضاعت فرصة من الثورة كان يجب ألا تتركها وتتصف بالخديو وتنزله من على عرشه .

كان توفيق على دراية بجميع الاتجاهات التى تعمل ضده ويشعر أنه مهدد فى كل لحظة ، فراح يحيط نفسه بإجراءات أمن مشددة ، هذا فى الوقت الذى توجه فيه وفد يمثل قوى الأمة مكونًا من سلطان . وسليمان أباظة ، وحسن الشريعى .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢ / د / ٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٤ .

(٣) Egypt. No. 8. (1882), No. 101. May 28, 1882, p. 43 .

وحسن موسى العقاد ، ومحمود العطار ، وهلال ، ومراد السعودى ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ عبد الباقى البكرى ، والشيخ عبد الخالق السادات ، وبطريرك الأقباط ، وحاخام اليهود[١] وكان ذلك - إذا استثنينا سلطان - مظهرًا من مظاهر الإرادة القوية للقوى الاجتماعية على أرض مصر والوحدة الوطنية من أجل بقاء زعيم فى منصبه استمرار لمسيرة الثورة ، وطالبوا توفيق بضرورة إرجاع عرابى . وفى البداية أبدى تمنعه ، لكنهم أعلموه بالأخطار التى تنتج عن رفضه فوافق . وعاد عرابى بإرادة الأمة إلى نظارة الجهادية ورئاسة الجيش .

وحُمل القرار إلى عرابى على يد الشيخ البكرى ، فيقول : « وتوجهنا لمنزل أحمد باشا عرابى ، فوجدناه غاصص بضباط الجهادية ، فسألنا عنه فدلونا على أوضه ، فدخلت بها فوجدناها ملآنة ، البعض طلبة علم والبعض من العلماء أعرف منهم الشيخ سليم عمر والشيخ حسين الطرابلسى ، والبعض من التجار أحمد أفندى الأرناؤطى رئيس تجار خان الخليلى وأمين أفندى أبو زيد ، فسلمنا الأمر الكريم للمومى إليه »[٢] .

ومع عودة عرابى نجده يكتب للقناصل ويطالب بإعادة مذكرة الدولتين وانسحاب قطع الأسطولين ، ووضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والنظار ، وقطع المخابرات والعلاقات المباشرة مع الدول بما فيها الدولتان إلا بواسطة الباب العالى[٣] .

ومن ذلك يتضح أن عرابيا لم يعد إلى مركزه ليضع نفسه داخل منصب الجهادية فقط ، وإنما عاد وكله سلطة وقوة ونفوذ وضعف توفيق أمام الجميع فى الوقت الذى ارتقى فيه عرابى درجات ودرجات على أكتاف الأمة ، وكان من الممكن وجود مزيد من الانتصارات للثورة ، حيث أصبح جليًا أنه لو عرابى أراد فيكون ، ليس بناء على جبروته وسلطانه ، ولكن لان قوى الشعب كانت بجواره ما عدا قلة معارضة يسهل القضاء عليها بممارسة القوة والضغط ، وبصفة عامة فإنه إذا قيست الأمور بظروفها ووقت حدوثها يكون الاتجاه المعتدل وغير المتطرف هو السائد فى كثير من الأحيان .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٢٢ فى أول يونيو ١٨٨٢

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١١٣

(٣) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ٢٧٨

وازدادت شهرة عرابى حتى خارج مصر ، وازدادت الدولتان قلقًا فى نفس الوقت ، ومارستا كل الطرق لإمكانية إبعاده من الطريق ، فقد عرضتا عليه - عن طريق قنصليهما - مغادرة مصر وإغراءه بذلك ، ولكنه رفض . فلم يكن الزعيم الذى يرضى أن يخون ويأخذ ثمنًا يبيع به وطنه ، فقد مضى حتى آخر لحظة - رغم ما قيل عنه - مثالاً للوطنية المصرية .

لكن ماذا عن انعاكاسات هذه الأحداث على الشعب ؟

كان الشعب سعيدًا بثورته وقادته وتنفس الصعداء عقب ليل طويل معتم بالسواد ، لكن الإشراق لم يستمر طويلاً بعد أن بدأت توجه للمصريين الضربات على أيدى الأعداء التى وقفوا أمامها بحزم وقوة ، ففى خطاب من عرابى إلى بلنت فى ٢١ مايو يبلغه « إن جميع شعب مصر قد آلمه مجىء قطع الأسطولين واعتبروا أن ذلك علامات تنم عن نيات سيئة من الدولتين تجاهم وهو اعتداء لا سبب له ولا ضرورة ، وأنهم لن يسمحوا لأية قوى بأن تتدخل فى شئونهم الداخلية ، وسيحتفظون بجميع امتيازاتهم التى أقرتها التسويات الدولية ، ولن يسمحوا أن ينال منها أحد ما داموا على الحياة »[١] .

ولم تكن قطع الأسطولين فقط التى أشعلت النفوس ، أيضًا المذكرة التى كان وقعها مؤلمًا وتأثيرها سيئًا للغاية ، وبلغ الاضطراب مداه وسيطر القلق على الجميع، ويقر عرابى فى محضر التحقيق معه « حضر إلى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمو الحكومة وقدموا لنا مئات من العرائض محتجين فيها على عمل الخديو هذا وطالبين أحد أمرين ، إما رفض اللائحة ، وإما عزل الخديو الذى قبل تدخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية ، والحق أن جميع المسلمين قد تأثروا بتلك اللائحة وأنكروها غاية الإنكار وكانت تأتى إلينا المحاضر مختومة من المديريات والمحافظات ، وكان حضور الناس بها جهرة إلى مصر لا خفية وبحضور جميع الناس لمنزلى إعلانًا بعدم قبولهم اللائحة المذكورة ومن يقبلها ، وكان ذلك بحضور أعضاء مجلس النواب ، وكلهم مصادقون على ذلك ، والمحضر المقدم من أهل مصر العاصمة عند حضوره وتلاوته قام الناس الموجودون من النواب والعلماء وغيرهم الذين لم يسبق ختمهم وختموا عليه فى منزلنا »[٢] . واتحد الأعيان والعلماء والتجار وقدموا محررات بأختامهم وفتوى شرعية من العلماء بوجوب عزل الخديو بمقتضى الشرع الإسلامى .

(١) Blunt . Secret History of the English Occupation of Egypt . p. 281 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣ / ١ .

أحس المصريون بأن هذا التدخل تهديد لوطنهم ولكيانهم ولثورتهم ولدينهم ، فقد أفقدهم كل ثقة فى حاكمهم الذى تسبب فى كل ذلك « وكانت الأسواق والشوارع والحانات والمنازل عبارة عن مجتمعات يقضى الناس فيها أوقاتهم بالتداول فى أحوال مصر وأمور سياستها وفيما عسى أن تؤول إليه تلك الحال »(١) .

واستمر الزحف على القاهرة حتى امتلأت بآلاف من المعارضين ، وكثرت الاجتماعات بشأن إيقاف هذا التدخل السافر ، واجتمع الأعيان وأقروا أن ليس هناك شخص واحد على أرض مصر يقبل تلك المذكرة ، وتؤكد صحيفة التيمز حقيقة هذا التكاتف لقوى الأمة فتقول « انطلق الأزهريون ونواب المجلس وأعيان الفلاحين وبعثات المدارس والتجار والحرفيون ، جميعهم رافعين شعار رفض المذكرة وعودة عرابى »(٢) .

وجاءت عودة عرابى إلى السلطة - بعد أن التصقت به الشخصية الكاريزمية - لتلطف من الأجواء وتريح النفسيات ، فنرى تلك الفرحة التى عمت أرجاء مصر كلها لانتصار الأمة وزعيمها المختار ، وانهالت التهانى لتبارك بالنجاح ولتعطى المزيد من التأييد ، فكانت من أعيان وعلماء وتجار وموظفين وحرفيين وعمد ورؤساء أقسام وفلاحين .

وأصبح يطلق على عرابى « غاريبالدى مصر » ولم لا وهو منقذها وحاميها ومحررها من الظلم والاستبداد ، فقد كان يمثل النموذج المصرى الأصيل ، فلأول مرة يكون هناك ناظرًا بلا نظارة ، إذ كانت مصر فى حاجة إليه وبقيت بجواره فى ذلك الكفاح حتى النهاية ، فحصل على الحب الذى لم يصل إليه أحد ، ومحى اسم توفيق فى مصر حيث إن الآلاف من الآباء سموا أطفالهم باسم عرابى ووصل الأمر إلى تلقيبه فى بعض الصحف « مولانا أمير المؤمنين سعادة أحمد باشا عرابى »(٣) ، وأخيرًا فقد كان للمبادئ التى بثها فى أذهان المصريين سببًا كافيًا لأن يستحوذ على ذلك . . فكثيرًا ما يؤكدلهم مساوئ الأجانب ، كما يبين انه سينقص فوائد المرابين ، وبالتالى أضحى لذلك رد فعل على الأوربيين وخاصة الإنجليز ، فقد راح كولفن يوهم حملة السندات أصحاب المصالح فى مصر بأن عرابيا وجماعة الحزب الوطنى من الثائرين المتعصبين الذين لا يحجمون عن العمل على هبوط السندات فى البورصة

---

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٣ .

(٢) The Times, May 25, 1882

(٣) الضطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

إذا أتيحت لهم الفرصة ، وأنهم نجحوا فعلاً فى تخفيض قيمة الضمانات[1] ، ومن هنا كان لابد من العمل على ضرب مصر الثورة .

الاحتكاك وبداية الحرب والمسيرة الثورية :

التحرش بين السكندريين والأجانب

وصلت الحالة إلى أقصى درجة من الاستياء فى تلك الظروف التى تعيشها مصر ، حقيقة أن الزعامة أصبحت فى يد عرابى الذى له من المكانة ما لا يوصف ، لكن لم يكن وحده فى الميدان ، وإلا لانتهى الأمر وأصبحت مصر للمصريين . كان هناك حاكم متردد وضعيف وجد له السند فى الاعتماد على القوى الخارجية ، وهناك أسطولان أجنبيان فى المياه المصرية كان لهم الأثر السيئ حتى أن توفيقا يعترف بقوله « إن الأهالى على أثر وصول السفن الحربية الأجنبية إلى الإسكندرية قد هاجت نفوسهم ويقولون إن الخديو هو الذى أتى بهذه السفن ليسلم البلاد إلى الكفار »[2] ، وهناك الوكلاء الأجانب الذين يخططون على أرض مصر لوأد حريتها التى حصلت عليها ، وهناك مندوب خائن من قبل الباب العالى وضع يده فى يد أعداء المصريين ، وهناك أتراك ومستتركين متربصين ومتمرين لإجهاض الثورة ومعهم القليل من المصريين أمثال سلطان ، وأخيرًا هناك الأجانب الذين رمى بهم المجتمع الأوربى ليأتوا مصر ويستمتعوا بخيراتها ويستبعدوا أهلها ويذلونهم ، وابتليت الإسكندرية بهذه العناصر ، فقد كانت سيطرة الأجانب عليها واضحة للغاية، وعلى حسب التقرير النمساوى بلغ عدد سكانها فى هذه الفترة ٢٣ ألف من المصريين إلى جانب ٨ آلاف من الأجانب[3] ، شملوا اليونانيين والإيطاليين والمالطيين ، وجميعهم يعملون بالتجارة وأغلبهم يعمل بالربا .

وكانت الإسكندرية بحكم موقعها وطبيعة أهلها أكثر تأثرًا بتيارات الثقافة ، وأكثر وعيًا وتطورًا ، ووجدت الحركة الفكرية فيها التربة الصالحة والمناخ المناسب ، خصوصًا بعد أن تبلور الرأى العام فيها فصحافتها ، وجمعياتها ، واجتماعاتها ، وحماستها ، وأصحابها كانوا مهيئين بالقدر الكافى لتخرج منها الثورة على الأجانب وخصوصًا عقب ازدياد حوادث شغبهم .

مع تلك الظروف كان لابد من الاحتكاك النهائى ، ووضع فاصل لتلك التصرفات ، ويجب ألا ننسى أن شعب مصر هو شعب مسلم تقى وكان يجد لما تم

(1) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 214 .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ١٦ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) الأشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٦٢ / سياسى ، ١٤ أغسطس ١٨٨٢ ، ص ٢ .

على أرضه الطاهرة اعتداء صليبى صارخ ، ومن هنا تأجج شعور الكراهية وبطنت الأحقاد، وأشعل الوقود تلك الحملات التى شنت على الأجانب وكانت تمثل الحقيقة، هذا فى الوقت الذى وفد فيه على الإسكندرية أجانب من مختلف مدن ومديريات مصر إذ رأوا فى وجود قطع الأسطولين حماية لهم من ذلك السخط الذى انتشر بين المصريين عليهم ، وعلى أرض الإسكندرية نراهم يظهرون التعالى فى معاملاتهم مع السكندريين ويظهرون أيضًا التمنيات والآمال فى الرغبة فى سحق الثورة ونجاح التهديد الإنجليزى الفرنسى « وكان اليونانيون والمالطيون يرهبون زملاءهم من القواربية أولاد العرب عندما أتت الدوننمة الإنجليزية وكانوا على الدوام يشيرون للوطنيين إلى المراكب الإنجليزية كما يشير الإنسان للصغير الشقى إلى العصى المختصة بتأديبه »[1] . وقد ازداد حنقهم بعد أن لمسوا اتجاهات حكومة الثورة إزاءهم ، وتلك الإجراءات التى اتخذت للتقليل من جبروتهم .

ووقعت حادثة الإسكندرية لينجلى فيها ذلك الشعور ، ولا يهمنا كثيرًا أن نبين هل هى مدبرة أم لا ؟ ومن الذى دبرها ؟ ولماذا ؟ ومن خطط لتنفيذها ؟ وكيف أنها اتخذت ذريعة لضرب الإسكندرية ؟ حيث أظهر ذلك الكثير من المسجلين لتلك الحادثة ، لكن كل ما يمكننا قوله أن أسبابها ليست بجديدة فى شيء ، وأن حوادث الاعتداء من الأجانب على المصريين كثيرًا ما حدثت ، ولكن الجديد هو أن الأمة جميعها قد وصلت فى ذلك الوقت إلى قمة الضيق ، وكان لا يمكن أن تتحمل فوق هذا بعد أن فاض الشعور بضرورة تحطيم الأجانب ورد اعتداءاتهم ، هذا فى الوقت الذى رأت فيه القوة الأجنبية استئصال هذا الشعور من أعماقه ، وكان القناصل على رأس تلك القوة ، إذ وجدوا من الضرورى القضاء على الحرية الجديدة التى ولدت فى مصر ، ولم لا وهم يمثلون دولهم الاستعمارية . وعقد قناصل الدول بالإسكندرية عدة اجتماعات بدعوة من قنصل بريطانيا وتشاوروا فى إمكانية تشكيل قوة دفاعية أوربية فى الإسكندرية ضد أهلها وتزويدها بالسلاح ، وكان لماليت دوره الكبير فى عملية التسليح وتشجيعها[2] .

وعندما أخذ عرابى على عاتقه مسئولية الأمن ، صدرت الأوامر المشددة للبوليس التى وصلت إلى حد أنه فى حالة حدوث مشاجرة بين أى من الأوربيين والمصريين أن يثبت الخطأ على المصرى بالرغم من براءته ، وذلك منعًا لأية مشاكل ممكن أن تطعن مسئولية عرابى ، وتكون فاتحة لاحتكاكات خارجية ، فيذكر مراسل صحيفة التيمز أنه بطريق الخطأ قاده (عربجى حنطور) فى اتجاه معاكس

(١) المفيد ، عدد ٦٢ فى ٣ يوليو ١٨٨٢ .   (٢) المصدر نفسه ، عدد ٦٣ فى ٦ يوليو ١٨٨٢ .

«فاحتججت بهدوء ، وكان هناك عسكرى يقف قريبًا ، فأسرع بالتدخل فى الأمر وأمر العريجى بإطاعتى وتوصيلى »[١] .

ومضى التحفز بين الطرفين ، فالسكندريون تجرى فى دمائهم روح الثورة ، فهم ثوريون بطبيعتهم ، وخصوصًا تلك الفئات العاملة المطحونة التى كانت تجد فى الثورة إنقاذًا لكيانها ، وأصبحت على درجة من الوعى الكامل ، هذا بالإضافة إلى الإحساس الكامل بأن تلك الإمتيازات التى يتمتع بها الأجانب سوف يقضى عليها نهائيًا مع انتصار الثورة واستمرارها على يد منقذ مصر الذى سيعيد الحقوق المسلوبة إلى أصحابها ، ومن سلبها إلا الأجانب .

وجاءت حادثة الإنفجار فى ١١ يونيو ١٨٨٢ ، وسواء أكان سببها ذلك الخلاف الذى وقع بين المالطى الخادم السابق للقنصلية الإنجليزية وبين الحمّار الذى طاف المالطى على حماره طوال اليوم وانتهى مطافه إلى حانة قريبة من قهوة القزاز بشارع السبع بنات وأعطاه أجرته قرشًا واحدا فجادله ، فما كان من المالطى إلا أن طعنه بسكين مات على أثرها وفر إلى أحد المنازل المجاورة ، أو ذلك الفران الذى خرج من فرنه ليشترى دخانًا فى نفس الشارع المسكون بأوباش اليونانيين والمالطيين ، وكان منهما اثنان يبيعان سمك لمصرى ، وحصلت بينهما مشادة ضربة أحدهما ، وهنا تدخل الفران فما كان من المالطى إلا أن أنزل عليه السب وضربه بسكين وهرب فأسرع أخو المضروب لنجدته ، واشتعلت المنطقة ، وبدأت الحرب بين السكندريين والأجانب .

وراح الأجانب يمطرون السكندريين من نوافذ بيوتهم بوابل من الرصاص فدافعوا عن أنفسهم بالعصى ، حيث لم يكونوا يمتلكون للسلاح « كان الضرب بالنبابيت وأرجل الكراسى والطرابيزات الخشب ، أما الأوربيين فكان الضرب منهم بالأسلحة النارية من الشبابيك »[٢] ، وخرجت الصيحات تدوى وكأنها حرب صليبية ، يدعون فيها المسلمين على النهوض ضد من يقتلون إخوانهم ، وقد انتهز السكندريون هذه الفرصة وأصبح بمجرد ما يضرب الأجنبى أحدًا منهم ضربة واحدة فقبل أن يكررها يكون الوطنى قد هجم عليه بكامل قوته ، متقويًا بكل ما يتيسر له إن كان عصا أو يداه أو أسنانه أو أظافره أو نحو ذلك ، وقد كان وكأنه بركان فاض ضد الأجانب ، ولم يكن هناك شك فى أن المشتركين كانوا ثوريين ، فالبعض منهم بالرغم من إصابته فإن الكلمات كانت تتردد بطلب نصرة عرابى والجهادية ، والرغبة فى الالتحاق بها .

---

(١) The Times. June I, 1882 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١١٦ .

وتناوبت الاتهامات فى إلقاء مسئولية ما حدث على الثوريين والمعسكر المضاد للثورة ، وكل ما يهمنا أن نخرج بأن هذه الحادثة كانت تعبيرًا صادقًا وانفجارًا لكبت طال مداه[١] .

أُتهم العقاد أنه المحرك لها وأنه اشترى « النبابيت » قبلها ، لكن لم تثبت التهمة عليه حيث أقر التاجر أنه جارى البيع لكل من يطلب منه[٢] ، كما أُتهم النديم على أنه أثار شعور السكندريين « بعقد جملة جمعيات قبل واقعة ١١ يونيو تتلى فيها خطب مهيجة ضد الأورباويين »[٣] ، لكن من المعروف أن خطب النديم تشعل القلوب نارا ، فقد كانت ثوريته جارفة ، وفى نفس الوقت لم تكن الخطب وليدة هذه الفترة فهى موجودة منذ أن تأسست الجمعيات قبيل الثورة ، ولربما زادت بعض الشىء فى ذلك الحماس الذى أضفى عليها الثورية الكاملة .

تجمعت العوامل لتدين عمر لطفى محافظ الإسكندرية الذى كان فى البداية مع التيار الثورى ، فهو من أعضاء الحزب الوطنى القدماء ، لكنه سرعان ما انسحب وأصبح عدوًا لهذا الحزب ، وارتمى فى أحضان المعارضين وعلى رأسهم توفيق الذى عرض عليه النظارة فرفض لا شىء سوى لعلمه بقوة زعيم الأمة وإصرار الشعب وتمسكه به ، وهذا ما تم وجاء عرابى للنظارة على أسنة الإرادة الشعبية ، فازداد حنقه عليه ، وعندما أخذ عرابى على نفسه مسئولية الأمن أمام الداخل والخارج ، ولكى يظهره أعداؤه بعدم القدرة على ما تحمله أرادوا زعزعة موقفه بتلك الحادثة ، ويذكر أن درويش المندوب العثمانى كان من المخططين أيضًا[٤] .

وانتهت الحادثة على يد سليمان داود ، إذ تحرك بعد أن وصله أمر عرابى الذى بلغه الخبر متأخرًا ، واستطاع أن يهدئ الموقف ، واستتب النظام . ولم يحدث تحقيق علنى ولا محاكمة ولا حتى توجيه أى سؤال لكل من عمر لطفى محافظ الإسكندرية وحسين صادق الذى كان يتولى البوليس .

وكان للحادثة أثرها على الأجانب الذين ساد بينهم القلق ، وامتلأت قلوبهم بالرعب ، وتدفقت الهجرة من مصر مباشرة ، وفى خطاب من صابونجى إلى بلنت يبين له « لا توجد أكثر من اثنى عشر محلاً أوربيًا مفتوحة ومغلق أبوابها ، ومنظر

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣ / أ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٦ .

(٤) Ninet , Arabi Pacha, p. 115

الأحياء الأوربية بالقاهرة بادى الكآبة ، ولكن الأحياء العربية مثل ما كانت عليه »[١] .
حتى السوريين وبعض اليهود أخذوا فى الرحيل بعد أن أغلقوا منازلهم ومحلاتهم وبذلك ولأول مرة انعكست الأمور فى مصر ، وأصبح الأجانب يقاسون ويتألمون لما وصلت إليه حالتهم على أيدى المصريين بعد أن مضى الوقت الذى كانوا يقسون عليهم ، وانقلب ميزان القوى ليثبت أن المصريين عند ثورتهم يطيحون بكل شىء .
ومن هنا كان لابد من تهدئة الموقف .

النظارة الثالثة

ذهبت الأطراف المعنية لضرورة تشكيل نظارة لاستتباب الأمن ، وأجبرت الحالة الأخيرة على إعطاء عرابى المركز والسلطة ، فإنه وحده القادر على أن يسوس الجماهير الثائرة ، وكان قنصلا ألمانيا والنمسا من أكبر المؤيدين لجعل عرابى مسئولاً فى النظارة الجديدة وذلك لضمان مصالح رعاياهما ، بينما رأى درويش المندوب العثمانى أن عرابيًا يستطيع أن يخفف من حدة الأوضاع ، وإنضم إلى هذا الجانب قنصل فرنسا ، وحاولوا إزالة الخلاف العميق بين عرابى وتوفيق . لكن لم تصف النفوس ، وأجبر الخديو على تشكيل نظارة يستمر فيها عرابى بنفس منصبه .

ولم يكن توفيق ليجرؤ على تشكيل نظارة بدون عرابى ، فقد أجبر من الشعب فى وقت لم تكن فيه نظارة على أن يكون عرابى ناظرًا ، وجرت المفاوضات ، وكانت مصادقة عرابى على النظارة أهم من مصادقة الخديو والدول ، وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ومعهما درويش فى الأمر واتصلوا بعرابى وتفاوضوا معه فى اختيار رئيس النظار الجديد ، فاستقر رأيهم بعد رأى عرابى على إسماعيل راغب لتشكيل نظارة ائتلافية[٢] .

وراغب باشا ليس مصرى الأصل وإنما هو مورى ، ومن قدامى رجال المعية ، لكنه انضم إلى الثورة ، ومنذ أواخر عهد إسماعيل ظهر اسمه وتردد فى الأوساط الوطنية بعد أن فتح منزله وجعله مقرًا للاجتماعات الوطنية ، حيث وضع فيه أول دستور لمصر فى العصر الحديث، وشارك الثوار فى أفكارهم وكان أكثر تطرفًا ، فإنه صاحب الاقتراح فى « قطع رأس الخديوى » إذ أشار على القادة « بإرسال بلوك لقتل الخديوى » لكن عرابيا يرفض ، وتؤكد وثائق الثورة ثورية راغب ، فيقر على الروبى

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p.456 .

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، رقم ١٩١/سياسى ، ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ .

أنه عقب إعلان مطالب الأمة فى التاسع من سبتمبر توجه عرابى ومن معه إلى طرف راغب وأخبروه بما وقع فجاوبهم قائلاً « إنكم لم تتموا المقصود بل كان يلزم إعدام الخديوى لنوال المرغوب »(١) .

وشكل راغب نظارته فى ١٨ يونيو ١٨٨٢ وفقًا لإرادته والتى لا يمكن أن تتم إلا بالإتفاق مع عرابى ، وعرضت على توفيق لمجرد الاعتماد ، وجاء فيها عرابى فى منصبه ، وسليمان أباظة للمعارف ، وحسن الشريعى للأوقاف وجميعهم ثوريون ، وكان هناك المعتدلون ، إذ اختير محمود الفلكى للأشغال العمومية وعلى إبراهيم للحقانية ، وعبد الرحمن رشدى للمالية ، أما الخارجية فقد تولاها راغب .

وكان برنامج النظارة المحافظة على الارتباطات الدولية، والفرمانات السلطانية، وتأسيس مجلس نواب بلائحته الأساسية والانتخابية . وعدم جواز مجازاة أى فرد إلا بعد محاكمة قانونية ، وألا تجرى مخابرات إلا من طرف ناظر الخارجية ، وذلك حتى يمنع تدخل وكلاء الدول فى شئون الحكومة ، وتخويل مجلس النظار مسئولية الحكم ، ثم توسيع دائرة المعارف والصنائع وتحسين أحوال الزراعة والتجارة(٢) .

العدوان الإنجليزى على الإسكندرية

كان واضحًا أن المساعى التى تبذلها بريطانيا من أجل إجهاض الثورة بكل الطرق الممكنة وبجميع تلك الوسائل التى استخدمتها ، بمساعدة القوى المعارضة ، وبالتهديد والوعيد ، وأخيرًا وجدت أن أفضل الطرق استعمال القوة لتوصلها إلى النجاح وتحقيق ما تصبو إليه . ولم تكن هذه المسألة بجديدة ، فهى منذ اللحظة الأولى كانت تفكر فيها لكنها لم تنفذها . فقد أرسلت قطعًا من أسطولها مع حليفتها فرنسا مرتين ، الأولى عقب التاسع من سبتمبر ، والثانية لتنفذ تهديدها الذى جاء فى مذكرة مايو ، وبعدها أصبح جليًا أنها قد صممت على إسقاط حرية مصر

وهنا رأت الثورة أنه من الضرورى عمل الاستعدادات اللازمة للدفاع عن الأرض المصرية وأيدت الأمة ذلك الاتجاه ، وبُدئ فى الإعداد للمواجهة الحربية بعد ذلك التصميم الذى أبداه القادة ، فقد كانوا متأكدين من الحصول على النجاح ،

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٩ .

(٢) فؤاد كرم ، النظارات والوزارات المصرية ، جـ ١ ، ص ص ١١٣ - ١١٧ .

أما الفشل فهذا أمر لا ينظر إليه إطلاقًا ، ومضى العمل فى التجهيزات الحربية على قدم وساق ، واستمر تدبير وسائل الدفاع بالرغم من أن الخديو قد منع عرابى من ذلك بناء على أمر السلطان العثمانى عقب إعلان بريطانيا احتجاجها .

وبدأت الخطوات التنفيذية للاعتداء الإنجليزى ، ففى أول يوليو ١٨٨٢ أعلن سيمور قائد الأسطول البريطانى أن عرابيًا معتزم على سد بوغار الإسكندرية لحصر السفن الإنجليزية الراسية ، وأنه سيمنع ذلك بالتدمير ، هذا فى الوقت الذى أرسلت النظارة إلى توفيق تبلغه أن السفن الإنجليزية قد أحاطت أماكن آلاتها بالسلاسل الحديدية الضخمة وأقامت حولها خنادق واستحكامات « ونحن لا ندخر وسعًا فى سبيل إعداد الأسباب والوسائل الكفيلة بالدفاع عن بلادنا » ، وأعاد قائد الأسطول الإنجليزى تهديده ووعيده وإنذاراته ، لكن لم يسمع له أحد مما اضطره أخيرًا فى ١٠ يوليو أن يرسل الإنذار النهائى « لتسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون »(١) .

وعقب هذا الإنذار عقد اجتماع بسراى رأس التين حضرة توفيق والمندوب العثمانى والنظار وسلطان ولواءات الجيش ، ودارت المناقشات حول إجابة طلب سيمور ، أو رفضه ، وأبان فيه مرعشلى باشا وهو من كبار مهندسى الاستحكامات بأن طوابى الإسكندرية تعجز بمدافعها القديمة عن مقاومة المدرعات الإنجليزية . لكنه وجد المعارضة من وكيل البحرية ومحمود فهمى ، وصمم الجانب الثورى على الدفاع عن البلاد ورفض إنذار القائد البريطانى ، وقطعت العلاقات الرسمية بين مصر وبريطانيا وأصبحا فى حالة حرب ، وضربت الإسكندرية فى ١١ يوليو .

وقبل أن تطأ أقدام الغزاة الأرض المصرية حُرقت المدينة ، وتعددت الأقوال فى الأسباب ، لكن مما لا شك فيه أن قنابل الأسطول الإنجليزى كان لها أثرها فى ذلك، وأشارت أصابع الاتهام إلى العسكريين وعلى رأسهم سليمان داود ، كما فعل الروس فى موسكو عندما اقترب منها نابليون ، وقد صرّح عرابى فى حديث له مع القنصل الفرنسى « أن الروسيين أحرقوا مدينة موسكو »(٢) ، وحتى الصحف الروسية وجدت فى حريق الإسكندرية شبهًا مماثلاً لحريق مدينتها ، وأن عرابيا له الحق فى ذلك

---

(١) Egypt. No. 7 (1882), No. 176 - 655, pp. 103, 105, 172 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، شهادة قنصل الدانمارك .

« وهو ليس بدكتـاتور عسكرى بل هو زعيم قومـى مصـرى يريد أن يحـرر بلاده من أطماع الغاصبين الأجانب »[١] .

لقـد كـان قـواد الثـورة يميلون لهذه المسـألة حتى تتم إعـاقـة تقـدم الإنجليـز للإسكندرية ليتيسـر استكمال التحصين خـارجهـا ، وإن لم تكن النيـة تميل إلى ذلك لأمكن إخمـاد الحـريق فى الحـال ، لذا كـان رد الفـعل بطيـئًـا فى هذا الإتجـاه لنوال المراد ، وقـد أقـر أحـد الثـوريين أنه سـمع عـرابى والبـارودى يتـذاكـران فى حـرق الإسكندرية « إن الإنجليـز أجروا مـا أجروه فيلزم أننا نـحرق البلد » وفى يوم الحـريق كـان القـادة فى « سـراى نمرة ٣ » وأثناء مشـاهدتهم للحـريق كـانوا يقـولون : « إنه إذا خرج الإنجليز إلى البلد لا يجدون شيئًا ولا حتى طريقًا يمرون منه »[٢] .

ومن الملاحظ أن الحـريق تركـز فى الحى الأوربى ، فـمن أقـوال عـرابى « إن الإسكندرية لم يكن للمسلمين فيهـا سوى العشش ، أمـا الأبنية والأمتعة وغيرهـا فهى ملك للأورباويين ، فدعها تحترق وتترك لهم قاعًا صفصافًا »[٣] .

وبذلك أصيبت أمـلاك الرأسمـاليين الأجـانب الذين امتـصوا دماء المصريين ، والذين ربحوا وملأوا جيوبهم من عرق وجبين هؤلاء الكادحين ، فكان الحقد والرغبة فى الانتـقـام قـد تمثلتـا فى حـرق ثمـرة أعمـالهم غـيـر الشـريفـة ، ويمكن القـول أن التخطيط كـان كـامـلاً لذلك ، بأنه إذا تمكن الإنجليـز من ضـرب الإسكندرية وعـدم صمود المدينة أمام نيران أسطولهم يكون التقهقـر للتحصين ، ولكى تستكمل الراحة النفسيـة للقوات المصرية ويعاق تقدم الإنجليز ليتم الاستعداد للمواجهة ، كان لابد مما حدث ، وخصوصًا أن الأذى وُجه للأجانب دون المصريين . ولو أنه فى أثناء ذلك كـان للبـدو وأصـحـاب المواقف المتلونة دور فـى ازدياد نار الحـريق . واقـتـرن حـريق الإسكندرية بسلبهـا ونهبهـا ، وقـام بذلك « الأروام والبـرابرة والبـدو » ، وقـد بذل قـادة الثورة مجهودًا كبيرًا فى إيقـاف هذه العملية ومنعهـا ، وبدأت هجرة السكندريين التى كـانت سلسلة متصلة من حلقـات العذاب المقـرونة بصيحـات الجيـاع ، فكـانوا هائمين بلا مـأوى ، وقـد صـوروا أبشع صـور المأسـاة الإنسـانيـة التى تحـملتهـا الإسكندرية فى

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، مجموعة ٢٦/٣١ ، ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨١/أ ، دوسيه ٢٨٤/أ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨٤/أ .

تاريخها . وبذلك أصبحت تلك المدينة تحمل آثار العدوان من تخريب ودمار وحريق ، وانسحب منها الجميع ، وانعدمت فيها الحياة ، حتى المياه قطعت عنها ، لتعوق تقدم القوات المعتدية ، وليكتمل شكل الخراب لأجمل مدينة مصرية .

محاولة العصف بالخديوية

لم يقدم توفيق على القيام بأى عمل يعارض به التدخل الأوربى وارتمى فى أحضانه ليتمكن من الوقوف أمام الثورة التى أفقدته كل شىء حتى أنه راح يشكو القائمين عليها من قواد جيش ونظار وأعضاء نواب إلى القناصل ، وكان الإنجليز أكثر من احتضنه ، فدخل تحت سيطرتهم ، وأوضح تقرير نمساوى ما وصل إليه الخديو « إنه واقع تحت نفوذ الحكومة الإنجليزية المطلق ، فهو لا يملك تمامًا جهاز أبيه العقلى ، وتنقصه سرعة الخاطر والفهم النافذ والمبادأة ، ويفتقد التجارب ومعرفة الناس وعادات السلوك بينهم ، فكان لهذا السبب يتردد عند اتخاذ أى قرار ، حائرًا مرتبكًا مستسلمًا إلى حد الاستكانة »(*) . وقد بدا ذلك واضحًا منذ توليه العرش ، ومع حادثة يونيو وانتقال توفيق إلى الإسكندرية أصبح قلبًا وقالبًا مع الأجانب عامة والإنجليز خاصة ، واطمأنت نفسه لوجوده بجوار قطع الأسطولين الأجنبيين ، وراح يشجع استعجال نزول القوات البريطانية على الأرض المصرية بالرغم من أنه كان على قمة المجتمعين فى ١٠ يوليو للرد على إنذار سيمور ، ومن بين الموافقين على القرارات الصادرة بالمقاومة والدفاع ، وربما هداه تفكيره فى ذلك الوقت إلى إمكانية انتصار المصريين ومن ثم فلا يكون موقفه شائكًا إذا عارض .

ومنذ البداية كانت الثورة ترى ضرورة إسقاطه بعد أن تأكد تزعمه للمعارضة لها بمختلف الطرق ، وحدثت محاولات لكنها لم تصل إلى النتيجة التى ترجوها الثورة ، ومع ضرب الإسكندرية قرر القادة القضاء عليه ، وتوضح لنا الوثائق النمساوية محاولة إسقاط عرشه يوم العدوان « عقب ضرب الإسكندرية أمر عرابى جنوده بإحراق سراى الرمل الذى التجأ إليه الخديو ودرويش باشا ، وأن يقتلوا كل من يحاول الهرب منه ، فكلف عرابى ثلاثمائة جندى من حرسه الخاص لمحاصرة القصر، ولكن للأسف نجح توفيق ودرويش فى إغرائهم إذ عُرض عليهم الأوسمة والنقود والأحجار الكريمة ، وهؤلاء الذين كلفوا بتلك المهمة هم الذين حموه فى انسحابه من سراى الرمل إلى سراى رأس التين الذى كانت تحرس أبوابه الجنود الإنجليزية ، فاضطر مع حرمه وجميع نساء القصر إلى أن يقطعوا مسافة طويلة

(*) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، ملحق تقرير الكونت هنجلموللر ، ص ٧ .

جداً وبمنتهى العجلة على الأقدام ، وكان من جراء ذلك أن معظم سيدات الحرم أصابهن المرض وأن أختا لزوجته ماتت »[١] .

كان سليمان داود من الأشخاص الذين اعتمد عليهم عرابى فى تنفيذ أغراض الثورة ، وأعطيت له الأوامر بالتخلص من توفيق ، وكان عليه أن ينفذ بنفسه ، لكنه لم يذهب برغم ثوريته الجارفة ، وأرسل عسكريين من آلاية على رأسهم البكباشى محمد منيب ، فوفدوا على السراى وضربوا الحصار حولها بإقامة « كوردون جنزير » بحيث لا يستطيع أحد أن يخرج منه أو يدخل إليه ، وأطلقت النيران على من حاول الدخول وإن لم تصب ، إلا أن الخطة كانت تسير وفق التعليمات ، وأعلن ظاهريًا أن هذه القوة المسلحة هى لحماية الخديو .

واستدعى توفيق قائد الفرقة المحاصرة وأفهمه أنه حاكم البلاد ، فأجابه أنه غير مسئول إلا لدى ناظر الجهادية ، وأن مرجع أمره إليه ولا يعرف رئيسًا غيره ، وبعد أن أتم القائد جوابه أخذ يتهيأ للهجوم ، فأعد المشاة وأمرهم بالانتظام حول السراى ، وجعل الفرسان وراءهم وشرع فى الحصار فتأهب من فى السراى للدفاع عنها .

وتمكن الخديو بطرقه المختلفة من استمالة محمد منيب القائد المحاصر فأنعم عليه برفع رتبته إلى أميرالاى ، وأنعم على الفرسان من جنده بشهرين « فأقسم للخديو أن يفتديه بنفسه ، وقال إنه كان مأمورًا بإحراق السراى وقتل من فيها »[٢] .

تم ذلك بعد أن كان الثائرون قد أضرموا النار فى جزء من السراى وعلى الفور قام الجنود الإنجليز بوقف سيرها . هذا فى الوقت الذى أرسل فيه توفيق كل من سلطان وحسن الشريعى وسليمان أباظة وياوره وياور درويش إلى عرابى لمعرفة أسباب ذلك ووقفه ، وطال الحديث بين راغب وسلطان وبين عرابى ، فهم يترجونه ويلحون عليه فى العدول وهو متمنع ورافض ، وفى البداية أبان أن هذا الحصار للتحفظ ، ثم أظهر أن الأمة غير راضية عن الخديو وتخشى من نزوله للأسطول الإنجليزى ، وتكرر الرجاء فيقول ياور توفيق « فصرنا ماشين خلفه وكلما يتقدم أبو سلطان لأجل أن يتكلم معه ، وبالفعل يتكلم فلا كان يلتفت له ولا يصغى لما يقوله »[٣] ، لكن انتهى الأمر بموافقة عرابى وأرسل معهم طلبة عصمت « لصرف العسكر » .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٥/٣١ ، رقم ١٣٥ ، ١٨ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٧٤ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٨ ، دوسيه ٧١ .

وينفى عرابى أن ذلك كان بتخطيط قادة الثورة لإسقاط نظام توفيق ، وأعلن أنه عندما علم بالحصار أمر بفكه ، لكن كل الشواهد والدلائل تقدم الإثباتات العكسية ، ومن المستغرب أن سليمان أباظة الذى جاء ليتشفع ويترجى بفك الحصار كان يقول لعرابى « إن لم تحافظوا على الخديو وتقتلوه وإلا هرب إلى الأسطول الإنجليزى »(*) ، فواضح أن التراجع كان عاملاً قويًا للهزيمة ، وأيضًا التباطؤ عند التنفيذ ، والسماح بتدخل قوى أخرى فى برنامج معد وتغيير مساره ، والتقاعد وفقدان الجرأة القوية ، فبالرغم من شجاعة القادة فإنهم فى أحيان كثيرة كان التردد سمة ظاهرة على أعمالهم . وظهر ذلك جليًا فى هذه المسألة ، فلقد رددوا كثيرًا الرغبة فى نجاح الثورة بدون إراقة نقطة دم واحدة ، هذا فى الوقت الذى لم يتعود فيه المصريون على مسألة الاغتيالات ، وحتى حينما فكروا فيها كان الفشل يصاحبها ، كما يجب أن نضع فى الاعتبار أن النفوس الضعيفة التى خضعت للإغراءات قد أثرت فى مجرى الثورة ، وأخيرًا فقد كانت وقفة الأسطول البريطانى تمكنه من إحباط الخطة .

قوى الثورة والحزب المعارض

ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية ، ورغم قصر المدة التى كافحت فيها ، فإن كفاحها كان شرفًا لها على الصفحات باعتراف أعدائها ، وحرقت من أجل إعاقة تقدم الإنجليز ريثما تتم الاستعدادات الكافية فى جنوب المدينة ، وفشلت محاولات إسقاط عرش توفيق لتجعله يرتمى أكثر وأكثر فى أحضان بريطانيا ، ولتكون النتيجة فى نهاية الأمر إنقسام مصر إلى حكومتين ، إحداها فى يد الثورة والأخرى فى يد أعدائها ، وكان الشعب بجميع قواه مع الثورة ، أما من لعبت بنفوسهم الضعيفة الخيانة ، فقد انضموا إلى المعسكر المضاد .

وأصدر الخديو أوامره التى وزعت على المديريات ، وتفيد بأن الصلح قد تم بين مصر وبريطانيا ، هذا فى الوقت الذى أرسل فيه عرابى إلى أنحاء مصر كلها ليبلغ موقف توفيق الخائن ، وأن البلاد تحت الأحكام العسكرية ، ويطلب المداومة على التجهيزات ، وتنجيز الطلبات العسكرية ، وأعطى الأمان لجميع سكان مصر . وعاد توفيق وكرر إنهاء حالة الحرب ، وتحميل عرابى مسئولية الاستمرار فيها وضرورة

(*) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٣ .

وقف الأعمال العسكرية وطلب منه الحضور ، وكانت المباحثات تجرى بين رجال بريطانيا المسئولين فى مصر وبين توفيق ، ولم تكن أوامره تصدر إلا بناء على رغبة هؤلاء ، ومعروف أن جميع خطواته بناء على التعليمات الإنجليزية ، وكان الهدف من طلب عرابى الحضور لسراى الخديوى هو القبض عليه ، فيقول كارتريت إلى وزير خارجيته « إذا حضر فسيقبض عليه ، وإذا رفض فيعتبر عاصيًا خارجًا عن القانون »[1] ، وجاء رد عرابى معارضًا ، ورفض الحضور للخديو بل وطلب النظارة ورئيسها أن يحضرا لمقر القيادة للمداولة .

ومما تجدر ملاحظته أن رئيس النظار الذى اختاره عرابى قد تحول عن الطريق الثورى ، بعد أن أملت عليه مصالحه الانضمام لأعداء الثورة واشترك مع الخديو فى أوامره ، ويكتب للأدميرال الإنجليزى عن مخالفة عرابى لأوامر توفيق ليبلغ حكومته ، ويعلن ضرورة عودة المهاجرين إلى الإسكندرية ، ووقف المساعدات العسكرية بحجة أن الصلح قد تم[2] .

المجلس الوطنى

رأى العسكريون أمام ضرورة إيجاد طريقة للوقوف أمام القوى المضادة . فاستقروا على عقد اجتماع بنظارة الداخلية يضم قوى الأمة المستنيرة من علماء وأعيان ورؤساء دينيين وذوات وكبار موظفى الدولة فى شكل جمعية أو مجلس وطنى تكون مهمته تقييم تصرفات توفيق التى بلغت مداها ضد الثورة ، والنظر فى مدى صلاحية تولية مثل هذا الوالى على الأمة الإسلامية ، وهل ما قام به يجوز شرعًا ، وأنه المتسبب فيما يفعله الإنجليز بمصر ، كذلك ليخرج من المجلس القرارات والتعليمات التى تسير مصر عليها أثناء فترة الحرب ، وتكون له السلطة الكاملة فى ذلك .

واجتمع المجلس فى ١٧ يوليو ١٨٨٢ وضم الأمراء - إبراهيم ، أحمد ، كامل أولاد عم توفيق - وشيخ الإسلام ، وقاضى قضاه مصر ، ومفتى الديار المصرية ، وكبار العلماء ، والرؤساء الروحانيين للديانات ، وبعض أعضاء مجلس النواب ، ووكلاء النظارات ، والمديرين ، والقضاة ، والتجار ، والأعيان ، والعمد . حضروا بمحض إرادتهم وبدون أى ضغط عليهم ، فلم تحضرهم الأوامر ، ولم يتعرضوا لقوة

---

(١) Egypt. No. 17 (1882), July 15, 1882 .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

مسلحة تجبرهم ، فقوى الأمة حانقة على توفيق وأعوانه وسلوكه الشاذ تجاه مصر ، وهنا ثبت أن الثورة هى الأمة بأسرها التى يتزعمها عرابى ، ووفقًا للتقرير النمساوى « إن ذلك الاجتماع الذى عقد بالقاهرة وأيد عرابى يمثل الشعب وليس هناك أى برهان يدل على أن الخديو يمثل الشعب أكثر من تمثيل عرابى له »[١] . وكان ذلك تطبيقًا لديمقراطية سليمة أرادها عرابى ، وهى فى نفس الوقت تدعيمًا لمركزه وقوته ، فقد وضع الأمة جميعها أمام المسئولية المباشرة ، ولتكون الحاجز المنيع أمام مؤمرات القوى المضادة .

لقد جاءوا مصممين رافضين أوامر توفيق الخاصة بوقف التجهيزات العسكرية، وهنا نرى تلاحم القوى من أجل نداء الوطن ، ولم يكونوا بمفردهم فى هذا الاجتماع ، بل كان ديوان الداخلية « غاصا بجماهير الناس »[٢] . حضروا ليشاركوا فى الرفض وعدم الاستسلام ، وذلك لتكتمل دائرة القوى الاجتماعية ، وأثناء المداولة تركت الأبواب مفتوحة ليشاهد الجميع وليسمع من يريد ، ورأس الاجتماع حسين الدره ملى وكيل الداخلية ، وقرأ خطاب عرابى - حيث إنه لم يكن حاضرًا لهذا الاجتماع - الخاص بالرأى فى سلوك توفيق ، وعرضت الرسائل التى تبودلت بين توفيق وعرابى ، وخطب على الروبى وبين أفعال الإنجليز الشائنة . وأعقب ذلك قيام محمد عبده وتلاوته لأوراق تتضمن ضرورة استمرار التجهيزات ، وطلب عزل الخديو وأبان السبب بقوله « الخوف من كون الخديو يعمل مثل باى تونس ويكتب معاهدة بإعطاء مصر للإنجليز »[٣] . فرد عليه الشيخ عليش ووقف فى وسط المجلس وصاح الله أكبر ثلاث مرات « قد خلعناه يا قوم قد خلعناه ، الله أكبر على من طغى وتكبر ، فكثر عند ذلك صياح العامة » ، فكان ذلك معناه التأييد التام ، وتبعه الشيخ العدوى بالموافقة ، إذ نهض وأعلن الحرب المقدسة ، وبين أنه وفقًا للشريعة الإسلامية من الحتمية عزله ، وتبعه بطريرك الأقباط الذى ندد بتصرفات توفيق ، ووافق المجتمعون على أنه قد باع الوطن للأعداء ، وقرروا « توقيف أوامر الخديوى الذى خالف الشرع الشريف والقانون المنيف . وأن توفيقا يكون خديويًا لمصر إذا كان معها ومع جيشها لا أن يكون مع الإنجليز وفى حماية أسطولهم، لذا فقد أصبح مقصيًا عن سلطته » ، ورأوا إلزام عرابى وإناطته

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ٥٩ ، ١٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣١٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٨ ، دوسيه ٥٣ .

بالمدافعة عن البلاد » وضرورة الاستمرار فى الاستعدادات الحربية ما دامت العساكر الإنجليزية فى الإسكندرية ومراكبهم فى مياهها » وطلبوا النظار من الإسكندرية للاستعلام منهم عن حقيقة ما تم قبل الحرب وما بعد ذلك لدراسة الموقف ، وأن تعين لجنة من ستة مندوبين من طرف المجلس ليتوجهوا إلى الإسكندرية لتبليغ قرار المجلس وإحضار النظار ، وقد انتخب لها على باشا مبارك ورءوف باشا من الذوات وأحمد بك السيوفى والشيخ سعيد بك الشماخى من أعيان التجار ، والشيخ على نايل والشيخ أحمد كيوه من العلماء[1] .

ذهب الوفد المختار إلى كفر الدوار وأجرى مباحثاته مع القيادة ، وكانت الرغبة فى الصلح مع الإنجليز ممكنة على شرط الانسحاب ، لكن عرابيا عارض وبشدة أن يكون الصلح على أساس مذكرة مايو ، ولم ينته الأمر إلى إتفاق ، وحتى عند سفر الوفد للإسكندرية ، رفض توفيق والنظار الرجوع إلى القاهرة ، وهذا أمر طبيعى . كان من المفروض أن يجاب على ذلك الرفض بطريقة ثورية وعملية ، لكن لم يتخذ شىء سوى تقديم التماس للسلطان لوضع حد لتصرفات الخديو وتحرير ما تم فى الاجتماع .

أعقب ذلك أن تكون مجلس عرفى وكل إليه إختصاص أعمال الحكومة ، كان على رأسه يعقوب سامى وكيل الجهادية وبطرس غالى وكيل الحقانية وحسين الدره ملى وكيل الداخلية ، وأحمد نشأت ناظرة الدائرة السنية ، « وكان عبارة عن جمهورية مؤقتة لحفظ نظام البلاد إلى أن تنقشع سحب المصائب المتكاثفة على مصر »[2] ، ونقب عرابى « بحامى حمى البلاد المصرية » ، واستمرت مصر تحت الأحكام العرفية العسكرية ، وصدرت الأوامر بعدم إرسال أخبار تلغرافية بالشفرة أو أخبار مبهومة العبارة من مصر لأوربا وبالمثل الأخبار الواردة ، ومنع دخول الأجانب لمكاتب التلغراف ، وصدر قرار بمنع الصحف كافة من نشر أخبار أو أية نشرات تتعلق بالأحوال إلا بعد إقرار المجلس عليها ، وتقرر عدم الترخيص لأحد بالسفر من مصر إلى الخارج ما دامت الحرب قائمة ، وأصدر عدة قرارات بإجراء بعض التنقلات الإدارية وعزل المديرين الذين اشتبهت الحكومة فى إخلاصهم ، وبذلك سقطت سلطة الحاكم الشرعى ، وأصبحت الأمة جميعها فى جانب ، والخديو ومن

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/١ .

Commons. Vol. CCLXXIII, p. 370 . The Times, July 21, 1882 .

(٢) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٣٤ .

معه فى جانب آخر ، وأضحى المصريون مجبرين على الخروج عن طورهم ، فطرحوا الهدوء ومضوا فى طريق الثورة ، يدافعون عن حقهم الغالى فى الاستقلال والحرية وإدارة بلادهم . وازداد استياء توفيق وخصوصًا بعد إجماع الأمة لمعارضة أوامره .

إذن لابد للخديو من أن يعمل على تحدى الثورة وعلى رأسها كبيرها وذلك بإسقاطه من قمته ، فأصدر أمره بعزل وطرد عرابى من النظارة ، ومعروف أن هذا الأمر صدر بناء على رغبة بريطانيا ، إذ عقب صدوره كلف جرانفيل دوفرين أن يطلب من الباب العالى « أن يؤيد السلطان الإقالة التى دبرها توفيق لعرابى بإقالة باسم السلطان لتقويتها »[1] .

وكان عرابى مرابطًا فى كفر الدوار وقت صدور قرار عزله الذى انتشر فى الأرجاء ، ولم يلق استحسانًا من أحد إذ رفضه الجميع « وجاء الناس لعرابى طالبين بقاءه والاستمرار فى الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوافد عليه من كل جانب »[2] .

وبالفعل استمر عرابى فى الاستعدادات وأرسل إلى يعقوب سامى يطلب منه عقد المجلس الوطنى للنظر فى أمر عزله . ويجتمع المجلس فى ٢٩ يوليو للبت فى قرار توفيق الذى أصدره مدعمًا بالحقد والكراهية لزعيم الأمة . وفى الاجتماع الذى جاء يفيض حيوية وثورية ، أوضحت الأمور واستعرضت تصرفات توفيق ، وكان الجميع ضدها وتم إتفاق المجتمعين واتحدت كلمتهم على أن « وجود العساكر فى إسكندرية والمراكب الإنجليزية فى السواحل المصرية ، ووقوف عرابى باشا فى مدافعة العدو يقتضى وجود بقاء الباشا المشار إليه فى نظارة الجهادية مداومًا على قيادة العساكر ، ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديوى وما يصدر من نظارة الموجودين معه فى إسكندرية كائنة ما كانت لأى جهة من الجهات ، وعدم تنفيذها حيث إن الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ويلزم عرض قرارنا هذا على على الأعتاب العلية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات » ووقع الجميع على هذا القرار، رجال الدين والأمراء والعلماء والقضاة والمفتى ووكلاء النظار وناظر الدائرة، ومأمور الضبطية ومديرو المديريات والأعيان وعمد البلاد بحرى وقبلى والتجار[3] .

كان ما وصل إليه المجلس يكاد يقترب من قرار عزل توفيق ، إذ رأى البعض أنه إذا أقدم على ذلك رسميًا بقرار من الأمة فى مثل تلك الظروف ، ربما يؤدى إلى

(١) الأرشيف النمساوى : محفظة ٢٠ ، رقم ٣٣ ، ٢٤ يوليو ١٨٨٢ .
(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٩٨ .
(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٢٨ .

اضرابات ومصر في حالة حرب ، ولكن في الحقيقة كانت هذه الأحداث أنسب وقت لصدور القرار . خاصة وأن الجميع كان يرى ضرورة ذلك ويرغب فى تنفيذه ، ولم يكن وليد تلك اللحظة بل له ماضيه ، فالعسكريون يعلنون ضرورة عزله ، والعلماء ينادون بحتمية إبعاده ، والأعيان لم تكف لحظة عن المطالبة بإقصائه .

ولم تصدر فتوى شرعية بعزل توفيق رغم إجابة الشيخ عليش وبقية العلماء على أنه لم يعد يصلح أن يكون واليًا على المصريين ، لكن مع قرار المجلس الأخير اعتبر شبه معزول ، وأصبح التعاون وثيقًا بين قادة الثورة والمجلس .

الصراع وانتصار الثورة

مضت القوة المعاكسة للثورة تسير فى طريقها لتحارب الأمة ، ومن سراى الخديوى خرجت المنشورات المضادة التى تبين أن القادة الإنجليز مأذونون من طرفه بإجراء الحركات العسكرية التى يرونها ، ويطلب توفيق الامتثال والطاعة لهم حيث إن أوامرهم « هى أوامرنا فى الحقيقة »[1] ، ولم يكتف بهذا ، بل ذهب بنفسه إلى خط الدفاع المصرى بأبى قير ليثبط عزيمة المحاربين .

أعقب ذلك استقالة نظارة راغب ، وعليه نال مكافأته على انحرافه عن الثورة ووقوفه بجوار سيده ، وتم الأمر وفقًا للإرادة التى سعت فى تشكيل نظارة جديدة تحل محل نظارة راغب ذات الميول الوطنية ، ومعروف انه كان من أعضائها من لهم الميول الثورية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه شريف مرضيًا عنه تمام الرضا من أعداء الثورة ، فكلف بتشكيل نظارته الرابعة فى ٢٨ أغسطس التى كللت أعمالها بالترحيب بالإحتلال ، ووزع النظارات ، فعاد رياض ليتولى الداخلية ، وحيدر أعطى المالية وعمر لطفى استحوذ على الجهادية والبحرية وعلى مبارك أنيطت له الأشغال العمومية ، ومنح الخديو نفسه حق دعوة مجلس النظار تحت رئاسته واعتبر نفسه الرئيس الأعلى للقوات المصرية البرية والبحرية[2] .

وأرسل توفيق إلى السلطان يطلب جنودًا من الترك والكرد والأرناءوط ، لاستخدامهم فى البوليس والجندرمة ، وذلك بعد أن فشل فى استمالة رجال الأمن التابعين للثورة . واستدعى الضباط الشراكسة - وعلى رأسهم رفقى - الذين كانوا

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ .

(٢) [illegible] ، المصدر [illegible] ، ص ص ١٣٠ - ١٣٤ .

قد نفوا على يد الثورة ، ومن ثم استطاع أن يدعم جبهته الجديدة من جميع المعارضين للثورة الذين كان أملهم الوحيد القضاء عليها . وانتشر الطابور الخامس بين الطرفين ، وازداد نشاط الثورة ، وكثرت الاجتماعات وخاصة فى منازل القادة ، وكان فيها التشجيع والتحميس قد بلغ أقصاه .

ومضت الثورة بعد أن جندت كل إمكاناتها فى طريقها ، وأرادت أن تضفى الشرعية عليها ، بتختيم جميع قوى مصر على محاضر لإسقاط عرش توفيق ، وقد قام بذلك العمد والمشايخ ، كما كان يحضر مندوبون من المديريات « يطلبون خلع الخديو ولا يمكن أن يقال أن عرابيًا قد أجبرهم على ذلك »[١] ، وجرى توقيع محضر عمومى للسلطان ، بلغ الموقعون عليه أكثر من عشرة آلاف وشمل طلب خلع الخديو لكونه غير أهل للولاية .

ومع ذلك لم يسقط توفيق ومضى فى محاربته للثورة وقائدها ، حقيقة فقد أصبح عرابى حاكم مصر الأوحد ، ليس بجبروته ولا قوته ، ولكن بحب الناس إليه ، فالثقة تزداد فيه يومًا بعد يوم وبالتالى يزداد نفوذه ، وفى أثناء الحرب كان معسكره مركزًا لتجمع الشعب من أرض مصر كلها ، وأقر تلك الحقيقة الإنجليز أنفسهم ، فلم يكن له طموح شخصى يسعى إليه وإنما عمل بكل طاقته من أجل مصر وصالحها ، ومن هنا فاض هذا الحب المتدفق الذى ربط الشعب بعرابى ، فامتد إلى كل مصرى ، وكانت الدعوات المتكررة « الله ينصرك يا عرابى » تتردد بين شفتى كل فرد ، بينما تنزل اللعنات على توفيق[٢] .

وكان الوعى تامًا والتعبير صادقًا ، حيث ظهر عرابى أمام الجميع بأنه خادم المصريين والمدافع عنهم ، فهو الذى يقاوم الغزو الأجنبى على الأرض المصرية ، وهو صانع الحرية ، فعلَّم شعبه كيف تنتزع من الناصبين ، وعلى أيديه برهنت الثورة أنها أصيلة ، وخرجت لتعبر عن أمانى الشعب الذى اختار قائده بمحض إرادته ، حتى الأعداء فقد شهدوا بذلك ، فهذا الضابط الإنجليزى الذى اشترك فى حرب المصريين قال « لننظر إلى القضية من الناحية المصرية لا من الناحية الأوربية ، فليس هناك شك فى أن عرابيًا تجسد لشعور وانسجام الوطنيين المصريين الذين

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p.327 .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And his Friends, pp. 173, 484 , 502 , 503 .

كانوا يحاربون من أجل إصلاح حالهم ، ومن أجل الضرائب الظالمة ، والقضاء غير العادل والسيطرة الأوربية على الأوضاع جميعها »[١] .

وجميع الأوراق التى عُثر عليها الخاصة بعرابى تفيض بالتأييد له ، عرائض مقدمة وعليها مئات التوقيعات والأختام شملت قوى مصر تفوضه كل شىء ، وباختصار يمكن القول « إن مصر كلها كانت مع عرابى ، وأن عرابى هو رأس مصر كلها » ، حتى لقد بينت صحيفة الستاندرد بأن ذلك كفيل له بأن يتقلد الحكم[٢] .

حقيقة لقد أصبحت مصر هى الثورة ، فلم نجد على أرضها قوة لم تشترك فيها بكل ما تملك ، ما عدا عناصر خرجت منها لأنها دخلت فيها بناء على مصالح خاصة ، وحينما رأت أن مسار الثورة ضد مصالحها انعكست بعد أن استيقظ الشعب وتفتحت عيونه على حقوقه .

المنهج الثورى فى التطبيق :

(أ) محاولات التفاهم مع بريطانيا

لم تترك الثورة بابًا إلا وطرقته من أجل مصلحة مصر حتى باب فتح المفاوضات مع بريطانيا ، لعلها تصل للطريق الذى تسلم منه من التدخل السافر ، وكان ذلك قبل أن تعلن الحرب بين الدولتين ، فرأت أن تتفاهم مع الدولة التى تخطط مصائر الأمم ، وعليه فإن قادة الثورة لم يختلفوا كثيرًا عن قادة ثورة ١٩١٩ فى إمكانية الوصول إلى إتفاق حول الأوضاع فى مصر .

كان تقرب قادة الثورة لبلنت من بين الأدوات التى استخدموها ومنذ أواخر عام ١٨٨١ راح يكتب إلى جلادستون رئيس الوزراء الإنجليزى ليعطيه صورة عن حقيقة الثورة المصرية وقائدها والظروف الصعبة التى تمر بها مصر ، وتلك الرغبة الأكيدة فى إيجاد حل عادل للمسألة المصرية .

ووضحت مجهودات بلنت فى نقل برنامج الحزب الوطنى وشرحه سواء لجلادستون أو بنشره على صفحات صحيفة التيمز ليصل إلى الرأى العام الأوربى ، ويوضح أهداف وأبعاد الثورة المصرية ، كذلك حمل إلى جلادستون خطابات عرابى الخاصة بالإصلاحات والمشروعات الثورية ولكنه لم يرد عليها ، وأبان أن الرد على

---

(١) Ibid , pp. 435 , 436 .

(٢) الطائف ، عدد ١١ شعبان ١٢٩٩ (١٨٨٢) .

ذلك سيتضح من مناقشات البرلمان[١] ، فواضح أن جلادستون لم يكن يشجع هذا الاتجاه على الإطلاق .

وخطر على تفكير القائمين على الثورة تكوين وفد وإرساله إلى لندن لعرض القضية المصرية ، وأن يترأسه محمد عبده لما هو معروف عن شخصيته المتزنة واعتداله وهدوئه ، فيقول صابونجى إلى بلنت فى ١٩ يونيو « كنت أنا وعبده ونديم وسامى نتكلم أمس فى الوسائل السلمية التى يمكن اتخاذها لكى تعبر بها مصر أزمتها الحاضرة ، فقال عبده أنه كون رأيه على أن يجمع كل الوثائق الخاصة بالأحوال المصرية ، ويذهب بها ليعرضها على جلادستون والبرلمان الإنجليزى ، ويأخذ معه أحد أثرياء التجار وأحد من الأحرار يكون نائبًا عن الفلاحين ، ووافق محمود سامى على هذه الفكرة وأبدى رغبته فى السفر هو الآخر لنفس هذه المهمة ، واستعد محمد عبده إلى هذه الرحلة ، ووجدت الموافقة من النديم والعقاد ذلك التاجر الذى له اعتباره فى الثروة والنفوذ والوطنية »[٢] ، وليس من المعروف لماذا لم تنفذ تلك الخطوة ، وما هى العوائق التى وقفت فى سبيلها ، ولكن من المرجح أن القائمين على الأمر من الإنجليز لم يسمحوا بذلك لأن هدفهم الاستحواذ على مصر .

أعقب ذلك الرغبة فى استقدام مندوب من قبل بريطانيا لرؤية الموقف على حقيقته وإمكانية وضع حل للمسألة ، فيقول صابونجى لبلنت « قُدمت لمحمود سامى عريضة من أعضاء الحزب الوطنى تطلب من جلادستون أن يرسل إلى مصر معتمدًا يفهم أحوال بلادهم ، وقد وافق سامى على ذلك وقالوا أنهم سيوقعونها عندما يحضر عرابى للقاهرة ، وأنها ستقدم عن طريقك إلى جلادستون »[٣] .

وعندما رأى القادة أن تلك الخطوات غير مكللة بالنجاح وتقام أمامها العقبات ، أعد عرابى خطابًا وأملاه على صابونجى بحضور القادة وطلب منه أن يترجمه ويرسله لبلنت الذى يسلمه إلى جلادستون وفيه تتأصل روح الثورة ، ولو أنه أنكره فى المحاكمة ، وذهبت بعض الآراء فى التشكيك بأنه من صنعه على أساس عدم ذكره فى مذكراته ، لكن مما يؤيد أن صاحبه قائد الثورة أن صحيفة معاصرة للأحداث ويوثق بها قد نشرته له فى حينه وهى الوطن التى تسجل أنه كتب فى ٢ يوليو ولم يصل إلى جلادستون إلا بعد أن ضربت الإسكندرية، وليس لإنكاره ما يدل على نفيه.

يحمل الخطاب بين طياته الكرامة المصرية ، وقد كان تهديدًا أكثر منه تفاوضًا

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 169, 236, 237 .

(٢) Ibid , p. 344 .　(٣) Ibid , pp. 345 , 346 .

من زعيم أصغر دولة إلى زعيم أكبر دولة إذ يسطر « لقد أمرنا القرآن أن لا نثير ثائرة حرب ولا نكون البادئين بها ، وأمرنا أيضًا بأن نعتدى على من اعتدى علينا . وأن نقاوم المعتدى بكل سلاح وإلا صرنا كافرين ، فلتتيقن إنجلترا بأنه عندما تطلق أول قنبلة على مصر سيصير المصريون أحرارًا من جميع قيود المعاهدات والعقود والإتفاقات، وأن المراقبة الثنائية والديون العمومية ستلغيان ، وأن أملاك الأجانب ستصادر ، وأن الترع ستعطل والمواصلات ستنقطع ، وأننا سنستخدم رجال الدين فى الحض على إثارة الجهاد إلى الحرب الدينية فى سوريا وبلاد العرب والهند ، ومصر تقع فى طريق مكة والمدينة، وجميع المسلمين يحتم عليهم دينهم تأمين الطريق إليهما، وقد ألقيت مواعظ بهذا الصدد فى مسجد دمشق ، وحصل إتفاق بهذا الصدد أيضًا مع جميع زعماء الدين فى العالم الإسلامى ، فأكرر القول بأن أول قنبلة ترمى بها مصر ستكون سببًا فى سفك الدماء فى آسيا وأفريقيا وأن تبعة ذلك كله ستقع على كاهل إنجلترا ، وأن هناك وسائل إنسانية ، فإن مصر لا تزال قابلة بل راغبة فى أن تتفق مع إنجلترا وتصادقها أشد الصداقة ، وأن تحافظ على مصالحها وتؤمن طريقها للهند ، وأن تكون حليفتها ، ولكن على شريطة ألا تخرج عن حدودها ، والخلاصة أنه يجب على إنجلترا أن تتأكد أننا مصممون على القتال وأن نموت شهداء لبلادنا كما أمرنا بذلك نبينا أو نحوز النصر ونعيش مستقلين سعداء ، ونحن فى الحالين نستقبل السعادة ، والأمة التى أشرب قلبها هذا الإيمان ليس لبسالتها حد »[1] .

وضربت الإسكندرية وانتهى أى أمل فى حل القضية عن طريق السلام ، وقد عدَّ جلادستون عرابى « مغامرًا حربيًا » ، وبرغم معرفته جيدًا أنه يتزعم المصريين الذين هم أصحاب حق ولا يطالبون إلا بدستور الحرية . فإنه فى نفس الوقت يبين أن كرمويل ذلك القائد الكبير لم يعمل شيئًا من أجل الحريات فى بريطانيا ، ونابليون أعظم حاكم أسس حكمه على القوة لكنه لم يعط الحرية لفرنسا ، وبالتالى فلن يعطيها عرابى لمصر[2] .

وقد وصل الأمر أن جلادستون رفض الاقتراح الذى قدمه له ماليت بعد حادثة الإسكندرية ويقول فيه « إن الأحوال متوترة بدرجة تستدعى حتمًا ضرورة القيام بعمل ما . واقترحت على الخديو أن يبادر جنابه العالى باستدعاء مجلس النواب فيسألهم أن يعبروا عن رغبات البلاد ، ويحتمل فى هذه الحالة أن يقدم المجلس

(١) الوطن ، عدد ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) Commons, Vol. CCXXIII, August 16, 1882, pp. 1940, 1941 .

للخديو دستورًا مرسومًا ، واعتقد أن الأمل فى الحصول على دستور سوف يوحد بين الأعيان والحزب العسكرى ويؤدى فى نفس الوقت إلى مصالحة واضحة مع الخديو »[١] ، وحتى لو كان قبله كانت الثورة رفضته .

ووقف جلادستون عائقًا أمام أى رأى يمكن أن يستشم منه التأييد للثورة ، إذ كان هناك بعض من المؤيدين أمثال شارل ديلك الذى صرح بأن « حركة الأفكار الحاصلة فى مصر تدل على رغبة أهلها فى إقامة إدارة لبلادهم تجعل رجوع الاستبداد إليها محالاً ، فهم فى هذا القبيل جديرون بالتأييد »[٢] ، لكن عندما ظهر أن الثورة ستعصف بالمصالح البريطانية كان لابد من الإطاحة بها . وبذلك انتهت فكرة إيجاد مفاوضات مع تطور الأحداث السريعة والعدوان الإنجليزى على الثورة .

(ب) مواصلة البرنامج الثورى

أصبح شعار المقاومة حتى النهاية من سمات الثورة فى الفترة الأخيرة ، وكانت جادة فى ذلك ، فالإصرار والعزيمة كانا واضحين ، وقد ردد القائد « فليرسلوا لنا جيوشًا أوربية أو تركية أو حتى قوات هندية ، فإننى ما دمت على قيد الحياة سأدافع عن بلادى ، وحينما نموت جميعًا يمكن لهم أن يمتلكوا البلاد حطامًا ، وحسبنا فخرًا أن نموت من أجل أرضنا »[٣] . والأوراق التى عثر عليها لدى الثوار تؤكد ضرورة الدفاع إلى آخر العمر .

وفى هذه الفترة شغل بال الثورة مسألة الديون تلك التى مثلت عبئًا ثقيلاً على مصر ولا ذنب لها فيها ، وكان التهديد بها واضحًا إذا اعتدى على مصر ، لكن لم ينفذ هذا التهديد ، ومن المحتمل أنه لو نجحت الثورة حتى النهاية لأمكن ذلك .

وخرج الفكر الثورى إلى إطار التنفيذ، فبذور المساواة التى وجدت داخل الثورة ، والكره الذى استولى عليها تجاه الأثرياء ، بدأت تظهر بوادره « فإنه عندما صار الحديث عن هؤلاء الذوات الذين خرجوا من الإسكندرية عقب نذور الحرب وسافروا إلى أوربا كان عرابى يرى أنه يلزم ضبط أموالهم لجانب الميرى »[٤] ، إذن فمسألة مصادرة الأملاك وتأميمها لصالح الدولة أراد عرابى تنفيذها ، لكنه لم يقدم عليها

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ٥٩ ، ١٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) مصر ، عدد ٩ فى ٦ فبراير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 327 .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسية ٢٠٣ .

بصورة واسعة فى هذه الفترة الحرجة ، إذ أيقن أنه ربما يكون نذيرًا لانفضاض ملاك الأراضى عنه ، وحينما وجد فى خيانة سلطان فرصة لتحقيق ما يصبو إليه ، صدرت الأوامر بالحجز على أملاكه فتقول صحيفة الوقائع المصرية بعد أن شرحت موقفه من الخيانة مع أقاربه « لقد صار من الخائنين سلطان ، فصدرت أوامر الحكومة بالحجز على أملاكه وأمواله لتنفق فى سبيل الدفاع عن الوطن لأنها من ثمرات كسب أهله المساكين ، وأسكن فى بيته الكائن بالقاهرة ٤٠٠ مهاجر »(١) ، وكانت الثورة جادة فى التنفيذ ولم يقع ذلك عليه فقط ، بل على أقاربه الذين على مشربه ، ويقول أحمد شفيق « وأكد لى والدى أنه يوجد كشف بأسماء الذين لم يوافقوا على الحركة العرابية ولم يساعدوها ، فقد تقرر عند تمام النصر لهم أن يوزعوا أملاكهم على الزعماء والأنصار »(٢) . وكان معنى ذلك ألا يكون هناك طبقة متسلطة بثرائها ، فنرى فى إحدى أوراق محمود فهمى ما يشير إلى الرغبة فى إجتثاب طبقة الذوات(٣) .

وشجعت الصحافة ورددت أن المصريين أحق بتلك الأموال التى يقتنيها غيرهم « أصحاب الأموال والباشوات الأتراك الذين يزعمون أنهم فتحوا مصر ويجعلون خيرها لأنفسهم لا للفلاح »(٤) .

وعندما احتاجت السلطة العسكرية إلى إمدادات استولت على ما كان موجودًا « بالجفالك وبأراضى القومسيون والدوائر وأراضى الأورباويين » ، وعقب الثورة طالب شريف وسلطان والهامى وفيكتور باكوس وغيرهم من الدوائر والتفاتيش رد أثمان ما أخذ منهم من تبن وخيول وجمال وفحم وغلال(٥) ، كما استاء وكيل فرنسا لما قام به الثوار إزاء ممتلكات الأجانب ، فأرسل يشكو إلى وزير خارجيته هذه الإجراءات(٦) .

وبذلك يمكن القول أن الثورة نجحت فى ذلك التصميم الذى سارت عليه وأرادت أن تحقق ما خططته لنفسها ، ولو أن الظروف خدمتها ولم تحارب من جميع الجهات ، لأمكنها فى النهاية تحقيق برنامجها الثورى

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٣ فى ٩ سبتمبر ١٨٨٢ .
(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٨٠ .
(٣) محافظ الثورة العرابية محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/ب
(٤) المفيد ، عدد ٢٩ فى ٣٠ يناير ١٨٨٢ .
(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ١٧ ، ٢٢ .
(٦) Doc. Dip. F. Tom IV. No. 474. 25 Juillet. 1882. p. 449 .

العسكريون فى الميدان الحربى وعوامل الإنكسار :

المواجهة الحربية

وقفت السياسة الإنجليزية من الثورة موقف المعارضة ، وبذلت قصارى جهدها من أجل تحطيمها والقضاء عليها سواء بالرغبة فى نفى قادتها أو حل مجلس نوابها أو تسريح جيشها ، ولكنها فشلت أمام تصميم قوى الثورة التى تمكنت من فرض نفسها ، فرأت بريطانيا السيطرة على الموقف بتدعيم سلطة الخديوى ومساندته وخلق قوى مضادة للثورة ، وكان كل ما تسعى إليه التخلص من عرابى ، إذ اعتقدت أن انتصار هذا الزعيم وذيوع شهرته فى مصر وخارجها سيجعل اسمها أضحوكة فى الشرق وستنهار سمعتها ، وسيكون لذلك أثر على مصالحها الرأسمالية ، وأيضًا على حياة رعاياها فى تلك المناطق .

بناء على ذلك وضعت مصالحها فى كفة وعرابى فى كفة ، بعد أن تأكدت أن مصر كلها تؤيده وأصبحت فى قبضته ، وازداد قلقها بعد أن رضى عليه السلطان العثمانى ومنحه الوسام المجيدى ، فرأت أنه لابد من التدخل الحربى واستعمال القوة لتجبر الثورة على الاستسلام .

منذ البداية وبريطانيا تعمل للإنفراد بالتدخل فى شئون مصر ، وقد ساعدتها الظروف فى نهاية الأمر على التمكن من ذلك حيث انسحبت فرنسا من العمل المشترك الذى ميز الفترة السابقة ، كما أمكن لها أن تبعد الدولة العثمانية عن طريقها ، وضربت بكل الإتفاقات عرض الحائط ، ووجدت فى الثورة فرصتها للسيطرة ووضع اليد على مفتاح طريقها إلى مستعمراتها ، واعتدت على الإسكندرية وضربتها بأسطولها ، وكان للعسكريين دورهم البطولى ، فكفاءتهم وتضحياتهم فاقت كل وصف ، فقاموا بواجبهم خير قيام ، إذ لم تكن الحرب فى نظرهم إلا تخلصًا من رق العبودية التى رزحوا تحتها فترات طويلة ، ويذكر كرومر « إن جنود عرابى كانت قوة وطنية من أبناء تلك الأرض التى تعمل على التخلص من العدو الأجنبى ، وكانوا يحاربون بامتياز ومهارة تحت تلك الظروف المحلية التى يعيشونها »(*) .

حقيقة فقد تمثلت فيهم الوطنية الصادقة وملأتهم الشجاعة والبسالة فى الدفاع عن أرضهم ، وكان لرجال المدفعية دور بطولى « هؤلاء الجنود الذين كانوا

(*) Cromer . op. cit., Vol. II. p. 473 .

أمام مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء لا يخشون الموت الذى كان محاطًا بهم حيث لم يكن هناك ما يقيهم من دروع ولا متاريس ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كانوا فى وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ، ثم بعثوا من جديد ليكافحوا العدو ويستهدفون النيران مدافعة »[١] .

ولم تقتصر تلك البطولة على الاعترافات الداخلية . بل ترددت أخبارها فى العالم ، فعلى صفحات الصحف الخارجية كانت تسجل سطور البطولة للقوات المصرية وتُثنى على روح الشجاعة المتأصلة فيها[٢] . وانسحب العسكريون إلى كفر الدوار تنفيذًا للخطة ، واتخذت مركزًا للجيش ، ورغم الإمدادات التى كانت تصل للإنجليز فى الإسكندرية ، فإن كفاءتهم لم تعطهم الفرصة للانتصار فى الميدان الغربى ، إذ فشلوا فى اجتياز الاستحكامات التى كانت من المنعة قل أن يمكن التغلب عليها .

كانت الانتصارات التى حصلت عليها القوات المصرية فى الميدان الغربى من ناحية ، وتلك الدعاية التى سرت على أرض مصر من ناحية أخرى . جعلت هناك أصداء خارجية ، فتقول صحيفة كوسنبورج فى ٢٧ يوليو ١٨٨٢ « قد تبين أن شجاعة المصريين وثباتهم أمام الإ جليز فى المناوشتين الأوليتين ، عكسا الفكر على من يزعم من الأمة الإنجليزية أن المصريين يفرون ويتركون مراكزهم لأول نظرة يرون بها جيش الإنجليز ، وأن عرابى باشا يترك البلاد لهم بمجرد توجههم إلى مصر ، وحقق للناس أجمع أن هذا الزعم خطأ فاحش ووهم فاسد »[٣] .

أثرت الدعاية الواسعة للثورة تأثيرًا كبيرًا على سير الأحداث . ومنذ البداية كان لابد منها ، فقد كان خط الانتصار عاليًا ، فأراد الجهاز الثورى إشعال حماسة المحاربين داخل أرض المعركة ، وإرضاء نفسية الشعب الذى هو مع الثورة بكل إمكاناته ، إذن لابد أن تدوى الانتصارات وتتردد فى كل شارع وفى كل بيت ، وحتى برقيات القادة وخاصة عرابى إلى المديرين والرؤساء تفيض بالانتصارات وهزيمة الأعداء التى كانت دائمًا « تبديد وتشتيت » . « وانهزم الجميع وولوا الفرار » « وتقهقروا على أعقابهم خاسرين من شر ما أصابهم » . « وتركوا فى مواقعهم

---

(١) Ninet. Origin of the National Party in Egypt . p. 167

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٣١ ، رقم ٥٩ ب . ١٣ يوليو ١٨٨٢

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(تسجل الأعداء) ما بين قتيل وجريح » ، « واغتنمت عساكرنا منهم مهمات حربية » ، « وأصوات طوبجتنا مرتفعة بالتكبير والتهليل » .

وانتقلت الحرب إلى الميدان الشرقى ، ولم يكن صد التقدم الإنجليزى فى الميدان الغربى هو الحافز على ذلك وحده ، إنما هناك تخطيط إنجليزى قد وضع يقضى بإحتلال مصر بواسطة غزو يتم عن طريق قناة السويس .

وكان على القادة أن يلتفتوا إلى ذلك منذ بداية الاستعداد لخوض الحرب ، وفى الوقت الذى أخذ فيه الإنجليز يعدون أنفسهم للدخول فى هذا الميدان من نقل المعدات الحربية والإمدادات ، أرسل سيمور إلى توفيق يطلب منه إصدار التحذيرات للعسكريين « بعدم إطاعة أوامر عرابى وأن يعودوا إلى أوطانهم ، وأن الإنجليز قصدهم حمايته وأهالى القطر من العصاة »[1] ، ولكن لم يطع أحد ، إذ التهب المصريون ثورة وغضبًا على المعتدين .

وعندما أيقن القادة إمكانية الغزو عن طريق قناة السويس ، أجريت الاتصالات مع ديلسبس ، وجاء الرد من باريس ليفيد « بذلك التعهد العظيم المتفق عليه العالم بتمامه ، وهو حياد القنال وحفظها ومراعاتها واحترامها ، وهذا الإتفاق يمنع كل أمر حربى يحصل فيه وهو من الواجبات التى هى أساس الالتزام للقومبانية »[2] ، ومن هنا أكد ديلسبس حياد القناة ، ولم يطمئن عرابى لذلك فأرسل إليه يبلغه « أن مصر مستعدة لأن تزيل القنال من الوجود لكى تدفع الأعمال الحربية »[3]، ويؤكد الرد حياد القناة ، بل ونرى ديلسبس يحضر للقاهرة لمقابلة عرابى ويقسم على أنه سيقوم بحراسة القناة وسيكفل حيادها التام[4] . وانساق القادة وراء الوعود والعهود ، حيث يبين لنا نينيه أن « عرابى ومحمود فهمى رفضا عمل ذلك إلا إذا أتى الجيش البريطانى بعمل عدائى من ذلك الجانب ، وكان قد أعد كل شىء من الرجال والأجهزة لتدمير القناة فى ليلة واحدة بأمر المجلس »[5] .

وجاء العمل العدائى من جانب بريطانيا ، فقد صرحت وزارة جلادستون لقائدها البحرى فى بورسعيد بأن يحتل من أجزاء القناة ما يراه ضروريًا ، ورفضت المناقشة مع شركة قناة السويس ، وبينت أن القوات الإنجليزية تعمل فى القناة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ، دوسيه ٣٠ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٨٩ .

(٥) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 579 .

بموافقة الخديوى وباسمه لا باسم الحكومة الإنجليزية ، وأن الخديو صاحب الحق الشرعى فى مصر والقناة .

وبناء على طلب لندن ، فوض توفيق القائد البريطانى سلطة إحتلال نقط القناة التى يرى فيها لزومًا « وقمع كل قوة لا تخضع لسلطة الخديوى ، وإتخاذ الخطوات لحرمان الثوريين من استعمال خطوط السكك الحديدية ما بين الإسماعيلية والسويس »[١] ، وتبع ذلك الاستيلاء على السويس باسم الخديوى وقطع الخطوط التلغرافية ، ومنع مرور سفن الدول ، ثم الاستيلاء على القنطرة والإسماعيلية ، وأصبحت مدن القناة تحت أيدى القوات الإنجليزية ، ورفع عليها العلم الإنجليزى باسم الخديوى ، وألصقت الإعلانات بالزام السكون وإطاعة الأوامر ، كما بينت أن الإنجليز لم يحتلوا القناة وأنهم جاءوا لإعادة سلطة الخديوى والإبقاء على مركز السلطان .

هذا فى الوقت الذى توافدت على القناة الإمدادات للإنجليز ، فاستولوا على الترعة بين الإسماعيلية والسويس ، واحتلوا نفيشة والمسخوطة ووقع محمود فهمى فى أسرهم ، وتلا ذلك استيلاؤهم على المحسمة والقصاصين . وفى تلك المناطق كان الضغط قويًا من الإنجليز ، لكن المصريين استماتوا فى الدفاع ، وتشيد التقارير الأجنبية بتفوق المدفعية المصرية ، فيقول أحدها « ونشطت المدفعية فى مبارزة حامية وكانت مدفعية العصاة عظيمة جدًا »[٢] .

وتصدَّد كفاح الجانب المصرى ، وفى الوقت نفسه ، إزدادت المحبة الصادقة للقائد الذى انتقل من كفر الدوار إلى التل الكبير ، وعلى طول تلك المسافة وجد التأييد من قوى الشعب التى استقبلته فى كل محطة طالبة النصر « الله ينصرك يا عرابى ، يا مولانا يا عزيز إهلك عسكر الإنجليز ، يا محنى ديل العصفورة وجيوشنا هى المنصورة » ، وكانت الثقة فى النصر متناهية والعمل من أجله واضحًا ، فيذكر نائب قنصل النمسا « إن المقاومة تشتد ضد الإنجليز وتكلفهم غاليًا أكثر مما يتوقعوا ، كذلك لا يمكن إنكار الحقيقة ، وهى أنهم حتى اليوم لم يتقدموا عن مواقعهم التى وصلوا إليها فى يوم ٢٧ أغسطس خطوة إلى الأمام رغم الذهب الذى كان ينشره سلطان »[٣] .

---

(١) Egypt, No. 17 (1882), No. 587, F.O. August 7, 1882 .

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، المجموعة ٢٧/٣١ ، ملحق بتقرير رقم ١٧٣ سياسى ، ٣٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه .

ولعبت الخيانة دورها فى إذكاء روح الضعفاء ، وعند محاولة استرداد القصاصين كانت معركة كبيرة جرح فيها راشد حسنى وعلى فهمى ، وفقد الإنجليز كثيرًا من رجالهم ، وفشل التخطيط الذى وضعه قادة الثورة فى تطويق الإنجليز عن طريق الصالحية بقيادة البارودى ، إذ بُلِّغت الخطة للإنجليز عن طريق أحد الأميرالايات الخونة وهو « على خنفس » ، وأضل البدو الطريق للمصريين وأناروه للإنجليز ، لتأتى بداية النهاية ، وتختم صفحات الحرب فى التل الكبير التى لم تكن معدة الإعداد الكافى للحرب من استحكامات وغيره ، كما أن أبرز القادة كانوا إما أن أسروا أو جرحوا ، والباقى إما فى كفر الدوار أو دمياط . وفى حدود الإمكانات الموجودة كان الدفاع محدودًا ، لكنه مستميتًا نتج عنه استشهاد البعض ، وقد وصف شجاعة العسكريين فى تلك المعركة تقرير نمساوى يقول « دافع فى بدايتها المصريون دفاع الأبطال ، وكان لذلك دلائل واضحة على أن التهيج الوطنى قوبل بحماس زائد وبشجاعة شخصية من القوات المصرية المحاربة» ويتابع كلامه عن المدفعية المصرية، فيسجل «المدفعية التى استعملت سلاحها بكل دقة ومهارة متقنة النظير معطية لبقية القوات القدوة الطيبة على غير ما كان ينتظر حتى ليكاد الإنسان يكذب عينيه »(*) .

ونجح الإنجليز فى إصدار منشور عصيان عرابى من السلطان العثمانى ، فوزعت منه نسخ كثيرة على ضباط الجيش بواسطة سلطان ، وشكل ضربة قوية للثورة التى كانت مرتبطة بالإطار الدينى القوى ، وانتهى الأمر بأن خسر المصريون فى التل الكبير كل شىء وضاعت بل وسحقت كل الآمال .

ولم تستسلم بقية المواقع بسهولة ، فحصن جميلة - الذى يقع من بورسعيد على بعد بضع ساعات ويفصل ساحل المتوسط عن بحيرة المنزلة - استمرت مقاومته ، فكان يمده « محمد أبو العطا أحد المتحمسين الموالين لعرابى » بالسلاح ، ومضت مقاومته حتى سقط فى آخر الأمر .

وجاء دور عبد العال حلمى ، فرفض الاستسلام مصرًا على المقاومة ، وكانت تحت قيادته ثلاث آلاف من القوات ، فبارح دمياط وتحصن فى قرية كفر البطيخ ، وقد ضبطت الخطابات التى أرسلها إلى كفر الدوار والتى تفيض بروح البطولة والإصرار على المقاومة « وإنه من الحزم التحصين وعدم اللين للعدو والمدافعة لآخر رمق فى الحياة » ، ووصل به الأمر أنه حمل على الاعتقاد بأن عرابيًا لم يزل بجيشه ثابتًا أمام قوة الإنجليز ، وأنه لابد من القتال والدفاع عن الوطن إلى الفناء ، وانهالت

(*) المصدر نفسه ، رقم ٣٢ سياسى ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

عليه الأوامر من توفيق ومن نائبه سلطان ، ووجهت إليه الإنذارات بضرورة التسليم وتحميله مسئولية العصيان ، وهو صامت ويرفض الرد ويقاوم ، واستمر على موقفه حتى ٢١ سبتمبر حين « اعتزمت الحكومة القبض عليه وإعدامه رميًا بالرصاص فسلم نفسه »[١] .

وفى المنوفية كان محمد يوسف ومعه أربعة عشر ضابطًا وصف ضباط ، امتنعوا عن تسليم أسلحتهم وعارضوا الأوامر ، وحينما ضيق عليهم الخناق صاح اليوزباشى « لا أسلم سلاحى إلا على يد عرابى باشا » .

ورفضت حامية كفر الدوار الاستسلام للإنجليز ، ورأت أن تستسلم للخديو ، ولكن الأخير أعلن أنه لا يوافق على ذلك « فنبذت القوة الاستسلام الرسمى وهجرت خنادقها وتشتت فى كل اتجاه لدرجة أن الإنجليز عندما تقدموا إلى كفر الدوار وجدوا كل البنادق والماكينات ملقاة على الأرض وليس بينها متمرد واحد »[٢] .

ورأى القادة استمرار المقاومة ولو اضطر الأمر للإنسحاب إلى الصعيد أو حتى السودان وإدارة دفة الحرب من هناك ، وإغراق أراضى الشرقية والقليوبية لمنع تقدم الإنجليز ، والاستيلاء على جميع المراكب وشحنها ذخيرة وتعيينات إلى الصعيد . وانعقد المجلس الوطنى فى ١٣ سبتمبر وعرض الأمر لإتخاذ قرار ، فاختلفت الآراء «وعلت الضوضاء وكثر اللغط بين سالب القوم وموجب إلى أن أسكتهم البرنس إبراهيم بأن قام فى المجلس خطيبًا وبرهن على وجوب الدفاع عن الوطن ، وقال إن مصر غاصة بالجند ومخازن الجهادية ملأى بالمؤن والذخائر والأسلحة ، ومعدات الدفاع متوفرة فأجابه الجميع بالاستحسان »[٣] .

واستقر الرأى على إنشاء خط دفاعى فى ضواحى القاهرة ، وتوجه عرابى إلى العباسية ومعه المهندسين والضباط لاختيار الموقع الملائم ، إذ كان مصممًا على استمرار المقاومة . ولكن عادت المناقشات البيزنطية مرة أخرى ، وأخيرًا رئى أن الوقت قد انتهى لإعداد الدفاع، واستقر الرأى على رفع عريضة لتوفيق بالاستسلام، وأرسلت مع وفد برئاسة على الروبى . ثم بُعث بعريضة أخرى مع النديم ، فسجن الوفد الأول ، أما الثانى فقد ولى الأدبار .

---

(١) المصدر نفسه ، رقم ٢٧/٣١ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/أ ، ب .

(٢) المصدر نفسه ، رقم ١٧٦ سياسى ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦، دوسيه ٢٧٥/أ ، ب .

(٣) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٢٥١ .

وبدأ الإنجليز يصلون أفواجًا إلى العباسية ، وخرج إليها القاهريون من باب الشعرية والحسينية والدرب الأحمر بالعصى والهراوى[١] ، ولكن قضى على تلك الحركة فى الحال على أيدى السلطات المصرية الجديدة ، وكانت البداية لخضوع مصر للإحتلال الإنجليزى .

عوامل الإنكسار :

(أ) البدو وأصحاب الخيانة

عندما تأزمت الأمور بين توفيق والثورة عقب - مسألة الشراكسة - رأى أن يعتمد على قوة داخلية تسانده فى موقفه المضاد منها ، ووجد فى البدو خير من يقوم بهذا الدور ، وعن طريق مدير البحيرة أمكنه شراء بعض القبائل القاطنة فى تلك المنطقة ، وقد أنفق فى هذا السبيل عشرين ألف جنيه حصلت « قبائل أولاد على » على أكثرها ، وأمكن استحضار ثلاثة آلاف من أفرادها للإسكندرية . وفى أثناء الفترة التى كانت فيها مصر بغير نظارة إزداد وجودهم « حتى كان يخيل للزائرين أن سراية الإسماعيلية مجتمع العربان »[٢] ، ولم يكن يخلو القصر من تردد مشايخ البدو الذين كانوا يؤكدون ولاءهم ، وأقسموا للخديو أنهم لا يعرفون سيدًا للبلاد غيره .

وتقرب منهم عمر لطفى واستطاع أن يقنعهم « للقيام بالاضطرابات » وفى يوم حادثة الإسكندرية كان يرافق البعض منهم أثناء تجوله ، لدرجة أن أحدهم سأله عن قتل أوربى فوافقه ، وعقب ذلك مكثوا بالإسكندرية ، وأصبحوا يكونون ما عرف لدى الثوار « من ضمن حزب الخديوى » وكثر عددهم وخاصة فى منطقة الرمل[٣] . كما كان لهم الدور فى إذكاء حريق الإسكندرية ونهبها ، كذلك تعرضوا للمهاجرين السكندريين ، وعندما أيقن عرابى ذلك أصدر الأمر بإطلاق النيران على بعضهم ، حيث كان منهم من هجم على العزب الواقعة بطريق دمنهور ، وقد ثبت أن مدير البحيرة له يد فى هذا الأمر . فطلب عرابى من المجلس العرفى تغييره فى الحال ، وأرسلت القوات إلى المديرية « لحفظ البلاد وردع هؤلاء العربان الأشقياء »[٤] . وكان توفيق وراء هذه العملية ، والهدف تفريق العسكريين وتشتيت قواهم بين الحرب الخارجية والداخلية .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ . (٢) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ١٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٨/أ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٦ .

وحتى هؤلاء البدو الذين ذهبوا للإشتراك فى الحرب مع الثورة لم يكونوا جميعهم على درجة من الإخلاص ، ففى برقية من عرابى إلى وكيل الجهادية تفيد بأن « عربان العبابدة والمعازة الذين استسلبوا النوق من الجيزة والقليوبية وبنى سويف ، فيصير مخابرة المديريات المذكورة بضبط أولئك العربان وإجراء اللازم »، كما أن « عرب الحويطات » الذين صرف لهم خمسة آلاف بندقية هربوا بها ، ويؤكد عرابى على راشد حسنى بضبطهم وأخذ السلاح الميرى منهم ، هذا فى الوقت الذى كان فيه قادة الثورة على يقين بما يدبره البدو ضدهم ، فنرى عرابى ينبه « أخذ الاحتياطات من العربان وقطع خط مواصلة تلغراف رأس التين » ، وتم القبض على كثير من « عرب الهنادى والحرابى الجارين إشاعات وأراجيف ضد الحالة الراهنة وأنهما مفسدان فى الأرض »[1] .

وعرب الهنادى تأسس وجودهم على يد شيخهم محمود سلطان فى عصر محمد على ، ومن هنا كان واضحًا عليهم تأثير سلطان الذى أصبح فى قبضة ماليت يحركه كيفما شاء ، فوضع نفسه فى خدمة معارضى الثورة ، وأصبح الواسطة بين البدو والخديو الذى مضى فى التقرب إليهم .

وراح سلطان يكاتب مشايخ العرب ويمنيهم بالرتب والأوسمة على أن يبذلوا الطاعة للخديو والإنجليز وينبذوا طاعة الثوار ، وسار على طريقة معينة اتصف بها وهى إحياء العداء والغيرة بينهم كبدو وبين الفلاحين ، وذلك متأصل لديهم ، وأفهمهم أن توفيقا هو الحاكم الشرعى للبلاد وعرابيا ليس له أى صفة ، وأكثر من الذهب الذى ملأ به جيوبهم[2] .

وكانت مسألة الذهب هذه من ابتداع توفيق ، ووجدت الموافقة والتأييد من الإنجليز ، فدعوا سلطان إلى الميدان الشرقى ، وكما ذكر تقرير نمساوى « لممارسة الحرب على الطريقة القديمة التى عرفت عن فيليب المقدونى من رشوة البدو المشاكسين المستعدين دائمًا للارتشاء بالذهب لسحب القبائل من صفوف عرابى »[3] .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، ٨ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٣/ب ، محفظة ٤١، دوسيه ٢ .

(٢) Biovès , op. cit., p. 276 .

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٣١ سياسى ، ١١ سبتمبر ١٨٨٢ .

وتم الإتفاق ومنح سلطان حق التصرف فى كل شىء بناء على تعيينه مندوبًا لتوفيق ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح هناك بدو مقيدين بقلم الاستعلامات الإنجليزى ، وقد أيقن سلطان أن توزيع النقود باسم الإنجليز لن يفيد ، وهو يعلم مقدار سلطتها على النفوس ، فأخذ فى توزيعها باسم الخديوى والسلطان .

وحاولت الثورة ضرب قوة سلطان والقضاء على نشاطه الواسع ، لكنها لم تتمكن إلا فى حدود ، فقد هرب وكيله من المنيا ومعه أفراد لمحاربة الثورة فى هذه المنطقة ، وبذل المديرون جهودًا من أجل ضبطهم وأودعوا فى السجن وأحيلت جناياتهم على المجلس العسكرى ، بينما ضبط البعض الآخر من أتباعه ومعهم خطابات لمشايخ العربان « بقصد الدسيسة وإلقاء المفاسد » ، وضبطت عدة منشورات فى داخل المعسكرات للبدو تحرضهم على ترك المعركة « وإن عساكر الإنجليز الموجودة بجهتى إسكندرية والسويس ثلاثون ألفًا ، وأن هذه القوة الجسيمة موجهة لمقاومة عرابى باشا » ، وأخذ فى الاستعداد بعد أن تردد أن سلطان سيدخل مع الإنجليز « عن طريق البحر بالوجه القبلى »[١] .

وفى مذكرات سلطان التى كتبها إلى توفيق ما يؤكد دقة التخطيط لإلحاق الهزيمة بالثوار فى التل الكبير ، واعتمد فى ذلك على سعود الطحاوى شيخ عرب الهنادى ومحمد صالح الحوت المقيمين بجهة الصالحية ، فأرسل إليهما « بحضورهم يصير استعمالهم فى استمالة العربان وخلافه »[٢] . كذلك رأى توقيف الإمدادات للثوار ، فأرسل البدو ، وبعض التجار الأجانب - بعد الوعد بالمكافأة - إلى مديرى وأعيان المنيا وأسيوط وجرجا وقنا وإسنا لمنع تقديم أية مساعدة للثوار فى حربهم .

وكان للطحاوى دور كبير فى ضرب الثورة ، ولم تكن هذه المرة هى أولى إتصالاته بالمعسكر المضاد ، فقد سبق واتصل به « بالمر » الجاسوس الإنجليزى وكانت هذه الإتصالات سرية لا يعلم بها أحد . ومما يؤسف له أن هذا البدوى كان أحد ثقاة عرابى ، وللتمويه كان « يخبر عرابى ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابى يفضى له بجميع ما عنده »[٣] ، وبالتالى ينقلها للإنجليز ، وبعد إعطاء الثقة

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

(٣) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ٢٠٢ .

له والاعتماد عليه أضل هو ورجاله البارودى فى تحركه تجاه الصالحية للهجوم على ميمنة الإنجليز ، وما لبث الأمر أن دخلت القوات الإنجليزية « وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم إلى الطريق » ، وأمام ذلك انسحب البدو الباقون الذين كانوا يشكلون طلائع الجيش .

واستمر سلطان ولم يكتف بما تم على يديه ، وإنما أكمل طريق الغدر والخيانة حتى النهاية ، وقد ساعده توفيق الذى كان سلطان نائبًا عنه وممثلاً له ، فعقب دخول الإنجليز القاهرة أخبر ماليت توفيق هذا النبأ ، فأرسل على الفور لسلطان ليتوجه للقاهرة ليكون عنه نائبًا ، وبذلك أطلقت يد سلطان فى التصرف ، وتاقت نفسه للاستبداد ، فأمر بالقبض على الكثيرين ، وسجن الضباط والعلماء والتجار والأعيان ، وأمام ذلك كوفئ ، فأنعم عليه بالوسام المجيدى الأول ، وبعشرة آلاف جنيه مصرى ، أما الإنجليز فمنحوه وسام سان چورج وسان ميشيل « وذهب به السير ماليت وسلمه له »[1] ، هذا هو سلطان الذى تلونت سياسته بمرور الأيام ، وأضحت مصلحته فوق كل شىء حتى أنه باع وطنه من أجل جنيهات ليس محتاجًا لها ، وفى أواخر أيامه أيقن أن ما قام به من أجل العظمة والجاه والشهرة والمنصب لم يكن من نصيبه بعد كل ما فعل ، فندم بعد أن سجل له التاريخ أسوأ الصفحات .

لم يكن سلطان وحده فى ميدان الخيانة ، حقيقة لقد كان له الدور الرئيسى ، إلا أنه وجد بجواره من عمل على شاكلته فى نفس الاتجاه ، فهناك على مبارك وعمر لطفى اللذان قدما المساعدة للإنجليز لدرجة أنهما انتقلا إلى بورسعيد من أجل «تغيير أفكار الأهالى ومطابقتها لأفكار العدو »[2] . وقبل الانتقال أرسل على مبارك « مكاتيبه إلى عربان نواحى الشرقية بشأن ترك الحركات العسكرية » وفى ٣٠ أغسطس ضبط رجال الثورة خطابًا منه إلى شيخ المطرية يبين له بأن الإنجليز سيرسلون قواتهم إلى بحيرة تنيس ، وأن عليه أن يجتهد فى منع الصيادين من معارضة الإنجليز ويوعده بالمكافأة ، وعندما علم قادة الثورة بذلك أرسلوا « باشمهندس الخط الشرقى إلى البحيرة لينشئ عليها طابية من الجهة الغربية ،

---

(١) أحمد تيمور ، تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، ص ٤٧٦ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

ولم يتأخر على مبارك لحظة عن مداومة إرسال الخطابات إلى الأعيان من أجل اتباع أوامر وتعليمات توفيق والخضوع للإنجليز »[١] .

وبالرغم من مصريته الصميمة ، فإنه لم يكن ثوريًا ، لذلك فقد استبعد نهائيًا من أمام الثوار عند تشكيل نظارتى الثورة ، فلم ينسوا أن النظارة التى أسقطوها كان عضوًا فيها ، ومن المحتمل أن ذلك جعله يحقد على الثورة ويتقرب من أعدائها ، حتى أنه وقت الحرب كان فى جميع مجالسه لا يتحدث إلا على قوة الإنجليز ، هادفًا من وراء هذا العمل على انهيار المعنويات ، ووضح موقفه عند اجتماع المجلس الوطنى ، إذ كان معارضًا للإتجاه الثورى بعد أن شكك فى الأخبار الواردة للمجلس من الإسكندرية ، وحينما انضم للوفد الذى سافر للإسكندرية ، إتصل هناك بسيمور وبيّن له أن السبب فى القوة الموجودة أن النظارة قررت زيادة القوات إلى ٢٥ ألفًا[٢] ، ساعيًا بهذا إلى كسر تلك القوة عن طريق الإنجليز .

حقيقة فإن له منهجه فى الإصلاح ، وهو الرقى بالتعليم الذى عدّه خيرًا من الاهتمام بالسياسة ، لكن كان هناك من يؤمنون بذلك وجرفتهم وطنيتهم للعمل مع الثورة بكل طاقاتهم مثل محمد عبده وعبد الله فكرى . أما على مبارك ، فقد كان جامدًا يسير على مبدأ الطاعة التامة لولى الأمر ، ذلك الذى جعل توفيق يختاره ناظرًا فى نظارة شريف الأخيرة التى شكلت فى نهاية الثورة ، وإن كان البعض يسجل له أنه تبرع بشىء من ماله للحزب ، فلعل ذلك تحت تأثير من الشبان المتحمسين .

لم يكن عمر لطفى يقل عنه وربما زاد ، فقد لمسنا أدواره طوال الثورة رغم أنه فى البداية كان من مؤيديها ، فهو من الأعضاء القدامى للحزب الوطنى ، وكان يحضر تلك الجمعيات ذات الصبغة الوطنية وفيها الخطب المعهودة ، كل ذلك على مرآى و مسمع منه دون أن يظهر أقل إشارة تدل على رغبته فى منعها ، وهو مسئول فى الحكومة ، لكنه لم يكن إلا من العنصر التركى الذى أراد أن يصل على أكتاف الثوار . وعندما وجد نفسه أنه لن ينال ما يتمنى ، لم يدر وجهه بل راح يحارب بكل قواه الثورة والقائمين عليها لدرجة أنه لم يتورع على أن يصرح لمراسل صحيفة التيمز » بأن عرابى هدد بالقبض على جميع الرعايا البريطانيين »[٣] .

---

(١) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٨ ، الطائف ، عدد ٦٧ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

(٣) Commons, Vol. CCLXXI, June 26, 1882, p. 406 .

وكان منتظرًا من الباشوات من العنصر التركى أن يفعلوا ذلك ، وأن يعدوا أنفسهم لحين وصول الإنجليز ، وليس فقط ليستقبلوهم ولكن ليرحبوا بهم وليبجلوهم ، وكم أشاد جلادستون بمثل هذه النوعيات .

(ب) الخديو وأتباعه

كان توفيق هو صاحب القوة المحركة لجميع الأطراف المضادة للثورة ، فهو يعمل بجميع إمكاناته فى كل الميادين والاتجاهات داخليًا وخارجيًا ، بعد أن اهتز العرش من تحته ، وبعد أن قال الشعب كلمته وأفتى العلماء بإسقاطه .

وبالرغم من نوال مراده ووجود الأسطول البريطانى الذى استند إليه واحتمى فيه ، لم يكلفه ذلك إذ أن الحقد يملأ قلبه من قائد الثورة بعد أن وصل إلى أعلى درجة من المكانة بين شعبه ، فنراه يرسل إلى لندن فى ٢٨ يوليو ليشكو فيقول « إن عرابى باشا قطع عنى المواصلات فى داخلية البلاد ، وقد اتفق مع أهل مصر على العناد والمعارضة ، والقوة الآن بيده ولا يمكننى التصرف إلا إذا كنت داخل البلاد ، ولا أتمكن من دخولها إلا إذا كفلت لى حكومة الملكة الأمن على حياتى من عرابى باشا ، وإذا تغافلت عنى الحكومة فإنى أفقد السطوة بالمرة ، إذ لم يكن عندى إلا بعض الذوات الذين لا يمكنهم تنفيذ أى أمر من أوامرى »(*) ، وواضح رغبته الملحة فى طلب استمرار المساعدات الإنجليزية له للقضاء على عدوه الأكبر ، أما على أرض مصر فقد استطاع أن يضم الكثير من أصحاب المكانة الوظيفية ، لينتهى الأمر بخلق تعاون ونشاط مكثف بين أعوانه وبين الإنجليز لمحاربة الثورة فى فترتها الأخيرة .

نضجت ثمرة تلك العلاقة على أرض مصر كلها . وخاصة فى منطقة القناة ، فى ذلك الميدان الذى لم يكن الثوريون قد أعدوه الإعداد التام ، فاستطاعت بذور الخيانة أن تنبت وتمنو فيه ، « فإبراهيم باشا رشدى محافظ القنال ، والوكيل على ذو الفقار ساعدا الجنود الإنجليزية فى النزول بالإسماعيلية » ، ومحافظ بورسعيد إسماعيل حمدى باشا التجأ إلى إحدى سفن الإنجليز الحربية « لاستغلال سلطته فى استصدار قرارات بوليسية باسمه » ، ووكيل محافظ الإسماعيلية جرى على نفس النحو « نزل بوابور الإنجليز » ، وبذلك أصبحت القناة خالية من المحافظين

(*) الطائف ، عدد ٥٦ فى ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

الذين أصبحوا قلبًا وقالبًا مع الإنجليز ، يمارسون نشاطهم ضد الثورة التى لم تستطع القيام بأى عمل مضاد سوى إحالتهم على مجلس عسكرى وفصلهم وتعيين بدلاً منهم[١] ، وكثيرًا ما أصدر المجلس العرفى مثل تلك الأحكام على مرتكبى الخيانة ، لكن كان الحكم غيابيًا ولم ينل منهم شيئًا .

ومضى تدبير المؤامرات ، فقد تم العثور على خطابات مرسلة من حسين بك البغدادى أحد مأمورى الدقهلية إلى بعض الأعيان « يدعوهم لاتباع توفيق باشا والخضوع للإنجليز » وينتقل حسين بك حسنى مأمور مالية الدقهلية إلى بورسعيد ليحث عمد المطرية على الانقياد والطاعة لتوفيق ويطلب منهم « إرسال فلايك بطريق بورسعيد لأجل مساعدة الإنجليز » وعلى نفس المنوال ضُبط أيضًا شكيب باشا مأمور مصلحة المطرية وعلى رضا بك بالمصلحة . وبناء على ذلك يطلب عبد العال حلمى من وكيل الجهادية « سرعة إرسال ألف وخمسمائة أو ألفين من العربان الخيالة لترتيبهم لحفظ حافات البحيرة من المطرية[٢]. وكان هذا تصرفًا غير حكيم .

وشددت الأوامر من جانب قادة الثورة بالتدقيق وتفتيش المتنقلين والمسافرين، وبالرغم من ذلك كانت الإتصالات تتم بين الأطراف المعادية للثورة ، وتم القبض بواسطة الفلاحين على عثمان بك رأفت أمير خور الخديوى - مدير الإسطبل - وهو متخفى فى جلباب رث وعمامة ، ضبط فى قارب بالبحر بالفيوم متوجهًا إلى قبلى « للإفساد » ، وساعد مأمور مالية بنى سويف فى إطلاق سراحه ، وصدرت الأوامر والبرقيات من رجال الثورة إلى جميع الجهات بطلب القبض عليه[٣] .

أما عن مديرى المديريات المضادين ، فقد أمكن لمدير أسيوط عثمان باشا أن يكون سدًا منيعًا فى طريق الثورة ، وشاكر باشا مدير المنيا يعلن رفضه لإجابة طلبات الثورة من الإمدادات ، ويحاول قطع السكة الحديد بالقرب من بنى سويف ، لكن

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ دوسيه ٢٧ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ . محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/ب ، الأرشيف النمساوى ، المصدر نفسه .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب ، الطائف . عدد ٦٧ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٩ ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ٢٢ ، الطائف ، عدد ٦٩ ، ١٦ أغسطس ١٨٨٢ .

الثورة تمكنت منه وسجنته[١] ، ومدير جرجا يتصدى « للأشخاص التى حركتهم الغيرة الإسلامية للدفاع ، وأجرى سجنهم ووضع فيهم الخشب والحديد بمماثلة قطاع الطريق ليكونوا شهداء لغيرهم »[٢] . وكان ذلك طعنة للروح الثورية المتدفقة فى الشعب والتى تمثلت فى حركة تطوع واسعة اتسمت بها مصر فى تلك الفترة ، وفى البحيرة رفض رستم باشا رئيس قومسيون الأراضى الأميرية إعطاء ما طلبته الجهادية بالثمن وصرح أنها من حق الدائنين الإنجليز والفرنسيين ، فرد عليه عرابى بقوله « إن الحالة الراهنة تقتضى عدم الالتفات لحقوق أحد مادامت البلاد فى حالة حرب »[٣] .

وأمام ذلك كانت القطارات تغادر القاهرة إلى أسيوط من أجل إحضار المنشقين والرافضين ، لكنها لم تتمكن من اقتلاع جذور النفسيات الضعيفة والحاقدة والخائنة حتى لقد أصابت العدوى بعض العمد كأحمد عبد الغفار عمدة تلا ، والسيد الفقى - عضوًا مجلس النواب عن مديرية المنوفية - فجندا أنفسهما للعمل ضد الثورة وإعاقة خطواتها ، واستمرت المحاربة للثورة حتى آخر اللحظات ، فنرى أنه عندما أرسل عرابى إلى مأمور مركز منيا القمح بقطع السكة الحديد الموصلة للزقازيق وقطع الجسر وإطلاق المياه لإعاقة التقدم الإنجليزى « عمل ناظر المحافظة على تأخير التلغراف لذاك المأمور حتى حضرت عساكر الإنجليز »[٤] . وبذلك كان القدر يحيط بالثورة من كل جانب ، لكن لم يمنع هذا من أن جميع القائمين على الأعمال كانوا مع الثورة بكل ما يمتلكون ، أما تلك العناصر الرافضة فقد تجمعت لتحطيم الثورة فى النهاية .

(جـ) الجواسيس والدعاية المغرضة

انتشرت جواسيس القوى المعارضة لتلقى الدسائس وتنقل الأخبار وتريك أحوال الثورة ، فقد كان من ترتيبات الإنجليز الإسـ عـ نة « بنصارى الشام » وتم ذلك إذ تمكنت الثورة من العثور على كثير منهم فى أرض المعارك ، واتضح أنهم جواسيس للإنجليز ، واستعملوا جميع الحيل التى تمكنهم من التقاط

---

(١) The Times , Aug. 1, 1882

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٨ .

(٣) الأرشيف النمساوى ، المصدر نفسه ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، المصدر نفسه .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، المصدر نفسه ، دوسيه ٥٣/د/٣ .

المعلومات ، وكثيرًا ما كانوا يشيعون أنهم فروا من ظلم الإنجليز بالإسكندرية والتجأوا لرجال الثورة[١] .

وكان للأتراك باع فى مجال التجسس ، ففى مذكرات سلطان لتوفيق يقول له « ورد لنا الأمر العالى بالتلغراف بخصوص استخدام الأتراك وسيجرى اللازم حسب الأمر » ، كذلك استعان بهم الإنجليز مع الأرمن فى خدمتهم لهذا الغرض ، أيضًا استحضروا من عدن الأفراد للغرض نفسه ، فتذكر صحيفة الفسطاط « بلغنا أن عدو الله أرسل من أعوانه قومًا إلى مصر وأطرافها يتجسسون ، فقد تحقق عندنا أن صالح جعفر المقيم فى عدن وصل إلى السويس متخفيًا »[٢] .

وذهب الأمر إلى أن الأوربيين كانوا يرتدون الزى البدوى لتقصى الحقائق ، ففى برقية من وكيل مديرية الدقهلية إلى وكيل الجهادية يقول فيها « ضبطنا شخصين ببندر المنصورة من تبعية دولة اليونان لابسين ملابس عربان ومع أحدهما فرد لوفلفر بستة أرواح » وقبض عليهما كجواسيس وأرسلا إلى وكيل الجهادية ، وتكرر مثل ذلك ، وتم ضبط هؤلاء الأوربيين المسلحين المتخفيين دائمًا « تحت العباءة النعمانية والكوفية والعقال »[٣] .

هذا فى الوقت الذى كان فيه من المصريين المتزيين بالزى الأوربى للهدف نفسه، « فقد ضبط من يدعى محمود صدقى لابسًا برنيطة ومتزييًا بزى الأوربيين »، واتضح أنه يعمل مع المعسكر المضاد ، وامتلأت البرقيات المتبادلة بين قيادة الثورة بانتشار مثل هؤلاء الجواسيس وضرورة العمل على إيقاف نشاطهم بعد أن « انتشروا فى كافة جهات المواقع العسكرية »[٤] .

كذلك حوربت الثورة بالدعاية الأجنبية المضادة ، إذ تمكنت المطابع التابعة للأجانب من نشر ما كانت تطلق عليه « بشرى » وفيها « يهجون أهل الحق ويمدحون الخديو الجليل وسعادة سلطان باشا » ، وسلكت الصحافة الأجنبية الأسلوب نفسه

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ ، الطائف عدد ٤٨ فى ٣ أغسطس ١٨٨٢ ، عدد ٥٦ فى ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ، الفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٩ فى ٨ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، دوسيه ٥٣/ب ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب .

« فإنها دائمًا تستهزئ بالحزب الوطنى وتسفه رأيه وترميه بالجهل وسوء النية وقبح الطوية ، حتى أن من يطلع على أخبارها يضطره عقله وإنسانيته إلى كراهية هذا الحزب »[1] . ومضت الصحافة الهجومية وخاصة « الإجبشن جازيت » فى طريقها تنفث السم فى هذا الميدان . وضيقت الثورة الخناق على تلك الدعايات المغرضة ، لكن الأخيرة انتصرت حيث إنها وجدت من يساندها ، فنرى بعض الصحف تنتقل إلى الأسطول لتمارس نشاطها عن طريق البحر ، ولتكون بعيدة عن أيدى الثورة كى لا تبطش بها ، وتدخل أعدادها عن هذا الطريق وتنتشر على الأرض المصرية ، وتصدر الأوامر من قادة الثورة بمزيد من الرقابة ، وتُحرق الكثير من النسخ الواردة من تلك الصحف التى لم تقتصر على الأجنبية بل ماثلتها بعض الصحف المصرية المناوئة « كالاعتدال » .

هكذا مضت الدعاية المضادة تنشر مخالبها فى جسد الثورة لتدميه وتجعله غير قادر على المحاربة فى تلك الجهات المتعددة التى فتحت النار أمامه .

(د) انحراف بعض العسكريين

وأخيرًا وصل هذا الأمر لداخل بعض من العسكريين أصحاب النفوس الضعيفة، الذين خانوا أنفسهم ووطنهم وقسمهم وانجرفوا مع تيار الخيانة ، فقد وجدت الوعود والعهود التى صدرت من توفيق للعسكريين بعض الأصداء ، وأصبح لياور توفيق عثمان رفعت دوره الرئيسى فى ذلك « فكان يوضح للضباط الذين هم من أصل شركسى عدم فائدة إنضامهم للمقاومة الوطنية ، لأن الخديو هو الفائز فى النهاية ، ويكافىء من ينضم إليه الآن ويتبعه ويعاقب من يخالفه » ، هذا فى الوقت الذى أذيع فيه أن الجيش الإنجليزى ليس فى نيته الاستيلاء على البلاد أو الإقامة فيها ، إنما حضوره هو لحفظ النظام والأمن ، وصدرت المنشورات من الخديو التى تفيد « بما استقر عليه مؤتمر الدول من التدخل لإخماد الثورة ، وأن العساكر الإنجليزية أصبحت نائبة عن الجناب العالى »[2] . وكللت المنشورات بعصيان عرابى الصادر من السلطان العثمانى ، هذا فى الوقت الذى بدأ فيه تسرب بعض الضباط المصريين إلى المعسكر الإنجليزى وترك أرض المعركة ، « ففر نسيم بك وانضم إلى

---

(٢) القسطاط ، عدد ٧ فى ٣١ مايو ١٨٨٢ ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٣ .

الجيش الإنجليزى » ، والقائمقام أركان حرب فرقة رشيد محمد لبيب « ارتكب عار الفرار بالبحر من رشيد لحد الرملة وانحاز إلى الإنجليز » وأيضًا الرتب العادية « إسماعيل نظيم يوزباشى أركان حرب ، وسعيد ناصر ملازم أركان حرب ، كانا يجريان عملية الكشف بجهة القنطرة وصحبهما نفر سوارى ، فتركا معهم خيولهما والتجآ إلى العدو جهة القنطرة »[١] .

وكان الهروب والالتجاء إلى الخديو أيضًا ، فقد وصل إلى الإسكندرية أربعة ضباط « عفيفى سالم ، محمد كامل ، محمد شريف ، بكير موسى » بعد أن تركوا مواقعهم فى أبى قير معلنين طاعتهم للخديو ، فأنعم عليهم بالرتب والنياشين ، بعد أن قرر « أن يعين راتب ونصف راتب للعساكر الذين نبذوا طاعة عرابى وانحازوا إلى مولاهم الخديو » .

وعن هذا الطريق انتقلت الخطط الحربية والتكتيكات إلى الأعداء « فقد حدث أن الضابط ألفى أفندى يوسف الذى عاهد عرابى نكث بعهده وأظهر ولاءه سرًا للخديو ، فكان يخبر خيرى باشا بما يدبره العرابيون »[٢] .

وفى حقيقة الأمر فإن تلك الشهرة والصيت والحب المتدفق والشعبية الكبيرة التى تمتع بها عرابى أثارت النفسية فى داخلية بعض العسكريين ، وخاصة أصحاب الرتب العالية الذين اعتقدوا فى أنفسهم أنهم أحسن وأكفأ وأقدر منه ، فلماذا لم يتمتعوا بما حصل عليه ؟ فإن لم يستطيعوا فليحطموه ، وأمام ذلك نسوا كل شىء وراحوا يعملون من أجل مطامعهم الذاتية ، وعندما أيقن الأعداء هذا الأمر اغتنموا هذه الفرصة ، فكانت النتيجة انهيار الثورة ، وتم التأثير المضاد على أحمد عبد الغفار قومندان السوارى وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى سوارى وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية[٣] ، وكان من المؤسف أن يكون أحد غلاة الثورة وهو أحمد عبد الغفار من بين الخائنين .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١، دوسيه ٨ ، محفظة ٣، دوسيه ٤٧ ، محفظة ١٦ دوسيه ٣٨٤/ب .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١١٨ .

(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ .

وتمكن سلطان من مراسلة على يوسف المعروف « بعلى خنفس » مقدم جنود خطوط التل الكبير « واستماله إلى طاعة الخديوى فأطاع واستوثق »[1] ، وكان ذلك عن طريق الأموال التى انحنى لها الضعفاء ، ووضع على يوسف إمكانياته وتخطيطه للإنجليز ليكمل الدور الذى قام به أعداء الثورة ، وفى ليلة الهزيمة يخبر عرابى « أنه قد تحقق أن العدو لا يخرج فى هذه الليلة ، كما أخبر بذلك الجواسيس ، فبناء على هذه الإفادة أصدر عرابى أمره باستراحة فى تلك الليلة »[2] ، وتقدم الإنجليز وأمامهم بعض ضباط أركان حرب من المصريين إلى التل الكبير ، وأخلى لهم على يوسف الطريق ، وكانوا على دراية بكل صغيرة وكبيرة داخل أرض المعركة ، إذ أعد كل شىء لانتصار الأعداء الذين تمكنوا فى نهاية الأمر من الانتصار على الثورة .

(هـ) مآخذ الثورة

لم يكن الإنكسار معتمداً على نشاطات القوى المضادة والخيانة فقط ، وإنما كانت هناك أخطاء ارتكبها قادة الثورة أسهمت فى تلك النهاية ، وربما لو تفادت لأمكن الوقوف أمام هذه الجبهات . وحقيقة فإن للثورة برنامجها ، لكنه كان محتاجًا إلى تنظيم أدق ، وإعداد لمتطلبات الموقف وما يطرأ عليه لإمكانية مجابهة أى ظروف .

اعتمد رجال الثورة وعلى رأسهم عرابى على تلك الشعبية المطلقة التى ساندتهم ووقفت بجوارهم وأيدتهم ، ولم يفرقوا بين العناصر التى انضمت للثورة ، فالثقة متبادلة بين الطرفين ، عرابى شديد الثقة فى الناس جميعهم ، وهم شديدو الثقة فيه ، وهذا الأمر سلاح ذو حدين ، ففى البداية كانت هذه الثقة قائمة على نجاحه فى كل ما حصل عليه للمصريين ، لكنها فى النهاية تخللتها الشوائب التى أضرت بالثورة .

وكان عدم الدراية الكافية بفن السياسة وممارستها ، وعدم فهم ألاعيب المخططات الأوربية ، من أهم ما تعرضت له القيادة الثورية . فبالرغم من الإجراءات التى اتخذتها بريطانيا وفرنسا ضد مصر ، فإنه ساد الإعتقاد بأن الأخيرة لن تقدم أية معونة للأولى إذا حاربت مصر ، وصدق عرابى هؤلاء الفرنسيين الذين أظهروا له العطف وبينوا له أن الأسطول الفرنسى لم يأت لمهاجمة مصر وإنما لمراقبة

---

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٢١ .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٢٤٩ .

تحركات الأسطول البريطانى[١] ، حقيقة أن فرنسا انسحبت من الميدان الحربى ، لكنها لم تبخل على حليفتها ووقفت بجانبها ، ولم ينتبه الثوار لذلك بل كانوا يعقدون الآمال على نصرة فرنسا للقضية المصرية .

واعتقد الثوريون أن تهديد لندن لن يخرج إلى حيز التنفيذ ، حيث إن الدول الأوربية لن تسمح بذلك التدخل ، وأن مؤتمر الآستانة سيحل المسألة ، ويحول دون أن تنفرد بريطانيا بمصر ، وحتى إذا تمكنت من مخالفة الرأى الأوربى ، فسيكون هناك رد فعل وأثر سيئ فى العالم الإسلامى الذى تخشى إثارته ، وخاصة فى مستعمراتها إذا دخلت حرب ضد دولة إسلامية ، ومن هنا كان التحدى للإنجليز والإعلان بأن المصريين لن يستسلموا ، وإذا اعتدى عليهم فستكون الحرب المقدسة، وأدلى عرابى بتصريحات التحدى للصحافة الأجنبية .

وساعد على ذلك العلاقة التى ربطت بين الثوار والدولة العثمانية ولم تكن تسير على وتيرة واحدة فسمتها التبديل والتغيير ، وبالرغم من زعزعتها فإنه فى أحيان كثيرة أعطى الثوار ثقتهم للباب العالى ، وهذا مما أضر بالقضية المصرية .

أضف إلى ذلك الثقة المتناهية فى النفس التى فى كثير من الأحيان تأتى بعكس المتوقع ، فاعتقد قادة الثورة وسيطرت عليهم فكرة أن « العساكر المصرية أكفأ من دولة الإنجليز حيث لم يكن لهم قوة إلا فى البحر »[٢] ، وحمل النديم لواء نشر ذلك ، فراح يردد تلك الدعاية الرنانة ، واتسع النطاق وأصبح الجميع مؤمنين بأن الإنجليز كالسمك الذى يموت إذا خرج من البحر .

كما أن القائمين على الثورة لم يضربوا الخيانة بيد من حديد ولم يقتلعوا جذورها من أعماق الأرض وأعطوها فرصة لأن تكبر وتترعرع ، حقيقة كانوا ثوريين فى إجراءاتهم فى بعض الأحيان ، فنرى حكم الإعدام يصدر على عدد من « البرابرة » العاملون بمنازل الأوربيين والذين كانوا يعطون إشارات للسفن الإنجليزية وقت ضرب الإسكندرية ، كما حدث نفس الشىء مع البدو المعتدين على الأهالى ، إلا أنهم لم يحتاطوا من البدو عندما جندوهم ، ونحن لا ننكر أنهم قدموا المساعدات للثورة لكن أساءوا إليها أكثر مما نفعوها ، وكان من الضرورى إخضاعهم لمراقبة صارمة ، والقادة يعلمون أن « الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا » ، وبالرغم من هذا فإنهم حازوا الثقة إلى حد كبير فكونوا فرقًا بأكملها فى جيش الدفاع .

---

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 197 , 198 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٨٣/١ .

أما عن الفلاحين الذين اشتركوا فى الحرب ، فقد ضحوا بالكثير ، ولكن لم تكن فترة تدريبهم كافية لصد عدوان جيش إنجليزى مسلح وقوى ، وخاصة فى الميدان الشرقى ، ويذكر فارمان أنه « لم يكن هناك سوى ثمانية آلاف جندى من الأهالى المدربين فى جيش عرابى ، وهؤلاء كان معظمهم معسكرًا فى كفر الدوار ورشيد ودمياط ، أما باقى الجنود من المصريين فإنهم إما طاعنين فى السن أو فلاحين غير مدربين ، كان يمكن لألف جندى مدرب أن يجبروا عشرة آلاف منهم على الفرار »(*) ، وفى الواقع لم يكن الوقت كافيًا للإعداد الكامل ، فأحيانًا كان المتطوعون يرسلون إلى أرض المعركة ويلبسون الملابس العسكرية ويعطون البنادق ليحاربوا دون القيام بالتدريبات اللازمة .

وهناك رأى يرمى إلى أنه من الأخطاء إهمال تعبئة القوى الشعبية وتسليحها وخلق قوة ضاربة فى مواجهة قوة الإحتلال ، لكن مما لا شك فيه أنه مع قيام الحرب توافد على المعسكرات المتطوعون الذين مثلوا قوى الشعب المختلفة من كل مكان على أرض مصر بروح وطنية متأصلة وساهموا فى الميدان الحربى ، كما خرجت أوامر عرابى لتسليح أهالى بعض المناطق المتوقع غزو العدو لها ، وتوليتهم أمر الدفاع عنها ، وتم ذلك بالفعل ، وقد كان من التهم التى ألقيت على قادة الثورة « تحريض الناس وحضهم على حمل السلاح » ، ومحافظ الثورة تشير إلى ذلك فى جميع محاضر التحقيق التى أجريت مع الثوار ، فهذا كفيل بأن قوى الشعب قد قدمت نفسها لمصر حيث اعتبرت أن هذه الحرب جهاد فى سبيل الله ، هذا وعندما رأى عرابى استدعاء الخفر للحرب وإقامة حرس أهلى من الشعب بديلاً عنه ، رفض المجلس الذى كانت مصر خاضعة له ، إذ سيطرت عليه هو الآخر المصالح التى لم يكن يوافقها استلام الشعب لأمن البلاد ، ومن هنا افتقدت الثورة التوافق فى الأفكار أمام هذه المسألة .

أيضًا كان على الثوار عدم إعطاء أية فرصة لخروج من انشق عن الثورة ، والعمل على استمرارية الاحتواء الثورى وإقصاء المعارضة جانبًا وخصوصًا بعد أن بدأت الحرب ، لكن كان ذلك صعبًا للغاية ، حيث إن تلك الإختلافات بنيت على تباين فى الإيديولوجية ، هذا فى الوقت الذى لم يرغب فيه الثوار أن تكون ثورتهم

(*) فارمان ، المرجع المذكور ، ص ٣١٥ .

دامية ، فتهاونوا مع من أساء للثورة وطعنها ، فلم يعلقوا المشانق ولم يجتثوا العناصر المعادية .

هذا بالإضافة إلى أن عرابيا لم يكن فى الصفوف الأمامية أثناء معارك الميدان الشرقى كقائد حربى يدير دفة المعارك ويشترك بثقله فيها ، ولكنه اكتفى باشتراك معنوى وإضفاء المسحة الدينية على خطواته ، إذ اعتقد أن وجوده وتنقلاته بين المعسكرات يكون له تأثير أقوى على سيرها أكثر مما لو كان فى الخطوط الأمامية ، ويقول بلنت « إن مكانته الكبيرة بين شيوخ البلد والفلاحين فى الدلتا من أكبر البواعث على بث الحماسة من أجل الحرب ، ولهذا السبب كانت الإمدادات تتدفق من جميع النواحى على الجيش وأيضًا تدفق المتطوعون ، وأن عرابيا بذلك كان أكثر فائدة مما لو تولى القيادة فى ميدان القتال »[١] ، غير أنه لو حارب عرابى وتصدر المقدمة لما تغير موقف قوى الشعب الذى قدم كل شىء من أجل مصر .

وبذلك يمكن القول أن عرابيًا لم يعط الحرب مثلما أعطى السياسة ، وأنه فى الوقت نفسه لم يكن يدركها تمام الإدراك خاصة فى مسألة قناة السويس التى أجهزت على الثورة ، وكان للثقة فى ديلسبس وشركة القناة بداية الانهيار ، إذ اعتقد الزعيم أن ما يسعى له هذا الفرنسى إنما هو فى صالح مصر ، ففى خطاب يبعث به إليه يبين محافظته على أملاك الأجانب الذين هاجروا ، ويشكره على مساعيه الخيرة ويؤكد له وثوقه فى كافة مشروعاته[٢] ، وكان عرابى حسن النية فتراجع عن سد القناة ، ولو أنه أشد مكرًا وأكثر حسمًا وأشد قسوة لمضى فى تنفيذ البرنامج الثورى ولما تردد لحظة ، وخصوصًا إنه كان ذا تأثير قوى على باقى أعضاء الثورة .

لكن من طبائع الثورات حدوث أخطاء لا حيلة لها فيها « فالثورة كالمطية الجموح تسوق من يركبها ولا يسوقها إلى غير مجراها » ، وتلك المآخذ التى تؤخذ على الثورة لا يمكن أن تنال من مكانتها وقدرها أمام التاريخ .

■ ● ■ ● ■

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 385 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٢ .



القوى الخارجية والموقف من الأحداث الثورية

الفصل الثامن

تحركات الدولة العثمانية .

الفصل التاسع

مساعى حليم واسماعيل من أجل العرش .

الفصل العاشر

التأييد العربى والإسلامى والأوربى .

الفصل الثامن

تحركات الدولة العثمانية

... الدولة العثمانية فى النطاق الثورى

كانت مصر بالنسبة للدولة العثمانية من أهم ولاياتها ، فدائمًا تحرص كل الحرص على تبعيتها لها ، وقد تمكن محمد على من جعل مصر صاحبة وضع خاص وذلك بنشاطه الخارجى الذى انتهى بخضوعها للإرادة الدولية ، لتدخل تدريجيًا فى مرحلة يتغلغل فيها النفوذ الأوربى خاصة الأنجلو فرنسى ، ليتوارى النفوذ العثمانى جانبًا .

وقد دفع إسماعيل الكثير من أجل إرضاء نفسه وميوله التى تهوى الاستقلال بحكم مصر وإخراجها من تحت السيادة العثمانية التى لم تكن ممثلة إلا ظاهريًا ، فتمكن من الحصول على فرمان تلو الآخر ، لكنه لم يحقق ما تمناه ، فكانت على مصر تلك الالتزامات الشكلية المفروضة عليها ، فإذا دخلت الدولة فى حرب ، كان على القوات المصرية ومعداتها أن تكون على أرض المعركة ، هذا بالإضافة إلى الجزية السنوية التى تدفع إليها وبعض القيود الأخرى التى فرضت على مصر .

وانتهت سنوات حكم إسماعيل ، ولم تكن مصر وحدها تعانى من الضعف والأزمات المالية إذ شاركتها الدولة العثمانية ، وكان التسلط الأوربى قائمًا على قدم وساق ، فقد جاء توفيق على أيدى بريطانيا وفرنسا وحتى عندما حاولت الدولة الانتقاص من بعض الميزات التى منحت لمصر فى إطار الفرمانات السابقة ، فشلت فى ذلك .

ولم تكن العلاقة على ما يرام بين الخديو والباب العالى ، فقد أحس منذ البداية بأن لقاءه مع بريطانيا وفرنسا أضمن له من أية لقاءات أخرى . لهذا فلم

يذهب إلى السلطان لأداء واجبات الشكر له عقب صدور فرمان التولية الذى حاول فيه السلطان التوفيق بين مصالح الدولة العثمانية ومصالح الدول الأوربية .

ووضع السلطان عبد الحميد مصر نصب عينيه ، إذ راودته فكرة إمكانية استغلال تلك الأمة التى هى مهد الحضارة وصاحبة المركز الإسلامى لامتلاكها منبع الثقافة الإسلامية ووقوعها بين الأمم الشرقية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه يحتضن حركة الجامعة الإسلامية ، فرأى جعل مصر مركزًا لذلك النشاط الذى يمكنه من الوقوف أمام المصالح الروسية والإنجليزية فى آسيا الوسطى ، ويكون قوة معارضة ، ويدعم عن هذا الطريق الزعامة الإسلامية فى آل عثمان بعد أن تطرق الضعف إليها ، ويظهر بالمظهر الأدبى والروحى فى دفاعه عن الإسلام ومجده واستعادة مكانته الأولى وخصوصًا أن المد الاستعمارى قد بلغ مداه ، فاستولت بريطانيا على قبرص وأعلنت فرنسا حمايتها على تونس ، فشعر بوطأة التدخل الأوربى ، ومن هنا كان لابد من ممارسة الضغط على الشعوب الإسلامية من خلال مصر .

وتشاء الظروف أنه عندما قرر السلطان التنفيذ كانت الحركة الوطنية قد أخذت مكانها فى مصر وبدأت الخطوة الأولى للثورة ، فرأى الاستفادة من وراء ذلك بتحقيق أمله فى الحركة الإسلامية ، هذا من ناحية واستعادة سلطانه وسيطرته على وادى النيل من ناحية أخرى . ولسياسة الدولة خبرة فائقة فى أمور التردد والمراوغة والمكر والخداع والتلون فى المواقف وضرب القوى ببعضها ليكون أولاً وأخيرًا المكسب لها وحدها ، فماذا كان موقف الثورة المصرية من الدولة صاحبة الولاية على مصر ؟ اتخذ هذا الموقف أكثر من شكل طبقًا لمقتضيات الأمور ، ولتلك الظروف والأحداث التى مرت بها الثورة ، فأساسًا هى قامت من أجل إعطاء مصر حقها بعد أن سلب منها كل شىء ، ونادت بمصر للمصريين حيث أساءلها من هو غير مصرى طوال تاريخها ، لكن مصر كانت إسلامية عميقة فى تدينها مؤمنة كل الإيمان بذلك المركز الروحى للدولة العثمانية الذى يجمع بين الزعامة الدينية والروحية والحكم الدنيوى.

ومع الوقت بدأ هذا المفهوم يهتز من الناحية السياسية لتستمر الناحية الدينية، وذلك هو سمة التطور خاصة وأن القرن التاسع عشر قد اختص بظهور القوميات بعد أن سرت مبادئ الثورة الفرنسية إلى أوربا وخارجها ، وفى مصر تبلور الرأى العام وقوى ، وتأصلت النزعة الوطنية وساد الكره والحقد على كل ما هو أجنبى

يعيش على الأرض المصرية ، لكن لم يكن معنى ذلك إغفال مركز الدولة العثمانية الدينى إذ وجدت كل عناية وتكريم ، فنرى النديم يدافع عنها بقوله « هى الدولة الإسلامية التى بين ثمانى عشرة دولة مسيحية »[١] ، ومضى محمد عبده فى نفس الاتجاه ، وهما من مفكرى الثورة ومن غلاة الدعاة لمبادئها ، لكنهما رأيا أن للعلاقة الروحية والمعنوية ثقلها خاصة أمام التحدى الاستعمارى للغرب .

ولهذا فمع بداية الثورة ، والمصريون لا يبحثون عن إنفصال عن الدولة ، وكان الحزب الوطنى يؤيد فكرة الإمبراطورية الإسلامية التى يكون فيها السلطان خليفة ، هذا فى الوقت الذى تأصلت فيه المصرية داخل أعضائه ، لكن إطاعة السلطان واجبة على المسلمين ، وبذلك التصقت الدولة العثمانية فى أذهان المصريين بتراث الإسلام ، حتى أن العامة ربطوا بين الإسلام والسلطان وقد وضح ذلك من دعواتهم طوال فترة الحرب .

من هنا كان العامل الدينى قويًا فى الثورة وخاصة أن معظم تيار المثقفين تيار دينى ، لكنه متحرر من القيود ، متسمًا بالإصلاح ، يعطى للعامل الوطنى قدره وأهميته ، وكان زعيم هذا الرأى محمد عبده الذى يرى أن السبب فيما أصاب المسلمين من إنحلال يرجع إلى خطأ ربط الدين بالسياسة ، وقد تمسك بتقاليد بلاده بحيث شكلت النزعة الوطنية جانبًا هامًا فى تفكيره ، كما كان يرى أن الأمة المصرية هى جزء من دار الإسلام ، ومع ذلك فإنه واضح الميل للعروبة ، إذ طالب بالعودة للسلف الصالح وما كان عليه الإسلام من عزة ومجد وقوة وأيضًا بإحياء اللغة العربية وتجديد آدابها ، وبذلك فإن فكر محمد عبده السياسى أسهم بدوره فى نمو هذا الإتجاه ، فهو يكره الأتراك ، ويمقت سياستهم وخاصة ما يتبعه السلطان عبد الحميد ، وقد أعلن ذلك صراحة لبلنت[٢] ، وبذلك حمل فى نفسيته عقدة العنصر التركى وأصّلها فى مدرسته .

ومعروف أن المصريين يبغضون الأتراك ، ومنذ أن وطأت أقدامهم الأرض المصرية وهم دائمو الثورات عليهم خاصة قبل حكم محمد على ، وكان شعور عرابى الشيء نفسه فهو لا يضمر أى حب لهم ، ففى نظره أنهم أساءوا حكم مصر قرونًا طويلة ولذلك فلن يسمح لهم بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، لكنه فرق بين

---

(١) عبد الفتاح النديم ، المرجع المذكور ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 251 .

الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية فالسلطان يجب إطاعته طالما كان عادلاً « كلنا أبناء السلطان يجب علينا أن نعيش كأسرة فى منزل واحد ، وكما أن أعضاء الأسرة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسبما يهوى ولا يحق لرب البيت أن يستبيح حرمتها ، فكذلك لكل شعب من الشعوب الإسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها وفقًا لما يريد ، وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وستحافظ على ذلك »[١] .

من هذا يتضح أن الثورة رحبت بالعلاقة على أساس أنها علاقة دينية وأن وضع مصر الدولى قد جعلها فى إطار الدولة العثمانية فيجب المحافظة على ذلك بدون السماح للمزيد من الامتيازات ، كما كان لابد أن تستند الثورة على قوة ترى أنه من الممكن أن تقف معها أمام الإتجاهات الاستعمارية ، خاصة بعد أن انسلخت تونس من الدولة العثمانية وأعلنت فرنسا الحماية عليها ، ولذلك رأى الحزب الوطنى أن يركن لمساعدة الباب العالى نظرًا لخوفه من التدخل الأجنبى ، لكن بعد دراسة هذا الموضوع بين أعضاء الثورة رئى « أن يكون دور الأستانة دورًا إسلاميًا فقط حتى الإتحاد مع الدولة يجب أن يكون فى أضيق الحدود »[٢] ، هذا بالإضافة إلى رغبة الثورة فى التقليل من عدد الأعداء حتى يمكن أن توحد جهودها تجاه العدو الأصلى .

عرفنا اتجاه السلطان عبد الحميد إزاء مصر ، فقد وجد فى الثورة فرصته لتحقيق ما يصبو إليه ، ونظرًا لطغيانه واستبداده رأى ضرورة العمل والحيلولة دون ضياع هذه الفرصة خصوصًا أن خوفه كان كبيرًا من أن تحطم آماله بقيام خلافة إسلامية عربية تضم المناوئين لسياسته فى الحجاز والشام ، وأنه إن لم يظهر عطفه على الثورة ، فربما تنضم لذلك الجانب « لهذا كان لا ينظر إلى المسألة المصرية إلا من زاوية هذه الخطط على أمل أن يفيد من النزاع بين الخديو والعسكريين »[٣] .

إذن فلم يكن موقف الدولة العثمانية من الثورة حبًا فى هذا الإتجاه ، فالسلطان هو عدو الأنظمة الدستورية كما وضح من موقفه من مدحت باشا وما تم له على يديه ، إنما من أجل المصلحة ، ومن هنا بدأ عرابى يلقى بعض التشجيع من السلطان رغم تصريحاته وإعلانه جهرًا معاداته للأتراك .

---

(١) Ibid, p. 172 .

(٢) Archives de maison, Fasc XXXI-9, No. 57 Pol, 6 Mars, 1882 .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ١٤٩ .

وبذلك نرى أن قادة الثورة كانوا يميلون للإتفاق مع الدولة صاحبة السيادة على مصر من أجل إقصاء توفيق عن حكمها ، وتؤكد الوثائق النمساوية « أنه نُظر فى أن يصبح عرابى وكيلاً للسلطان ويعزل الخديو الحالى ويحل محله ويحصل على الاستقلال من السلطان ويعترف به كحاكم لمصر »(١) .

وظهرت العلاقة التى ربطت بين الثورة والدولة العثمانية إلى حيز الوجود وأصبحت على الألسنة ، لكن إذا بحثنا فى الأعماق نجد أنها علاقة أوجدتها ظروف معينة ، فالطرفان يكره كل منهما الآخر ، فطرف الثورة الذى يمثله عرابى كان يردد استقلال مصر على أسس وطنية ويحمل بين جنباته الرفض للخضوع للسلطان .

أما طرف السلطان فكان يكره ثورة مصر كحركة قومية داخل إطار ولايته ، هذا فى الوقت الذى بلغ فيه عرابى كزعيم قومى مداه ، ولم تكن مكانته داخل الحدود المصرية فحسب ، بل طارت سمعته لآفاق العالم وأصبح بطلاً للإسلام ورمزًا للمناضلين للاستبداد ، وله المؤيدون من الأجناس المتعددة ، وبذك صار للسلطان الحق فيما غمره من إحساس سلبى تجاهه .

وبناء على تأصل النزعة القومية لدى الثوريين راودتهم فكرة إمكان إحياء الخلافة الإسلامية للعرب ، وعليه يسدل الستار على العلاقة التى تربط بين مصر بالدولة العثمانية ، فالعرب فضلوا على بقية الأجناس ، والقرآن الكريم نزل بلغتهم « إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا » فيكفى فخر العرب بذلك ، ولغتهم هى لغة الضاد التى يجهلها العثمانيون الذين أغفلوا تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية ، وأخيرًا فقد كانت مصر مقر الخلافة ، ولابد من إرجاع الحقوق إلى أصحابها .

وبدأت فكرة القومية العربية تخرج إلى حيز الوجود وتطغى على ما عداها تدريجيًا ويذكر أحد شهود العيان أنه قد وصل الأمر إلى « إنكار تبعيه مصر لدار السلطنة العثمانية » ، وراح التفكير فى تدعيم ذلك ، وتصادف فى ذات الوقت أن كان شريف مكة على علاقة سيئة مع الدولة العثمانية ، وحزب الأحرار فيها يطالب بالتحرر من السلطان عبد الحميد ، ولبلنت يد فى الموضوع فعرض على عرابى « مخابرة شريف مكة وغيره من كبار العرب فى استنهاضهم إلى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر »(٢) .

---

(١) Archives des maison, No. 11, 13 Fevrier, 1882 .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٨ .

مع بداية الثورة عين توفيق مندوبًا له فى الآستانة ليدرس الموقف ، ويبلغه الأخبار ، ويقربه إلى المسئولين هناك ، وكانت المراسلات بينهما صورة حية لما يجرى على الصعيدين المصرى والتركى ، فيرسل الخديو إليه ليخطره « أن عرابى يقدم نفسه بأنه شريف وإفادته إلى أهل مكة من هذا القبيل ، فنرجو عرض الموضوع على حضرة ولى النعم بصفة سرية جدًا للعلم بحقيقة الأمر حتى لا يشعر الحجازيون بأى شىء عن ذلك »(١) ، ويطمئنه ثابت باشا عن جهوده من أجل إسقاط مسألة القومية عن طريق تحريض السلطان على الثوار .

وبذلك يتضح أنه كانت هناك علاقات بين قادة الثورة والحجاز ، وأن السلطان أصبح يعلم بتلك الحركات ، فرأى أن يعمل على المزيد من أجل سحب الثورة من هذا المجال خوفًا من أن يقذف به كخليفة ويعين غيره سواء كان من المصريين أو شريف مكة ذاته . ويذكر البعض أنه دارت إشاعات حول أن عرابى حصل على موافقة عدد من علماء القاهرة بفتوى لعزل السلطان من الخلافة وتعيين شريف مكة خلفًا له فى حالة معارضة السلطان(٢) ، كما صرحت صحيفة التيمز بأن « عرابى باشا راغب فى الإنضمام للثورة الدينية الشديدة المتحركة الآن فى بلاد العرب وممالك أخرى إسلامية »(٣) .

ومضى توفيق للعمل فى هذا الميدان الخصب ، لكى يضرب الثورة من ناحية ، ويتقرب للسلطان الذى كانت علاقته معه على غير ما يرام من ناحية ثانية ، ثم ليعصف بكل اتحاد يمكن أن يتم بين الجانبين ، فنراه يرسل للآستانة ليقول إنه خادم مولاه السلطان وأنه يبذل « الدقة والعناية التامة فى عدم حصول اختلال أو ثورة بأى شكل كان فى مكة المكرمة التى هى قبلة الموحدين وفى مصر القاهرة » ويضيف أنه متيقظ من عدم تسرب الأسلحة من جمارك مصر إلى الحجاز ، ويرجع هذا النشاط الثورى لرجال مصر « وما ذلك إلا من تحرضات المفسدين » ، ويؤكد ضرورة قوة الارتباط بمركز الخلافة ، وأن ذلك يتوقف على تأكيد العنصر التركى وكثرة عدده ، وأن القومية والوطنية اللتين ظهرتا بمصر مخالفتان تمامًا لهذا المبدأ « فغرضهم الوحدة العربية ، ويعمل رئيس هذه الطائفة (عرابى) على تقوية هذه الروح ليلاً ونهارًا ، كما أنه يسعى لإدماج أهالى الحجاز والشام وطرابلس الغرب

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ملف ثابت باشا ، ١٦ أبريل ١٨٨٢ .

(٢) Malorite , op. cit., p. 10 . (٣) المفيد ، عدد ٢٣ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

ضمن الإتحاد العربى ، وها هى لقاءاته مع الحجازين وبسطاء العقول مدعيًا أنه من الأشراف ، وغنى عن التعريف ما لهذه المقاصد الخبيثة من ضرر ومخاطر بالنسبة للحاكم الشرعى »[1] .

وتعمقت الروح القومية وظهرت فى تلك الاجتماعات التى هى تنظيمات تضم الثوار ، ويقول صابونجى فى خطاب له لبلنت فى ٢٤ يونية ١٨٨٢ عن ذلك « إنهم يعتبرون أن عبد الحميد فى واد آخر ، ويسعون إلى كل ما يمكنهم الاستفادة منه حتى تصل قوتهم إلى الدرجة التى تؤهلهم لإعلان الجمهورية المستقلة ، وهذا هو أساس برنامجهم الثورى منذ البداية ، ولكنهم يفضلون تنفيذ ذلك تدريجيًا ، وقد أكد لى محمود باشا سامى فى حضور نديم وعبده بإنه لن توافيهم المنية قبل أن يعلنوا استقلال مصر عن الباب العالى والمناداة بالجمهورية ، ونديم يوجه جهوده نحو هذه الغاية ببذر بذورها فى أذهان الجيل الصاعد »[2] . وقد غمرهم هذا الإحساس منذ أن بدأت الثورة إذ رأوا « أن أرضًا عربية كمصر لا تحكم بتركى ولا غيره ، وأنهم يفضلون القتل على دخول عسكرى غريب أرضهم أو رجل من رجال الحكومة التركية فى أعمالهم »[3] .

وبتطور الأحداث وبالإجراءات الثورية التى تمت وخاصة تلك التى وجهت للعناصر التركية والشركسية ، كان الخديو سباقًا ومسرعًا بتبليغها للباب العالى وذلك حتى يقطع علاقاته مع الثورة وينتصر على عرابى ويظهر أمام السلطان بمظهر الغيور على مصلحته ، وفعلاً أثير غضب الأخير فتأكد « أن عرابى باشا قوله لا يطابق فعله، وأنه متلون ومتقلب الأفكار دائمًا وغافل وجاهل »[4] .

ولم يهتم الثوار بذلك بل سيطرت نشوة القومية عليهم خاصة عندما أذيع أن قوات تركية ستحضر إلى مصر ، فيعلن عرابى « إن تداخل الباب العالى إذا كان بوجه غير سلمى وعلى الخصوص إذا كانت الدولة مصممة على إرسال عساكر فإنه يقاومها أشد مقاومة يفعلها مع فرنسا وإنجلترا »[5] .

---

(١) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٧ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 347 .

(٣) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٩ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ عن جريدة الديبا .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢١ يوليو ١٨٨٢ .

(٥) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

وازداد الموقف صعوبة بعد أن أحست الثورة أن الدولة العثمانية لم تقدم لها المساعدات المرجوة التى تنتظرها لوقف التدخل الأنجلو فرنسى ، فأصبح التحول عنها واضحًا واشتد النفور وتعمقت الكراهية ، فيذكر صابونجى لبلنت فى خطاب ١٩ يونيو ١٨٨٢ « سمعت سامى وعبده ونديم يلعنون السلاطين والجنس التركى من جنكيزخان إلى هولاكو إلى عبد الحميد ، وهم يعدون الأمة لحكم جمهورى ، وفى حالة تدخل الأتراك عسكريًا سيعلنون الاستقلال عن الباب العالى ، وقد أخبرنى نديم بأنه سيحطم عرش السلطان قبل أن يموت ، فهذا هو هدفه ويتمنى من الله تحقيقه »(*) .

وبذلك أصبح جليًا أن الثورة فى صراع مع هذا العنصر منذ بدايتها وحتى نهايتها ، شمل جميع قوى مصر التى أرادت أن تحقق شعارها « مصر للمصريين » وأن تستقل مصر وتنال حريتها وتضع نظام الحكم الذى يحلو لها ، إذ فضل مثقفوها الجمهورية لتتلاءم مع الطبيعة المصرية ، ومن هنا تحولت الثورة ضد سيادة الدولة العثمانية .

الخطوات العملية للدولة العثمانية تجاه الثورة :

(أ) البعثة العثمانية الأولى وأثرها

عقب الإطاحة بحكومة رياض أحيلت المطالب الخاصة بتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش إلى الأستانة ، وهنا وجد السلطان الفرصة المناسبة للتدخل ، خاصة بعد أن طلب منه توفيق إرسال قوة عسكرية لوأد الثورة ، وكانت بريطانيا وفرنسا تعارضان أى مجهودات قد يبذلها الباب العالى للتدخل فى شئون مصر الداخلية ، إذ سبق ورفضتا إرسال أى قوات تركية إلى مصر ، وانتهى الأمر بوصول البعثة العثمانية الأولى إلى مصر « بعثة نظامى باشا » التى ضمت عددًا من الشخصيات المهمة : الجنرال نظامى باشا ، وعلى فؤاد سكرتير خاص السلطان ، وقدرى أفندى ، وأحمد راتب السكرتير الثانى للسلطان وياروه . وكل منهم مزودًا بشفرة تلغرافية تختلف عن الآخر ولديه الأوامر بأن تكون المراسلة مباشرة مع الأستانة .

عين رئيس النظار أحمد رفعت لمرافقة البعثة ، وأعطى له الخديو التوصيات اللازمة بشأن عدم التبحر فى أحداث مصر الأخيرة ، ويذكر المندوب المرافق أن

(*) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 344 , 345 .

نوايا البعثة كانت تدور حول معرفة المعلومات عن الحركة العسكرية التى تزعمت موقف ٩ سبتمبر وشخصية الخديوى وتصرفاته ومركز ومكانة السلطان فى مصر ، وهل بوصول شريف للنظارة كطلب الثوار انتهت الحركة أم أنها حركة عربية عامة ؟ وقد انصب حديثهم على أن إنقاذ مصر لن يتأتى إلا بالاعتراف الكامل لسيادة السلطان ، والتقوا بالعسكريين فى القاهرة ، وأرسل أحمد راتب إلى عرابى بالزقازيق .

وجاءت المحادثات مع توفيق لتشمل ضرورة المحافظة على الوضع الراهن ، والعمل على الحد من تدخل الأجانب ، كذلك اتضح منها أن الآستانة لم تكن تميل إلى إيجاد مجلس نيابى فى مصر ، فعبد الحميد يخشى من انتشار العدوى الدستورية إلى بقية ولاياته بل إلى تركيا نفسها بعد أن أطفأ جذوتها ، كما كان يخاف من أن تتسرب الثورة نفسها إلى ممتلكاته .

وتعددت الأقوال بشأن أهداف البعثة ، فمن رأى أنها للوقوف على وجهات النظر والإتصال بعرابى لكى يتخذه السلطان مخلب قط ويتخلص من توفيق والمراقبة التى شكلت تدخلاً فعلياً فى شئون مصر(١) ، وكانت هناك وجهة نظر أخرى تقول إنها لتلمس الأخطار واستطلاع الأمر وسبرغور الحركة(٢) . ويذكر كرومر « أنه قد تم الإتفاق بين إنجلترا وفرنسا مع السلطان لإرسال مبعوث جنرال لكى يثبت سلطة الخديوى ويقدم له النصيحة »(٣) ، بينما يصرح السلطان بأن الهدف هو « تهدئة الجو فى مصر »(٤) .

وفى حقيقة الأمر فقد كانت رسالة البعثة صعبة للغاية ، فإذا جمعنا ما سبق وأضفنا إليه أن البعثة كان عليها قياس الظروف ودراسة المناخ بصفة عامة للعمل من أجل مصلحة الدولة أياً كان نوعها ، فالسلطان يهدف إلى تحويل الثورة لخدمته ، وجذب الكارهين لها تجاهه لتوسيع دائرة المكاسب التى يمكن له أن يستحوذ عليها والتى فقدها أمام السيطرة الأجنبية ، فقد كانت الأوامر التى أعطاها للبعثة الإتصال بمنتقى مصر من القواد العسكريين والعلماء كذلك الأعيان لضمهم إليه ، ففى برقية من نظامى إلى الآستانة تقول « كنا قد وعدنا بأننا حسب التعليمات سنقوم بالإتصال بأمراء الجيش وقواده وعلماء البلد لإبلاغهم الوصايا والتنبيهات

---

(١) Duse, M., In Land of the pharaohs, p. 51 .

(٢) Commons , Vol CCLXXIII , Aug . 15, 1882 , p. 1888 .

(٣) Cromer , op. cit., Vol II, p. 196 .

(٤) Doc. Dip. F. Tom IV , No. 145, 3 Octobre, 1882, p. 144 .

اللازمة مع توزيع الهدايا السنية عليهم ، فنقول إننا ذهبنا البارحة إلى ثكنة قصر النيل مقر نظارة الجهادية ، وأفهمناهم الطاعة ، وعندئذ قام بينهم الأميرآلاى طلبة بك وأقسم بالله بإنهم لا يضمرون لجلالة السلطان غير الإخلاص والولاء » . ويتابع « جاءنا كبار علماء مصر وبعض من أعيانها وكلمناهم عن الخضوع والطاعة للسلطان »(١) . وواضح أن السلطان كان يخشى من مسار الثورة أن تتجه إلى فصل مصر عن الدولة العثمانية .

ولم تستطع البعثة أن تقوم بما وكل لها ، ففى ١٤ أكتوبر ١٨٨١ أرسل المابين السلطانى إليها يقول « هل أنتم متمكنون من القيام بمهمتكم بمصر حسب الرغبة السلطانية ؟ لأن دولتى بريطانيا وفرنسا تضغطان على الباب العالى طالبتين استرجاعكم من مصر على جناح السرعة وإلا فإنهما ستضطران إلى إرسال قطع من أسطوليهما إلى المياه المصرية بحجة المحافظة على موقف رعاياهما ، حتى أن الحكومة الفرنسية أرسلت فعلاً سفينة إلى مياه الإسكندرية ، واقتضت الإرادة السنية إبلاغكم بأن تبذلوا المساعى لتسوية الحالة بما يتفق مع المصلحة » وعقب ذلك أرسل لاستعجال عودة البعثة(٢) .

تأكد بذلك أن الهدف من البعثة تحقيق المصلحة للدولة ، كما أبان ضعفها أمام دولتى بريطانيا وفرنسا اللتان كانتا لا تنظران بعين الارتياح إلى عودة النفوذ التركى لمصر ، وقد أيدهما فى ذلك شريف الذى كان يكره التدخل من قبل الدولة ، ولم يكن وحده وإنما الخديو أيضًا .

وكان الإتفاق قد تم بين الدولتين على إرسال قطعتين من أسطوليهما إلى الإسكندرية للوقوف أمام أى نشاط تركى يمكن أن يمارس ، وصرحتا بأنهما لن تتحركا من المياه المصرية إلا بعد سفر بعثة نظامى .

ولم يكن ذلك هو الهدف فقط ، بل كان بداية التخطيط لضرب الحركة الوطنية، إذ أذيع فى ذلك الوقت أن إرسال « البارجتين الحربيتين » كان بناء على أمر ماليت حيث أرسل إلى حكومته يبين أن الأوربيين فى خطر ولا سيما القاطنين فى الإسكندرية ، وقد أكدت الوثائق الفرنسية « أنها تريد حماية الأوربيين فى حالة حدوث اضطرابات فى مصر »(٣) ، بينما نشرت صحيفة الفاردالكسندرى « إن

(١) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والأستانة أثناء الثورة العرابية ، ١٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٤ ، ١٦ أكتوبر ١٨٨١ .

(٣) Doc. Dip. F. No. 161, 8 Octobre, 1881 .

الباعث للمسيو ماليت على هذا بالفعل ، إنما هو قصد إلقاء الدسائس ضد النظارة الجديدة »(١) .

وفى الواقع فإن الأمر يجمع بين تهديد الثورة الوطنية ، ووضع حد للتدخل العثمانى الذى تراجع بسحب البعثة فوراً والاحتجاج على وجود قطع الأسطولين ، ولم يتمكن الباب العالى أن يفعل أكثر من ذلك ، ورحلت قطعتا الأسطولين فى اليوم التالى لسفر البعثة بعد أن تثبت الوجود الإنجليزى الفرنسى .

لكن ما هى النتائج التى توصلت إليها البعثة مع قادة الثورة ؟

عقب الشرارة الأولى للثورة أرسل قادتها مذكرة للسلطان وضحوا فيها تلك الأخطار المحيطة بمصر ، وأنه إن لم يتدخل فسيكون مصير مصر كتونس ، وفاضت الشكوى من الاستبداد الذى أضعف الأمل فى الأمن والأرواح ، كما عاد بالقوة على نفوذ الأجانب حتى أصبحت البلاد فى أيديهم وتحت تصرفهم وكاد اسم الدولة العثمانية ينسى ، هذا ووقع على المذكرة عرابى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار .

أعجب السلطان بهذا المناخ الجديد الذى من الممكن أن يكون خلية عمل ، وعندما رأى أنه من غير الممكن إرسال قوات تركية إلى مصر أرسل البعثة ، والتقى مندوبها أحمد راتب بقائد الثورة ليعطيه الأمل فى التأييد السلطانى ، ورحبت الثورة بتلك العلاقة التى تمكنها من تحقيق الأهداف ، وفى الوقت المناسب يكون التخلى عن المساعدة وفك الارتباط . وتذكر صحيفة الستاندرد « بينما كان الرؤساء المعينون بمأمورية نظامى باشا موجودين بمصر إذ براتب باشا الذى هو ضمن المأمورية يرحل سراً مع فئة من مصر ، وقد أراد التوجه إلى مكة عن طريق السويس فبحث على عرابى باشا عند محطة الزقازيق لعلمه أنه كان بوقتها مع الآلاية برأس الوادى ، ولما علم أن عرابى وكان قريباً منه وقتها ، توجه هو من معه لمقابلته وقضى ليلة عنده »(٢) .

ولم يكن الأمر بهذه البساطة ، إذ كان هناك تخطيط لكل ذلك ، وتم الترتيب أن يستقل راتب باشا نفس القطار الذى سيركبه عرابى من الزقازيق إلى رأس الوادى ،

---

(١) المفيد ، عدد ٣ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ٥٩ فى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ .

ويقول عرابى « وأخبرته بكل ما أجريناه من أول الأمر إلى آخره ، وإننا لم نشق عصا الطاعة كما يدعى الأوربيون بل طلبنا الإصلاح باسم الذات الشاهانية ، وبذلك علم الصغير والكبير أن لنا سلطانًا شرعيًا هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية »[١] . وفى هذا اللقاء تبودلت الآراء والأفكار ، ووعد راتب بأن يذكر عرابى بالخير لدى السلطان ، ويبين له أنه مسلم مخلص يدين بالولاء للخليفة ، وبدأت العلاقات .

ومن خطاب لراتب باشا إلى عرابى الممثل لقيادة الثورة نلمس سياسة السلطان التى تلعب بأطراف المسألة المصرية ، فهو يشجع الثورة « لا أهمية فى من يكون خديوى مصر إنما يجب أن تكون أفكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب بحيث إن تكون جميع حركاته متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقة الوثيقة مع عرش الخلافة » ويهاجم حكام أسرة محمد على وعلى رأسهم إسماعيل « اجترءوا على ظلم المصريين وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة ، وزيادة على ذلك فإنهم تداينوا ديونًا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنون تحت نير العبودية » ويمضى فى التحذير من التدخل الأوربى « وعليه يهمكم قبل كل شىء منع ما عساه أن يؤدى إلى التدخل الأجنبى » ثم التنبيه باتخاذ الاحتياطات حتى لا تقع المكاتبات فى أيدى غيرهم ، وطلب إرسال ضابط سرًا « ليقدم التقارير للسلطان عن حالة البلاد »[٢] .

وفى نفس الوقت يستلم عرابى رسالة من الشيخ محمد ظافر « شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية » يتضح منها أن عرابيًا قد أرسل رسالتين للسلطان ، وأنه راض عنه وعن إخلاصه وأمانيه ، وتؤكد ضرورة تثبيت الخلافة والتحذير من مطامع بريطانيا وفرنسا وخاصة الأولى وتبين موقف الخديوى الضعيف المتقلب ، وتردد أن السلطان لا يعول على إسماعيل ولا حليم ولا توفيق ، بل على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر ويثبت الروابط التى تربطه بالخلافة[٣] .

وأصبح الأمر خطيرًا ، فالدولة حاولت كسب الثورة إلى جانبها ، وأكدت على مصالح مصر سواء عن طريق الحاكم نفسه أو إبعاد التدخل وهذا ما ترجوه الثورة ،

---

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٣) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 121, 122 .

وبذلك أمكن للسلطان احتواؤها فى البداية ومضى فى إعطاء الآمال والعطف على الأمانى ، ورحبت الثورة طالما هى المستفيدة من وراء ذلك ، وقد أعطى هذا قادة الثورة الثقة ، فراحوا يعملون وهم يشعرون بالتأييد من صاحب الحق الشرعى على البلاد ، لكنهم عندما كانوا يرون منه حيدة عن الطريق المرسوم يعلنون معارضتهم ، ومن هنا كانوا على فهم واع وإدراك كامل لموقف الدولة وأعدوا له الإعداد الكافى .

شعر الخديو منذ البداية بهذه العلاقة ، ورأى أنه لابد من بترها ، فعين له مندوبًا لدى السلطان - كما سبق ذكره - وذلك ليوقع بالثورة ويكسب السلطان بجواره ، وداخل مصر كلف البوليس السرى للسراى للوصول إلى معرفة وسائل الإتصال بين الطرفين ، لكنه لم يستطع أن يوقف الإتصالات .

وكثف السلطان نشاطه ، وظهر على مسرح العلاقات « أحمد أسعد وكيل فراشة المدينة » فقد أرسله للثوار فى عدة بعثات سرية كلها تدور حول إفهام القادة بأن انضمام الحركة الوطنية إلى الخلافة سيقويها ويدعمها ، فى الوقت الذى مضت فيه رسائل عرابى للسلطان والتى تفيض بالاتهامات لتوفيق بأنه يسعى لبيع مصر للإنجليز ويعمل ضد مصالح الخلافة ، وكاتب هذه الرسائل أحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات الذى كان على درجة عالية من الثقافة ، « وهو الذى مهد لهم سبل المخابرة مع الأستانة ، وكتب كل المحررات إليها خصوصًا المكاتيب التركية، وهو كاتب سر مجلس النظار »[1] .

وبتطور الأحداث ساءت الدولة العثمانية تلك الخطوات التى تقدم عليها كل من بريطانيا وفرنسا تجاه مصر للتدخل فى شئونها الداخلية ، فاعترضت واحتجت على مذكرة يناير المشتركة ، إذ ارتابت من الأمر ، فالظروف لا تستدعى ولا تبرر صدور تلك المذكرة « فمصر جزء متكامل من الدولة التركية ، وأن تعهد الخديو بحفظ النظام والهدوء وتحميله إدارة البلاد وكذلك توثيق سلطان الخديوى هو من صميم حقوق السيادة للباب العالى »[2] ، كان ذلك ما أصدرته سفارة الدولة العثمانية فى لندن وباريس ، لكن لم يغير هذا من الواقع شيئًا ، فالسياسة العثمانية فى البداية يعلو صوتها لكنه فى النهاية ينخفض أمام قوة الدول .

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .
(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، ٢٠ أكتوبر ١٨٨٢ .

كانت تلك المذكرة من العوامل التى قوت التقارب بين قادة الثوار والدولة ، إذ اعتقدوا أن الضمان الوحيد لإنقاذ البلاد لا يكون إلا بالتمسك بسيادة الباب العالى نفسه ، حتى أننا نجد أنهم يعلنون رفضهم للمذكرة ولمن قبلها « وأن السلطان هو سيدنا حيث أن الخديو قد قبل حماية القوى الأوربية المسيحية »(١) ، أما الدولة فبالرغم من تصريحات السلطان عبد الحميد إلى ماليت بأنه لا يمكن أن يوافق على حكومة دستورية فى مصر ، نراه يؤيد ما ارتآه المجلس فى مسألة الميزانية .

وجاءت تصرفات رجال الثورة فى مسألة الشراكسة لتكدر السلطان ، لكنها لم تقطع الوصال ، ومضى كلا الطرفين فى طريقه المرسوم ، فعندما ساءت العلاقات بين نظارة الثورة الثانية وبين توفيق ، راح السلطان يكتب لمجلس النظار وأهمل الخديو نهائيًا ، وقد ضبط توفيق إحدى هذه البرقيات فيقول لمندوبه فى الآستانة « إن هذا الوضع سيكون له نتائجه السيئة ، ولا شك أن إتصال الباب العالى بهيئة النظار الموجودة الآن رأسًا لما يشعر هذه الهيئة بالقوة والسيطرة أكثر فأكثر ، وستنجم عن ذلك الأضرار الجسيمة »(٢) ، وبطبيعة الحال كان قادة الثورة يقومون بالرد على السلطان ليواصلوا المزيد من الهجوم على توفيق .

وعندما ازدادت حدة الموقف بمذكرة مايو المشتركة وإرسال قطع من الأسطولين الإنجليزى والفرنسى إلى الإسكندرية لتهديد الثورة ، يرسل عرابى للسلطان ليشرح له كيف قدمت المذكرة وما حوته ولماذا رُفضت ؟ وبدأ الثوار فى نشاطاتهم المتعددة من أجل إسقاط توفيق عن طريق الباب العالى ، فرُفعت طلباتهم لتعلن صراحة « الخديو موقوف ومطلوب عزله وتعيين خلف له »(٣) ، وسلموا مذكرة إلى أحمد أسعد موقع عليها بضعة آلاف من المصريين ومنهم أكثر من ثلاثين عضوًا من أعضاء مجلس النواب يطالبون فيها « بخلع توفيق الذى تسبب فى وجود الأسطولين ، ويتبع نفس السياسة التى اتبعها باى تونس لكى يسلم مصر إلى إنجلترا، وأنهم على استعداد لقبول حليم إذا ما ساند السلطان الحزب الوطنى ضد إنجلترا وفرنسا ، وأنه باستطاعة عرابى أن يجند ١٠٠,٠٠٠ جندى ، والسلطان سيفقد مصر إذا وافق على التدخل الأجنبى بأى شكل من الأشكال »(٤) .

---

(١) Polit, Archives, Fasz XXVI - 24, No. 16 Pol, 11 Janvier 1882 .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/ب .

(٤) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 122 ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢٤ .

ومن هنا نرى أنه كان لابد من الاعتماد على الدولة التى بيدها الحل والربط وتملك السلطة فى هدم عرش توفيق ، وبذلك يتحقق ما تصبو إليه الثورة .

وأمام هذا الموقف كان لابد للخديو من أن يتحرك خاصة بعد أن ماج المجتمع بصيحات الثوار فى كل مكان ، وأحس أن عرشه معرض للزوال أمام ثورة الشعب . فاتصل بالسلطان ، وطلب قوة عسكرية لتقف أمام هذه القوى ، لكن كعادته من ناحية ولعدم موافقة مندوبى بريطانيا وفرنسا من ناحية أخرى ، عدل عن ذلك وتراجع عن طلب القوة ، وطلب إرسال مأمور ، وجاءت الموافقة من السلطان بإرسال لجنة لتقصى الحقائق .

وفى ذلك الوقت وصل عرابى إلى أعلى قمة للزعامة والشهرة والحب للدرجة التى جعلت جرانفيل يصرح فى مجلس اللوردات أن عرابيًا من الناحية الفعلية قد أصبح الحاكم الأوحد لمصر[1] ، وأقلق ذلك بريطانيا وفرنسا اللتين راحتا تضغطان على السلطان لكسر تلك القوة ، فقد طلبتا منه « أن يأمر عرابى وسائر زعماء الحزب العسكرى أمرًا قطعيًا بالذهاب إلى الآستانة »[2] ، وكان هو نفسه قد بدأ يقلق هو الآخر من هذا الوضع وبالرغم من إصراره فى علاقاته مع الثورة بالتأكيد على المسألة الإسلامية والتمسك بها فإنه فى قرارة نفسه يعلم أن الثورة عميقة فى الوطنية ومتأصلة فى القومية ، كما أن تلك القطع من الأسطولين التى تقف فى المياه المصرية وتهدد وضع مصر الراهن قد ارتاب منها ، وأحس أن ذلك جميعه بسبب الثورة التى ممكن لها عن هذا الطريق أن تُفقده مصر .

هذا بالإضافة إلى نداءات توفيق المتكررة التى راح فيها يكيد للثوار لدى السلطان ، وخاصة ما يمس الناحية العنصرية والقومية ، كما أنه أظهر ضعفه وخضوعه التام له ، وللخديو العذر فى ذلك بعد أن أيقن أنه فى طريق الزوال ، إذ كان يخاف من قرار الثوار بعزله وتعيين حليم بدلاً منه . ففى أول يونيو ١٨٨٢ دعا إليه قنصلى بريطانيا وفرنسا « وأبلغهما ما سمعه من أن العرابيين سيعزلونه ويولون حليم باشا ، وإذا لم يمتثل لإرادتهم فإن العاقبة هى موته ومن معه ولو كانوا القناصل »[3] .

---

(١) Lords , Vol. CCLXIX, June, 1882, p. 177 .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٢٧٧ .

(٣) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٥ .

وأخيرًا بدأت تصل إلى مسامع السلطان تلك التصريحات التى كان يتفوه بها قادة الثورة وتعلن صراحة الوقوف أمام أى تدخل عثمانى ، والتى لم تكن لتخفى العداء تجاه العنصر التركى . كل هذه العوامل جعلت السلطان يحتاط جانبًا من الثورة ، فى الوقت الذى دأب فيه على سياسة القضاء عليها .

(ب) البعثة العثمانية الثانية

أوفد السلطان بعثة إلى مصر برئاسة درويش باشا لتحمل أكثر من هدف ولتعمل مع جميع الميادين ولتستولى على كل ما يمكن الإستيلاء عليه ، وقد أيدت الدول - بريطانيا ، فرنسا ، النمسا والمجر ، ألمانيا ، روسيا - إرسال هذه البعثة ، واعتقد بعضها أنها ستجعل عقد مؤتمر الآستانة الخاص بتسوية المسألة المصرية من باب المستحيلات ، وأن الأمر سينتهى بخضوع الثوار .

وُكّل رئيس البعثة درويش باشا فى أن تكون سياسته مع توفيق ، وأن يحد من نشاطات عرابى ، وذلك بإغرائه للذهاب إلى الآستانة برضاه ، وأن يعلن بطريقة عاجلة وبشكل أبوى لعرابى عدم رضا السلطان عن مسلك الثوار ، وأنه إذا فشل فى مسألة إبحار عرابى « أن يدعوه إلى اجتماع ودى ثم يفتك به بنفسه » ، كما كانت لديه التعليمات بإلغاء مجلس النواب ، وتدعيم وزيادة قوة الخديوى التى هى امتداد لقوة السلطان ، وأن يطلب القوات إذا دعت الضرورة ذلك[1] .

أما أحمد سعيد أحد أعضاء البعثة الذى اختير لتلك العلاقة التى ربطته بالثورة ، فقد سبق أن أرسل إلى مصر ثلاث مرات ، وكان السلطان يستخدمه فى المهمات السرية الخاصة بالمسائل العربية ، ويستشيره فى كل الأحداث التى تتصل بالدعاية للجامعة الإسلامية ، وأنيط إليه مهمتا تشجيع الثوار على المضى فى طريقهم ومراجعة تصرفات درويش باشا ، وأعطى لكل واحد شفرة وخط تلغرافى منفصل عن الآخر[2] .

كانت للمكانة الدينية التى يتمتع بها المندوب الثانى أثر فى تلك المحبة والعلاقة القوية التى ربطته بالثوار فتقول صحيفة الفسطاط « إن وجود السيد أحمد أسعد فى الوفد السلطانى وقع عند أعضاء الحزب الوطنى أحسن موقع ، فإنهم استبشروا

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 302, Cromer , op. cit., Vol. II, p. 285 .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 742 .

باسمه ولقبه وأحبوه لجوار رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام »[١] ، ومن هنا لقى الترحيب من الجميع ، وأعاد على الثوار أقوال السلطان ، إنه لا يهمه من يكون على الخديوية إلا من يحافظ على العلاقات مع الدولة ، وكان عليه وفقًا لما صدر له من أوامر تقديم المساعدة للثوار وجذب مودتهم ، كما وضّح لهم إمكانية إرسال قوات لتكون بجوار المصريين ضد الأوروبيين[٢] ، ولم تكن تلك السياسة بجديدة على الأتراك .

أعد رجال الثورة للأمر عدته قبل وصول البعثة ، وأُلقى على النديم تهيئة الشعب للقاء ، وإعداد الرأى العام ، لبيان المعارضة تجاه خطوات التدخل الأنجلو فرنسى ، وعين عرابى يعقوب سامى وكيل الجهادية ليجرى رسوم الإستقبال ، فنبه عليه عمر لطفى بعدم إجراء مراسم استقبال وفقًا لأمر الخديو فأجابه « إنى مرسل من طرف ناظر الجهادية بتعليمات لا تؤخرنى عن إجرائها سوى أوامره » ، وركب درويش مع يعقوب سامى فى فلوكته واستقبل من الجنود بالدعاء بنصر السلطان ، بينما استقبله السكندريون بترديد « يعيش مولانا السلطان عبد الحميد ، يعيش الحزب الوطنى الحر ويعيش رؤساؤه ، كلنا رافضون لائحة إنجلترا وفرنسا ورافضون من قبلها » ، وفى طريقه إلى القاهرة نزل بطنطا لزيارة المسجد الأحمدى ، وخطب مبينًا أنه مكلف بالحضور « لأعضد مساعيكم الخيرية فى حفظ البلاد ، وإعلاء كلمة الله ، ولأمنع عنكم كل يد غريبة تتداخل فيكم ولو أحوج الأمر إلى القوة » ، ويتردد الدعاء للسلطان والقادة الثوار « وكان الناس كيوم الحشر والكل ينادون بما نادى به إخوانهم أهل الإسكندرية » ، وعند وصول البعثة إلى القاهرة كان فى استقبالها « العسكريون والعلماء والتجار والأعيان والوجهاء وبأيديهم باقات الورد فنشروها عليهم وهم يصيحون الحادى نصر الله الكل مولانا السلطان ، الحادى نصر الله الكل عساكر الإسلام »[٣] ، ومن الملاحظ أنه لم يكن ثمة دعاء واحد لتوفيق بل كان رفضه يتردد على الألسنة .

ومضى درويش يتظاهر لطرفى النزاع بالتأييد ، فطلب نحو مائتى وسام لضباط الجيش ، وأعلن أن ذلك مكافأة لهم على ولائهم وإخلاصهم « للذات

---

(١) الفسطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends, p. 122, Cromer , op. cit vol. II, p. 286 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٦ .

الشاهانية » وطلب لعرابى « النيشان المجيدى من الدرجة الأولى » ، وعند التوزيع لم يكن مخلصًا فأعطى الأوسمة لخدمة المعية ، وبعضها أهداه إلى توفيق اتباعًا لسياسة الميل إليه ، ومن ثم أحس الخديو بذلك وكان على يقين من شهواته ، فمنحه ٥٠ ألف جنيه مضافًا إليها ٢٥ ألف جنيه كهبات(١) .

تمت هذه الرشوة لعلم الخديو تمام العلم أنه بالرغم من التعليمات التى أعطيت لدرويش من أجل تثبيت سلطته ، فإن السلطان لم يكن راضيًا عليه ولا واثقًا فيه ، ولم يكن هذا وليد اليوم وإنما منذ أن تولى العرش ، وقد عثر على خطاب مع ضابط بحرى كان المراسلة بين الثوار والسلطان ، جاء فيه « بعد إطلاع مولانا السلطان على كافة المحررات تحقق لجلالته أن الخديو ليس له القدرة على خديوية مصر ، وأنه عديم الإدارة كونه صغير السن ، فصمم على عزله ويرغب تعيين البرنس حليم باشا عوضًا عن الخديو الحالى »(٢) ، إذ رأى السلطان أنه ممكن عن هذا الطريق إنقاص الامتيازات التى حصلت عليها مصر بموجب الفرمانات السابقة ، وإعادتها للتبعية المباشرة للآستانة .

من هنا كان درويش تحت طاعة توفيق ، وانضم كليه إلى جانبه بعد أن أصبح واضحًا أنه يعارض عرابى فى كل ما يبديه ، خاصة بعد أن صرح الخديو له بأنه ليس من الممكن إصلاح ذات البين بينهما ، وقد صادق القناصل على ذلك .

وجاءت مقابلات وفود المصريين لدرويش لعرض مطالب الثورة ، وفى البداية كانت إجاباته عامة على طلباتهم مؤكدًا على سلطة السلطان ، وشكلت جلسة العلماء معه غاية الثورية وانتهت بأزمة حادة بين الطرفين ، واستلم تلك العرائض التى تفيض بالثورة وتطالب بإسقاط توفيق ، لكن درويش يريد القضاء على الثورة فكيف يعمل على تحقيق رغباتها ، هذا ويجب ألا ننسى الضغط والإلحاح عليه من مندوبى بريطانيا وفرنسا فى هذه المسألة . وأخيرًا فقد كان الحاقدون والرافضون محيطين به ، وعلى رأسهم شريف الذى طالما اختلى معه فزاد من كراهيته للثورة .

وعندما أحس درويش أن الأمة بجميع قواها تقف وقفة واحدة مع قائدها وزعيمها متقدة حماسة ووطنية ، أراد أن يلتقى بهذا الزعيم لينفذ الخطة ، ولم يكن عرابى حتى ذلك الوقت قد قابله ، وفى هذا لدلالة على سياسة الثورة تجاه الدولة ، ولكنه حضر فى نهاية الأمر بعد أن توسط أحمد أسعد وطلب منه الحضور.

(١) Ninet , Origin of the National Party in Egypt , p. 92 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٦ .

وتمت المقابلة فى ١٠ يونيو وجمعت درويش وأحمد أسعد وعرابى والبارودى ، وفى البداية رأى درويش أن يكون ودودًا مع عرابى ويأخذه باللين فقال له : « أنت أنت وحدك الآمر الناهى فى مصر ، أنت مع كونك لست إلا ناظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها ، وهذا ما أغضب الدولة ... استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى حيث إنى مشير مرسل من قبل السلطان ، وكن نائبًا عنى مأمورًا تحت قيادتى لكى تسهل على المخابرة مع الأجانب ، عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من إخوانك إلى الآستانة حيث إن مولانا الخليفة العادل يرى الخير من مفاوضته معكم » . فرد عرابى : « لست حريصًا على السلطة التى تريد أن تنسبها إلى ، هى سلطة غير مغتصبة ، الأمة هى التى أفضت إلى بها ، فالواجب أن ينظر إلى الأمة ويفكر فى شكواها » ثم أبدى إمكانية انسحابه من ميدان العمل على شريطة إعطاء تصريح لقادة الثورة ببراءة الذمة من التبعات السابقة ، وطلب إعفاءه من مسئولية حفظ الأمن الذى تعهد به للقناصل ، ثم بيَّن « أن مالت وكولفن وسنكريش عاملونا معاملة الخارجين عن النظام ، وذلك فى بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترموا لنا شيئًا ونحن نحترم لهم كل شىء »[1] .

أعقب ذلك حادثة الإسكندرية ، وكان لابد لدرويش من الإستمرار فى سياسته ، فبعد أن منح عرابى « النيشان المجيدى » طلب منه أن يذهب للسلطان ليشكره ، لكنه رفض وأظهر أن الشعب لن يسمح له بمغادرة مصر « إن الناس متعلقة بى وازدحامهم على فى كل وقت بحيث أنهم لا يمكنونى تناول لوازماتى المعاشية ، وأخشى أن يحيلوا بينى وبين ذلك إذا عُلم لهم أنى أريد السفر إلى خارج القطر المصرى لما يتوقعونه مما يحيق بهم من الضرر فى المستقبل ويترتب على ذلك حدوث فتنة داخلية »[2] .

تبع ذلك محاولة أخرى قام بها درويش سبقه إليها قنصل فرنسا وهى تقديم الرشوة لعرابى ، فقد عرض عليه مرتبًا مغريًا شهريًا ، لكنه أبى وهذا أمر طبيعى . وأخيرًا جرت آخر محاولة ، فيذكر درويش فى تقرير له بأنه أعطى أوامر سرية إلى قبطان السفينة عز الدين التى كانت بالميناء لتكون على استعداد برفع المرساة بمجرد أن ينزل عرابى إليها وتبحر على الفور « واقترحت على عرابى أن نقوم بزيارة السفن المصرية فى الميناء ومن بينها عز الدين ، فكانت إجاباته بأنه جندى ولا يوجد

---

(١) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/أ .

ما يهمه فى السفن ، وقال « الأفضل الالتفات لشئوننا من أن نضيع الوقت فى زيارة السفن »[١] ، لقد فهم عرابى ألاعيب السياسة السلطانية .

وساءت العلاقات بين الطرفين ، ومضى عرابى فى إلقاء الخطب العنيفة ضد السلطان ، واعتبر القادة أن مهمة درويش قد انتهت وقطعوا الإتصالات معه ، وسافر عقب ذلك بناء على طلب الخديو .

وفى تلك الأثناء كان القادة يجرون إقامة التحصينات ، وعندما اعترضت الدولتان على ذلك لدى السلطان أمر بوقفها ، لكن أمره لم يطع واستمرت ، وحينما قررت الدولة تكوين لجنة دولية للبت فى مسألة تسليح الطوابى فى الإسكندرية رفضت بريطانيا رفضًا قطعيًا الموافقة ، وذلك حتى تتمكن من تنفيذ مخططها وإتمام عدوانها .

(جـ) التحول النهائى ضد الثورة

عقب حادثة الإسكندرية ، قررت الدول عقد مؤتمر بالآستانة فى ٢٣ يونيو ١٨٨٢ بدار السفارة الإيطالية لتسوية المسألة المصرية رغم معارضة الدولة العثمانية على أساس أن بعثة درويش ستحل الأزمة المتحكمة ، لكن ضُرب برأيها عرض الحائط ، واجتمع سفراء دول بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وروسيا وإيطاليا ، ورفضت الدولة العثمانية الاشتراك فى المؤتمر حتى لا تجعل للوضع الصفة الدولية ، إذا عدت أن تسوية الأمور من إختصاصاتها ومضت فى موقفها حتى ضرب الإسكندرية ، وعندما رددت الصحافة الإنجليزية مطالبة بأن يكون تفاهم لندن مع عرابى وليس الباب العالى ، أذاع ذلك الشك والقلق فى الآستانة وساد الاعتقاد بأن الثوار فى مصر يسعون إلى الإستقلال ، وهنا رأت الإشتراك فى المؤتمر فى ١٨ يوليو والتدخل المسلح من جانبها بناء على اقتراحات المؤتمر ، وكسرت رفضها الأول الذى اعتمد على تقارير درويش التى تؤكد أنه ليس فى مصر من خطر يوجب التدخل ، هذا فى الوقت الذى كان السلطان يخشى فيه من أنه لو تدخل يثير الشعور الإسلامى خاصة فى تركيا نفسها ، حيث كان العلماء يؤيدون عرابى ويعتبرونه مدافعًا عن الإسلام ، كما أن شيخ الإسلام بالآستانة أعلن عدة مرات « أن سوق عساكر من قبل الدولة ضد المسلمين أمر لا تجيزه الشريعة »[٢] ، لكن أمام مصلحة الدولة كان لابد من وضع هذه الاعتبارات جانبًا .

---

(١) Egypt, No. 7 (1882). June 16, 1882 .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

وتزعمت بريطانيا المؤتمر وأهاب دوفرين مندوبها فيه بالدول أن تأخذ الثورة المصرية بالشدة حتى لا يستحفل نفوذها فلا يعود بعد ذلك من السهل استئصال شأفتها ، وكانت لندن تعد نفسها لتتدخل بمفردها ، وبينما المؤتمرون يتفاوضون من أجل إرسال قوات تركية لإقرار الأمن باغتت بريطانيا وقامت بعدوانها على الإسكندرية ، إذ كانت سيئة الظن فى الدولة وفى إخلاص السلطان تجاهها ، كما أنها خشيت من أن تنظم قواته فى النهاية عملية موحدة مع عرابى ، أو أن يستسلم عرابى لهذه القوة ، وبذلك تتمكن الدولة من القيام بالدور الذى تتوق إلى أدائه ؛ فتبسط سلطانها وسيادتها على مصر ، وهذا ينافى سياسة لندن وباريس منذ البداية إذ كانت الإتفاقات بينهما مضادة كلية للتدخل العثمانى فى مصر .

اعتقدت مصر أن المؤتمر سيحل المشكلة ، ويقر الحقوق بطريقة سليمة ، ولن يسمح لتدخل عسكرى منفرد ، لكن عندما انتشر الخبر بأن الدولة العثمانية سترسل قواتها ، رفع الثوار أصواتهم وأذيعت تهديداتهم بأنهم لن يسمحوا بأن تطأ قدم أى عسكرى تركى أرض مصر .

وعندما استأثرت بريطانيا بالعدوان وكان لابد من الحرب ، رأى الثوار مواصلة الإتصال بالسلطان ، فتوافدت عليه البرقيات منهم ، تلك التى غصت بالشكوى من تصرفات توفيق والقدح فيه وتواطؤه مع الإنجليز وانضمامه إلى جانبهم ، وتصور ضربهم الإسكندرية وسوء تصرفاتهم وخيانة درويش للقضية ، وتمضى فى محاولات لضم السلطان لصف الثورة بالتأكيد على الروابط وإبلاغه بالدعوات التى يرددها له الأهالى[١] .

وراود الأمل الثوار فى إمكانية مساعدة السلطان لهم على أساس الزود عن الإسلام ، فراح عرابى يبلغه بما قررته الأمة فى مسألة الدفاع وينتهى بقوله : « إن الشعب بأجمعه واثق بأن العظمة الشاهانية تحل مشاكله التى جلبها عليه توفيق باشا ، أما المدافعة عن البلاد وأهلها والحقوق السلطانية فهى من الوجوب علينا »[٢] . وبذلك أراد عرابى أن يحول حربه فى مصر إلى حرب إسلامية ، ويحاول أن يشد أطراف الدولة لمشاركتها فيها ، ويبين أنها من أجل الدفاع عن حقوق السلطنة ، واعتبر أن الجيش المصرى هو جزء من الجيش العثمانى .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٦ .

(٢) المصدر نفسه .

وعلى هذا الأساس انتقلت التخطيطات الحربية إلى السلطان وكان من يقوم بذلك أحد الثوريين « على بك راغب قبودان » وهو من الخلية الأولى للثورة منذ حرب الحبشة ، وقد أقر أنه توجه نحو ست أو سبع مرات للآستانة لتوصيل أوراق عرابى والبارودى وسليمان داود ، وتعددت لقاءاته مع الصدر الأعظم الذى كان دائمًا يسأله عن « أفكار الأهالى » وقد أخبر البارودى القبودان عن أسلحة مصر ليبلغها للآستانة « إنه موجود ألف وخمسمائة مدفع أرمسترون وخمسمائة مدفع كروب ومائتان وخمسون ألف بندقية ريمنتون وجبخانة تكفى لعشر سنوات »[1] ، وقد كان ذلك من الأخطاء التى ارتكبها القواد حيث تسرب كثير من الأسرار الحربية التى عرفها الإنجليز .

وتمت السيطرة على طريق الشام ، وأصبحت الإتصالات فى أيدى رجال الثورة، فكانوا يضبطون المراسلات التى تصدر عن الخديو إلى باشكاتب السلطان ويمنعون وصولها ، وأمام ذلك سعى الإنجليز لقطع هذه الإتصالات ، وقد وكل إلى « بالمر » هذه المهمة ، ونجحت لندن فى مسعاها بقطع جميع الخطوط التلغرافية الموصلة للآستانة ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت الإتصالات ، ففى برقية شفرة من محافظ وقومندان فرقة دمياط إلى عرابى تفيد بأنه وجد « من يعول عليه توصيل البوستة والتلغرافات إلى يافا ومنها للآستانة ، وأنه شخص مؤتمن ، وينزل بمراكب التجار بصفة بحرى »[2] ، ووافق على ذلك المجلس العرفى ودوام القادة على التحرير للآستانة ، ووصف اعتداءات الإنجليز واختراقهم حيدة قناة السويس ومخالفتهم للعهود ، لكن لم يكن يصل الرد حيث قطعت الدولة إتصالاتها نهائيًا ، إذ كانت تعد ردًا قاضيًا على الثورة .

ومضت بريطانيا فى إجراءات الضغط على السلطان حتى تحوله عن الثورة وتجعله يقف موقف المعارض ، فقد كانت تتوق إلى قطع العلاقات بينهما إذ ساءها التأييد السلطانى بمنح عرابى النيشان المجيدى حتى ولو كان ظاهريًا . هذا فى الوقت الذى سرت شهرة عرابى كبطل من أبطال المناضلين من أجل انتصار الإسلام على الصعيدين العربى والإسلامى . فاتقدت الغيرة فى قلب السلطان من هذا الزعيم ، فكتب إلى العلماء فى مصر يطلب منهم أن يمنعوا المصريين من إرسال المؤن والمتطوعين إلى عرابى ، ليأتيه الرد بأن المصريين لن يلقوا السلاح إلا إذا انسحب

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب .

الإنجليز من الإسكندرية ، وأن القضية المصرية ليست متصلة بشخص عرابى وإنما بخلاص البلد[١] .

وهنا التقى الطرفان ، لندن والآستانة . واجتمعا على ترجمة الحقد إلى عمل من شأنه أن يقضى على عدوهما المشترك ، وذلك بإعلان عصيان عرابى ، فبريطانيا منذ فترة وهى تسعى لهذا العمل حيث إنها تعلم جيداً عمق وتأصل الناحية الدينية لدى المصريين ، فبإعلان مثل ذلك من السلطان يكون له الأثر الكبير على الثورة فى مصر ، لكن السلطان لم يكن يظهر الموافقة التامة ، وتكرر الطلب ، ويشير السفير النمساوى بالآستانة إلى مساعى دوفرين بشأن ذلك فيقول « إن الحكومة الإنجليزية تعتقد أن لديها أسبابا تبرر ذلك ، فمنها أن جزءًا كبيرًا من الجيش المصرى سوف ينقص من حول عرابى باشا بعد صدور مثل هذا الأمر ، وسيؤدى ذلك حتمًا إلى حل الجيش المصرى » ، ويبين أن السلطان بنفسه استقبل ترجمان السفارة الإنجليزية الأول الذى كُلف بتقديم هذا الطلب ، وتحدث معه بهذه المناسبة عن عرابى بتعبيرات مريرة جداً ، ناعتا إياه بالنفاق والخيانة وسوء الإسلام، كما أعرب بأنه لا يستبعد أن يصدر مثل هذا الإعلان[٢] . وركزت لندن على ضرورة إصدار إعلان العصيان بعد أن أدركت أهميته ، وكانت تهدف أيضًا من ورائه تدعيم موقفها فى الهند وعدم إثارتها ، خاصة وأن نشاط عرابى وإعلانه الجهاد وصلت أصداؤه إليها ، فعندما يصبح عاصيًا عن الخليفة يضمن لها البقاء دون قلاقل فى مستعمراتها الإسلامية .

وأخيرًا صدر المرسوم بإعلان عصيان عرابى ومما جاء فيه أن عرابيًا « ثار على الترتيبات القانونية التى تتضمن الفرمانات ، فأصاب إختصاصات الحكومة القائمة بالاضطراب وبلبلة الثقة فيها والنظام العام ، مما آثار آخر الأمر التدخل العسكرى الأجنبى » ومضى يبرر تصرفات بريطانيا إزاء ضرب الإسكندرية ، وأن عرابيًا المتسبب فى سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، ولم يسمع لنصائح درويش بالسفر إلى الآستانة » وهو وأعوانه قد استمرءوا هذا المسلك الذى اتخذوه بإصرارهم على الظهور بمظهر المطالبين بإعطاء البلاد دستورًا شرعيًا فى الوقت الذى يخفون فيه

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٨٧ .

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٢١ ، ٢٥ يونيو ١٨٨٢ .

نواياهم الخبيثة » ويمضى الإعلان فى إقامة الحجج والبراهين على تعدد أخطاء عرابى حتى وصل إلى النتيجة المرجوة « فقد أعلن عصيانه ونتج عن هذه الحالة وهذا السلوك أن يجرى بطبيعة الحال بما يتناسب مع عمله ويعامل كثائر وعاصى ، ويترتب على ذلك الاعتراف بشخص الخديوى العالى الذى يتمتع بثقة الحكومة الشاهانية »(*) .

وهكذا نجح تأثير وضغط بريطانيا ، إذ لمس أعماق الحقد الداخلى للدولة العثمانية التى تلونت مواقفها وأهواؤها وأغراضها ، فهى مرة مع الرجعية متمثلة فى الخديو ومن يسانده ، وأخري مع الثورة ، لكنها تصحو لتغير من موقفها الذى لا يتمشى مع الثورات والقوميات ، وتجرى وراء مصالحها لتعصف بكل القيم والمبادئ .

ونشر العصيان فى الصحيفة الرسمية للدولة العثمانية إرضاء لبريطانيا التى ابتاعت من هذا العدد مليون نسخة ، وأرسلتها إلى الهند وأفغانستان والحجاز والعراق والمغرب الأقصى ، ووزع منها على ضباط الجيش المصرى فى جميع المراكز بواسطة سلطان باشا .

ولنا أن نتساءل لماذا اختص عرابى بالعصيان دون غيره مع وجود العديد من الثوار ؟ لقد كان عرابى الأمة بأسرها ، ذلك الشخص الذى أصبح الشغل الشاغل للدوائر السياسية الدولية ، وله من التأثير على قوى مصر جميعها ، فإذا سقط تأثرت الثورة بسقوط زعيمها ، وكان العصيان هو الورقة الرابحة التى كسبت بها بريطانيا دورها ، ويعد من أهم الضربات التى وجهت لقوى الثورة .

■ ● ■ ● ■

(*) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، مجموعة ٢٧/٣١ ، ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ .

الفصـــل التاســع

مساعى حليم وإسماعيل من أجل العرش

... نشاط الأمير حليم

وفقًا لنظام وراثة العرش كان يحقق للأمير حليم وهو الابن الأصغر لمحمد على أن يتولى حكم مصر ، لكنه لم يتمكن من ذلك لمجهودات إسماعيل ، فالعداء مستحكم بينهما ، وقد رأى الأخير ضرورة القضاء على ذلك المنافس الخطير لينال مراده ، وكان التعامل بالمال هو من سماته ، فوصل به لإتفاق مع حليم على أن يعطيه ٦٠ ألف جنيه مصرى لمدة أربعين سنة فى سبيل أن يترك حقه فى العرش ، ونفذ الإتفاق حتى جاء قرار الحكومة فى ١٥ ديسمبر ١٨٧٩ ليخفض راتبه إلى ١٥ ألف جنيه ، فاحتج على هذا الإجراء[١] ، كذلك قام إسماعيل بالاستيلاء على ما يتملكه من « الأطيان الأثرية والجفالك والأباعد العشورية وأطيان والدته بما فيها من مواشى وماكينات وطلمبات ووابورات مياه وأشجار فى نظير مبالغ »[٢] . وجاء فرمان ١٨٧٣ الذى بذل فيه إسماعيل الأموال ليغير نظام الوراثة ويحرم حليم من حقه[٣] ، ولم يلبث الأمر أن اتهمه بالتآمر عليه وأمر بنفيه خارج مصر واضطهد جميع مؤيديه فرحل أغلبهم[٤] .

وفى الخارج بدأ يمارس نشاطه ويبذل مساعيه من أجل استرداد حقه الذى أفقده له إسماعيل ، فطرق جميع الأبواب ووجد المؤيدين ، فعندما ظهرت بوادر

---

(١) Egypt, No. 1 (1882), No. 1 , August, 14, 1880 .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٢٦ ، أوامر كريمة للدائرة السنية ، صورة الأمر الكريم نمرة ١٢ ، غاية ذى القعدة ١٢٨٢ (١٨٦٥) .

(٣) Cromer , Op. Cit., Vol. II, p. 136 .

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، عصر إسماعيل ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ ، مارلو ، المرجع المذكور ، ص ٢١٧ .

ضعف توفيق فى منصبه رأت فرنسا أن تحل مكانه حليم » وكان سفير فرنسا بالآستانة مداومًا على الاجتماع مع البرنس حليم باشا «[١] ، وقد صدقت فى مسعاها ، إذ يقول مراسل صحيفة التيمز بالآستانة « توجد أسباب تدل على أن فرنسا قبلت طلب عبد الحليم باشا حتى قيلت أنها فتحت المخابرة فى هذا الشأن «[٢] . واحتضنت باريس مناصريه ، فمنها خرجت صيحات يعقوب بن صنوع الذى كان يميل إليه ويرى أنه أكثر ملائمة لحكم مصر من إسماعيل وتوفيق نظرًا لما كان يعلنه حليم من مبادئ يريد تحقيقها إذا تولى عرش مصر .

ولاعتماد حليم على فرنسا وميلها له جعل بريطانيا تشكل معارضة تجاه ذلك ، وتقف أمام كل خطوة للاستحواذ على حقه ، فتتبعت وراقبت أتباعه وخاصة فى مصر عن طريق قنصلها[٣] ، وكان من رأى دى فريسنيه الذى كتب إلى جرانفيل يقترح عليه استبدال توفيق بحليم لكن وزير خارجية بريطانيا يرفض[٤] ، هذا بالرغم من علاقات الود والتفاهم بينهما .

ويحاول حليم استرضاء لندن ، فيتصل بالسفارة الإنجليزية بالآستانة « ويوعد السفير بطرد عرابى باشا وغيره من كبار رجال الثورة وإعادة النفوذ الأوربى إلى مصر كالأول فى حالة إعطائه خديوية مصر «[٥] ، لكن تلك التصريحات لم تلق قبولاً لدى لندن ، ومضت تعارض فى تعيين حليم[٦] ، فى الوقت الذى أيدت فيه ألمانيا والنمسا إعطاءه عرش مصر ، فيذكر بلنت « أن ألمانيا والنمسا اللتين يمثلهما روتشلد وبعض الماليين راضيتان بالعلاج الذى استعمل عام ١٨٧٩ بدخول السلطان فى المسألة وتعيين حليم مكان توفيق «[٧] .

أما عن الدولة العثمانية فقد كانت تميل إليه ، وتعلم بنياته ورغباته وتشجعه ، فيذكر مندوب الخديوى لدى الباب العالى أنها تسمح له بالذهاب إلى

---

(١) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ٢٧ نوفمبر ١٨٨١ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٢٣ .

(٥) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١١ أبريل ١٨٨٢ .

(٦) Cromer , op. cit., Vol. II, p. 196 .

(٧) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 276 .

أوربا « لعمل الفساد »[1] ، وكان حليم يعرف جيداً كيف يرضيها وينفذ إلى داخلها ، فهى تعمل من أجل المزيد لمصالحها ، فعقب عزل إسماعيل رأت الفرصة لاسترجاع نفوذها فى مصر وأرادت تعيين حليم بدلاً من توفيق ، وذلك لإلغاء الإمتيازات التى حصلت عليها مصر ، وقد قال محرر صحيفة التيمز بعد حديث له مع إسماعيل قبل تنازله عن العرش « فهمت أن الباب العالى هو من أشار بتولية الأمير حليم لكن بريطانيا وفرنسا أشارتا على الخديو بالتنازل ووعداه بمساعدته على تولية ابنه توفيق »[2] ، وبذلك تتضح الثقة التى عقدتها الدولة على حليم وموقف بريطانيا وفرنسا إزاء ذلك، ومع أن فرنسا كانت تميل لنصرة حليم فإن النفوذ الإنجليزى كان قوياً فى هذه المسألة .

استطاع حليم أن يكسب بجواره الكثير من الساسة الأتراك ، ومع بداية الثورة والدولة تحوم حول إحلال وال آخر مكان توفيق وتجعل تعيينه محدوداً بمدة زمنية معينة وهى خمس سنوات ، ويذكر السفير الفرنسى لوزير خارجيته « أن السلطان لديه مشروعاً وينتهز الفرصة لكى ينفذه »[3] ، وعلى ذلك كثر تردد حليم على السلطان لدرجة أنه كانت هناك اجتماعات تعقد معه « تم استقدام حضرة حليم باشا لدى الحضرة السلطانية ، وذلك عقب وفود قنصل جنرال إنجلترا فى مصر على الآستانة »[4] ، كما أنه لم يترك مجالاً إلا ويقوم بعرض آرائه ومقترحاته حول المسألة المصرية[5] ، بعد أن يأذن له السلطان ، لكن فى نفس الوقت يرفض الأخير أن يعطيه الحرية فى حديثه إذا أظهر فيه الإشارة بأنه سيكون خليفة للخديو[6] ، وهذا من سياسة الدولة المعروفة .

لم تغفل بريطانيا ذلك فقد كانت على علم بكل تلك الخطوات ، ففى حديث لكوكسن مع عرابى وضح له تلك السياسة التركية من أجل إعادة حليم وتولية عرش

---

(١) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٨ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) الوطن ، عدد ٨٧ فى ١٢ يوليو ١٨٧٩ .

(٣) Doc. Dip. F. Tom IV, No. 134, p. 124 .

(٤) المصباح ، عدد ١٩٩ فى ١٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(٥) البرقيات الواردة من أستانبول والصادرة إليها أثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر ٢٨٧ ، برقية ٤ ، ١٢ سبتمبر ١٨٨١ .

(٦) Archives des maison, de cour et d'etat, Vienne. Fasc XXX 1/9. 6 Mars,1882 .

مصر[١] ، وعلى صفحات صحيفة التيمز كتب مراسلها فى الآستانة يقول « إن عبد الحليم باشا تعهد لأهل السياسة فى الآستانة بأن يكون آلة للباب العالى بمصر » ويمضى « إن فُرض وتمكن من قصده وجب عليه أن يعطى للباب العالى الكفالات القوية عن صداقته فى المستقبل »[٢] ، وقد وافق هذا ما ذكره عرابى « الحضرة السلطانية راغبة وتظهر كل يوم ميلها إلى حليم باشا وتقربه منها ، وهو يعدها بالخضوع والانقياد لأوامرها ونواهيها »[٣] .

ولم تعد مسألة تولية حليم عرش مصر خافية خارجيًا أو داخليًا ، واهتز عرش توفيق ، ففى عهد نظارة الثورة الثانية ، انتشر ما يفيد بموافقة الدولة على تنازل الخديو لحليم عن الخديوية[٤] ، وارادت الدولة أن تحقق ما تصبو إليه ، وأثناء مؤتمر الآستانة يذكر السفير النمساوى بالآستانة « أن السلطان عين مندوبين له فى المؤتمر، وزير الخارجية وباشا آخر من أجل مهمة سرية إلى السفيرين الإنجليزى والفرنسى ليقنعهما بقبول تغيير شخص الخديوى بديلاً عن الحلول الأخرى ، باستبدال توفيق بحليم كوسيلة مناسبة يرى فيها إقرار النظام والحالة فى مصر ، هذا فى الوقت الذى قدم فيه هذا الاقتراح السلطان نفسه إلى « دوفرين الذى تلقى من حكومته جوابًا بالرفض ، وقد استقبل السلطان القائم بالأعمال الألمانى لنفس الاقتراح »[٥] . ذلك فى الآونة التى كان فيها يتفاهم مع عرابى بشأن إمكانية إتمام ذلك[٦] ، رغم أنه فيما سبق هذه الفترة كان يبين أنه لا يهمه من يكون خديو مصر .

لكن ماذا عن موقف المصريين من حليم ؟

كانت خطة حليم متشعبة الأطراف ، إذ سعى خارجيًا من أجل الاستحواذ على مصر ، أما داخليًا فقد كثف نشاطه وأراد بكل الطرق التقرب من الثوريين الذين يمكن لهم أن ينادوا به حاكمًا عليهم بعد أن يسقطوا من يقف ضد ثورتهم ، وبذلك يمكن له أن يتولى العرش بناء على إرادة الشعب ويمارس سلطته كحاكم شعبى .

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 85 .

(٢) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ٣٠١ .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢٥ أبريل ١٨٨٢ .

(٥) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٣١ ، رقم ١٨٤ ، ٢١ يوليو ١٨٨٢ .

(٦) المصدر نفسه ، رقم ٥٨ ، ٢٢ يوليو ١٨٨٢ .

رأت الثورة أن يلغى نظام الحكم القائم ، وأن تجتث الشجرة العلوية من جذورها وكان عرابى يكره حليم[١] ، بل الأسرة العلوية جميعها وكثيرًا ما أعلن وضع نهاية لها[٢] ، ويذكر لنا بلنت « أن هدف الثوار كان وطنيًا بحتًا وأنهم لم يكونوا مقتنعين بولاية حليم مكان توفيق أو بأى فرد من العائلة الخديوية »[٣] .

ومع هذا كان من بين الخطة إمكانية الرضا بحليم لإنهاء الحكم القائم كخطوة يمكن لهم بعدها الإطاحة به ، ما داموا قد برهنوا على النجاح فى إسقاط حاكم وتنصيب آخر . هذا بالإضافة إلى أن حليم كان يروج مبادئ له ليست وليدة الأحداث ، ولكنها من الأسباب التى جعلت إسماعيل يتخلص منه تلك التى تتفق مع مصلحة المصريين[٤] ، وكانت إعلاناته وتصريحاته عقب ذلك تضع ستارًا وراء تلك الطبيعة التى تتفق مع صفات بقية عائلته المتسمة بروح المؤامرة والتعالى[٥] ، فهو يمثل الرجل الألبانى الجامد الطاغى الفاسد القاسى المرتشى[٦] ، لكنه يخفى ذلك كله حتى ينال ما يرنو إليه ويظفر بعرش مصر .

أضف إلى هذا أنه كان له بعض الموالين فى مصر ، الذين كانوا على اقتناع أنه من الأوفق والمصلحة لمصر أن يكون حليم حاكمًا لها فى إطار الاستقلال الذاتى ، بمعنى أنه إذا كان ولابد من الارتباط بالدولة العثمانية فى ظل الفرمانات ، فيفضل حليم عن أى فرد فى الأسرة العلوية ، ومن بين هؤلاء عبد السلام المويلحى ، فقد كان يميل إليه وهو وكيل لدائرته[٧] ، كذلك حسن موسى العقاد ، وعن هذا الطريق جرى التأثير على اتجاه قادة الثورة .

وبدأت الإتصالات بين الطرفين ، وكان عثمان فوزى أحد أداة التفاوض - وهو شركسى الأصل وأحد مماليك محمد على وظل مخلصًا لابنته زينب وعمل وكيلاً

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٦ .

(٢) Biovès , op. cit., p. 89 .

(٣) Blunt, My Diaries, Vol I, p. 13 .

(٤) Chaille' , Les trois Prophetes : Le Mahdi-Gordon - Arabi, p. 272 .

(٥) Archives d'etate et de cour, Vienne, Actes, Politico, Commerciaux, Finances, 5 Mai, 1880 .

(٦) Duse, op. cit., p. 13 .

(٧) المقطم ، عدد ٧٨٨ فى ٩ أكتوبر ١٨٩١ .

لدائرتها - فساند سياسة حليم وراح يعمل لتحقيقها ، فنراه يتحول إلى جانب الثورة، ويتقرب لعرابى ، ويؤيد كل خطواته من أجل اعتلاء حليم العرش ، كما كانت له علاقاته مع العقاد ونجح فى أن يجعله من مؤيدى حليم[١] .

ولم يجهل عرابى نوايا عثمان فوزى ، لكنه لم يكن فى يوم من الأيام على صلة بحليم ، فلم يعثر على أى مكاتبات منه أو إليه تؤكد ذلك[٢] . ولكن تناول قادة الثورة فى اجتماعاتهم التى كان يحضرها عثمان فوزى والعقاد مسألة تعيين حليم ، فيقول الأول فى محضر التحقيق معه أن محمود سامى سأله عن سن حليم « فأخبرته أنه مثل سن إسماعيل باشا الخديو السابق أعنى الخمسين سنة ، فقال لى يوجد له صورة فقلت له موجود فطلبها منى وأحضرتها »[٣] .

ومضت الدعاية لحليم الذى بذل من أجلها هو وأخته الأموال ، واتهم العقاد بنشاطه فى هذا المجال على أساس أنه اعتمد عليها « ليصرفها فى جلب قلوب بعض الناس وترغيب العالم لحضور حليم باشا »[٤] . لكن العقاد أوضح أنه ليس فى حاجة إلى تلك الأموال فقد بلغ من الثراء مداه .

كذلك كان للعنصر النسائى « الحريم » دور فى هذه المسألة ، ففى خطاب من على فهمى إلى عرابى يشير إلى أسماء بعض السيدات اللائى يحضرن إلى مصر ومعهم جوابات من الآستانة من طرف زينب هانم وينقلن ردها[٥] . كما كانت جميع مساعى حليم فى تركيا أو خارجها تعلمها مصر ، فترد البرقيات من الآستانة مفادها السعى فى خلع الخديو « ولم يكن يستطيع أحد أن يطلع عليها إلا بعد أن يلتقى بالعقاد »[٦] .

وجاء موقف توفيق واحتضانه لمذكرة مايو المشتركة واحتجاج الثوار واستقالة النظارة فى صالح حليم وتدعيمًا لموقفه ، خاصة بعد انتشار أخبار رضا الدولة عليه،

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 143, 361, 363 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢/أ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٣٠/ب .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/أ ، الفصل الثانى عشر ، عنصر دور التجار .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٦٤/ب .

(٦) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

ومن هنا أصبح التقارب بينه وبين الثورة واضحًا ، فتقول صحيفة التيمز « إن عرابى يعمل لخدمة حليم ليعين خديويًا لمصر اعتقادًا منه أنه رجل أمين »[1] ، وهذا فى حد ذاته اعتراف منها أن عرابيًا يعمل لمصلحة مصر ويريد لها الرجل الأمين ، وليست له أطماع فى الاستحواذ على الحكم . ونجد صحيفة الطائف تذكر « تلهج الجرائد الآن باسم البرنس عبد الحليم ورضا السلطان عنه ونجاح أعماله ، وهذا يفهم منه أن الحضرة السلطانية مقرة على تعيينه خديويًا لمصر ، ورضيت بذلك بعض الدول وبقى البعض ، فهى تترضاهم قطعًا لمشاكل مصر ودفعًا لمن جلب عليها هذه الشرور »[2] .

وفى اجتماع ٢٧ مايو ١٨٨٢ الذى عقده سلطان ونودى فيع بعزل توفيق ، اتجهت الأفكار إلى تعيين حليم[3] ، كإجراء وقتى للتخلص من الخديو ، ليأتى حليم ويرفض المذكرة ويعيد البارودي ويحكم وفقًا لرغبات الثورة ، وكان حليم قد تبنى أفكار الثورة وأظهر أنه قلبًا وقالبًا معها وأثنى على رجالها ، ففى خطاب منه إلى مندوبه فى مصر عثمان فوزى يقول له : « لا تخافوا من شىء تأتى به أعمال عرابى يغاير أمل الناس فيه ويخل بالراحة والإصلاح ، فإنه ممن سعى هو وإخوانه للإصلاح وهو ماشى بالتدبير والعقل والحكمة ، ومثل هذا الرجل العاقل يلزم أن لا يفتكر فى نتيجة أعماله إلا الخير والصالح لوطنه »[4] ، وكثرت تلك الخطابات التى فاضت بالتأييد والتشجيع للثورة وقادتها ، بدليل أنه كان عقب وصولها يطلع عليها « ديوان الجهادية »[5] .

وبذلك دخل حليم فى الإطار الثورى ، وأصبح من بين مضمون مراسلات القادة إلى الدولة العثمانية طلب عزل توفيق وتعيين خليفة له ، وجرى التختيم على محاضر بهذا الشأن كان أحيانًا الطلب لا يذكر اسم البديل ، وأخرى يذكر اسم حليم ، فيقول العقاد « أحضرنا أحمد عرابى فى منزله مع جميع العلماء والأعيان ووجدناه جارى

---

(١) The Times, May, 13, 1882 .

(٢) الطائف ، عدد ٥٦ فى ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) Malortie , op. cit., p. 221 .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٣٠/ب .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/أ .

تختيم الناس على عرضحال للحضرة السلطانية بطلب استبدال الحضرة الخديوية بدون تعيين اسم البدل وأنا ختمت بالجملة »[١] ، أما المحاضر التى عين فيها طلب حليم فقد سعى لها العقاد[٢] ، وأمام ذلك انهار توفيق واستدعى وكيلى بريطانيا وفرنسا وأبلغهما بأن « الجهادية سوف تعزله وتعلن البرنس حليم خديويًا »[٣] .

وكان من بين علماء الدين من هو ميال إلى حليم ، فقد طالب الشيخ عليش تعيينه خديويًا[٤] كما أيده الشيخ العدوى[٥] ، وترددت أصداء ذلك بين المصريين « محمد عبد الله عمدة الصنافين شرقية كان يحضر من المحروسة ، ويقول للناس إن الخديو إتخلع بأمر السلطان ، وأن عرابى سيحضر عبد الحليم باشا ، وأن بحضوره يكون خديويًا »[٦] ، ولعل كان الترحيب بذلك بناء على أنه ثورى ومؤيد من قادة الثورة وخاصة عرابى ، وأنه سيكون حاكمًا وفقًا لدستور الحزب الوطنى[٧] .

وتكثفت مجهودات حليم وأتباعه عقب إعلان الحرب وانضمام الخديوى نهائيًا للأعداء ، وإيقاف الأمة لأوامره واعتباره شبه معزول ، ففى مسودة لخطاب عثر عليه لدى العقاد « لمناسبة انضمامه (توفيق) للإنجليز وجلب حربهم على المصريين، أصبح مشاعًا أنه سيأتى عساكر عثمانية إلى مصر ومعها البرنس حليم باشا ، على أن المتراءى بأنه إذا كان المقصود حضورهم لأجل رحيل الإنجليز عن مياه الإسكندرية وخلافها وتوصيل البرنس إلى مستقرة فلا بأس ، وإن كان المقصود نفى عرابى باشا وأخواته من مصر حسب رغبة الإنجليز فلا يمكن التسليم فى ذلك »[٨]، وواضح أن الأنظار قد اتجهت لعودة الأمير المنفى .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، قضايا المتهمين ، دوسيه ١٥٤ .

(٣) Egypt, No. 11 (1882), No, 6 June 1, 1882, p. 2 .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١٦ يونيو ١٨٨٢ .

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ٨٦ .

(٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ .

(٧) Ninet , Arabi Pacha, p. 77 .

(٨) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣ .

وقد اعتقد أن مؤتمر الآستانة سيعالج الموقف عن طريق تعيين حليم لدرجة أن العقاد « جارى التجهيزات اللازمة لعمل الزينة لقدوم البرنس بصفة خديو مصر » كما أنه فى خطاب منه إلى حميد أبو ستيت يذكر له « أما أفندينا حليم باشا فقد عينه حضرة السلطان خديويًا على مصر ، ووافق على ذلك جميع الدول ، وفقط المعارض الإنجليز لتطلبهم بعض شروطات ، وجزمًا لابد عن النهو في هذا الشهر ، وبعدها يتشرف إلى القطر »[1] ، وانتاب العسكريون نفس التوقعات بعد أن كانت مراسلات الآستانة تفيد بالموافقة على خلع توفيق وتنصيب حليم « وأنه مزمع حضور الباشا المشار إليه عن قريب »[2] .

وبعد أن استشم حليم موقف الدولة العثمانية بتحولها عنه ، أراد أن يعمل بمفرده فعرض على السلطان رغبته فى السفر إلى مصر لا كحاكم ، ولكن كمجاهد وطنى يلتحق بجيش عرابى ، وطلب منه السماح له بذلك فرفض السلطان[3] ، ولم يكن حليم مصريًا ولا وطنيًا لكى يدافع عن مصر ، لكنه وجد أنه يمكنه عن هذا الطريق الوصول إلى قلب مصر ، ولم تساعده الظروف عندما تغيرت الأهواء العثمانية لتضع مصلحتها فوق كل الاعتبارات ، فثبتت توفيق على عرش مصر لتعصف بمجهودات حليم إلى الأبد .

دسائس الخديو السابق إسماعيل

يعد ما قام به إسماعيل بمصر من الأسباب التى أدت لقيام الثورة ، وقد أسعد المصريون خروجه منها إذ نقم عليه الجميع ، ولم تثبط الثورة عزيمتها لحظة عن مهاجمته لإساءته لمصر ، وهو أيضًا لم يهدأ لحظة إبان وجوده فى الخارج ، إذ مارس جميع نشاطاته من أجل العودة مرة ثانية إلى مصر واسترجاع عرشها .

كانت علاقاته سيئة مع بريطانيا وفرنسا وهذا شىء طبيعى ، فهما اللتان عزلتاه ، أما الآستانة فهى لا ترتاح إليه أبدًا هذا من ناحية ، ولم تكن تستطيع أن

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٨/أ .

(٣) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والآستانة أثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر ٢٨٨ ، برقية بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٨٨٢ .

تتصرف دون موافقة الدولتين من ناحية أخرى ، فقد أبان سفير فرنسا بالآستانة إلى وزير خارجيته « إن السلطان استدعى اثنين من وزرائه لأخذ رأيهما فى إمكانية عودة إسماعيل ، لكنهما أبانا له أن بريطانيا وفرنسا ترفضان ذلك بشدة ، ولربما تُعلنا استقلال مصر عن تركيا » ويمضى لينصح بأنه يجب الوقوف أمام دسائس إسماعيل[١] .

فكر إسماعيل فى العودة إلى مصر عن طريق الحجاز ، وكان راتب باشا مندوبه ووكيله والرجل الأول لديه فى تنفيذ المخطط ، فقد أبرقت السفارة العثمانية فى روما إلى الخارجية بالآستانة بأن « إسماعيل باشا قد أوفد راتب باشا بالأسرار المحرمة إلى الحجاز على الباخرة التى استأجرها لهذه الغاية ، وأنه قد أوفد للإتفاق مع الشريف لتدبير المفاسد ، وسيخرج من ميناء ينبع حتى لا يلفت إليه أنظار موظفى الحكومة فى جدة »[٢] ، وتم الإتصال بين إسماعيل والشريف عبد المنعم شريف مكة وراح يزوده بالسلاح ويحرضه لإعلان خلافته فى الحجاز[٣] ، إذ كانت لديه النية فى الخروج على الدولة العثمانية والاستقلال لذلك احتضن كل معارض لها .

كذلك أوجد إسماعيل علاقات مع بعض الأجانب الرأسماليين بمصر ، حيث رأى أنه من الممكن بواسطتهم أن يحقق ما يريده ، وقد أفادت معلومات من ضبطية مصر عن هذا النشاط الذى يقومون به من « عمل دسائس لإعادة الخديو السابق واليًا لمصر وهم إخوان سوارس وقطاوى بك وموسى قطاوى »[٤] ، ولم يكن هؤلاء فقط بل كان هناك أعوان له يعملون من أجله .

وكان إسماعيل يكره الثورة والثوار ، لكن فى سبيل مصلحته وكما عاهدناه يتقرب إلى الحركة الوطنية ليصل إلى أهدافه ويضرب بها أعداءه ، وقد هداه تفكيره أن يعود إلى مصر عن طريق الثورة « فكان يرى فى ظهور أحمد عرابى واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته إلى كرسى الخديوية »[٥] . ومضى يخطط ليحقق هدفه ،

---

(١) Doc. Dip. F. Tom III, No. 34, February, 25, 1880 .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢٠ نوفمبر ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٦٤ ، ٢٩ نوفمبر ١٨٨١ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٥) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٧٣ .

فأبرق سفير بريطانيا من روما إلى حكومته ليخبرها بأن « إسماعيل يباهى فى نابولى بأن عرابى فى جيبه »[١] ، حتى لقد وصل الأمر أن اعتقد جرانفيل فى ذلك ، فأخبر بلنت أن لديه معلومات تفيد أن إسماعيل مسيطر على عرابى ، وأن «كل ما يجرى فى مصر هو مؤامرة يراد بها عودة إسماعيل[٢] .

وفى مصر نرى تكدر توفيق لعلمه برغبة أبيه الأكيدة فى العودة ، فهو يرسل من يتحرى عن تحركاته واتصالاته[٣] ، وبناء على ما أشاعه إسماعيل ، اعتقد توفيق أن هناك علاقة سرية تربطه بعرابى كما صرح بذلك إلى قنصل النمسا[٤] .

لقد توهم إسماعيل عندما ظن أنه من الممكن أن يقدم له عرابى المساعدة للوصول إلى ما يصبو ، فهو يكرهه من أعماق قلبه ، وجميع تصريحاته انصبت على الهجوم عليه ، وبأنه المتسبب لكل ما جرى لمصر من كوارث ، ويقول بلنت : « إن موقف عرابى فى ذلك الحين أدل منه فى أى وقت آخر على عدائه للباشوات الشراكسة أنصار إسماعيل الذين كانوا يدسون الدسائس لتوفيق ، فلم يكن يخفى على كل حال أن لإسماعيل أغراضًا فى إظهار ما يحدث فى مصر على أنه لحسابه[٥] . هذا هو موقف القائد ، وأيده فيه العسكريون الذين عارضوا وبشدة عودة سلطة الحكم إلى إسماعيل مرة أخرى[٦] ، أيضًا صورت الصحافة المصرية بانوراما كاملة تنطق برفض خديوى مصر السابق ، وبالتالى تأصل شعور العداء فى قلوب المصريين .

لم يكف إسماعيل لحظة عن العمل ، وعندما رأى استمالة العناصر الثورية عن

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 222 .

(٢) Ibid, p. 221 .

(٣) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ٩٤ .

(٤) Archives des maison, de cour et d'etat, Vienne, Fasc XXX 1/9, 19 Fevrier,1882 .

(٥) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 222 .

(٦) The Times, April. 20, 1882 .

طريق راتب باشا فشلت محاولاته[١] ، طرق بابًا آخر ، فأرسل زوجته الأولى من نابولى إلى الإسكندرية ، وأيضًا زوجته الثانية بدعوى أنها مريضة ومشرفة على الموت ومعها ما يزيد عن ٣٥ شخصًا من الأتباع والجوارى ، وعقب وصولها إلى الميناء رفضت أن يكشف عليها الأطباء ، فهذا جعل توفيق يأمر بعودة تلك الزوجة على نفس الباخرة[٢] ، وكان عليها ابن إسماعيل وهو يرتدى أثواب النساء ومحتجبًا بالباخرة[٣] ، على أساس أنه إذا نجحت الخطة يستولى على العرش لحين حضور أبيه.

وأعلن عرابى رسميًا رفضه لنزول الزوجة على الأرض المصرية ، وأبان أن الأمة المصرية والجيش يرفضون مجىء أى إنسان يساعد الخديو السابق ويكون عضدًا له ولدسائسه ، وأذاع بلاغًا مفاده « أشيع على ألسنة العامة عن ورود إحدى نساء الخديوى السابق إلى الإسكندرية ، وأن ناظر الجهادية وضباط العسكرية يميلون إلى دخولها للإقامة بالقطر المصرى ، وانتشرت تلك الإشاعات حتى خيف من دخولها على بعض الأذهان ، فحملنى هذا على المبادرة بتكذيب هذا الخبر عن نفسى وعن كل ضابط بل كل فرد عسكرى فى مصر ، فإن ضباط العسكرية عمومًا يشاركون أهالى القطر المصرى بأجمعهم فى النفور التام من دخول أى شخص يأتى من قبل الخديو السابق من نساء أو رجال لما يعلمونه عما حدث عن هذا من الضرر للبلاد »[٤] .

ومما لا شك فيه أن كان للمعسكر المضاد للثورة أراجيفه فى هذا الشأن ، فهو يعلم أن الثورة جاءت لتقضى على مفاسد إسماعيل التى تركها فى مصر ، فإذا نسب علاقات لرجال الثورة مع هذا المستبد ، فربما ينفصل التلاحم وينفك الارتباط وتضرب الثورة . كما أنه كان لتلك الإشاعات التى نشرها الخديو السابق صداها فى الداخل لذا أصبح على عرابى ضرورة الوقوف أمام هذه العاصفة .

---

(١) أبو نظارة ، عدد ٥ فى ٣ مارس ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ١٠ أبريل ١٨٨٢ .

(٣) مصر ، عدد ١٧ فى ١٦ أبريل ١٨٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، عدد ١٩ فى ١٩ أبريل ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٥٠ فى ٢٣ أبريل ١٨٨٢ .

وقد حاول إسماعيل استمالة رجال الدين فى مصر لمعرفته بأنهم ركن أساسى فى الثورة ، فيتصل بالشيخ حسن العدوى ليطلب منه السعى فى حضور عائلته لمصر، كما كان يبعث بمن تموت من جواريه للصلاة عليها ودفنها بمصر(١) ، لكن لم يترك إسماعيل أى أثر طيب له حتى يفكر أحد من المصريين فى مساعدته .

وأمام تلك المحاولات لإسماعيل كانت الثورة تقف له بالمرصاد ، ولم تكن الثورة بمفردها ، كذلك توفيق ، إذ اعتقد أن أباه أصبح مقربًا للسلطان بعد السماح له بالعودة إلى الآستانة(٢) . فوضعه تحت المنظار وكشف المؤامرات التى يحيكها ، وراح يبحث وينقب عن كل صغيرة وكبيرة يمكن لها أن تعود بنفوذ أبيه حتى أنه عندما أشيع أن عائشة هانم رئيسة الزار - التى تبخر الخديو وملابسه وتتلو عليه العزائم والتمائم - تجرى « أعمال دسائس من قبل إسماعيل باشا » عمل على نفيها إلى سواكن ورحلت فى الحال(٣) ، وشغل الخديو بتلك الإجراءات التى يقوم بها إسماعيل إلى أقصى حد ، لدرجة أنه لم تكن تخلو مقابلة من مقابلاته مع القناصل إلا ويعرضها ويشكو الأمر(٤) .

وأخيرًا وعندما وجد إسماعيل أنه من المستحيل تحويل الثورة عن مسارها واستخدامها لخدمة أغراضه بالوصول على أكتافها لعرش مصر ، انعطف على طريق آخر ودبر خطة ، وذلك بإيجاد حركة معاكسة تقضى على الثورة ، ومن ثم وفى زمرة الاضطرابات التى يمكن أن تحدث تكون الفرصة لدخول مصر واستعاده ملكه ، فكانت المؤامرة الشركسية لاغتيال قادة الثورة والتى كان له يد فيها « وهذا يؤدى إلى إيجاد ثورة مضادة تحدث دوامة تهيئ لإسماعيل فرصة العودة »(٥) ، ويحلل عرابى الموقف بقوله : « طلب إحداث الفتن والانقلاب لعله يصادف انقلابًا تقول فيه أوربا بأن حكومة مصر لا تكون أمينة من الاضطراب إلا إذا أطلق فيها التصرف

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٥ .

(٢) Archives des maison, de cour et d'etat, Vienne, Fasc XXX 1/9, 19 Fevrier,1882 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ ، ٥٣/د/٧ .

(٤) Politisches archiv, Alexandrien, Fasz XXXVIII/ 195. No. 2863, 5 Decembre, 1881.

(٥) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 249 .

للخديو »[1] ويمضى ليبين ما ظلم به إسماعيل مصر والمصريين . وفى خطاب من محمد عبده إلى بلنت فى ٢٥ أبريل ١٨٨٢ يسب فيه إسماعيل وينسب إليه العمل من أجل القضاء على الثورة « الخديو إسماعيل العدو الأكبر لمصر ، يجد سعادته فى عمل الدسائس لكى يحطم حكومتنا ويفكر أنه بعمله هذا يمكنه العودة إلى مصر ، لكن الله بدد آماله فذهبت مع الريح ، فكل مصرى يعلم أن رجوع إسماعيل لا يعنى سوى دمار مصر »[2]. وبذلك فشلت جميع المحاولات أمام صمود الجبهة الثورية ، ولم يحقق إسماعيل ما كان يسعى إليه .

■ ● ■ ● ■

(١) Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II .

(٢) Blunt . Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 249 .

الفصل العاشر

التأييد العربى والإسلامى والأوربى

... أثارت الثورة العرابية انتباه العالم الخارجى ، فهى أول ثورة قومية فى المنطقة ، قامت لنصرة مبادئ وآراء ثورية تطالب بالحكم الدستورى والحرية والعدل والمساواة ، وهذا يجعلها تسمو إلى مصاف الثورات الأوربية ، إذ اشتركت فيها قوى الشعب المصرى من أعلى الطبقات إلى عامتها ، قدمت من أجلها كل شىء ، إذن فهى ثورة وطنية أصيلة . وقد تمتع قوادها وخاصة عرابى بتلك السمعة الطيبة التى انتشرت وسرت فى الأرجاء ، وأصبح بطلاً ورمزًا للمناضلين وله من المعجبين من الأجناس المتعددة .

النشاط العربى

وضحت دائرة الوحدة العربية فى إطار التأييد الشامل للثورة المصرية ، فعندما ارتفع صوت مصر مناديًا بالحرية والاستقلال كان له أصداؤه فى المحيط العربى ، ووجد من يسمعه ويعمل على نصرته ، فقد قوى الرباط الذى شمل العامل الدينى والعامل القومى .

ومصر طوال تاريخها هى مركز للإشعاع الحضارى والثقافى وحركة الاستنارة لمن حولها فى المنطقة ، ينزحون إليها ويستقرون بها ويتمتعون بمميزاتها ، ومع الثورة نجد أن هناك مساحات من المغرب العربى قد خضعت للنفوذ الفرنسى ، فرحبت القاهرة بمن حضر إليها هربًا من تلك الحالة ، ونذكر منهم « إبراهيم افندى السراج » الذى نزح من تونس وعمل مع النديم فى الصحافة ويقول عنه « فرأيته ميالاً بالجوارح والأفكار إلى العرب الأحرار »(*) . فساهم بجهده فى العمل الثورى ، وكان له النشاط الملحوظ فى صحيفة الحجاز التى تعرضت للضغوط الرجعية فى كثير من حياتها ، وتعد ترجمة صادقة للثورة .

(*) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٧ .

وكونت جالية المغاربة تماسكًا فى موقفها من الثورة وأيدتها بما تمتلك من إمكانيات ، لدرجة أنه عقب مذكرة مايو ١٨٨٢ ووصول قطع الأسطولين الإنجليزى والفرنسى ، قدم المغاربة أنفسهم ليكونوا تحت إمرة قائد الثورة ، فتذكر صحيفة الفسطاط « أنّ ذوى الحمية من المغاربة المقيمين فى القاهرة لما سمعوا بقدوم بوابير الدولتين ورأوا معارضة أحمد باشا عرابى وإجراءاته العادلة شرعوا فى التختيم على عرض يقدمونه إلى سعادة ناظر الجهادية مضمونة أنهم لما تحققوا إخلاصه فى خدمة الوطن والدين تاقت نفسهم إلى أن يكونوا فى زمرة أعوانه الصادقين ، فهم يعرضون عليه خدمتهم ويضعون بين يديه أرواحهم ، وقد سألت أحد المغاربة عن مقدار ما يمكن جمعه منهم ، فقال يجتمع بسهولة عند الاقتضاء من كافة أنحاء القطر ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ مغربى »(١) .

وكانت الاجتماعات السياسية التى تتم فى منزل عرابى تضم المغاربة الذين كانوا « يعدونه ويمنونه ويقرأون له الأحزاب والأوراد لينال بها مرغوبه(٢) ، وعند حضور البعثة العثمانية الثانية ، حاول علماء طرابلس وتونس أن يقنعوا أحمد أسعد بأن « نجاح قضية الإسلام فى شمال أفريقيا وبل وجود الإسلام على الإطلاق يتوقف على بقاء عرابى فى الحكم »(٣) .

ومما لا شك فيه أن اللقاء الروحى بين الثورة والمغرب العربى كان يفرضه الواقع ، فشمال أفريقيا غير مستقر ، والسياسة الاستعمارية تفرض سلطاتها ، والشعور الإسلامى قد بلغ مداه « ففى طرابلس الغرب حصلت جملة تظاهرات عدوانية فيها على اليهود والنصارى وبارح المدينة عدة عائلات أورباوية ، أما فى الجزائر فقد امتد الهيجان الإسلامى أشده من قبل »(٤) ، لذا فكل انتصار لثورة على الأطماع الأوربية هو انتصار للمغرب العربى ، وكل هزيمة لبريطانيا وفرنسا هى فرحة كبرى ، ومن هنا كان التوافق التام بين أحرار المغرب والثورة فى مصر .

وبقيام الحرب كان عرابى على صلة بعرب الصحراء فى برقة وبالسنوسى الذى رأى ضرورة تدبير خطة محكمة لخلاص مصر(٥) ، وكأن الحرب فى مصر غدت وأنها حرب صليبية تستلزم الجهاد فى سبيل الله من أجل نصرة الإسلام . ولم تكن

(١) الفسطاط ، عدد ٧ فى ٣١ مايو ١٨٨٢ . (٢) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٣٦ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ١٠٢ .

(٤) الطائف ، عدد ٧٣ فى ٣٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥) Biovès, op. cit., p. 247, Broadly, How We Defended Arabi And His Friends, p. 162, Malortie, op. cit., p. 260 .

لندن لتسمح بذلك ، فحملت السلطان على أن يصدر أوامر مشددة إلى المسئولين فى طرابلس وبنى غازى بوقف هذه الاتصالات[١] ، خاصة بعد أن أصبح عرابى فى نظر الجميع المحرر والبطل والمنقذ من براثن الدول الأوربية والذى وقف وتحدى التهديدات الأجنبية .

وكان مقر قيادة الجيش فى كفر الدوار به من المؤيدين والمشجعين ، فشيخ القيروان يتنقل بين المعسكرات « ليذكى الحماسة الوطنية ، ويشد أزر المصريين المحاربين »[٢] ، بينما نرى شيخ الجزائر وهو من أخلص أنصار عرابى يريد أن يساهم فى نصرة الثورة ، فيطلب الإذن من عرابى للسفر إلى الآستانة ليعمل على منع حضور جيش تركى إلى مصر ، لأن مجيئه « سيجدد العداء القديم »[٣] .

وخارج مصر تجمع الأموال لتقدم الثورة ، ففى برقية من الخديو إلى وكيله بالآستانة يقول له « عرض علينا اليوم قنصل جنرال فرنسا أنه ورد إليه تلغراف من نظارة الخارجية يكلفه بإبلاغنا أن الشيخ صفير والشيخ زعير أسسا جمعية لإعانة عرابى وإمداده ، وأنهما أخذا يجمعان النقود فى سبيل ذلك »[٤] .

وأشادت الصحافة فى تونس بعرابى ولقبته بحامى الإسلام والعرب ، وكانت الصلوات تقام فى مسجد القيروان يُدعى فيها بالنصر لعرابى وبالهزيمة للإنجليز ، وعندما علم التونسيون أن عرابيًا الذى كان موضعًا لخلاصهم لم ينتصر انهارت آمالهم حيث إن الفوز الذى حققته بريطانيا حمى فرنسا من قيام ثورة عربية تمتد من القاهرة إلى الجزائر[٥] .

أما عن السودان وتأييدها للثورة ، فقد وصل الأمر أن تأثر المهدى بها ، واتبع نفس خطواتها فى ثورته ، إذ صادفت مبادؤها هوى فى نفسه ، ومنذ البداية راح يفكر فى إخراج الأجانب من السودان[٦] ، وكان كل من الثورتين مؤيدًا للآخر ، إذ امتنع قادة الثورة عن إرسال المدد لإخماد الثورة بالسودان ، فعندما أراد شريف إرسال آلاى طره ، رفض الثوار وتأكد رفضهم مع البارودى ، فكان ذلك سببًا فى نجاح ثورة المهدى[٧] .

---

(١) Egypt, No 7 (1882), No 674, Aug. 9, 1882 .
(٢) Ninet , Arabi Pasha , p. 273 .
(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 553 .
(٤) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ١٦ أغسطس ١٨٨٢ .
(٥) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 17 .
(٦) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ٢٦٤ .
(٧) عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ، ص ص ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٨ .

ومع أن مسألة المهدى المنتظر هذه لم ترق عرابى[١] ، لكن هذا لم يمنع من أن ثورة مصر استنجدت بثورة السودان ، وبُدئ التفاوض من أجل مساعدة المهدى لها ، ولم يمهل الوقت أن تتم تلك المساعدة « إذ جاءت متأخرة »[٢] ، ونلمس موقف السودان من تلك المقالة التى كتبها أحمد رفعت فى صحيفة « التان » الفرنسية بأن مثلما يعضد المصريون عرابى فالسودانيون معه[٣] .

ووضع المهدى عرابى على القمة ، وهذا ما شجعه على « تقليده وجعله موضع عطفة وتقديره »[٤] ، ومما يؤثر عنه أنه حين هاجم الخرطوم عام ١٨٨٥ أصدر أوامره بالمحافظة على حياة جودون قائلاً : « إنى أقتدى به أحمد عرابى باشا »[٥] ، كذلك يجب أن نضع فى الاعتبار أن من مثقفى الثورة المصرية من أسهم فى الثورة المهدية ، فأحمد العوام كان له الدور الإيجابى فى إيقاظ الوعى الثورى هناك .

وفى أبريل ١٨٨٥ يستلم يعقوب بن صنوع خطابًا من عرابى بكولومبو يظهر فيه عطفه على السودانيين والمهدى ويقول فى نهايته لماذا تنتقم بريطانيا من أخوة المصريين ومن رجال يدافعون عن وطنيتهم ؟[٦] ، وكانت هذه نظرة المصريين إلى السودانيين الذين كانوا قلبًا وقالبًا مع المصريين .

ويأتى دور الشام لتشارك ، حيث إن سوريا فى ذلك الوقت قد بدأت تنجذب لتيار القومية ، وجرت اتصالات بين الثورة وبينها ، وعندما سرى اتجاه تأسيس وحدة عربية تضم مصر والحجاز كانت سوريا تدخل فى نطاقها ، وآمن بذلك الجميع سواء قادة الثورة أو قوى المجتمع ، وقد كان لوجود الأمير عبد القادر الجزائرى فى دمشق أثرة فى هذا المجال إذ كتب إليه عرابى[٧] ، ليدعوه لتوحيد الموقف ضد التدخل الأجنبى .

وتحمست سوريا للثورة وهى نفسها « بدأ فيها استعداد ما للأخذ بمبادئ الحزب الوطنى المصرى »[٨] ، وعاشت أحداث مصر عن طريق ذهاب بعض من

---

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp.495, 496 .

(٢) Biovès , op. cit., p. 247 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ، ص ١٠٣ .

(٥) إبراهيم فوزى ، السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ .

(٦) Chaillé , op. cit., pp. 257, 276 .

(٧) Biovès , op. cit., p. 247 .

(٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٥٤ .

علماء الأزهر إلى دمشق واجتماعهم بعلمائها وأعيانها فى المسجد الأموى حيث بينوا لهم « أن مصر هى باب الكعبة وبيضة الإسلام ، وأن هدف الإنجليز هو القضاء على الإسلام والاستيلاء على الكعبة الشريفة ، وأن على كل مسلم أن يهب لمساعدة عرابى بقواته وأمواله طالما أن هذه الحالة تعيد إلى الأذهان قصة العرب فى أسبانيا »[١] .

كذلك انتقلت الأفكار المصرية إلى سوريا عن طريق المعبر الذى يمر منه مراسلو الثورة إلى الآستانة ، وقد ظهر موقفها عندما علمت أن هناك جنوداً عثمانية تعسكر فى اللاذقية ، وأنها ستبحر إلى مصر لقمع الثورة ، « فقاطعتهم وعنفتهم لخروجهم لحرب إخوانهم المسلمين ، وعندما تعامل معهم أحد التجار وباع لهم ما يريدونه أحرقت متاجره جميعها »[٢] .

وكان ذلك من نتائج التأثر بالقومية التى لمصر يد فى الدعوة إليها ، وقد وضحت فى تلك الإضطرابات التى قامت ضد المسيحيين فى النصف الأول من شهر أغسطس ١٨٨٢ واحتجت على أثرها وزارات خارجية النمسا وألمانيا وفرنسا، وطالبت الدولة العثمانية باستعمال أقصى الشدة ، « فزاد حمدى باشا من قوة البوليس وقبض على الأشخاص الذين كانوا يلقون الخطب المهيجة[٣] ، وهذا يعكس مدى التأييد الثورى .

أيضًا كان لعرابى المكانة والمركز ، ففى تقرير لبعثة قيادة الأسطول النمساوى صادر من بيروت يصف الحالة فى يافا وضواحيها وعطف أهلها الشديد على عرابى وحبهم له[٤] ، كما حمل الرجال السلاح وأعدوا الكتائب من المجاهدين لكن « جنود السلطان التركى منعتهم من الإبحار إلى مصر »[٥] .

أما عن الحجاز ، فقد كانت مكة المكرمة مركزًا ثوريًا ضد السيادة العثمانية ، إذ هدف حزب الإصلاح فيها إلى إسقاط التبعية للسلطان عبد الحميد ، وإقامة خلافة عربية ، ومن ثم حدث إلتقاء فى وجهة النظر بين الحجاز والثورة المصرية[٦] .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ١١٠ .

(٢) The Times , June 9, 1882 .

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، المجموعة ٢٧/٣١ ، رقم ٥٢ح ، ١٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، أرقام ١٩٥٠ - ١٩٥٢ ، ٤ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٥) على الحديدى ، عبد الله النديم خطيب الوطنية ، ص ٢١٦ .

(٦) الفصل الثامن ، عنصر الدولة العثمانية فى النطاق الثورى .

ومع قيام الحرب كانت الحجاز كلها تؤيد مصر فى ثورتها ، فيقول صابونجى فى خطاب له بلنت فى ٨ يوليو ١٨٨٢ « منذ يومين كنت مع عرابى فأتاه رجل عربى بخطاب ، ففتحه وتلاه علىّ وعلى الضباط الآخرين ، وقد كتبه حافظ الكعبة المصاحب لشريف مكة ، وكان الخطاب مكتوبًا بأسلوب متميز ملئ بالمدح ويقول « أن جميع شعب مكة يصلون من أجل عرابى ومن أجل نصره ، وأن تلك الصلوات تقام فى الكعبة وعند حجر إسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفى كل مكان مقدس بمكة من أجل نجاح عرابى » ، ولم يتردد الكاتب فى منح عرابى لقب «حامى حمى الإسلام» مسطرًا أن الدول الإسلامية والحجاز مع عرابى(١) .

وفى مقر القيادة أثناء الحرب كانت وفود المؤيدين تتوافد ، فمندبون من الحجاز واليمن(٢) ، تأتى لتقدم المشاركة وتدعم الموقف العربى للجبهة الحربية ، إذ كان غزو دولة مسيحية لأرض إسلامية له الأثر السيئ فى النفوس ، ففى برقية من الكونت « جولوشفسكى » السفير النمساوى بباريس إلى وزير خارجيته يفيد بأنه « بلغه من جدة ومصوع أن الشعب الإسلامى هناك تغلى فيه كوامن الهياج ، وجاءت هذه الحالة أثر الأخبار الأخيرة التى ذاعت فيهما »(٣) ، وكانت تتضمن العدوان الإنجليزى على مصر .

وأصبح خروج التأييد من مكة المكرمة له دلالته على شرعية الثورة أمام العالم الإسلامى ، ويذكر مندوب توفيق بالآستانة فى مذكرة له عقب نهاية الثورة أن من بين أسباب اعتقال شريف مكة « راجع إلى ولائه لعرابى »(٤) . وعليه يتضح كيف تآذر الموقف العربى الذى امتد غربًا وشرقًا مع الثورة المصرية .

التعضيد الإسلامى

كان الرأى العام فى عاصمة الدولة العثمانية مساندًا للثورة ومرتبطًا بها أشد الإرتباط ، رغم أن الثورة لم تحمل الحب لتركيا ، فإنها وجدت فيها من وقف بجوارها واهتزت مشاعره لها ، فقد عبر ضباط الباخرة التى حضرت عليها بعثة درويش عن الموقف بقولهم « إنه لما بلغنا استعفاء النظارة السامية حصل أسف عام وكسوف بال لكافة الأهالى ، لكن عندما جاء التلغراف يبشر برجوع أحمد باشا

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 553 .

(٢) Ninet , Arabi Pasha , p. 242 .

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، المجموعة ٢٧/٣١ ، رقم ١٠٧ ، ١٦ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، مذكرة ثابت باشا ، ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

عرابى إلى مسند نظارته استبشر الناس عمومًا حتى أن كثيرًا من الأهالى صنع أشربة حلوى وسقى الناس جميعًا شكرًا لله على رجوعه ورجوع الطمأنينة به »[١] . ومع أن هذه النظارة ضغطت على العنصر التركى عقب المؤامرة الشركسية وقد أقلق ذلك الرأى العام فى تركيا وجعله يتحول وقتها عن الثورة ، لكن سرعان ما نسى الأمر أمام الأحداث وعاد بقوته ليؤيدها ويقف مع قائدها .

ووضح من كتابات الصحافة التركية الانحياز التام لعرابى ، فهو فى نظرها « خدم الدولة العلية وكافة المسلمين خدمة عظيمة »[٢] ، وقد كان للثورة مندوبوها الذين أرسلتهم لطرح أفكارهم وطلب المساعدة ، ففى برقية من الخديو يطلب تعاون محافظ بورسعيد والقناة مع الضباط الإنجليز من أجل إحضار من أطلق عليه « جاسوس من طرف عصبة الأشقياء » ويطلب إتخاذ كل الإجراءات لضبطه بأقرب مسافة وإرساله إلى الإسكندرية « حيث إنه بالمورة »[٣] .

وازداد موقف الأتراك حماسة تجاه الثورة مع الغزو الإنجليزى لمصر فيقول ثابت باشا « العوام هنا وكثير من الرجال والعلماء الكرام يتمنون انتصار العرابى حتى أننى صادفت منذ أيام فى المابين الهمايونى الشيخ على محوى أفندى مدرس السلطان الحائز على رتبة الصدر (رتبة دينية) ، فأخذ فى مدح عرابى والثناء عليه ، فاعترضت عليه لكنه ابتدرنى بقوله لا لا إنه رجل عظيم ومتدين . كما وأننى عندما قابلت فى المابين الهمايونى نجيب أفندى الحائز كذلك على رتبة الصدر تكلمت ضد العرابى وشنعت عليه ، فكان كلامه بالابتهال إلى الله تعالى أن ينعم على الإسلام بما فيه الخير ، ونسمع هنا أن معظم ضباط العساكر مع العرابى »[٤] . وبذلك وضح أن القوى الاجتماعية لتركيا أصبحت مع الثورة المصرية .

وفى المساجد التركية كانت تقام الصلوات وتكثر الدعوات لنصرة عرابى ، لدرجة أن أحد الخطباء دعا إلى حمل السلاح دفاعًا عن الإسلام وقال : « إذا ما طلب عرابى مالاً جمعناه له ، وإذا ما طلب جنود فسنحمل جميعًا السلاح لمساعدته ، إنه رجل مبعوث من قبل الله وقيض له أن يحمينا نحن الأتراك المؤمنين »[٥] ، إذن

---

(١) القسطاط ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ ، Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 17 .

(٣) معية سنية عربى ، دفتر صادر التلغراف ، سجل ٢ ، مجموعة ٣٩ ، ٢٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ١١٠ .

فقد نجح عرابى فى تحويله الحرب من قومية للدفاع عن أرض مصر إلى إسلامية ، فعقب قيامها نادى جميع المسلمين ليهبوا بالثورة - وكما يذكر السفير الإنجليزى باريس - ضد الدول الأجنبية[١] .

واشتعلت المشاعر ضد بريطانيا ، بل إن بعض سكان تركيا صرحوا بأنهم سينتقمون من المسيحيين إذا ما احتل الإنجليز مصر ، وبدأ الناس فى الآستانة فى التطوع للإنضمام إلى الجيش المصرى[٢] ، ووفد على مصر المتطوعون من « جريدلية وإستانبولية وأتراك » يطلبون الإنخراط فى سلك الجندية « والمحاربة مع إخوانهم المصريين ، وحلفوا أن يكونوا يدًا واحدة فى الدفاع عن شرف البلاد ومقاتلة الأعداء »[٣] . وكان الأتراك بكل عواطفهم مع منقذ الإسلام وحامى المسلمين ، وهذا مما عمق الحقد فى قلب السلطان وأقدم على قراره الخاص بعصيان عرابى[٤] ، الذى طعن به الثورة .

وفى غاليوبولى وسالونيك كان الشعور العام للمسلمين معاديًا للأوربيين بعد ضرب الإسكندرية ، حيث عدوا بريطانيا وفرنسا عدوتين لدينهم وكيانهم ، وأن هذا الشعور لم يعد يقتصر على العامة ، وإنما وجد كذلك لدى ضباط الجيش والعلماء ، إذ أنهم يعدون عرابى بطل الإسلام[٥] .

وأخيرًا تأتى الهند ، فبتحرك الثورة وبتعدد نشاطاتها ، بعث قادتها إلى كبار مسلمى الهند[٦] . فتأثروا بها فيقول مراسل صحيفة التيمز هناك بناء على ما أرسل له من أحد أعضاء الجمعية الإسلامية الوطنية « ولا شك أن الحوادث جارية الآن فى القطر المصرى نبهت أذهان مسلمى الهند »[٧] . وكان الأفغانى مقيمًا بها ويعمل رئيسًا لمدرسى حيدر أباد ، وبديهى فإن له نشاطه المعهود ، مما جعل الإنجليز يستدعونه إلى كلكتا ويحددوا إقامته فيها[٨] .

---

(١) Doc . Dip. F. Tom IV , No 461 , July 19, 1882, p. 434 .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ١١١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٤) الفصل الثامن ، عنصر التحول النهائى ضد الثورة .

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ١١١ .

(٦) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٨ ، Duse, op. cit., p. 51

(٧) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٢١٠ .

(٨) على الحديدى ، المرجع المذكور ، ص ٢١٥ ، صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، ص ٤٦٤ .

كانت مما تسعى إليه ثورة مصر إثارة الشعور الدينى فى العالم الإسلامى ضد بريطانيا حتى تجبرها أن تتراجع عما تقوم به إزاء مصر ، والهند بالنسبة لها هى درة التاج البريطانى ، وفى خطاب عرابى إلى جلادستون التهديد بهذه المسألة[١]، وكان لذلك أثره ، فتذكر صحيفة الطائف « إن أهالى بعض الأقطار الهندية ثارت على الحكومة الإنجليزية ، ونظن أن هذه الثورة من تذمر مسلمى الهند من تظاهر الدولة على إخوانهم مسلمى مصر[٢] ، وتقول صحيفة المفيد أنه ممن أتوا من بمباى قد أخبروا بأن « أهل الهند لما علموا أن دولة الإنجليز سالكة طريق المعاكسة للمصريين ، وأن المصريين واقفين لرد جماح طمعها ، أجمع الكثير منهم على أن الإنجليز إذا حاربوا المصريين ، يحدث هؤلاء الهنود ثورة تكون نتيجتها التخلص من ظلم هذه الدولة التى حرمت عليهم أموالهم وضيقت فى وجوههم الطرق واستعملتهم فى دنئ العمل ومشاقة حتى رأوا من جورها وتوحشها ما لم يخطر ببالهم »[٣] .

ومما لا شك فيه أن الهند إرادت نصرة الإسلام فى شخصية عرابى والثورة المصرية ، فتؤكد صحيفة الستاندرد « إن حوادث مصر قد شغلت بعض أهالى الهند، وقدم أهالى كلكتا صلوات وطلبات فى المساجد لنجاح عرابى باشا »[٤] . وهذا يوضح أن قيمة عرابي كانت مرتفعة فى نظر العالم الإسلامى ، وأن ذلك أثار لندن إلى أقصى حد ، لدرجة أن حكومتها بالهند أعلنت العلماء هناك « بأنها تقتفى أثر من يظهر إعلانات للعموم ويتخذ دسائس يكون الغرض منها إحداث تحزب بين مسلمى الهند وإنها تعامله أشد معاملة »[٥] . ويستدل من هذا على أنه قد أثيرت الإضطرابات والقلاقل ضد الإنجليز . هذا فى الوقت الذى استصدرت فيه فتوى من أحد صنائعها من العلماء الهنود « بأن عرابيًا مخالف للدين الإسلامى ، لأنه خالف أوامر ولى الأمر وطاعته من طاعة الله »[٦] ، ولذا كان لابد من القضاء على الثورة المصرية بعد أن انتشر تأثيرها .

---

(١) الفصل السابع ، عنصر محاولات التفاهم مع بريطانيا .

(٢) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) المفيد ، عدد ٥٦ فى ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) الوطن ، عدد ٢٤٤ فى ٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥) الوقائع المصرية ، العدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٦) على الحديدى ، المرجع المذكور ، ص ٢١٦ .

ويصدر مرسوم إعلان عصيان عرابى لتعصف به لندن حركة التأييد الكاملة للثورة المصرية فى الهند ، فتوزع « الجوائب » المنشور فيها المرسوم « لتسعتين بالأثر الذى تحدثه على إخماد حركة التشيع للعرابيين وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر بشر العواقب »[١] ، ومن هنا نرى أن الهند قد عملت من أجل ثورة مصر وأيدتها ورفعت شعار المعارضة أمام الدولة التى اعتدت عليها . وعلى الأرض المصرية عمل الهنود مع الثورة ، فنرى « جامبجان غورى » الذى عينه عرابى بوظيفة مأمور أشغال السكة الحديد والتلغراف بمحطة السويس يخلق الصعوبات أمام نقل ذخيرة ومؤونة الجيش الإنجليزى ، وأسر بالزقازيق وصدر عليه الحكم بنفيه المؤبد[٢] .

وكانت مصر تزداد ثقة بذلك التأييد ، وعرابى نفسه نظر إلى أن مسلمى العالم يعتبرونه بطل الإسلام ، حيث إن الحجاج الذين عادوا من مكة أخبروه بذلك ، فكان يرى أنه من الصعب على السلطان أن ينضم إلى بريطانيا ويحاربه[٣] ، بعد تلك المكانة التى وصل إليها فى العالم الإسلامى ، إذ أصبح من الناحية الفعلية خليفة للمسلمين، وحتى بعد انكساره ونفيه كان له نفس التقدير ، فحينما يذهب لصلاة الجمعة ، كان مسلمو سيلان يقبلون يده ويتبركون به ، ولقى من الحفاوة درجة لم يبلغها زعيم من الزعماء ، وكان جميع المارين والمسافرين يتوجهون لزيارته[٤] .

التعاطف الأوربى :

(أ) الداخلى

تشاء الظروف لأجانب مصر الذين قامت الثورة من أجل تسلطهم ، أن يقف البعض منهم بجوارها يعطيها المساندة والتعضيد ، فكان لهم بعض الأثر فى إذكاء الرأى العام ونمو الوعى سواء بالصحافة ، أو بالاجتماعات التى تقام فى السفارات وتنشر أخبارها فى الصحف ، أو التى تتم عن طريق المحفل الماسونى واتسمت بالطابع الفكرى التحررى .

ومنذ البداية نشأت الصداقة القوية بين هؤلاء المتحررين من الأوربيين وبين أعضاء الحزب الوطنى[٥] ، إذ أيدوهم فى مطالبهم فكان اللقاء الروحى ، وقد

(١) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٨٥ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٧ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 396 .

(٤) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ص ٦٥٨ - ٦٦٠ ، محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٣٤ .

(٥) Chaille' , op. cit., p. 101 .

أشادت بعض الصحف الأجنبية بهذه العلاقة التى ربطت بين الطرفين[١] ، وكان يخشاها توفيق ، فيذكر لمندوبه بالآستانة « أنه يوجد فى مصر بعض الأدانى من الإفرنج وبعض الماسونيين »[٢] ، ويمضى فى بيان صلاتهم بالثوار .

وكانت المساهمة انفعالة فى حضور تلك الاجتماعات التى مثلت لقاءات سياسية، وفيها ترتفع أصوات الثوار ليعلنوا مبدئهم وليطعنوا فى النظام القائم ويطالبوا بإسقاطه ، ولقى ذلك الاستحسان من هؤلاء الأوربيين ، تبعه التشجيع والمشاركة ، فنجد « نينيه » الذى وقف بجوار القضية المصرية يشارك فى الخطابة ليبين ما تحملته مصر من الظلم والاضطهاد والديون فى فترة حكم إسماعيل ويبين مساوئ وجود الأجانب فى الديون أو الاستحواذ على الوظائف أو تمتعهم بالامتيازات[٣] ، وكان يصور فى كتاباته إلى لندن مدى صدق الشعب لثورته ويعترض على التهديد الإنجليزى الفرنسى ، ويؤيد حق الأسة المصرية فى تقرير مصيرها واستقلال أمورها[٤] ، وبذلك يسير وفق أحلام المصريين السياسية « فى الوقت الذى نبتت فيه بذور الوطنية »[٥] ، وبناء على موقفه هذا أصبح مكروهاً من أعداء الثورة ، فنرى صحيفة التيمز تتهمه بأنه عميل للأمير حليم[٦] .

كذلك كان « بلنت » الذى عطف على الأمانى المصرية وتحمس لمبادئ الثورة وخطواتها وشجع على الحرية التى تطلبها وأعطاها من أفكاره ، ولمكانته لدى الثوار، فقد اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً فى إمكانية مساعداته لحل المسألة المصرية بحكم صلاته بحكومة لندن ، كما أنه أعطى الأمل والمزيد من الدفعة لقوة الثورة للتمسك بالموقف الثورى ، ونقل التأييد والتشجيع من كبار الشخصيات الأحرار الإنجليز إلى القادة، الذين استفادوا من نصائحه[٧] .

ولم يكن بلنت يؤيد تلك الإجراءات التى تتخذها بريطانيا تجاه مصر طوال الثورة، وكثيراً ما انتقد سياسة ماليت وكولفن فى لقاءاته معهما ، كما أنه لقى الكره

---

(١) Malortie , op. cit., pp. 5 , 6 , The Standerd , Feb. 16, 1882 , The Times , Oct. 10, 1882 .

(٢) محافظ الأبحاث ، المصدر نفسه ، ٢٦ مايو ١٨٨٢

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 281 .

(٥) Ninet , The Orgin of the National Party in Egypt , pp. 118 , 119 .

(٦) The Times , Aug. 5 , 1882

(٧) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

والحقد من توفيق الذى كان يعلم بدوره في إذكاء الثورة ، لدرجة أنه عقب الثورة جاءت تعليماته لمحافظ الإسكندرية « أذيع بأن بلنت الإنكليزى المشهور رفيق الشقى عرابى سيحضر ، فيجب عمل الاحتياطات اللازمة لعدم تمكينه من دخول المدينة مطلقًا »(١) .

واتحد « وليم جريجورى » مع بلنت فى موقفه إزاء الثورة وخاصة فى بلورة الفكر الثورى ، إذ كانت لهما لمساتهما فى برنامج الحزب الوطنى ، وهناك رأى يبين أنه من صنعهما(٢) ، لكن هذا معناه عجز مثقفى مصر عن دورهم فى ذلك ، وخاصة محمد عبده صاحب الفكر التحررى والتى كانت بصماته مؤكدة على البرنامج . كذلك كان لهما تلك الوساطة التى قاما بها فى المحادثات والتفاهم بين قادة الثورة والممثلين الإنجليز فى مصر سواء ماليت أو كولفن(٣) ، وأخيرًا دورهما فى المحاكمات .

وهناك « صابونجى » سكرتير بلنت الذى وقف بجوار الثورة ، وكثرت نشاطاته ، فهو دائم التحرك ما بين مصر ولندن ، ناقلاً ومصورًا الثورة وابعادها ، كما أعطاه محمد عبده مسئولية الصحيفة العربية التى أنشئت فى لندن لتؤيد الإتجاه التحررى فى مصر ، وكان له مركزه لدى الثوار فيقول بلنت « لصابونجى مركز عظيم عند رجال الأزهر ، وهو مع الحركة الوطنية قلبًا وقالبًا ، ويقابل بالترحاب عند جميع الوطنيين باعتباره نائبى ، وكانت الثقة فيه عظيمة جدًا »(٤) .

ونجد بعض العاملين على أرض مصر من المثقفين الأجانب لهم نصيبهم فى المد الثورى ، « فموسيو فوكلان » رئيس القلم الأفرنجى بإدارة المطبوعات كان مكثفًا فى نشاطاته ، فمن الاتهامات الموجهة إليه « دايمًا صحبه أحمد رفعت يتخابر معه فى أمور سرية ، ويحمل المراسلات والآراء إلى عرابى عندما يكون فى الإسكندرية »(٥) ، وله دوره الذى اشترك فيه مع محمد عبده فى تحرير المحاضر ضد توفيق « وهى محتوية على ألفاظ غير لائقة فى حق الحضرة الخديوية »(٦) ، ومما يذكر أن أفكاره تحررية واستعان به القادة فى المجال الإعلامى من أجل غرس المبادئ الثورية فى

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٣ .

(٢) Lords , Vol. CCLXXL , June 26, 1882 , p. 373 .

(٣) Ibid .

(٤) Biunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 299 .

(٥) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين ، تقرير ١٧ ، ص ٨٦ .

(٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٦٣ .

النفوس ، وله الكتابات التى تفيض بالنداءات الثورية ، وبحكم سلطته بالصحافة ، كانت له اليد الطولى فى إغلاق الصحف الأجنبية المعارضة[١] .

كذلك حظيت الثورة بتأييد بعض صغار الموظفين من الأجانب ، فنرى «الخواجة انطوان » وهو يونانى يعمل ترجمانًا بالجهادية ينبئ عرابى بتلك المراسلات التى بين أعوان إسماعيل بالقاهرة والإسكندرية ، ويبلغه عن نشاطات بعض الأوربيين الموجودين بمصر والذين ينقلون الأخبار الداخلية ، وحددهم له وأبان أنهم يعملون لحساب إسماعيل » وما أجريت هذا الإعلان لسعادتكم إلا لكونى من ضمن المحاسيب من قديم الزمان وخوفى على أمير الجيش »[٢] .

وإذا تركنا المثقفين نجد العمال المؤيدين للثورة ، فقد سعد العمال الإيطاليون بتلك النقاط التى تحرزها الثورة ، لدرجة أنهم عقب تولى البارودى رئاسة النظارة أقامت « جمعية الفعلة الإيطالية » حفلاً كبيرًا ابتهاجًا بهذه المناسبة الوطنية ، وتقرر فيه إرسال برقية تأييد لقيادة الثورة[٣] ، لتعبر عن لسان رئيسها « عن ارتياحها إلى ما حصل عليه الحزب الوطنى بسبب مساعيه الوطنية فى الفوز الذى كان من نتائجة تأليف النظارة الجديدة ، ولأننا أمة جاهدت للحصول على استقلالها حتى وصلت إليه ، نود أن نوافق رغبات الأمة المصرية المصحوبة بالحزم وحسن التروى صالح النجاح »[٤] وقد أجابه البارودى شاكرًا . وفى أثناء الحرب قدم بعض الإيطاليين مساعدتهم للثورة ، وقد أتهم بذلك « هنرى مالانستا » ومثل أمام المحاكمة عقب نهاية الثورة ، لكنه تمكن من الهرب[٥] .

(ب) الخارجى

وجدت الثورة العطف والتعضيد من القنصل الإيطالى الذي كان له نشاطه الملحوظ ، حتى وُصف بأنه « صديق حميم لعرابى »[٦] . وكان جزاؤه على ذلك سحبه من مصر ، فيذكر تقرير نمساوى « لن يعود الكونت جلوريا قنصل إيطاليا هنا إلى منصبه ثانيًا ، لقد كان من العاطفين على عرابى ، ولم يكن يكتم عطفه هذا ، فبقى فى البلاد بعد ضرب الإسكندرية ولم يفارقها إلا بعد ذلك ومعه الجزء الأكبر من

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .
(٣) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٥ .
(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣١ فى ١٢ فبراير ١٨٨٢ .
(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٧ .
(٦) Archives de maison , de cour et d'etat , Vienne , Fasc XXX1/9 , 19 Fev. 1882 , p. 2 .

الجالية الإيطالية إلى جانب عدد كبير من أفراد الجنسيات الأجنبية الأخرى الذين أسبغ عليهم حمايته ، ففارق القاهرة بهم إلى الإسماعيلية ثم إلى بورسعيد ، ومنها إلى إيطاليا رأسًا ، وفى موطنه استقبل استقبال الأبطال ، واحتفى به الصحفيون وأجروا معه الأحاديث وأقاموا له المآدب ، وفى إحداها صرح بشكل علنى برأيه فى الخديو وعرابى والأزمة المصرية ، وفى اليوم التالى وجد كل ما قاله كلمة بكلمة مذكورًا فى إحدى الصحف ويظهر أن مضمون ذلك المقال لم يكن ليسمح لوزير الخارجية أن يعيده إلى منصبه مرة أخرى فى القاهرة »[١] .

حقيقة لقد كان موقف إيطاليا مشوبًا بالعطف تجاه الثورة ، لكنها ترضخ للرأى الأوربى وخاصة الإنجليزى وتعمل له حسابًا ، وهي منذ البداية تخشى من تصرفات بريطانيا وفرنسا تجاه مصر إذ صرح « مانشينى » بأن مذكرة يناير المشتركة سيكون لها الأثر السيئ على مصر وسببًا فى اندلاع نار الوطنية لدى المصريين[٢] .

وعارض الرأى العام الإيطالى السياسة الإنجليزية فى مصر ، وأيد الثورة وأطلق عليها « الشعور الغريبالدى »[٣] ، ويذكر صابونجى إلى بلنت فى ٨ يوليو ١٨٨٢ أنه « أثناء وجوده مع عرابى تسلم خطابًا من إيطالى مهذب يرجوه فيه أن يقبله كمتطوع فى الجيش المصرى ، ويبين له أنه كان فيما سبق فى الجيش الإيطالى تحت زعامة غاريبالدى ، ويرغب أن يحارب من أجل حرية مصر »[٤] ، وفى روما جرى اكتتاب للراغبين فى التطوع لمساعدة المصريين والدخول تحت أوامر عرابى ومحاربة الإنجليز ، وكان زعيم هذه الحركة « منوتى غاريبالدى » الذى نشرت الصحافة مجهوداته[٥] ، وتكونت بالفعل فرق من المتطوعين تحت زعامته للوقوف مع الثوار أمام المعتدين[٦] .

وشارك فى الحماس العسكريون الإيطاليون الذين رغبوا فى السفر لمصر ، « غير أن البحر كان مأخوذًا تحت مراقبة المراكب الإنجليزية والمواصلات كانت منقطعة تقريبًا بين مصر وأوربا »[٧] . وذلك هو الحاجز أمام الاستفادة من تلك

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، رقم ١٨٥ سياسى ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٢) Polit Archiv , Egyptsche Frage , Fasz XXX1/24 , No. 4 . A.E. 20 Jan. 1882 .

(٣) Wallaee , op. cit., p. 92 .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 552 .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٦) Duse . op. cit., p. 83 .

(٧) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

المساعدات التى كانت تأملها الثورة فى كفاحها من أجل الحرية[1] ، لكن هذا لم يمنع من أنه كان هناك من ساهم فى الحرب مع المصريين ، فقد حارب القائمقام الإيطالى مسيو « بولس » فى المعارك بعد أن لحق بعرابى فى كفر الدوار ، وعقب النهاية « التفت الجنرال وود فرأى الرجل بينهم (المصريين) وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هذا الذى أطلبه ، قال ذلك وسلمه إلى نفر من الإنجليز فساروا به إلى الإسكندرية ليجازى عما فعل »[2] .

وعندما أعلن توفيق عزل عرابى ، تأثر الإيطاليون بذلك ، فيقول قنصل النمسا « ومن الغريب أن يقف الرأى العام فى إيطاليا على خط مستقيم ضد مضمون هذا الإعلان ، واستخلص من خطاب لزميل إيطالى يقضى الآن أجازته فى روما أن دوائر اجتماعية معينة فى شبه جزيرة الأبنين تبدى حماسًا كبيرًا لعرابى وتعده بطلاً محررًا للشعب ، وهو حماس فى تصور الحكومة الإيطالية لا يتطلب منها أن تشارك بصفة خاصة فى التدخل فى مصر »[3] .

وواضح أن عرابى كان رمزًا للثورة والوطنية وحامل لواء الحرية ، وربط بينه وبين غاريبالدى الزعيم الوطنى الإيطالى ، فصحيفة « الكوريه دى فرانس » تأتى بالمقارنة وتميز عرابى عن زميله فى النضال « إن كل ما فعله الجنرال غاريبالدى فعل مثله وأحسن منه أحمد باشا عرابى ، وأن وقائع غاريبالدى وقع فيها سفك دماء ، أما وقائع عرابى باشا فلم تقع فيها قطرة دم واحدة »[4] ، ومن هنا أطلق على عرابى « غاريبالدى » مصر » أو « غاريبالدى النيل » .

وكان للصحافة الإيطالية دورها فى التأييد الثورى على اختلاف اتجاهاتها ، فاعتبرت ضرب الإسكندرية عملاً بربريًا ، ووصفت معاملة الإنجليز المتهورة للمدينة ، وازدرت الأسباب الواهية التى تزرعت بها بريطانيا بشأن حماية الأوربيين وممتلكاتهم من تعصب الوطنيين[5] .

وتكتب صحيفة « الدريتو الإيطالية » فصلاً تحت عنوان « مصر للمصريين » بينت فيه فضل مصر على العالم منذ العهد القديم وإشعاعات حضارتها عليه ،

---

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 262

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣٣٧ .

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، ١٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) الفسطاط ، عدد ١٠ فى ٢١ يونيو ١٨٨٢ .

(٥) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢١/٢٥ ، ١٧ يوليو ١٨٨٢ .

وسجلت « أن حركة الحزب الوطنى المصرى الحاضرة هى حركة حقة عادلة ، وأن الشعب المصرى يريق النقطة الأخيرة من دمه صونًا لاستقلاله ودفعًا للوقوع فى براثن الأسر ومخالب العبودية » وأضافت أن دول البحر المتوسط لن تترك مصر بين يدى بريطانيا وفرنسا[١] .

كما عرضت صحيفة « الأبنيونة » ما قاست منه مصر على يدى إسماعيل وما حدث من البلاء والشر الذى سببه « الفوائد الفاحشة لسد نهمة الإنجليز والفرنساويين ، وأن قلم المراقبة أضر بالفلاحين ، وأن السير رفرس ولسن والمسيو دى بلنيار تصرفا حسب ما تقتضيه مصلحتهما الذاتية وأصبحا فى غاية اليسار » وأشارت إلى أن الواجب على أوربا عمومًا وإيطاليا خصوصًا الا تخمد ميول المصريين الوطنية ، كما نددت صحيفة أخرى إيطالية بما فعلته بريطانيا ونسبت إليها دمار الإسكندرية ، ورأت ضرورة إلزامها بدفع التعويض عن ذلك[٢] . وعليه نلمس حقيقة الموقف الإيطالى المتعاطف مع الثورة .

ويجىء دور ألمانيا والنمسا فى هذا المجال ، والواقع أن الدولتين لم تؤيدا استمرار توفيق على عرشه ، وتتوافد البرقيات على عرابى لتحمل معانى المساندة والتشجيع لخطوات الثورة[٣] ، وتأتى الأخبار إلى القادة فتريحهم وتعطيهم الثقة « إن بسمارك يهنئ السلطان بوجود قوتين يصادم بهما من عاداه ، إحداهما تركية والأخرى مصرية وإن العساكر المصريين منصورون والإنجليز دوامًا مقهورون »[٤] .

وكانت الصحافة الألمانية تتابع بالنشر الخطوات التى تتخذ لعزل الخديوى وتولية غيره[٥] ، وذلك اتفاقًا مع ما تنادى به الثورة ، وتمضى فتشن هجومها على الإنجليز ، فترى صحيفة « كولونيه » البروسة الرسمية أن حادثة ١١ يونيو ١٨٨٢ « هى بدسائس بعض الإنكليز وبواسطة نقود دفعوها لذلك »[٦] ، تلك الحادثة التى

---

(١) الجنة ، عدد ١١٧٦ فى ١٢ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) الوطن ، عدد ٢٤٤ فى أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، ٥ مايو ١٨٨٢ .

(٦) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

قامت ضد الأجانب . وكان من الممكن اتهام المصريين بها ، لكن إلقاء التبعة على الإنجليز دليل على الرغبة فى عدم إشابة الثورة المصرية .

كذلك الصحافة الروسية عدت عرابى زعيمًا قوميًا يريد أن يحرر بلاده من أطماع الغاصبين الأجانب ، كما رأت فى حريق الإسكندرية شبهًا مماثلاً لحريق موسكو ، وأثنت على القوات المصرية فى حربها مع الإنجليز ووصفت شجاعتهم وحملت على الإنجليز[١] .

وكان من يطلع على كثير من تلك الصحف يتضح له كما يذكر عرابى « أن الأميال العمومية كانت فى ألمانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا منحازة بحق إلى المصريين »[٢] . وزاد هذا الأمل فى الانتصار والرقوف بجوار القضية المصرية ، ويؤكد سليم النقاش - وهو شاهد على الأحداث - ذلك بقوله « إن العرابيين كانوا يتلقون هذه الأقوال والمنشورات ويزدادون بها ثباتًا على عزمهم وتيقنًا بأن فوز إنجلترا فى محاربتهم من رابع المستحيلات »[٣] .

ولم يكن هناك من أعلن معارضته للثورة التى أمكنها أن تنال جذب العطف الأوربى حتى سويسرا وبلجيكا كان لهما الميول القوية تجاهها[٤] ، وقد أظهر بعض العسكريين الألمان والسويسريين الرغبة فى الإنضمام لجيش مصر المحارب ، فعرضوا أنفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين ، والبعض كان يطلب وسيلة للنقل ، والبعض لم يكن يطلب كالألمان إلا تعيين الضابط الأكبر باسم رفيع فى الجيش[٥] ، لكن عاقت رقابة الأسطول الإنجليزى إتمام ذلك .

أما بالنسبة لفرنسا ، فموقفها من الثورة واضح من خلال الأحداث ، ولكنها عند العدوان المسلح انسحبت فى آخر لحظة ، وكان للثوار نظرتهم تجاه فرنسا منذ أن وقف معهم قنصلها « دى رنج » كما كان فى فرنسا أحرار عضدوا الثورة[٦] ،

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٣١ ، رقم ٥٩ ب ، ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ص ١٨٣ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 552 .

(٥) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٦) Biovès , op. cit., p. 153 .

وتحقق اللقاء الروحى بين بعض الفرنسيين وقادة الثورة ، فتأتى الخطابات لتنم عن الود والتعاطف وتلك العلاقة التى تربط بين الشعبين الفرنسى والمصرى منذ القدم[١] .

وفى ٣٠ يوليو ١٨٨٢ عقد العمال فى باريس اجتماعات أدانوا فيه التدخل الإنجليزى ، ونددوا بموقف الحكومة الفرنسية المحايد[٢] ، ورأت بعض الصحف الفرنسية أن ما قامت به بريطانيا تجاه الإسكندرية عمل غير إنسانى « لم ينتج عن ذلك العمل الحربى سوى تخريب مدينة حصينة ، وهى أعظم مدن سواحل أفريقيا الشمالية ثروة وغنى ، وجلب العناء على أهاليها الذين لم يجنوا ذنبًا ، وأن ما حدث فى الإسكندرية بعد ذلك من الذبح والحريق ، فهو إن كان مقصودًا أو مرتبًا على اختلاف فى التدبير ، منسوبًا إلى السياسة التى أوجبت إطلاق المدافع على الإسكندرية »[٣] .

كما كانت بعض مناقشات البرلمان الفرنسى تعطى الآمال فى أن فرنسا تنظر بعين الارتياح إلى مطالب المصريين الخاصة بحقوقهم ، فنرى « كليمنصو » يشير إلى أن مصر كانت منهوبة ومسلوبة ومملوكة للأوربيين ، وينتقد المراقبة والمرتبات الضخمة التى يتقاضاها الأجانب[٤] . وقوّى ذلك اعتقاد الثوار بإمكانية نُصرة فرنسا لقضيتهم ، فنرى أحمد رفعت يلجأ للصحافة الفرنسية لكى يعرض على صحافتها القضية المصرية ، فيحرر لصحيفة التان يقول « إن أحد أبناء الشرق محبًا لوطنه والحق راغبًا إتفاق بلاده مع أوربا خصوصًا فرنسا ، وإن ظلم الإنجليز الآخذ فى الازدياد يخول له الحق بالاستنجاد بكافة القوى الإسلامية ، وأن المسألة الآن ليست منحصرة فى الميرآلاى عرابى ، لأن تداخل الإنجليز قلبها لموضوع آخر ، وما عرابى إلا خادم للأمة چنرال لها يعضده خمس ملايين من المصريين ، بالإضافة إلى السودانيين ، وحايز لميل عموم المسلمين ومحبتهم »[٥] .

---

(١) Ninet , Arabi Pacha , p. XXXV.

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، ص ص ١٦١ ، ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٦ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٨ فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

ويتضح أن هذا الأسلوب كان شبيهًا بما قام به مصطفى كامل فيما بعد ، وقد حمل هنا التهديد بين طياته ، ورأى إمكان استغلال العداء التقليدى بين بريطانيا وفرنسا ، لكن فاته أن المصالح تتصالح ، وأن فرنسا كانت قمة فى التطبيق الاستعمارى .

وأخيرًا ماذا كان موقف أحرار الإنجليز من الثورة ودولتهم صاحبة العدوان على مصر ؟ لقد أعطوا الأمل للثورة فى مساندة مطالبها الوطنية ، وتم نقل ذلك عن طريق بلنت ، فوجد القبول والراحة لدى الثوار وشجعهم على المزيد من العمل والتصميم ، ففى برقية من ماكدونالد إلى عرابى يقول له « تقدموا أيها المصريون فلا خوف من جهة الأمة الإنجليزية لأنها موافقة على ما يختص بحال الفلاح ، فلتخفض حال المتلفين للأحوال المالية بالإشاعات الفاسدة ، تعيش الأمة المصرية »، وأخرى بنفس المعنى من شارك ديلك[١] ، الذى صرح بحق المصريين « فى إقامة إدارة لبلادهم تجعل رجوع الاستبدادإليها محالاً ، فهم من هذا القبيل جديرون بالتأييد »[٢]، ولكن يجب أن نذكر أنه كان أحيانًا يظهر سياسته الناقمة على الثورة[٣] ، وهذا شىء من سمات بعض أعضاء البرلمان الإنجليزى .

وآمن الثوار أن حزب الأحرار معضد لهم ، وأنه من الممكن عن طريقه التأثير على الحكومة وقيامها بدور مختلف حيال مصر غير الذى تسلكه ، وقد هاجمت صحيفة الديلى نيوز - لسان حال الأحرار وأبرز صحفهم - حزب الحكومة ووقفت منه موقف المعارضة[٤] .

وكان اتجاه جزء كبير من الرأى العام الإنجليزى يميل مع الثورة ويقف ضد الإجراءات العدوانية على مصر ، ففى ١٦ يوليو ١٨٨٢ عقد اجتماع فى لندن حضرة « وكلاء عن جمعيات العمال الإنجليز للنظر فى سير الحكومة فى المسألة المصرية وحضره أيضًا بعض أعضاء البرلمان ، فاستقر الرأى العام أنهم يعرضون على رئيس

---

(١) المفيد ، عدد ٣١ فى ٥ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) مصر ، عدد ٩ فى ٦ فبراير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 220 .

(٤) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٨ ، المجموعة ٨/١٠٠ ، رقم ٣٠ هـ ، ١٥ يونيو ١٨٨٣ .

الوزارة كدرهم من ضرب طوابى الإسكندرية ، ومعارضتهم لكل تداخل حربى فى أمور مصر الداخلية حيث لا سبب شرعًا ، وأن يطلبوا من الحكومة استدعاء الأسطول سريعًا وإيقاف هذا القتال المتجاوز الذى لا داعى إليه سوى صالح البنكيرية »(*) . وبذلك يتبين أنه كان هناك من يؤيد الثورة المصرية حتى فى الدولة التى وقفت أمامها وانتصرت عليها ، وسيتضح الموقف المشوب بالعطف تجاه الثوار أثناء المحاكمات .

ولعل تلك المواقف الأوربية جعلت قادة الثورة يعطون المزيد من الثقة فى صعوبة انفراد بريطانيا بمصر ، وعليه غفلوا عن ألاعيب السياسة وفنونها ، إذ أن الحكومات سرعان ما تغير وتبدل من مواقفها وفقًا لصالحها وخاصة فى هذه الفترة التى بلغ فيها المد الاستعمارى أقصاه ، وقد وضح ذلك فى مؤتمر الآستانة ، لكن إذا تركنا الحكومات جانبًا فإن الشعوب الأوربية كانت صادقة الرغبة لنصرة الثورة إذ رأت فيها ثورة قومية عاشتها .

والواقع أن هذه التأييدات العالمية للثورة المصرية كان يمكن استغلالها من أجل نصرة القضية المصرية بتكوين جبهة موحدة تقف أمام بريطانيا وتجبرها على التراجع والانسحاب ، لكن قصر الوقت أضاع الفرصة ، كما أن الظروف التى أحاطت بالثورة لم تساعدها على انتهاز المواقف ، ويجب أيضًا أن نضع فى الاعتبار أن التسلط الاستعمارى على معظم العالم العربى والإسلامى يمكنه فى الحال القضاء على أية حركة مناهضة له .

■ ● ■ ● ■

(*) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٨ فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ عن صحيفة « بال مال جازيت » وهى الوحيدة التى كان جلادستون يقرأها بإمعان . Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 220 .



الفصل الحادي عشر

الفلاحون .

الفصل الثاني عشر

التجار والحرفيون .

الفصل الثالث عشر

الجناح المدنى من المثقفين .

الفصل الرابع عشر

ملاك الأراضى .

الفصل الحادي عشر

الفــلاحـون

... نمـو الـوعـى

كـان اشتـراك الفـلاحين فى الثورة العـرابيـة ضـرورة ملحة أوجـدتهـا الظروف الصعبة التى عـاشوا فيها طوال العصر الحديث ، فثورتهم كـانت ثورة اجتمـاعية سياسيـة ، فبالنسبة للأولى نجد أنها استهدفت تحقيق تغيير جذرى فى الحياة ، بهدف إيجاد عدالة اجتماعية حرموا منها ، أما الثانية فقد كان الفلاحون منذ هذا الوقت المبكر على فهم وإدراك ووعى بأنه من الضرورى أن تتغير الهيئة الحاكمة التى تمثلت لهم فى الظلم والطغيـان والسيطرة التـركيـة والتحكم الأجنبى ، لكن ثورتهم الاجتماعية كانت أشـد قوة وأعمـق أثرًا ، حيث إنها لم تقم لمجرد مشيئة فرد معين أو بناء على إرادته ، لكنهـا استلزمت لقيـامهـا ظروفًـا مـوضـوعيـة - دخل تحتهـا الضرائب والسخرة والظلم والتعدى والاغتصاب وتحكم الأجانب ،- كانت تزداد يومًا بعد يوم ، حتى أن الفلاح أصبح لا يمتلك سوى قوت يومه وأحيانًا قد لا يجده ، فكان بديهيًا أنه عند قيام ثورة أن ينضم إليها بسهولة .

وبدأت اليقظة الثورية لدى الفلاحين ، فكانت حقيقة واقعة عاشوها ، جعلتهم مدركين لكل التحركات السيـاسيـة التى بدأت مع الثورة فى قصر النيل على أيدى العسكريين من أبنائهم ، فكان لهم بطبيعة الحال رد فعل قوى انطبع عليهم ، هذا فى الوقت الذى تلاحمت فيه القوى المنشطة لاستعجال ثورة الفلاحين وإطلاق شعورهم الجياش . فقد كان من الضرورى وجود من يُفتّح أذهانهم ، ويوضح لهم معالم طريق الثورة على الأوضاع القائمـة ، هذا كان دور المثقفين من طلبة الأزهر ، وما هم إلا أبناء فلاحين ، فكانوا عند زيارتهم لقراهم يقيمون ندواتهم التى يتحدثون فيها إلى أهلهم وذويهم ، ويعرضون تاريخهم الطويل الذى امتلأ بالظلم على أيدى أجانب عن

أرض مصر ، سواء أكانوا الحاكمين من الأتراك وما يتبعهم أم المتحكمين من الأوربيين، وأنه لابد من بتر هذا الوضع والتحرر ، ووضع النهاية التى ستكون على أيديهم ، وأن مخلصهم هو فلاح منهم ، إنه عرابى[1] ، هؤلاء الأبناء الذين تشربوا تعاليم الأفغانى فحركت مشاعرهم ، فقاموا بتبسيطها للفلاحين ليفتحوا أذهانهم ولينيروا عقولهم ، كما أن محاولات الأفغانى لإثارتهم منذ البداية « أنت أيها الفلاح المسكين تشق الأرض لتستنبت ما يسد الرمق ويقود بأود العيال ... لماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك ؟ »[2] ، كان لها أثرها فى الريف ، لكنها لم تنفذ إليه بعمق .

وبرز دور المعلم الذى أمكنه التوغل فى داخل الفلاحين ومعايشتهم عن طريق صحافته الشعبية التى ألهبت الحماس ، إذ أنه وقَّد التيقظ لكل فئة بطريقتها ، وأوصل أفكار الحرية والمساواة إلى الأعماق وعلَّم النقد اللاذع المبنى على السخرية، وهذا يتفق مع طبيعة الشعب المصرى الذى لا يترك مجالاً إلا وأظهر فيه الفكاهة ولو كان فى أحلك فتراته ليخفف عما به من مصائب ، ذلك المعلم هو يعقوب ابن صنوع ، وبالرغم من أنه وقت الثورة كان خارج مصر ، فإن كتاباته وصحفه تم تداولها داخلها وتواجدت بين الفلاحين ، فيقرؤها عليهم من يعرف القراءة ، فهى مكتوبة بلهجتهم وأفكارهم ، وموضوعاتها تتفق وإياهم ، فتأثروا بها إلى أقصى درجة بدليل هذا الانتشار الرائع ، وهذا الترديد لحوادثها وقفشاتها ، حتى أصبحت محاورات على ألسنة فلاحى قرى مصر كلها ، ومع الحصار القاسى والرقابة الشديدة التى كانت مفروضة عليها فإنها كانت تصل إلى أعماق الريف .

وتناولت يده تصوير الفلاح شامخ الأنف بينما الحاكم راكع، فقد أحب شخصية الفلاح إذ عدها الممثلة للمصرى الأصيل ، وأراد أن ينير له الطريق ويوقظه من غفلته فى تلك الفترة التى تفشت فيها المظالم الواقعة عليه ، وحاول أن يدفع « أبو الغلب وأبو شادوف » كما كان يطلق عليه إلى الثورة والانتقام ، ودائمًا يبصره بحقوقه وأمواله المسلوبة فى كتاباته .

وأعطانا يعقوب بن صنوع التحركات الأولى للفلاحين عقب قصر النيل « ده أهل مصر اليوم قامت وقعدت والواد ووزيره ومحاسبيهم انصابوا بعيد عنك بالفالج

(١) Wallace , op. cit., p. 290 .

(٢) السيد محمد رشيد رضا ، المرجع المذكور ، ص ص ٤٦ ، ٤٧ .

أعوذ بالله وسبب ده كله قيامة الفلاحين بالقرب من طنطا ، أصل لما بلغهم ثورة الضباط ورفت ناظر الجهادية دخلت قلوبهم الجسارة والحمية ، وفاقوا من غفلتهم وقاموا بالبنابيت على أحمد بك والمدير الظالم ماخلوا لا وراهم ولا قدامهم ، آه يا خسارة إن مجاش الهوا سوا لأن أبو ريضه حالا بعت لحبيبه المدير مقدار ألف عسكرى ، وطلعوا من عيونهم العلقة ، وأبو ريضه نده الساعة خامسة من بعد نصف الليل جميع محررين ومديرين الجرائد المحلية من افرنج وأولاد عرب ، وقال لهم بإن من الآن وصاعدًا من تجاسر منهم وتكلم عن الثورة الضابطان ، أو قيامة الفلاحين حالا إدارة المطبوعات تصدر أمر بتعطيل جرناله ، فالزموا المساكين يقولوا له سمعًا وطاعًا »[١] .

وفى حقيقة الأمر فليس هناك مصدر آخر يؤكد هذه القيامة للفلاحين ، لكن لا يستبعد أن يكون ذلك صحيحًا لعدة أمور ، فهى لم تكن الحركة الانتفاضية الأولى ، إذ سبقتها حركة شبيهة فى عام ١٨٨٠ عبرت عن السخط ، فما بال بعد قصر النيل التى أعطت الدفعة لجميع قوى مصر ، ثم من المعروف أن جميع أخبار مصر كانت تصل للثائرين المصريين فى فرنسا سواء كان يعقوب بن صنوع أو أديب إسحق فاستخدموها فى صحافتهما ، وأخيرًا فإنه لشيوع صحف الأول وتداولها بين الفلاحين ، كان يمكن لهذا الخبر أن يثيرهم ويزيد من حميتهم ويدفعهم لاتباع أسلوب العسكريين ، حيث إنه قائد طليعتهم ، الذى بلور أفكارهم وعلمهم السياسة بطريقته ، وعبر عن سخطهم أصدق تعبير .

وجاء النديم ليحمل مشعل الثورة على المفاسد التى عانى منها الفلاحون ، فجعل سبيله للتحدث معهم بذلك الأسلوب القريب إليهم ، فإنهم الدعامة الأساسية والقاعدة الشعبية التى لابد لكل قائد أن يعتمد عليها لتحقيق أهدافه الثورية ، وظهر ذلك فى كتاباته لهم ، والتى بدأها فى صحيفة التنكيت والتبكيت لإيقاظهم مما هم فيه وتنبيههم إلى الأخطار المحيطة بهم ، وقد اعتمد كسابقه على النكتة المثيرة التى تؤثر فى المصريين ، ولكن بصورة تختلف عن الأسلوب الساخر ، فالنديم يرثى حالهم ويركز على ضرورة التغيير « فالفلاح الصادق فى هذا البلد هو من تراه قليل الهدوء كثير الكلام ، رث الحال ، مفتوح الصدر ، دانى القدر ، حافى الأقدام ، كثير الأوهام ، عارى الساق »[٢] ، ويمضى فى الدعوة للنهوض به بعد أن يعدد المظالم التى وقعت

---

(١) الحاوى ، العدد ٣ فى ١١ مارس ١٨٨١ ، « الواد هو توفيق وأبو ريضه هو رياض » .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ٦ فى ١٢ يونيو ١٨٨١ .

عليه والبؤس الذى يعيش فيه ، ويهاجم الأجانب ورباهم الفاحش ويبين أن الفلاح كان يقترض بالربا من أجل أن يدفع لمحام أجنبى ليترافع عنه أمام المحكمة المختلطة التى تناصر خصمه وهو أجنبى(١) ، ويوجه النداء لإيقاظ الفلاح ، ويحث الأغنياء والمتعلمين على الأخذ بيده وفتح الأبواب أمامه وتقديم المساعدات له « فاقرأ عليه أخبار أمريكا بلسان يفهمه ، وحوادث فرنسا بعبارة يعقلها ، وصور له التقدم فى صور لا تبعد عن إدراكه وفهمه مقدار النعمة وموجبات الثورة ووسائط القوة وثمرة العمار ، وأن الجهادى عليه مدار حفظ الوطن والنفس والجنس ، ليكون أوسع ساع فى الانتظام فى الجندية الذى علم بالثمرة المترتبة عليه بعد أن كان منه نفورًا ، فإنك إن فعلت هذا انبعث فى الفلاح روح جديدة فى طلب التقدم، وجاهد فى إحسان زراعته ونمو حاله ، وظهر فى الوجود إنسانًا يحفظ له تاريخ كباقى العقلاء »(٢) .

وواضح أنه لم يكتف بالحث على النهضة بالفلاح فقط ، وإنما بإلحاقه فى سلك العسكرية أيضًا بعد أن أصبح لها كيانها المرموق عقب قصر النيل ، كذلك وجهه إلى الإقلاع عن التعامل مع الأجانب الذين أفسدوا البلاد بالحانات التى انتشرت فى الريف ، وراح يثير الفلاحين ويحمسهم ضد ساداتهم الأتراك الذين ألصقوا بهم تهمة أنهم فلاحون « فبعد أن يعد الفلاح أرض الباشا التركى ويستحمل العذاب والهوان لخدمتها وإحيائها ، وعندما يلجأ هذا المسكين لصاحبها لا طالبًا مجدًا ولا مستجديًا قوتًا بل ليخبرهم بإصلاحها ونجاح الغرس ، أنفوا من دخوله عليهم ، وغضبوا من وجوده فى مجلسهم ، وقالوا : من أنت ؟ ومن أدخلك علينا ؟ ومن جراك على بيوت العظماء ومجالس الأمراء ؟ إمش إطلع بره فلاح ، فأصبح الفلاح كلما حول نظره وجد غريبًا ، وكلما سرى صدمه أجنبى »(٣) ، كما كان يوجه الفلاحون للتمرد على السخرة(٤) . ونجحت رسالة النديم فى التنكيت والتبكيت ، وتابع إثارة الفلاحين فى صحيفة الطائف التى رفعت من الروح المعنوية لشعب مصر ، إذ غدت البلسم الذى أراحهم لدرجة أنه عند تأخرها على بعض المناطق البعيدة كانت ترسل الخطابات لأجل استعجالها .

(١) المصدر نفسه ، عدد ٨ فى ٣١ يوليو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٠ فى ١٥ أغسطس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١١ فى ٢١ أغسطس ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، عدد ١٣ فى ١١ سبتمبر ١٨٨١ .

وسارت المفيد وهى صحيفة ثورية على نفس الأسلوب ، فحركت الفلاحين « إن الفلاح لهو السيد فى صورة العبد ورب الدار فى موقف الخادم »[١] ، وهاجمت الربا وتذلل الفلاح للسماسرة والمرابين وضرورة الوقوف أمام هذه السلطات الداخلية .

وبذلت الوقائع المصرية على يد محمد عبده الجهود من أجل ذلك ، ففاضت مقالاته عن الظلم والاستبداد وتصوير بؤس الفلاحين وآلامهم فى الضرائب والسخرة والكرباج والفقر والسجن « الفلاحون أهالى بلادنا محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب متنوعة على الأراضى ، فتكثر وتتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، وجرائم تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام لا تنتهى إلى غاية ولا تقف عند حد ، بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشىء مما فرض عليهم »[٢] ، وكان لصحافة الثورة ونظرتها للفلاحين من ناحية ، وتقبل الفلاحين لما تعرضه من ناحية أخرى الأثر الكبير فى تفتح أذهانهم وإحساسهم بأن هناك من يهتم بهم ويسأل عنهم وينتقد أوضاعهم ويتكلم بلسانهم ، ومن هنا أرادوا تطبيق مبادئها وتوجيهاتها .

وكان لنزول الطليعة المثقفة إلى العمل الميدانى الأثر الكبير على الفلاحين ، فقد طاف النديم بالبلاد وارتقى منابر المساجد وجلس مع الفلاحين يشعل نار الثورة فى قلوبهم ويحرضهم للذب عن حقوقهم ، حدثهم فى دمياط والرحمانية ودسوق وزفتى والمنصورة وميت غمر عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء والحكام الذين يعيشون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمراقص والغانيات وينفقون الأموال ذات اليمين وذات الشمال وما هى فى الحقيقة إلا أموالهم ، وأنهم أساس النعمة وأسبابها يجمعونها بعرقهم ودمائهم من فلاحة الأرض وتربية الماشية ليأخذها الأغنياء ويبعثروها على ملاذهم ومتعهم[٣] ، وكان قادة الثورة قد وكلوا هذه المهمة للنديم .

وأصبحت الخطب التى تخطب فى جميع مساجد مصر أسبوعيًا تتناول الإصلاح السياسى والاجتماعى ، والأخطار المحدقة بالأمة ، حتى لقد طلب النديم

(١) المفيد ، عدد ٢٧ فى ٢٣ يناير ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

(٣) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٠ فى ١٥ أغسطس ١٨٨١ .

من ديوان الأوقاف أن يسمح بإلقاء هذه الخطب وأن تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد ، ليصل صداها إلى كل قرية وبلدة وتتضمن المحافظة على حقوق البلاد والنهى عن الظلم والبغى والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار والإتحاد مع المواطنين من غير نظر إلى اختلاف فى الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والتحذير من تمكين الأجنبى من وضع يده على سياسة البلاد[1] .

وكان الفلاحون يتسمون بذلك الطابع القوى من الإيمان العميق ، وهنا كان العامل الدينى واضحًا فى الثورة ، فالإسلام دين ثورة على الأوضاع الفاسدة القديمة ، وهو يرفض الظلم والعدوان وسوء الأخلاق ، ثم هو يدعو لمحاسبة الحاكم إذا ظلم رعيته ، وعزله إذا استمر فى الظلم ، وهذا مما سيجعل للثورة ذلك الإطار الدينى ، وبالرغم من كراهية الفلاحين للأتراك ، فإنهم يقبلون حكم السلطان كحاكم للمسلمين ، حيث إن للإسلام قدرة لديهم ، لكن ليس معنى هذا أنهم متعصبون له ويكرهون المسيحيين كما اتهمهم معظم الكتاب الأوربيون .

أساء الخديو وحكومته إلى الفلاحين إذ عدوهم جهلاء لا يساوون أى قدر فى الحياة ، إنما هم الآلة التى تعمل من أجلهم والبنك الذى يسدد لهم ديونهم ، وفى نظر الأجانب كانت عملية غريبة أن يشترك الفلاحون فى ثورة ، إذ اعتبروا أن الحركة الوطنية ما هى إلا أسطورة ، وكل ما اعتقدوا فيه أن على وادى النيل فلاحين يعيشون تحت السياط ، هؤلاء الفلاحون عاشوا أحلك الظروف وخضعوا للعبودية التى كللت بالسيطرة الأوربية على يد المراقبة الثنائية فأصبح « عملهم للولاة وأموالهم للأوربيين » ، وكتبت صحيفة « لانوفيل روفيو » « كان الأليق بشرف المستر جلادستون أن يعترف بأن تعدى المراقبين المالى والإدارى أوصل الفلاح إلى درجة من التميز ، وأن التعليمات الأوربية كونت من الجموع المصرية شعبًا صار أمة »[2] ، لذا كانت صيحة مصر للمصريين لها أصداؤها الواسعة بين الفلاحين الذين دمروا تحت أسوأ الظروف .

وراح مراسل صحيفة « البول ميل جازيت » يسجل إدراك الفلاح الذى خلقته العناصر الغريبة عنه والمستغلة له إذ يقول « من المؤكد أن الفلاح لا يعرف كثيرًا عن المسائل السياسية ، ولكن خبرته بتدخل الأتراك والأوربيين فى شئونه تجعله ينظر

(١) على الحديدى ، المرجع المذكور ، ص ١٢٦ .
(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ١٨١ .

إلى هذا التدخل بعين الشك . فالأتراك يلجأون إلى الكرباج ليبتزوا منه كل ما يمكن من القروش التى يملكها ، كذلك يلجأ المرابون اليونانيون والإيطاليون إلى المحاكم المختلطة ليفعلوا نفس الشىء ، فهل من العجيب إذن أن يعضد شيخ قريته وعن طريقه الحزب الوطنى »(*) ، وكان ذلك اعترافًا من صحيفة أجنبية بأن الفلاح أصبح ملمًا بالشئون السياسية .

وتثبتت الأفكار التحررية فى أعماق الفلاحين وأصبحوا على درجة كبيرة من الوعى أفهمتهم جميع الأحداث الجارية التى راحوا يتابعونها باهتمام وحماسة ، كما أن ما تم على أيدى العسكريين منذ البداية أعطاهم الأمل الكبير فى الجيش ورجاله، وأيقنوا أن هناك قوة من طينتهم يمكنهم الوقوف خلفها .

وانطلق دور الزعيم فكان القوة الصلبة الدافعة للفلاحين ، وتتجسد الثورة فى شخصية ويتحول إلى بطل أسطورى بل ولى من أولياء الله الصالحين ، فهو سيقودهم إلى الخير وسيكون حكمه يفيض بالعدالة ، سيقضى على الخراب والدمار ليبنى مجتمعًا جديدًا فى ظل المساواة التى تؤكد حقوقهم ، ولا سيادة للغرباء ، سيطيح بعلاقات الإنتاج القديمة ومصالح الطبقات الرجعية ليضعهم فوق كل اعتبار، كان القائد فلاحًا من هؤلاء الفلاحين ، أحس بأهله وناسه ، فأصبح من الطبيعى أن تنصب دعوته لهم على تخليصهم من المظالم والقسوة التى يعيشونها ، ولم يعد القائد فقط ، وإنما هو الحق بعينه ، وبه أمكن لهم أن يتكلموا ويجهروا بل ويثوروا من أجل حقوقهم المسلوبة بعد أن كانت السياسة محرمة عليهم .

إذن يرجع الفضل فى هذه النهضة لتلك الشخصية التى جاءت لتثار من تلك الأحداث التى تراكمت على مصر ، ويجب أن نذكر أنه فى تاريخ مصر كله ، ولم يبرز فلاح بسيط يصبح ذا مكانة سياسية يقود شعبه إلى الإصلاح ، فقد اكتسب ثقة الفلاحين وراح يعمل من أجلهم ، وغدا اسم عرابى يتردد على الألسنة كرجل استطاع أن يتحدى الحكومة الأوتوقراطية وينجح ويرغمها على تغيير النظار ، وتسمع له وتنفذ ، وكتب محرر صحيفة التيمز وليم جريجورى يقول « إن هذا الانقلاب الذى يعبر عنه باسم المحبة والاعتبار فى كل بلدة بها الظلم والاعتساف هو بواسطة الكولونيل أحمد بك عرابى ، وهو أحد الرجال المشهورين الذين يظهرون فى الأزمات، أنصار الحق ضد القوة والضعيف ، ضد الأقوى والمظلوم ، ضد الظالم ،

(*) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الثورة العرابية ، ص ٥٩ .

وقد كان ظهوره فى وقت اشتد فيه انعقاد الظلم فى عين الفلاح المصرى ، إذ كانت حالته أقرب إلى حضيض الفقر بسبب مطامع حضرة إسماعيل باشا الخديو السابق[1] ، وقد أخطأ جريجورى فى وصف الثورة بأنها انقلاب فى بدايتها لأنها منذ البداية كانت ثورة لاستجابة قوى الشعب ، ولها الجذور العميقة فى وعى الأمة ، وأحاسيس الطبقات الاجتماعية ، وأنه لا يمكن أن يكون هناك استجابة بين الشعب والقائمين على أمر الانقلاب ، حيث إن الثورة تذوب فيها المصالح الذاتية وتبرز المصلحة الجماعية العامة فوق كل اعتبار ، لكن المحرر كان صادقًا فى تقييم عرابى بالنسبة للفلاحين .

وبذلك نرى أن لصلة الدم قوة كبيرة ربطت بين الطرفين ، وجعلت عرابى صورة صادقة للفلاح الذى أحس بكل ما فى أعماقهم ، ومن هنا خرج برنامجه لإصلاح حالهم ، بإلغاء الكرباج وتخفيف الضرائب وإنهاء الدين وهو الدودة التى تنخر فيهم وتقضى عليهم كالسم القاتل ، ووعدهم بالعدالة والمساواة « ولم تمض بضعة شهور إلا وقد ماجت البلاد بتلك الأفكار »[2] ، وأصبحوا مؤمنين بضرورة أن تكون مصر للمصريين فلا سيطرة تركية ولا تدخل أجنبى ، وتلك العقيدة لازمتهم طول الفترة ، ونجح عرابى فى تثبيتها بداخلهم ، وبذلك كانت ثورة قومية صحيحة .

وغدا عرابى الزعيم الأوحد بالنسبة لهم وكانوا يطلقون عليه « الباشا بتاعنا » فهم الذين يملكونه ، هذا فى الوقت الذى زاعت فيه شهرة عرابى على أرض مصر كلها ودوت تصريحاته لتحرير الفلاحين ، ومن ثم سيطر الحب على الإحساسات منذ البداية وطوال الثورة « فكانت إذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى أو أحمد عرابى لا سيما أهل القرى ، واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال »[3] ، وصدق بلنت حينما أكد أن « الحركة الوطنية لعام ١٨٨١ هى حركة فلاحية غرضها تحرير الفلاحين »[4] ، تحريرهم من كابوس الهيئة الحاكمة التركية ، وأخطبوط الأجانب المتشعب والمسيطر على الحياة المصرية .

---

(١) المفيد ، عدد ٢٢ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٨٩ .

(٣) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٠ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 144 .

الترجمة العملية للوعى

بناء على الإحساس ببداية تلك الحياة الجديدة ، ولم يكن قد مر عشرة أيام على قصر النيل ، حتى بدأت الأفواه تتكلم وتشكو وتتطلع للعدالة ، وجرت عملية واسعة من الجهر والمطالبة بالحقوق التى سلبت قبل الثورة بعد أن أصبح عرابى فى نظرهم كل شىء ، فغمرته شكاوى المظلومين ولم تكن تنهال عليه وحده بل اتسعت الدائرة إلى المسئولين جميعهم .

فقد حضر للقاهرة وفد من فلاحى ناحية « رأس الخليج غربية بشبين » للشكوى من أن زمام الأطيان ببلدهم ٢٤٠٠ فدان منها ٩٣٠ تتبع القومسيون ، ١٤٧٠ مكلفة « وأن الأنفار الشغالة الموجودة بالناحية سبق تقسيمها نصفين من مدة استيلاء الأطيان للعهدة ، ولما طلب بدلية الأنفار من النواحى التابعة للقومسيون صار إدخالنا وأنفارنا البدلية بدون علمنا ، وعلى ذلك صار أخذنا بالقوة الجبرية تارة بأجرة وتارة بدون لأشغال القومسيون ، وبانتهاء ١٨٨٠ صار حصول القومسيون على البدلية منا وأنفارنا بمقتضى سنوات ، وقد ترتب على ذلك إتلاف مزروعاتنا وعدم مقدرتنا على سداد ما هو مطلوب منا للتجار ، ويعقب ذلك امتلاكهم الأطيان تعلقنا وانحرامنا من المعاش ، وحيث إننا صرنا فى درجة التأخير ولم نملك سداد ما هو مطلوب منا بأوقاته لداعى ظلمنا تركنا أشغالنا وحضرنا »[1] .

وهكذا فبالرغم من أنهم دفعوا البدلية فإنهم طلبوا للسخرة لأراضى القومسيون ، وكان لذلك أثره على أراضيهم وحالتهم ، فجهروا بأصواتهم ضد إجراءات الدولة نفسها ، وهناك شكاوى أخرى تؤكد نفس المعنى من فلاحى ناحية « فوة بمديرية الغربية » يتظلمون فيها من تسلط خدمة القومسيون بالناحية عليهم « وأخذهم وتشغيلهم فى زراعة أطيان القومسيون بالقوة الجبرية » ، كذلك فلاحو « كفر نصارة وكفر يوسف سلامة بمديرية الشرقية » يتضررون من إلزامهم بطلوع أنفار للعملية ويلتمسون قبول البدلية[2] .

وكإحساس الفلاحين بأن الوضع قد تغير ، إزدادت شكواهم وعرض ما تعرضوا له لإيقانهم أن هناك من سيسمع لهم ويحل لهم مشاكلهم ، ففلاحون من مديرية « المنيا وبنى مزار » يتظلمون بأن « يوسف أفندى عبد الشهيد » استولى على زمام بلدهم البالغ مقداره ٥٠٠ فدان بالقوة الجبرية « وصرنا قاطنين بالبلد حيط من غير

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ١٠ فبراير ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٩ مارس ١٨٨١ ، ١٣ يونيو ١٨٨١ .

غيظ ، وتكررت شكوانا فما وجدنا إنصافًا »[١] ، معنى هـذا أن وقت الإنصاف قد حان .

وتبع ذلك مسألة العمل فى الجفالك وسخط الفلاحين عليها والرغبة فى تركها، فتقدم فلاحو ناحية « الشرابية » وناحية « العلوانية » بقسم قلوصنا بمديرية المنيا وبنى مزار يشكون من « أنه فى العام الماضى كنا مشاركين الجفالك السنية بتفتيش معصرة سمالوط فى القصب ، والآن صار كسره وتوريده بفاوريقة المنيا ، وإحالة أشغالنا ومطالبنا على التفتيش ، وما هو حاصل للأهالى من التعب الذى لا يطاق من خدمة التفتيش ومن زراعة القصب ، وصار تشتيت أغلب أهالى نواحينا، وما هو باق من الأنفار ليس لهم اقتدار على خدمة التفتيش مما أصابهم منه وصار اضمحلال حالهم »[٢] ، ويطلبون الانسحاب من التفتيش ، ولم يكونوا ليجرؤوا قبل ذلك على هذا الطلب .

وتتوافد على نظارة الداخلية الصفحات والصفحات التى تنطق بسخط الفلاحين على العمد واتهامهم بأنهم موجود لديهم أنفار حمايات ، ويعفون من السخرة من يرون ، بحجة أنهم أرباب صنائع وغفرة وطاعنين فى السن ، وبيان أن هناك اتفاقًا بينهم وبين مأمورى المالية ، ويطلبون الخروج من حصتهم[٣] ، وتمضى التماسات طلب العدل من الفلاحين ممن أخذت أراضيهم وسلبت أموالهم وخربت بيوتهم على أيدى الحكومة وأجهزتها .

وارتفعت أصوات المسجونين بسبب ما عليهم من أموال الميرى وغبنهم فى ذلك ، فأحدهم يتظلم بأنه قد ورَّد ١٤٠ أقة باذنجان قوطة ، ١٧٠ عدد بيت فجل بلدى ورومى ، ١٥ عدد بيت ملوخية إلى مطبخ السراى « ولم يخصم حقها مما يستحق عليه من إيجار أطيان ، وعندما طالب بذلك سجن ويطلب أنصافه »[٤] .

وقد اتضح أنه أمام هذه الأصوات تحركت الحكومة وأرسلت محققين من الداخلية للتحقيق فى أمور تلك الشكاوى ، ولم يكن ذلك ليتم قبل قصر النيل .

واهتم البارودى بأمر عساكره الفلاحين ، فنراه يرسل على الفور للداخلية بأن أونباشى بآلاى ناحية « مسطية » بمديرية الغربية أثناء وجوده ببلده بإجازته أراد

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٤ مارس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، أول أغسطس ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٣٧ ، ١٨ يونيو ١٨٨١ .

عمدة الناحية تشغيله بأطيانه سخرة ، وحينما رفض « فالعمدة وإخوانه أجروا رميه بالأرض وصاروا يضربونه بالكرابيج والمداس إلى أن أشرف على الموت ، وحضر مخدومه وأراد تخليصه ، فما كانوا إلا وصاروا يضربونهما ووضوعهما بالخشب والحديد وسجنوهما بمنزل العمدة أربعة أيام » ويطلب البارودى التحقيق الفورى[١]، وهذا من الدلائل على نصرة الفلاح فى عهد الثورة .

وكان للكراهية والحقد الذى صبه الفلاحون على الأجانب دوره فى هذا المجال بعد أن سلبوهم كل شىء ، فمن « ميت الشيوخ » دقهلية يلتمس ١٤ فلاحًا عدم خرابهم على يد الخواجة وسيلى وكيل قنصلية فرنسا بدمياط ، « حيث إنهم يمتلكون ٤٩ فدانًا سابق تسويتها عليهم بموجب تنازل من أصحابها الأصليين ، وذلك نظير سداد الديون التى كانت مطلوبة منهم للحكومة ، ومضى على ذلك ١٤ سنة ، أنفقوا فيها من أجل إصلاح الأرض ، وتداينوا عليها من التجار ، ودفعوا عنها المقابلة وكافة المطالب الميرية ، فاتفق أصحابها الأصليين مع الخواجة المذكور وباعوا منها ٢٥ فدانًا باسم والدته الست كاترين ، الذى قدم دعوى بمجلس المنصورة المختلط ، فحكم بأحقيتهم فى تلك الأطيان، فحضر الخواجة مع مأمور المركز وأراد نزع الأطيان بالقوة الجبرية ، ولما توقفوا عن التسليم أرسلوا للمديرية وصار وضع البعض منهم بالسجن والحديد »[٢] ، ومن ذلك نلاحظ أنه حتى لو تصادف وحكمت المحكمة المختلطة فى صالح الأهالى لم يكن حكمها ينفذ بعد أن سيطر الأجانب على مصر .

واشتكى فلاحو « نزلة العدوة » بتعدى الخواجة حنا سوريال وإخراجهم من الأراضى وأذيتهم على يديه بالضرب والسجن « وذلك عندما اشترى ٤٠ فدانًا بما فيه النزلة السكن المتداخلة ضمن زمام الأطيان بمشتملاتها من بناء ونخيل » وأظهر الفلاحون الطمن فى البيع ، وبأنه نوع من أنواع الغش وراحوا يطالبون بحقهم . ونرى شكوى لأحد الفلاحين من « سنحيد » بالدقهلية أنه « أخذ مبلغ من الخواجة جريس أسطفانوس ، ورهن له أرضه بميعاد ست سنوات ، وقبل مضى الميعاد بسنتين أحضر المبلغ بقصد تسليمه إلى الخواجة الذى رفض ، وباتحاده مع وكيل المديرية صار سجنه ، واستطاع الخواجة أن يستخرج حجة من محكمة المنصورة بتملكه تلك الأطيان »[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ، ٢٣ يونيو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٣٦ ، ٢١ مارس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، أول إبريل ١٨٨١ ، ١٠ يونيو ١٨٨١ .

وأثبتت تلك المعروضات الحالة التى وصلت إليها مصر من جبروت الأجانب الذى ازداد وطغى ، فقد طالب أهالى ناحية « شبرا بلوله » بمركز سبك منوفية بانتشالهم من براثن الخواجات الذين تحايلوا عليهم بالإتفاق مع مشايخ البلاد للاستيلاء على أراضيهم المزروعة قطنًا ، فإذا أقام كل من الخواجة دمترى بدريكو والخواجة دمترى كريازو - وهما تاجران بالقاهرة - وابورًا على ترعة الباجورية لأجل سقيه القطن على أساس إسقاء كل سنة ٢٥٠ فدانًا فى نظير مبلغ معين ، وعقد الشروط لمدة ثلاث سنوات ، لكنها لم تنفذ ، وجاء السقى أقل ، ففى السنة الأولى كان ١٨٠ فدانًا ، وتلاها ١٦٠ فدانًا ، فازداد أمر الأراضى سوءًا وقل إنتاج المحصول ، ثم أوقفوا الوابور كلية ، وطالبوا الفلاحين بـ ٣٠٠٠ جنيه ، وأدخلوا الرعب عليهم بأن الحكومة ستأخذ الأطيان جميعها « وإننا بواسطة تبعيتنا لحكومة مصر فلا لنا قدرة على رد تبعيات الدولة الأوربية » ، وأعقب ذلك إن خفضوا المبلغ إلى ٥٤٠ جنيهًا ، وكتبوا سندين بالمبلغ وجعلوه لخواجة آخر ، فأراد اغتصاب الأرض ، وحكمت المحكمة المختلطة بالمبلغ المحرر به السندان « وسجن أصحابها لمدة تزيد على ثلاثة أشهر لإجبارهم على إسقاط الأطيان بسعر ١٢ جنيهًا للفدان ، وهو يساوى زيادة عن ١٠٠ جنيه »[١] ومضوا يطالبون بالإنصاف وضرورة عودة أراضيهم وإبعاد الأفاقين والسارقين والنصابين .

وكانت الخطوة التى تلت الجهر بالآلام ، هى التمرد التدريجى ، فرفض فلاحو « كوم حمادة » الخروج للعونة ، بل واعتدوا على مأمور المركز ورجاله الذين توجهوا إليهم ليجبروهم على الخروج ، فلم يطيعوا إلا عندما استعان هؤلاء بقوة عسكرية[٢] .

وترك الفلاحون أشغال الجفالك رافضين هذا العمل القاسى ، فنرى وكيل دوائر الأمير محمود يشكو لناظر الداخلية « إن الأهالى يتركون أشغال الجفلك ، وهذا أمر موجب لعطل لم (جمع) المحصول الشتوى وإتلاف زراعة الصيفى »[٣] .

وبذلك انتفض الفلاحون وملأهم الإحساس والرغبة فى المزيد من الانتصارات، فقد كتب مونج قنصل فرنسا إلى وزير خارجيته يقول « حتى الفلاح فقد تأثر

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، ٢٧ أغسطس ١٨٨١ .

(٢) المحروسة ، عدد ٢٤٧ فى ١٩ مايو ١٨٨١ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ٢٢ أبريل ١٨٨١ .

بالفوضى التى عمت البلاد كلها بتلك السرعة الفائقة ، فمنذ بضع سنوات كانت سلطة المدير فى القرى محترمة ، ولم يكن أحد يقوى على الوقوف أمامه ، أما اليوم فالوضع تغير ، إذ أن المدير لم تعد له أية صفة ولا سلطان على الفلاح »[١] .

التاسع من سبتمبر وانطلاق الفلاحين

يُعد التاسع من سبتمبر بداية لمرحلة تبلور فيها الموقف بعد أن وضعت النقط على الحروف بانتصار الأمة ، وتحقيق المطالب الوطنية ، سواء بإسقاط حكم رياض المعادى أو بوجود حكومة دستورية ومجلس نواب ، لتكون النتيجة وصول عرابى لقمة المجد ، ومما لا شك فيه أن ذلك قد أسعد الفلاحين للغاية ، إذ كان العداء يربط بينهم وبين رياض ، أما مسألة مجلس النواب فقد أدركوها فيسجل شاهد عيان قوله « كان للأحداث الجارية فى القاهرة ، والتى كانت خطوات الثورة تدفعها للأمام صداها فى القرى ، فهى تصل بسرعة ويتناقلها الفلاحون الذين أصبحوا يفهمون ويعون كل شىء ، حتى اجتماع مجلس النواب بناء على رغبة عرابى كان من الأحداث السياسية التى تناولت فى الكفور »[٢] .

وكان على الثورة أن تبدأ برفع الغبن عن الفلاحين ، وبدأت على الفور فى العمل رغم قلة إمكاناتها ، فيذكر النديم أنه أثناء زيارة له لمأمور الضبطية علم منه أنه تم رفع الرمانات الخاصة بوزن القطن حيث كان إذا أراد القبانى سرقة الفلاح حل القلاوظ الخاص بها ووضع قطع من الرصاص فى الداخل حتى يغش الفلاح فى الوزن[٣] .

وبدأت قضايا الفلاحين تُعرض على المسئولين فى قالب جديد بعد أن استندوا على نصيرهم ، وأحسوا بوقوفه بجوارهم ، وتظهر فى شكاياتهم النقمة على تلك الفئات التى تمتلك الأراضى وليسوا أحق بها منهم ، فكان ذلك بعداً اجتماعياً وفكراً ثورياً يطالب بالمساواة ، ففى خطاب لأحد الأهالى من فلاحى الوجه القبلى يقول من بين سطوره « بخصوص سعادة الباشا زعلان منا ، ولكن هو ليس مخلداً ولا اشترى هذه المديرية لا هو ولا خلافه »[٤] .

---

(١) Affaires Etrangeres , No. 18, 3 Juillet, 1881, p. 23 .

(٢) Wallace , op. cit., p. 291 .

(٣) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٧ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨٨ .

وأصبح فى مفهوم الفلاحين أن القائمين على الثورة هم « الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، وضح ذلك فيما قدمه بعض من فلاحى ناحية «إيستو » مركز طلخا بمديرية الغربية بالتضرر من بدراوى عاشور عمدة « بهوت » والوكيل عن أطيان دائرة إنجى هانم حرم سعيد باشا ، حيث نزع منهم الأطيان المؤجرة من الدائرة ومقدارها ٢٣٠ فدانًا وحجز محصولاتها لرغبته فى رفع الإيجار(١) .

ويمضى التحقيق فى الحال على يد الحكومة الجديدة ، فعندما جاءت شكوى من فلاحى « كفر سعيفان » بالشرقية من المصرف الذى فتحه عمر لطفى وأتلف مزروعاتهم « كونت لجنة تحقيق لإنقاذ الأهالى »(٢) .

وبإحساس أن الحقوق ستعود لأصحابها ، سيطرت رغبة الفلاحين فى استعادة أراضيهم السابق فقدها بسبب الديون التى تراكمت عليها وبيعت بالمزاد لكى تحصل الحكومة على ما فرضته من أموال ، ففى مديرية الشرقية أخذ من أهالى « الغار » أطيانهم وكان أحدهم له ٣٥ فدانًا مع طاحونة وبقرة ورسا مزادهم على آخر ، « فالآن يريد استردادها »(٣) ، ويطالب ورثة أحد الفلاحين ناحية « الكوم الأحمر » لمديرية القليوبية بحقهم ، ورد أرضهم إليهم ، ومقدارها أربعة أفدنة حيث أن أحد الخواجات ضمها إلى أطيانه عن طريق الحيلة ، واتفق مع المدير وتسلم الأرض ، وسجن أصحابها(٤) ، وحتى أولئك الذين كانت قد أخذت منهم أراضيهم الخصبة وأعطوا بدلاً منها أراضى قاحلة ، أصبحوا يريدون استعادة أراضيهم الأولى(٥) .

واستمر التمرد على العمد وفضح تصرفاتهم « ارتشاهم ووضع أيديهم على أراضى العباد وتسخير الأهالى »(٦) ، ورفض الفلاحون إطاعة أوامر نظار الزراعة باستخدام مواشيهم بأشغال التفاتيش(٧) .

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٨ ، ١٩ سبتمبر ١٨٨١ .
(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٣٩ ، ٢٤ سبتمبر ١٨٨١ .
(٣) المصدر نفسه ، ١٠ أكتوبر ١٨٨١ .
(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، ١٢ نوفمبر ١٨٨١ .
(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٣٩ ، ٢٣ ديسمبرر ١٨٨١ .
(٦) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، ٢٤ أكتوبر ١٨٨١ .
(٧) المصدر نفسه ، محفظة ٤٠ ، ١٥ نوفمبر ١٨٨١ .

لقد ارتاح الفلاحون لبداية ذلك العهد الجديد ، فكل من عصفت به يد رياض عاد إلى أرضه وأهله وناسه بقرارات شريف لعودة المعتقلين إلى بيوتهم ، فعلى لسان هؤلاء الفلاحين كانت تصل طلباتهم بشأن ذلك ، ودائمًا ما كانت تحمل الأمل « التباشير بانقضاء عهد الظلم نطلب الإفراج عن الأرقاء الذين تركوا ديارهم وتيتمت أطفالهم وأرملت حلائلهم وذهبوا إلى الأقطار السودانية إجحافًا وظلمًا دون تحقيق ، بل لمجرد محاضر اصطنعها مدير الشرقية السابق لمن يريد سلب نعمته » واهتمت النظارة ، وبالسؤال والتحقيق تبين أن التختيم على هذه المحاضر ضد المبعدين كان جبرًا ، وصدرت الأوامر بعودتهم « وتحرر تلغراف لمحافظة سواكن بإرسال المذكورين »[1] ، وهذا دليل واضح وترجمة فورية وسمة جديدة للحكومة الوطنية التى اختارها المصريون .

وحينما ثُبتت التهم على المديرين الذين يعملون ضد الفلاحين وقاموا بأدوار مخزية من أجل القضاء عليهم ، امتدت إليهم يد الثورة لتعصف بهم ، وخصوصًا أولئك الذين كانت لهم صلات بالأجانب ، فقد تقدم فلاحو ناحية « اصطبارى » بمركز سبك بمديرية المنوفية بما يفيد أن هناك اتحادًا بين الأجانب وبين تلك الهيئة الإدارية التركية ، والذى كان من نتيجته استحواذ الأجانب على الأراضى وسجن أصحابها من الفلاحين على أيدى المديرين ، إذ حصل الخواجة إسكندر أرقش وهو من تجار شبين الكوم - يرجح أن تجارته كانت بالأقطان نظرًا لتخصص تلك المنطقة فيها - على أراضيهم وأجبرهم على دفع ضرائبها ظلمًا وعدوانًا ، ويطلبون من الحكومة إعادتها لهم[2] .

وعندما عُيِّن مديرون ثوريون جدد وأُقصى السابقون ، وجد الأجانب فيهم شخصيات تختلف عن سابقتها ، فهم يرفضون التعاون معهم على ظلم الفلاحين ، لدرجة أن بعضهم يرفض تنفيذ أحكام المحاكم المختلطة ، فقد رُفع إلى الحقانية طلب مقدم من محام موكل عن أحد الخواجات بالتشكى من مدير هذه الجهة فى « عدم إجابة القاضى المعين لبيع أطيان مديونية إبراهيم عمار ومحمد إبراهيم الشيخ »[3] ، ويعد ذلك أول تصرف من هذا النوع لإنصاف مدير للفلاحين ورفض ما تقرره تلك المحاكم .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٣٩ ، ٣ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٩ ديسمبر ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٤٠ ، ٢١ يناير ١٨٨٢ .

وأصبح هناك رأى للفلاحين يؤخذ به ، ففى أحد الكفور « كفر براش » رفعوا أصواتهم يطالبون بالبرقيات وبإجماع عام عدم رغبتهم فى عودة مشايخ الناحية التى تخصهم ، ويوضحون أسباب رفضهم « إرتكابهم الجنايات وسيرهم غير الحميدة » ، وفى حينه يكتب مدير الشرقية للداخلية برغبة أهالى الكفر فى تعيين أربعة مشايخ برضاهم واختيارهم « حيث لهم الصفات الطيبة وضرورة إبعاد الأشقياء »[١] .

كذلك استقبل مجلس نواب الثورة آلام الفلاحين ليعرضها على بساط البحث ، فانهالت شكاويهم عليه عندما أحسوا بأن هناك سلطة تمثلهم ووكلاء عنهم ، وأن بيدهم الحل والربط ، ففى تقرير قدم من « روسل » مدير الدومين إلى المراقبين يطلب فيه « مراقبة مجلس النواب الذى أعطى الفلاحين آمالاً فى أن يصلوا بالطفرة إلى ما يقال عن حريتهم ، واشتكى من أن المدير لا يحبس فى الحال من يطلب حبسه لتوقفه عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى يرسل بالتغلراف إلى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس »[٢] . ذلك هو البناء الجديد لحرية الفلاحين فى حياتهم الجديدة ، وانصبت مناقشات المجلس على ما يتعرض له هؤلاء الكادحين ، حتى تلك العروض التى تقدم له وليس لها الأهمية ، كانت تناقش ويبحث عن الحل أو يحول لجهة الإختصاص التى تمضى فى الحال ، لتعطى كل ذى حق حقه .

وبالرغم من أن أكثر الأعضاء كانوا من العمد ، ومعظم الشكاوى كانت تصل ضد العمد « ففلاحى الفيوم يشتكون بما هو واقع من « مقاوى باسل » عمدة عربان الرماح من تعدية على بعض أطيانهم »[٣] ، فإنه لم يكن هناك تحيز أو لقاء بين الشريحة الواحدة طالما وُجد ظلم واقع على الفلاحين .

وعندما عرض ٢٣ فلاحًا بالنيابة عن ٤٠٠ فلاح من « فولنجيل » دقهلية بشأن ما فعله معهم حسين مصطفى اغا قوره جللى من رفع ضبط الفدان عليهم من ٢٠٠ إلى ٧٥٠ قرشًا ، وأخذ مائة فدان ، وأدخل فيما بقى آخرين معهم واستولى على المحصول ثم منعهم من الأرض كلية ، حُقق فى تلك القضية ، وظهر التعدى الفعلى من هذا التركى بعد أن أرسلت الحكمدارية للاستكشاف فى أوراق محفوظات الدفتر

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٣٩ ، ٣ يناير ١٨٨٢ .

(٢) محمد عبده ، المصدر نفسه ، ص ١٧٣ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ أبريل ١٨٨٢ ، جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

خانة بشأن إعطائهم ١٥٠ فدانًا من أطيان معاش بالضريبة ، وكان وكيل الداخلية السابق للثورة قد أصدر أمره بعدم أحقيتهم فى تلك الأطيان ، وطردهم بالقهر منها وحجز على ماشيتهم رغم أن تملك هذا التركى هو إنعام لا بطريق أيلولة ، ورفع الأمر لمجلس النواب الذى رأى بعد التحقق من صدق الفلاحين ، إحالتها إلى الداخلية لإرجاع حقوقهم(١) .

وكان شعور الفلاحين بالحرية شيئًا مقدسًا ، ذاقوا طعمه ، وتحسسوا نوره ، وآمنوا أنه نعمة لا تعوض ، وأرادوا أن يتحرروا من الجفالك التى استعبدتهم سنوات وسنوات ، ففى رسالة من فلاحى « تلا » تضم عمدهم ومشايخهم تقول « إن اضمحلال الأهالى هو أشغال الجفالك فى زمن الاستبداد ، ولما أن أراد الله ومنحت الحرية والعدل ورفعت السخرة والمظالم ، فإننا ما خلصنا من العبودية إلا فى هذا الزمن العادل » ، ويرسل مدير بنى مزار إلى الداخلية ليبين أن تلك الناحية قد صار درجها من ضمن نواحى الجفالك للمشاركة فى التفتيش بناء على ما قرره نعمانى باشا مفتش جفالك المنيا والروضة لسخرة الفلاحين بالإجبار ، ويأتى قرار الثورة لصالح الفلاحين « فيصير ابتعاد بلادهم من بلاد الجفلك »(٢) .

وأصبحت الجفالك التى تخصصت فى القصب ، وأضافوا إليها نواح للفلاحين تُعرضهم للغبن ، فأعلنوا للحكومة بعدم رغبتهم فيها حيث إنهم غير مشاركين فى الزراعة وأرادوا الخروج من هذه التفاتيش ، فصدرت الأوامر بعدم إكراه الأهالى والنظر فيما يبتغونه ، وذهب وكيل المديرية ووكيل عموم الجفالك لأخذ رأى الأهالى فردًا فردًا ، فكانت النتيجة رفضهم البقاء تبع الجفلك حيث أقروا إنهم « أربعة عشر عامًا فى الجفالك ونحو جارين طلوع أنفارنا وعيالنا وزيادة على ذلك تأجير أنفار من الخارج ، وحصل لنا الإضمحلال الكلى ، أولاً تشتت البعض منا بالجهات، وثانيًا من فضلوا التسحب أجروا مبيع أطيانهم إلى مشايخ الناحية ، والبعض قد أجروا تأجير أطيانهم سنتين وكسور ، والبعض قد صار مبيع مواشيه وعقاراته وكل ما يمتلكه ، ولم تزل الديون متراكمة على عبيدكم لحد الآن »(٣) .

ونرى فلاحين من نواحى تفتيش « منية سندوب » دقهلية التابع لدائرة « فاطمة خانم أفندى » يعرضون أوضاعهم لعرابى لكى يخلصهم مما يعانونه « أنهم تملية

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٢٩ ، ٦ يناير ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤٠ ، ٣٠ يناير ١٨٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٤٣ ، ٦ يونيو ١٨٨٢ .

شغالة بذاك الجفلك ومعدمين فليس لديهم أملاك ، وأن الجفلك المذكور أعطى كلاً منهم أطيانًا بالإيجار من فدان إلى اثنين بواقع الفدان أربع جنيهات لغاية سنة ونصف ، ولعجزهم عن السداد ، فالدائرة والتفتيش استحضروا نقدية بالأرباح عليهم لتكملة الإيجار وأخذوا عليهم سندات بذلك لحين طلوع المحصول الشتوى مع كونهم أخرجوا الأنفار والجهادية والغفرة الذين تخصصت عليهم ، وأن المفتش والمعاون والباشكاتب متواطئون معًا ضدهم » ، وهنا أمر عرابى بإحالة الأمر على الداخلية وتعيين مندوب للتحقيق ورد الحقوق[1] ، ويتابع وكيل الداخلية أمر التحرى لنصرة الفلاحين ، وبذلك وضح أن الربا الذى خضع له الفلاحون لم يكن من ساقطى الأجانب فقط ، بل واشترك معهم دوائر الباشوات الذين مارسوا على عبيد الأرض وسائل القهر والإذلال .

وكانت المعاملة السيئة للفلاحين فى الجفالك وما قاسوه على أيدى مفتشيها من مبيع أراضى ومواشى واستعمال العدة والكرباج وعزل المشايخ الطيبى السمعة ، وإحلال من يتفق مع هواهم ، مادة خصبة فى مناقشات مجلس النواب ، إذ فطن الفلاحون أن تلك المعاملة قد انتهى زمانها ، وطالبوه برد الأطيان التى انتزعت منهم والمؤجرة لهم من الدوائر مثل دائرة إلهامى باشا ، كما لجأوا إليه لتخفيض ضريبة الأموال[2] .

ونصرت حكومة الثورة الفلاحين الذين كانت أراضيهم مرهونة للميرى ، حيث إنه عندما طلب أصحابها ردها إليهم ، وجاءت إفادة المالية بأن « هذه الأطيان مدفوع عنها المقابلة ، وأنه من المعلوم أن المقابلة هى من حقوق الطين » ، تمت الموافقة على خصم صافى مقابلة تلك الأطيان فى الدين المطلوب عليها[3] ، معنى هذا أنه بالرغم من إلغاء العمل بالمقابلة ، مضى فى تنفيذها نصرة للعدل ، وإعادة الحقوق إلى أصحابها ، والضرب بقانون التصفية عرض الحائط .

ووصل الأمر إلى أن الفلاحين الذين كان إسماعيل قد استولى على أراضيهم يطالبون بها « فقد تظلم مشايخ وأهالى ناحية معصرة دودة بالفيوم من أخذ أطيانهم للدائرة السنية جفلك الوادين والبالغ مساحتها ١٥٠٠ فدان والتى كانت مكلفة

---

(١) المصدر نفسه ، ١٠ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ أبريل ١٨٨٢ ، جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ فى ٢٣ ، ٢٧ ، فبراير ١٨٨٢ .

عليهم ، وحررت بها تقاسيط إلى الخديو السابق وأنجاله »[١] ، وطعن الفلاحون فى أتباع داود باشا ، فيتظلمون من أن فلسطين سداروس ناظر قلم قضايا مديرية قنا استولى على أراضيه البالغة ٥٤ فدانًا بالتحاليل معتمدًا على علاقته بسيده أحيانًا وبالقواسة أحيانًا أخرى ، فأمر البارودى إجراء تحقيق شامل لذلك[٢] .

وصدر قرار من الثورة برد الأطيان التى استحوذ عليها داود باشا نفسه من الفلاحين قصرًا وجبرًا وذلك بإجراء مبايعة ظاهرية ، وتمكنه من اغتصاب ١٠١٧٧ فدانًا ، فردت إلى أصحابها ، لكن الباشا سافر إلى لندن « وأجرى بيع الأطيان المذكورة فى لوندره لشخص يدعى كولون بمبلغ ٢٢٣٨١٥ جنيهًا إنكليزيًا ، فقدم الخواجا تداعيًا على الحكومة وحولت القضية على مجلس الاستئناف » ، وثار عرابى فى اجتماع مجلس النظار وبيَّن « أن الحكومة لما طالبت رد الأطيان لأربابها رأت أن بيع الأطيان الذى حصل من الأهالى لسعادة داود باشا هو فاسد ، ولهذا أمرت بردها إلى أربابها » ، وأعطت القضية لأحد محامى الحكومة[٣] .

كذلك ردت الثورة الأطيان الخاصة بفلاحى ناحية « كفر درويش » التابعة لمديرية المنيا وبنى مزار ، والتى كانت أدخلت فى أبعادية حليم باشا الذى باعها للدائرة السنية ، فالزيادة ٧٢ فدانًا ، وهى العجز فى أراضى الفلاحين ، واتضح ذلك من دفاتر المساحة ، وصدرت المضابط بأحقية الأهالى لأراضيهم ، ويعترف أصحاب الحق بأنهم سعوا لنواله مدة اثنى عشر عامًا بدون فائدة حتى أعطته لهم الثورة[٤] .

واعتمد الفلاحون على عرابى ، فكانت شكاياتهم فى كثير من الأحيان تصل رأسًا له إذ عدوه قمة العدالة ، ويقول كرومر « كان الفلاحون ينظرون إليه على أنه مخلصهم ، وأن على يديه سيستردون أراضيهم وستلغى ديونهم»[٥] ، وفى كثير من الشكاوى التى تنصب على غبنهم كانوا يوكلونه كممثل لهم من أجل إنقاذهم وخلاصهم مما يئنون تحته ، ويذكر بلنت « إن شعبيته وصلت إلى أقصى درجاتها ، وأطلقوا عليه اسم الوحيد ، وكانت غرفته الخارجية بل الشارع الموصل إلى بيته

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٤٣ ، ٩ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤٢ ، ٢٩ أبريل ١٨٨٢ .

(٣) محفوظات مجلس الوزراء ، محفظة ٥/ج ، دوسيه ١٠ ، محضر ٦ مارس ١٨٨٢ .

(٤) محفوظات الداخلية ، المصدر نفسه ، ٨ مايو ١٨٨٢ .

(٥) Cromer , op. cit., Vol . II. P. 281 .

ممتلئ كل يوم بجماعة الشاكين »[1] . وكان لتعاون نظارة الثورة من أجل رفع الضر عن الفلاحين أمر ملحوظ ، حتى لقد سرى على طلب حمايتهم من بعض من اشترك فى الثورة ، فعندما تظلم بعض الفلاحين من شريف باشا لاغتصابه أطيان بناحية « دهمشا » بمعرفة وكيل دائرته ، تأمر حكومة الثورة بالتحرى ، ومن مديرية المنيا ترسل إلى عرابى الشكوى من الظلم ونهب الأموال العلنى « بواسطة إبراهيم الشريعى » ، وكذلك من أمين الشمسى ، فقد اشتكاه أحد الفلاحين لأخذه بعض الأفدنة منه[2] ، وكانت الشكوى موجهة أيضًا إلى عرابى ذلك الذى سيرد الحقوق إلى أصحابها .

ومع تلك الحرية ، وهذا الإنصاف كان من المفروض أن يخجل الأجانب أمام ردع المستغلين على أيدى الثورة ويعملون أن زمن الصمت قد مضى ، وأن كل خلل أصبح يحقق فيه ، لكنهم لم يضعوا ذلك فى الاعتبار ، فمضت إجراءاتهم التعسفية ، فحدث أن بعضًا من الفلاحين مؤجرون أطيانًا من أحدهم ، وهو صاحب أبعادية ويزرعون معه بالشرك ، فما كان منه إلا أن قام بحجز محصولاتهم وضربهم بما فيهم النساء ، وبالكشف تبين أن إحداهن سقط جنينها البالغ ستة أشهر ، وأجرى التحقيق معه ، ومضى البعض منهم فى ممارسة طريقة عمل السندات المفتعلة على الفلاحين « فاستريا بصطورى الرومى المقيم بناحية مليج منوفية يتحايل على سلب الأموال بعد اصطناع أختام بأسماء الفلاحين على سندات ويقدمها للمحكمة المختلطة »[3] ، ومن هنا سيشارك الفلاحون بكل قوتهم مع الخطوات القادمة ضد الأجانب .

ويطعن الفلاحون فى أحكام المحاكم المختلطة ، ويطالبون بما لهم عند الأجانب « أنه لواسطة ما كان حاصلاً لنا من المضايقة من الأموال والمطاليب بالزمن السابق ، قد استجرينا نقدية من الخواجة بناس كبرياديس تاجر بناحية بلدنا من تبعة دولة اليونان لغاية ما صار تقسيط المبلغ علينا بأرباحه على أربع سنوات مبلغ ٢٤٠ جنيهًا لكل سنة ٦٠ جنيهًا ، ولما استحقق أول قسط دفعناه ٦٠ جنيهًا ثمن قطن ، وفى ثانى

---

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 169 .

(٢) محفوظات الداخلية ، المصدر نفسه ، ٨ ، ١٨ مايو ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٢٦ فبراير ١٨٨٢ ، محفظة ٤٣ ، ٨ يونيو ١٨٨٢ .

سنة لم نقتدر على دفع قسطها فالخواجة المذكور قدم دعوته بالحقانية بالإسكندرية، فأصدرت أمرها إلى مديرية الغربية بمبيع مواشينا ومحصول زراعنا ، وكل ذلك بدون حضورنا مع كون هذا الخواجة أخذ منا ساقيتين على البحر الأعظم ومركب عليهما وابور لسقيه الأراضى » وتستمر الشكوى لتؤكد ضرورة إرجاع ما أخذه هذا الأجنبى[١] .

وتحاول الثورة بكل إمكاناتها وطاقاتها أن تسترد الأموال وتعيد الأراضى سواء التى اغتصبها الباشوات أو الحكومة أو الأجانب ، وتمضى لتعمل من أجل الفلاحين، فنرى قرار محمود فهمى ناظر الأشغال الخاص بضرورة إيصال المياه لأراضيهم ، وعدم هدم أى مساقى ، وذلك بناء على ما قدمه بعض فلاحى ناحية « محول » غربية مما أقدم عليه عبد القادر باشا من هدم المساقى المرتبة لرى أطيانهم « من مدة خمسين سنة مع هدم المساقى التى أعدها مهندس المركز لرى تلك الأطيان»[٢] .

وهكذا كانت الثورة تضع أمام عينيها حالة الفلاحين ، وتأتى مسألة السخرة التى ذاقوا منها الأمرين طوال تاريخهم لتكون موضع اهتمام كبير ، فمجلس النواب يساهم باقتراحاته لحلها سواء بتنظيمها أو إعطائها بالمقاولة بمعرفة نظارة الأشغال[٣] ، ونرى الحكومة تخفف عنهم فلا تلقى عليهم العبء ، حتى أن نائب القنصل البريطانى فى الزقازيق يقول « لقد أصبح من الصعب جمع الرجال للسخرة فى رفع المياه المنخفضة من النيل للرى هذا العام أو حفر أية ترع أو القيام بزراعة الأرض فى مواعيدها مما سيؤثر على محصول القطن ولا يستطيع الموظفون جمع رجال السخرة » ، ويكتب ماليت إلى جرانفيل يقول « إن هناك عقبات فى إصلاح القناة بسبب ضعف الحكام فى جمع السخرة »[٤] .

لقد كره الفلاحون السخرة حيث مثلت لهم العبودية ، وعندما جاءت الثورة لتضع برنامجها وتخفف عنهم أحمالهم ، شعروا بأن حكومة الثورة تعمل لصالحهم ، ومن هنا خرجت أعمالهم من أجلها بروح قوية ومعنوية عالية ، كما أن الاطمئنان الذى غمر قلوبهم دفعهم بصدق وبطيب خاطر للتفانى ، فعندما كان من الضرورى

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٤٢ ، ٢٠ أبريل ، ١٨ مايو ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢ مايو ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٥٤ فى ١١ مارس ١٨٨٢ ، جلسة ١٥ فبراير ١٨٨٢ .

(٤) Egypt, No. 7 (1882), No. 122, April 15. 25, 1882, p. 97 .

تطهير ترعة الشرقاوية حضر ثلاثة عشر ألفًا بمحض إرادتهم ، بعد أن كان بالكرباج والطرق القاسية من سجن وتعذيب يحضر ستة آلاف ، وأن ما كان يعمل فى ثلاثين يومًا أصبح ينجز فى ثمانية أيام(١) .

وكان من هدايا الثورة التى قدمتها لفلاحيها القضاء على المعاملة الوحشية التى كثيرًا ما قاسوا منها تحت العدة والكرباج ، وقد أسعد الفلاحين فى الوقت الذى غضب فيه الأجانب أشد الغضب لنوال هؤلاء حقوقهم ورفع الضيم عنهم ، فيكتب « روسل » مدير الدومين إلى ماليت يقول « إن الحاكم الشرقى إذا حرم كرباجه وحظر عليه أن يسجن من يشاء ، عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية ، إن الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول مرة واحدة إلى ما يسمونه الحرية »(٢) ، كانت هذه نظرتهم ، فاعتقدوا أن الثورة قد سلبت السلطة الشرعية ما تتمتع به من قوة وبطش وجبروت ، وكان لذلك رد فعله على الفلاحين وخاصة الذين يعملون فى الضياع التركية والذين تمردوا ورفضوا العقاب بالجلد ، هذا فى الوقت الذى راقبت فيه حكومة الثورة معاملة الفلاحين فى تلك الإقطاعات ، وعملت على أن تكون لهم حقوق ثابتة لدى أصحابها .

ومثلت مسألة الضرائب موضع اهتمام الثورة ، فوافقت على أن تقبل الضرائب عينية ، بعد أن كان قد أبطل ذلك مع نظارة رياض ، ونلاحظ الرحمة والشفقة ، فعندما تظلم بعض فلاحى الوجه القبلى بتأييد من مديريهم بعدم مقدرتهم تحصيل تقسيط « شهر يونية بتمامه » وذلك بسبب كساد التجارة ، والتمسوا الاكتفاء بتحصيل نصف التقسيط ، وإبقاء النصف الثانى لتحصيله فى وقت آخر ، تمت الموافقة وأجيبوا إليه طلبهم مع التشدد فى « حفظ محصولات الأهالى وعدم التصريف فيها للخارج بالبخس »(٣) .

كذلك كان لابد من إنقاذ قيمة الأراضى التى انهارت أسعارها بسبب قيام الفلاحين بالبيع دون الثمن ، ففى منطقة « سيميلا » بمديرية الغربية باع فلاح ٤٢ قيراطًا بمبلغ ٥٠ جنيهًا اى بسعر الفدان ٢٨ جنيهًا فى حين أن ثمنه ٦٠ جنيهًا(٤) ،

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٢) Egypt, op. cit., Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, p. 42 .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٢٧ فى ٧ يونيو ١٨٨٢ .

(٤) Egypt, op. cit., Inclosure 1 in No. 157, April. 23, 1882, p. 112 .

ذلك فى الوقت الذى كان على الثورة أن تنقذ مثل هذا الفلاح بعد أن أصبح تفتت الملكيات هو السمة الظاهرة نتيجة لأعباء الالتزامات التى فرضت عليه فى عهد ما قبل الثورة ، تلك التى استمرت فى تنفيذ برنامجها ، فوضعت مشروعًا لإصلاح المحاكم المختلطة التى أضرت بالفلاحين وكادت تقضى عليهم ، وآخر لإنشاء بنك زراعى يقدم المساعدات إليهم ، لكن لم يكن هناك الوقت الكافى لتنفيذ مثل هذه المشروعات، حيث ألقت الثورة بكل قواها لتقف أمام بريطانيا .

لقد كانت حقًا نظارة فلاحين ، فلأول مرة يصبح لهم حقوق يطالبون بها ، فيلبى طلبهم ، بل ويعدهم زعيمهم للمشاركة فهم أصحاب مصر ، كما أن بذور المساواة التى غرسها بينهم آتت أكلها ، ففى خطاب مرسل إليه من أحد الفلاحين بناحية « ساقلة » يشكو فيه العمدة لارتشائه فيقول « وإذا أعطيت العمدة عشرة جنيهات يسيب ابنى ويمسك واحد فقير بدلاً عنه ، فيه ناس عندهم أطيان وخيل وجمال وغنم ومواشى ولا ساير عليهم ما يسير علينا ، أن الناس زى بعضها »[1] ، وتلك هى المساواة التى كانت قمة مبادئ الثورة ، وكثيرًا ما ردد عرابى بأنه فلاح ويعمل من أجل الفلاحين وأنه ليس بتركى لكونه وصل إلى منصبه هذا ، بل إنه وصل لأن الحق معه ، وكانت فلسفته بالنسبة للفلاحين حقيقة مؤكدة ، هى الثورة الشاملة للقضاء على الطبقية فيقول « وليعلموا أن فقراء أهالينا صار عندهم أمل فى أن أولادهم يتقدمون ويصيرون حكامًا على بلادهم ، بعد أن كانوا يتوهمون أن ذلك من المستحيل عليهم ولا كان يخطر ذلك على أفكارهم »[2] .

ومن أجل أن تكون مصر للمصريين ، كان الحب لعرابى الذى أعطى الأمل وحرك المشاعر فى أعماق الريف ، وأثناء محاكمته يرد خطاب من دليسبس إلى المحكمة ليبرهن على أنه لم يكن عرابى هو الثائر فقط بل الفلاحون الذين وجدوا فيه المنقذ والمخلص فيقول « لقد زرت عرابى فى نظارته وكنت أرى فناء قصر النيل حيث مقر النظارة مزدحمًا بالفلاحين الذين امتلأت بهم الغرف المقابلة »[3] ، جاءوا إليه ليعلنوا ثورتهم .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢/د .

(٣) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 302 .

التنفيذ الثورى :

(أ) الفلاحون وكبار ملاك الأراضى

اتفقت الآراء على أن خضوع الفلاح واستسلامه يعد أحد الظواهر الاجتماعية الأساسية فى الريف المصرى ، وهى سمة سيكولوجية تظهر فى رضاه بالقضاء والقدر والمصير المحتوم الذى فرض عليه ، لقد أعطت الطبيعة فلاح مصر البساطة والوداعة وحب الخير والبعد عن الشر ، كما سرى الإيمان فى قلبه وروحه وآمن بكل مكتوب على جبينه ، لكن مع أسرة محمد على تراكمت الرواسب على نفسيته حتى وصلت إلى درجة كان لابد وأن تتغير الطبيعة والأسس والمميزات ليخرج ما بداخله ، ويتحرر ويثور ويرفع لواء المطالبة بالتغيير الجذرى الشامل .

ومما لا شك فيه أن الأموال تلعب الدور الرئيسى فى حياة الحكومات والشعوب، ففرض الأموال من الأولى على الثانية يرهقها ويولد الحقد والضغينة فى النفوس تجاهها وخصوصاً إذا صاحبتها الآلام ، كذلك فإن امتناع الشعوب عن دفع الأموال للحكومات يشلها ويقضى عليها . وفى مصر اتبع الفلاحون أسلوب الامتناع عن الدفع وخصوصاً بعد أن أعطتهم الثورة الاطمئنان ، وبعد أن ألغت وسائل التعذيب التى كانت تحصل بها تلك الأموال ، فكان إيقاف الأموال المطلوبة منهم أحد الضربات القوية التى وجهها الفلاحون للانتقام ، فهم يعلمون تمام العلم أن كدهم وعرقهم إنما يذهب إلى جيوب الرأسماليين الأجانب والمستغلين .

وكان الوجه القبلى أكثر حيوية إذ ازدادت فيه الحركات الثورية للفلاحين ، حيث إنه يضم تلك الإقطاعات الواسعة من الأراضى التى يتحكم فيها قلائل من العائلة المالكة والباشوات ، وقد بلغت الأموال التى أوقفت حوالى ألفين من الجنيهات ، وامتنع الفلاحون عن دفع إيجارات الجفالك وعدم تسديد ما عليهم لها ، ورفض طلبات مديرية أسيوط ، ومعارضة المثول أمام مفتش الروضة بمديرية أسيوط وتهديده ، إذ تسلح الفلاحون بالأسلحة النارية ودخلوا فى لقاءات مع أعدائهم أسفرت عن ضرب جملة أنفار بما فيهم مشايخ الناحية « وأخذوا صراف الناحية بالقوة الجبرية بعد أن أبطلوا تحصيل الأموال ثم بعد ذلك التجأوا لعرابى »(*) .

ويتضح أن ما تم كان يلقى تأييداً من رجال الثورة ، بدليل أنه بعد قيامهم بأعمالهم ذهبوا للقاء بالقائد ، وأن المعتدى عليهم من الرافضين ، ومما يؤكد أن

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٩ .

السلطات المحلية وكبار الموظفين كانت لديهم التعليمات وغير مسموح لهم بإنزال العقاب بأحد ، ما ذكره فيليبس إلى نائب القنصل الإنجليزى بالزقازيق « أن مفتش دائرة خلوصى بك يقص له أنه رأى بنفسه مجموعة من أربعين شخصًا بعضهم مرتجلاً والآخر ممتطيًا ، متوجهون مباشرة إلى أملاك الدائرة »[١] ، وأصبح هذا على مسمع ومرأى من الجميع ، وقد وجد كشفًا بأوراق الثورة يحتوى على من يريد تخريب عزبهم[٢] .

وكانت الهزة العميقة التى هزت الريف هى المناداة باللاطبقية وتطبيقها على أيدى الفلاحين ، وفى بعض الأحيان كان هناك من العمد والموظفين من يبثون تلك الأفكار التى اتفقت مع ميول هؤلاء الفلاحين ، وخاصة المعدمين منهم وعمال الجفالك الذين لا تختلف أحوالهم عن أقنان الأرض فى العصر الإقطاعى الأوربى .

وانعقد الأمل الكبير فى انتصار الثورة بزعامة القائد ، وبالتالى ساد الاعتقاد عن قرب سقوط نظام الحكم القائم بما تبعه من مفاسد اقتصادية وعيوب اجتماعية . وكان التركيز على إقطاعيات الأسرة المالكة وأراضى كبار الملاك من الباشوات الذوات حتى ولو كان من بينهم العنصر المصرى ، فقد سيطر التفكير بأن هذه الممتلكات الكبيرة ستصبح مشاعة لجميع الفلاحين العاملين فيها ، الذين هم أصحاب فضل فى وجودها ، فمصنع السكر (فاوريقة مطاى) سيكون للأهالى ، وأطيان الجفالك ستوزع على بلادها الأصلية ، وأطيان الباشوات أمثال طلعت باشا وسلطان باشا ستكون ملكًا لهم ، ووصل الأمر إلى تشفى الفلاحين من هذه الطبقة « فبعد انتزاع أملاكها يضيع ثمنها على أربابها » ، واستتبع ذلك حركة الفلاحين فى هذه المنطقة[٣] .

وبدأت عملية التقسيم لتلك الأراضى بين الفلاحين ، قسمة تولوا هم أمرها ، وأعلنوا أنها أصبحت ملكًا لهم « أى أن أهالى كل بلد يتسلمون زمام أطيانهم » ، وراحوا يخضرون أطيان الجفالك لحسابهم ، وكانوا يزرعونها بعزيمة قوية وبإحساس المالكين لها ، وفى البحيرة حدث أن هاجم الفلاحون بمساعدة مشايخهم أراضى الوسية التابعة لدائرة حيدر باشا ، وقسموها وزرعوها ذرة شامية[٤] .

---

(١) Egypt, op. cit., Inclosure 3 in No. 70, Feb. 23, 1882, p. 55 .

(٢) مجموعة مجلس الوزراء ، محفظة ٧ ، ١٠ حربية .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٢٤ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٧ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، دوسيه ٢٩ .

كان ذلك ثورة اجتماعية خطيرة ، حملت بين طياتها نصرة الأيدى العاملة وحقها فى الحياة ، قضت على الاستغلال والاستعباد ، وأصبح الفلاحون متساوين فى الملكية ، لم يعد هناك الباشا الذى يرتعد منه الفلاح ويركع له ويقبل يده ، ولا من يقيم المشانق ليخلص ممن يناوئه ، ولا من يستحوذ على الأرض والماشية ويسوق للسخرة ويضرب بالكرباج ويتمتع بخيرات الأرض وحده ويكسب ويرابى ويمتص الدماء ويمنع المياه ، لقد أصبح الفلاح حرًا له ملكيته وحقوقه دون رقيب عليه أو محاسب ينتزع منه لقمة العيش .

ومضت الحركات الثورية القوية لتعصف بكل من سلبها ، ففى أربع بلاد للجفالك بالغربية - طماى وطوشى - أضرب الفلاحون عن العمل وتركوا الماشية والآلات الزراعية فى الحقول ، وأعلنوا ثورتهم بعد أن وجدوا غيرهم استحوذ على الأرض ، وأنه ما زالت أيادى الباشوات تسيطر على الأراضى التى يعملون فيها ، وفى جفالك الدومين لم يستول الفلاحون على الأراضى ولم يعلنوا الإضراب العام ، لكنهم صرحوا وبصوت مسموع ، بضرورة حقهم فى الأرض وتطبيق المساواة مع الملاك ، ورفضوا الاقتراح بأن تعطى لهم بإيجار يماثل الأراضى المجاورة - وكان معنى ذلك أنهم فعلاً مغبوبون فى الإيجار وكان الدومين بين الحين والآخر يرفع الإيجار عليهم- وأن يطلق سراحهم من السخرة ، ويرفض الفلاحون ويصرون على أحقيتهم فى أراضيهم ، ويعلنون أنهم سيقابلون القوة بالقوة[1] ، فأى تحد هذا الذى قام به فلاحو الثورة ، أصبحوا يرفضون عروض الملاك .

وأعلنت حقوق الفلاحين على أرض مصر كلها فى الحرية والحياة والمساواة والعدالة وسقوط عهد الظلم والاستبداد ، ففى « كفر لطيف » بالدقهلية تعلو أصوات الفلاحين بالمطالبة بحقوقهم ، ويكتب لهم مأذون ناحية « كفر الشراقوة » باسمهم ويسجل طلباتهم وقد انصبت على مبادئ الثورة التى وصفها المحققون فى محاكمات الثورة بأنها « جملة إفسادات »[2] .

وفى « الزنكلون » بالشرقية ثار الفلاحون المآجرين فى أربع قرى وكان مشجعهم على الثورة والاستمرار فيها يوزباشى بالجيش ، ومن هنا ظهرت عملية الالتحام القوية بين العسكريين والفلاحين ، فقد بيَّن لهم أن الأطيان المملوكة لأصحاب الأراضى هى ملك حلال لهم وأنها من حقهم ، ويقول كرومر « وبذلك فى كلمة

---

(١) Egypt, op. cit., Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, p. 42 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٨٦ .

مختصرة كانت جميع العلامات العادية للثورات قد تكاملت فى مصر »[١] ، ولم يقتصر أمر العسكريين على ذلك ، وإنما كانوا « يجوبون البلاد يحرضون الأهالى على عدم دفع الضرائب »[٢] ، واستمرت الإجراءات الثورية لفلاحى الزنكلون ، فأضربوا عن العمل ، وأرادوا تقسيم أراضى الملاك وخاصة تفتيش الأمير إبراهيم الذى كان يمتلك الجزء الأكبر من تلك الأراضى ، ففزع من تلك الأعمال الثورية التى لم تتوقف رغم إرسال حامية من ألف جندى ، فما كان من الأمير إلا أن أجّر تفتيشه إلى أحد الأجانب لمدة طويلة حتى يتخلص من مخاوف استيلاء الفلاحين على أرضه بالإضافة إلى استغلالها عن هذا الطريق ، وحدثت أيضًا أحداث مماثلة فى دمنهور ، فأرسلت إليها قوة مثل التى أرسلت للزقازيق[٣] ، لكن الفلاحين استمروا فى إجراءاتهم .

وقد حاولت حكومة الثورة أن تهدئ من روع الفلاحين عن طريق تنظيم المسألة حتى لا تتحول إلى ما يسىء لها ، لكن كان الفلاحون كمسجونين وأطلق سراحهم ، وكثرت الاجتماعات للحد من كبح جماح هذا الغضب الثائر ، ويذكر روسل أنه فى اجتماع عقد بطنطا طلب من مديرها « التصرف قبل تضخم الاضطرابات - كما كان الأجانب يطلقون على الثورة - وقبل أن تصبح عامة وتسبب له المتاعب ، لكن اتضح أن سلطته تجاه مشايخ البلد قد انعدمت ، فطلبت منه استدعاء اثنين منهم الأكثر مشاغبة وسجنهم ، لكنه قال الأفضل أن تتم التسوية بالتفاهم ، سنرسل إليهما ولكن ليس لهم مكان فى السجن » ويمضى روسل ليبين أن قوة المدير قد ضعفت « فإذا وضع شخص بالسجن ظلمًا ، فعلى الفور تصل البرقية إلى مجلس النواب الذى يستدعى المدير برقيًا ليحقق معه ، كما أخبرنى المدير أنه كحاكم وطنى لحكومة وطنية ، فإن كل ما يهمه هو أن يحمى الفلاحين ويراعى مصالحهم » ، وفى لقائه مع مدير المنصورة « أخطرنى المدير بأنه أصبح يخشى العودة إلى استعمال القوة والظلم والبطش الذى كان موجودًا سابقًا ، وأن المساجين أصحاب القضايا العادية إتصلوا بأعضاء النواب وبعرابى بك الذى أمر المديرين برقيًا بإطلاق سراحهم »[٤] .

---

(١) Cromer , op. cit., Vol II, p. 258 .

(٢) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٧ .

(٣) Egypt, op. cit., Inclosure 2 in No. 122, April. 18, 1882, p. 42 .

(٤) Ibid, Inclosure 4 in No. 51, Feb. 15, 1882, pp. 42, 43 .

ومن ذلك تظهر تلك الثورية المطلقة لا للفلاحين فقط ، ولكن كل من على أرض مصر وكان راضيًا عن مبادئ الثورة ، بما فيهم مديرو المديريات الذين كان دورهم السابق مضادًا للفلاحين ، أصبحوا الآن يعملون على مصلحتهم ، كما أن المعتقلات والسجون انتهت وأصبح الجميع أحرارًا . أضف إلى ذلك حيوية المجلس النيابى وإحساسه بأنه نائب عن مصالح الأمة ، وأخيرًا عرابى الذى كان قوة لا تنضب ولا تنهار من أجل فلاحيه .

وأصبح كل شىء يمضى فى مصلحة الفلاحين ، فتمتعوا بجميع حقوقهم ، تدفع لهم أجورهم كاملة شهريًا بعد أن كانوا بدون أجور ، لدرجة أنه فى بعض الجفالك بعد الإيجار الجديد ورفعه أصبح الفرق حوالى ١٢٠٠ جنيه لصاحب الأرض ، ولم تعد الزراعة لحساب المالك ، وإنما ذهبت بالإيجار غير المغبون فيه ، ونجح الفلاحون فى إثارة رعب المالك الذى آمن بأن الفلاح غدا حرًا فيقول مدير الدومين لماليت « منذ عام مضى كانت الحرية يوعد بها وكانت كلمات تتردد ، لكنها الآن أصبحت قوة عملية »(١) .

ولأول مرة ينقلب ميزان القوة ويخيف الفلاحون الباشوات ، « فانقطع كثيرون منهم عن التردد إلى أراضيهم ولزموا منازلهم ، واستمرت هذه الحالة جارية من ابتداء شهر رمضان إلى انتهائه ، وهى مدة قضاها بعض أصحاب الأراضى فى معاناة وتحمل الذل والهوان »(٢) .

(ب) الفلاحون والأجانب

لم تقتصر ثورة الفلاحين على ما سبق ، ولكنها وجهت أيضًا ضد الأجانب الذين أذاقوهم الأمرين ، سواء فى مسألة الديون والربا الفاحش والسندات المزورة التى اختلقها مرابو القرى « الأفاعى » ، أو فى بيع أراضيهم وقوانين المحاكم المختلطة التى جردتهم من كل شىء ، أو فى بذور الفساد وسوء الأخلاق اللذان انتشرا فى الريف ، أو فى تلك المعاملة التى دائمًا وأبدًا تتسم بالقسوة والاحتكار والجبروت ، وصحافة ما قبل الثورة تكتظ بالدلائل ، وحتى أثناء الثورة وبالرغم من معرفة الأجانب أنها أولاً موجهة ضدهم ، فإن استعلاءهم وأخلاقهم مضت دون

---

(١) Ibid. Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, pp. 42 .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ .

تغيير مما جعل المصريون فى نهاية الأمر ينفجرون ضدهم ، فتذكر لنا صحيفة الإسكندرية على لسان مراسلها : « وقف بنا قطار السكة الحديد عند كفر الزيات ، وكان ضمن المسافرين فيه فلاحة فقيرة ومعها ولدان يشكيان االجوع ، فطلت من العربة فوجدت عن بعد ولدًا من المتعيشين الفقراء واقفًا ومعه زاد للبيع ، فنادته لتشترى منه ما يلزمها ، فتجرأ الولد ودخل ظانًا أنه لا يدع أحدًا من المانعين أن يراه ، فأخذت المرأة منه رغيفًا من العيش وناولته إلى ولديها ، وما نشعر فى هذه الأثناء إلا وواحد من الأفرنج لا نعرف إن كان روميًا أو طليانيًا هجم عليهم هجوم الديب على الغنم وصرخ فى الولد البائع : كم ننهاكم يا عرب يا فلاحون وأخذ يشتم بكل أنواع الشتائم ، وخطف ما كان حامله من العيش ، وخطف أيضًا ما كان بأيدى الولدين وفتت سائر العيش وطرحه تحت عجلات البابور فذعر البائع منزعجًا ، والمرأة تندب مصابها وتذرف دموعها ضنينًا وشفقة على ولديها الذين غاب صوابهما ، وغشى عليهما عندما اختطف ذلك الرغيف الذى كان يعضان عليه ، فعجبت لهذا الأمر واندهشت »[١] .

وبذلك وصلت الكراهية إلى أقصى مداها أمام هؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم أصحاب البلاد الشرعيين ، وكان لابد من توجيه الضربات والانتقام ، وبدأ ذلك بإبقاء محاصيل ملاك الأراضى منهم فى الأرض وعدم جنيها ، وخاصة القطن الذى جرى إعدامه ، حدث ذلك عندما « أراد الخواجة مانولى اغتصاب المحصول من الفلاحين بدون محاسبة ، وأحضر ستة أشخاص من الأروام المسلحين ، لأخذ ما يجنى بالقوة الجبرية لوضعه فى محلات الخواجة ، فما كان من الفلاحين إلا وأبطلوا الجنى وأعدموا المحصول ، فتقدم الخواجة إلى قنصل اليونان بطنطا يشكو مشايخ البلد والفلاحين للتعدى والهجوم على غيطانه ، وإطلاق سراح الأهالى والمواشى » وثبت من التحقيق تعدى الفلاحين « وكسر الأشجار وسير المواشى على الأقطان »[٢] ، ومن المعلوم من هو مانولى بالنسبة إلى الفلاحين إنه ذلك المرابى اليونانى .

وبما أن الأجانب كان معظمهم أصحاب بيوت تجارية ، فقد تم هجوم الفلاحين عليها مطالبين بالأرباح التى اغتنمها هؤلاء فى السنوات السابقة ، وكان ناظر

(١) الإسكندرية ، عدد ١٧٠ فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ .
(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٣ مارس ١٨٨٢ .

منفلوط هو المتزعم لتلك العملية مع العمد ، وخرجت التهديدات لمن يتأخر عن تسديدها لفلاحين ، بأن يحال إلى المجلس العسكرى(١) .

كما طالب الفلاحون برد الأراضى إليهم ، تلك التى استولي عليها الأجانب بناء على أموال كانوا أقرضوها لهم بالربا ، ومضى الوقت دون أن يتمكنوا من السداد ، وأبانوا أن ليس للأجانب الحق فيها ، ومن المعروف أن المرابى كان يحصل على الفدان الذى يساوى خمسين جنيهًا بعشرة جنيهات مقابل الدين ، وكثيرًا ما كانت الأراضى تباع جبرًا قبل أن يكون صاحبها قد علم بأن مزاد بيعها قد أشهر . وهكذا أطاحوا بأحكام المحاكم المختلطة التى كانت دائمًا فى صالح الأجانب ، كذلك استولى الفلاحون على بعض أراضى الملاك ، وسرى عليها ما طبق على الجفالك فى التقسيم(٢) .

وآمن الفلاحون بأن عرابى سيلغى جميع الديون سواء كانت على الحكومة أو الأهالى ، وقد فكر القائمون على الثورة فى هذا الأمر ، وبناء على ذلك أذيع أن ديون المرابين سوف تُلغى على يد عرابى ، وأن توفيقًا يمانعه من ذلك ، فكان هذا حافز للمزيد من الكراهية للخديو والمزيد من الحب لعرابى ، فى الوقت الذى أيقن فيه الجميع أن السلطة والقوة والسلطان فى يد عرابى زعيم الثورة .

واحتلت مسألة الديون مكانة بالنسبة للفلاح ، فهو دائمًا مثقلاً بها لحاجته الضرورية لدفع الضرائب ، وكان البنك العقارى دائمًا ما يرد الفلاح خائبًا ميئوسًا ، فهو لا يقرض أحدًا إلا أن يأخذ تحت يده ضمانات كافية من حجج التمليك ونحوها ما يعز وجوده لدى الفلاحين ، بالرغم من أن نظار الحقانية صرحت للمحاكم بإخراج حجة (أيلولة) لمن يطلب إخراجها من الذين كانوا قد دفعوا المقابلة « على شرط أن يؤخذ منه ١٠٠ قرش قيمة الحجة وكتابتها ، فاندفع الفلاحون إليها وبيدهم بيانات أطيانهم ، ولكنهم كانوا يلقون فى سبيل ذلك عناء شديدًا فوق ما هم فيه من شدة الحاجة ، حيث إن المحاكم لا تسعفهم بل تقابل الطلب بالتسويف »(٣) .

لذلك كان لابد من الالتجاء للمرابين ، فأقرضوا الفلاحين بفوائد عالية كان من الصعب على الفلاح أن يوفى حتى بتلك الفوائد ، إذن فلم يعد من المستبعد أن تحدث

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٩٣ فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨١ .

عملية رد فعل واسعة النطاق ، ويقول بلنت « إن ثورة ١٨٨١ اكتسبت مغزى ذا قوة عند الرأى العام فى وقت كان فيه اليونانيون بائعو المشروبات الروحية الذين مزجوا ذلك بإقراضهم النقود فى القرى وخاصة فى الوجه البحرى ، والحى الذى كنت أقيم فيه كان مثالاً حيًا لهذه الشرور ، وفى أثناء عودتى هذه السنة إلى القاهرة وجدت على شريط السكة الحديدية الضيقة على كل محطة دكانًا لبيع المشروبات الروحية تدار بواسطة يونانى مرابى يجذب الفلاحين لتذوق الخمور المحرقة بغرض إسكارهم وإقراضهم النقود بالربا المرتفع »[١] ، ويؤكد شاهد عيان آخر أن « كل فلاحى الدلتا ومصر الوسطى كانوا مدينين بغزارة للمرابين اليونانيين ، وتبعًا لذلك أصبح من السهل أن تتعمق بحرارة تلك الكراهية ضد الأجانب عمومًا »[٢] .

وبدأت حوادث تصفية الحساب بين الفلاحين وهؤلاء المرابين ، وكانت هناك السندات - الكمبيالات - التى تثبت إدانة الفلاحين ، فرأوا الإستيلاء عليها عنوة حتى تسقط ديونهم ، « كان الخواجة فنجيلى إسكندر التاجر بناحية طوخ له مبلغ طرف منصور أبو رياشة وخليل الخضراوى وبتوجيهه للناحية لمطالبتهما بالدين ، تقابل مع منصور وخليل وطلبا منه الحساب على المطلوب منهما له ، فأخرج محفظة من جيبه لأعمال حسابهما ، فخطف منصور المحفظة لعلمه أن بها السندات ، ونزل الاثنان عليه بالعصا » ، كذلك « عندما أرسل الخواجة طناش سماكويلو تابعه الخواجة أندريه ليحصل مطلوبه من أهالى العزبة الكائنة بأراضى ناحية الباجور ، فبوجوده بمنزل إبراهيم الأقطش فى مكان العزبة وإخباره بالمطلوب منها ومن أهاليها ، أخذوا منه بالقوة كامل السندات الموجودة معه »[٣] ، وتكررت هذه الحوادث ووصل الأمر إلى التهديد بالقتل ، وكانت النتيجة استرداد السندات وتمزيقها . وهكذا سيطر الغضب على جموع الفلاحين .

هذا بينما نرى أن من الفلاحين من ماطل فى الدفع بل وأنكر الدين « وهدد صاحبه وتوعده ، فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت معاملتهم لأهل البلاد ، ونزح الكثير منهم إلى المدن الكبيرة ، وقد تبدل ورقهم ورقًا حتى تعطل البيع والشراء »[٤] ،

---

(١) Blunt , My Diaries, Vol. I, p. 34 .

(٢) Wallace , op. cit., p. 86 .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٢ ، ٨ مايو ١٨٨٢ ، معية سنية عربى ، إفادات ، سجل ٩ ، مجموعة ٦٤ ، ٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٤) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٧ .

وساءت حالة الأجانب الملاك والتجار ، وأصبح الفلاحون أحرارًا يفعلون ما يشاءون « من غير حساب ولا عقاب ، فكثر التعدى على المسيحيين بأن أخذ الأهالى يسومونهم خسفًا وهوانًا ويوسعونهم شتمًا وسبابًا ، بحيث أصبح التاجر منهم غير قادر على تحصيل حقوقه واستيفاء ديونه من الفلاحين »(١) .

وبدأ هجوم الفلاحين علي الأجانب ، فقد كان مجرد مرور أى أجنبى بالقرية - وكثيرًا ما كان المارون هم المرابون - يتم التعدى عليه « تعدى المدعو سليمان الصعيدى على الخواجة جورجى نقولا بالضرب حالة كونه مارًا بالبندر بشبين منوفية ومعه نبوت »(٢) ، وقد شمل الانتقام الاعتداء على أراضيهم « هجم الفلاحون على أبعادية الخواجة يعقوب وضربوا حراسها البرابرة »(٣) ، ولم يكن الأوربيون فقط الذين وجه لهم هذا ، وإنما أيضًا السوريون واليهود على أساس امتهانهم الوظيفة نفسها .

كان ذلك يتفق مع ميول الثورة ورجالها الذين لم يتوانوا لحظة فى أى اجتماع أو اية خطبة أو اية فى مقالة ، إلا وهاجموا فيها الأجانب وأرادوا تطهير مصر من براثن مصاصى الدماء المصرية الذين استحوذوا على خيرات مصر .

وتبع ذلك تهديد الأجانب بالقتل ، هؤلاء الذين كانت لهم قضايا مع الفلاحين وكسبوها وارتاحوا لتلك الأحكام غير العادلة التى صدرت لصالحهم ، فبدأت الدوائر تدور عليهم لتسقط هذه الأحكام ، فقد حدث أنه فى عام ١٨٨٠ أقام ثلاثة من الفلاحين دعوى أمام المحكمة المختلطة على « مستر كوتريللى » وهو مهندس رى مدعين عليه بدين ، وكانت نتيجة الحكم لصالحه ، وازداد الأمر سوءًا بأن حكم على الفلاحين بالتعويض ، وفى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ قابلوه وطالبوه بحقهم المسلوب ، فلم ينصت ، فهددوه بالقتل فى الحال إذا رفض إعطاءهم مالهم ، فأسرع إلى القنصل الإنجليزى الذى نصحه بمغادرة البلاد فورًا(٤) .

وجاء دور التنفيذ فى القتل ففى٢٦ يونية ١٨٨٢ ورد إلى الإسكندرية « نبأ برقى من بنها العسل يخبر بقتل أحد اليونانيين فيها ، قيل أن أحد مديونية الفلاحين قتله ، وأن الباعث على ذلك تمنعه عن إعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٤٨ .
(٢) محافظ الثورة العربية ، محفظة ١٦ دوسيه ٢٧٤ .
(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٢٠٧ فى ٩ مايو ١٨٨١ .
(٤) Commons , Vol. CCIXXI, June 26, 1882, p. 406 .

واجب الأداء »[١] ، وقد أخبر نائب القنصل الإنجليزى حكومته بأن المقتولين عشرة من اليونانيين وثلاثة من الإسرائيليين ، وأيدته بعض من المصادر[٢] ، وبصرف النظر عن الاختلاف فى العدد ، فالحقيقة أمر واحد هى الرغبة فى الإنتقام .

وعقب العدوان الإنجليزى على مصر وقيام الحرب ، أصبح الشعور معبأ بالحقد ، وكان الهجوم على الأجانب أوسع انتشارًا وأكثر جراة وأعمق تأثيرًا ، ففى طنطا أمسك الفلاحون « بالنصارى واليهود والأروام وهجموا عليهم وكسروا دكاكينهم » وازداد عدد القتلى للدرجة التى امتلأت بها ست « عربات كارو » ، ولم يكن الفلاحون بمفردهم إذ كان معهم مهاجرو الإسكندرية ، وأشعل الموقف وجود يوسف أبو دية أحد الضباط الثوريين ومعاون عبد العال حلمى ، إذ مر على طنطا أثناء توجهه من دمياط إلى عرابى فى كفر الدوار وكانت ثورته جارفة ، فراح يشجع ويبارك[٣] ، إلى أن حسم المنشاوى الأمر وهدأ الموقف .

وفى « المحلة وسمنود » اعتدى الفلاحون على الأجانب ، وقتلوا بعضًا منهم[٤] ، ويقول شاهد عيان لأحداث المحلة « وصلنا إلى بيت المفتش - وهو مفتش التأريع والمساحة - فوجدناه مغلقًا وعلى بابه جماهير ثائرة يريدون كسره واقتحام البيت لنهبه وقتل من فيه ، والأهالى ثاروا رجالاً ونساءً وأطفالاً يصيحون الله أكبر ويهجمون على الحانات والدكاكين ، وكان القتلى ستة من الأروام وثلاثة من مهندسى التأريع الأوربيين »[٥] .

وواضح أن عملية الانتقام كانت من مهندسى المساحة الأجانب الذين لعبوا بأراضى الفلاحين ، وكم اقتطعوا منها لحساب مصلحتهم وذويهم باعتراف المسئولين الأجانب أنفسهم ، ثم الهجوم على الحانات ، وكان ذلك ضروريًا وجاء متأخرًا ، فالدين يحرم التعامل مع هؤلاء .

ومضى ذلك النشاط ، فتكرر ما حدث فى كفر الزيات[٦] ، وفى دمنهور يقول نائب قنصل اليونان « إن الفلاحين مثلوا بالجثث وسكبوا عليها وأحرقوها ، وقدرت

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٤٩ .

(٢) Egypt, No. 17 (1882), June 26, 1882, p. 37 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤١٠ .

(٤) The Times, July 25, 1882 .

(٥) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ١٤٣ .

(٦) The Times, op. cit.

بحوالى خمس أو ست »[١] ، وراح يرمى الفلاحين بالتعصب ، وأن الأجانب لا ذنب لهم وأظهرهم بأنهم أصبحوا بل حول ولا قوة ، كما فعل مراسل صحيفة التيمز الذى أشفق على ما حدث لهم على أيدى الفلاحين فى طوخ[٢] .

كان هذا العنف تعبيرًا عن السخط لما ذاقه الفلاحون على أيدى الأجانب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فمصر فى حالة حرب مع الإنجليز ، ومن ثم قدموا كل ما يمتلكونه من قوة انتقامية يحاربون بها الأعداء فى صورة الأجانب جميعهم ، ومن الملاحظ أن القائمين على الثورة وعلى رأسهم عرابى لم يُقدموا على مجازاة أى فلاح شهر سلاحه أمام أجنبى ، فكان ذلك دليلاً على الراحة التى انتابت الثورة من جراء ما حدث ، وكل ما فعله زعيم الثورة للرد على ما حدث أنه استبدل بعض المديرين للقليوبية والمنوفية والغربية لتهدئة الموقف وأحالهم للمحاكمة بسبب « عدم حفظ الأمن » ، بالإضافة إلى إرساله فرقة عسكرية بقيادة محمد عبيد إلى دمنهور لإعادة الأمن والطمأنينة . وبما أنه كان متعهدًا للقناصل بالمحافظة على أمن الأجانب ، أرسل للمديرين بصيانة حياة وأموال الأوربيين ، وأحيانًا يطلب حماية ممتلكات الأجانب المهاجرين من السطو والتعدى[٣] . وكانت النتيجة أنه لم يأت ٢٣ يوليو ١٨٨٢ حتى كان عدد الهاربين من الأجانب ٢٨ ألفًا[٤] ، وواضح أن ذلك كان عقب الضربات التى وجهت إليهم .

واستمرت المناوأة ، ولم يعد الأمر مقتصرًا على تحقيق مصالح خاصة للفلاحين، وإنما تعداه إلى نطاق أوسع من أجل مصر والدفاع عنها « فقد قام فلاح من السلامية دقهلية بالهجوم على الخواجة طناش اندر ساكى وكيل مخالى اندرساكى التاجر بناحية السلامية بمركز ميت سمنود وهو تاجر أسلحة وسيوف واستولى على تلك الأسلحة ، وأرسلها للجيش » ، وفى بلبيس هجم الفلاحون على ثلاثة محلات للأجانب وأخذوا ما بها من سلاح ، احتوى على بنادق وسيوف وطبنجات ورصاص وبارود وأوصلوها إلى مقر القيادة[٥] .

---

(١) Scotides, No , L'Egypte Contemporaine et Arabi pacha, p. 215 .

(٢) The Times, July 21, 1882 .

(٣) Ibid ، أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٣٧ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ص ١٤١ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ٣ ، محفظة ٢ ، دوسيهات ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٥ .

(٤) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ مجموعة ٢٦/٣١ ، ٢٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٨ ، ٣١ .

البعد السياسى لثورة الفلاحين

سيطرت فكرة سقوط النظام القائم على يد عرابى ، وسرى اتجاه قوى بين الفلاحين أنه بنهاية الحرب وانتصار مصر لن يبقى الخديو على عرش مصر وسيذهب ومن معه من الأكابر والذوات الباشوات ، حيث إنه هو المتسبب « فى هتك أعراض المسلمين فى الإسكندرية وقتلهم » ومضى السب فيه والدعاء لعرابى بالنصر ليس فقط على العدو الإنجليزى ولكن أيضًا على الخديو[1] ، وآمنوا بأن قائد الثورة سيكون الوالى عليهم ، فهو من السلالة النبوية الشريفة ، وولى من أولياء الله المكشوف عنهم الحجاب ، وأذاع العلماء فى القرى « أنه توجد نصوص قاضية على أن عرابيًا سينتصر ويتسلم ولاية مصر بدلاً من الخديو ، ويجرى رفع المظالم ، ويقطع دابر الأفرنج الذين هم عمد البلاد ، وأن عرابيًا سيصير ملكًا للعرب عمومًا بما فيها الشام والحجاز »[2] .

ذلك هو الشكل السياسى الذى أراده الفلاحون ، لا حاكمًا من أسرة أجنبية ، ولا أتراك مستوردين ، ولا أجانب مسيطرين ، إنما حاكم فلاح مصرى وحكومة مشكلة من فلاحين ، وتأصلت النزعة القومية ، وراود الأمل فى عودة مجد مصر عندما كانت مسيطرة على الشام والحجاز وحملها للواء العروبة قبل دخولها تحت الحكم العثمانى .

وكانت المشاركة فى اختيار عرابى للدفاع عنهم وعن مصر مسألة ديمقراطية للغاية ، فقد أراد عرابى أن يستند على الشعب بفئاته فى الوقت الذى رأى فيه الفلاحون المشاركة فى تنصيب هذا الزعيم الفلاح عليهم ، ومن هنا كانت تلك الأختام التى وكلته وكانت سندًا قويًا له ، دعم به موقفه أمام القوى المضادة الداخلية والخارجية ، كذلك عبرت عن الرأى العام برفض التدخل الأجنبى الذى تمثل فى مذكرة مايو المشتركة ، ورفض من قبلها متمثلاً فى الخديو ، فيذكر ماليت لوزير خارجيته أن التوقيعات أخذت من الطبقات الفقيرة ضد المذكرة الإنجليزية الفرنسية وضد الخديو »[3] ، لقد أدلى الفلاحون برأيهم بأنهم لا يريدون الخديو ولا يريدون

---

(١) المصدر نفسه ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤١ .

(٣) Egypt, No. 8 (1882), No. 111, May 20, 1882 .

اللائحة على أرض مصر كلها ، ومما لا شك فيه أنه كان للأعيان والعلماء دور فى هذه العملية .

وللنديم مشاركته ، إذ وزع الخطباء على المديريات ، تخطب وتطلب من الناس كتابة العرائض وإرسالها إلى بعثة السلطان ليحتجوا على المذكرة ويطلبوا عزل الخديوى ، وللعسكريين أيضًا مهمة فى عمليات التحام قوى الشعب ، فقد قام بعضهم بعمليات التختيم داخل القرى[1] .

ويجب أن نذكر أن الفلاحين لم يكونوا منساقين فى ذلك ، حيث إن وعيهم قد وصل إلى درجة عالية سهلت المهمة ، فقد كان كل مصرى قلبه يخفق مع عرابى ، وكم أساءتهم استقالته مع نظارة الثورة ، وكم أسعدتهم عودته . وعندما بدأت الحرب كانت دعوات النصر تتردد على كل لسان ، وبلغت المشاركة والحماسة أشدها ، ويقول شاهد عيان « وفى كل صباح كان الفلاحون يحكى كل واحد منهم للآخر الأخبار التى تصل فى المساء عن تلك الإنتصارات الرائعة على الغزو الأجنبى ، وهذه الضربات القاسمة لمغتصبى أرضهم »[2] . وكانت أجهزة الدعاية للثورة تمضى داخل الريف لتعطى الاطمئنان عن استعدادات الجيش وعلى الأمل الكبير فى النصر .

وبالرغم من تعرض بعض الفلاحين لنفوذ القوى المضادة والتنكيل بهم لكى يحيدوا عن تأييد الثورة ، وذلك بالضغط عليهم بجميع الوسائل الممكنة ، فإنهم لم يتراجعوا أبدًا ، وظلوا متمسكين بمبادئهم حتي النهاية ، فقد قام مدير ومفتش جفلك فى « ميت خلف » بالمنوفية بالتحايل ، وسجن أحد الفلاحين لأنه دعا بنصرة عرابى، وكان هذا المدير من الرافضين ووقف أمام طلبات الجيش ، كما قبض محمد أفندى فؤاد الشركسى على من كان يطوف ويقول : « الله ينصرك يا عرابى بجيش المؤمنين » وأجرى ضربه ضربًا فاحشًا وحبسه أسبوعًا ، وتعرض فلاحو تفتيش « كفور نجم » بالدقهلية بالطرد من أراضى التفتيش ، إذ كان المفتش هو شاهين بك الشركسى ينبه على الفلاحين بعدم إطاعة طلبات الجيش من جمع الأنفار ، لكن وطنيتهم فرضت عليهم رفض الأوامر واستمروا فى طريقهم ، ولما تأكد من استحالة ردعهم وقَّع عليهم الجزاء القاسى فيقولون « أبرق للدائرة الإلهامية لإخراجنا من أوطاننا بالتفتيش وإحرامنا من التعيش ، ووزع أطياننا بمعرفته مع أنها كانت مؤجرة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٠ .

(٢) Wallace. op. cit., p. 291 .

لنا من مدة جدودنا لحد تاريخه » ، ولم يكتف بذلك فسجن أحد شيوخهم ، فأمر عرابى بالتحقيق ومعاقبة المسئول[١] .

ووصل بالفلاحين أنهم شنوا حربًا شعواء على أعداء الثورة ، فكانوا على وعى ويقظة ، واستطاعوا أن يقفوا أمام حركات الخيانة للمعسكر المضاد ، فقد كتب يعقوب صبرى مدير الفيوم إلى عرابى يقول « بلغنا ممن يوثق بأخباره أنه بينما كان بمحطة الواسطى ينتظر وابور الفيوم إذ أقبل عليه شخص عليه جلابية رثة وعمامة خلقة واقع عليه القبض من جملة من الفلاحين يلتجئ إليه لتخليصه منهم ، وإذا هو عثمان بك رافت أمير خور الخديوى ، وذهبوا به إلى مأمور مالية بنى سويف ، وقالوا له إن هذا الشخص متخف وكان فى قارب فى البحر تحت الواسطى ، وأنهم لهذه المناسبة أرادوا القبض عليه فخرج إلى البحر لقصد الفرار ، فضبطوه وأحضروه إلى مأمور مالية بنى سويف فسأله عن الهيئة التى هو متزى بها فأورى أن هذه ملابس نومه وأنه قاصد أبعاديته ببنى سويف ، وأبرز له جوابًا من وكيله ، فما كان من مأمور المالية إلا أنه اكتفى بذلك، وأطلق سراحه » ، ومن هذا يتبين أن الفلاحين أدركوا أنه جاسوس وعدو يعمل ضد الثورة فأمسكوا به على الفور ، وللأسف أطلق سراحه هذا المأمور ، فوجه عرابى أمره للبحث عنه والقبض عليه فى جميع الجهات بالبنادر والمراكز[٢] .

وعمل بعض الفلاحين كطابور خامس للجيش ، فعندما أعلن سيمور أن من يحضر له أسيرًا من المصريين يعطيه خمسمائة جنيه ، فحضر له أهالى وفلاحون من إدكو وأخذوا منه مائة جنيه متقدمًا وطلبوا بعض العساكر الإنجليز ليكونوا معهم لاقتناص العساكر المصرية ، فأعطى لهم خمسة عشر رجلاً ، فما أن وصلوا إلى كفر الدوار حتى سلموا العساكر الإنجليز للمعسكر المصرى[٣] .

وعندما لعبت الخيانة دورها بزعامة سلطان ، وأذيع فى المنيا أنه سيدخل مصر من الجبل ومعه مائتا عسكرى إنجليزى ، جمع أحد الفلاحين على الفور أنفارًا كثيرة وخيالة بالأسلحة لسد الدروب والمنافذ بالجبل ومنعه من الدخول . ووجه الفلاحون نشاطهم تجاه الذوات ، فأعلنوا أن من يقاوم عرابى منهم لابد من هلاكه وسلب ما يمتلكه[٤] ، وراحوا يهددون من يتأخر منهم فى سداد الإعانة الحربية

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧،دوسيه ٢٨، محفظة ٤١، دوسيه ١، محفظة ٥،دوسيه ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٧ ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٣) الطائف ، عدد ٤٩ فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤١ .

بالتجريد من أطيانهم التى تؤخذ وتوزع على من يؤدى طلبات الجهادية ، وفى البحيرة هاجموا أراضى الوسية الخاصة بحيدر باشا » واستولوا على مواشيها من أجل الجهادية »[١] .

الفلاحون والمجهود الحربى :

(أ) التبرعات

مع قيام الحرب أحس كل مصرى بالواجب الذى عليه أن يقوم به ، وكانت التبرعات العينية إحدى سمات المشاركة الفعالة لقوى مصر جميعها - وقد قدم الفلاحون الكثير بالرغم من تلك الظروف الصعبة التى طحنتهم وأتت على كل ما لهم- فكانت عماداً للقوات المصرية فى وقت فيه الخزانة المصرية خاوية كما تسلمها عرابى بعد أن أخذت الأموال إلى الأسطول البريطانى على يد كولفن ، وحتى أموال صندوق الدين حملها أعضاؤه إلى السفن الحربية[٢] .

اعتمد عرابى على الوطنية الصادقة لقوى مصر ، وخاصة الفلاحين ، وذلك الحب المتبادل بينهما ، فأصبح على ثقة بأنه إذا طلب سيجاب ، لذا نراه يخبر العمد والمشايخ بمتطلبات قواته ، وعلى الفور كانت الإمدادات تصل للجيش بغاية السهولة مصحوبة بالحماس الوطنى الملتهب ومرسلة رأساً إلى عرابى .

ومن الصعب عمل حصر شامل لتلك التبرعات ، فصحيفة الوقائع المصرية ، والمحفظة الأولى والرابعة من محافظ الثورة العرابية تزخر بالأعداد الهائلة والكميات الوفيرة من القمح والأذرة والشعير والفول والعدس والنخيل والجمال والماشية والأغنام والفاكهة والمسلى التى وفدت على معسكرات الجيش فى كفر الدوار ، تلك التبرعات التى كانت ترد كل يوم ولم تنقطع أبداً[٣] ، حتى لقد ملئت مخازن الجيش عن آخرها بالأغذية ، لدرجة أن من لا يمتلك جمع الحطب وأرسله وقوداً للمعسكرات ، والبعض تبرع بكل ما تمتلكه يداه ، والبعض قدّم طلبات الجيش نصف ثمنها تبرعاً والنصف الآخر بثمنه الأصلى، وشارك جميع الفلاحين فى هذا المجهود ، فمن كانت عنده بقرة أو جاموسة أو بعض من أرادب القمح أو الشعير لم يبخل

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٥ .

(٢) محمود الخفيف ، أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .

(٣) Ninet , Arabi pacha , p. 216 .

وقدمها ، وعلى سبيل المثال ، ففى أحد الكفور بالمنوفية تمكن الفلاحون ذوو الإمكانيات المحدودة من تجميع ٨٧ رأس خيول وبغال وفحول وجاموس لإهدائها للجيش[١] .

ومن اللافت للنظر أن برقيات أنباء التبرع بها نوع من الرجاء لقبول تلك الهبات « نؤمل التصريح باستلامهم » ، والبعض يضيف « وجميعنا باسطين الدعوات لعزة مولانا عز وجل أم يؤيدكم بالنصر المبين » ، وعلى الفور يقوم عرابى بالرد ، فكان اللقاء بين القائد وشعبه ، فيقول فى أحد ردوده « وهذا دلالة على ما لحضرتكم من الغيرة الدينية والحمية الوطنية ، فأهديكم مزيد سرورى وممنونيتى وأتشكر لكم على حسن صنيعكم أنت وأمثالكم »[٢] .

وقد ساعد توقف الحركة التجارية بسبب الحرب على توفر كل السلع وتدبيرها وإهدائها للجيش المحارب ، وبجوار السلع كانت هناك الأموال التى قدمت كتبرعات من فلاحى النواحى كل على حسب إمكاناته ، فعلى سبيل المثال لا الحصر « تبرع أهالى ناحية قهرة بـ ٢٣١٤ قرشًا ، وناحية أغناسية بـ ٢٣٩٤ قرشًا ، وناحية بشنا بـ ٢٢١٥ قرشًا ، ومثلهم أهالى ناحية الحمام وبنى هارون والشناوى وناحية غيط البحارى وناحية الرمل القبلى إذ بلغت تبرعاتهم ١٧٦٦٤٢١٣ قرشًا وأهالى بحرى ١٠٣٥٤٥٢٦ قرشًا »[٣] ، وليس المقصود هو تجميع المبالغ ومعرفة قدرها ، ولكن الهدف أنها كانت على المستوى الكلى لمديريات مصر لتعبر وتثبت المشاركة الفعالة ، وأصدق تعبير ما أقره عرابى وهو فى سجن الدائرة عقب نهاية الثورة « أن الأموال الغزيرة زحفت على خزينة الجيش »[٤] .

وكان لأقباط مصر مساهمة حقيقية سواء فى تقديم المساعدات العينية أو المالية[٥] ، حيث انعدمت أى ثغرة يمكن لها أن تقيم فرصة لفصم عرى الوحدة ، فحرص الأقباط على تجنب أية اضطرابات تسىء للحركة الوطنية ، واجتمع الفلاحون على وحدة وطنية ومفاهيم جديدة وفقًا لمبادئ الثورة ، ففى تقرير محمد عبده لبرودلى يسجل « كان كفاحنا وطنيًا موحدًا بين كل أجناس مصر ، الكرد

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٤ فى ٢٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيهات ١٤ ، ١٧ ، ٢٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ أغسطس ، عدد ١٩٧٦ فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) Broadly . How We Defended Arabi And His Friends . p. 133 .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ٢٢ ، الوقائع المصرية ، العدد نفسه .

والمسلمين والأقباط واليهود ارتبطوا برابطة الحماسة ، وقدموا جميع المساعدات فالحرب هى بين المصريين جميعًا وإنجلترا »[1] .

وكتب عرابى لصابونجي يقول « إن النفقات التى تكلفها ١٠٠,٠٠٠ جندى مصرى أثناء الحرب هى هبات من الأمة المصرية ، ففى بداية الحرب لم يكن هناك أكثر من ١٠,٠٠٠ جندى تحت السلاح ، ولا أكثر من ١,٢٠٠ من الزى العسكرى فى المخازن ولم تكن جاهزة ، ١,٥٠٠ بشل - مكيال إنجليزى للحبوب ٣٦,٣٥ كيلو - من القمح ، ولكن عند نهاية الحرب كان بخزائن الجيش والمديريات والمخازن ما يزيد عن ١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى من الأموال ، والمنتجات والماشية ، والجاموس والغنم ، والأقمشة ، كل ذلك قدمته الأمة لجيشها المدافع عن بلدها ، ولم ينفق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة »[2] ، وحينما انتهت الثورة كانت التهم التى وجهت للكثيرين أنهم قدموا التبرعات للقوات المصرية ، تلك التى ساهم فيها الفلاحون بالنصيب الوافر .

(ب) التطوع والعمل فى الميدان الحربى

لم تكن مساهمة الفلاحين عن طريق التبرعات فقط ، بل ازداد الأمر بما ضحوا به من أجل مصر عن طريق تقديم أنفسهم للدفاع عن شرف الوطن الذى دنسته أقدام الغزو الأجنبى ، واشتركوا إما متطوعين أو عمال فى بناء الاستحكامات والتجهيزات العسكرية .

وهذا يدعو للتساؤل ، كيف أمكن للفلاح أن تعود على الا يفارق أرضه والا يذهب إلى الجهادية التى كانت سخرة مفروضة عليه ، وكثيرًا ما كان يجمع النقود لدفع البدلية ، أو يجمع الرشوة للقائمين على جمع أنفارها ، أو يقطع إصبعه أو يخرق عينه من أجل أن يبقى فى أرضه ولا يذهب إليها ، أن يذهب الآن ويقدم نفسه متطوعًا بإرادته لا بإرادة أحد غيره ؟ لقد دفعه الحماس وقاده الواجب ، فقد عدت الحرب بين مصر والإنجليز حربًا دينية مقدسة . إذن فالجهاد فى سبيل الله هو أرقى درجات الإيمان حيث الجنة هى النصيب ، والفلاح المصرى متدين بطبيعته ويتفانى فى هذا السبيل ، كما كان ذلك الرباط الذى توثق بين عرابى

---

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 231 .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 541 .

والفلاحين قوة دافعة لهم يلبون نداءه ويطيعون أوامره ، وهؤلاء الدعاة الذين جابوا القرى يحثون على التطوع بالخيول والأسلحة لحرب المسيحيين الأجانب أعداء الدين والوطن ، وأنه من الواجب على كل مسلم الذب عن نفسه وعن أهله ووطنه .

وأوراق الثورة العرابية مليئة بنداءات الفلاحين لأهالى بلادهم ، تلك التى كان لها الأثر الكبير والعميق لدى الفلاحين « كان عبد ربه يوسف عبده من كفر عبد الخالق مديرية المنيا يمر على النواحى وينادى : هيا بنا نتوجه لطرف عرابى الذى هو من نسل المبرور ، بعثه الله لحماية الوطن والدين ، وسيجعله واليًا على القطر المصرى ، وأن أسيادنا المشايخ متوجهين للحرابة ، وأن أحدهم نظر رؤية تدل على نصرته » وكان ممتطيًا لجواده وبيده البيرق ويقول بأعلى صوته « نصره نصره عرابى منصور يا قوم إجعلوا الموت أمام أعينكم ولا تخشوا من شىء ومن لم يمت بالسيف مات بغيره » ، وعلى الفور قام الفلاحون بالتجهيزات العسكرية من مشترى أسلحة وخيول وخيام وما يلزم من الذخائر وتوجهوا صحبة المشايخ بزيادة ألفين وخمسمائة فرد[1] .

واستمرت النداءات التى أثارت الحمية الدينية والوطنية ، وكان للنديم مساهمته سواء عن طريق صحيفة الطائف التى التهبت مقالاتها بالحديث عن الجهاد ، واستخدم الآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية ، ووصف المعارك والانتصارات التى يتبعها خلق الحماس والثقة والقوة ، وكان أيضًا له الدور مع أتباعه فى حث الفلاحين وحشدهم للاشتراك فى الدفاع عن أرض الوطن ، وطبيعى أن يلبى الفلاحون هذا النداء ، وتلك الصيحات التى خرجت لتنادى أهل مصر لإنقاذ البلاد ، وسرت هذه الروح بعد أن أحس الجميع أن الإسلام فى خطر ، والواجب يحتم عليهم القيام للوقوف مع ذلك البطل لإنقاذ مصر « وبهذه الطريقة أثيرت حماسة الفلاحين وازداد الحزب الوطنى أعدادًا من المؤيدين »[2] ، وذاع صيت الفلاحين المصريين الذين يدافعون عن بلادهم فتقر إحدى الصحف التركية « بأنه بعد أن كانوا ينفرون من العسكرية ولا يجلبون إليها إلا فى الحديد ، أصبحت الآن

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٨ محفظة ١٢ ، دوسيه ١٨٧ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٧ .

(٢) Wallace , op. cit., p. 87 .

رغبتهم فى الدخول تحت السلاح قد حيرت العقول وما ذلك فى الحقيقة إلا لكونهم يريدون الوقوف أمام التعرضات الأجنبية »[١] .

وماجت البلاد بطوفان التطوع ، ويذكر محمد عبده لبرودلى « رأيت الأهالى يذهبون إلى الحرب بمحض إرادتهم سواء كانوا فلاحين أو بدو مبدين شوقهم الكبير لمحاربة الإنجليز حتى الأقباط أبدو نفس الشعور »[٢] . وتتابعت الوفود التى تصل أرض المعركة من أدنى مصر إلى أقصاها ، وتدفقت البرقيات على عرابى تحمل رغبة الفلاحين للتطوع ، ويرد عليهم ويشكرهم ، ومن كثرة الأعداد الملحة فى الإشتراك ، نرى عرابى يبلغ بعض مديرى المديريات « نحن شاكرين المتطوعين غيرتهم على أوطانهم ، فبلغوهم عنا ذلك ، وأخبروهم أن يكونوا مستعدين لحين الطلب ، أما الآن فيطمئنوا فى أماكنهم آمنين »[٣] .

لقد أيقن الفلاحون أنهم يحاربون من أجل حريتهم وبلدهم ، ويحلل بلنت سبب اشتراكهم « إن الفلاحين قد استغرقتهم ديونهم للدائنين اليونانيين ، فكان هذا من أسباب حماستهم لأنهم توهموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون ، فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال »[٤] ، لكن لم يكن الأمر كما تصوره ، فإنه من السهل عليهم التخلص من ديونهم مع المرابين ، فقد تمكنوا من إيجاد الطرف لذلك واستخدموها ، وإنما الذى جعلهم يشتركون فى الحرب بتلك الحماسة هو الإيمان الصادق ، والوعى العميق ، والواجب المقدس ، وحب القائد ، جعلهم يتقلبون قرار الحرب بالرضا الكامل ، ويقسم نينيه أن فلاحى مصر كانت الوطنية والحرية لديهم يفضلونهما على كل شىء[٥] .

وأوراق الثورة العرابية تشير إلى أن الكثير منهم كانوا معدمين ، فنرى مأمور تشهيل العساكر بقنا يرسل إلى عرابى ليخبره « وجود أشخاص من الأهالى راغبين التوجه للمجاهدة ، والبعض منهم محتاجين لصرف جروى من النقود لزوم القوت الضرورى فقط لغاية وصولهم لمركز الجيش ، وصار الاستئذان عن ذلك من المديرية

---

(١) المفيد ، عدد ٥١ فى ٢٧ أبريل ١٨٨٢ عن صحيفة ترجمان الحقيقة (الأستانة) ، عدد ٢٣ جمادى الأولى ١٢٩٩هـ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 233 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ١٨ .

(٤) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 394 .

(٥) Ninet , Arabi pacha , p. 268 .

فلم أتمكن الصرف ، فنأمل صدور أمر سعادتكم إذا رئى الموافقة ، إما بصرف نقود أو بصرف بقسماط لهم من الجارى تشغيله بالمديرية »[١] .

ومما أشعل الحماس تلك الأخبار التى كانت تغطى أرض مصر كلها بانتصارات الجيش على أعداء الله ، وذلك عن طريق الصحافة ، والخطب فى المساجد ، والدعاة المتنقلين أو الدائمين ، وأصبح أفراد كل قرية يتكلمون ويتناقشون ويبدون الرأى فى المسائل السياسية والشئون الحربية التى تناولت نقط الجيش ولقاء المعارك والهجوم المصرى[٢] .

وكان لهذا رد فعله القوى ، فلم تخل قطارات السكة الحديدية فى أى يوم من أعداد المتطوعين بأسلحتهم سواء كانت بنادق أو حتى نبابيت ، ومعهم خيولهم « مجاهدين على المحاربة ضد الخديو »[٣] ، إذن لم تكن الحرب ضد الإنجليز فحسب ، فهى أيضًا ضد من كان السبب فى إحضارهم ، واختلفت الآراء فى عدد المتطوعين ، إلا أنها كانت أعدادكبيرة ، ولم يكن يمضى عليهم إلا نحو خمسة عشر يومًا من التدريبات ويدخاون ميدان المعركة ، فتذكر صحيفة الوقائع المصرية « تعلموا فيها ما لو رآه منهم إنسان لم يفرق بينهم وبين العساكر القدامى ، فإذن يحق لسعادة أحمد عرابى أن يفخر بما كان له من الثقة فى الأمة المصرية ، فقد جذب إليه قلوب الأمة جميعها حتى أخلص الضباط فى التعليم والعساكر فى العلم »[٤] .

والكثير يلقى على هؤلاء سبب الهزيمة ، حقيقة أن الفترة الزمنية كانت غير كافية على تدريب تلك الأعداد الكبيرة ، وليس كما ذكرت الصحيفة أنه فى فترة قصيرة تساووا مع أصحاب المهنة ، هذا بالإضافة إلى أن التدريب كان نظريًا ولم يكن عمليًا ، وأثر ذلك فى اللقاء الميدانى ، ففى تقرير نمساوى يذكر « لم يصمد الفلاحون الذين حولهم عرابى بين يوم وليلة إلى جنود أمام القوات البريطانية التى هاجمتهم بالسلاح الأبيض فى خنادقهم برغم تفوقهم العددى الذى بلغ ضعف القوة البريطانية »[٥] ، لكن لم يكن الأمر كله هزيمة - تلك التى تضافرت عليها عدة عوامل - إذ حارب هؤلاء بشجاعة « وكانت قلوبهم تملؤها الكراهية للغازين »[٦] ،

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ ، دوسيه ٢٢٥ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٧ .

(٣) المصدر نفسه، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤..

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٥) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٦) Scotides , op. cit., p. 187 .

واستشهد الكثير منهم ، وكان نينيه شاهد عيان على أولئك الفلاحين حيث قال « لم يكونوا يحاربون من أجل نياشين أو مكافآت ، بل إن الروح الوطنية والثورة المتأججة فى صدورهم أثارت حماستهم »(١) .

وأمام هذه الروح المعنوية العالية ، وذلك القبول التام للرغبة الأكيدة فى الإشتراك لصد هجمات الغزو ، كان من الممكن أن تكون النتيجة غير ما وصلت إليه، ويلقى البعض اللوم على عرابى لعدم استغلال هذا الشعور الفياض فى تعبئة القوى الشعبية ، لكن لم يقصر عرابى فى ذلك إذ بدأ فى التنفيذ ، فحتى قبل إعلان الحرب جرت عملية استعدادات لتدريب الفلاحين وتسليحهم ، وقد ساهم « حميد أبو ستيت » فى تجميع قوى الفلاحين وتوزيع الأسلحة عليهم ، ومع الحرب نرى مدير قنا يطلب أرسال ألف بندقية لتسليح أهالى مديرية قنا للاستعداد(٢) . وفى منطقة بحيرة المنزلة دُعى الأهالى لحمل السلاح والتدريب بالطوابى القريبة ، فصدرت أوامر عرابى لمدير الدقهلية « لأجل حفظ بحيرة المنزلة ، نبهوا على مأمور مركز المنزلة بأن يستحضر العمد والمشايخ ويأخذ عليهم التعهد القوى باستخراج جميع الأنفار من الأهالى الذين لهم إلمام باستعمال الأسلحة النارية ، يجعلوا فى النقط المهمة فى بحيرة المنزلة لأجل حفظها مما عسى يطرأ من العدو بالدخول منها بواسطة مراكب ، وإذا لم يكن عندهم أسلحة لبعضهم فيصير طلبها من ديوان الجهادية » ، كما أرسل نفس المعنى لمدير الشرقية « باستحضار العمد والمشايخ وأخذ التعهد عليهم بحفظ بحيرة المطرية وإلزامهم باستخراج أنفار من بلادهم »(٣) ، وأخذ مدير الشرقية فى الحال بإعداد الأسلحة اللازمة للتنفيذ .

وبذلك أصبح هناك مناطق للدفاع الأهلى ، وقسمت الدقهلية وشواطئ البحيرة على خمسة آلاف فلاح تحت رئاسة العمد والمشايخ وإشراف مدير الدقهلية ومأمور دكرنس ، وأرسلت ٢٠٠٠ بندقية إلى عبد العال حلمى قائد دمياط ، ووزعت على الفلاحين لحراسة الشواطئ ومقاومة كل غزو يتوقع من هذه المناطق ، وعقب نهاية الثورة وجدت هذه الأسلحة مع الفلاحين ، واعترف كثير منهم بالمهام التى كانت

---

(١) Ninet , Arabi pacha , pp. 175 , 177 .

(٢) معية سنية ، دفتر صادر التلغرافات (١٨٨١ - ١٨٨٣) ، سجل ٢ ، مجموعة ٣٩ ، ١٧ يونيو ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٢٩٥ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ .

ملقاة على عاتقهم[١] . حقيقة أن تلك التعبئة لم تكن على المستوى الواسع ، لكنها وجدت وأقبل عليها الفلاحون ، وما كانت على عرابى إلا أن يتوسع فيها ويخضعها لنظام أدق .

ورأى عرابى تعبئة الخفراء للعمل فى الميدان الحربى ، فأرسل للمديريات بطلب تعيين حرس أهلى من المقتدرين على حمل السلاح لحفظ الأمن ، وأن يقوم بتعليمهم « ضباط المستحفظين وأصحاب المعاشات منهم » ووزعت أعداد الخفراء على البحيرة ١١٧٢ ، والقليوبية ١٠٣٨ ، والشرقية ٢٠٧٧ ، والغربية ٣٤٣٥ ، والدقهلية ٢٦٦٥ ، والجيزة ١٣٥٠ ، وبنى سويف ٦٩٥ ، والفيوم ٨٦٣ ، ومنية أبى خصيب ١٧٣٨، وأسيوط ٢٣٤٥ ، وجرجا ٢١٦٠ ، وقنا ١٦١٠ ، وإسنا ١٤٦٢ ، وقد وصل عددهم إلى ٢٥,٠٠٠ خفير[٢] . وازدادت رغبة الخفراء فى التطوع والانتظام فى السلك العسكرى ، ولم يقتصر الأمر على الشباب فكان كل من فى قدرته حمل السلاح قدم نفسه ، فبينما كان على فهمى يفرز الخفراء الواردين من المديريات « فورد عليه رجال من أهالى أسيوط الذين كانوا يتقدمون للفرز وهم باسمون مستبشرون فرأى من ضمنهم رجلاً قد أبيض الشيب رأسه ولحيته ، فأمر بإرجاعه ، فاحتد الرجل وقال لا تنظر يا سعادة الباشا إلى هذا الشيب ، فقربه الباشا وقبل لحيته البيضاء »[٣] .

وبينما نجح عرابى فى ذلك نجده لم يوفق فى مسألة الحرس الأهلى ، فقد رفضه المجلس العرفى وعلل الأمر « بكثرة أشغال الأهالى ، وأن الذين لهم مقدرة على حمل السلاح يكون أحرى تعليمهم بالآيات ويسافروا مع الجيش عند الاقتضاء » ويمضى مع تعليل رفضه « إن من يدخل تحت السلاح هم الفقراء المحتاجون للقوت ويخشى على البلاد إذات سلمت إليهم حراستها »[٤] ، وكان المجلس يهدف إلى إبعاد السلطة عن الشعب وهم من أصحاب المصالح التى يخشون عليها .

أما عن الفلاحين الذين اشتركوا فى بناء الاستحكامات ، فقد أدوا دورهم على أحسن وجه ، فإنه بعد ضرب الإسكندرية وإتخاذ قرار التحصين بكفر الدوار ، جُعل خط الدفاع فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية إلى الملاحة ، وأصبح ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة بمدافع

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٢٩٥ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٢٣٠ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى سبتمبر ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢١ ، دوسيه ٦ .

الكروب ، وكذلك التلال الموجودة بين المحمودية وأبى قير » وقد تم إجراء هذه الأعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة الحربية ومساعدة ٥,٠٠٠ رجل من الأهالى من مديرتى الغربية والمنوفية ومديرة البحيرة »[١] . وبذلك اشترك الفلاحون فى بناء هذه المواقع وحفر الخنادق أمام الخطوط الدفاعية ، ويذكر محمد شكرى باشا وكيل عموم الاستحكامات « حضر الفلاحون فوزعهم محمود باشا فهمى للشغل على طول الخط وعلى بعد نحو ١٠٠٠ متر من كنج عثمان ، ورأيته وهو يقسم مزاغل البيادة بيده ، ويعلمها للمهندسين والفلاحين والضباط حتى صاروا يجرونها من أنفسهم »[٢] .

وكانت تتم عملية تغيير وتبديل للفلاحين العاملين نظرًا لهذا المجهود الشاق الذى يتحملونه من ناحية ، وحتى يراعوا زراعتهم من ناحية أخرى ، فيكتب عرابى إلى مديرية الغربية يقول « حيث مقتضى تغيير الأنفار الموجودين بأشغال الاستحكامات من المديرية بأنفار خلافهم ، فينبه بإرسال أنفار بقدر المخصص على المديرية بالمقاطف والفئوس إلى كفر الدوار »[٣] ، ولم يكن عملهم مقصورًا على الميدان الغربى فقط ، إنما ساهموا أيضًا بعملهم فى الميدان الشرقى ، وزادت أعدادهم عن المطلوب ، وعملوا بروح عالية إذ « كانوا يتنافسون فى بناء تلك الحصون والمتاريس والاستحكامات »[٤] ، ويصفهم شاهد عيان « كانوا ينامون فى مثل تلك الأحوال فى مكان عملهم بالليل على الأرض يلتحفون ببطانية واحدة على الأكثر لوقاية أنفسهم »[٥] ، وتعرضوا للإبادة التى شنتها القوات البريطانية على المصريين فى الميدان الشرقى ، لكن بعد أن قاموا بدورهم خير قيام وبقيت أسماؤهم مجهولة .

هكذا أيد الفلاحون الثورة واشتركوا فيها ، وأسهموا فى المعركة مساهمة فعلية بكل قواهم المادية والمعنوية ، وكانوا على استعداد للمضى فى الحرب والمزيد من التضحيات ، ولكن الظروف كانت أقوى ، فلم تحقق لهم ما أرادوا ، ولم تعط مصر النصر المأمول .

■ ● ■ ● ■

---

(١) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٧٤ .

(٥) فارمان ، المرجع المذكور ، ص ٣١٦ .

الفصل الثاني عشر

التجــار والحرفيون

... نمـو الوعـى

ساء وضع التجار والحرفيين وتعرضوا لظروف غاية فى القسوة من زيادة ضرائب بدون قاعدة وغير حدود ومن سيطرة أجانب ومن ذل فرضته الحالة المالية التى هزت الكيان المصرى ، وانقلبت الوداعة التى اتصف بها المصريون والطبيعة الهادئة التى كانت من سمتهم إلى إحساس عميق بالنير ، خلق شعور الثورة لتفجر الكراهية التى ملأت القلوب ، وشملت قوى مصر ، فحتى أرفع درجة من التجار كانت تعانى من الحصول على العدالة(*) ، أما فقراء الطبقة الدنيا من الحمالين والنوتية والحوذية والخدم فقد طفح بهم الكيل وأصبحوا يطرقون الأبواب ، باديًا عليهم اليأس ، منتشرين فى الشوارع ، خاضعين لظلم القوى الغامشة لكنهم بدءوا يعبرون عما يجيش فى صدورهم ، بل وضجوا لتسمع أصواتهم وهم ثائرون ، وغدت معنوياتهم مهيأة وعلى استعداد للمشاركة فى أى عمل يمكن له أن يقضى على تلك المعاناة التى يعيشها المجتمع المصرى منذ فترة طويلة .

وجاء تصدى العسكريين للقيادة الثورية فى قصر النيل لتسانده قوى مصر ، وليأتى دور الصحافة لكى تزيد الوعى نضوجًا وتوضح ما غفل ، وتصور دقائق ما تعانيه الأمة ، وتفتح الأذهان لضرورة التغيير ، وتذكى روح التمرد على الأوضاع والإنضمام للثورة ، وتهاجم متناقضات المجتمع ومساوئه وما يتحمله الاقتصاد المصرى وما يعانيه التجار والحرفيون ، فخرجت منهما الصيحات لتعطى تلك القوة للتقدم والاندماج الكلى فى الثورة .

ويعيش النديم داخل التجار ليعرض على الصفحات كساد التجارة الوطنية وسوء حالة التجار « إنى كنت من التجار المعتبرين ومكثت مدة من الزمان معززًا بين

(*) Milner , op. cit., p. 45 .

الأخوان مشهورًا بالصداقة والأمانة والعفة والصيانة وغير خاف عليك ما آل أمر تجارتنا إليه من الكساد لعدم إقدام الأهالى على بضاعتنا وميلهم إلى تمويهات الغير، حتى أصبحت تجارتنا اسمًا بلا جسم ولم يبق لها عين ولا رسم ، فبعد أن كان رأس مالى نحو عشرة آلاف جنيه لم يبق إلا نحو خمسمائة جنيه »[1] . ودائمًا وأبدًا يكون السبب سيطرة التجار الأجانب « فنرى فى البلد ثلاثين دكانًا من الوطنيين يقضون النهار يسبحون ويهللون وبعضهم يفتح المصحف صباحًا فلا يشغله عنه شاغل حتى يناديه مؤذن الظهر ثم ينام فلا يوقظه إلا مؤذن العصر ، ثم يجلس يصلى على النبى ﷺ حتى يوافيه الغروب ، وترى دكانًا واحدًا لبقال فيه جميع أصناف البقالة والعطارة حتى بهرجان العروسة ، وصاحبه طول النهار على قدمه يزن ويربط ويلف ويقبض ، والناس فى ازدحام على بابه والكل يناديه شهلنى يا خواجا » .

ويثير النديم التجار ويدفعهم للقضاء على ذلك الوضع الذى أوجدتهم فيه ظروف مصر ، ويندد بمنفعة الأجنبى « لكم أن تفيقوا من هذه السكرة التى حولت ثروتكم إلى الغريب ... من منكم يمكنه فتح دكان فى بلاد الإنجليز وهى لا تمكن الغريب من ذلك ، من منكم يرى فئة مصرية فى جمرك باريس تتلقى البضاعة المصرية كما نجد الألوف من الأجانب تتلقى الملايين من الطرود الواردة من بلادهم ... ما الذى بقى فى أيدينا من التجارة ؟ »[2] .

إذن لابد من محاربة الرأسمالية الأجنبية الخاصة بالمشروعات التجارية التى سيطرت على اقتصاد مصر وأضرت بالتجار الذين ثاروا عليها ، ولم تكن صحيفة النديم وحدها فى ذلك الميدان ، فنرى صحيفة الفسطاط تسير على وتيرتها فتحرك التجار المصريين بهجومها على الأجانب الذين سلبوهم « إنهم يأكلون خيرنا ولا يدفعون على تجارتهم ولا على أملاكهم ولا على أنفسهم ولا على منازلهم ولا على طرقهم المستقيمة ذات الغاز ولا على دوابهم »[3] . ومن هنا يعبأ الشعور القومى للتجار ويبدءون فى التنفيذ الثورى .

وتتم عملية الإعداد الثورى للحرفيين على يد الصحافة ، فيوضح النديم وضع طائفة المعمار « تعطى المقاولة بالمناقصة ويطلب من العامل تأمينًا وضامنًا غارمًا ولا يصرف له شىء مقدمًا فيبتدئ المسكين يبيع مصاغ زوجته وحليها وأمتعة

---

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ٧ فى ٢٤ يوليو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١ فى ٢١ أغسطس ١٨٨١ .

(٣) الفسطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

بيته ، وإذا انتهى العمل يقال له هذا العمل مغاير لما فى الشروط ، فإن الحجر أحرش والبلاط معصرانى والقصر ملء كله تراب والهيصم مرمل والجير قليل وقلب البناية فارغ والبياض قشرة واحدة والجبس بارد والسلم قائم والسقف واط والجدار ناقص وسمك الحائط ناقص عشرة سنتيمتر ... ويخرج من العمل بخراب بيته ودائرة ديونه » ويمضى ليوضح « بينما لو تقاضى أجنبى عمل بمائة جنيه يأخذ مائتين وخمسين »[١] .

ويعطى النديم الصناعة أهميتها فى بناء الدولة « لا دولة إلا بالرجال ولا رجال إلا بالمال ولا مال إلا بتقدم الصناعة والفلاحة » ، وينبه الصناع إلى خلق نظام أشبه بالنقابات « يُسعى فى عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها ، فإذا طرأ عليهم عمل من الأعمال كان أمره مفوضًا لمجلس الرؤساء من الطائفة يساوم من يشاء ويأخذ ما يشاء ، ثم يوزع فيه من العمال بقدر ما يحتمله وعندما يطرأ غيره يوزع فيه من لم يكن فى الأول » ، ويرى تكوين صندوق دعم ، تكون أمواله موزعة بأسهم على الصناع ولهم نصيبهم فى الأرباح ، وضرورة تقديم المساعدات لهم عن طريق الرأسماليين سواء كانت مالية أو فكرية بواسطة « تفهيمهم ما يقرأونه فى الجرائد من تقدم صناع أوربا واجتهادهم فى زيادة الثروة ومقدار ما وصلوا إليه بحسن التدبير والإتفاق لنبعث فيهم الغيرة والحمية »[٢] .

وعن إعادة مجد الصناعة المصرية وانتشال الصناع مما حاق بهم خرجت نداءات النديم بإقامة المصانع بتلك الأموال التى تنفق على « الشراب وتعاطى المخدرات والقمار والمتغزلين بهاتكات الحجاب وأصحاب الشغف بالغلمان وغيرها من آفات المجتمع ، والاستفادة باستخدام الأيدى العاملة المعطلة أو الأجيرة للأجانب» . كما هاجم الأجانب الذين يستحضرون أبناء جنسهم « ولا يستعمل الوطنى إلا فى نزح الكنيف أو حمل الزبالة » ، ويشير إلى انهيار الحرف الوطنية بناء على اشتغال الأجانب بها ، فيقول على لسان أحد الخياطين « إنى كنت خياطًا أيام كانت هذه الصناعة رابحة فى بلادنا وكنت فى نعمة بالنسبة لأشغالى ، ولا يخافك ما آل إليه أمر هذه الصناعة من الكساد بعدم استعمال الملابس الوطنية حتى عدمت بالكلية ، وعدم معها كار العقادين والقصبية والكزا والفرا وغير ذلك مما كانت تدعو إليه الخياطة ، فلحق بالخياطين الفقر والفاقه ما لا يحتاج لدليل حتى اشتغل بعضهم فى التراب وبعضهم فى الحدادة وبعضهم لا يجد القوت ، فلما رأيت الأمر

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ٢ فى ١٩ يونيو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

كذلك وصرت لا أقدر على دفع أجرة الدكان تركته وصرت حائرًا لا أدرى ماذا أصنع لعدم معرفتى غير صنعتى » والسبب أن حرفة الخياطة تحولت إلى أيدى « الأسطى الأفرنكية »[١] ، لذا سيساهم الخياطون بنشاط كبير أثناء الثورة .

ويولد النديم نزعة الكراهية للأغنياء ويثير طبقة الحرفيين « أين البناؤون والنجارون والحدادون والبرادون والخراطون والمبلطون والمبيضون والحجارون والرمالون والمنجدون والخياطون والعقادون والقصابون والقزازون والغزالون والنحاتون والطحانون والسبكية والخرازون والصباغون والصائغون والحريريون والفوطية والنحاسون والقفاصون والفخارية وغيرهم ممن لم يدخلوا تحت حصر ، أين أهل الطوائف والمهن ؟ تالله أنهم فى أماكنهم بين أغنياء لم تنزل عليهم صاعقة ولا خفست بهم أرض ولا جهلوا الصنعة ولا قصروا فى الخدمة ، وإنما سلط عليهم الأغنياء فحاربوهم بسهام مسمومة حتى ماتوا ، فقد تركوهم يتكففون الأبواب ويلتمسون الإحسان »[٢] ، وبذلك أصبح الحرفيون مهيئين ومعدين لرفع لواء الثورة .

ويطالب النديم بتطبيق « مصر للمصريين » بإيجاد الالتحام بين قوى المجتمع من أجل سعادته وحريته واستقلاله « لا تلبس إلا من صنعة بلادك ، أو ما كان من غرسها أو أصواف وأوبار حيوانها ، مشغولاً بمعرفة الوطنى محيكًا بيده مبيعًا فى دكانه لتحفظ ثروة البلاد وتزيد من عمرانها »[٣] .

وتابعت الدعاية الثورية موقف النديم ، فسارت على نفس الطريق فكان ذلك بلا شك الوقود الذى أشعلت به الثورة ، وقد ظهرت أصداء الروح الصناعية بتأسيس « الجمعية الصناعية المصرية » بهدف إنماء الصناعات المصرية كالطرابيش والأثاث، وساهمت صحيفة الطائف فى توزيع أسهمها وأوردت أسماء المشتركين ، وكانت قيمة السهم خمسة جنيهات ، ووصل عدد المشتركين فيها إلى ٦٤ اسمًا ، اشترك فيها النديم بأربعة أسهم والباقى أفندية وبهوات[٤] .

وأعطت الصحافة الراحة النفسية للصناع وشجعتهم وأثبتت قدرتهم الفائقة على التقدم والرقى « فعلى جلط وعمله لمنبر سيدى العارف السيد أحمد البدوى

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ٣ فى ٢٦ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١١ فى ٢١ أغسطس ١٨٨١ ، عدد ٨ فى ٢١ يوليو ١٨٨١ ، عد ٧ فى ٢٤ يوليو ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١ فى ٢١ أغسطس ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٤) المحروسة ، عدد ١٠٦٩ فى فبراير ١٨٨٢ .

حيث جعله بوضع متقن واختراع محكم لم يسبق له مثيل ، إذ أتى على صورة تذهل العقول وترتبك فيها الأفكار ، إذ أنه خال من المسامير بالكلية مع كونه قطعًا دقيقة من خشب وبه رسومات ونقوشات ، ومع ذلك فإننا نرى هذا الصانع العجيب لا يمتلك قوته الضرورى لمعاشه » ، وتمضى صحيفة المفيد فى ذكر نماذج المخترعين من الصناع المصريين المهرة التى طحنتهم الظروف ، هذا فى الوقت الذى نبهت فيه أصحاب المهن بأنه حان الوقت لاسترداد مكانتهم والحصول على حقوقهم . كذلك كان لدور الجمعيات وعلى رأسها الجمعية الخيرية الإسلامية فى توعية الصناع بدراسة الحساب والهندسة[1] ، ودور أيضًا فى اليقظة ، وبذلك يتضح أن الثورة قامت من أجل النهوض بركائز المجتمع وقد نجحت صحافتها فى إنماء الوعى وتنوير الطريق للتجار والحرفيين .

بداية التطبيق الثورى

بدأ الكفاح بالتمرد على الأوضاع وطلب استرداد الحقوق والمستحقات ، فتنصب الشكوى على إهمال الثغور التجارية كدمياط ورشيد والسويس ، وأن ذلك ساعد على كساد التجارة ، ونرى التجار يتضررون ويرفعون أصواتهم « للمطالبة بإصلاح حال البوغاز الخاص بدمياط ، ويقترحون فتح ترعة من بورسعيد تتصل بالنيل بالقرب من جهة بوغاز دمياط لمرور المراكب ، وذلك لتفادى خسائرهم وانضباط حركة التجارة »[2] .

وعرف الحرفيون حقوقهم وطالبوا بها بجرأة متناهية ، فعندما زار ولى عهد النمسا الفيوم طلب من ملتزمى أسماك البحيرة إحضار ١٣ مركبًا من المراكب المعدة لصيد الأسماك لخدمة الأمير بما عليها من عاملين ، يطلبون التعويض عن تلك الفترة التى تعطلت فيها أشغالهم وسخروا لهذا العمل . وفى الإسكندرية يعترض الصيادون على قرار رئيس الميناء الغربية بالإسكندرية - وهو أجنبى - بمنع الصيد فى هذا الميناء ويصرون على حقهم فى الصيد فيه[3] .

وتقوم المعارضة ضد الضرائب التى تجبى من الحرفيين ، فيرسل أفراد طائفة الحلاقين إلى المسئولين « إنه قبل الآن كان قد تكرر من الصحة أن كل من أراد الدخول فى هذه الطائفة يصير امتحانه ويؤخذ شهادة بيده ، ويدفع عوايد على ذلك أول مرة فقط ، ومن وقتها للآن وهو جارى تكلفنا بدفع عائد سنوى خلاف الويركو

(١) المفيد ، عدد ٤٤ فى ٣ مارس ١٨٨٢ ، عدد ٥٥ فى ١١ مايو ١٨٨٢ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٢٦ ، ٢ أبريل ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٣ مارس ١٨٨١ ، محفظة ٣٧ ، ١٣ يونيو ١٨٨١ .

المرتب علينا ، ونحن فقراء الحال ، وتكليفنا بدفع عوايد مرتين فى السنة للدايرة البدلية ومرة للصحة لا يرضى عدل دولتكم » كذلك نرى طائفة الماعونجية بالسكة الحديد بالإسكندرية تتضرر من « العوايد الجارى دفعها سنويًا ، وكانت البرقيات تصل تباعًا من « أرباب الكارات » للشكوى من أحوالهم وخاصة « مسألة الصلح » إذ يطالبهم المعاونون « بدفع أثمانه وضربهم بالكرباج »(1) .

إذن الإحساس بأن العدالة فى الطريق إلى مصر جعلهم يلجأون لشرح أحوالهم، وما هو منغص لحياتهم ، فهم الفئة العاملة الكادحة المظلومة ، لكن كان الإحساس ببداية الطريق الثورى نقطة انطلاق لهم .

ومع نظارة الثورة الأولى وبداية قوة اليد المصرية على الأجانب ، وجد التجار تنفسًا لذلك ، فقد وقفت أمام التجار الأجانب الذين اعتمدوا على تهريب البضائع والتهرب من الضرائب « تم ضبط أرز تعلق الخواجة يوسف فرمون ببندر طنطا من غير دفع عوايد دخولية عليه » ، ورفعت عليه قضية أحيلت على مجلس طنطا . وبذلك وضح بداية البرنامج الثورى فى الحد من تهرب الأجانب ، وفتحت النظارة صدرها للشاكين ممن أصابهم الضرر على أيدى هؤلاء المهربين الذين كانوا يمارسون التعدى على من يقف فى سبيلهم بالضرب الذى سبب العاهات ، فشكى أصحابها لحكومة الثورة لإنصافهم « تشكيت مرارًا فلم يسمع أحد منى ، وحيث إن العدالة لا تجيز ذلك ، والحكومة لا يوافق برأيها إطعام حقى للفرنساوية وعدم سماع شكواى غير جائز ، فالآن تقدمت راجيًا إجراء ما يلزم بمعرفة الحكومة »(2) ، وحقق فى الأمر .

وكان وجود مجلس النواب عاملاً قويًا للإحساس بأن هناك من يتكلم باسمهم ويقصى عنهم الجور الذى خضعوا إليه ، فارتاحت نفسياتهم ورفعوا إليه أحوالهم وما يقاسونه أملاً فى الإنصاف ، ففى تقرير عرض على المجلس من إبراهيم أحمد الحصرى رئيس طائفة التمغجية بالقاهرة فى شأن الويركو الراغب تعديله مع ربطه على الأجانب أرباب الصناعات ، وقد أحال المجلس هذا الأمر للمالية للبت فيه، وطلب منه ١٧ حرفيًا من طائفة الحبالة تعديل ويركو طائفتهم بمعرفة شيخ طائفة القفاصين ، كما تظلم القبانية والعتالون المشتغلون بمصلحة أوزان الفحومات بالإسكندرية من أوضاعهم ويطالبون بضرورة تحسينها(3) .

(1) المصدر نفسه ، ٦ يونيو ١٨٨١ ، محفظة ٣٨ ، ١٥ يوليو ١٨٨١ ، محفظة ٣٩ ، ٢١ نوفمبر ١٨٨١ ، المصلح هو الملح .

(2) المصدر نفسه ، محفظة ٣٨ ، ١٦ أكتوبر ١٨٨١ ، محفظة ٣٩ ، ٥ يناير ١٨٨٢ .

(3) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٣٠ أبريل ١٨٨٢ ، جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

وفتح المجلس صدره لكل ملتجئ إليه ، وكان التأكد من العدل على يد الثورة قد أعطى المزيد من الحرية ، تلك التى يتوق إليها كل مصرى ، وأن له الحق فى الحياة دون منافسة ودون أن تسرق من فمه لقمة عيشه ، ففى مذكرة قدمت للمجلس من ٦٢ فردًا من طائفة سائقى عربات الركوب بشأن « شركات العربات المؤسسة بمعرفة الأوربيين بالإسكندرية ، الذين أسسوا قومبانية عربات للركوب فى الشوارع تحمل العربة ٢٠ شخصًا أو أكثر ، وبهذه الحالة توقف حال هذه الطائفة وتأخرت عن سداد عوايد الميرى المربوطة عليهم وعلى العربات والمواشى ، ولفقرهم واقتراضهم أثمان المواشى والعربات ، وعدم وجود حرفة لهم خلاف ذلك ، يلتمسون النظر بإرجاع هؤلاء التجار عن مقاصدهم الموجبة لاضمحلال الوطنيين والتزامهم مشترى عربات العربجية المذكورين وخيولهم ، ليسعوا على معاشهم فى مهنة أخرى » وتمضى المذكرة فى سب الأجانب وبيان أهدافهم من أضعاف المصريين « إنه لم يحصل منهم الاكتفاء بما تكسبوه من التجارة وغيرها من البنوك ولا يصح حرماننا من تعيشنا ، وتمتع الأجانب غير المحتاجين لإدارة تلك القومبانية » ثم تبين « أنه لو توجه أحد المصريين إلى بلاد أوربا ، وأراد الإقامة هناك والتعيش بأى شكل كان ، فإنه لا يمكنه ذلك مطلقًا »[1] .

ويُعد ذلك ثورة على الأوضاع ، وتبلورًا لوعى كامل ، يرى ضرورة الإطاحة بالمستغلين غير المصريين وتطبيق شعار مصر للمصريين ، وقد رأى المجلس تحويل تلك المذكرة على المالية التى رفعتها للداخلية لإنصاف هؤلاء المظلومين .

لم يكن الإنصاف يتم إلا بالحد من نشاطات المفسدين ، فنرى حكومة الثورة تصدر تعليماتها إلى الضبطيات بمنع الخمر ، وبالرغم من ذلك ، يفيد شيخ البقالين أنها توجد فى « الأزبكية والفجالة وحارات الروم »[2] ، ومن هنا دعت الصحافة أن من يسء للقانون من الأجانب يعاقب ، فيتقول صحيفة المفيد « إن جماعة من اليونانيين وقفوا فى طريق الوابور بالزقازيق ونبه عليهم أوسطة الوابور ثلاث مرات بإخلاء الطريق ولم يمتثلوا ولو ساق الوابور وداسهم لا لوم عليه »[3] .

ومع أن الأجانب لم يمتثلوا لإجراءات الثورة كلية فإنه تم ردعهم بعض الشىء ، فقد حدث أن تشاجر « أحد التليانيين مع بعض الحماريـن فى شارع كلوت بك ،

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ٢٦ أبريل ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤٢ ، ١٦ مايو ١٨٨٢ .

(٣) المفيد ، عدد ٤٤ فى ٢٣ مارس ١٨٨٢ .

فأطلق الأول على الثانى وجهًا ناريًا من طبنجة مسدسه »[1] ، وعلى الفور أرسل هذا الأجنبى إلى قنصليته لتحاكمه ولم يترك وشأنه . كذلك أوقفت الحكومة التجار الأجانب الذين يقومون بإدخال الشحومات الخاصة بالخنزير ويخلطونها بالسمن على أوسع نطاق من الغش[2] ، وأعطت إجراءات الحكومة الأمل للتجار والحرفيين فى إمكانية إصلاح حالهم وإنقاذهم على يد الثورة ، فلما لا يؤيدونها ويعملون بكل طاقاتهم من أجلها .

أضف إلى ذلك ما ربط بينهم كبقية قوى مصر وبين زعيم الثورة ، فقد ارتفع نصيبه من حب الشعب له لدرجة لم يصل إليها زعيم فى تاريخ مصر ، وخاصة القوى العاملة المضطهدة المطحونة التى كانت تتوق لقيادة تسير خلفها من أجل الحرية والإخاء والمساواة .

عُدَّ عرابى المنقذ لتلك الجموع « فكانوا إذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق قالوا إنهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى ، أو شاهدوا ازدحامًا على حانوت قالوا إنه بإشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون إليه ، أو سمعوا مؤذنًا ينادى حى على الفلاح قالوا إنما هو يدعو الناس إلى التعاون والتعاضد ، أو سمعوا امرأة تولول على صبى ضل اسمه أحمد قالوا إنما هى تستغيث بأحمد عرابى بك لدفع مظلمتها وكشف غمتها ، وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد »[3] ، وكان ذلك شيئًا طبيعيًا بعد الضيق والكرب الذى سيطر على المصريين ، فعندما تكون هناك بادرة أمل وبداية عمل ثورى على يد مصرية ، فيصير التأييد تامًا وشاملاً ، فقد اعتبر عرابى ذلك المصرى العربى هو المحرر والمنقذ والمخلص ، ولم يكن المصريون إلا باحثون عن الحرية بالطرق العادلة .

دور التجــار

شكل التجار وخاصة البورجوازيين منهم ثقلاً فى الميدان الثورى ومنذ البداية أحس عرابى بما لهم من أهمية فى عملية الكفاح التى تزعمها حتى أننا نجده يختار تاجرًا من تجار الإسكندرية ليكون الوكيل لجريدة الثورة الثانية « المفيد » ، وهو حسن أفندى القماش[4] . وبدأ التجار الذين لهم كيانهم فى المجتمع ينضمون إلى

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٦٧ فى ٢٦ مارس ١٨٨٢ .

(٢) الإسكندرية ، عدد ٦١ فى ٥ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٠ .

(٤) المفيد ، عدد ٣٥ فى ٢٠ فبراير ١٨٨٢ .

موكب الثورة ، وهؤلاء الذين عانوا من ضربات الحكومة السابقة ، فقد أصدرت قرارها بمعاقبة أمين بك الشمسى سر تجار الزقازيق ، وذلك بناء على حكم مجلس المنصورة المحلى بالسجن ثلاث سنوات مع بعض العمد والمشايخ ، والسبب هو الشكوى من مدير الشرقية الذى كان ملكًا غير متوج فى منطقته ، ومع بداية الثورة نجدهم يطلبون العفو ، فيجابون إلى طلبهم[١] ، ليبدءوا المسيرة الثورية .

لم يكن هؤلاء وحدهم الذين تعرضوا للسجن والظلم ، فعلى سبيل المثال نرى أن تجار بندر سمنود يعرضون مذكرة تتضمن « أن مأمور الضبطية التابع لهم قد قبض على أحد زملائهم التجار المعتبرين المستقيمين المحافظين على الهدوء والراحة ، وكذلك سجن ابنه ، ومعروف أن سيرة هذا المأمور غير حميدة ولا مستقيمة »[٢] .

هكذا وبدون أسباب تعرض التجار للظلم وعانوا منه فالتمسوا النجاة على يد المبعوث الجديد ، وأحسوا بذلك النصر الذى حصلت عليه الأمة عقب التاسع من سبتمبر ، فكانوا يهنئون بعضهم بعضًا ، ويقيمون الحفلات والولائم ابتهاجًا بزوال دولة الظلم ، وعلى سبيل المثال فقد ساهم مصطفى عنانى ، ذلك التاجر الثرى فى هذه الاحتفالات وكرَّم العسكريين أصحاب الانتصار فى حفلة الأزبكية ، واستمر نشاطه مع غيره من التجار فى تلك الحفاوة التى ظهرت فى توديع قواد الثورة إلى معسكراتهم عقب تشكيل نظارة الثورة الأولى .

واتسع نشاط التجار من خلال ممارستهم للحياة النيابية فى مجلس النواب ، فكان لهم الصوت المسموع والاقتراح المقبول ، وساهموا بحركة واسعة من أجل خدمة الاقتصاد المصرى فى ميدان التجارة ، لكن لم تلق المحاولات التى بذلت من أجل توجيه الرأسمالية لهذا الميدان التعضيد الكامل .

وبتطور الأحداث السياسية ، كان للتجار دورهم فى رفض مضادات الثورة ، فيذهب وفد منهم للخديو طالبًا رفض المذكرة المشتركة وعودة عرابى[٣] ، وعندما أجبر توفيق بناء على رغبة قوى الأمة إعادة عرابى ، يسعد التجار ويبعثون للزعيم البرقيات الفياضة بالشعور الجارف للتهنئة من الأعماق للمسيرة الثورية[٤] .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٣٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١١٥٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ .

(٣) The Times, May 5, 1882 .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٤ .

ومن المعروف أنه بمجرد تولى شريف النظارة أعيد من كان منفيًا وأخرج من كان مسجونًا ، ومن بين من استصدر إليهم قرار العفو التاجر الراسمالى الثرى حسن موسى العقاد ليعود وليرفع صوته لنصرة عرابى .

وفى حقيقة الأمر ، فإن موقف هذا التاجر لم يكن واضح تمام الوضوح ، فقد عرفناه مناضلاً قبل الثورة ومعارضًا لأفكار الحكومة وتصرفات القائمين عليها ، لكنه ثبت أنه على علاقة بالأمير حليم الذى كان يسعى لعرش مصر ، ومن هنا حمل الرغبة فى إحلال حليم مكان توفيق ، وقد أتهم بوجود مبالغ لديه سواء من عثمان فوزى أو الأميرة زينب ، وكلاهما ذو صلة وثيقة بالأمير حليم ، وتبين من البنك العثمانى أنه مودع له بواسطتهما مبلغ عشرة آلاف ليرة ، ١٢٥٤٣ فرنكًا تحت تصرفه من أجل استخدامهما فى الإعداد لذلك ، وبسؤاله أبان أن الغرض مشترى أوراق بونات من لندن ، وأنه اشترى من عثمان فوزى كمبيالات بمبلغ عشرة آلاف جنيه على لندن ، واعترض على تداخل لجنة التحقيق فى أشغاله الخصوصية « فإن غنى عائلتنا معلوم من قديم الزمن ، ولا سيما أنى وضعت يدى منذ ست عشرة سنة على تركة المرحوم موسى بك العقاد التى يبلغ مقدارها ما ينوف عن مائة ألف جنيه خلاف الأملاك والأطيان وإيراداتها »[١] .

والواقع أن العقاد من البورجوازية المدعمة بالثراء والنفوذ ، وله معاملاته التجارية الضخمة داخل مصر وخارجها ، ولم يكن فى حاجة إلى المزيد من هذا الثراء ، فعلى سبيل المثال فقد صدر له مضبطة من مجلس التجار على من يدعى « مصطفى أفندى الحكيم » بمبلغ له اعتباره ، ولكنه مات وضاعت حقوق العقاد ولم ينفذ قرار مضبطة المجلس[٢] ، إذن فلم يدفعه المال للإنخراط فى الثورة ، ولم يكن سعيه لإسقاط توفيق وإحلال حليم ليقلل من وطنيته الجارفة ولا من مكانته ، إذ أعطى الثورة الأموال التى احتاجت إليها ، وكان ككل مصرى يريد أن يتخلص من الحاكم وحكومته المتسلطة على رقاب المصريين ، ومن الأجانب المتحكمين ، حتى ولو بتغيير الحاكم بآخر كان يوعد بتخليص مصر مما حاق بها ، وقد تعذب وشرد ونفى فى سبيل مبادئه ، لدرجة أنه طلب الحماية الفرنسية من أجل التحرر والمزيد من الانطلاق .

كان للعقاد تأثير قوى على التجار عامة ، وفى نفس الوقت له وزنه لدى قيادة الثورة ، وخاصة عرابى الذى عول عليه كثيرًا ، حيث كانت اجتماعات عرابى جميعها

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/أ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ٣٠ يونيو ١٨٨٢ .

لا تخلو من وجوده ، وقد أظهرت الأوراق التى عثر عليها فى منزله على مبادئ وطنية حقة ، فمنها ما هو منشورات تتضمن الطعن فى سياسة إسماعيل وأثرها السيئ الذى تركته فى مصر ، كما وجدت خمسة كتيبات معنونة « قال صلى الله عليه وسلم الجنة تحت ظلال السيوف » وفيها من الإتجاهات المتعددة ، فهى تعرض غفلة المصريين عن حقوقهم واستبداد الحاكم ، والأجانب التى امتدت أيديهم فى أحشاء مصر « حتى صار حكمدار عموم السودان إنجليزيًا ، والتوسل والاستشفاع للحاكم المسلم برعاع اليهود وأسافل النصارى ، الذين استولوا على أحسن المراكز برواتب باهظة تجمع من قوت الرعية ، وأباحوا لنساء الأمة ما تبيحه العادات الأفرنجية ، وقوانينهم من الحضور فى مجامع الرجال ومواكبهم ... وأن مصر أمكنها تأليف حزب وطنى رغم أنف الخواجة جمبتا والخواجة جلادستون العدوين الألدين لملة الإسلام ، ورغمًا عن أنف الذين ينبحون فى جريدة الإيتالى التى تطبع فى روما » وسطرت المنشورات المدح فى عرابى « الشهم الهمام مشرع الحزب يجاهد بالقول والفعل على واجباته الوطنية » وحثت المصريين على مواصلة الطريق الثورى ، ومن خلالها ذلك نجد الهجوم على الأجانب ومن استحضروهم[1] .

وكذلك عثر بالأوراق التى ضبطت لدى طلبة عصمت على ما يخص العقاد منها، وكلها حث ثورى لقوى الشعب على الأوضاع القائمة[2] ، لكن تبين موقفه تجاه حليم من بعض أوراق له « بعد توقيف أوامر توفيق ونظاره لمخالفة الشرع والقانون من عموم الأمة من برنسات وذوات وعلماء وعمد وأعيان ورؤساء ملتى النصارى واليهود فقد سقط بطبيعته ، ومن المعلوم أن المسألة صارت غير مختصة بذات عرابى باشا بل هى مسألة عمومية ، بحيث لا يكون موجودًا بالقطر من هو راض عن توفيق بمناسبة انضمامه للإنجليز وجلب حربهم على المصريين ، فخديويته الهبلية صارت فى علم كان ، وأنه مشاع أنه سيأتى عساكر عثمانية إلى مصر ومعها البرنس حليم باشا ، على أن الظاهر بأنه إذا كان المقصود حضورهم لأجل رحيل الإنجليز فلا يمكن التسليم فى ذلك بالتساهل »[3] . ولم يكن العقاد وحده المنادى بذلك ، فقد انتشرت على الأرض المصرية هذه الفكرة لما كان فيها من بعض الحقيقة خارج مصر .

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/جـ ، صحيفة الإيتالى هى الناطقة باسم إسماعيل .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/أ .

إذن عملية الخلاص من توفيق أصبحت وشيكة الحصول ، وكان العقاد على رأس الساعين فى تختيم المحاضر الخاصة بعزل الخديو ، وعندما عقد عرابى اجتماعًا جمع فيه العلماء والأعيان وكبار التجار لكى يرفعوا طلبهم للسلطان بشأن استبدال الخديو بدون تعيين اسم البدل ، كان العقاد على رأس من ختموا ، وحين حضور المبعوث العثمانى درويش باشا دعا العقاد التجار جميعهم وذهبوا لمقابلته ، وألقى الزهر تحت أقدامه ، فلم يكن أحد يعرف نياته الحقيقية سوى أنه مندوب للسلطان خليفة المسلمين .

وكانت علاقة العقاد مع بقية العناصر البورجوازية على درجة من القوة والتعاون ، فهناك صلة قوية بينه وبين حميد أبو ستيت ، ولعل السبب التعرض لنفس المظالم والتوافق فى الأفكار ، ففى خطاب من الأول للثانى يشكره فيه على التبرعات التى قدمها للقوات المحاربة وتقديمه لألفى متطوع[١] ، وقد اعتمد عرابى على تلك القوة ، فكان كلما يحس باحتياجات الجيش يطلب من العقاد ، ففى ٥ أغسطس ١٨٨٢ يكتب عرابى إلى وكيل الجهادية يخبره بأنه بعث إلى العقاد لتوريد ألف ثوب بفتة[٢] .

هذا بالإضافة إلى ما كان يقوم به العقاد من رفع المعنويات ، والإشادة بالوطنية، عن طريق إقامة الولائم والاحتفالات التى يدعو فيها قادة الثورة من عسكريين ومدنيين ، وفيها تمارس كل أنواع النشاطات الثورية ، وظهرت فيها الرغبة الأكيدة لتحرير مصر « كل أمة محكومة بجنسها إلا مصر فيلزم أهلها الإتحاد والتعاون حتى يحكمها أهلها وتصير فى درجة الأمم المتمدنة »[٣] . وبذلك كان العقاد عنصرًا فعالاً فى الثورة المصرية .

وشارك العقاد فى وطنيته أمين الشمسى ، الذى أسهم بثوريته الجارفة فى أعمال مجلس النواب ، وأيد قادة الثورة فى كل قراراتهم ضد الخديو ، وعمل من أجل التأييد المعنوى عن طريق تلك الاستقبالات التى كان يقوم بها لرجال الثورة « وللمحاربين عند وصولهم للتل الكبير وينثرهم بالورود » ، وفى هذه الاجتماعات والاحتفالات حيث الخطب التى كانت أصداؤها تنشر الحماسة والتشجيع وتنتهى بالهتافات ضد الخديو والدعاء « يعيش عرابى ورجال الجهادية » ، وأثناء وجود عرابى بكفر الدوار كان دائم التردد عليه ، ويعود ومعه الأخبار ليبلغها

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ ، الطائف ، عدد ٢٩ يونيو ١٨٨٢ .

لأبناء بلده بقوة الاستحكامات ، واستعداد القوات المحاربة وشجاعتها ، ويمضى ليساهم فى عملية التختيم لإسقاط توفيق ، وعندما انتقلت القيادة إلى الميدان الشرقى ظل متردداً على جميع المواقع ، وبحكم أنه وكيل مشيخة نقابة الأشراف بالشرقية ، كان له النفوذ والسلطان ، فيجمع رؤساء ومشايخ الطرق للتأييد الروحى وإعطاء الحرب طابعًا دينيًا ، وبيان أنها حرب مقدسة مفروضة على كل مسلم ، ويشجع اهالى الزقازيق على الاشتراك فى الدفاع عن أرض الوطن ، والمداومة على الحرب ، ويعلن أن السلطان غير راض عن توفيق ولهذا خلعه ، وأن الأمير حليم سيكون خليفة له . إذن فقد كان اتجاه الثوريين فى بعض الأحيان الرضا بحليم ، كذلك أصبح له دور فعال فى الحض على التبرع ، وبدأ بنفسه إذ أعطى المزيد من المساعدات سواء من الفواكه الخاصة بإنتاج أراضيه أو الأموال[1] ، ومن هنا تتضح تلك الثورية التى تميز بها أمين الشمسى .

وكان أيضًا ممن تذكر لهم الثورة مواقفهم إبراهيم المويلحى وعبد السلام المويلحى تاجرا الحرير ، والأول كان على صلة وثيقة بعرابى ، ويبلغه دائمًا ما يحيكه أعداؤه ، وخاصة صحافتهم لوجوده خارج مصر . ففى ٧ مايو ١٨٨٢ أرسل إليه يقول « الذين يكتبون فى سعادتكم كل يوم بغاية التهور قد أرسلت لسعادتكم نموذجًا ليكون فى علمكم ، وأسأل الله العظيم أن يعينكم على أعداء الله وينصركم نصرًا عزيزًا » ويستشهد بالآيات القرآنية التى تدل على انتقام الله من أعداء الدين، ويبلغه فى ٢٥ مايو أنه تقابل مع أحد العارفين بالسياسة فقال له : « إن هذه الأيام هى الفيصل لقومك المصريين ، فإن التزم أولو الأمر بالثبات واستمسكوا بحقوقهم السياسية لا يزيدون عنها ولا ينقصونها ولا يبالون بالتهديدات تركية كانت أو أوربية ، فقد فازوا فوزًا عظيمًا ، أسأل الله أن يتمم بالنجاح المطلق »[2] . كما كان لعبد السلام المويلحى دوره منذ بداية الثورة ، فهو من بين الذين قدموا التعهد لشريف بإطاعة الجيش لأوامر الحكومة ، وعند تكوين لجان مجلس النواب ، تولى رئاسة لجنة المدن ، وأسهم فى تلك الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة افتتاح المجلس ، ووجه نشاطه فى داخله للعناية بشئون التجارة والقائمين عليها ، وقد وضع مشروعًا لتأسيس بنك وطنى ، وطلب منه عرابى تشكيل لجنة برئاسته لدراسة هذا المشروع ، حيث انصب الاهتمام على إنقاذ الاقتصاد المصرى .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٦ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٢ فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .

وقد كانت الاجتماعات التى شكلت لقاءات سياسية وطرحت فيها القضايا الوطنية يشارك فيها التجار ، وخاصة أصحاب المكانة ، « فأحمد أفندى الأرناؤطى رئيس تجار خان الخليلى لا ينفض عن تلك الاجتماعات »[١] ، كذلك كان للتجار المساهمين بأموالهم فى الجمعيات الخيرية دور فى المجال الاجتماعى سواء ما يختص بإنشاء مدارس تحقيقًا للمبادئ الثورية أو إعانة المهاجرين[٢] .

أيضًا كلف رجال الثورة التجار بمهمات فى مناطقهم على أرض مصر كلها ، فوزعت عليهم مهمة التختيم ليقول الشعب كلمته فى أكثر من موضوع سواء طلب رفض مذكرة الدولين أم عودة عرابى وتوكيله الدفاع عن الأمة أم عزل توفيق ، وكانت الإسكندرية - حيث كون فيها التجار طبقة متميزة - تعقد فيها الاجتماعات « فى منازل بعض الأفندية والبهوات وتجمع العطارين والتجار والفقهاء وأفندية من الأهالى ليسوا بمستخدمين يتاولون سياسة البلد » ، وقسمت مناطقها على التجار ، فهناك تاجر جارى التختيم على المحاضر بكوم الشقافة ، وثانى من تجار سوق الترك يختم فى منطقته ، وثالث فى العطارين ، ورابع بحى الجمرك « وكان ذلك جهارًا فى الشوارع »[٣]. ولم تكن الإسكندرية فقط ، وإنما على أرض مصر كلها فمثلاً فى المنيا عقد تجار البندر الاجتماعات وضموا إليها بقية الشرائح ليتاقشوا الأحداث[٤] .

هذا بالإضافة إلى دور التجار كجهاز إعلامى للدعاية الثورية ، فعلى سبيل المثال نرى أبو العلا مبروك أحد تجار بندر أخميم التابع لجرجا كانت « وكالته باتجاه دكاكين أولاد الشاذلى وكان عند ورود جريدة الطائف يتجمعون معه على قارعة الطريق ويتولى تلاوتها وتفهيم الموجودين بما فيها ، وإنه عندما أرسل إليه قرار عزل عرابى كباقى التجار : استقبل الصورة المذكورة مسرورًا قبل أن يطلع عليها ظنًا منه أنها بشرى من رئيس العصاة ، ولما أجرى تلاوتها أجرى حدفهاعلى الأرض من يده بشدة ، وتخلق وتكلم بما لا يليق ضد الحضرة الخديوية » ، وكان له نشاطه المتعدد ، فهو يكشف عن المناوئين للثورة ، ويبلغ الجهات المسئولة ، ويحض على التطوع لأهل بلده فى قوات الدفاع ، ويتبرع بالغلال ، وقد اشترك مع أحمد عبد الغنى ومحمد

(١) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، تقرير ٧ ، ص ٢٨.

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٢ فى ٧ مايو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٥٩ فى ١٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ .

عبد الغنى وهما مدرسان بالأزهر فى التختيم على محضر توكيل عرابى وعزل الخديو ، وأخيراً فلم يكن منزله يخلو من المجالس الليلية والنهارية التى يجتمع فيها الكثير يتناولون سياسة الثورة وأغراضها[1] .

وكانت تبرعات التجار تشكل جزءاً مهماً فى أساسيات الجيش ، إذ أن الإحساس والرغبة فى النصر قوية ، فعندما تصل البرقيات والأخبار التى تفيد بالانتصار ، تعم الفرحة الجميع ، وكان التجار يرددون « الله ينصرك يا عرابى باشا بجيش المؤمنين »[2] ، وامتلأت الصحافة ومحافظة الثورة الخاصة بالتلغرافات بتبرعاتهم ، فالقماشون يقدمون طاقات الأقمشة والمقاطع ، وأصحاب المحلات يتبرعون بالحُلل ، وتجار الغورية بالبفتة الخام ، وتجار الأزهر يهدون الأقمشة والخيول ، حتى نساء التاجرات اشتركن فى التبرع ، وخارج القاهرة نرى سر تجار بندر شبين يتبرع بكميات وافرة من الغلال ، وسر تجار دمياط يقدم الخيل والأموال، ويساهم تجار ميت غمر فى تقديم الكميات الوافرة من البفتة ، وتجار رشيد تتعدد نوعيات ما أهدوه « للجيش الحامى » ويسارع تجار الزقازيق ويسيروا فى نفس الركاب ، ويتبعهم باقى تجار مدن مصر[3] .

وكان للبورجوازيين من التجار المساهمة الفعالة فى تلك المساعدات التى قدمت لمهاجرى الإسكندرية . فقد « أخلى عنانى بك منزلاً وسرايتين ، وأعد ذلك لإقامة ٥٠٠ من المهاجرين ، وتكفل بحاجتهم وضروريات معاشهم ، ومحمود بك العطار أنزل منهم بمنزلة » وكان « إبراهيم وفا من تجار الجمالية يزورهم فى سراى قصر الشوق، ويوزع عليهم ثلاثمائة ريال »[4] ، وبذلك يكون التجار قد قدموا جميع إمكاناتهم من أجل الثورة .

دور الحرفيين

كان الحرفيون على درجة من الوعى والتيقظ لأحداث مصر ، وقد أحبوا عرابى وشغفوا بذلك المصرى الذى سيخلصهم من ذلهم بعد أن ساءت أوضاعهم – وقد سرى هذا على عامة الشعب من الطبقة الدنيا – ويصور لنا شاهد عيان حالتهم

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ . (٢) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٥ فى ٢٧ أغسطس ، عدد ١٤٧٣ فى ٢٣ أغسطس ، عدد ١٤٧٢ فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٧٦ .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٦٣ فى ٢٣ يوليو ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

عقب التاسع من سبتمبر فيقول « تزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها ، واضطر من لا يعرف القراءة من العامة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها، فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات ، وبينهم الرجل أو الصبى من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة لصاحب جريدة التيمس الإنجليزية أو لصاحب الديبا الفرنسية أو لغيرهما من صحف الأخبار الأجنبية ، وهم فى ضجة وحوقله ، وعمّ هذا الحال السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزياتين والحلاقين ، وقد رأيت يومًا صبيًا فى حانوت لرجل يبيع البقل وبيده صحيفة من صحف الأخبار العربية ، وأمام الحانوت خلق من السوقة وهم محدقون بالصبى وهو يقرأ عليهم ما نصه : (قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والإنجليز أن يعلماه مفصلاً بالسبب الحامل للدولتين على إرسال المركبتين الحربيتين إلى مدينة الإسكندرية ، فأجاباه بأنه ليس المقصود من إرسالهما إرغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون ، وإنما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط ، فإذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضًا) فقهقه الجمع عند سماع هذا الكلام ، وهمز كل فى أذن الآخر وصاح أحدهم قائلاً : وهلا ترى فى هذه الورقة أيضًا أن الإنجليز والفرنسيس يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاءوا معه من دار السلطنة ، وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيس على قومهم بالحذر والإلتفات إلى ما عساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور ، فقلب الصحفى الصفحة يمنة ويسرة وتأمل فيها ، وقال صدقت يا عماه ومن الذى أعلمك بهذا الخبر ، فقال سمعت فلانًا الحلاق الساعة يقول إنه سمعه من أحد موظفى الدولة »[1] . وبذلك يظهر جليًا الوعى الكامل والإدراك السياسى التام ، وبأن الثورة أصبحت سيدة مصر .

وأسهم الحرفيون كبقية قوى مصر فى المسيرة ، فنجد أنه من بين الوفود التى تكونت ومثلت مصر من أجل رفض المذكرة ، وطلب عودة عرابى كان هناك من ينوب عن الحرفيين[2] ، وعندما حضر درويش باشا ، حملوا لواء المعارضة على اللائحة وعلى الأجانب ، فقد أحاطوا بعربته وأغلقوا عليه الطريق فى شعبية قوية ومظاهرة عنيفة ، وكان منهم الحمّارون وماسحو الأحذية صائحين « نصرك الله دين الإسلام، أهلك دين الكفار ، أتاكم الموت يا كفار ، أتاكم الموت بحرق النار » ملوحين بأيديهم هاتفين بسقوط الأجانب ، وتبعهم باقى الحرفيين كل شريحة على رأس متعهدها ،

---

(١) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) The Times, May 29, 1882 .

فمثلاً العاملون فى وابورات الطحين يتقدمهم متعهدهم ، وقد صحب ذلك الدعاء بالنصر لعرابى والحزب الوطنى[1] ، وتذكر صحيفة الفسطاط عن هذا التجمع الشعبى « أن الناس جميعهم فى الإسكندرية عند مقابلة وفد السلطان كانوا يهتفون : اللهم انصر سلطاننا ، اللهم أيد الحزب الوطنى الحر ، اللهم أيد بسلطاننا فارسنا المقدام أحمد باشا عرابى ، لا نقبل لائحة الدولتين ، والدعاء على المحطات برفض اللائحة »[2] . فكان مظهراً ثورياً نابعاً من الأعماق .

ومما لا شك فيه أنه كان لمثقفى الثورة دورهم فى جذب الطبقة العاملة إلى الفلك الثورى ، ولا ننكر فضل النديم فى إذكائه لروح الثورة بينهم ، فقد كانت لخطبه التى يلقيها فى الساحات الشعبية الأثر الكبير فى عملية الاحتواء الثورى ، وخصوصاً أنه كان يحس بهم ويعبر عما فى صدورهم ، ومن هنا ازدادوا اشتعالاً ، وقد وضح ذلك فى حادثة الإسكندرية وما تلاها من أحداث .

كانت تلك الطبقة العاملة تريد المتنفس لها لتعبر عن سخطها ، فتقول صحيفة التيمز « عقب حادثة يونيو وسفر الخديوى ودرويش باشا ، تظاهر حوالى مائتين من العمال رافضين مهددين سابين مشيرين بأيديهم ، وبذلك ازدادت سلوك وتصرفات الأهالى سفاهة »[3] . لقد كرهوا الخيانة فى صورة هذا الحاكم ، فى الوقت الذى انصبت فيه المساندة والتأييد والدعاء بالنصر لعرابى ، وبالرغم من أن المعسكر المضاد كان يحاول بكل طرقه القضاء على شعبية عرابى ، فإنه لم يستطع ومضت تزداد يوماً بعد يوم فى نفس الوقت الذى تتأجج فيه الثورة ، « فقد حدث أن ثلاثة شيالين بمحطة بركة السبع كانوا يدعون بالنصر للسلطان وعساكر الإسلام وسعادة عرابى باشا ، حيث كانوا جارين الشغل ، فوكيل المحطة المدعو رزق الله أفندى ووكيل البوسطة المدعو الخواجة يوسف الشابى ضربوهم وأهانوهم ، ثم أحضروا جملة خواجات آخرين ، وحرروا عرض فى حقهم للمديرية بأنهم يتطاولون بالسفه وسب الديانة ، وبناء عليه صار طلبهم بالمديرية فى الحديد وسجنهم ، وعين إبراهيم أفندى اللقانى من مأمورى قلم تفتيش الداخلية وأجرى التحقيق ، وتبين بالإضافة للدعاء أن هناك عدداً من الأجانب كان على رصيف المحطة ، فوقف أمامهم إبراهيم القريش وإبراهيم الصعيدى (شيالون برانى) وقالا إن كل عشرة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٩ .

(٢) الفسطاط ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) The Times, June 14, 1882 .

نصارى بقرش والبقال بعشرة فضة ، وأنهما على استعداد أن يذبحون أحدهم ويبيعونه بالرطل » ، وبالرغم من ذلك، فإنه أفرج عنهما بالضمان[١] . وقد أثبت ذلك تعانق كل من الطبقة العاملة والقائمين على الثورة .

وفى أوراق عرابى الخاصة مراسلات التأييد الكامل للقائد ، « إننا من وقت ظهور حزب الحق ونحن فى كل الوقت نتكلم بمحاسن الحزب ومشروعاته المؤيدة للوطن ، ونكابر كل منافق ونقيم عليه الحجة ونثبت لإخواننا الفقراء إسعاد الأمة فى المستقبل ، ويوم استعفاء النظارة كاد يخشى علينا » ثم يطلبون منه حمايتهم بعد أن أصبحوا معروفين أنهم من أتباع عرابى[٢] . وواضح أن عرابى قد أصبح ملجأ الجميع وحامى حمى الديار المصرية ، ومطعم الفقراء فى المستقبل ، إذن اشتراك تلك الطبقة الكادحة كان من أجل تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، إذ لم يكن فقراء المدن بأحسن حال من فلاحى الريف .

وبُدئ فى تطبيق اختصاص العمل الثورى ، فشيخ الخياطين بالإسكندرية يتولى المساهمة فى مهام عملية تختيم ورفض المذكرة المشتركة وعودة عرابى وعزل الخديو، « وكان يدور بشوارع الجمرك وشهد أن الأسطى حسن المصرى كان قائدًا لهذه العملية »[٣] ، وأصبح كل داعية للثورة ، عليه تكوين وتغذية الخلايا الثورية فى منطقة عمله « فمحمد سليمان سائق الوابور كان مهيجًا للأفكار فى السكة الحديد »[٤] .

وبذلك يتم التعاون الكلى والمؤيد للثورة ، رغم ما فرض على الحرفيين من بعض الأعباء كإعانة حربية « كل صنايعى يدفع عشرة قروش »[٥] ، فالجميع دفعها بنفس راضية ، ونرى أيضًا أنهم يساهمون فى المجهود الحربى بتقديم مبالغ وفقًا لحالتهم ، حتى لقد وصل الأمر إلى أن أحدًا منهم لا يمتلك إلا بغلة تعينه على الحياة تبرع بها للجيش[٦] .

واستنادًا على الثورة ، يتمرد العمال على مرءوسيهم من الأجانب ، فقد أحسوا أنهم أفضل منهم ، وأن مصر أصبحت للمصريين ، وما هى إلا فترة قصيرة ويغادر الأجانب جميعهم أرضهم ، ففى مصلحة خفر السواحل ببورسعيد يضرب العمال عن

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ١٣ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٣ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

(٦) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٢ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ أغسطس ١٨٨٢ .

العمل ويرفضون نقل البالات » ولا يبالون بأوامر رئيسهم الخواجة فكارى ويجاوبونه إفعل ما تريده »[١] .

أما عن الاشتراك فى الحرب ، فقد سجل الحرفيون صفحة طيبة من صور الكفاح الوطنى ، فواصل « عمال الورش والفابريقات العسكرية أشغالهم مع مزيد من الهمة والنشاط ليلاً ونهارًا »[٢] ، من أجل الإعداد للمعركة ، هذا وعندما شرع فى إقامة الاستحكامات والتجهيزات الحربية من خنادق وتحصينات ووكل الأمر إلى محمود فهمى « استحضر لها مهمات البناء والحجر العجالى ، والبنايين والنجارين والمرخماتية والسباكين وباقى الصنايعية والورشجية »[٣] ، وقد استطاعوا بكفاءة فنية أن يقيموا ذلك العمل على أحسن وجه ، ولم يقتصر هذا على ميادين القتال حيث حصنت المدن كذلك « فقام الحدادون والنجارون ببناء استحكامات القلعة الكائنة على جبل المقطم »[٤] .

هذا وفى ميدان العمل المعنوى شارك الحرفيون فى كافة النشاطات « فالإسكافية والقهوجية والخياطين كانوا يطوفون بالشوارع ويصيحون : يا لطيف يا جبار أهلك عسكر الكفار »[٥] .

وعمل الخبازون من أجل نصرة الثورة ، فمنعوا الخبز عن الجنود الإنجليز ، وأصبحوا لا يخبزون إلا ما يكفى القوات المصرية وينقلونه إلى كفر الدوار ، وبالرغم من التهديد فإنهم أصروا على موقفهم ، فيرسلون للقيادة ليبلغوها « منذ خمسة أيام حصل التهديد لنا من ناظر مصلحة وابورات المخابز بالقبارى بالقول إن الخديو طلبه وسأله عن صرف خبز للإنجليز ، وحضر للمخبز شخصان إنجليز أحدهما ضابط والآخر نفر سوارى ، فصار تعريفهم أنه لا يصنع الخبز إلا لدواير الخديو وعساكره فقط »[٦] .

وقد رأى عرابى إمكانية الاستفادة من تعبئة قوى الصيادين وخاصة فى المناطق التى كان من المتوقع هجوم الإنجليز عليها ، فأرسل إلى قومندان فرقة دمياط يبلغه « أنه موجود ببحيرة المنزلة عدد وافر من المراكب المعدة لنقل البضائع وصيد السمك

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٣ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٤) الفسطاط ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(٥) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣٣٢ .

(٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ .

والطير ، وبهم عدد وافر من الرجال المعدين لهذه الأشغال من أهالى المطرية والمنزلة ، وإذا صار أعطاؤهم أسلحة ، يمكنهم المدافعة عن سواحل المنزلة وصيد من يتجاسر من الأعداء على المرور بالبحيرة بالصنادل أو الصالات ، فبهمة سعادتكم يصير عمل التدابير اللازمة فى جمع هؤلاء الأشخاص وتسليحهم وترتيبهم فى جهات اللزوم لمنع المرور من بوغاز جميل ، ومن التمكن من سواحل البحيرة »(١) . إذن فكرة التعبئة العامة للدفاع عن أرض مصر موجودة ، لكنها لم تنفذ على المستوى العريض .

كذلك كان للصيادين دورهم فى تقديم مجهوداتهم ، فبعد تحصين طابيتى الجميل والديبة فى دمياط « وصل فى الحال خمسمائة رجل من الصيادين لمساعدة العاملين فى الطوابى »(٢) . ولم يبخل أهالى دمياط ومعظمهم حرفيون فى المضى حتى آخر وقت من أجل نصرة الثورة ، ففى برقية من عبد العال حلمى إلى وكيل الجهادية يبلغه « أن كافة الناس يساعدوننا »(٣) ، ووقفوا من الأجانب موقف العداء والتبرم ، وانعكس ذلك على تصرفاتهم التى تشبعت بمبادئ الثورة وتطبيق شعار مصر للمصريين وإيقاف الاستغلال الذى امتص دماءهم ، فحدث أنه بينما كان قنصل فرنسا فى دمياط يمر فى أحد الشوارع تعرض « بما لا يليق بشأنه من الألفاظ » واشتكى ، لكن لم يسمع أحد شكواه « فذهب إلى القرهقول وهدد العساكر الموجودة ومزق كبود أحدهما بحضور جملة من الناس ، فأجرى معه التحقيق »(٤) ، ومع الحرب وزيادة الحنق على الإنجليز ، يهاجم الحرفيون القنصلية الإنجليزية فى دمياط « ويكسرون شبابيكها وصارى البونديرة ويمزقون الراية ، ثم أخذوا يطوفون الأزقة شاتمين متوعدين بالقتل من كان قد بقى فيها من المسيحيين الأجانب »(٥) .

وأخيرًا يأتى دور الإسكندرية الذى توطد فيها هذا الشعور ، وقد شكل التجار والحرفيون عنصرًا قويًا فى تركيبها الاجتماعى ، وقاست طبقتها العاملة من تلك الظروف التى خضعوا لها ، فكرهوا الأجانب الذين أوصلوهم إلى حالة من التدهور والفقر والفاقة لدرجة أن صحيفة « ترومتبا » نشرت مقالاً بينت فيه حالة الفقراء فى الإسكندرية ووفرة عددهم وترددهم على الشوارع والأزقة طالبين الإحسان ،

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤٥ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .

(٤) المفيد ، عدد ٢٨ فى ٢٦ يناير ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٥ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/أ .

ووصفت حالة الأولاد الذين لا ملجأ لهم ولا ملاذ »[١] . ومن هنا كان الانضمام التام للثورة ، وأصبح السكندريون على وعى ، ولمسنا دورهم واتحادهم أمام جميع الأحداث ، فلم تتعرض مدينة مثلما تعرضت له الإسكندرية ، إذ وقع عبء الغزو عليها ويقول محمود فهمى « رأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمفرقعات ، هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول»[٢].

ولم يكن ذلك بجديد ، فالإسكندرية لها فى تاريخ الوطنية صفحات مشرفة ، ويذكر عرابى « وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين، ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية ، وإعطائهم المال وحمل الجرحى، وتضميد جروحهم ، ونقلهم إلى المستشفيات ، وقد استشهد فى ذلك اليوم من جميع الطوابى مائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللاتى كن يضمدن جروح الجرحى »[٣] ، وواضح اشتراك العنصر النسائى فى هذه الملحمة البطولية .

ويذكر لنا أحد شهود العيان الذى أطلق على الحرفيين تارة أصحاب المهن الحقيرة وأخرى الغوغاء « خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الأطراف ، واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح ، وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند ، فكان إذا هم الجندى بتصويب مدفعه نحو سفن الإنجليز هللوا وصاحوا ونادوا! يا أهل بيت رسول الله ، يا شيخنا يا أبا صيرى ، يا سيدى ياقوت ، وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة ، وسار جماعة منهم أمام أرباب الأشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطىء البحر ناحية السيالة ، وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم يا لطيف ، الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات ، فرمت عليهم إحدى تلك السفن شيئًا من القنابل الصغيرة تباعا فمزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم ، ودمرت القلعة (آطة) وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط ، والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة ، فكان لها منظر من رؤيته القلوب تتفتت من هولة الأكباد »[٤] .

---

(١) التجارة . عدد ١٨٢ فى ٥ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢١ .

(٣) أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٤) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٣٠٤ .

وفى أثناء ذلك العمل كانوا يتغنون بسب سيمور والإنجليز ، ولعن توفيق الذى تمثلت فيه صورة الخيانة ، بينما كانت الأصوات ترتفع وتدوى بطلب النصر لعرابى[1] . وفى تقرير أحد المساعدين الإنجليز عن ١١ يوليو ١٨٨٢ يذكر أنه بعد أن بدأت الهجرة للسكندريين أوقفت ، وعادوا مرة أخرى « فرحين يتبادلون التهانى بالتعانق وعقد الأيدى ، ثم سمعنا النساء ينشدن الأغانى المعروفة بالزراغيط ويبدين كل ما هو مألوف عندهن من علامات الجزل والمسرة »[2] ، وهذا دليل على الأمل الكبير فى النصر والاعتقاد الراسخ بحتميته .

وكان الواقع شيئًا آخر ، فاضطر السكندريون للخروج من مدينتهم ليسجلوا أروع صورة للوطنية فى أصدق معانيها ، ويعطينا حسن الشمسى فى صحيفته ما يؤكد ذلك « هدمت كلل العدو بيوتهم وأفنت بعضهم فما خرجوا من مساكنهم إلا على عجل ، وقد تفرق الولد من أبيه والبنت من أمها والزوج من زوجته ، ولعمر الحق أنى كنت مع بعضهم فى قطر السكك الحديدية ، وهو فى ازدحام ولا ازدحام المحشر ، وكل منا يشكر الله لو تمكن من وضع قدمه فى الوابور ، فكان معنا فى عربة واحدة امرأة تحمل ولدين على الكتفين ومعها بنت ترضع من ثديها ، وكان معنا أيضًا امرأة ومن غرائب الدهر أن هول الحال أنساها طفلاً رضيعًا تركته فى المنزل ولا تعرف أين توجه زوجها ، فكانت تبكى على ولدها الرضيع ثم تقول : الله ينصرك يا عرابى »[3] . لقد خرج نحو مائة وخمسين ألفًا مجردين من كل شىء ، أخذوا فى الحركة بغير قصد أو مأوى ، فالموت والفزع ملأ نفوسهم على الطريق من المحمودية إلى دمنهور ، وعلى جسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة ، وبالرغم من تعليمات عرابى للمحافظة عليهم عندما حرر لمدير البحيرة بالتشديد على مشايخ العربان بحفظ الأموال والأرواح ، فإنهم تعرضوا لأقصى ألوان العذاب « تبهدل بعضهم وجرح وقتل البعض »[4] ، فكانت تلك الظروف من بين التضحيات التى قدمتها قوى الشعب العاملة من أجل الثورة .

■ ● ■ ● ■

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 502, 503 .

(٢) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ .

(٣) المفيد ، عدد ٦٢ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٩٤ ، أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٢٧ ، Ninet , Arabi pa-cha, p. 182 ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٨ .

الفصل الثالث عشر

الجناح المدنى من المثقفين

... التيار الدينى

فى ظل دولة الظلم والاستبداد ، بدأ انشغال الأزهريين بالسياسة ، حتى أنه عند بدء الخطوات العملية للثورة كانوا من المشاركين والمؤيدين والمساندين لها ، ولهذا ثقله وتأثيره ، فالعامل الدينى له السيطرة الكبيرة على الفكر المصرى ، إذ لم يكن هناك تعارض بين الدين والسياسة ، ومن هنا كانت الدفعة القوية لمشاركة المصريين وانضمامهم للثورة حيث أعطى الموقف الدينى تلك الصفة الشرعية للموقف القومى .

كان القائمون على الدين مصريين ، ويكرهون السيطرة الأجنبية ومن يرتمى فى أحضانها من ولاة الأمور ، وقد بدأ ذلك الجمود الذى كان له طابعه للأزهريين يلين ، بعد أن فتحت النوافذ للإصلاح ، لنصل فى النهاية ونراهم ثائرين .

وقد ثبت أنه منذ بداية الثورة كانت العلاقة متوطدة بين قادة الثورة والأزهريين، إذ يجمعهما أكثر من لقاء ومصلحة ، وأدرك قادة الثورة ما لأهمية الأزهر وتأثيره الفعال على قوى الشعب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد خرجت حركة الكفاح والنضال الوطنى من الأزهر طوال تاريخ مصر . وفى أوراق الثورة العرابية عثرت لجنة التحقيق على بواكير تلك العلاقة والصلات المتبادلة ، وكان الشيخ محمد الهجرسى له النشاط ، إذ تأكد « أنه متحد مع عرابى من قديم » ، وهو مثقف وصاحب أفكار متقدمة ، وعلى علاقة ود مع بلنت كبقية مثقفى الثورة(*) ، هذا وقد أصبح واضحًا أن كثيرًا من أعضاء الحزب الوطنى كانوا من الجامعة الأزهرية .

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ١٩ ،
Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 165 .

خرجت أولى الحركات الثورية من الأزهر عقب التاسع من سبتمبر وانتصار الثوريين ، ووجهت ضد الشيخ محمد العباسى الذى كان يتولى الإفتاء ومشيخة الأزهر ، فطلب عشرة آلاف من الأزهريين عزله ولكن بدون أن يوضحوا الأسباب ، لكنها واضحة ، فمعروف أن الغالبية العظمى من طلبة الأزهر فلاحون على المذهبى الشافعى والمالكى ، أما العباسى فهو حنفى - وهو المذهب التركى والرسمى لمصر - ولذا كان النفور بين الطرفين ، كما أن هؤلاء الطلبة بدأ يسرى فيهم تيار الثورة ، والعباسى ذو سلطة قوية مارسها وسيطر بها طوال اثنين وثلاثين سنة[١] ، وكان قد وضع نظامًا لامتحان إجازة العلماء بالتدريس ولم يوافق هواهم ، واشتد الخلاف بينهما ، أيضًا بسبب الجراية وتوزيعها ، وهناك رأى ينصب على أن السبب الرئيسى فى العداء هو موقف العباسى من الثورة ، والخوف من عدم تأييده النظام الدستورى[٢] ، وفى حقيقة الأمر فإن هذه العوامل مجتمعة ساهمت فى إسقاطه ، فأصحاب الثورة ومؤيدوها على بينة من أن العباسى معين من قبل الأسرة الحاكمة وحافظ لنعمتها وأنه يمكن أن يفتى بإبطال شىء يرى فيه توفيق خطرًا عليه ، لذا خاف الأزهريون على وليدهم الجديد من أن يكون للعباسى رأى مخالف فى شرعية هذا المولود . وأخيرًا فمن طبيعة الثورات التخلص بقدر المستطاع من كل ما يمت ويكون له صلة بالنظام السابق .

لهذا سعى رجال الثورة فى عزله ، ومن محاضر التحقيق الخاصة يتبين صدق هذا القول ، ووضحت عملية الاتحاد القوية بينهم وبين الأزهريين الذين أملوا إرادتهم فى اتباع نظام الانتخاب للرئيس الدينى ، فاختيار الأصلح هو سمة من سمات الثورة ، وتم لهم ما أرادوا ، وألفت لجنة تحت رئاسة أحمد رشيد باشا وعبد الله فكرى باشا « لإحقاق الحق » ، وجاء تقرير اللجنة بطلب « انفصال حضرة شيخ الجامع عن المشيخة لأجل إعادتها للسادة الشافعية كما كانت عليه من قبل ، وتقرر تعيين شيخ آخر بدلاً عنه من السادة الشافعية بانتخاب كبار العلماء »[٣] .

وكان ذلك انتصارًا للثورة ، فلم يعارض شريف بعد أن وجد أن الأزهر يسوده القلق والاستياء وعبر عن ذلك « بأنه ثورة من العلماء » ، كما أن توفيقًا رضخ على

---

(١) Polit, Arch Fasz XXXVIII/195, No. 2863, 5 Dec. 1881, pp. 3, 4 ، محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ٦ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, P. 165.

(٣) محفوظات مجلس الوزراء ، محفظة ٥/ز ، دوسيه ٢٩ ، محضر ٣ ديسمبر ١٨٨١ .

الفور ولم يعارض هو الآخر ، إذ كتب إلى مندوبه بالآستانة يقول « نظرًا للكراهية والنفور رأينا عزله من المشيخة تسكينا للفساد ودفعًا للقليل والقال ، وأمرنا بترتيب هيئة من العلماء قوامها ثلاثة ينتخبون من المذاهب الثلاثة لانتخاب شيخ للجامع بدلاً عنه يكون من المذهب الشافعى ، وقد نفذ ذلك بالفعل »[١] .

ومن الملاحظ أن الحكم جاء على أيدى ثوريين وأثبت ذلك الالتحام بين قادة الأمة وحملة الشريعة ، وكان البديل شافعيًا كرغبة الأزهريين وتأييد الثوريين ، وصدر الأمر بتعيين الشافعى الشيخ محمد الإمبابى شيخًا للجامع الأزهر ، وأُختير الشيخ الدرستاوى للحنفية والشيخ عليش للمالكية والشيخ يوسف للحنابلة .

وفى البداية كانت الرغبة تميل إلى تعيين الشيخ عليش وهو وطنى متقد حماسة - لعب دورًا بارزًا فى الثورة ومات فى السجن مسمومًا كما اتضح من الشهادات فى محاكمة عرابى - لكن وجد تعيينه معارضة من الخديو ، وانتهى الأمر بتعيين الإمبابى وهو متدين ومتحرر من القيود ، وتجمعت العوامل لتمكنه من العمل بثقله الدينى والروحى الأدبى فى المجتمع من أجل الثورة ، وسيعلن هذا الشيخ عزل توفيق فى الوقت الذى يمتنع الشيخ العباسى على الموافقة .

كان إسقاط القائم على أمر الإسلام على يد الثورة حدثًا اهتزت له حتى الدوائر السياسية التى اتهمت شريف بالضعف لتركه الثوار يفرضون أنفسهم على الأحداث ويسيرونها كيفما أرادوا ، فيقول تقرير نمساوى « إن عزل الشيخ العباسى وتعيين خلف له هو الشيخ محمد الإمبابى لا مفسر له سوى ضعف حكومة شريف »[٢] .

وبدأ فى الأزهر العمل التحررى ، فكانت ثورة على القديم ووضعت الأسس الجديدة التى تتفق مع مبادئ العهد الجديد ، وقدم شيخ الأزهر ووكلاء المذاهب الثلاثة إلى الداخلية تقريرًا أوضحوا فيه برنامجهم الإصلاحى .

وجاءت الأحداث السياسية التى تعرضت لها مصر والتدخل الإنجليزى ليعطى الدفعة قوة بعد ذلك الخطر الذى أصبح يهدد مصر سواء من الخارج أو الداخل

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ٦ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Polit, Arch, op. cit., No. 144/13, 9 Dec, 1881 .

ليكون فى النهاية انضمام كلى للأزهريين ونزولهم للميدان الثورى . وبدأ دورهم فى إثارة الحمية الدينية والوطنية لقوى الشعب ، ويُعزى البعض إلى أنه كان لذلك أثره فى الثورة . حقيقة لا ننسى أن الشعب كان معدًا الإعداد الكامل لها ، لكن مما لا شك فيه أن دور الأزهريين فى الحث والحماسة أضفى الشرعية الكاملة عليها ، ولم يكن ليقتصر على ذلك بل أنهم غذوا الأفكار الثورية ونموها ، وما كان اختيار الإمبابى « إلا من أجل خدمة أهداف الثورة »[1] ، هذا فى وقت بعدت فيه أفكارهم عن الجمود الذى اتصف به الأزهريون ودخلت فى مرتبة الرقى والتقدم والتطور للدرجة التى جعلتهم تأثروا بالمؤثرات الثقافية الأوربية ، وبذلك لم تقتصر زعامة الثورة على القادة العسكريين فقط .

وعاش رجال الدين خطوة بخطوة مع الثورة ، فكانت لهم مواقفهم من الأحداث ، فيرفضون مذكرة مايو المشتركة ، ويسعون لإعادة عرابى ، وكانوا يمثلون الزعامة الدينية لدى مناطقهم ويعبرون عما يكنه الشعب ، هذا فى الوقت الذى أعطتهم فيه الثورة المزيد من الشخصية والسلطان ، فأصبحوا لا يتكلمون باسمهم فقط وإنما باسم المجموع ، فنرى برقية واردة إلى الداخلية من الشيخ محمد القصبى شيخ الجامع الأحمدى تؤيد وترفض وتعترض إذ تقول « إنى بصفة كونى شيخ الجامع الأحمدى بطنطا أقول إن جميع الناس متمتعون بنعمة عدالة حكومتنا الحالية ، معضدونها كل التعضيد ، رافضون كل تدخل أجنبى ، ولا يكدرهم إلا كما علموه من إتيان المراكب الحربية إلى الإسكندرية ، فلما رأينا منهم غاية من التحمس فى هذا الأمر ، سعينا فى تسكين جأشهم ، وتهدئة خواطرهم ، وقلنا لهم لا ضير فستنجلى هذه المراكب عنا بسلام حافظين امتيازاتنا واستقلال إدارتنا »[2] .

وواضح أنه كما كان رجال الدين القوة المعنوية الدافعة لثورة الشعب ، كانوا القوة المهدئة إزاء الأحداث ، وقد انصب موقفهم فى هذه الفترة على ضرورة خروج الأسطول المشترك من المياه المصرية ، أيضًا لهم دورهم فى تثبيت عرابى بمنصبه فى الوقت هم فيه غير راضين على حكم توفيق .

---

(١) Ibid, No. 151/pol, 18 Dec. 1881 .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤١٣ فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ .

وقد ظهرت ثورتهم الفعالة أثناء اللقاء الذى تم بين أربعين عالمًا ومعهم شيخ الإسلام وبين درويش باشا ، إذ ثاروا أمامه وأظهروا استياءهم من الحالة ، وقدموا مطالبهم لترفع للسلطان « ثبات نظارة سعادة محمود سامى باشا، ورفع الخديو عنا ، ورفض اللائحة ، لأن أصل الارتباك الحاصل الآن بمصر هو ناشئ من الخديو بسبب قبوله تلك اللائحة ، والدليل الوحيد الذى يؤكد لنا ذلك أنه استعان على جماعة المسلمين بأعدائهم الكفار وخالف قول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون الله ﴾ ، فضلاً على أنه طلب من الدولتين المدرعات الحربية ، وأنه قبل لائحتهما المخلة بالفرمانات الشاهانية الصريحة مع أننا لا نقبل دخولنا تحت سطوة أى دولة كانت غير دولتنا العلية ، ومن يعارضنا نحن مستعدون لمقابلته بالقوة ومعضدون للحزب الوطنى بأموالنا وأنفسنا وأولادنا » ، وتحدث الشيخ عليش وقال « إننا نخشى أن تنقلب مسألة مصر وتصبح مثل مسألة تونس ، فأجابه درويش باشا قائلاً : حاشا أن تكون مصر مثل تونس أو الجناب الخديو مثل باى تونس » ، وأضاف أن الجيش قد خلص البلاد من الوقوع فى أيدى الكفار ، وأثنى على رؤسائه ووطنيتهم ، أما الشيخ العدوى فقد رفع صوته ومعه اثنان على ضرورة طرد الأساطيل ، مما جعل درويش يتوقف ويمنعهم من الاستمرار فى الحديث معلنًا « أنه جاء ليعطى الأوامر لا ليتلقى نصائح ، وأن القصر ليس قهوة السياسيين المشاغبين ، وأمرهم أن ينصرفوا فى الحال »(*) .

وفى حقيقة الأمر ، فإنه منذ البداية لم يكن العلماء راضين عن سلوك توفيق ، وكانوا مؤيدين للعسكريين وعلى رأسهم عرابى الذى حاول بكل الطرق استصدار فتوى شرعية منهم بعزل الخديوى ، وأرسل إليهم « ما القول فى حاكم مولى من طرف سلطان المسلمين على أن يعدل فى الناس ويقضى بأحكام الله ، فنقض العهد ، وأحدث الفتن بين المسلمين ، وشق عصاهم ، ثم انتهى به الأمر إلى أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين ، وطلب من الأمم الخارجة عن الدين القويم أن ينفذوا قوتهم فى بلاد حكومته الإسلامية ، وحمل رعاياه على أن يدينوا ويخضعوا لتلك القوة الأجنبية ، وبذل عنايته فى الدفاع عنها ، ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن ذلك أبى وامتنع وأصر على الخروج على طاعة السلطان والمروق من الشريعة ، فهل يجوز شرعًا أن يبقى هذا الحاكم حاكمًا حتى يُمكن قوة الأجانب من السلطة فى

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٤ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣١٨/ب ، محفظة ٥ ، دوسيه ٣٤٦ ، The Times, June 12, 1882 .

البلاد الإسلامية ، فبهذه الحالة يكون عزله وإقامة بدل له يحافظ على الشرع ويدافع عنه، أفيدوا الجواب »[١] .

وكان الجواب معروفًا ، فمنذ بداية الفجوة بين توفيق ورجال الثورة ، أعلن الشيخ الإمبابى عزله ، واستمر هذا الموقف ، وظهر جليًا فى الاجتماع الذى عقده توفيق عقب استقالة نظارة الثورة الثانية وأيضًا فى الاجتماع لدى سلطان ، ومعروف رؤية الشيخ عليش وثوريته وإصراره على خلع توفيق الذى لم يعد يصلح لأن يكون واليًا على المسلمين ، وازداد الأمر تعقيدًا عندما تمت المقابلة مع درويش ، إذ كانوا يعتقدون أن مندوب أمير المؤمنين سوف يكون بجانبهم ، لكن عندما اتضح العكس ، عادوا وهم فى أشد الحنق عليه هو الآخر ، ويذكر صابونجى فى خطاب له لبلنت فى ١١ يونيو ١٨٨٢ وكان شاهدًا لتلك الأحداث « حدث فى الأزهر حركة شبيهة بالثورة ، وقد حضرت عدة اجتماعات للعلماء وغيرهم ، وكان الغضب فى جميعها شديدًا ، والمتكلمون يكثرون من ذكر القرآن والحديث ، ويثبتون بهما أن توفيقًا غير مناسب لأن يكون واليًا على أمة إسلامية ، ولم يكتفوا بعقد الاجتماعات الخاصة ، بل قرروا أمامى أن يعقدوا اجتماعًا عامًا فى الأزهر احتجاجًا على الإهانة التى لحقت بهم ، وعُقد الاجتماع بالفعل فى الأزهر حيث تقام الصلاة ، وطلب من نديم أن يخطب الحاضرين ، وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس وليس عندى من الوقت ما يسمح لى بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة النديم »[٢] .

وتعددت اللقاءات الثورية فى الأزهر لنشر الأفكار ضد الأجانب والحاكم « وأخذ الأزهريون يسيرون فى الشوارع والطرقات فى شكل مظاهرة يحتجون فيها على الأوضاع وعلى معاملة الخديو لبعض الأحرار من علماء الأزهر »[٣] ، حيث بدأ توفيق يضيق ذرعًا بهم فكان دائمًا يحاول توجيه الضربات لهم ، والتحمت القوى والتصقت الكيانات وتلاقت الأرواح وكثرت الاجتماعات لدى القائد الذى أصبح معبود الشعب ، وامتلأت الصحافة بوصفها وبدقة تلك الوفود اليومية من شباب الأزهر الذين يجتمع بهم « مجدد أمر الأمة سعادة أحمد باشا عرابى »[٤] ، فلم يكن هناك اجتماع يخلو من علماء الأزهر الذين اعتمد عليهم اعتمادًا كبيرًا ، وقد أعطت

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/أ .

(٢) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 330 .

(٣) عبد اللطيف حمزة ، الفتنة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده ، ص ص ١٣ ، ١٤ .

(٤) الفسطاط ، عدد ١٠ فى ٢١ يونيو ١٨٨٢ .

التقريرات والشهادات المقدمة إلى لجنة التحقيق بأن « طلبة العلم وشيوخ الأزهر كان منزل عرابى يغص بهم »[١] .

وفى هذه الاجتماعات ، كان رجال الدين الحجر الأساسى فيها ، خرجت منها أصوات اتهامات توفيق وضرورة مقاطعة معسكره ، فى الوقت الذى كانت أصداء التأييد والتشجيع للقادة تدوى ، وكثيرًا ما كانت القصائد الخاصة بمديح عرابى تلقى فتزيد المجتمعين حماسة وقوة ، وقد لعب الشيخ عليش دورًا مهمًا فيها ، ففى محضر اتهامه « أنه من الساعين للهيجان والإفساد المساعد للعصاة فى الإتحاد بهم والتهور فى المحافل والمجامع العمومية والخصوصية بالانتصار لهم ، والقدح والتنديد فى حق الحضرة الخديوية حتى حصل إفساد الأذهان والأفكار العمومية للدرجة التى أوصلت إليها من الإختلال والتعصب الدينى والسياسى »[٢] .

وتجسدت إرادة الشعب على يد العلماء ، وأعلن الشيخ العدوى صراحة أن توفيقًا مرق من دين الإسلام ويجب خلعه ، وكان ذلك أثناء انعقاد المجلس الوطنى للمداولة فى استمرار التجهيزات الحربية أو إبطالها ، وللعدوى تاريخ يسجل فى الثورة إذ أيدها بكل قواه ، وبالرغم من أنه كان مسنًا وضعيفًا جسمانيًا ، فإنه روحانى عميق وباحث قديم عن العدالة التى فقدتها مصر ، وقد أيد شرعية مطالب الثوار ومضى فى موقفه البطولى حتى مات ، وبناء على قراره صدرت الفتوى التى مضى عليها ثمانية من رؤساء العلماء الأزهريين على رأسهم الشيخ عليش .

وهكذا صدر حكم الرؤساء الدينيين على الحاكم ، وبينوا أنه على الحكام أن يكونوا أصحاب إيمان ويحكموا بالعدل وفقًا لما أمرت به الشريعة ، لكن توفيقًا حاد عن ذلك « حيث أتوا بقصة إبرهه وأصحابه كمثل جيد لطغيانه وعدم إخلاصه وصلاحيته »[٣] ، ومع هذا فإن الخديو لم يسقط .

وكان للعلماء موقفهم إزاء الوجود الأجنبى ، فقد احتجوا وختموا على رفضهم ببقاء السفن الإنجليزية فى الإسكندرية ، وأيضًا فى اجتماع المجلس الوطنى الأول والثانى أصدروا قراراتهم باستمرار التجهيزات للمدافعة عن مصر ضد المعتدين ، وعدم تنفيذ إرادة الخديوى فى عزل عرابى .

(١) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، تقرير ٧ ، ص ٢٨ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١٩٣ .

(٣) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 175 - 177, 365

وفى أثناء الحرب كان لهم موقفهم المشرف إذ عدوها حربًا صليبية ، فذهبوا أفواجًا إلى ميادين القتال برئاسة الشيخ العدوى ، وذلك للتأييد الروحى والمعنوى ، واعتبار ذلك من دواعى المدافعة عن الوطن ، وأن ذلك واجب شرعًا وسياسة .

وراح طلبة الأزهر بعد أن وحدوا جهودهم يجوبون الشوارع ويوزعون المنشورات التى تحث على الجهاد فى سبيل الله ، ومضى التوسل والتضرع لله لينصر المسلمين وذلك بقراءة البخارى ، وقد انشغل العلماء بهذا الأمر ، فكانت الجوامع تغص بالمقرئين وخاصة الأزهر والحسين ، وفى قاعة الأزهر الشريف داخل المسجد الأحمدى ، وأيضًا فى أرض المعارك ، وأقيمت الصلوات ليلاً ونهارًا فى جميع المساجد من أجل نصرة عرابى وجيشه ، يقوم فيها المؤذنون على المنائر يبتهلون إلى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدو(*) ، هكذا فعلوا مثلما حدث وقت غزو التتار والحروب الصليبية .

كما كانت للخطابة الدينية الأثر الكبير فى تعبئة الرأى العام وتجميعه وتحميسه، وخصوصًا أنها خرجت من المساجد وهى بيوت الله التى أذن فيها بذكر اسمه ، وكان علماء الأزهر على قمة الخطباء فى إعلان الجهاد الدينى ، وسرى الأمر إلى جميع مشايخ المساجد منذ أن بدأت الحرب وحتى نهايتها ، ففى أسيوط هناك خطب الشيخ زين الدين نقيب الأشراف بجامع الدفتردار ، وتتضمن بيان أحوال البلاد ، وشرح ما يجب على المسلمين عمله الذين دهم العدو بلادهم ظلمًا وعدوانًا من غير أن يقترفوا ذنبًا أو يجترموا جريمة ، سوى المحافظة على حقوقهم الدينية والوطنية ، وحض على بذل الأرواح فى سبيل الله والتبرع بالأموال مستشهدًا بالآيات القرآنية .

وفى المنصورة يخطب الشيخ إبراهيم السمنودى على جمع الكلمة وائتلاف القلوب والتعاون ، والدعاء للجيش بالنصر والظفر فيضج الحاضرون بالتأمين ، وفى المحلة لم يقتصر الأمر على خطب الجمعة ، بل استمرت طوال الأوقات لتنبيه فضل الجهاد وما أعد للمقاتلين فى سبيل الله ، وكانت تطبع وتوزع فى جميع الجهات المجاورة ، وفى دمنهور كان لصوت الشيخ حميده الدمنهورى صدى واسع بجامع

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ . الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٩ فى ١٦ يوليو ١٨٨٢ , Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 233. ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٢ .

أحمد الزواوى ، وتميزت خطبه بإشعال الحماس من أجل الجهاد الدينى والمالى ، كما كان لخطب الشيخ المليجى النتائج المرجوة ، فقد لبى أهالى أسيوط النداء الذى وجهه إليهم[1] . أيضًا تواجد النشاط المتزايد الذى قام به الشيخ أحمد عبد الجواد وأخوه من علماء الأزهر فى الدعوة للتطوع وقتال الإنجليز ، وتركهما لبلدهما ووجودهما فى مقر وجود الجيش ، « لأجل الدعاء وحث العساكر على المحاربة » مما انعكس على الحالة المعنوية للقوات ، كذلك ظهر فى هذا المجال الشيخ العدوى كداعية للجهاد حتى لأقرب المقربين إليه « أوعز إلى نجل أخيه وهو على جانب عظيم من شدة البأس وقوة المراس وعارف ببعض اللغات بأن يتطوع بنفسه للإنضمام فى سلك المجاهدين »[2] ، وقد أثر ذلك على القوى الاجتماعية .

وكان هناك بجوار الجهاد والتطوع والاقتداء بالرسول ﷺ وبيان دور الخيانة للمنشقين عن الشريعة ، وإظهار وضع العائلة الخديوية « الذين كانوا كالليل المظلم إذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدينوى وعن طريق الدين غافلين » ، أن أصبح الدعاء فى صلاة الجمعة لا يدعى للسلطان أو للحاكم ، إنما لعرابى « اللهم أنصر عرابى بجيش المؤمنين » ، وبذلك غدا حاكم مصر الشرعى بدون منازع .

أيضًا كان لهم دورهم فى مسألة الأموال ، فقد حثوا على التبرع بها ، وقدموا تلك الصناديق المملؤة بنذور المساجد إلى المجهود الحربى ، وأسهموا فى التبرعات كل على حسب مقدرته . وقام الشيخ العدوى بإخلاء سرايته بعابدين لينزل بها مائة من مهاجرى الإسكندرية ، ورتب لهم خمسمائة رغيف كل يوم ، ولم يكن هو وحده ولكن معه باقى العلماء الذين تبرعوا بمنازلهم لسكنى المهاجرين . وأجروا عليهم المأكل والمشرب[3] .

وبجوار ذلك ، فقد نظم العلماء القصائد ، فيقول الشيخ المرصفى :

يا صاح قم واشكر إلهك واحمد   فالدين منصور على يد احمد

ويقول أحمد عبد الغنى المدرس بالأزهر :

وقت فيه الاستعداد فرض   لتنفيذ الأوامر من عرابى

---

(1) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٤ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٤ فى ١٠ سبتمبر ، عدد ١٤٦٢ فى ٢٠ يوليو ، عدد ١٤٦٩ فى ٨ أغسطس ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ، عدد ١٤٨٠ فى ٤ سبتمبر ، عدد ١٤٧٦ فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ .

(2) المصدر نفسه ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

(3) المصدر نفسه ، عدد ١٤٨٠ فى ٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٠ فى ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

قوموا بالثبات على الأعادى وقولوا فيهم فصل الخطاب
وقولوا يا عرابى مر بامر تراه فانت ذو الأمر المجاب
وقولوا يا عرابى دم رئيس لحفظ النصر محفوظ الجناب(*)

هذا بالإضافة إلى تلك الرؤيا التى أعلنها العلماء بانتصار عرابى والمصريين ، فتارة السيدة نفيسة تُلبس له السيف ، وتارة أبو العباس المرسى يؤيد خطواته ، وهذا دليل على التطلع إلى النصر ، وخصوصًا أن ذلك الوقت كان لمثل هذه الأقوال القوة فى رفع المعنويات ، سواء للمحاربين أو للشعب .

وبذلك وضح الدور الذى قام به العلماء مع الثورة ، فقد أيدوها بكل قواهم الروحية والمادية ولم يدخروا وسعًا فى ذلك إملاً بأخذ يد مصر وإنقاذها مما كانت تعانى منه .

الإمام الأزهرى والفكر الليبرالى

حمل لواء التيار الدينى المثقف فيلسوف الثورة ومفكرها الإمام محمد عبده ، فاعتمدت عليه فى تنفيذ مسارها ، وبرز دوره السياسى ومثَّل السمو لفكر المثقفين الذين أسهموا بعقليتهم وجهدهم فيها . ولم يكن اشتراك محمد عبده فى الثورة بجديد على اتجاهه الثورى ، فقد عرفناه منذ أن كان تلميذًا ثوريًا للأفغانى أليس هو الذى وكل إليه الترصد لإسماعيل وقتله عند قصر النيل ؟ وهو الذى ساهم بالرأى مع أعضاء الحزب الوطنى فى عزله ، ولكنه كان بجوار الإطار الثورى يرى أنه من الضرورى إصلاح المجتمع ، وقد فضل هذا الاتجاه مع بداية الثورة مما جعله معتدلاً « فقد زار مرة طلبة باشا فإذا مجلسه الذى كان به عرابى يتكلمون فى الاستبداد والحرية والحكومة المطلقة والحكومة النيابية والدستورية ، واتفقوا على أن الأمن على الأرواح والأموال وصعود الأمة فى مراقى الكمال من آثار الحكومة المقيَّدة بلا جدال ، وأن هذا التحويل قد آن فى مصر وأدركها إبانة ، فعارض محمد عبده وقال أن أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية ، وطالت المناقشة بين القادة والعسكريين وبينه وكل منهما مصمم على رأيه ، وأخيرًا قال أن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ص ١٩٨ .

غير مشروع لأنه ليس تصويرًا لاستعداد الأمة ومطلبها . ويخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالاً أجنبيًا »(١) .

لكن سرعان ما تغيرت هذه المفاهيم لدى محمد عبده عندما وجد أن الثورة هى ثورة شعب وليست قاصرة على العسكريين ، فدخل بسلاحه وشارك كل المشاركة حتى غدا أحد الرءوس المدبرة لشئون الحركة الوطنية ، وأعطاه مركزه فى صحيفة الوقائع المصرية القيادة منذ البداية ، ففيها راح يكتب عن ضرورة الإتحاد بين عناصر الأمة على اختلاف أديانها ومذاهبها حتى تستطيع مواجهة أعدائها ، وحث الأغنياء على المساهمة فى المشروعات لإفادة الشعب ، وفى الفترة من قصر النيل إلى التاسع من سبتمبر ، تلك التى كانت مفعمة بالنشاط السياسى الذى شمل جميع قوى مصر ، جعلته ينقل ثقله إلى المعسكر الثورى ، وقد وضح ذلك فى مقالاته إبان عهد الثورة التى عظّم فيها المصريين ، وأشاد بروح الإتحاد وشرح للقراء أهلية الحكم الدستورى وتطبيق العدالة والصحوة من الغفلة .

ويرى محمد عبده أن الحرية تنقسم إلى حرية رأى وحرية قول وحرية انتخاب، وهذه الحريات لها حد ، فحد حرية الرأى أن يكون مبنيًا على القياس موافقًا للحكمة مطابقًا للصواب ، وحد حرية القول أن يراد به الخير ولا يجاوز فيه حد المنفعة ولا يمس شرفًا مصونًا ولا يضر بريئًا أمينًا ولا ينتشر من غير علم اليقين ، وحرية الانتخاب أن يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس إلا ، كما عرَّف الحرية السياسية بأنها عبارة عن حق الإنسان فى المساهمة والاضطلاع بشئون الدولة ، وتعرض لتلك الحرية من ثلاث زوايا ، الأولى الإقرار بهذه الحرية والثانية توفير مقوماتها والثالثة إيجاد وسائل التعبير عنها(٢) .

أما القانون فقد كان له المكانة فى فكره من حيث حتمية تطبيقه ، فهو الحق الذى ترجع إليه الأمة فى معاملاتها وأحوالها الخصوصية وهيئاتها ، وأن الحكم على أساس القانون والحكم على أساس القوة ، أن الأخير يتم دون مراعاة طرق عادلة أو احكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة ، بل بحسب ما تقتضيه القوة التى سفكت الدماء وذلت الشعوب وأنهكت حرمات الأمم وسجنت حرية الإنسان فى مطمورة الرق والاستعباد ، وفى ذلك يتبين أنه كان متفقًا مع فكر مونتسكيو ، وعندما تم انتخاب مجلس النواب طالب الأعضاء بأن « لا يجاروا غير

(١) السيد محمد رشيد رضا ، المرجع المذكور ، ص ١٤٦ .
(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠ نوفمبر ١٨٨١ .

بلادهم فى سن القوانين ، وعليهم أن يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الأهالى الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيأ لهم حينئذ أن يرسموا ما لابد منه من الأحكام الملائمة » ، فالقانون هو الواسطة بين الحاكم والمحكومين ، وهو الذى يحدد واجبات كل منهم ، وأن الديمقراطية ليس لها القوة إلا باحترام القانون ، ويتحقق القانون بتوافر الحرية السياسية وبالاستناد إلى الرأى العمومى الذى هو ثمرة أهل الحل والعقد »[١] .

كذلك تغلبت مسألة الحكومة الشورية على أفكاره ، وكانت الركيزة التى غذى بها الثورة ، وطرحها أمام الجميع بصور مبسطة وربطها بالإسلام والأفكار الغربية المتطورة وبين حاجة مصر لها ، وأفهم المصريين ما هى واجبات الحكام وحقوق المحكومين ، فيقول « كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنًا ، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وإنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل جهرًا بهذا القول ، والاستبدادية فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له أى عبيد ، نعم إننى فى ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع غير أنى كنت روح الدعوة »[٢] .

ويبيِّن المعانى الحقة للوطن والوطنية « فالوطن عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقك عليه ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك ، ومن أقوالهم فيه ولا وطن إلا مع الحرية » ، وأن الوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداف الشرف الذاتى ، فهو يغار عليه ويزود عنه .

وتطرق إلى القومية « التى لا تُفرق بين دين أو آخر ، وهى سمة العصر الحديث منذ الثورة الفرنسية ، نزعة فكرية وعاطفية توجه ولاء الفرد للأمة ، وقد سميت القومية نسبة إلى القوم الذين يعيش الفرد بين ظهرانيهم ويشعر بأن كيانه جزء لا يتجزأ من كيانهم ، ولها مقوماتها الخاصة كاللغة والأرض والكيان السياسى والعادات والتقاليد والدين ، وبالرغم من أن هذه المقومات لها أهمية كبرى فى تكوين

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ٧ فبراير ١٨٨١ ، عدد ١٢٩٠ فى ٢٥ ديسمبر ١٨٨١ ، عبد العاطى محمد أحمد ، الفكر السياسى للإمام محمد عبده ، ص ص ١٨٦ ، ١٩٥ .

(٢) محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ٢٨ .

القومية، فإن العامل الأساسى فى حفز الشعور بالقومية هو الإرادة الحية النشطة التى هى نزعة فكرية توجه نشاط الغالبية العظمى من الشعب »[١] ، وأن الشورى وحرية الإرادة تبنى على حق الحكومين فى اختيار نظام الحكم الذى يحقق مصالحهم .

لقد عرض محمد عبده على المصريين المعانى السياسية والقومية فى صور مبسطة حتى تعيها الأذهان ، إذ أنه أراد أن يعتمد على جميع عناصر الأمة بلا استثناء ، ولم تكن تلك المعانى تصل عن طريق الصحافة فقد ، وإنما أيضًا عن طريق الكلمة المسموعة من على منابر الخطابة سواء فى الجمعيات أو فى تلك الليالى والاحتفالات التى كانت عبارة عن لقاءات سياسية .

وتمكن من السيطرة على الصحافة ، إحدى وسائل أجهزة الإعلام ، وصدر أمره بتعيين أحمد بك رفعت ناظرًا لقلم المطبوعات التركية والعربية ، والمسيو فوكلين رئيسًا لقلم المطبوعات الأفرنجية ، وعمل هذا الثالوث بكل قواه من أجل الثورة ، كما جند العاملين معه لنفس الغرض ، فكان منهم سعد زغلول وعبد الكريم سلمان والشيخ محمد خليل والشيخ عامر إسماعيل ، وهم من محررى صحيفة الوقائع المصرية ، وقد اتبع الأول أسلوب أستاذه فى كتاباته[٢] .

وكره محمد عبده الأتراك ومقت سياستهم ، وبالتالى فهو شديد النفور لسياسة السلطان عبد الحميد الاستبدادية ، وفى خطاب له إلى بلنت فى ٢٥ أبريل ١٨٨٢ يتكلم بلسان كل مصرى « سواء أكان من العلماء أو الفلاحين أو الصناع أو التجار أو الجنود أو الموظفين أو السياسيين أو غير السياسيين ، أنه لا يستطيع مصرى أن يفكر فى نزول الأتراك فى بلادنا بدون أن يشعر بعاطفة قوية تدفعه إلى امتشاق سيفه والهجوم به على هذا المعتدى ، إن الأتراك ظلمة قد تركوا فى بلادنا من آثار السوء مالا تزال قلوبنا تضرب منه ضربان الجرح ، فلسنا نريد رجعهم ولسنا نريد أن نعود إلى معرفتهم ، وكفى الأتراك ما لهم من حقوق الفرمانات ، فعليهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه »[٣] .

وكان يرى أن الوحدة الوطنية لا يجب أن تكون فوق الخلافات الدينية فحسب ، وإنما هى أيضًا فوق الخلافات السياسية « فإن كان الفرنسوى جمهوريًا أو ملكيًا

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ ، عبد العاطى محمد أحمد ، المرجع المذكور ، ص ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٣١٩ فى ٢٨ يناير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 251 .

أو امبـراطوريًا فـهـو فـرنسى على كل حـال » ، وبلور فكره السـيـاسى فى الشكل الجمهورى الحر ، فكان نصيرًا للديمقراطية البرلمانية للدرجة التى جعلت عرابى يقول عنه « إنه يصلح للبس القبعة عن العمامة »(١) ، وكان ذلك دليلاً على تحرره ، إذ صب فى العقول الأفكار الغربية التحررية ، حتى أن الكثير قد اتهموه بالطعن فى الشريعة الإسلامية ، وبأنه دس تلك الأفكار فى عقول كثير من طلبة العلم الذين تتلمذوا على يديه ، وكان كرومر على حق حين وصفه بأنه « مؤسس مدرسة الفكر المصرى الحديث »(٢) .

وعُرف محمد عبده بذكائه ووسع ثقافته وإجادته للكتابة ، فهو الرجل الموهوب للحركة الوطنية فى الوقت الذى كان فيه متحدثًا لبقًا له النفوذ القوى على المثقفين وهو المتحرر البعيد عن التزمت ، قدم الكثير من أجل مصر ويقول برودلى « وأحيانًا كان يصعب علينا الوقوف على شخصية محمد عبده ، فقد كان سليط اللسان يشرح ويصور أهداف وبواعث الوطنية المصرية »(٣) ، وبذلك أصبح القائد الفكرى للثورة فالتصق بالثوار وساهم فى صنع الأحداث .

ويعد برنامج الحزب الوطنى من المبادئ التحررية للثورة ، هذا البرنامج المتكامل الذى أسهم فيه محمد عبده بنصيب وافر مع بلنت والبارودى وعرابى ، وقد نشر فى صحيفة التيمز فى أول يناير ١٨٨٢ بناء على الإتفاق بين الإمام وبلنت لكسب الرأى العام الخارجى تجاه الحركة الوطنية ، وشمل المحافظة على العلاقة التى تربط مصر بالباب العالى وفقًا للتسويات الدولية ، وخضوع مصر للحاكم الشرعى ما دامت أحكامه جارية وفقًا للعدل والقانون ، وعدم العودة للاستبداد والأحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل ، وإطلاق عنان الحرية للمصريين ، والإعتراف بفضل فرنسا وبريطانيا مع استمرار المراقبة الأوربية ، وأن مصر ملزمة بالديون التى لم تفرض لمصلحتها وإنما أنفقت فى مصلحة حاكم ظالم كان لا يُسأل عما يفعل ، والأمل فى استخلاص المالية من أيدى أرباب الديون حتى يأتى اليوم الذى تكون مصر فيه بيد المصريين ، وإظهار خلل المراقبة والهجوم على الموظفين الأجانب مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن أسلوب براتب لا يوازى خمس راتب الأجنبى ، وضرورة فرض ضرائب على الأجانب وخضوعهم لقانون البلاد ، وأن طريق الحرية هو اتباع المؤسسات الدستورية كمجلس النواب وإطلاق حرية

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 227 .
(٢) Cromer , op. cit., vol. II, p. 180 .
(٣) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 228 .

المطبوعات بطريقة ملائمة وتعميم التعليم ، وأن المصريين فوضوا أمرهم للعسكريين الذين يكونون القوة الوحيدة فى البلاد ومتى وصلوا لغرضهم فهم تاركون التدخل فى السياسة لأهلها ، وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف عسكرى ، وأن الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى ، يضم رجال من مختلفى العقيدة والمذهب ، حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية ، وأن آمال الحزب معقودة على إصلاح البلاد ماديًا وأدبيًا وذلك بحفظ الشرائع والقوانين ، وتوسيع نطاق المعارف ، وإطلاق الحرية السياسية التى هى حياة للأمة ، وأخيرًا أشار البرنامج إلى أن للمصريين اعتقادًا فى دول أوربا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال أن تمتعهم بهذه الحركة[١] .

ومن ثم تمكن مثقفو الثورة من عرض قضيتهم بطريقة لا تجعلهم يتعرضون للهجوم من أية ناحية ، وقد لقى البرنامج أصداءه فنجد صحيفة الستاندرد تؤيد الحزب الوطنى بقولها « إن هذا الحزب ليس إلا حركة وطنية ، فهى تود أن يأخذ المصريون على أنفسهم عهد إدارة الأعمال المالية بدون مساعدة الأجانب التى لا تنتهى مع مرتباتهم الباهظة ، فمن نظر إلى ذلك بعين الازدراء ، وظن أنه ليس إلا خروجًا عسكريًا عن حدود القوانين أو ثورة صاحب غاية لا مقصد له غير غايته ، فقد زاغ عن محجة الصواب »[٢] .

كذلك كان لمحمد عبده تأثيره فى مجلس النواب ، فهو على صلة قوية ووطيدة بأعضائه أمثال أحمد محمود عمدة الرحمانية وإبراهيم الوكيل عمدة سمقراط ، وله الدور الفعال فى تحريكهم وإشعال نشاطهم ، وقد وضح ذلك من خلال عمل المجلس . ومع البارودى تجلى تأثير محمد عبده ، إذ جعله قادة الثورة « واسطة عقدهم وفهرست كتبهم يرجعون إليه فى جميع أمورهم ، لا يتحركون إلا بإرادته ، فكان أرسطوهم فلسفة وبسماركهم سياسة »[٣] .

ومن خلال صحيفة الوقائع المصرية كجريدة رسمية اضطلعت على مجريات الأمور فى مصر ، سيطر على الموقف ، ونشر فيها خيانات توفيق وامتلأت الصفحات بالقدح فيه والمدح فى عرابى والدعاء له ، والحث على المحاربة والجهاد فى سبيل الله بالتطوع فى دخول الخدمة العسكرية ، وتشجيع الإعانات المالية ومدح المديرين على مجهودهم فى سبيل ذلك ، وشرح كيف أن العدو هاجم مصر ظلمًا

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 556 - 559 .

(٢) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

وعدوانًا ابتغاء توسيع ممتلكاته ، وكان يستشهد بالقرآن الكريم وأقوال الرسول ﷺ ، ويذكر أنه بفضل هذه الكتابات « فتحت عقول الأمة ووجهتها نحو طلب الحرية والإصلاح بعد أن عاشت زمنًا فريسة للطغيان والاستبداد وضحية للجهل والفساد »[1].

أيضًا أوعز إلى « إبراهيم أفندى سراج من المدينة المنورة » لإصدار صحيفتى الحجاز والفسطاط للكتابة فيهما عن شجاعة العرب ، وتمكن بمساعدة بلنت وجريجورى من إصدار صحيفة فى لندن باللغة العربية « الإتحاد العربى » تحت إشراف صابونجى ، فصولها محررة بقلمه ومطبوعًا فى صفحاتها صور عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ، وفيها نشرت المشاكل والصعوبات التى تلقاها مصر من حاكمها ومن السياسة الأوربية ، وقد ذكرت فى عددها الأول أن من يريد الإشتراك فيها فليطلبها من إدارة صحيفة الوقائع المصرية[2] .

واستمر محمد عبده مخلصًا للثورة ومبادئها مداومًا على الاجتماعات مؤثرًا فيها ، لدرجة أنه كان يلقن الخطب لكل من على الروبى ويعقوب سامى ، وكلمته نافذة وإرادته مسيطرة ، ولا تنسى له الثورة موقفه عندما جمع القادة حول المصحف الشريف ليكون أول قسم على حب الوطن والتضحية والتعاون والإتحاد من أجل إنقاذ مصر والدفاع عنها ، وأثناء انعقاد المجلس الوطنى بالداخلية ، كانت مكانته بارزة وصوته مسموع ، ليعلن أن عرابيًا هو الذى يعمل لإصلاح مصر ، أما الخديو فيجب عزله ، وتولى بنفسه تحرير المحاضر الخاصة بذلك[3] .

وكان يكره من أعماق قلبه جميع أفراد الأسرة الحاكمة ، ويعتقد فى قرارة نفسه أنها قد أساءت إلى مصر إساءة بالغة ، ولا يستثنى من ذلك محمد على نفسه وينكر عليه كل شيء ، ويرى أن من الخير لمصر أن تتخلص من هذه الأسرة فى أقرب وقت ، من هنا كان اللقاء تامًا مع العسكريين ، وقد جند تلاميذه أمثال سعد زغلول والشيخ محمد خليل والشيخ عامر إسماعيل ، وهم من محررى صحيفة الوقائع المصرية وفتح الله زغلول التلميذ بمدرسة الإدارة ، وأبو يوسف الدمياطى للعمل فى خدمة الثورة ، وتولوا المراسلة بينه وبين قادة الثورة وخاصة عرابى ، وسعوا بالمحاضر لعزل توفيق وداروا بها على المصالح ، وحرروا المقالات ضده ،

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٥ فى ١١ يوليو ، عدد ١٤٥٧ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ ، محمد عبده ، المصدر المذكور ، ص ١٧ .

(٢) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، ، تقرير ١١ ، ص ٤٦ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ .

وكان محمد عبده إذا خرج فى وقت ما من بيت عرابى ليعمل عملاً فى غيره ينوب عنه أولئك الأشخاص أو بعضهم فى تختيم من يجدونه ، ويذكر أحد شهود العيان عنهم عقب الثورة « تدنست ألسنتهم فى محافل كثيرة بالوقيعة فى حق الذات العلية ، وكان أحدهم سعد أفندى زغلول من زمرة العصاة الذين ذهبوا إلى منزل سعادة سلطان باشا واشترك معهم فى المناداة بخلع الحضرة الخديوية »[1] ، وبذلك يمكن القول انه لقّن تلاميذه المبادئ التى آمن بها ، فاعتنقوها وراحوا يعملون بها .

وأصبح محمد عبده ثوريًا متأججًافلم يكفيه عزل توفيق الذى سعى إليه ، وإنما أراد التخلص منه إذ أنه « لما ورد الخبر من الإسكندرية بانتقال الركاب العالى من سراى الرمل إلى سراى رأس التين ، كاد يتمزق من الغيظ و أخذ يرميهم بالضعف والجبن وسفه الرأى لعدم نجاحهم فيما أغراهم من أمر الفتك » ، وفى حديث له مع سعيد البستانى مترجم أفرنجى بقلم المطبوعات قال له « لابد أن تعلم أن سلطان باشا هو الذى يستحق القتل ، فإنه هو الذى ثبت قدم الخديوى ، وهو الذى أحدث فيه الجرأة على مقاومة العسكرية ، فوالله لو سمع الحزب العسكرى نصيحتى لفتك بالخديوى وكان الأمر مقضيًا »[2] .

وبذلك يتضح أنه لم يعد المصلح المعتدل الذى يطالب التدرج فى الوصول للغايات المنشودة ، والذى كان يصف العسكريين بالتهور ، فقد أصبح يلومهم عندما فشلت مسألة اغتيال توفيق ، ورغب فى أن ينجح فيما فشلت فيه القيادة ، أراد أن يبتر الخيانة التى تمثلت فى سلطان ، عندما اكتشف تحريره لبعض العمد والمشايخ خطابات لمنعهم من تقديم المساعدات للثورة .

هذا ويجب أن نضع فى الاعتبار فكر الإمام فى مسألة جعل مصر جمهورية ، وقد اتحد فى ذلك مع باقى مثقفى الثورة ، وتم السعى لتحقيق هذا الهدف ، لكن الظروف تكاتفت ووقفت أمام النجاح . وواصل نشاطه الدائم حتى النهاية ، فهو متنقل ما بين تحرير صحيفة الوقائع المصرية والاجتماعات، ويسافر إلى كفر الدوار، للقاء مع القادة على الأقل مرتين أسبوعيًا ليشارك فى الرأى ، ويؤيد ويشجع ويبارك جميع خطوات الثورة . وعقب الإنكسار ، أعلن بالقاهرة « إننا وإن كنا انهزمنا فلابد أن نصنع بمصر كما صنعنا بالإسكندرية ، ولن يدخلها توفيق باشا إلا رمادًا ، وأن

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، تقريرات وشهادات ، ص ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، دوسيه ٨٩ .

خط الرجعة محفوظة للجهادية إلى آخر أقاليم السودان »[١] ، أنه لم يرض بالتسليم ، وأراد الاستمرار فى الكفاح من أجل انتصار الثورة .

عبد الله النديم والصحافة الثورية

مع قيام الثورة تبلور الرأى العام وسيطر الوعى على قوى الأمة ، ومما لا شك فيه أن الصحافة واصلت دورها فى العمل على المزيد من الإعداد التام للثورة ، وذلك بتصعيد الحملة على نقد المجتمع سواء تحكم الأجانب ، أو السياسة المالية ، أو تلك العيوب الاجتماعية التى انتشرت ، ثم التأييد الكامل للثورة والقائمين عليها وعرض النظريات السياسية التى تموج بالحرية والديمقراطية .

وأصبح للصحافة الكيان المرموق ومضى الشغف يسرى على القراء لذا فإن لدور أصحابها أهمية كبرى ، إذ تمكنوا من التطرق إلى الموضوعات التى كانت تدخل قلوب المصريين وتغذى أرواحهم . ولم تكف الصحافة عن المطالبة بالإصلاح ، وراحت تنشر علاج النكبات والمصائب التى حلت بالوطن وأهله ، وكانت الصحيفة التى حملت لواء الإصلاح الاجتماعى ونقدت المجتمع وفجرت الإحساس الثورى هى التنكيت والتبكيت التى نزل بها النديم لميدان الصحافة ، ولم يكن هذا أول عمله فى الصحافة فقد كتب فى الصحف المعارضة قبيل الثورة ، ولكنه أراد أن يستقل بنفسه بتأسيس صحيفة خاصة به بعد أن تأكد أنها خير وسيلة للعمل الثورى ، فيقول « واجتمعت برياض باشا فى مصر وقد أضمر لى الأمر ، فنافقته ونافقنى ، وجاذبته الحديث فوافقنى ، حتى أخذت منه إذنًا بجريدة التنكيت وما أردت إلا التبكيت ، وقصدت أن تكون لسانى إذا تركت الجمعيات ليكون لى فى كل بلد محافل خطابية »[٢] .

لقد أراد النديم أن ينفذ إلى داخل المصريين ويخاطبهم بما يهوى ، إذ أرادها صحافة للجميع ، وكان من أوائل من أدركوا فى مصر أن لغة الصحافة البحتة ينبغي أن تكون غير لغة الأدب البحتة ، وصدرت الصحيفة فقالت عنها صحيفة الكوكب المصرى « التنكيت والتبكيت وما أدراك ما هما ، علم فى جرنال جديد نسيج على منوال النصيحة بعبارات مألوفة وإشارات معروفة ، صدر عن صفاء عقل ونقاء قلب وجودة تفكير وخلوص نية ومحبة وطن ومحمود سيرة وممدوح سريرة ، فأرانا كيف يداوى الداء بالدواء ، وكيف يتفجر من الجمارة الماء ، فشكرًا لك يا نديم الملوك

(١) المصدر نفسه .

(٢) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٥ .

ويا مربى النفوس ومهذب الأخلاق على قريحتك التى هى أصفى من ماء السماء وأحلى من الوفاء »[١] .

ويطبع النديم من العدد الأول ثلاثة الاف نسخة فلا يرتد منها إلا خمس نسخ فقط ، وبعد ذلك كانت الأعداد تنفذ ساعة صدورها ويتخطفها الناس فى المدن والقرى وخاصة رجل الشارع الذى وجد من يهتم به ويحل له مشكلاته . ويقول النديم إنه « لم يبق بمكتب الإدارة ولا نسخة من العددين الأول والثانى وكثر علينا طلبهما ، فنعد حضرات النبهاء ومشتركى الصحيفة بأننا سنطبع العددين ونوزعهما لكل من لم يصله »[٢] ، فكانت دائرة معارف مصغرة ، وجهها للناطق بالضاد وعرفها « هى صحيفة أدبية تهذيبية تتلو عليك حكمًا ومواعظ وفوائد ومضحكات بعبارة سهلة لا يحتقرها العالم ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير ، ويخبرك ظاهرها المستهجن بأن باطنها له معان مألوفة ، لا تلجئك إلى قاموس الفيروزبادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ونديم يسامرك بما تحب وتهوى »[٣] .

وبناء على ذلك انتشرت فى طول البلد وعرضها ، وصار قراؤها من جميع الأوساط ، يتلهفون عليها ويتلقونها بشغف شديد ويقبلون على قراءتها إقبالاً شديداً، ويجلس الأميون ليقرأها لهم من يعرف القراءة ، وقد أدرك النديم ميل المصريين إلى الأسلوب القصصى وتفضيله على باقى الأساليب، لذا وجه عنايته به، وكثرت مقالاته التى لها فى العمق معنى ، فهو يخاطب كل مصرى ويحثه على مراقبة الحكومة ويهاجم النفوذ الأجنبى الذى طغى على الوطن « لا تتركون الغرباء يتولون خدمته ، ولا تمكنون الأجانب من الوصول إليه » ، وينقد طبقة الأفندية العائدة من أوربا والتى تخلت عن مبادئ الفلاحين الأصيلة وحتى عن لغتهم . ويبيّن أهمية الصحافة « إنها ألسنة الأمم ، وترجمان الملوك ، وسير التجارة ، وأعمال العقلاء ، وصنائع العلماء ، وخطب النبهاء ، وتاريخ الأذكياء ، وما قامت به هذه الأمة من عمار وطنها وحمايتها له وحفظها من امتداد أيدى الغير إليه وما أهملت فيه تلك الأمة حتى خاتلها الغريب وتداخل فى شئونها وحجز على أهلها عوائدهم ومذاهبهم » ، وكان تركيزه قويًا على مسألة الصحافة لدرجة أنه طالب بتعليم القراءة « ليتسنى لكل فرد صحيفة يقرأها ».

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ١١٠ فى ١٧ يونيو ١٨٨١ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ٣ فى ٢٦ يونيو ١٨٨١ ، ص ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١ فى ٦ يونيو ١٨٨١ .

كذلك تناول مسألة النهضة التعليمية التى رأى أن تبدأ بفتح مكاتب ابتدائية فى المدن والقرى على نفقة أهلها ، ويلزم كل والد بإرسال ولده إلى المكتب يقيم فيه نصف النهار والنصف الثانى يعمل بصنعة أبيه ، وضرورة تعميم التعليم(١) .

ويعمل النديم على الرقى بالتفكير المصرى ، وحث المصريين وفتّح أعينهم على تلك المفاسد والأزمات التى تعيشها مصر ، وذلك بإلقاء بذور الثورة على الأوضاع وتوبيخهم على السكوت على ما هم فيه ، فيروى عن ازدحام لوداع شيخه من الأولياء « لم أر فى تلك الأيام ما يماثل هذا الازدحام العظيم ، فقلت فى نفس أسدت ديون الإفرنج وهذا يوم فرح أهل بلادنا ، أم خلصت الأموال المرهونة وهؤلاء متوجهون لاستلامها ، أم استردت الأطيان والأملاك لأهلها بالتبايع الشرعى بعد ذهابها بالدعاوى الباطلة والقضايا الملفقة وهؤلاء أصحابها متوجهون لتهنئة مليكهم برد منبع ثروتهم ، أم الجيوش عائدة من الانتصار على عدو أراد إذلالها والناس مزدحمة لمقابلة أبنائها وتهنئتهم »(٢) .

ويسعى النديم لتقويم المجتمع من ذلك الانهيار الذى حاق به وصاحب الشباب وأضر بالبلاد « أسواق التجارة فى كساد وأسواق الفسوق فى ازدحام عظيم وصرف جسيم ، حتى كأن المولد أقيم لغنيمة قهاوى الأروام ، وما اكتسبه شبابنا طول العام ، يدخل القهوة يوقد الشموع ويطلب الخمور ويشرب الحشيش »(٣) .

ويشن النديم حملاته الهجومية على الأجانب الذين كونوا الثروات بامتصاص دم الشعب، وأفاض عن أدوارهم فى الربا وعدد حوادثهم فى غبن المصريين ، وأثار الحمية الوطنية ، وطالب بعدم السكوت على ذل الأجانب وشطب كلمة « معلهش يا خواجا » وشجعهم على استرداد حقوقهم ، والقضاء على مفاسدهم من فتح الخمارات وبيوت الفاجرات ، وبيّن أنه يجب أن يستبدل الشبان مجالس السكر بمجالس المطالعات والآداب ، وحانات الفجور بأندية المطارحة والمسامرة بالسياسات ، لترتب لهم ملكة يجولون بها فى فنون السياسة ، ليحفظوها من أيدى الطامعين فيها ويملأوها عدلاً وإحسانًا وإصلاحًا عندما يندبون للشورى(٤) .

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ٢ فى ١٩ يونيو ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ .
(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٠ فى ١٥ أغسطس ١٨٨١ .
(٣) المصدر نفسه ، عدد ١٥ فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ .
(٤) المصدر نفسه ، عدد ١٦ فى ١٢ أكتوبر ١٨٨١ .

ونراه يبث فى الشعب الجرأة من أجل المشاركة السياسية ، وينزع منه الخوف الذى سيطر على الناس مع رياض فيقول « وجود شبان أو شيوخ فى مكان يتحدثون بأمر سياسى وعيونهم ترمق المارين وقلوبهم ترجف خوفًا من الجاسوس المسمى البصاص ، وربما تكلمت مع أحدهم فى أمر فيبدأ بقوله مالنا ومال الكلام ده ظنًا منه أنك بصاص ، وهذا الذى أمات الأفكار وأورث الذل والرعب وصيرنا لعبة فى أيدى الأجانب »[١] .

ويهاجم النديم الأتراك والشراكسة الذين ابتليت بهم مصر التى تتكلم وتقول « قوم وفدوا على أبنائى شعثًا غبرًا مدرجين فى أطمار بالية ، فمكنتهم يد الأقدار من خدمة أمرائى فتحلوا باللآلئ ، ولبسوا مطارف الخز ، وركبوا جياد الخيل ، وأصبحوا بين أهلى فى كبرياء وعظمة ورغد عيش ونعمة كأنهم من العائلات الحاكمة ، فقفلوا الكثير من الأبواب وأعدموا الألوف من الأرواح ، ومتى تنبهت أفكارهم ، نزل عليهم بسوط العذاب وحبسهم فى بئر الاستبداد وأوقفهم تحت سحب مظلمة يمطرهم حجارة من نهب وسلب وقتل وتشريد » ويحول النديم الدفة على الأوربيين على لسان مصر « فما رأيت من قصر لطيف فذاك للمسيو ، وما نظرت من جفالك وأباعد فهذا للمستر ، وما بلغك من بنك ومتجر فهذا للخواجا ، وما سمعت من رفعة وإنعام فهذا للسنيور ، وقد صار الإسكافى عندنا مهندسًا والمزين طبيًا وخادم الخيل رئيسًا وذليل بلاده عزيزًا وطريدها محبوبًا ، وأهلى يجاهدون فى خدمتى فتدركهم جهالة أمرائى بالهزيمة ، ويرفعون رءوسهم جهة العلو ، فتظلم عليهم سحب الغفلة وتحجب عنهم شمس الحرية المنيرة » ، ليأتى قصر النيل ويبدأ الحال فى التغيير « وبات أبنائى يتشاورون ويتراءون ، وقد تفتحت العيون وتنبهت الأذهان وتحركت الدماء واشتعلت الأفكار ، وابتدأ بأخذ العهود والمواثيق على أنفسهم بحماية البلاد ووقاية أهلها ، وكان هذا سببًا فى ربط القلوب وعقد المحبة وتوحيد الكلمة واتفاق المشرب » ويأتى التاسع من سبتمبر « انتصروا بالحق وفازوا بإبعاد العدو وفتح باب الشورى »[٢] .

ويُحمِّل النديم مجلس النواب المسئولية للوقوف أمام الأجانب واستغلالهم ، وبعد أن يعدد ما استحوذوا عليه من وظائف رئيسية ، يذكر دورهم فى إنشاء البنوك والاستيلاء على الأراضى « ولا شك فى أن مجلس نوابنا لا يسلم بشىء من هذا ، ولا يبيح لأحد حق التملك بعد الذى فقدناه » وراح ينادى بالإصلاح لإنقاذ البلاد

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٦ فى ١٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٧ فى ٩ أكتوبر ١٨٨١ .

مما طرأ عليها بعد أن أدرك بثاقب فكره وموهبته كيف طغى سيل الغرب على الشرق ، وكيف أوشكت الحضارة الأوربية أن تجرف الحضارة الشرقية(١) .

وبجوار تناوله نقد المجتمع وإصلاحه مضى يعرض فكره ، فتكلم عن سيادة القانون « مات زمن تحرير التذاكر السرية لإبعاد زيد ونفى عمرو وجاء زمن القوانين والأحكام الحقة » ، ويعرف الحرية « الحر من ملك أمره ولم تتقيد أفكاره بغرض ما، وإن كان لا مدلول له ، فإنه محجور عليه لا يلتفظ به إلا فى سرداب ولا يكتب إلا فى أوراق، ولا يكون اللفظ حرًا إلا إذا جاز تناوله فى كل مكان وتلى على أعواد المنابر » ، وينفرد النديم بأنه أول مفكر مصرى يكشف فى ذلك الوقت الجانب الاجتماعى لمفهوم الحرية لكى يعطيها بعدًا اشتراكيًا « لو نظرنا إلى إنسان الوجود الحالى فى سائر البقاع المسكونة لرأيناه بعيدًا عن الحرية سواء فى هذا تابع الحكومة الجمهورية أو الشورية أو الاستبدادية ، فإن الوجود مضبوط بممالك مقيدة بقوانين وضعت بأغراض ذاتية وأفكار مقصورة على فرد أو بعض أفراد ، وإن قيل أن الممالك تعرض القانون على مجالسها قبل تقريره ، قلنا إن الممالك مقصورة على أرباب الثروة أو أهل الكلام وليست الأمة كذلك »(٢) ، فالنديم يطالب باشتراك الشعب اشتراكًا فعليًا فى حكم بلده ، والا يكون ذلك قاصرًا على الأغنياء وحدهم ، وقد نبع ذلك من حبه للفقراء والمناداة بتحقيق مصالحهم .

ويعرِّف النديم الوطنية بأنها غذاء ينتفع به جميع الجسم ، بحيث لا يترك عرقًا من عروقه إلا وقد أجرى فيه ماء الوطنية التى هى حفظ البلاد ولغتها وعاداتها الجميلة وتوسيع العمران بالصنائع والمعارف والأمن والثروة ، وموته فى ترابها كما نشأ فيها .

ويبيِّن النديم وجوب مصرية الحاكم وأهمية ذلك للوطن « أما حقه عليك من جهة الحاكم ، فهو حفظ سطوته وتخليد ملكه والدفاع عما يشين مجده أو يضعف قوته ، والموت فى إحياء كلمة الوطنية باسمه ، فأنك تعلم أن الحاكم إذا كان من أهل البلاد عاملهم بمقتضى عوائدهم وطباعهم وأخلاقهم وحفظ لهم ناموس الشريعة للتمسك بها معهم وخاف عليهم خوفه على ولده وأهله ، فإنه يعلم أنه بهيئاتهم الاجتماعية ملك عظيم وبدونهم فرد من الأفراد ، ولو كان الحاكم من غير جنسك

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٨ فى ١٦ أكتوبر ١٨٨١ ، عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٣ ، ص ٥ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ .

لعز عليك الوصول إليه ، وإن وصلت لغته وإن عرفتها كنت حقيرًا فى عينه ذليلاً بين يديه ، وإعلم أن الحاكم الروح والوطنيون الجسد »[١] .

والعـــروبة عند النـديم فكرة تتردد كثـيرًا فى كتـاباته ، وهـى لا تتـاقض ولا تتعارض مع مصريته ، فكما كان يفخر ويشيد بالتاريخ المصرى القديم نراه نفس الشىء مع التاريخ العربى فيظهر فضل العرب على الحضارة الأوربية ، وهو يدمج المصرية مع العربية كثيرًا على أساس اعتبار اللغة أساس الرابطة الوطنية[٢] .

ويعمّق فى النفوس الفكر الاشتراكى بتلك الحملات التى شنها على الأثرياء ، وما وصل إليه حال الفقراء وصوره تصويرًا دقيقًا ، وكانت للتجارب القاسية التى عاشها بنفسه مادة خصبة لصحافته فنقب على كل شىء وكشف عن الكثير من الصعوبات التى يعيشها الفقراء « نرضى بالخبز والملح ولا تقنعون بالألوف من الجنيهات ونقنع بالقرش الواحد ، أخلقتهم من الذهب وخلقنا من التراب ، أم ولدتهم قابضين على الدنيا وولدنا عبيدًا لكم ، أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ؟ ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع فى بلادنا والفقراء هم الأمة »[٣] .

وكان يقدم هذه الأفكار ويقربها للعامة عن طريق الزجل حتى يكون لها التأثير الفعال .

أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشى عريان ممعاه ولا حق الدخان

شرم برم حالى غلبان[٤]

إذن فاتجاه النديم اتجاه ثورى جارف ، فهو يؤمن بالشعب وقواه وطبقته الكادحة وقدراتها وتضحياتها من أجل الأثرياء ، وهنا كان الاختلاف بين النديم ومحمد عبده الذى خدم الطبقة الوسطى أكثر من الطبقة الشعبية ، تلك التى التصق بها النديم وهذا مما جعله « صحفى الشعب كله لا يستغنى عن قراءته رجل ولا امرأة بل أن النساء رجونه أن يحرر لهن مجلة خاصة بهن من دون الرجال ، وقلن له إنك وحدك القادر على ذلك »[٥] .

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، عدد ١ فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١٧ فى ١٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) المصدر نفسه ، عدد ٩ فى ٧ أغسطس ١٨٨١ .

(٥) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ .

وأمتع ما قدمه لنا النديم من فكره كان على الشورى فى مقالته التى كتبها إبان الأزمة الدستورية التى قامت بين النظار ومجلس النواب بشأن الميزانية ، شرح فيها معنى الشورى بمفهومه المبسط « إنها غرس الأفكار فى أرض التبادل وسقيها بماء الحرية ، وخدمتها بيد الاعتدال لتنبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران ، فإن كان الانتخاب قاصرًا على الأغنياء دون الفقراء كان المحفل وبالاً » ويتابع كلامه عن المجلس « يجب أن يشكل المحفل من نبهاء وأذكياء وأمراء وأغنياء وعلماء وصناع وأعيان » ويطالب بحرية الانتخاب « وتترك ما كانت عليه من الميل للأغنياء والخوف من العمد والرهبة من الأمراء ، وتنتخب من تريد من أهل المعرفة والدهاء »[1] .

وتولى النديم نشر الدعوة للثورة وكان اللقاء تامًا بينه وبين القادة ، فوقع عليه دور إعداد الشعب للثورة للقضاء على المظالم والمفاسد القائمة « فكان أول كاتب مصرى يعالج مشكلة القومية المصرية بذلك الأسلوب الشعبى ، وهو أول من سهل على الشعب استيعاب المفاهيم القومية التى كان إدراكها قاصرًا على المثقفين والأرستقراطيين »[2] . وقد وجدت الثورة فى نفسه حبًا عميقًا لأن مطالبها هى مطالب الشعب ، كما وجدت هى فيه مصريًا بمعنى الكلمة من الأصالة والوطنية والجرأة والخبرة ، حتى أنه قبل سقوط رياض نجده يكتب لمجلس النظار لنفيه خارج مصر ، لكن عندما عرض القرار على توفيق تصدى له على فهمى وقال له « إن نديمًا منا معشر العسكريين وإن لم يحمل سلاح العسكريين ، ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والأجناد »[3] وألغى القرار .

وكان النديم من المعتنقين للنظام الجمهورى ، وأراده لمصر ودعا إليه ، وله نشاطه فى ذلك مع رجال الثورة ، وكان عليه أن يصب فى الأذهان أسسه ، وخاصة بين الشباب .

وغدا النديم رسميًا الجهاز الإعلامى للثورة منذ بدايتها ، وقويت الحركة الوطنية بانضمامه إليها ، وأحس عرابى بدوره ، ومن هنا طلب من مأمور إدارة المطبوعات تغيير اسم التنكيت والتبكيت « لدخولنا فى عصر جديد وفوات أزمان التنكيت » ، ووافق النديم « بحمد الله تعالى خلصنا من زمن التنكيت والتبكيت وأصبحنا فى زمن الحرية ومعرفة الحقوق »[4] .

---

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٧ فى ٩ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، ص ٣٢ .

(٣) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٦ .

(٤) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٩ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨١ .

وصدر العدد الأول من صحيفة الطائف فى ١٠ نوفمبر ١٨٨١ ، وبلغت من الشهرة ما لم تبلغه صحيفة قبلها ، وأصبحت أكبر الصحف وأخطرها حتى أن سلطان رئيس مجلس النواب طلب أن « تنشر وقائع جلسات المجلس فيها وأفكار النواب » . ويعاون المجلس الصحيفة ماديًا ، فيشترك فيها أعضاؤه بمبالغ كبيرة من المال(١) ، بعد أن أصبحت لسان حالهم .

ويواصل النديم فى الطائف سياسته النقدية لكنها هنا كانت سافرة وموجهة رأسًا إلى المعنيين ، فيهاجم إسماعيل ثم توفيق ووضع الأجانب واستيلائهم على ثروة البلاد ، ويعرض بؤس العامة سواء من الفلاحين أو سكان المدن الفقراء ، ويشرح حال الموظفين وتحكم الأجانب من أتراك وشراكسة وأوربيين فيهم ، فأثر على كل قوى الشعب ليشركهم فى الثورة ، وشرح النظام البرلمانى ، وكذلك تناول الإصلاح الاجتماعى وشن الحملات على التراخيص بإدارة المواخير والحانات والمراقص والمغانى تحت اسم الامتيازات ، وشجع الصناعة ، واستمر فى الهجوم على الأغنياء ، ونادى بإصلاح حال الموظفين ، وأعلن الحرب على الرق ، ودعا الرقيق المحررين أن يكونوا جمعية ، وسجل كل أحداث مصر فيها ، وعرض سياسة الدول وخاصة فى مؤتمر الآستانة ، كما عالج أزمة الثقة بين الصحفيين المصريين والسوريين ، ونادى بوحدة الصف العربى ، ونفى التعصب الدينى الذى أدان به الأوربيون مصر ، وخرجت جميع المقالات باللغة العربية الفصحى ، وبهذا يكون النديم قد أضاف إلى الطائف مأثرة من مآثر دلت على فهمه لطبيعة الموضوعات التى تتطلب الكتابة بالفصحى ، وطبيعة الظروف التى توجب الكتابة بها(٢) .

واحتلت صحيفة الطائف المكانة الأولى بين الصحف ولم يقتصر انتشارها داخل مصر فقط بل وفى خارجها ، فيذكر لنا يعقوب بن صنوع أنها تصل فرنسا فهو يرسل للنديم يقول « أحلف بحب الوطن يا عم إن كلما أتى جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك ومقالاتك الأدبية ، نوّرت مصرنا ونبذاتك السياسية حددت عصرنا ، وحياة دقنك يا عزيزى من عشقى فى فصولك الفريدة بأترجمها بالفرنساوى والإنجليزى »(٣) ، كذلك عثر عليها مع الطلاب المصريين الثوريين العائدين من فرنسا من أجل الإنضمام للثورة .

---

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ٢٤٨ ، نفوسة زكريا ، عبد الله النديم بين الفصحى والعامية ، ص ١٦٣ .

(٢) الطائف ، عدد ٢١ ، ٢٩ يونيو ١٨٨٢ Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 394 ، عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ .

(٣) إبراهيم عبده ، أبو نظارة ، ص ١٤٣ .

وشهدت لها الصحافة الأجنبية ، فتقول الستاندرد « الوطنيون - المصريون - عن طريقها اهتموا باستطلاع خفايا السياسة الأوربية حتى علموا خباياها ، فالطائف وهى جريدة ذات أهمية عظمى صاحبها نديم من أرباب النفوذ عند عرابى، قد أخذ فى ترجمة أهم المقالات المدرجة فى الجرائد الفرنساوية والإنكليزية حال وصولها إلى مصر ، وبهذه الكيفية صارت الأخبار معروفة فى جميع أنحاء المدينة بلا استثناء »(١) ، وبذلك نجح النديم فيما يصبو إليه .

وعند قيام الحرب انتقل النديم مع صحيفته إلى ميدان القتال ، ليسجل الأحداث ويحمس الشعب ، ويرفع من المعنويات ويزيد التأجج فى النفوس ، وأصبحت الصحيفة فى متناول الجميع منتشرة على أرض مصر كلها فى القرى والكفور والشوارع والبيوت والقهاوى والدكاكين ، تتلى فيها تلك الانتصارات التى سجلها النديم ، وكذلك فى جميع المعسكرات ، فنرى طلبه عصمت يستعجل ببرقية إرسال نسخ منها « حيث إن النسخ لم تعد تكفى بعد أن تم توزيعها على قبائل العربان الموجودين بالطرق ونقطة أبو قير ومريوط »(٢) .

كان النديم يصف المعارك بصورة تجعل النفوس مليئة بالحماس والقوة ، وكأنه يوم الملحمة « هجوم ليوث الوغى على أرانب الإنسانية وصيحاتهم تتعالى يا ثأر إسكندرية ، يا مجد عرابى ، يا شرف الوطن » ويتابع « نقاتل لنحيا حياة طيبة لا ذل فيها أو نموت على شهادة فنحيا حياة أخروية نرزق فيها عند الله » ، ويستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

وراح النديم يبالغ فى وصف المعارك الحربية ، ويشيد بالعتاد الحربى وبتلك الهزائم التى أوقعها المصريون بالإنجليز ، أراد بذلك أن يقوى من نفسيات المحاربين فى الوقت الذى رغب فيه أن يقصى عن الشعب كل شعور بالقلق أو الخوف .

وهاجم توفيق بكل جراة وشجاعة « بعد أن يئس كل مصرى من عودته لحظيرة الوطنية ، بعد أن اعتز بالإنجليز وخلع طاعة السلطان وباع الأمة لأعدائها »(٣) ، فقد كان يكرهه كل الكراهية ومضى يعلن أنه غير صالح للحكم .

وعندما سئل أحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات عقب الثورة عن موافقته على طبع ما يسجل الذم فى الذات الخديوية أجاب : « إن كل ما حرره الطائف وخلافه

(١) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

من الجرائد كان نتيجة هيجان الأفكار ضد الحضرة الخديوية ، وهذه الأفكار كانت حاصلة عند جميع الأهالى حتى الأطفال فى الطرق وليست خاصة بجريدة »[١] ، إذن لم تكن صحيفة الطائف خالقة الثورة ، لكنها ذكت بروحها وأعطتها الدفعة القوية

ويشن النديم حملاته على أعوان الخديوى ، وصحافة المعسكر المضاد ، فأخرج ملحقًا خاصًا عن « سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا » هجم فيه عليهم ووصفهم بأنهم مأجورون ، وحارب ضد الإنجليز بقلمه ولسانه فجعلها حربًا صليبية ، واتجه للعالم الإسلامى والعرب ليثيرهما على السياسة البريطانية ، وعبأ شعور الكراهية بعد أن نشر أفعال الإنجليز سواء التى ارتكبوها من قتل وهتك عرض وسرقه ، أو هجومهم على المنازل والمساجد وانتهاك حرمتها »[٢] .

وقد كان لكتابات النديم الأثر العملى فى ذلك التطوع الجارف ، وفى تلك الأموال التى زحفت على الخزينة الحربية ، فراح يمجد القائمين بها على صفحات صحيفته ، وهذا مما زاد من الحماس والتشجيع ، ويقال إن ما اتبعته الصحافة المصرية أثناء الحرب وخاصة صحيفة النديم « تماثل فى طرائقها أحدث ما يتبع فى الحروب الحديثة »[٣] . وبذلك يمكن القول إن النديم قدم نفسه للصحافة ، وعمل بكل جهده من أجل نجاح مهمته التى تمكنه فى النهاية من أن يفوز بما خطط له .

مواصلة الصحافة للطريق الثورى

جاءت صحيفة المفيد لتلقى بثقلها على مسرح الصحافة عقب التاسع من سبتمبر وتلقب بصحيفة الثورة الثانية - بعد الطائف - لصاحبها مصطفى ثاقب ومحررها حسن الشمسى ، والأخير من خيرة مثقفى الثورة ، عمل بالتدريس ثم بالنظارة لمدرسة ليلية ، وأدى رسالته على أكمل وجه فى مجال التعليم ، ومن هنا وضع ثقله فى هذه الصحيفة لتخرج صفحاتها وتصبح بين الأيادى .

وخرج العدد الأول فى ٥ أكتوبر ١٨٨١ ، وتعددت موضوعاتها وتناولتها أقلام كثيرة من مثقفى الفترة فكتب فيها إبراهيم الهلباوى، وسعد زغلول ، حيث كان من بين اتهامات أحمد رفعت « أن ما ذكر بجريدة المفيد كان بإملاء إلى سعد أفندى زغلول المعاون بالداخلية إذ ذاك ، والذى كان له الباع الطويل لتهييج الأفكار والفتن »[٤] ،

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

(٢) الطائف ، أعداد ٣ ، ٤ ، ٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) إبراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ، ص ١٣ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٨٥ .

وكانت المهام الملقاة على صحيفة المفيد عديدة ، فعليها أن تُجَرّح الأسرة الحاكمة ، وتهاجم الأجانب ، وتقرب الأفكار السياسية للأذهان ، ومن ثم نزلت إلى جميع الميادين لتقف بجوار الثورة وتحارب أعداء مصر .

كان إسماعيل الموضوع الخصب الذى راحت تطرقه ، فعمقت المزيد من الحقد والكراهية ، وفضحت جميع أعماله « هو منبع الفساد ومحط الضلال ، نهب الفلاح، وابتلع المال وأعطاه للأجانب » ، كذلك اشتدت فى الهجوم على توفيق الذى وصفته « الجبان المستخزى »[١] . وفى محضر تحقيق صاحبها كان من بين اتهاماته « أنه يستعمل الهيجان وتشويش أذهان التلامذة بالمقالات التى تغرس فى قلوبهم البغضاء والنفور من الذات الخديوية »[٢] ، وقد اضطرب توفيق أمام تلك الحملات القاسية التى وجهت ضده ، لدرجة أنه كتب إلى مندوبه بالآستانة بعد أن جُرِّح ذلك التجريح على يد الصحافة يقول « إن جميع الجرائد المطبوعة هنا فى أيدى النظار وعرابى وهم يأمرونهم بالكتابة بما يشتهون ، وعليكم أن تفهموا صاحب الجوائب ألا ينشر شيئًا نقلاً عن الجرائد المصرية حتى الوقائع المصرية »[٣] .

ومارست المفيد هجومها على الأجانب ، وسلكت طريق إثارة العداوة والبغضاء فى قلوب المصريين ، فتطالب بوقف التدخل الأجنبى « فكفانا ما قد قاسيناه من لعب اليد الأجنبية بنا ، دراهمنا التى نؤسس بها المعامل التى تغنينا عن الأجنبى ونتحرر منه ، فقد أوسعنا له المجال وضيقنا على أنفسنا » ، وتتابع بقولها « متى يستقيم لنا الراحة وقد علا فوق رءوسنا عود التسلط الأورباوى وهو أعوج ، فكأننا فريسة وقعت بين أسدين هصورين ، يريد هذا أن ينهشنا بنياب طمعه ، ويرغب ذلك أن يمد إلينا مخالب شره ، فبأى وجه قانونى تتداخل الدولتان ؟ أبوجه كون وطننا بابًا لطريق هند الأولى وجزائر الثانية ، أم بسبب أن لها دينًا جلبته علينا السياسة الإسماعيلية ، أما الدين فإنا لا نتأخر فى سداده لأوقاته طبقًا للمعاهدات سواء بقيت اليد الإنجليزية والفرنسية فى الإدارة أو نزعت منها » ، وتخص بريطانيا فى حملاتها ، ففى مقال لها يحمل عنوان « الإنجليز » تبين أنهم « أتوا حفاة عراة فأصبحوا أقرن من قارون وقد ساعدهم الوقت بوجود إسماعيل باشا » وفى مقال آخر تحت عنوان « حارة الإنجليز » وصفتهم « بعدم مراقبة الإنسانية وعدم الذمة

---

(١) المفيد ، عدد ٢٧ أبريل ١٨٨٢ ، ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٤ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٠ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٦ ، ١٨ مايو ١٨٨٢ .

وعدم مراعاة التمدن ، وأن ما ينطبق عليهم هو التوحش والظلم » وراحت تجسم الخطر الذى يهدد المصريين من سيطرتهم وتتخذ الخطوات السياسية التى اتبعت ضد مصر للقضاء على الثورة فرصة للمزيد من الهجوم[١] .

وبذلك كانت مثل تلك المقالات لسان حال الثورة ، إذ عبرت عن كثير من معانيها وما يحسه الثوار ضد الأجانب وخاصة الإنجليز ، وكتب ماليت إلى وزير خارجيته يستصرخ منها ويبين هجومها على الحكومات الأوربية المسيحية وخاصة بريطانيا وفرنسا ، وتلك المعارضة التى تشنها على صحيفة التيمز التى سجلت أن الرقابة الأوربية كانت خيرًا وبركة وإنقاذًا لمصر . ووصف المفيد بأنها متمسكة بالإسلام والقرآن ودائمًا تظهر أمجاد العرب ، وأن صوتها يعلو بأن المسلمين أصبحت بلادهم فى خطر بعد أن ملكوا الأعداء بيوتهم وأراضيهم[٢] .

واهتمت صحيفة المفيد ببيان أهمية الشورى « إن مبانى العمار لا تشاد إلا على قواعد الشورى مع أرباب الحكومة ، فبنواب الأمة يستتير الوطن بطابع سعده » ، وردت على من يصف المصريين بالتعصب « إن الأديان جاءت مبنية للعقائد والمعاملات ، فليس فيها ما يدعو المرء إلى إظهار موجبات الكراهية لمن خالفه فى العقيدة ، بل أظهرت لنا أننا لا نرفع سلاح الكراهية إلا فى وجه من حاربنا منهم ، ونهتنا عن توجيه الإيذاء لمن كان بيننا وبينه مودة »[٣] .

واتبعت أسلوب النديم فكتبت على لسان الوطن « شاهدت قومًا يسكنون القصور ويلبسون الديباج والخز ويجنون ثمار قسم متسع من أرضى المباركة ، فهم على جانب عظيم من الثروة والرفاهية ، واستدللت من رطانتهم وقبعاتهم أنهم قوم أجنبيون عن أبنائى ، ثم قومًا غيرهم يسكنون الخيام والأكواخ والمنازل الضيقة التى لا يرتضيها أولئك مبيتًا لخيول عرباتهم ، وقسمًا ثالثًا يشابه الأولين فى الصورة الظاهرية ، ولكنه يعد أسوأ حالاً من ساكنى الأكواخ والخيم ، هم الذين يقلدون الأجانب ويشربون الخمر ويتعاملون بالربا ويلبسون البضائع الأجنبية وهم الذين مكنوا الأجانب من التسلط علينا »[٤] .

وبذلك نرى أن صحيفة المفيد كانت من خيرة الصحف ، فلها أسلوبها الممتاز الذى استخدمته فى كتاباتها عن الحرية والاستقلال ، وشغلت الأفكار بالقومية

---

(١) المفيد ، عدد ٣ فى ٩ أكتوبر ١٨٨١ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٤ .

(٢) Egypt, No. 5 (1882), No. 2, October 31, 1881 .

(٣) المفيد ، عدد ١ فى ٥ أكتوبر ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٢٤ أكتوبر ١٨٨١، عدد ٧ فى ٤ نوفمبر ١٨٨١.

(٤) المصدر نفسه .

المصرية التى تغلغلت فى النفوس ، وقد أعلن حسن الشمسى أنه سينتهى دور صحيفته « حينما يأتى يوم يقال فيه تنبه الغافل وتعلم الجاهل وغلت يد العادى وردت الحقوق لذويها والأرض لبنيها » .

ولم يكن حسن الشمسى يحرر صحيفة المفيد فقط ، إذ صرحت له قيادة الثورة بإصدار صحيفتى السفير والنجاح ، وأعفى من تأمين المطبوعات ، وذلك من أجل توسيع القاعدة التى اعتمدت عليها الثورة فى التوجيه المعنوى والتعبئة الروحية لقوى مصر الاجتماعية .

واتسع نشر الأفكار الثورية ، وتكذيب ما يصرح به الخديو والهجوم عليه ، ففى العدد الرابع من صحيفة السفير يذكر « إن توفيق باشا الآن فى قفص إنجليزى ، وقد انفصل عن حزب الأمة وانضم إلى عدوها ، ولذلك صار مبغوضًا عند جميع الأهالى والعساكر بما فيهم المستحفظين والبوليس ، ولم يبق عند أحد منهم أدنى احترام له »[١] .

ومن أجل إثارة الشعب على الخديو نشرت فى عددها الأول أنه « أصدر أمر بإطلاق الرصاص على خطيب دعا فى المسجد للمسلمين فى صلاة الجمعة بالنصر، وأنه أمر بسجن الشيخ عفيفى بسبب دعائه للمسلمين » ، كما كانت هناك المقالات التى تحرض على الحرب وتشجيع التطوع والتبرع[٢] .

وتمضى صحيفة الفسطاط على نفس اتجاه سابقيها ، فتثير الخواطر ضد توفيق وتعطى المكانة لعرابى ، وتنادى بضرورة الحرب والدفاع « أما من يلوم الحزب الوطنى على الاستعجال بالحرب ، فإنا نقول له لو كنا أحرارًا فى بلادنا لما حاربنا ولما حوربنا ، ولكننا كنا تحت نظر المراقبين وتحت نظر القناصل وتحت نظر المحاكم المختلطة وتحت نظر مكاتبى الجرائد الأورباوية ، وكنا لا نقدر على صرف قنطار ولا دينار فى صيانة الوطن »[٣] .

وكان لأحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات دور فى تلك المسيرة ، وهو على أعلى مستوى من العلم والثقافة إذ استقاهما من باريس ، وبالرغم من أنه ابن لباشا تركى فإنه على درجة من التفتح ، وله من المبادئ ما جعل قادة الثورة يسلمونه زمام الإعلام ، فقد كان قلبًا وقالبًا مع المصريين وحتى بعد الإنكسار ، يعلن صراحة بأن الحركة الوطنية حية ولم تمت ، وقد أسهم بنصيب وافر فى نجاح رسالة الصحافة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ دوسيه ١١٤ ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٢ يوليو ١٨٨٢ .

أثناء الثورة ، وعمل كاتب سر مجلس النظار - نظارة البارودي - ومن اتهاماته « كاتب وكاتم أسرارها ، مراسلاً وآمرًا ومكاتبًا جميع الجرائد بنشر الخطب والقصائد والأراجيف والمقالات والطرهات التى أوجبت تهيج الأوباش وتجاريهم على ارتكاب أمور شنيعة ومنكرات فظيعة »(١) .

وتعد مبادؤه من الدعامات الفكرية التى ارتكزت عليها الثورة ، فإيمانه راسخ بالحياة النيابية ، وعقب تكوين مجلس النواب صرح بأنه تقوية وتحقيق لآمال مصر كلها ومزيدًا ودعمًا للوطنية المصرية ، وكان يثبت دائمًا أن الثورة ليست قاصرة على أفراد أو هيئة ، إنما هى ثورة شعب من أجل حريته فيكتب لإحدى الصحف « إن المدافع عن حقوق الأمة لم يكن أحمد عرابى بل معشر المصريين أعنى خمسة ملايين وهم تحت السلاح(٢) ، وينتقى من الصحافة الأوربية ما يتفق مع المصلحة الثورية » فيؤشر عليها بالقلم الرصاص الأحمر ويعطيها لحسن الشمسى لكى ينقلها فى الجرائد المصرية » ، فحدث أن أمر مترجميه بترجمة ثلاث تحريرات « أحدهما يتعلق بأفكار أهل السياسة فى إنجلترا وخصوصًا أفكار الحزب الحر فيها ، والثانى بأفكار بسمارك ، والثالث من هذا القبيل »(٣) ، من هنا كانت أفكاره تتفق مع المفاهيم السياسية الحرة الحديثة .

وفى التقرير الذى قدمه لمحامى الثوار برودلى ما يعطى المزيد من نوعية تلك العقلية حتى بعد أن وضع فى قفص الإتهام ، وفشل ما كانت تسعى إليه الثورة ، ففيه يبين أنه سيأتى اليوم الذى يحلم به وتنتصر فيه مصر على بريطانيا وتهزمها ، وأظهر عظمة الشرق وأن الغرب مخطئ حينما فكر أن الشرق فى حاجة إلى تعليم ، لأن المبادئ الفكرية الحرة موجودة فى مصر ، فالحرية والراديكالية والإيمان بأن الجميع سواسية أمام العدالة مسيطرة على الفكر المصرى ، كما بين وسرد جميع الظروف التى أدت بالمصريين إلى الثورة وكيف أنها مثلت ضرورة وحتمية(٤) .

كانت لصحيفة يعقوب بن صنوع التى يحررها فى باريس وتصل مصر بمختلف الطرق ، نشاطها الواسع فى ازدياد الشعور انفعالاً والثورة اشتعالاً ، فقد تحقق ما تمناه لمصر وهو خارجها ، فراح يغذيها ويزكيها ، وعقب قصر النيل هاجم حكومة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٩ ، نشرت ذلك الصحيفة الفرنسية Le Temps .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٤ ، تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين الوطنيين والأجانب إلى لجنة التحقيق . تقرير ١٧ ، ص ٨٦ .

(٤) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 203, 204, 206 .

رياض ، دافعًا الشعب للثورة على حكمه « ما هذه الأفعال وعلام هذا الاستبداد والتحكم فى عباد الله بالظلم والعدوان ، أكان أبناء مصر عبيد أبيك الوزان واستودعهم فى يدك » ، ويحذره « فإنته عن هذه الأفعال قبل أن ينتهى بك الندم »، وينادى الشعب « قوموا مثل ما قاموا الضباط عليه ، واطلبوا رفت محاسيبه المجرمين وتعيين نظار معتبرين من بين أعضاء ميدان الحرية ، وبعدها إبعثوا قواس يجرجروه إلى ديوان الحقانية ، وفى وقتها أطلبوا منه جميع الحسابات وخلصوا تار الفلاحين والأهالى والذوات » ، ويمضى فى التحميس « أتركوا التأنى والإهمال وفرجونى همة الرجال ، وإرفعوا رق العبودية على أعناق إخوانكم وإعملوا لكم مجلس نواب من أبناء الوطن المثقفين بالفضائل الجليلة ، وإجعلوا لكم وزارة عادلة منصفة حليمة تكون على كيفكم وعوضًا عن دوامكم فى القهاوى والبيراريات ، إتجمعوا فى محافل أدبية وطالعوا فيها تواريخ جدودكم العرب »(*) .

وعليه يتضح أن يعقوب بن صنوع كان على دراية بالخطوات الكاملة للإعداد الثورى ، وهو ينهج نهج النديم فى مسألة القومية من ناحية ، وخلق وعى للشباب من ناحية أخرى ، ويمضى ليبين حقوق الأمة « للأمة حرية البحث بملاحظة ميزانية إيرادات ومصروفات فروع الحكومة ، ولها أن تصلح من شأن الرسوم الميرية وجهات الإدارة والشحونات بالمرتبات الخارجة عن حد التناسب الجارى صرفها إلى أجانب جاهلين عوايد البلاد وشئونها ، ومن حق الأهالى تغيير الجمارك وما يماثلها ، ومن حق الأهالى التأمل إلى مادة مجالس الحقانية المختلطة ، ومن حق الأهالى مراقبة أعمال الزراعة ، ثم حقوق جمهور الأمة الذى ينوب عنه نواب ذوى النباهة والتعقل فى الرأى غير مأسورين فينتخبهم الجمهور من كافة درجات الأهالى » ، وكانت هذه هى مطالب الثورة .

وعقب التاسع من سبتمبر وسقوط رياض ، يملؤه الفرح بذلك الإنتصار « أقدم الليث العرابى نائب الجيش ومن خلفه أسود الوغى وأشبال القتال ، يريدون قهر دولة الاستبداد ورد صولة الفساد وإحياء الوطن بالحرية وهيئة شورية ، فراغ لهم المستبد الأكبر (توفيق) المفسد الأول روغان الثعلب وانخفض لديهم انخفاض رأس الأرنب » ، وينادى بإسقاط الخديوى ، ويضع نظام الحكم الذى يمكن لمصر أن تسير وفقه « تبين لى أن أفكار جمهور من الوطنيين خلع الأمة للحاكم ، أعنى الخديوى وقومه وجعل مصر حكومة جمهورية تجرى بمقتضى قانون الجمهوريات الحرة

(*) الحاوى ، عدد ١ فى ٥ فبراير ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٢٥ مارس ١٨٨١ ، أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ٢ فى ١٢ مايو ١٨٨٢ .

وتنزع عموم الأجانب من دوائر حكومتها وتستمر فى إصلاح شئونها ، إننا نرى المصريين اليوم يجمعهم قول واحد وهو خلع الخديوى الحالى »(١) .

ومن هنا نرى أنه لا يعول على حليم فى مسألة الحكم بل يريدها جمهورية ، وكان ذلك مبدأ الثورة ، فهى كما يرى الصالحة لحكم الناس ، وقد كتبت عنه صحيفة « لوجلوا » أنه المعبر عن رأى الحزب الوطنى ، وأول من قال عبارة « مصر للمصريين » التى أخذت طريقها للأمام ، كما شملت أفكاره المبادئ الإشتراكية ، إذ كان صديقًا للنائب الاشتراكى « كلومش سليج » منذ عام ١٨٨٠(٢) .

ولم يكن راضيًا عن شريف منذ البداية الذى كان يسميه « الديك الرومى » فيهاجم قانون المطبوعات الذى أصدره ، ويرسم شريف مكمم أفواه الكتاب وموثق أياديهم أمام ممثلى الأجانب الذين هم سعداء بذلك ، ويعلق « إكسروا أقلامنا وسدوا أفمامنا ، برضنا ننتصر على أخصامنا ونكسر أنف أظلم حكامنا والرب كريم يسعد أيامنا »(٣) .

وقد أقلق هذا النشاط المفعم توفيق ومعسكرد ، حتى لقد شكاه إلى نظامى باشا المبعوث العثمانى الأول ، واتهمه بأنه يعمل لتأصل القومية فى مصر « إن هذه لا يروج لها أحد سوى أنصار سعادة حليم باشا فى الصحيفة المعهودة التى تصدر بباريس فتدخل مصر خلسة وتوزع مجانًا على أفراد وضباط الجيش » فأجابه نظامى « إن ضرر مثل هذه الجرائد التى تتمتع بقسط كبير من الحرية بالحكومة المصرية لا يخفى على أحد ، فكان الواجب عليها إذن عدم إطلاق الحرية لهذه الجرائد والصحف من دخول مصر »(٤) .

وبالرغم من المحاولات المضادة للوقوف أمام تلك الصحافة ، فإنها كانت فى متناول الجميع يتلقونها بشغف وينتظرون وصولها بفارغ الصبر ليلتقوا بهذا الثائر لتزداد ثورتهم ، وقد سجل نينيه عنه ، وكان قوله الواقع « إنه الدهشة الشعبية المحققة، وأشهد أنه جعل الناس يهتمون بالسياسة ويتعلمونها منه ، فأصبح

(١) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ٤ فى ١٠ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١٧ فبراير ١٨٨٢ ، عدد ٣ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) إبراهيم عبده ، أبو نظارة ، ص ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١١ فى ١٨ نوفمبر ١٨٨١ ، عدد ١٣ فى ١٨ ديسمبر ١٨٨١ .

(٤) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والآستانة اثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر رقم ٢٨٨ ، ص ١٠ .

معبودهم، فهو الرسول الحقيقى لعهده ، والعنصر الفعال فى الحركة الوطنية ، وكانت صحيفته تصلنا من باريس إلى مركز القيادة الحربية هنا »[1] . وبذلك يتضح دور هذا المثقف الذى توغل فى أعماق المصريين ، وأعطاهم المزيد من الدفعات الثورية حتى على أرض المعركة .

وكان للصحافة الأوربية الأثر الكبير فى المساعدة على اليقظة العامة والتحفز ، فكثيراً ما كانت تتناول كتاباتها الحط من قدرة المصريين ومحاولاتها المتكررة لتحطيم كيانهم، وقد أعطى ذلك المزيد من الحماسة فأتى بنتيجة عكسية على غير ما ترجوه ، كما تناولت الصحافة المصرية الرد الفورى فى تلك المقالات التى هاجمت فيها الأوربيين ومؤسساتهم ، فترد صحيفة الوطن على صحيفة التيمز بقولها « إن قول جريدة التيمس بأن المصريين منغمسون فى الجهل إنما هو تعصب ذميم ، والدليل على تقدمهم أنها ذكرت وجود عشر جرائد عربية واستكثرتها على خمسة ملايين نفس ، ولو كانت الأهالى كما قالت لما كثرت الجرائد ، إذ وجودها وكثرتها يدلان على تقدم الأهالى »[2] ، وتشبع المصريون بأفكار واتجاهات صحافتهم وتحركت فيهم الرغبة فى الوصول إلى أعلى الدرجات .

كذلك كان من بين ما تناولته الصحافة الأوربية ، تلك الأفكار التحررية التى وجد فيها المثقفون الفرصة للمزيد من التطلع ، فنقلوا عنها وترجموا ما يوافق هواهم وما يعمل على توسيع المدارك والمفاهيم . كما كانت اتجاهاتها المصحوبة بالتيار الاستعمارى مادة خصبة لتفتيح الأذهان على نوايا الدول أصحاب المطامع ، ففى لندن كان عليها أن تهيىء الرأى العام وتطالب باحتلال مصر ، خاصة بعد أن أعلنت الحماية الفرنسية على تونس ، فنتج عن ذلك الإثارة الكاملة للمصريين ، واشتد النفور عندما علموا « استباحة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء »[3] ، ومن هنا سمت الروح الإسلامية ، وتجسدت فى كره الأوربيين عامة وبريطانيا خاصة ، خوفاً من تحقيق ما تكتبه صحافتها بشأن نية الاستيلاء على مصر ، وتلك الإجراءات التى تتخذها منذ إحتلالها قبرص ، وكان ذلك موقفاً تنبه له المصريون ولا سيما المثقفون ، ووجد العناية الكبيرة من الصحافة التى تناولته مراراً وتكراراً ، كما مضت فى الهجوم على الدولتين وليس بريطانيا فقط ، وخاصة ما تم فى مؤتمر برلين من ازدياد لمكاسبها[4] ، وكان للشباب المثقف نشاط مجد

---

(١) Ninet , Arabi Pacha , p. 225 . (٢) الوطن ، عدد ١٩ نوفمبر ١٨٨١ .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 164 .

(٤) الإسكندرية ، عدد ١٥٩ فى ٤ فبراير ١٨٨٢ .

فى « جلب كثير من الجرائد وتدقيق النظر فيما فيها من الأفكار المتعلقة بمصر ، ويظهرون للعامة الوقائع »(١) . وبذلك أصبحت هناك وحدة بين مثقفى مصر وخاصة صحفيوها للوقوف على أرض المعركة ، ورفع سلاحهم والهجوم على السياسة الأوربية ، حتى أن الصحافة أصبحت فى ذلك الوقت دستوراً لشعب مصر .

الصحافة الشامية

تعرضت الصحافة الشامية لاضطهاد رياض ، ونالت يده من زعيمها أديب إسحق الذى نفاه خارج مصر ، ومن باريس خرجت صيحاته وشن هجومه على هذا العدو ، ويقول النديم « انعطف أديب إلى شريف ومال وجعل وجهته تسفيه رياض بالنقد والاعتراض »(٢) ، وبالفعل فقد قدم شريف المساعدات له وأعانه على اتباع تلك السياسة ، فأسس صحيفة مصر القاهرة التى عبرت عن أفكار الحزب الوطنى .

وبانتصار الثورة ، وتقلد شريف نظارتها ، أرسل لاستدعاء أديب إسحق من باريس ، وجاء ليعينه رئيس مكتب الترجمة ، وكان ميالاً لقادة الثورة العسكريين فى البداية ، ودائمًا يصف عرابى بالإخلاص والأمانة ، وبناء على مواقفه وميوله ، عُين سكرتيرًا لمجلس النواب بناء على طلب سلطان باشا وموافقة الجميع ، هذا فى الوقت الذى واصل فيه على إصدار صحيفة مصر .

وكانت لكتاباته دورها الفعَّال لقوى الشعب ، تناولت الديمقراطية والتنديد بالأوتوقراطية ، ودعت بضرورة مشاركة الأمة لحكم نفسها ، وأن يكون لها الصوت المسموع والرأى المتبع ، ووصف أديب إسحق حالة المصريين ودعاهم لليقظة « إن لله خلقًا يشتغلون بياض نهارهم معرضين أبدًا لحر الشمس وأذى المطر والرياح وسائر تغيرات الفصول ، يفلحون الأرض ويودعونها قسمًا من قوتهم وجزءًا من حياتهم مع البذور التى تثمر للناس ، هؤلاء القوم هم رجال من الشعب ، ولله خلقًا يشكون السلاح لحماية الوطن ، ويهبون له نضر شبابهم وزهرة قوتهم ويبذلون فى سبيله دمهم غير آسفين عليه ويتهالكون على الموت ليحيى إخوانهم فرحين ، وآخرين يذللون المصاعب ويحيون الليالى الطوال فى سبيل نشر المعارف وتعميم الصناعات ، وآخرين يقومون على عمل الأخشاب للبناء وينسجون الصوف والكتان والقز ، واعلموا أنه

---

(١) المفيد ، عدد ٥١ فى ٢٧ أبريل ١٨٨٢ .

(٢) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٤ .

لا سعادة فى الأرض ولا نمو ولا حياة إلا بالشعب ، فالحياة ممتنعة بلا عمل ، والعمل شأن الشعب فى كل حال »[1] ، وواضح أنه بعد عن الأثرياء من كبار ملاك الأراضى وأصحاب الممتلكات ولم يدرجهم فى الشعب العامل الذى له الحق فى الحياة ، وبصفة عامة فإن أفكاره تأثرت بالفكر الفرنسى خاصة والأوربى عامة .

لم تقتصر مقالته على الناحية السياسية ، فنزل إلى الميدان الاقتصادى والاجتماعى ، فنجده يعرض مسألة الإدخار ، وذلك عن طريق إنشاء صندوق له ، وأن يتم خصم جزء معين من المرتب ، ويكون هناك قومسيون يوزع كوبونات على المشتركين ، وتبعًا للأرباح تكون درجة الإستفادة[2] ، وكان ذلك هو النظام التعاونى بعينه .

لم يكمل أديب إسحق طريقه حتى النهاية مع الثورة ، وبالرغم من ذلك فلا يمكن أن نغفل دوره فى إذكاء الروح الوطنية ، لقد اختلف معها ، فهو من أتباع شريف والمتحيزين له ، وسقوطه على أيدى الثورة كان له رد الفعل على مؤيديه ، وكان ذلك هو المظهر الشكلى للأمر ، لكن إذا تعمقنا لننقب عن الأسباب الداخلية ، نجد أن الثورة مضت فى تطبيق شعارها المقدس « مصر للمصريين » وكما يذكر كرومر أنه استُبعد أمام ذلك « الأوربيون بذكائهم وغناهم وسلطانهم والخديو والسوريون والأرمن والأتراك المستوطنون الأرستقراطيون كبار ملاك الأراضى الذين تحكموا فى مصر فترة طويلة »[3] ، فمن هذه العناصر خافت الثورة على نفسها .

وحملت الصحافة المصرية لواء ذلك ، إذ كانت لها نظرة معينة تجاه كل من هو غير مصرى ، فهى تشك فى نواياه ولا تطمئن له ، وأدارت الدفة على السوريين ، حتى أن النديم نفسه كان يعتبرهم دخلاء مرابين ، وتطلب صحيفة المفيد من الحكومة فصل الشاميين من مصر ، لأنهم غير خليقين أن ينتسبوا إليها ، وتمضى فى الذم والقدح على الصحفيين السوريين وصحافتهم « أتانا أصحابها وجيوبهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية التى أدعوها ترويجًا لمقاصدهم » ، ولم يتوقف هجومها، لدرجة أن صحيفة الطائف أرادت معالجة الموقف فخففت من تلك الحدة فى مقال لها تحت عنوان « المصريون والشاميون »[4] ، لكن ذلك لم يقلل من حقد الصحفيين السوريين ، ومع أنه فى بداية الأمر كانوا فى مقدمة العناصر الحرة ،

(١) مصر ، عدد ٩ فى ٦ فبراير ١٨٨٢ ، عدد ١٠ فى ١٤ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) Cromer , op. cit., Vol. I, p. 324 .

(٤) المفيد ، عدد ١٣ أبريل ١٨٨٢ ، عدد ٢٢ يونيو ١٨٨٢ . الطائف ، عدد ٢١ يونيو ١٨٨٢ .

يلتهبون حماسة لاستقلال مصر وحياتها الدستورية ، فإن هذه الأقلام الملتهبة انزوت وخبت ، ثم وقفت إلى جانب الخديو علانية[١] ، فانسحب أديب إسحق من الميدان الثورى ليعود مرة أخرى ليعمل ضد الثوار ، فيساهم بمقالاته ومنشوراته فى صحيفة المعسكر المضاد « الاعتدال » ليرد الهجوم الذى شنته الثورة على غير المصريين .

اما عن صحيفة الأهرام ، فقد تعرض القائمون عليها للنقد اللاذع بالرغم من انها كانت دائمًا تنصر عرابى ، فهى تنشر خطبه وتلخصها ، وتؤيد نظارة شريف ، وتعرض خطب النديم[٢] ، لكن الثورة لم تكن لترتاح لها فكثيرًا ما وجهت إليها الإنذارات ، وقد كان لتلك العلاقة التى ربطت آل تقلا بتوفيق وتأييده لصحيفتهما أثر فى هذه الكراهية التى توثقت بين رجال الثورة وبينهما ، وينتهى الأمر بأن يهاجر تقلا لسوريا .

وسعدت مصر بالذين تركوها من غير أبنائها ، واعتقدت أن الخلاص قد حان، فتقول صحيفة الفسطاط « أما الآن قد بقيت مصر للمصريين وسافر منها كل خائن»[٣] ، ويذكر أحد المترجمين الشوام فى شهادة له يستدل منها على ما بلغته العلاقات من سوء بين المصريين والشوام إذ يقول « إننى فى اثر سقوط نظارة محمود باشا ، رأيت على محمد عبده لوايح الغم والكدر ، وقال لى إن الشاميين فرحوا بسقوط محمود باشا حتى أنت أيضًا ، فإنك فرحت بسقوطه ، فقلت له إن الشاميين لا يؤاخذون على سرورهم بسقوطه ، فإنهم لم يشمتوا ويلعنوا فى الجرائد المصرية إلا على عهد نظارته »[٤] ، إلى هذا الحد كانت النفسيات لكل من الطرفين حاقدة .

حكومة الثورة والصحافة

مع بداية الثورة أراد شريف تنظيم تلك المؤسسة الإعلامية وترتيب شئونها وإعلان حقوقها وبيان واجباتها ، فبعد أن تقلد الحكم أراد أن يحد من النشاطات ويهدئ من الأجواء الثورية ويقلل من سطوة الصحافة ، وخصوصًا انه كان يخشى العسكريين الذين سارت الصحافة فى ركابهم ، فأصدر قانون المطبوعات ليلقى أمامهم بعض القيود فى الممارسة الصحفية ، فلا يسوغ لأحد أن يكون صاحب مطبعة

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ١ ، ص ١٥ .

(٢) الأهرام ، أعداد ٢٨ أبريل ، ١٩ سبتمبر ، ٣ أكتوبر ١٨٨١ .

(٣) الفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٩ .

إلا بعد أن تعطى إليه رخصة من نظارة الداخلية ، وبعد أن يودع عشرة آلاف قرش بصفة تأمين ، وللحكومة أن تنزع منه الرخصة عند الاقتضاء ، وأن تقفل المطابع السرية وتضبط أدواتها وتجازى مالكها ، وأنه لا يجوز لأحد من أرباب المطابع أن يطبع صحفًا قبل أن يقدم لإدارة المطبوعات كتابة معلنة ، وأنه يسوغ محافظة على النظام العمومى أو الدين أو الآداب تعطيل أو قفل أى صحيفة ، ومنع دخول وتداول وبيع الصحف والرسائل المنشورة فى خارج القطر المصرى ، ومنع أى منشورات ماصوقة على الحوائط أو المجلات تحوى أخبارًا سياسية(١) .

ولم يلتفت الصحفيون إلى هذا القانون ، واستمروا فى حملاتهم ضد الأجانب ، فطالبوا بإبعادهم عن مصر ، وتزعمت صحيفة الحجاز ذلك التيار ، ودعت إلى الجهاد والدفاع عن حقوق المسلمين ضد الأوربيين ، وتمادت فى ذلك ، فاشتكى ماليت إلى شريف الذى أحضر مدير الصحيفة ونبه عليه بعدم الطعن فى الدول الأوربية ، فى الوقت الذى أرسل فيه الإنذارات الرسمية لكافة الصحف ، لكن « صاحب الحجاز لم يرجع عن السير الذى صار تحذيره منه ، وكتب فى نمرته الأخيرة كلامًا غير لائق فى حق الدول » ، فما كان من شريف إلا أن ألغاها بصفة نهائية ، وذلك بموجب قانون المطبوعات(٢) .

وبالرغم من تصرفات شريف المتشددة ، فإنه لم يستطع أن يقف أمام تيار ثورة الصحافة ، فشحنت صحيفة الطائف بالمقالات التى تهاجم ليس الأجانب ودولهم وتصرفاتهم فقط ، أيضًا حكومة شريف التى وجهت لها الطعنات فى مقالة « مصر يجب أن تكون لها السلطة المطلقة » فتتابعت إنذارات شريف لها ، ولكن دون جدوى(٣) .

وذهب شريف وجاء البارودى لتشرع نظارته فى تحسين قانون المطبوعات بما يجعله أولى إلى حرية الكلمة وأبعد من قيود العقاب ، وجندت الصحافة من أجل الثورة ، ولم يجد المعارضون لهم مكانًا ، فانسحب أديب إسحق وغيره ، وأعلنت صحيفة البرهان وهى صحيفة السراى ، أنها عزلت الشيخ حمزة فتح الله من تحريرها لموقفه العدائى من الثورة ، وذلك لتتفادى أن تتولها حكومة الثورة بشىء ، تلك التى مضت تغلق الصحف المعارضة ، وفى أثناء الحرب أصبح لا يطبع شىء فى

(١) محفوظات مجلس الوزراء ، محفظة ٥/ز ، دوسيه ١٦ ، محضر ٢٧ أكتوبر ١٨٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، دوسيه ٢٠ ، محضر ٧ نوفمبر ١٨٨١ ،

Egypt, No. 5 (1882), op. cit.,

(٣) Polit, Arch, Fasz XXXI/24, No. 13/pol., 8 Janvier , 1882, pp. 4, 5 .

الصحف إلا بعد إقرار ديوان الجهادية عليه ، وموافقة المجلس العرفى على جميع المطبوعات(*) وذلك للوقوف أمام مجهودات الحاقدين الرافضين ، الذين راحوا يستعملون كل الأسلحة من أجل إجهاض الثورة .

وأخيرًا فقد نجحت صحافة الثورة فى كل المهام التى ألقت عليها ، وأدت واجبها على أكمل وجه ، فخاطبت طبقات الأمة دون تفريق بين طبقة وأخرى ، بل كانت عنايتها بالطبقة الدنيا أكبر من عنايتها بالطبقة العليا لأنها تريد أن تغريها على قراءتها وتحببها فيها ، فبلغت من التبسيط أقصى الغايات حتى تجذب الشعب إليها وتستحوذ على القلب وتؤدى رسالتها فى تنوير وتنبيه الرأى العام، بتلك الدراسات والتحليلات الكاملة لجميع المجالات سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية حتى أمكنها أن تسجل لنفسها فى هذه الفترة صورة مشرفة فى تاريخ الصحافة المصرية .

ممارسة العمل الثورى من خلال الجمعيات والخطابة

لم تقم الجمعيات بقيام الثورة ، إذ أنها سبقتها ومهدت لقيامها ، وبناء على ذلك أصبح عليها مواصلة الكفاح لتحقيق الأهداف التى قامت من أجلها ، فمن على منابرها خرجت صيحات الثورة وكأنها المقام المقدس الذى جذب إليه الناس للإنخراط فى سلكه .

أسست الجمعيات وجاء فى قوانينها أنها لا تمس النواحى السياسية ولا تخاض من بين موضوعاتها ، لكن رويدًا رويدًا فرضت السياسة نفسها على الجمعيات ، وامتلأت بالمثقفين وخطبهم التى تكلمت عن مصر والاستبداد والتدخل الأجنبى ، ودائمًا فى نهاية اللقاءات كانت الصيحات تعلو « يعيش الخديو » ، وذلك لإعطاء الطلاء الخارجى البراق وإبعاد الشبهات ، نفس الشىء بالنسبة لرئاستها ، فقد أسندت إلى أعضاء الأسرة المالكة وكبار الشخصيات ، لكن لم يكن هذا إلا ظاهريًا ، حيث تكون وتبلور داخلها الرأى العام ضد تلك الأسرة وأصحاب النفوذ .

وكالعادة كانت الإسكندرية الرائدة فى هذا المجال ، إذ أسست فيها الجمعية الإسلامية بفضل مجهود النديم فيقول « لم أجد طريقًا لتنبيه الوجهاء والأمراء إلا بعصبة أكونها من الفقراء ، فأخذت فى تأسيس الجمعية الإسلامية بوطنى

(*) مصر ، عدد ١١ فى ٨ مارس ١٨٨٢ ، البرهان ، عدد ٢٦ مايو ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

العزيز إسكندرية »(١) ، وكانت جمعية المقاصد الخيرية بالقاهرة عبارة عن هيئة شعبية يتولاها مفكر مصر محمد عبده ، وانتشرت الجمعيات على أرض مصر كلها ، فى دمنهور وميت غمر والمنصورة حتى قنا ، ودائمًا يتبع الجمعيات إنشاء المدارس ليتعلم الفقراء بأموال الأغنياء ، وتلك المدارس التى غدت مسارح للخطباء « تم إفتتاح المدرسة الخيرية ببندر دمنهور يوم الخميس غرة يونيو ١٨٨١ وكان المحفل ساحة خطابة »(٢) ، ودائمًا النديم على رأس الخطباء ، يحث على التعليم والإتحاد ، وينقد المجتمع ، ويهاجم العادات السيئة ، ويتعرض للتغلغل الأجنبى .

وشجعت الصحافة تلك المجهودات وحثت على المزيد من إنشاء الجمعيات مثلما هو الحال فى أوربا ، وعرضت ما تقوم به من مساعدات لخدمة المجتمع ، وبينت أن الأغراض ليست قاصرة على المدارس ، بل مهمتها وضع اقتصاد الدولة فى اعتبارها والاهتمام بالصناعة(٣) ، ومن هنا أصبح مفهوم الجمعيات لم يعد يقتصر على أهداف محددة ، إذ توسعت دائرته لتضم وتشمل كل ما يخص مصر ، كما امتدت هذه الاجتماعات التى كانت تضم أعضاء الجمعيات وروادها ، لتكون تنظيمات مضت فى طريق العمل الثورى ، وتعددت الحفلات التى أقيمت بمناسبات وبدون مناسبات من أجل اللقاء والكلمة المسموعة التى تنفذ إلى القلب ، وتغذى الروح لينطلق الفكر للمساهمة فى الثورة .

ويسجل شاهد عيان قوله « وانقلبت مصر مسرحًا للخطباء فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصبه المغنيين بعد إقصائهم عنها حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل فى أى فرح تغنى أجاب فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم »(٤) .

وكان للنديم قدرة فائقة على الخطابة ، فبجوار قلمه كانت روحه ولسانه عاملان أعطيا الثورة الكثير ، فميله للخطابة واستعداده لها لم يتيسر لأحد غيره فى مصر ، فهو يظهر فى كل مجتمع ويقف فى كل حفل ويعلو صوته فى كل ناد « ويرتجل الكلام ارتجالاً ويتدفق فيه تدفقًا تسعفه فيه بديهة لم نسمع بمثلها

(١) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٤٩ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٧ فى ١٢ مايو ١٨٨٢ .

(٤) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٧ .

فى تاريخ الأدب المصرى الحديث »[١] ، ويرى البعض أنه إعظم خطيب مصرى لا فى الثورة العرابية وحدها بل فى القرن التاسع عشر ، ويكفى أنه قد أجمع كتاب الجرائد العربية والأجنبية على تلقيبه بخطيب الشرق[٢] .

وعُدَّ النديم الجهاز المتنقل للدعاية الثورية ، وقد وجد فيه قادة الثورة تلك المؤهلات التى تمكنهم من بذر بذور الثورة ونشر مبادئها وأفكارها فهو يتمتع بلسان زلق فصيح ، وجرأة فائقة فى مواجهة الجماهير ، وامتلاك الموقف ، وحجج قوية مقنعة ، وظل خفيف يشجع على التجاوب معه والإنصات إليه مهما طالت الخطبة[٣]، ومن ثم بدأ فى ممارسة نشاطه ، إذ يقول « أخذت أتقلب فى البلاد ، وجاهرت بالتضاد ، ولبست ثوب الجلد ، وتابعت الخطب فى كل بلد ، وحركت الأفكار حركة لا سكون لها ، ونشرت مظالم الحكام وأعمالهم ، وناديت بهدم دعامة الاستبداد ، وكسرت قيد الاستعباد »[٤] ، وكان ما يميزه خفة الحركة التى كان يتنقل بها عبر أرجاء مصر ، ولم يكن ذلك بجديد عليه ، فحياته قبل الثورة تنقلات واختلاطات بجميع فئات المجتمع من أعلاها إلى أدناها .

وراح يخطب فى الناس ويقص عليهم أمجاد أجدادهم « ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارًا وعيناه تذرفان الدمع ، فافتتن الناس ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وضرب ، فلما آنس منهم ذلك كتب محضرًا وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاة الأمور ومن بيدهم زمام الأحكام إلى تشكيل مجلس يكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعًا »[٥] ، وبذلك كان للنديم الفضل الأول فى إعلاء عرابى للقمة وجعله نائبًا عن الأمة وخلق مجلس نيابى بناء على إرادة المصريين .

وساعدت الظروف التى أحيطت بمصر النديم فى نجاح مسعاه ، إذ كان موتورًا منها ، فصب كفاحه وأتى لكل فئة بجرحها ، ونشر على أرض مصر فن الخطابة وعلم أهلها معانى الثورة ، فهو ثائر بطبيعته ، شعلة ملتهبة وجمرة متقدة يمثل

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٢ ، ص ١٢١ .

(٢) إبراهيم عبده ، تاريخ مصر فى خمسة وسبعون سنة ، ص ١٣٤ ، عبد الفتاح نديم ، المرجع المذكور ، جـ١ ، ص ١٩ .

(٣) نفوسة زكريا ، المرجع المذكور ، ص ٨٠ .

(٤) عبد الله النديم ، المصدر المذكور ، ص ٥٥ .

(٥) ميخائيل شاروبيم ، المرجع المذكور ، ص ٢٢٦ .

فى حقيقته المثقف الثورى ، يحلم بالثورة ويدعو إليها فى كل كلمة يكتبها ، وفى كل قصيدة شعر ينظمها ، وفى كل نكته يطلقها ، وفى كل زجل ينشده ، وفى كل خطبة يلقيها ، ومن هنا أصبح أسطورة يتناقلها الجميع .

كان ما ألقته الثورة من مهام على الخطباء هو الوصول إلى أعماق النفوس وجذبها ، وتنوير الأذهان ، وتبسيط المعانى والمفاهيم السياسية للشعب ، والعمل على إثارة الأوضاع التى تخضع لها مصر وكيفية تغييرها ، وقد أبلى النديم فى ذلك أحسن البلاء حتى أنه إذا خطب عدة خطباء فى اجتماع ، كان يقوم ليعلق وراء كل خطيب ويشرح ويزيد ، والناس منصتة باهتمام دون أن يشعر أحدهم بشىء من السأم والملل ، فهم بحاجة إلى تفهم تلك المعانى التى تطرح ، وبذلك كان « كلام النديم وقود الثورة الذى زادت به ضراماً ، وزيتها الذى أصبحت به نوراً وهاجاً »[١] .

ومما يلاحظ على خطب النديم أنها دائماً مقرونة بالاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة فصور كفاح وبطولات من التاريخ الإسلامى ، وهذا يتفق مع طبيعة المصريين ، وخاصة فى ذلك الوقت الذى كانت فيه السياسة فى نظرهم مرتبطة تمام الارتباط بالدين . كما أنه استوعب جيداً رسالة الخطابة فى التوعية السياسية والاجتماعية والدينية ، ورأى ضرورة توصيلها إلى الشعب ، فيبين أهمية الخطابة « فما فرضت الخطبة إلا لتجتمع الأمة فى ساعة واحدة فى سائر الأقطار وتقف على الحوادث والأخبار لتأخذ حذرها من أعدائها وتحفظ مظهر حياتها وناموس دينها وشرف مذهبها الحقيقى » ثم يبين فضلها وأهميتها « لما كان نظام الاجتماع موقوفاً على وحدة الائتلاف ووقوف الأمة على حقوقها وحدودها ، ولا يتمكن الفرد بنفسه فى فهم البعيد عليه أو الخفى عليه إلا بمرشد متضلع عالم متقلب فى حوادث الزمان ووقائع الرجال ، والأمة ليست جميعها من صنف العلماء ولا كلها من رجال الكلام ولا أغلبها من أهل السياسة ولا جلها من أرباب الأقلام لتشكيلها من عالم مختلف الأغراض متباين الطباع ، فرضت الخطابة ليقف الخطيب بين قومه وقفة الخليفة الآمر الناهى ، فيقص على الرعية ما فعله من الجميل ، وما قام به من الأعمال ، وما ورد عليه من الأخبار ، وما يحرزه من الطوارق ، وما يرجوه من الإصلاح ، لتكون الأمة على علم بأحوالها فى سائر بلادها ، إن الخطابة فى الأمة بمنزلة جرائد الأفكار ، فالأمية كثيرة فى بلادنا متغلبة على السواد الأعظم منا ، ولو كانت الأمة قارئة كلها لاستغنت عن تغيير هيئة الخطابة »[٢] .

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ ، عدد ١٥ فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ .

وكان تحليله صادقًا حيث أن للخطابة الأثر الأقوى من الصحافة ، وفى ذلك الحين لم تكن هناك، وسائل أخرى للإعلام ، كما أن الكلمة المسموعة تعطى الإحساس الفعلى بالموقف ، وقد تهافت الشعب على تلك الخطب لتعطشهم لسماعها ، هذا فى الوقت الذى كانت تُنشر فى الصحف ، حتى إذا تغيب أحد أمكنه الإطلاع على ما فاته .

وتعددت الاجتماعات من أجل هذا الغرض « إن مصرنا فى هذه الأيام صارت عبارة عن أحزاب يسعون إناء الليل وأطراف النهار ، فربما كان فى الحارة الواحدة محفلان أو ثلاثة محافل ، كل بما لديهم مشتغلون »[1] ، كما كانت هناك تلك الاحتفالات التى وصلت فيها الخطابة إلى ذروة الحماس ، ففى وداع عرابى عقب التاسع من سبتمبر « غمر النديم أعماق شعور المجتمعين ، فكان نقيًا فى حديثه ، سلسًا فى أسلوبه ، عباراته كلها فاعلية ، إذ تكلم عن الوحدة التى تصنع القوة »[2] ، وعندما صُدِّق على قانون مجلس النواب عمَّت الفرحة الجميع ، فأقامت جمعية المقاصد الخيرية احتفالاً « اجتمع فيه النظار والأمراء والعلماء وضباط الجهادية وأعيان مصر وشبابها ، حتى ضاقت قاعة الحفلة بالحضور ، فقام السيد عبد الله أفندى نديم وافتتح الخطابة واقتدى به كل من أديب إسحق اللبنانى وإبراهيم أفندى اللقانى ومصطفى أفندى ماهر والشيخ محمد عبده والسيد حسن أفندى الشمسى وفتح الله أفندى صبرى ، واستمرت الخطب تعلو فى تلك الحفلة إلى الساعة الثالثة بعد نصف الليل »[3] .

وتحدث النديم عن أهمية التربية والتعليم ، وتكلم مصطفى ماهر عن الاجتهاد فى تحصيل المعارف واستحث ذوى الغيرة من الأغنياء على إنشاء بنك أهلى يستغنى به الفلاحون عن الإقتراض من المرابين بالفوائد الفاحشة ، أما محمد عبده فقد انصبت خطبه على السياسة ، فشرح مزايا الحكومة الدستورية بعد أن عرّف أنواع الحكومات ، وبين المقيدة والمطلقة وأظهر فضل الأولى وضرر الثانية ، ونقد سياسة إسماعيل وأظهر مميزات الشورى ورأى الأمة فى مصالحها ، وطالب بنشر العلم حتى يكون الجميع مستندًا للمشاركة ، ونادى بحتمية إطلاق حريات الأفكار والأقوال والأعمال ، وأنه يجب أن يكون هناك قانون عدل يبيح حرية المجامع والمطابع ، وأن

---

(١) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١٥ فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Archives de maison, de Cour et d'etat, Inclosure 2 in No. 105, October 9, 1881 .

(٣) أحمد عرابى ، تقرير ، ص ٢٢٨

الحكومة المثلى هى الحكومة القانونية التى تضبط الأعمال وتبين الحقوق والواجبات ، ثم اثنى على نظارة الثورة لإخلاصها ووطنيتها وعزيمتها .

وجاء دور أديب إسحق ليبين ما يجب أن يكون عليه أعضاء مجلس النواب « أن يعلموا بكليات الأمور وما تحتاج إليه البلاد ، وإذا كانت المصائب المشتركة هى التى أنالتنا هذه النعمة ، فلابد من تذكر آلام هذه المصائب حتى نحافظ على النعمة التى وصلنا إليها » . وعقب ذلك خطب أحد المدرسين ليظهر حسن التعلم والتعليم ثم تقدم فتح الله صبرى أحد طلبة الألسن ونصح بالإتحاد حتى بلوغ المراد « ولا تنازعوا وتذهب ريحكم فتتقهقروا إلى حالكم القديم من الظلم والإستبداد ، والشكر للرجال الذين ركبوا الصعاب واخترقوا العقاب ، وبُدد عنكم هاتيك المصائب فخرجتم من الظلمات إلى النور »(١) .

وضح من ذلك فكر المثقفين وفلسفتهم التى لا تقل فى الأصالة عن مفكرى الثورة الفرنسية ، ومما يستلفت النظر اشتراك الطلبة فى هذا المجال ، فكان دليلاً على وعى كامل وصادق انتاب شباب مصر ، وللنديم أثره فى ذلك منذ أن أسس جمعيته بالإسكندرية ، وهو دائمًا يصطحبهم معه ويقدمهم فى تلك الاجتماعات ، فغرس فيهم الشجاعة والجرأة والإقبال على تذوق الخطابة ، ويقول شاهد عيان « شاهدت عبد الله النديم مرة يقدم فتحى أفندى زغلول ليخطب فى حفلة عظيمة ، وبعد أن جال بخطبته فى السياسة فى كل مجال ، أمسك عبد الله النديم بذراعه وقال للحاضرين : الا تعجبون بما أبداه هذا التلميذ فى خطبته من العلم والبيان والتفنن فى المواضيع مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعًا واحدًا فى خطبته ، وقدم مرة أخرى فى إحدى حفلاته الطالب مصطفى أفندى ماهر فخطب القوم وراقتهم خطبته فقال عبد الله النديم : أشهد أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها »(٢) .

وقد اعتبرت صحيفة التيمز جمعية المقاصد ناديًا سياسيًا للحزب الوطنى ، ووصفت تلك الخطب الحماسية التى تُلقى فيها بأنها موجهة ضد الأوربيين لإثارة الحمية الدينية للمصريين(٣) ، لكن كان جليًا أنها طرقت كل ما يمس الأمة ، وفيها تفاعل النشاط الثورى للمثقفين .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٣٤ فى ١٥ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٧ .

(٣) The Times, April, 22, 1882 .

وكثرت اللقاءات الخاصة لتحديد سياسة الثوار ، وشملت جميع العناصر المثقفة ، وكانت تعقد فى منازل عرابى والبارودى ومتبل بك وطاهر بك ، وتمارس فيها الخطب التى تناولت ما بلغه النفوذ الأوربى من السطوة على مصر ، وكان المسيطر على الدفة فيها النديم بشخصيته وإقناعه ، وبرز فيها الأفندية ، فهاجم مصطفى ماهر الأوربيين حتى لقد وصل به الأمر انه رأى « قتل الأجانب والأتراك وإلقاء عظامهم بالبحور حتى لا تتلوث أرض مصر »[1] .

كانت هذه الاجتماعات عبارة عن صالونات سياسية امتلأت بالعقليات المثقفة ، وجاء الدور على أعضاء مجلس النواب فى إقامة الحفلات ، فيدعو الشيخ أحمد على محمود وإبراهيم أفندى الوكيل أعضاء جمعية المقاصد الخيرية وباقى النواب لاجتماع موسع ، ويمارس النديم نشاطه المحبب إليه « فتلى عدة آيات من القرآن الشريف وشرح كل واحدة منها بشرح لطيف العبارة بديع الأسلوب ، وكان عند كل آية يأخذ فى الحث على التمسك بها وبيان موضع الأخذ بما دلت عليه من الحكم ، وحث على رعاية الواجب والذمة وحفظ العهود وحسن المعاشرة » ، وعلا صوت محمد عبده وتكلم بصفته فلاحًا مصريًا من خدمة العلم الشريف فى الجامع الأزهر ، وبيَّن سوء حالة الفلاح بالرغم من تمتعه بالصفات المحمودة والوضع الفطرى الإلهى والفضيلة ، وتبعه فتح الله زكى أحد تلامذة مدرسة التجهيزية ، فتحدث عن التربية والتهذيب وفتح المدارس وعقد الجمعيات والاهتمام باللغة العربية وحفظ الحكومة الشورية ، أما إبراهيم اللقانى فحذر من الأعداء ونادى بالاحتياط وطلب استجماع القوة ، وأوضح أن ما تم ما هو إلا بداية لإنطلاق جديد وليس هو بآخر المطاف ، وعندما جاء دور فتح الله صبرى دعا بعقد الجمعيات وفتح المدارس الليلية ليتعلم فيها من لا تسمح له أشغاله الضرورية بتلقى العلوم فى النهار[2] .

وفى ليلة الاحتفال التى أقامها أحمد أباظة ،وحضرها النظار والنواب ، تكلم محمد عبده عن الحكومة الشورية وسلطة القانون ، وطرق النديم باب الاهتمام بالاقتصاد المصرى وخاصة الصناعة ، كما طلب مساعدة الفلاحين واستخلاصهم من الديون ، وكان يوجه حديثه للأغنياء ، كما أشار إبراهيم اللقانى إلى أهمية الخطابة وتأثيرها فى تنشيط الأذهان وبعث الهمم « أسوة حسنة بنبينا ﷺ وأصحابه ، فإن الخطابة لم تكن فى زمانهم الشريف قاصرة على خطب الأسابيع ،

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .
(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٣٦ فى ٢١ فبراير ١٨٨٢ .

بل كانوا يعقدون مجامعها عند كل داعية من تنبيه اجتلاب مرغوب أو اجتذاب مرهوب أو تسكين خاطر أو رفع وهم أو إرجاف أو إزالة التباس »(١) .

أما عن دور مثقفى الإسكندرية فيشهد له تاريخ المدينة ، فمنذ قصر النيل والقلق يسود أهلها وبوادر الثورة تتضح معالمها إذ تبلور فيها الرأى العام بصورة واضحة ، وقد حذر ماليت رياض من تلك الأجواء(٢) ، وعقب التاسع من سبتمبر أسست جمعية الشبان « للنظر فى منافع الوطن العمومية » ، وللنديم يد فى تأسيسها وضمت « أولاد ناس من كبار الإسكندرية »(٣) . الذين كونوا وفداً منهم للمشاركة فى الأحداث التى تمر بها مصر ، فتذكر صحيفة الوقائع المصرية « كلف شبان الإسكندرية النبهاء ١٢ نبيهاً منهم بأن ينوبوا عنهم فى تقدم التهانى والشكر إلى المقام السامى الخديو على تأييده أمر النواب وبقية النظارة الجديدة تحت رئاسة محمود سامى ، وقابلوا الخديو وسامى والعرابى الذى خطب فيهم بالحث على التآزر والإتحاد ، وأثنى على هممهم وهمم إخوانهم الذين انبعثت فيهم روح الألفة والوداد ، ثم توجهوا لمجلس النواب وهنأوا الأعضاء ، وفى المساء اجتمعوا برئيس النظار فشكر لهم اهتمامهم بشأن الوطن وأمر البلاد ، ثم رغبهم فى زيادة ربط القلوب والإكثار من الاجتماع ، ثم توجهوا لسلطان باشا بصحبة النديم ثم قابلوا محمد عبده » وتواصل قولها « فعلمنا من ما شاهدنا فيهم من حسن الأفكار أن أهل الإسكندرية وخصوصاً شبابهم قد انبعثت فيهم روح المحبة وانتشرت فيهم مبادئ الأفكار الحرة »(٤) .

وعمل القائمون على الثورة من أجل استمرار المسيرة ، وذلك بالتشجيع على الاجتماعات والتحدث بالسياسة ، وتعددت اللقاءات داخل أسوار الإسكندرية فتقول صحيفة المحروسة « إن فى الإسكندرية شباناً طمحت نفوسهم إلى طلب المعالى وطمعت أفكارهم فى نيل الغوالى وجنحت خواطرهم إلى جعل مصر للمصريين ، فهنيئاً لمصر إن كانت فى يد أبنائها » وتعاود فى وصف السرور بالتصديق على قانون المجلس النيابى الجديد « كانت سراى يوسف باشا محطاً لرجال الوطنيين والأجانب، وسمع المدعوون من خطابات النديم ما راق فى أعينهم ، وقد حضر الحفل المحافظ وضباط الجهادية وأعيان الثغر وتجاره وفتيانه وشبابه »(٥) .

---

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٢٤٩ فى ٥ مارس ١٨٨٢ .

(٢) Malet , op. cit., p. 120 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٦ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ٢٣٢ ، Biovès , op. cit., p. 119 .

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٢٨ فى ٧ فبراير ١٨٨٢ .

(٥) المحروسة ، عدد ١٠٦٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨٢ .

ومنذ فبراير ١٨٨٢ أصبح من المألوف رؤية النشاط والحماس المتقد لشباب الإسكندرية ، فكانوا على علاقة قوية ومتينة بالعسكريين يؤيدونهم فى جميع الخطوات التى يتخذونها ، ولم يكن هناك أى اجتماع يخلو من العسكريين ، وقد اقترنت هذه الاجتماعات بالخطب التى كانت تشعلها ضد الوضع القائم .

وتابعت دمياط الإسكندرية فى هذا النشاط ، فأنشئت فيها « جمعية مساعى الخير » ، وبعد أن كانت رئاسة الجمعيات إما لأعضاء الأسرة الحاكمة أو لكبار الشخصيات ، تغيرت الأوضاع وأصبح رئيس هذه الجمعية عرابى ونائبها عبد العال حلمى ، وراحت تعقد الليالى فى منزل مؤسسها حسن بك المرقبى ، وكثر روادها «إذ بلغوا حوالى ٣٠٠ ، وكانت تغص بأهل الثغر من العلماء والذوات »[1] ، حيث ألقيت خطبة الحماسة للتحريك الثورى .

كان قادة الثورة يداومون على حضور هذه الاجتماعات وخاصة عرابى ، وفيها تلقى القصائد « فى مدحهم وتقديسهم وتعداد مناقبهم ولا ينصرفون عنها إلا بالتهليل والتكبير ، فإذا انتهت خرج الناس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسة ، وأصبح الناس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم ، إذ كان يُمثَّل فى شكل البطل المنقذ ، وقد وزعت صورته فى أنحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة وعلى رأسه عبد العال قابضًا على سيفه وإلى جانبه على فهمى وهو يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها الدستور ، وهكذا سارت الروح العرابية فى الأمة بأسرها وجعلت الطبقات فى صعيد واحد ممتزج بعضها ببعض »[2] .

وعندما حدث التآمر الشركسى لإسقاط الثورة ، كانت نتائجه المزيد من الالتحام والتعاون ، وأصبح العداء سافرًا وبدون تحفظ لتلك الطبقة ، فاشتد الهجوم عليهم ، فقد أقام محمود شكرى باشا وكيل عموم الاستحكامات الليالى من أجل سلامة الثورة وقوادها ، وألقيت فيها الخطب التى أنزلت اللعنات على الشراكسة ، ووصفتهم بأنهم المفسدون فى الأرض ، وتمسكت بالإتحاد ، وكان الدعاء فيها لعرابى ثم السلطان وأسقط اسم توفيق ، وأقام خورشيد بك طه وليمة بميدان قشلاق باب شرقى بالإسكندرية خطب فيها لبنيه خطبة سياسية باللغة الفرنسية ذكر فيها «ما كانت عليه مصر سابقًا من الثروة والرفاهية ، وما صار بها مدة إسماعيل من الظلم والدين الثقيل الذى اقترضه لصالحه الخاص لا لصالح أهل مصر ، وتكلم عن

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٢) أحمد شفيق ، المصدر المذكور ، ص ١٤٧ .

مساعدة الأوربيين له فى نواله اقتراض الدين لمنافعهم الشخصية ، وعن كيفية جبر الأهالى وإلزامهم بالرغم عنهم لقبول سداد الدين غير المعلوم لهم أسبابه ولا أبوابه ، وتطرق إلى ظلم أوربا للمصريين فى عدم تركهم يدبرون سداد الديون بأنفسهم ، وبيّن هضم حقوقهم وعدم مساواتهم بالأوربيين وسلطة المراقبين ، وانعطف على الموظفين الأوربيين ومعاملتهم للمصريين ، ثم أوضح أن عرابيًا الذى هو فلاح بسيط منهم ساقه الله لخلاص أهل وطنه من ظلم الغير »[١] ، وقد ترجمت هذه الخطبة فى الحال وألقت على مسامع الحاضرين .

والواقع أن للفكر الأوربى الأثر فى الثورة ، وكان نينيه وهو عميد الجالية السويسرية بمصر ، من أصحاب الآراء الأوربية الحرة ، وينسب إليه البعض قيامه بالمساعدة فى تنظيم الدستور ونشر تلك الأفكار التى ماجت مصر كلها[٢] .

ومما هو جدير بالذكر أنه حتى الأطفال تواجدت فى تلك المناسبات « وصارت تخطب بالنثر والنظم المتضمن فى مدح العرابى ، والحث على الإتحاد ، وقيل أن هؤلاء الأطفال من جمعية الشبان »[٣] .

واتسعت الخطب التى أنزلت اللعنات على الحاكم « وكان النديم يدعى للخطبة فيلبى الدعوة ويسب توفيقًا ويدعو جهارًا إلى خلعه »[٤] ، وبرز أحمد العوام كأحد الخطباء المثقفين وسار فى نفس الاتجاه .

كذلك أسست جمعيات إصلاحية على أيدى المثقفين كان لها اللقاءات الدورية ، فتذكر صحيفة المفيد « جميع المنتظمين فى هذه الجمعية من الشبان ذوى الاستقامة والصلاح والجد مشتغلون باكتساب العلوم ، البعض بمحلاتهم والبعض بالجامع الأزهر والبعض بالمدارس الليلية ، وقد استحسنوا وجودهم مع بعض ليلتى الأحد والأربعاء من كل أسبوع ، وارتضى كل منهم بدفع خمسة قروش صاغ شهريًا لمشترى الكتب اللازمة مع ما يلزم لإحياء الليلة »[٥] . وبذلك انتشرت الجمعيات بأنواعها على أرض مصر وذاع صيتها فى الخارج ، فنرى صحيفة ترجمان الحقيقة الصادرة فى الآستانة تقول « يوجد الآن فى مصر جمعيات سياسية من الشبان ، وكلها مجتهدة فى إكمال الأسباب التى ينبنى عليها سلامة الوطن والإعانة العمومية »[٦] .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٢) Scotides , op. cit., p. 28 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٤) عبد اللطيف حمزة ، العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده ، ص ١٤ .

(٥) المفيد ، عدد ٤٨ فى ١٧ أبريل ١٨٨٢ .

(٦) المصدر نفسه ، عدد ٥١ فى ٢٧ أبريل ١٨٨٢ .

وبالإضافة إلى ذلك فهناك « الصالونات الديمقراطية » التى تعقد فى الشوارع والحارات والأسواق والقهاوى وأمام أبواب الحوانيت ، وتضم قوى الشعب « وفى تلك الحلقات كنت ترى الشيخ الأزهرى إلى جانب الفتى العصرى إلى جانب الشاعر أو الكاتب المغمور إلى جانب الأديب المشهور أو العالم الكبير ، وجميعهم يتحدثون فى شتى الأمور السياسية »[١] ، فكانت اجتماعات شعبية تتم يوميًا تجرى فيها المناقشات بكل حرية ، وتخرج منها التأييدات للثورة وقائدها . كما كان الشباب المثقف أثناء تجوالهم يعبرون عن داخليتهم بتلك الأغانى التى تنصب على مدح زعيمهم . ولأول مرة فى مصر نرى تلك الوحدة بين المسلمين والأقباط واليهود ، وهذه الفرحة التى سيطرت على الجميع لقيام ثورتهم « وكانوا يتعانقون ويقولون لبعضهم أشرقت شمس الأمل وأذابت الثلوج ، وتعاسة ثلاثة قرون اختفت ، وفاضت دموع الفرح وحفرت لها قناة الابتسامة والسعادة »[٢] .

وبتطور الأحداث ازدادت حدة الثورة وانفعال القائمين عليها ، فعقب مذكرة مايو المشتركة ، وورود أخبار مقدم درويش باشا لإقناع عرابى بقبولها سافر النديم إلى الإسكندرية « وخطب مدة ساعتين فى عشرة آلاف شخص ضد المذكرة ، وأوعز إلى المجتمعين أن يحتجوا عليها ، فحاز ذلك قبولهم لدرجة أنه حين عودتهم إلى منازلهم بثوا تلك الروح فى زوجاتهم وأولادهم ، وعند وصول درويش صاح الأولاد فى الشوارع اللائحة ، وترد عليهم النساء من النوافذ مرفوضة مرفوضة »[٣] . وبذلك تغلغل تأثير المثقفين ودخل كل بيت ليعلن التأييد التام للثورة .

واستمر النديم فى حملاته التى وجهها ضد تصرفات الإنجليز ، وكان لها الأثر السيئ على المجتمع « أيرون أن الإنجليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء وإعطاء شهادات بأنهن صالحات للزنا ، فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى »[٤] ، ويتابع الهجوم على رأسماليهم فى مصر وتحكمهم فى الاقتصاد المصرى والوظائف والتعليم ، ويعرج على دول أوربا الاستعمارية ، وأهدافها فى القضاء على الإسلام .

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٣ ، ص ٢٨ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 88 - 233., Duse , op. cit., p. 45 .

(٣) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 329 .

(٤) عبد الفتاح نديم ، المرجع المذكور ، جـ ١ ، ص ١٧ .

وامتلأت النفوس بالغضب على الأجانب ، وكثرت لقاءات الشباب السكندرى فى جمعياته المتعددة ، وكان للخطب الصدى المسموع وانصبت على الذم فى الأوربيين ، وتطرقت إلى ضرورة عزل الخديوى الذى اعتبر السبب فيما حل بمصر ، وقد حاول المعسكر المضاد للثورة ضرب حركة الشباب السكندرى ولكنه لم يتمكن ، ففى خطاب من عمر لطفى إلى رئيس النظار يظهر له « إن شباب الإسكندرية متحدين مع العساكر فى الهيجان » ويطلب منه « أعمال طريقة لمنع ذلك » ، وعندما أصدروا مذكرة هاجموا فيها الخديو والأجانب « استدعاهم المحافظ ووقف حائلاً دون قصدهم وهددهم فيقول : نهيناهم مع التخويف عما شرعوا فيه » ، وفى خطاب له إلى رئيس القومسيون ، يوضح أنه على يديه تم ترهيب الشباب للحد من ثورتهم[١] .

وبالرغم من ذلك ، فقد ظل الشباب المثقف على ثوريته بل ازداد ، وجاءت خطبة النديم فى السيالة بالأنفوشى ، لتفصح عن الغضب الثائر الذى امتلأت به الصدور ، ومرة أخرى يرى المحافظ حد الثورية التى انتشرت لمستمعى ومؤيدى النديم ، فيأمر مأمور الضبطية بإخراجه من الإسكندرية ، لكنه لم يفعل ، ورفض النديم أن يبرح مكان نضاله حيث له السلطة والنفوذ ، وجاءت حادثة الإسكندرية فى ١١ يونيو ١٨٨٢ لتعطى المزيد من العمل من أجل الثورة .

وتُعلن الحرب ، وكان المثقفون قد بنوا آراءهم على استبعادها ، فنرى محمد عبده يجزم بعدم وقوعها حيث إن « لإنجلترا ما يفيد عاملين يمنعانها من مهاجمتها للقطر المصرى ، أحدهما ذاتى وهو قصورها عن المحاربة برًا ، والثانى خارجى وهو تحتم مخالفة أوربا لها » لكن بمجرد وصول خبر ضرب الإسكندرية إلى القاهرة « نهض وسافر واجتمع هناك بإخوانه مدة نهار الحرب ، وعاد ليلاً إلى مصر بسياسة أخرى غير سياسته الأولى ، وهى إصراره على إمكان مقابلة العساكر المصرية لعساكر إنجلترا زمنًا مديدًا ، تمل الدول طوله ، فتتداخل فى الأمر ، وترد إنجلترا عن مقاصدها وتقرر عزل الخديو »[٢] . وكان ذلك هو نفس رأى النديم فيذكر شاهد عيان « كنت فى عهد الثورة تلميذًا فى مدرسة رأس التين بالإسكندرية فبلغنا أن السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور فى مكان كذا ، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان ما قاله ما خلاصته : إن طوابى الإسكندرية إذا أطلقت

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر ، فكيفما حاولت الأساطيل الإنكليزية فهى تحت رحمة مدافعنا ، فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له »[١] ، وربما كان ذلك لتقوية الروح المعنوية للشعب وكنوع من الدعاية التى لها ضروريتها فى الحروب ، لكنها حملت فى نفس الوقت بين طياتها سوءًا لتقدير الموقف .

وعقب ضرب الإسكندرية كان لشبابها المثقف من أعضاء الجمعيات وغيرهم ومعهم نساؤهم وأولادهم الهمة الملحوظة « هرعوا وقت أن سمعوا إطلاق المدافع على الطوابى ، وصاروا يخدمون الطوبجية فى مناولة الكلل وخلافها ، ومن فعلهم الذى يبهر القول إن امرأة منهم كانت حين تقع الكلة على الأرض تكون أسرع من البرق فى وضع التراب فوقها فتبطل مفعولها ، وكان الشبان حين يرون الكلة مارة من فوقهم يميلون رءوسهم ويصفرون استهزاء بها »[٢] ، فكانت هذه المعنويات المرتفعة مشاركة فعالة فى الثورة .

وانتقلت عناصر من المثقفين إلى ميدان القتال ليس فقط كمراسلين حربيين لتسجيل وقائع المعارك ، ولكن أيضًا للتنقل بين الجنود وتشجيعهم على الصمود والاستبسال وإقامة صلوات الجماعة والدعاء بالانتصار للجيش المحارب ، ولم يكن محمد عبده والنديم وحدهما أصحاب النشاطات المتزايدة فهناك العديد ، فعلى سبيل المثال نرى إبراهيم اللقانى يحارب بكلمته فى جهة الصالحية[٣] ، ليلهب الحماس ويثير الحمية الوطنية ، ويعلن أن الحرب مقدسة وأنها جهاد فى سبيل الله.

المبعوثون ونشاطهم الثورى

لم يقتصر أمر المثقفين المشتركين فى الثورة على داخل مصر ، وإنما هناك من المصريين من كان فى بعثات تعليمية بأوربا واشترك فيها ، فمحمد توفيق طالب الطب بأكاديمية « مونبيليه » بفرنسا يرسل لعرابى أكثر من مرة مؤيدًا وموضحًا أن « المصريين على اختلاف أجناسهم وأديانهم وطبقاتهم قد شعروا بنتائج الإصلاح الذى تأسس تحت عناية سعادتكم بإرادة وتوفيق الحضرة الإلهية وذاقوا حلاوة

(١) السيد محمد رشيد رضا ، المرجع المذكور ، ص ٢٣٦ ، شاهد العيان هو أحمد فتحى زغلول .

(٢) المفيد ، عدد ٦٥ فى ١٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٢ .

Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 233 .

الحرية » ويظهر استياءه لخيانة سلطان وأتباعه ويستنكر ذلك ثم يتبع « ونحن جميعاً تحت إمرتك نفدى سعادتكم بدمائنا ، ومنى لسعادتكم ولحضرات الأمر عموماً أرقى التحية »(١) .

وقد كان مدير البعثة المصرية بفرنسا « ميسمير » قد أرسل إلى وزير المعارف فى ١٨ يوليو ١٨٨٢ بشأن هذا المبتعث وزميل آخر له يدعى محمد فتحى ، ويوضح أن الأول اشتغل بالسياسة والمناقشة فيها ، ويمارس نشاطه هذا فى المقاهى والمحلات العامة ، ويكتب العرائض ويقوم بجمع توقيعات زملائه عليها ، يؤيد فيها عرابى ، وتبعه كثير من الشباب « ورغم تحذيرى له فقد استمر وأصبح أداة اضطراب لدرجة أنى لا أحتمل أن أستبقيه بعد الآن » ، هذا فى الوقت الذى طلب فيه هذان المبتعثان العودة لمصر لكى يشاركا فى الثورة ويحاربا الإنجليز ، ويتابع مدير البعثة قوله « وإنى ألفت نظر سعادتكم إلى هذين الشابين باعتبار أنهما متطرفان وخطيران ، وأنه فى استطاعتهما أن يستمرا على التحريض والاضطراب فى مصر أيضاً »(٢) .

إذن فصوت الثورة المصرية وصل إلى أرض الثورة الفرنسية ، وجعل الوطنية تزداد حماسة لدرجة التضحية بعدم إتمام التعليم من أجل المساهمة فى الحركة الوطنية ، وقد وضح أنه كان للقائمين على الثورة رسلاً خارج مصر ، فمن خطاب « مالوس » نائب مدير البعثة المصرية إلى مديره يقول « حضرت إلى الأكاديمية قالوا لى فوراً إنه يوجد هنا مبعوث من قبل عرابى وهو يحرض بقية الطلبة »(٣) ، لكن إذا لم يكن هناك الاستعداد الكافى لهؤلاء الوطنيين الصادقين لما نجح جهاز الدعاية ، فهؤلاء تعرضوا للضغط بل والتهديد من أجل إبعادهم عن المعسكر الثورى لكن بدون فائدة ، فيذكر الخطاب السابق « إنه لم يفلح معهما التهديد ، وبدلاً من أن يحملا التهديدات على محمل الجد ، فإنهما يمزحان مع زملائهما ويهددان الفرنسيين بالإنتقام منهم بسبب حوادث الإسكندرية »(٤) .

ويتبين من ذلك أنه كان للأحداث التى تعرضت لها مصر أصداؤها فى الخارج، فقد كره المصريون الأجانب ، ولم يخشوهم حتى وهم على أرضهم ، واستمروا فى سياستهم الثورية وساد « الاضطراب بين الطلبة جميعهم بالمجادلات السياسية وكافة

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٢/٥/٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٩٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

أنواع التحريض » حتى أن البوليس الفرنسى لفت نظر مدير البعثة لتلك المناقشات الحادة التى يثيرها محمد توفيق ، ويطالب مدير البعثة بفصله وزميله من جدول البعثة وترحيلهما بالرغم من أن محمد توفيق قد قدم إلى فرنسا على نفقته ، لكنهما اعتبرا من الثائرين الواجب التخلص منهما بعد أن تركز نشاطهما على حد قول المدير فى « بذر بذور الفوضى بين أعضاء البعثة » وصدر الأمر باستدعائهما ومعهما طالب ثالث يدعى زاهد . وعثر لديهم على صحيفة الطائف وتسويد فصول محررة بها ، وجملة أوراق وخطابات تفيد بأن مخلص مصر من الاستبداد هو عرابى ، والدعاء له بالنصر ، والإشادة بمواقف الثورة التى وقفتها منذ أن قامت ، وقوة الجيش ومسودات لخطابات مرسلة للقائد الزعيم[1] .

وعند عودتهما كان الوقت قد قارب الانتهاء ، وعلى مشارف بدايات النهاية ، وما لبث الأمر أن إنضما إلى أولئك الذين امتلأت سجون مصر بهم ، وقد عمد محمد توفيق أن يكون عقب ذلك من المشتركين فى جمعية الانتقام التى تألفت بعد النهاية للانتقام ممن كانوا السبب فى الهزيمة[2] . وبذلك نرى أنه حتى من كان خارج مصر لم ينساها بل شارك بكل إمكاناته متضامنًا ومؤيدًا ومدافعًا عن الثورة .

الموظفون فى الميدان الثورى

أسهم الموظفون بنصيب وافر فى الثورة ، وشاركوا بكل قواهم نظرًا لحالة المعاناة التي مروا بها ، وبقيامها عرفوا أن الوقت قد حان للأخذ بيدهم ، وهم الشريحة المتعلمة والمتمتعة بالنضج الفكرى ، فقد كان منهم العائدون من البعثات والمتشبعون بالمبادئ الحرة .

ولم يكن اشتراك الموظفين نتاج لوطنية صادقة ولوعى ثقافى فحسب ، وإنما أيضًا ناشئًا عن أوضاع مادية لمسوها وقاسوا منها ، فإن السيطرة الأجنبية على أجهزة الحكومة قد سلبت كيانهم لتحل محلهم الموظفين الأجانب ، ففى مارس ١٨٨٢ وصل عدد الأخيرين بما لا يقل عن ١٣٥٥ موظفًا بلغت مرتباتهم ٣٧٩,٠٥٦ جنيهًا ، وتراوحت من ٣٠٠٠ جنيه فى السنة إلى ٢١٠٠ جنيه ، وأقل وظيفة كان صاحبها يتقاضى ١٢٠٠ جنيه[3] .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ٤٠ .

(٣) المفيد ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

كانت المراقبة الأوربية مكروهة من جميع القوى على أرض مصر ، وللموظفين النصيب الأكبر فى ذلك ، وتذكر صحيفة المفيد سبب ذلك بقولها « تعلم المراقبة شيئين ، الأول انهم عازمون بأنهم أكفاء ذوو مقدرة على إدارة أعمالهم بأنفسهم مثل المرسلين لمساعدتهم ، ثانيًا كون المصريين عوملوا بالظلم » ، بينما ذكرت « النوفيل رفيو » أن « الأمة المصرية قد استيقظت من نومها وما أيقظها إلا بغضها للمراقبين وتذمرها من تسلط الأجانب » ، وترجع صحيفة الستاندرد سبب الثورة إليهما « إن سبب الحركة هما المراقبان لأنهما خرجا عن حدودهما وتخطيا واجباتهما التى تقضى عليهما بالنصح ، وأن يكونا فى الأعمال المالية كواسطة ليس إلا »(١) .

أما آراء الساسة الأجانب فإنها لا تختلف عن الرأى السابق ، فقد بين كليمنصو ما كان يصرف من الخزانة المصرية على الموظفين الأجانب ، كما أوضح « أن تأسيس قلم المراقبة لم يترتب عليه سوى تكثير الأوراق وزيادة أعدادها ، وجر المشاكل للحكومة المصرية ، وبذلك أوجدنا سخط المصريين علينا » ، وحينما دارت المناقشات فى مجلس العموم البريطانى عقب بداية الغزو البريطانى لمصر ، أرجعت الثورة إلى ما تحمله هذا الشعب الذى كان تعيسًا بفضل هذا العدد الكبير من الموظفين الأوربيين الذين كانوا يتقاضون أعلى المرتبات(٢) .

وكان عداء المصريين للأجانب نتيجة لرد فعل الإساءات التى وجهوها لهم وتعاليهم عليهم ، خاصة أنهم كانوا دائمًا أصحاب الأعمال والرؤساء ، ومن ثم أصبح الهدف الذى يصبو إليه المصريون ليس فقط إبعاد التأثير الأجنبى عن الحكومة ، وإنما طرد الأجانب من الإدارة .

ومع بداية الثورة راح جهازها الإعلامى يزيد من الإثارة حول وضع الموظفين المصريين ، وتعددت النداءات للحد من سلطة هؤلاء الأجانب ، فتناشد صحيفة المحروسة شريف لاستخدام الموظفين الوطنيين الذين هم أحق من الأجانب للبلد « إننا نعلم أن كثيرًا من الأجانب يتمتعون برواتب لا ينالون عشرها فى بلادهم بل فى أى بلاد الدنيا ، إن الواجب الذى لابد منه أن نوجه عنايتنا إلى استخدام الوطنيين فى المصالح أولاً ، فهم أحق بها وأولى من سواهم ، فإذا رأينا اضطرارًا إلى غيرهم استقدمناهم بشروط معلومة ورواتب غير فادحة ، وغاية ما نرجوه أن تعتنى نظارتنا الجديدة فى سن قانون للخدمة والموظفين يستوى به الأجنبى والوطنى ، فالأجنبى

(١) المفيد ، عدد ٢٩ فى ٣٠ يناير ١٨٨٢ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٥ ، ص ١٧٨ ، الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) Commons, Vol. LXXXII, July 25, 1882, p. 1764 .

عندما يعزل يشكو ويقيم دعوى ويطلب تعويضًا ويساعده على ذلك قنصله أو المحاكم المختلطة والقونتراتو الذى بيده ، أما الوطنى فإن عزل بحق أو غير حق فكل ما يقدر عليه أن يصبر »[١] ، ويتابع النديم « كم من شبابنا من أذكياء ونبهاء قائمين بأعمال لا يقوم لها عدد من الأجانب ، ولو كانوا عددًا قليلاً لعددتهم ، ولكنهم كثيرون فى زوايا الإهمال ، ولنا فى عناية أمرائنا الحاضرين ما يفتح للوطنى بابًا يدخل منه إلى الرواتب الكافية ليضارع من جاء من بلاده لا يملك نقيرًا ولا فتيلاً ، واصبح يوسع له الطريق ليجرى بعربته ، وكنا فى غنى عنه لو استعملنا أبناء بلادنا ووسعنا ثروتهم وحفظنا نعمة البلاد لأهلها ، وليست السيادة بفتح باب البلاد للغرباء ، يأكلون خيرها ويهتكون سرها ويميلون بأهلها لجانب الأجانب بالغرور والتحسين ، بل السيادة بفتح بيوت الأهلين وتكثير المعتبرين وحفظ الثروة »[٢] .

وتستمر حملات الهجوم على الأجانب فى عهد الثورة « ولا يخافك باهظ رواتبهم لغاية المائتين والخمسين جنيهًا شهريًا مع أن البعض منهم كان رئيس كناسين فى بلاده بستة جنيهات وأقل ، والبعض كان يسن أمواس وأسلحة ، والبعض كان يصيد الأسماك ، وتلك الرواتب أضرت بالإيرادات ، وأبناء الوطن كونهم حرموا الاستخدام بتلك المصالح إلا من يعرف اللغات الأجنبية منهم وتجده موظف فى أتعس الوظائف بماهية جزئية على أنه وطنى ولا يأكل بالشوكة والسكينة ولا يشرب النبيذ البوردو العال »[٣] .

وتعرضت صحيفة المفيد لزيادة رواتبهم وعدم كفاءاتهم « هؤلاء أناس قد لحظتهم عين العناية فساقتهم البحار وحملتهم أكف السفن حتى أتوا مصر منبع الثورة ومنبت الخيرات ففتحت لهم الوظائف أبوابها فدخلوها ، وجرت سيول المرتبات فما حمد الكثير منهم نعمتها ، بل ارتفعت أنوفهم عن أن يمتثلوا لقوانين حكومتنا حتى فى أمر التعليم ، إن مسيو فالوا معلم اللغة الفرنساوية والمسيو فنك معلم اللغة الإنكليزية غير أهل ليكونا أساتذة لتلامذة ، والأول تعليمه لم يكن مطابقًا لترتيب المدارس فضلاً عن ضعف حال التلاميذ الجارى تعليمهم بمعرفته وأنه مستعمل معهم الضرب »[٤] ، هذا بالرغم من الكفاءة المتزايدة للموظفين المصريين ، فيبين لنا النديم أنه زار أحد معارفه فى قسم الحسابات بديوان عموم المرور « فرأيت

---

(١) المحروسة ، عدد ٣٨٦ فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٦ فى ٢ أكتوبر ١٨٨١ .

(٣) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١٠ فى ٢١ أكتوبر ١٨٨١ .

(٤) المفيد ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

أمام الفتى البارع أحمد أفندى زكى دفاتر جسيمة ، وقد تذكرت هذا العمل وقسته بعمل بنك فوجدته يوازى خمسة من البنوكات ، وفيه هذا الوطنى يتكبد مشقة العمل الجسيم براتب قدرة ألف قرش ، فعجبت من سوء حظ الشرقيين كما عجبت من نسبة ما ينسبهم للجهل وعدم حسن الأعمال » ، وأورد الأمثلة الكثيرة ، وأظهر قلة الرواتب ، وأشار إلى المحسوبية وظلم الفقراء والنفاق(١) .

ونادت الصحافة علانية بضرورة فصل الموظفين الأجانب ورؤسائهم ، بعد أن أعلنت الحرب عليهم وارتفعت صيحاتها بالشكوى منهم ، وتزعمت صحيفتا الطائف والوطن ذلك ، ولم يكن الهجوم على الأوربيين وحدهم ، أيضًا السوريين العاملين فى مصالح الدولة ودواوينها الذين مارسوا الرشوة ، كذلك أنصب الحقد على الموظفين الأتراك والشراكسة الذين شغلوا أحسن مناصب الدولة .

وأمام الثورة لم يتخذ الأجانب موقفًا معتدلاً استجابة للأوضاع الجديدة التى تمر بها مصر ، لكنهم زادوا من سوء تصرفاتهم وتسلط ألسنتهم ، وبذلك تصعّد سخط المصريين عليهم ، فنرى « روسل » الإنجليزى الذى يشغل وظيفة عليا فى الإدارة يصرح علنًا عقب التاسع من سبتمبر بضرورة احتلال بريطانيا لمصر(٢) .

وبدأت الثورة تعمل من أجل الموظفين ، ففى نظارتها الأولى ، وبجوار قوانين الجهادية ، أصدرت قرانين تتعلق « بالمستخدمين الملكيين » وتشكلت لجنة كلفت بتحضير القوانين المتعلقة بشروط قبول موظفى الحكومة ومستخدميها وترقيتهم ورفتهم « وأما ما يتعلق بالخواجات فلا يكون داخلاً فى أعمال القومسيون »(٣) ، وكان شريف معتدلاً ، ففى البداية لم يرد أن يمس امتيازات الأجانب ، لكنه لم يستطع أن يوقف تلك الحملات التى شنت ضدهم ، والتى بدأت بالتقريع بمدير الجمارك .

وكانت الخطوة التالية الاتجاه نحو التمصير مع نظارة الثورة الثانية ، فقد أتخذت إجراءات من أجل المضى فيه ، ففى تقرير من القنصل النمساوى يذكر « أن عرابيًا أصبح له النفوذ القوى والتأثير الكبير فى شغل جميع الوظائف الحالية فى النظارات بمؤيديه ، وغدت القوة العسكرية تثبت جذورها أكثر وأكثر فى البلاد ، لكن

(١) التنكيت والتبكيت ، نفس العدد ، عدد ٢ فى ١٩ يونيو ١٨٨١ .

(٢) Polit, Archiv , Fasz XXXVIII/195, No. 144/5, Dec. 1881, p. 3 .

(٣) المحروسة ، عدد ٤٠٦ فى ٢٤ أكتوبر ١٨٨١ .

مع استمرار هذا الوضع واتساعه ستزداد الحالة خطورة ، والأضرار الناتجة ستسبب كارثة سيكون لها تأثيرها على المصالح الأجنبية »[١] ، لقد هدفت الثورة إلى أن تحل الموظفين المصريين - الذين كانوا موضع ثقتها - محل الأوربيين ، وكان هذا ما سعى إليه قادة الثورة إذ وافق اتجاههم وهواهم ، فنجد لعرابى خطابًا يهاجم فيه الأجانب وتحكمهم فى الوظائف وحرمان المصريين منها « هم الربويون الذين امتصوا ثروة المزارعين بالربا الفاحش ، واغترفوا خيرات البلاد غرفًا مع سوء المعاملة لأهلها ، وهم الأجانب المتوظفون فى أعلى المناصب وغيرها بمرتبات باهظة ، الشاغلون لمعظم المصالح الأميرية حتى انجبرت الحكومة على رفت أبناء الوطن منها ، وهم الذين بأيديهم زمام الحكومة من المسلمين غير المصريين المتغلبين على ما ليس لهم بحق ، فهؤلاء الآخذون بمقاليد الأمور لا يرون فى أعينهم إلا أن يروا المصريين دائمًا فى أسفل درجة من التأخر والقهر ، حتى يستقيم لهم أمر التغلب والاستعباد لأهل البلاد »[٢] .

وعندما أنيط لمجلس النواب مسألة الموظفين الأجانب ورواتبهم ، لمسنا الدور الذى قام به أعضاؤه تجاههم ، وخاصة فى مصلحتى التأريع والجمارك ، كذلك خضعت ترقياتهم وفقًا لاستحقاقهم أثناء نظارة الثورة الثانية ، ومضت عملية التصفية ، فتذكر صحيفة التيمز « فصل أمس أربعة موظفين أوربيين من نظارة المالية بدون إنذار ولا سبب موقع عليه ، كما وزع منشور فى النظارة ينص على أن تكون جميع المراسلات باللغة العربية »[٣] ، وعندما ثبت عجز بعض المدرسين الأجانب وعدم خبرتهم قام عبد الله فكرى ناظر المعارف بفصلهم من الخدمة[٤] .

ومن بين الأوراق المضبوطة لدى منازل الثوريين بعد الهزيمة ما يدل على الشعور الذى انتاب مصر تجاه الأجانب ، الذين بسطوا نفوذهم حتى على الوظائف الإسلامية « الخواجة أنطون كرابيجو الأرمنى نسيب الخواجة كركور بمصر وهو لمعرفته برياض باشا قد صار ترتيبه ناظرًا لقلم قضايا محافظة بورسعيد بماهية شهرى ٢٠٠٠ قرش أى عشرون جنيهًا مع أن المحافظة لم يسبق لها ترتيب ناظر قلم القضايا ، وتحكمه فى قضايا المسلمين الذى لا يعرف فيها أصول ، وأن قضايا المسلمين لا يعرف حكمها شرعًا وسياسة إلا من هو منهم ، من أجل هذا يكون إبطال

---

(١) Arch. de Cour, de maison et d'etat, Fasz XXXI/9, No. 60, 13 Mars 1882 .

(٢) Broadly , The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II .

(٣) The Times , April. 15, 1882 .

(٤) النديم ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

معاش هذا الأجنبى »[١]، معنى هذا أن أخضعت الثورة الأجانب لثورة الفصل ، بعد أن كانوا هم المتحكمين فى المصريين ويتم فصلهم على أيديهم ، وتمضى هذه المسألة ودائمًا تقرن بإحلال المصريين فى وظائفهم « ورفت الخواجة ماكولوج وكيل التلغراف ببورسعيد لحجزه إيراد التلغراف بطرفه وتعصبه للإنجليز ، وتعيين بدله من الوطنيين بمعرفة سلامة بك باشمهندس عموم التلغرافات »[٢] .

وأعلن الموظفون المصريون الثورة على رؤسائهم من الأجانب ، وخرجوا عن طاعتهم وعصوا أوامرهم ، فيشكو الخواجة صيون وهو إنجليزى إلى الخواجة فكارى وهو إيطالى ومفتش لخفر السواحل أحد الموظفين بأنه عندما قال له « لا تكلم أحدًا أثناء الشغل ، رد بقوله إنه يكلم مسلمين لا نصارى ، وفزع علىّ بعصا ، وعندما قلت له يروح الكبرى امتنع عن التوجه وقال إنه يمشى على كيفه »[٣] ، هكذا وصل الأمر للتطاول بالضرب على الرؤساء الذين طالما أذاقوا المصريين الأمرين ، وقد كان عدد موظفى مصلحة خفر السواحل حوالى ٤٢ موظفًا مصريًا . وبالرغم من معرفة الأجانب أن مصر تمر بعهد ثورة ويجب أن يتخلوا عن جبروتهم فإنهم فصلوا هؤلاء الموظفين ، فعارضوا وارتفعت أصواتهم ، وأرسلوا إلى عرابى ، فعلى الفور اهتم بذلك وأجرى ما فى صالحهم ، وتتابعت القرارات لتدور الدائرة على الأجانب ، ففصل العاملون منهم بالهندسة سواء بأجر يومى أو دائمون ، وأوضح تقرير الفصل أن هؤلاء الأشخاص « غالبهم غير لازمين »[٤] .

وقد كان أمل الموظفين كبيرًا فى إخراج أندادهم الأجانب ، ومع الثورة جاء التصريح بأنه قد حان الوقت لطردهم من الخدمة واستبدالهم بالمصريين بعد أن أيقنوا موقفهم العدائى ، وبعد أن تنفسوا الصعداء وأرادوا أن يستردوا كرامتهم .

وتمت الوحدة بين الوظائف بنوعيها المدنية والعسكرية وتعاون الجناحان منم أجل الوقوف أمام التسلط الأجنبى والتيار المعارض ، فاشترك العسكريون مع الداخلية فى الحراسات العامة ، وشغلوا وظائف مدنية وإدارية مختلفة ، ووضع التآلف والود بينهم وبين المدنيين ، فانتظمت الأعمال وقل الفساد الذى تميزت به الإدارات فى فترة ما قبل الثورة ، وأعطت الثورة للموظفين الأهمية الكبرى والصفة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤ ، دوسيه ٣١٨/ب .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٣ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٦ ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٦ .

البارزة بعد العسكريين ، وذلك عقب أن استبعدت أصحاب الوظائف وخاصة العليا كالمديرين المعروفين بولائهم للحكم المضاد . ففى خطاب مرسل إلى حميد أبو ستست يسجل « بلغنا أنه جارى عزل المديرين الذين هم من حزب الخديو »(١) .

وكان لسياسة الثورة فى عملية التنقل المستمر فى الوظائف أثر فى إصلاح الحال ، ففى مديرية البحيرة تغير ثلاثة مديرين واثنان من المفتشين من نظارة المالية وثلاثة وكلاء للمديرية وثلاثة باشكتبة فى سنة واحدة(٢) ، وأعطت معظم الوظائف للمصريين تطبيقًا لمبدأ الثورة وخاصة الوظائف العليا ، فكان لأصحابها النشاط المثمر فى خلق ائتلاف حى ، جمع الأعيان والعمد والمشايخ والتجار والأهالى فى إطار موحد لكل مديرية ، وكثيرًا ما كانوا يقيمون الاحتفالات والاجتماعات من أجل إذكاء الروح الثورية لقوى مصر الاجتماعية .

وأفرجت الثورة عن الموظفين الذين كانت يد رياض قد اعتقلتهم وسجنتهم ، فانصفتهم وكرمتهم مثل محمد أفندى فنى ، الذى كان ناظر قلم ترجمة المالية ، فعينته الثورة مترجمًا فى مجلس النظار ، وصدرت الأوامر إلى المحافظات « بعدم نقل ولا رفت ولا ترقية ولا قيد أحد ما مطلقًا من عموم المستخدمين بالحكومة ، إلا بعد المخابرة مع ديوان الجهادية والتصريح بما يراه »(٣) ، وهكذا أصبح الموظفون فى حماية العسكريين ، كما كان ذلك درعًا للأخطار التى كثيرًا ما تعرضوا لها .

ونرى الجرأة والشجاعة تنتاب الموظفين ، فيعرفون أن لهم حقوقًا ، وهناك من يقف بجوارها لكى يردها لأصحابها ، فأوراق نظارة الداخلية تفيض بطلبات موظفين لصرف استحقاقاتهم حتى عن وظائف كانوا يشغلونها فيما مضى ولم يتحصلوا منها على حقوقهم ، وقد كان لمجلس النواب نشاطه الملحوظ تجاه نصرة الموظفين ، فيستقبل الشكاوى ويناقشها ، منها موظفون مفصولون ويريدون العودة ، ومنها من يريدون رفع مرتباتهم ، وقد أحيلت هذه الشكاوى على الداخلية للبت فيها وإعطاء كل ذى حق حقه ، كما احتوى بعضها على الثورة ضد الأجانب والجهر بظلمهم والمطالبة بإيقافهم عند حدهم وردعهم « فمحمود أفندى عدلى أحد

---

(١) المصدر نفسه : محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ب .

(٢) Egypt, No. 7 (1882), Inclosure 2 in No. 157, April 22, 1882, pp. 112, 113 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٩٢ . محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ : ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ .

المعاونين بمركز أبو حمص يجهر بالشكوى من التطاول الذى وقع عليه من الخواجة إسكندر دوسكويج حماية النمسا والمجر » وفى الحال تجرى نظارة الثورة التحريات والتحقيق فى الأمر[١] .

ونجحت الثورة فى نصرة الموظفين المصريين وإبعاد التسلط الأجنبى إلى حد كبير ، فيرسل ماليت إلى وزير خارجيته لينقل إليه الحسرة والألم اللذين غمرا الأوربيين ، ويصف وفود الموظفين منهم الذين زحفوا أفواجًا إلى الإسكندرية من أجل الرحيل[٢] .

ولم يكن الأوربيون وحدهم التاركين لمصر ، أيضًا كان هناك بعض من الأتراك والشراكسة الذين احتلوا مكانًا من الكراهية فى قلوب المصريين ، وعندما وجهت إليهم الثورة انتباهها ، رأى البعض أنه من الصعب الاستمرار على الأرض المصرية ، وكان أغلبهم من الشبان المثقفين الذين « يتحصلون العلوم الرياضية والحربية » ، فطلبوا السفر ، وكان الترحيب والموافقة ، ومما لا شك فيه أن تصرفات رجال الثورة أثارت العنصر التركى وزادت من حنقة عليهم ، فيقول ثابت باشا مندوب الخديو بالآستانة إلى الخديو « وقد دلت التجارب على أنه فيما بعد سيكون من اللازم الالتفات إلى عدم رفع الوطنيين المصريين إلى رئاسة الوظائف الملكية ، أو إلى درجات الضباط العظام ، وقد كان هذا رأى المرحوم محمد على باشا »[٣] ، وبذلك انتقمت الثورة من أعدائها ، وقدمت لأصحابها حقوقهم ونصفتهم على من أذلوهم زمنًا طويلاً .

وأصبح لابد من رد ذلك العطاء ، ولم يتوان الموظفون عن تقديم كل شىء من أجل ثورتهم ، وقد حفلت أوراق الثورة العرابية بفئاتهم وشرائحهم المختلفة - محافظين ومديرين ووكلاء مديرية ومهندسين وقضاة وأطباء وصيادلة ومعاونين ومدرسين ونظار أقسام وكتبة وعاملين بالمصالح المختلفة - واشتراكهم الفعال فى الثورة .

أما عن المحافظين ، فالمصريون منهم خدموا وطنهم إبان الثورة وكانوا معها ، بينما غير المصريين تخلوا عنها وطعنوها بعد أن كانوا فى البداية لهم موقفهم المؤيد منها ، ووضع الثوريون إمكانيات محافظاتهم تحت تصرف الثورة ، ففى محافظة

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٨ ، ٩ يوليو ١٨٨١ ، محفظة ٤٣ فى ١٢ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) Lords, Vol. CCLXXI, June 23, 1882, p. 186.

(٣) محافظ الأبحاث، محفظة ١١٦، عابدين محفظة ١٦٤، ملف ثابت باشا، وثيقة٣٧، وثيقة ٧٣ .

العريش كانت عملية المجابهة الحربية والدفاع تتطلب مجهودًا وافرًا من المحافظ ، فقام به خير قيام حتى إذا هاجم الإنجليز هذا الشاطئ أمكن للمنطقة صد الهجوم، وكان عليه إعداد الأهالى والبدو منهم إعدادًا كاملاً للتأييد الثورى ، فتذاع يوميًا أخبار صحيفة الطائف » ويصير تلاوتها بين الأهالى والمستخدمين بقصد الهيجان » وكانت برقياته تنهال على «مركز القيادة بالتأييد والتشجيع » الدنيا امتلأت بالسرور والأفراح ، وأن الدعاء مستمر على المنابر »[1] .

وكان المديرون ثوريين فألهبوا نشاط مدرياتهم ، وبفضلهم تم جمع الأنفار المطلوبة من المديريات ، وقاموا بتنظيم المتطوعين ، وفورًا يلبون نداءات الطلبات العسكرية التى تشحن مع التبرعات إلى مراكز القيادة[2] ، كما شنوا حملات الجهاد المكثفة فى مناطقهم ، وأسهموا بكل مجهوداتهم من أجل الثورة ومعروف أنهم أحبائها ، فقد كان عرابى المعين لهم منذ البداية ، لذا فمنتظر منهم القيام بهذا الدور . وكان إسماعيل بك رأفت مدير المنيا قد أعطى خير مثال لمدير ثورى ، جاهد بكل قواه من أجل نجاح الثورة ، فعندما تصل البرقيات إلى المديرية التى كان يطلق عليها « بشرى » ولو كان ليلاً . يتم إطلاق المناداة بسوق البندر وشوارعها بطلب الاجتماع ، فيحضر الأعيان والتجار والحرفيون » وجميعهم يتوجهون لطرفه ويتلو عليهم : إن عرابيًا منصور ، وأنه سيكون ولى الحكومة المصرية ، ويأمر بالطواف بالبوارق والطبول فى شوارع وحارات بندر المنيا العمومية والخصوصية ليلاً ونهارًا ، والصياح بكلام نظمه قاضى المديرية الشيخ بخيت :

يا مولانا يا عزيز ... أهلك دولة الإنجليز

يا مولانا يا بارى ... انصر باشنا عرابى

ويأمر مدير المنيا بإحضار بعض من الكلاب والخنازير وربط أعناقها بالحبال ، وجعلها تدور مع الأولاد فى الشوارع ، أحدها أسود على رأسه قبعة باسم سيمور الإنجليزى والثانى باسم توفيق والثالث باسم سلطان ، وبالفعل تعدم شنقًا بعد تعذيبها وإحضار بدلها لتتكرر العملية نفسها ، وعندما أشيع فى ذلك الوقت أن سلطان سيحضر إلى المنيا مع أتباعه الخونة ، أمكن لإسماعيل رأفت أن يكون جبهة دفاعية وهجومية لتخرج للقاء الأعداء ، وأعطى الشمع للإنارة

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤٦ .

فى حالة مرورهم ليلاً ، « وحتى بعد النهاية كان يردد أن عرابيًا باشا لا يمكن انهزامه »[١] .

كذلك كان موقف وكلاء المديرين ، يعقدون الاجتماعات ويجتمعون بالشعب ليلاً ونهارًا ، وينشرون الأخبار البرقية بنصرة عرابى ، ويحمسون الأهالى ويفهمونهم أن عرابيًا سيكون الحاكم المصرى لمصر ، ولدرجة أنه عند صدور أمر عصيان عرابى « لم يكن لينشر فى وقته »[٢] .

ومارس بقية الموظفين نشاطاتهم ، فتعددت الخطب التى كانت تلقى فى المساجد والاجتماعات ، وكان لذلك أثره فى يقظة وتحميس الحمية والغيرة الوطنية، ففيها يُعرض ما أصاب مصر ، وما نكبت به من ضرر على يد غير المصريين من الأتراك والأوربيين « الذين يرغدون فى المعيشة الطيبة ومسيطرين على البلاد » ، وكان منها منصبًا على الدعاء لنصرة عرابى وهزيمة الأعداء « لأنه هو المخلص والمنقذ مما أحاق بمصر » وأيضًا الدعاء للحزب الوطنى بالفوز الذى هو الأمة كلها « ففى أثناء خطبة الجمعة بالحسين ، قام أحد الموظفين وقال ثلاث مرات : اللهم أنصر الحزب الوطنى الحر »[٣] .

وأسهم الكثير من الموظفين فى المشاركة بكتابة المقالات ونشر القصائد فى الصحافة التى هاجمت الحزب المعارض وعلى رأسه توفيق ، وأيدت خطوات الثورة وقادتها ، وفى اجتماعاتهم ولقاءاتهم انصبت أحاديثهم على بيان الظلم الذى تعرضت له مصر على يد أسرة محمد على ، وتمنوا زوال هذا الملك من أيديها ، وقد تعرض إسماعيل لهجوم عنيف ، إذ عدوا سياسته هى التى جلبت الأجانب والمصائب لمصر ، وفى مكاتبهم الحكومية نزعت صور توفيق وكسرت ، وعلقت مكانها صور عرابى ، كذلك تولوا عملية التختيم فى مناطقهم على محاضر ضد الخديو وخيانته ، وأعلنوا عدم الرغبة فيه كحاكم لمصر ، ولم تكن تلك المحاضر ضد توفيق فقط ، أيضًا ضد الأجانب ، والمطالبة بإنهاء تحكمهم فى مصر[٤] .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٩ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٦ ، محفظة ١٥ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣١٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٩ ، محفظة ١٨ ، دوسيه ٤٧ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٥ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٧ ، دوسيه ١١٠ .

ولم تخل مراكز القيادة من وجودهم ، وترددوا على ميادين القتال يعلنون التمنيات بالنصر ، ويرفعون من معنويات المحاربين ، ويظهرون التأييد الكامل لخطوات الثورة ، كما تولوا توزيع صحيفة الطائف على أحيائهم ، ومنهم من يقوم بدور المعلم فيسهرون الليالى لقراءتها وشرح ومناقشة ما فيها والتعليق على أحداثها، وكان مصطفى أفندى نور حكيم بيطرى مديرية المنيا يتوجه ومعه الصحيفة إلى سوق البندر ويتنقل بين الدكاكين ويقرأ بأعلى صوته « أيها التجار والأعيان اسمعوا هذه البشرى ، إن جيش عرابى منصور ، وإن كافة الممالك العربية مثل تونس وطرابلس الغرب وبلاد الحجاز ومسلمى الهند وبر الشام أخذتهم الحمية الدينية ، وخابروا عرابى باستعدادهم للحضور معه لمساعدته ، وإن مصر هى للعرب لا للترك ، وإن المملكة المصرية ليس بها سوى عرابى الجارى منه المقاومة والمدافعة لحفظ الوطن والدين » وقد اشتهر هذا البيطرى فى منطقته بأنه « قاموس الأخبار »[1] ، وبذلك وضح الشعور القومى المتأصل فى الثوريين .

وكان على الموظفين دور التعبئة النفسية لقوى الشعب ونشر أنباء الانتصارات من أجل الوقوف أمام المعسكر المضاد حتى لا تعطى له الفرصة للعمل على الهزيمة وعدم بلبلة الأفكار ، فكانوا يعدون جميع ما يورده عرابى انتصارات ، ويشجعوا أهالى مناطقهم « بالطواف بالطبول والبيارق فى شوارع البندر ينادون بنصرة عرابى وأنه امتلك الظفر » ، ويذيعون أن الجيش فى غاية القوة وأن قواته متدربون على فنون العسكرية وأمور المحاربة مثل « محمود باشا سامى وعبد العال أبو حشيش وعلى الديب وعلى الروبى ومحمود فهمى الذى رسم خطوط الاستحكامات المتينة ، وأن العدو لا يمكنه امتلاك الفرصة فيها ، وأن دولة فرنسا عارضت دخول المراكب الإنجليزية ترعة السويس ، وأن المسيو دليسبس أقام الحجة لدولته على ذلك ، وأنه صار سد الترعة الإسماعيلية وترعة المحمودية لعدم وصول مياه النيل إلى الإسماعيلية والإسكندرية ، وذلك يضعف قوة المحاربين ضد عرابى »[2] .

هذا بالرغم من أن بعضًا منهم قد نال الأذى من الرافضين أمام ثوريتهم ، فبينما كان أحدهم يشتعل حماسة ويدور بالشوارع ويدعو بالنصر للثورة وقائدها

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٢ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ ، دوسيه ٣٢١ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٩ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٥ ، دوسيه ٢٧ .

« فما كان من مأمور محطة بندر منوف • وهو شركسى - إلا أن أخذه وأجرى ضربه ثم سجنه »[١] ، لكن لم تنجح اليد المعارضة من وقف ذلك الحماس الثورى الذى استمر حتى النهاية ، وكان من يرى منهم إشعاعًا للخيانة يمضى فى القضاء عليه ، فمعاون هندسة المنيا « عندما يرى المروء من أحد وميله للخديو أو أعوانه كان يتهدده ويتوعده بالأضرار بل ويكتب فيه المحاضر »[٢] .

أما عن البعد السياسى والاجتماعى لتلك الفئة ، فعندما كثرت الاجتماعات فى المنازل التى أصبحت مقرًا لمنتديات سياسية ، وشارك فيها العسكريون ، أثيرت المسائل السياسية ، وكان لرجال القانون وخاصة القضاة الدراية الوافية فى إدارة المناقشات[٣] ، ووضحت الإرادة فى إسقاط النظام القائم ونوال مصر حريتها التى حرمت منها ، فيصرح أحد الموظفين لأهل منطقته « إن زمن الاستبداد قد انتهى وأن الحرب دينية ، وأنه يجب على كل مسلم المساعدة للانتصار على النصارى وقطع دابرهم من القطر ، وأنه بانتصار عرابى يصير رفض حكم الترك ويتولى عرابى على القطر ، وذلك حتى يكون الوالى من أهاليه ، وينقطع أمل الأورباويين فى العودة إلى مصر ، وأنه فضلاً عن إضاعة ديونهم يصير أخذ أملاكهم ويصير القطر حرًا »[٤] .

وعرج الموظفون على بعض من كبار الملاك بعد أن ظهر موقفهم العدائى للثورة وخيانتهم وانضمامهم للمعسكر المضاد ، فترتفع أصوات « التنديد بسلطان باشا وعلى مبارك باشا وغيرهم من الذوات المخلصين للخديو على انحيازهم وإقامتهم بإسكندرية ، وأنه صار ضبط مبلغ من النقود فى منزل على باشا مبارك تنفع الحرب ، وسلطان باشا عنده غلال تؤخذ لمؤونة العساكر »[٥] ، فكان ذلك تعبيرًا عن داخلية الموظفين وكرههم للخيانة والطبقية ، وتجنيد كل شىء لميدان الحرب ، ووضع ذلك فوق كل الاعتبارات . وبهذا لم يختلف موقفهم عن بقية قوى مصر ، بل نلمس الالتحام التام ، فالموظفون كونوا وحدة جمعت الثوار من أجل نجاح الأهداف وتأييد الخطوات المدعمة ، فدائمًا ما كانت الاجتماعات تضم الشرائح المختلفة من المجتمع .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٦٤ .
(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ .
(٣) معية سنية عربى ، مجموعة رقم ٥١ ، الإفادات الواردة للمدية رقم ٨٦ ، ص ٧٥ .
(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٩ .
(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ .

وقام الأطباء بتسهيل المهمات العسكرية من إعطاء شهادات وخلافه ، وأدى البيطريون مهمتهم وأرسلوا الإعانات من المواد الغذائية والأخبار إلى المعسكرات ، وفرزوا الخيول والبغال المطلوبة للجهادية، وكان للصيادلة دورهم الثورى ، فالصيدلى السكندرى محمد ماجد ساهم بخطبه وحماسته مع جمعية الشبان للدرجة التى أقلقت عمر لطفى لإنصبابها فى الهجوم على الأجانب ، وطلب رسميًا منع ذلك ، والصيدلى أحمد راتب بدمياط كان من بين التهم التى وجهت له أنه « مهيجًا للأفكار» إذ كان يعد أهالى دمياط ويشجعهم ويحثهم على المضى فى الثورة[1] .

أما المدرسون ، فقد كان لهم موقفهم وخاصة مع تلاميذهم ، فغرسوا فى قلوبهم وملأوا أذهانهم وغذوا أرواحهم بالثورية « مما جعل هؤلاء التلاميذ فى حالة هيجان »[2] .

وكان الموظفون المسيطرون على المواصلات وخاصة البريد يقومون بمجهوداتهم فى هذا المجال ، فتم التعاون بينهم وبين المطبوعات ، « فكان مأمور إدارة عموم البوستة يقوم بفتح الخطابات والإطلاع عليها خاصة ما كان يأتى من الآستانة والشام وأوربا مع كافة الجرائد ويضعهم داخل أكياس ويحجز عليهم ويختمهم ويوصلهم إلى قلم المطبوعات »[3] .

وعندما قررت قيادة الثورة فى آخر الأمر قطع المواصلات فى الميدان الشرقى لإعاقة تقدم الإنجليز ، وصدرت برقية عرابى « حالاً يصير رفع قدر أربعة وأربعين جوز قضيب من سكة الحديد الموصلة للزقازيق ، وقطع الجسر قطعًا مهولاً ، وإطلاق المياه ، ويكون ذلك من جهة القنطرة » فيسرع المهندس على أفندى حسن ويأخذ قطارًا مخصوصًا ويحرق كوبرى الشرقاوية ويهدم كوبرى طلخا[4] ، لكن لم يتم المخطط حيث كان الوقت متأخرًا .

---

(١) المصدر نفسه ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٩ ؛ محفظة ٧ ، دوسيه ٣٤ ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠١ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٦/ب .

كذلك قام الموظفون بدور فعال فى مسألة المناداة بالتطوع للدفاع عن أرض الوطن التى دنسها الأجانب ، وأعلن القضاة الجهاد وأظهروا أنها حرب دينية وأن « من مات بالمحاربة يموت شهيداً ، وأن أفضل الأعمال بعد الإيمان الجهاد فى سبيل الله »(١) ، كذلك كان من بين المنادين بالجهاد ذلك الموظف معاون الداخلية المدعو سعد أفندى زغلول « ففى اليوم الذى وقع فيه ضرب الإسكندرية كان الشيخ سعد زغلول وهو أحد أحباب محمد عبده ينادى بالجهاد الدينى »(٢) ، هذا ولم يقف دورهم على التحميس فكان منهم من يحضر المجاهدين إلى أرض المعركة(٣) .

وشمل النشاط والتشجيع مسألة التبرعات . فتولوا جمعها من أجل الجيش المدافع عن أرض الوطن(٤) ، وأسهموا بالأموال حيث لم يكن الموظفون يملكون الحبوب والبغال ، وامتلأت صحيفة الوقائع المصرية بأسماء الأفندية المتبرعين ومنهم عدد كبير من الأقباط(٥) ، ولم تكن تقدم الأموال للجيش فحسب ، ولكن أيضاً لمهاجرى الإسكندرية ، وكان عن طريق اشتراك الموظفين فى الجمعيات الخيرية تتم التبرعات باسمها للقوات المحاربة ولإعانة المهاجرين . وعندما قرر « خصم ٥٪ من مرتبات الموظفين وأصحاب المعاشات من جميع موظفى الحكومة لتكون بمثابة إعانة للمهاجرين النازحين إلى القاهرة من الثغور ، وتوزيع الموظفين المهاجرين من الإسكندرية على مثيلات أعمالهم بمصر »(٦) ، رحبوا بذلك وقدموا كل مساعداتهم لتنفذ قرارات الثورة .

أما عن تقديم النفس للحرب والتضحية بها من أجل مصر ، فقد اشتركت الأعداد الكثيرة من الموظفين ، منهم الشباب مثل هؤلاء « الذين توجهوا إلى حضرة

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ .

(٤) المصدر نفسه ، دوسيه ٢٧ ، دوسيه ٣٦ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨٨ .

(٥) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ أغسطس ، عدد ١٤٧٥ فى ٢٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٨٨ ، محفظة ٣١ ، دوسيه ٢٥ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٩ فى ١٦ يوليو ، عدد ١٤٦٠ فى ١٧ يوليو ، عدد ١٤٦٣ فى ٢٢ يوليو ، عدد ١٤٦٨ فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ .

قائمقام ٧ جى بيادة بالقشلاق الأبيض برشيد ، وأظهروا لحضرته حميتهم الوطنية وغيرتهم الدينية ، والتمسوا من حضرته أن يؤذن لهم بتعليمهم أصول العسكرية ، وكيفية حمل السلاح والبعض من الفنون العسكرية ، فأذن لهم حضرته ، وعين من يكفى ليعلمهم من الصف ضباط فى كل يوم ساعتين ونصف »[١] .

وكثرت الطلبات للجهادية رغبة فى الانخراط فى سلكها ، وقد فاضت بالحماس إذ يسجل أصحابها « إن الإسلام ومحبة الأوطان والحرص على شرف البلاد مما يوجب علينا أن نكون عضد إخواننا بالجهادية أعز الله نصرهم ، نساعدهم على ما يوجب حماية حوزتنا ووقاية بلادنا من شرور الأعداء ، ولهذا فإننا جميع الموقعين على هذه العريضة مستعدون لما هو فى استطاعتنا من المساعدة ، ونحن رهناء إشارة نظارة الجهادية المنصورة ، نجيب دعوتها وقت ما تأمرنا معتقدين أن فى ذلك شرف لنا ، وأن كان أقل خدمة يجب أن يتقرب بها أمثالنا إلى الله جل جلاله فى هذه الأوقات جعلها الله أوقات ظفر وانتصار آمين »[٢] . وتوافدت البرقيات على عرابى بكفر الدوار من تلك الفئة فى هذا الشأن .

وكان هناك من تركوا وظائفهم من أجل الالتحاق بالعسكرية ، فقد أرسل على فهمى إلى برنجى لواء بيادة بأن « شاب يدعى محمد أفندى سعيد ومعه كتاب إفادة من ديوان الجهادية يتضمن الأمر بإدخاله فى عداد عساكر الآلاى الذين تحت أمرتنا، وقد كان هذا الشاب مستخدمًا بضبطية الإسماعيلية بماهية شهرية خمسمائة قرش ، ولكن حبه فى خدمة بلاده حبب إليه ترك ذلك والدخول فى عداد العسكريين وإن كانت وظيفة العسكرى ثلاثين قرشًا »[٣] . ومن بين البرقيات التى كانت تصل إلى مركز القيادة من يريد ترك خدمته الوظيفية والعمل فى ميدان الحرب ، بل وصل الأمر إلى التوسل من أجل ذلك « أرجو إجابتى وعدم حرمانى من وجودى ضمن الجيش المنصور » . بينما فضل البعض الآخر التوجه رأسًا بنفسه إلى كفر الدوار « ليقدم نفسه ضمن المتطوعين »[٤] .

---

(١) الفسطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) المفيد ، عدد ٦٦ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤١٧ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ٢١ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣١ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤٢ .

ولم يكن الموظفون الشباب وحدهم المتمتعين بتلك الروح المعنوية العالية والساعين بمختلف الطرق للمساهمة فى الدفاع عن مصر ، فنرى الشاغلين لمناصب القضاة يتلقون تعليمات السلاح داخل المعسكرات ويواصلون التدريبات من أجل الإشتراك فى الحرب ، كذلك قدم أصحاب المعاشات من الموظفين أنفسهم وتطوعوا، فتعددت برقياتهم لعرابى لإعلان رغبتهم ، ثم جمعوا أنفسهم - بلغوا ٤٠٠ من الفيوم - وذهبوا للمشاركة وتلقوا التدريبات « وصار طلبهم إلى ديوان الجهادية لترتيبهم بالآلايات »[١] .

وبالإضافة إلى ذلك هناك المشاركة الروحية عن طريق قراءة عدية يس والبخارى والدعاء ، فقد أرسل قاضى القليوبية إلى من يتبعه بذلك ، وطالب بأن « تتم القراءة بدون لحن فى المساجد والأضرحة والأماكن الطاهرة صباحًا ومساءً بقصد نصرة الإسلام وفك الكرب عن المسلمين »[٢] .

وحتى بعد النهاية ، استمر الموظفون على ثوريتهم وولائهم لها ، فعندما أُسر محمود فهمى ، كانوا يشيدون بقوة عرابى وأنه هدد « إذا مس محمود فهمى ضر ، ففى نظير ذلك يصير معاقبة العائلة الخديوية الموجودة بمصر » وبعد دخول الإنجليز القاهرة ، كانت المناداة باسم عرابى ، فمأمور بندر كفر الزيات لم يكف عن ذلك ، فى الوقت الذى راح فيه موظف آخر يدعى هداية أفندى فى دمنهور « يشيع أخبار تنجمية مضادة للذات الخديوية »[٣] . وبذلك يتبين أن المثقفين كانوا مع الثورة بكل ما يمتلكون من نفس وروح وفكر ومادة ، ولم يتركوا بابًا إلا وطرقوه من أجل انتصار الثورة .

■ ● ■ ● ■

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٢ ، محفظة ١ ، دوسيه ١٦ ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٥ ;

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٩ ، دوسيه ٧٣ .

الفصل الرابع عشر

ملاك الأراضى

... ملاك الأراضى واستمرار التأييد الثورى

يميل الكثيرون فى الرأى إلى انسحاب كبار الملاك من الثورة نظرًا لدخولهم فيها لأهواء معينة ومصالح خاصة ، وعندما انتهت مآربهم ووجدوا أن التيار الثورى جارف خرجوا جميعًا من الميدان الثورى . لكن هذا الرأى خطير للغاية لأنه لو كان ذلك حقيقة ينطبق على البعض فليس معناه أن يعمم على الكل ، فمعروف أن الأتراك الدستوريين قد تراجعوا وانضموا إلى الجبهة المعارضة للثورة ، وهو متوقع ، إذ كيف يستمرون فى ثورة شعارها مصر للمصريين ، كما كان هناك بعض من كبار الملاك أمثال سلطان ومن تبعه وقفوا سدًا أمام تحقيق الإنتصار الثورى لأغراض معينة .

أما باقى الملاك فواصلوا مسيرتهم وقدموا للثورة المعاونة والتأييد، وكانت مصر جميعها بما فيها قوة هؤلاء الملاك تكوّن وحدة متكاملة ، لدرجة أن نينيه يذكر لنا أن «الحزب الوطنى أصبح مصر كله»(*) . وكان ذلك طبيعيًا ما عدا بؤرة المعارضين .

وأوراق الثورة العرابية الكثير منها قضايا تخص كبار الملاك المتهمين باشتراكهم الفعال فى الثورة ، كما نرى أن السجون عقب النهاية قد امتلأت بأصحاب الرتب العالية الذين يمتلكون آلاف الأفدنة، وراحوا يلتمسون العفو «حتى يوالوا زروعاتهم» ، ووصل الأمر إلى أن بعض الباشوات الذين كانوا ضد الثورة منذ البداية وأحباء لتوفيق ، أصبحوا فى معسكرها بناء على إحساسهم بخيانة حاكمهم ، بعد الأحداث الأخيرة والغزو الإنجليزى ، فيقول يعقوب باشا صبرى « إلى أن ضربت الإسكندرية كنت دائمًا فى صف الخديو ضد عرابى ، ولكن الآن وبعد أن انضم إلى الإنجليز

(*) Ninet , Arabi Pacha , p. 165 .

تغيرت الأوضاع » ، وقد أقر تقرير نمساوى بأن « الطبقات العليا فى مصر تكن كل الود لعرابى » ، بينما صرح أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى « أنه من الحق والعدالة ، فإن المتاعب السارية الآن فى مصر تحركها الطبقات العليا أكثر منها الدنيا »[١] .

كان من الضرورى أن يستمر التأييد للثورة ، فكبار الملاك منذ البداية يشعرون أنهم الطبقة المؤهلة لحكم مصر ، تلك التى قاست من « ظلم الأتراك ألوانًا شتى وكظمت من الغيظ ألوانًا شتى ، واستقر فى منطقة شعورها ومنطقة اللا شعور منها، كذلك رواسب كثيرة من هذا الظلم والطغيان ، وكان لابد لهذه الرواسب النفسية من أن تؤثر فى سلوكهم وعقولهم وميولهم وطباعهم »[٢] ، لذلك كان لابد من المضى من أجل تحقيق الأغراض والتخلص من العناصر التركية ، ويجب أن نضع فى الاعتبار أن للوطنية المكانة بينهم ، لكن ليس معنى ذلك أن جميعهم كانوا معتقين لمبادىء الثورة اعتناقًا كاملاً ، حيث إنه فى بعض الأحيان تتعارض مع تلك النظرة الطبقية ، لذا نجدهم فى بعض المواقف معتدلين ولا ينجرفون مع التيار الثورى القوى .

ومضى النشاط الثورى عن طريق اشتراكهم فى الجمعيات التى هى بمثابة تنظيمات سياسية فدعموها بمادياتهم ، ومنها خرجت صيحات التحرر ، وتذكر لنا صحيفة الوقائع المصرية أن جمعية مساعى الخير الدمياطية التى أسسها حسن بك المرقبى وأعضاؤها نحو من ٣٠٠ عضو « كانت تغص بالذوات »[٣] ، وفتح ملاك الأراضى بيوتهم لدعاة الثورة وتابعيها ، ففيها تعقد الاجتماعات ، وكان النديم الشعلة المتقدة لها ، وقد عد كل واحد منهم نفسه رئيس الحزب الوطنى فى منطقته ، ومما لا شك فيه أن تفكيرهم قد تأثر بالمثقفين ، هذا بالإضافة إلى أنه كان يبدو على الكثير منهم المؤثرات الثقافية الأوربية[٤] ، ومن هنا امتزجوا بالتيار الليبرالى المتشرب بالفكر الإقطاعى ، فهم كثيرو الحقد على الأجانب وتسلطهم وخضوع مصر لهم مما سلبهم الكثير ، فيهاجمون فى اجتماعاتهم الصحف الأجنبية وخاصة الإجبشن جازيت تلك التى كانت تنطق بلسان ماليت ، وأساءت للثورة والثوار ، وخرجت منهم

---

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 165 ، الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ رقم ٥٩ ، ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ .

Commons, Vol. CCLXXII, March 13, 1882, p. 764 .

(٢) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٣ ، ص ٢١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٤) Ninet , The Origin of the National Party in Egypt, p. 126 .

التصريحات التى تعبر عن أملهم فى إبعاد السرقة والربا « هؤلاء الخواجات هم أغنياء البلاد وأصحاب البنوك والأموال الذين جاءوا مصر حفاة لكى يسرقونا ويستغلوا فقراءنا ، وذلك الخديو الذى يقف بجوارهم ضدنا » ، ونادوا بالإتحاد والعروة الوثقى « من أجل اللحظة الآتية »(١) .

ومن المحتمل أن هذا الهجوم هو لرغبتهم فى التمتع بمزيد من الثروة والسلطان، ولكن كان واضحًا أن كثيرًا منهم يحمل بين جوانبه القلب الطيب والعطف على الفقراء ، ففى اجتماع عقده أحمد بك أباظة « سرورًا بأيام الثورة وزمان الحكومة القانونية » تكلم فيه النديم عن وجوب مساعدة الفلاح ومعاونته لشدة حاجاته ، ودعا الأثرياء للأخذ بيده وبذل المجهود من أجل استخلاصه من ديونه التى أثقلت كاهله ، وذكر أن عباس الزمر أدى عن أهل بلده خمسة آلاف جنيه لمداينيهم ، فلم يبق واحد منهم مديونًا لأجنبى(٢) . وهذا يدعونا للتساؤل إلى أى حد ساهمت الرأسمالية المصرية أثناء هذه الفترة لخدمة الاقتصاد المصرى ؟

كان من أهداف الثورة انتشال الاقتصاد المصرى من أيدى الأجانب ، وبدأت الخطوات لتحقيق ذلك مع بداية أحداثها ، ففى أثناء انعقاد مجلس النظار نوقش مسألة إنشاء بنك مصرى يتولى المهام الاقتصادية(٣) .

حقيقة أن كبار الملاك لم يقدموا بشجاعة على مثل هذا المشروع ، لكن كان التفكير جديًا فى إنشاء البنك ، وجعل مقره الإسكندرية ، وأعلن أن من مهامه الأولى « مساعدة الفلاح ورفع فاحش الربا عنه »(٤) .

وتذكر صحيفة مصر أن مشروع بنك وطنى مصرى واستغلال الرأسمالية المصرية فيه ، قد عرض على عدد كثير من أمراء البلاد وأعيانها ووجهائها ، فصادف لديهم تمام القبول ، وعرضت أوجه الفائدة والنفع الذى يعود على مصر والمصريين من المشروعات المالية ، وذلك حتى تحرك الهمم وتشجع الإقبال عليه « أن يجمع رأس ماله من سكانه المقيمين فيه ، وتسلم إدارته إلى تجار مشهود لهم بالخبرة والأمانة وعلو الهمة ، ويكون له مجلس إدارة منتخب من المساهمين مع إبقاء الغالبية فيه للموظفين ، وتكون محاسباته ومكاتباته باللغة العربية ، وتنشر ميزانيته لإطلاع المساهمين والجمهور عليها ، ويجعل مركزه فى الإسكندرية لأنها محط تجارة القطر،

---

(١) Ninet , Arabi Pacha , pp. 111 - 113 .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٤٩ فى ٥ مارس ١٨٨٢ .

(٣) Archives d'Etat, Vienne, No. 20, 15 Janvier, 1882 .

(٤) المفيد ، عدد ٢٧ فى ٢٣ يناير ١٨٨٢ ، الإسكندرية ، عدد ١٦١ فى ٢١ فبراير ١٨٨٢ .

ويكون له فروع فى مصر والمديريات والأرياف لتسهيل المعاملة وتقريب المناولة للتجار وأهالى القطر ، ويكون كل فرع تحت مراقبة واحد من أعضاء مجلس إدارة البنك ، وفرعان فى لونده وباريز ، وتكون أشغاله التسليف للفلاح على حاصلاته بأرباح معتدلة ، والتسليف للأعمال الصناعية أى يكون - فى الجملة - بنكًا جامعًا لفوائد البنوكة الزراعية والعقارية والتجارية والصناعية معًا » ، وتمضى فى عرض رأسماله وأسهمه وأرباحه وما سيعود على التجارة والصناعة من فوائد ، ولم تُقصره على أثرياء مصر « يكون أمن مستودع على أموال الوطنيين سواء كانوا من الملاك أو التجار أو أصحاب الرسمايل العظيم أو من أوساط الناس وصغارهم ، لأن ثمن أسهمه الزهيد يجعل شراءها مستطاعًا للجميع »[1] .

وكان الهجوم على الرأسمالية الأجنبية واضحًا ، تلك التى أنشأت البنوك والشركات المالية وأثرت على حساب مصر وتمتعت بالفوائد الباهظة ، ويمضى الحث للرأسمالية المصرية على النهوض لمجازاة الأجانب وانتشال الفلاح وذلك «بتأليف جمعيات زراعية وصناعية وشركات مالية وتجارية تعيد قوى البلاد »[2] .

وبناء على ذلك بدأ التحرك من جانب كبار الملاك للمشاركة فى البنك المصرى الجديد ، لكن الإقبال كان فاترًا ، واهتم عرابى بهذه المسألة ، فهو دائمًا يطالب بالوحدة بين كبار الملاك والعمد ومديرى المديريات من أجل العمل على نجاح مشروع البنك ، وكلف عبد السلام المويلحى بدراسة هذا الموضوع ، واستبعد فكرة إشراك الشوام فيه ، ففى حديث له مع نينيه يبين « إن اتجاهنا لتأسيس مؤسسة قرض زراعية مصرية بحتة بموافقة المجلس النيابى لإنقاذ البلاد والفلاحين من المرابين ، حيث إن كل الاستثمارات مع منشة وقطاوى والكونتات دى زغيب وإخوان عايدة ، هؤلاء الذين التهموا مصر مع إسماعيل »[3] ، ومن هنا يتضح أنه حتى المشروعات الخاصة باستثمار الرأسمالية المصرية والتى كان يريد المشاركة فيها غير المصريين كانت مرفوضة ، ورأت الثورة تطبيق شعارها على كل برامج عملها ، وأخيرًا فلم تساعد طبيعة الرأسمالية المصرية الزراعية على المضى فى هذا الاتجاه الجديد ، وكانت الفترة التى عاشتها الثورة قصيرة فلم تتح لها العمل الاقتصادى والأكثر تنظيمًا إذ أن الأحداث لاحقتها من كل جانب .

(١) مصر ، عدد ١٢ فى ١٥ مارس ١٨٨٢ ، الأهرام ، عدد ١٧ مارس ١٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) Ninet , Arabi Pacha , pp. 209, 210 .

وإن لم يكن ملاك الأراضى قد صبوا إمكانياتهم فى المجال السابق ، فإنهم قدموها من أجل الثورة ، وربما أنه لو نجحت لكان كل ما أعلنت عنه فى برنامجها خرج إلى حيز التنفيذ بمساعدة الرأسمالية المصرية .

ومع الأحداث السياسية للثورة تكون الوقفة الموحدة من الملاك ، فعندما تقع الأزمة مع مذكرة مايو وتصل قطع الأسطولين إلى المياه يرفضون هذه الأوضاع ، ويؤيدون حكومة الثورة ، وقد وضح موقفهم من تلك الخطابات المؤيدة التى أرسلت لقادة الثورة من أثرياء مصر فيسجل أحدها « إن النظارة تكونت بموافقة مجلس النواب وتحت رئاسة محمود سامى حقًا نظارة عادلة أخضعت الحكام للنظام ، ولا نريد حكم الطغاة الذين لا هم لهم إلا تحطيم مصر وتحقيق الهزيمة ، لذا فالرغبة فى العدالة تدعونا لطلب بقاء النظارة ، فنحن نؤيدها بكل ما نملك » ويتابع « إن وجود الأسطول البريطانى فى مياهنا معروف أنه لتأييد المذكرة التى تعتبر خرقًا لفرمانات السلطان وكسرًا لحقوق شعب مصر ، وإنها لتعنى أننا لا نمتلك شيئًا فى بلادنا ، وقد علمنا أن الخديو قد قبلها لكننا رافضون لها ، فإن الموت أفضل لنا على أن نحيا فى ظل الموافقة » . كان هذا التأييد وتلك المساندة قد توافدت من على أرض مصر كلها من الإسكندرية ورشيد والفيوم والغربية والمنصورة والداخلة ، ورغم اختلاف التعبيرات إلا أن الهدف واحد[1] .

وقد تمت مشاركتهم فى صورة واضحة برجوع عرابى إلى منصبه عقب استقالة النظارة ، وعند عودته « كان مكتبه محاطًا بتلك العناصر الأساسية لسكان القاهرة » ، والتى غالبًا ما تكون من الذوات ، إذ تمكن عرابى بمقدرته من جمع قوى الشعب حوله .

وكانت الاجتماعات التى يقيمونها واللقاءات التى تتم على أيديهم ، ظاهرة من ظواهر التعاون الكامل مع الثورة ، فعلى مستوى مديريات مصر جميعها عقدت وسرت فيها الروح الحماسية « كلما كان يحضر عرابى لجهة الزقازيق ، فكان أحمد بك أباظة يتحد معه ، وكان يحضر معه فى العزايم بطرف أمين بك الشمسى وخلافه ، وعبد الله النديم يقرأ لهم الخطب المهيجة لأفكار الأهالى ويدعو لعرابى : يعيش عرابى بطول البقاء والدوام وأن يكون والى البر »[2] ، وضمت هذه اللقاءات العسكريون والعلماء والتجار ، ولم يكن الأمر قاصرًا على إقامة أفراد لتلك الولائم والحفلات ، بل كانت العائلة جميعًا لا يشذ أحد منها على التأييد « فعائلة أحمد

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 173 - 175 .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٢ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ .

مصطفى بك من أعيان مليج منوفية قد أكثروا منها » وامتلأت بخطب التأييد الثوري[1] ، وكثيرًا ما أعد أعيان دمياط منازلهم لاجتماعات العسكريين « ويخطبون فى الأهالى ويحثونهم على الإتحاد »[2] .

وقام ملاك الأراضى عن هذا الطريق بعمل خلايا ثورية ، وكانوا دائمى النشاط والحركة، ووسعوا الدوائر الثورية ، وجذبوا إليهم العمد والتجار « وكان إبراهيم بك الشريعى كل كام يوم قلايل يحضر المنيا ويفضل خمسة أيام أو ستة ويحضر معه زميله محمد جلال ويتحدوا مع إسماعيل بك رأفت ونجاتى بك ، ويعملوا التدبيرات اللازمة سرًا بينهم على ما يقصدون فعله ، فضلاً عن أعمال جمعيات خصوصية ليلاً تارة بمنزل موسى على عمدة الفقاعى ، وكانوا يدًا واحدة ضد الحضرة الخديوية »[3] .

وتبلورت أولى سمات هذه النشاطات فى العمل على إسقاط النظام القائم والتخلص منه ، فلم يخل اجتماع لهم إلا وسب فيه توفيق ، وكانت الصيحات تعلو فيها « الخديو مخلوع » ، وأظهروه بصورة الخائن الذى باع مصر للإنجليز ، وازداد هجومهم على الأسرة المالكة ، وكان ذلك طبيعيًا بعد أن تأصل فيهم مبدأ « مصر للمصريين » فيعدون مساوئ حكامها من أولهم لآخرهم ، ولم ينج أحد من ألسنتهم حتى محمد على ، وتبع ذلك ظهور حقدهم على العناصر التركية « أما أولاد الترك جميعهم نصارى ، والإسلام ظهر الآن فى أولاد العرب بوجود عرابى » ، هذا بعد أكدوا أن ٨٠٪ من أعيان القطر راغبين فى خلع الخديو « والباقى الذين لا يرغبون ذلك هم رعاع الناس والجهلة »[4] .

هكذا كانت نظرتهم لمن امتنع عن تأييدهم وشعورهم تجاه المعارضين ، وترجموا قراراتهم بتوليهم مسألة تختيم الأهالى وجمع توقعاتهم ضد توفيق لإنزاله من على عرشه ، وقد برز فى هذا الميدان أحمد بك أباظة وهو من أعيان الشرقية ، وكان عرابى يميل إليه حتى لقد عينه فيما بعد مأمور عربان الشرقية والقليوبية ، ففى محضر اتهامه « أنه متحد مع العصاة قولاً وفعلاً وبحضوره مع أحمد بك ناشد وأمين بك الشمسى بأى محل يجتمعون فيه يتفاوهون بذم الخديو ومدح عرابى ، وهم متحدون سويًا فى تختيم الناس على محاضر بخلع الخديو »[5] .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، دوسيه ٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٢٦ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٩ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٥ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٦ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٢ .

ومع بداية نذور الحرب كانت وقفة ملاك الأراضى جريئة ، فمضوا فى الحث على استصلاح الطوابى والاستعداد للدفاع عن مصر ، وكانوا من بين المجتمعين الذين قرروا حالة الحرب ، ومنهم صدر قرار مقاومة المعتدين ، ففى خطاب من عرابى إلى الخديو ردًا على طلب الأخير بوقف الحرب يبين له « إن أعيان البلاد قرروا الدفاع عن الوطن» ، وفى كفر الدوار مقر القيادة العسكرية كانت وفود الأعيان لا تنقطع ، ويسجل نينيه قوله « يجتمعون منذ الصباح وحتى المساء ويحضرون بالقطارات من جميع مديريات مصر حتى البعيدة جدًا وكلهم فرح وسعادة » ، جاءوا مع بقية الوفود التى تمثل قوى الشعب المختلفة ليرفعوا من معنوية الجيش المحارب ، ويفوضوا لعرابى أمر الدفاع عن مصر ، وكانوا يأخذون حفنًا من التراب فى أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم فى العمل ، وقد عبر مفتى القاهرة لعرابى « نحن ممثلى أكثر من خمسين ألف من الأعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الأملاك نشكرك جميعًا لأنك توليت بيدك أمر الإسلام والأمة وإنك فى الحقيقة أكبر وطنى فى وادى النيل »[١] .

إذن كان التردد على القواد مسألة مارستها الطبقة العليا ، وأوراق الثورة العرابية تحتوى على تلك اللقاءات التى تمت على أرض المعركة ، فأحمد بك أباظة وأمين بك الشمسى كانا مرابطين يحمسان ويشجعان حركة الجهاد ، كما أن أعضاء مجلس النواب شاركوا فى الأمر وعلى رأسهم « مونى أبو عمر »[٢] ، وكثرت المناقشات فى الأوضاع التى تتعرض لها مصر فى هذه اللقاءات التى دلت على الإتحاد التام والإنتماء الكلى للثورة .

وقام ملاك الأراضى بمجهودات فى محاولات المحافظة على الثورة ، وإبعاد كل ما يسىء إليها ، فقد قُدِّم للمحكمة شهادة من أجانب « خواجات وتجار بندر دمنهور» تتضمن المساعدات التى قدمها لهم إبراهيم الوكيل وقت الأزمة التى وقعت بين المصريين والأجانب ، كما كان للمنشاوى دور فى طنطا ، فقد أنقذ ٥٠٠ من الأوربيين اليهود والمسيحيين فى نفس الفترة ، واستمرت مجهوداتهم للوقوف أمام الحركات المضادة التى هدفت ضرب الثورة ، فكانوا ينبئون المسئولين عما يقوم به البعض من التصرفات كالامتناع عن تقديم الإمدادات للجيش[٣] .

---

(١) المصدر نفسه، محفظة٩ ، دوسيه ٨٠ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ ، Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , pp. 579, 580., Ninet , Arabi Pacha, p. 241 .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ، دوسيه ١٤ ، ، Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 577., Ninet , Arabi Pacha p. 216., Wallace , op. cit., p. 19 .

أما عن التبرعات ودورهم فيها ، فقد وصل إلى القمة ، فلم يبخلوا بمادياتهم على مصر ، فقدموها بنفس راضية حتى أن ما تكلفته الحرب كان محصلاً من التبرعات الاختيارية ، وامتلأت المعسكرات فى كفر الدوار ورشيد والتل الكبير بالغلال والخيول والفواكه والحبوب والأرز والبصل والمواشى والخيام ، وتفيض صحيفة الوقائع المصرية بأسماء المتبرعين الذوات والمتبرعين من أصحاب الرتب العالية وأعضاء مجلس النواب ، حتى النسالة والأربطة تم التبرع بها ، والأقمشة وخاصة البفتة التى قدم منها كميات وافرة ، وقد سجلت تلك التبرعات فى أوراق الثورة العرابية وخاصة البرقيات التى تشير إلى تبرعات ملاك الأراضى على طول أرض مصر وكانت بكميات كبيرة ونسب عالية إذا قيست بتبرعات أفراد الشعب .

وكان لكبار الملاك من المديرين - عثمان باشا غالب ، وأنيس باشا ، وخليل بك عفت وأحمد بك ناشد وإبراهيم بك زكى - إسهامات فعالة فى إرسال التبرعات لقيادة الجيش ، ودائمًا ما كانت مصحوبة بالرجاء « يلتمسون الإذن بقبولها بشئون الجهادية »[1] ، ومن هذا يتبين أنه لم تكن هناك أية ضغوط من جانب قواد الثورة وإنما عن طيب خاطر قدمت ، وكالعادة فيقوم عرابى بالرد على هؤلاء ليقدم الشكر على ذلك العمل الذى برهنت فيه الأمة على أنها يد واحدة . وهنا يجب أن نذكر أنه كان لأثرياء أقباط مصر مساهماتهم فى هذه العملية ، لدرجة أن أحدهم قدم « ثلاثة آلاف قنطار من حطب السنط »[2] ، فقد عملت الثورة على جعل الارتباط متينًا بين المسلمين والأقباط ، إذ كثرت تصريحات رجالها بأن الدين للديان والوطن للجميع والدم واحد فالأب آدم والأم حواء ، وحملت الصحافة لواء التدعيم « يعلم أهل الوطن جميعًا أنه لا فرق بين مسلمين وأقباط » ، وأشادت صحيفة المفيد بوطنية أقباط مصر وأظهرت إتحادهم مع مسلميها[3] ، وقد صرح أحد الرؤساء الروحانيين أثناء الحرب « كلنا أبناء الوطن »[4] ، وبذلك تم التعاون المشترك .

وبالنسبة للأموال ، فقد كثر التبرع بها ، ووضع حسن باشا الشريعى كل همته من أجل تسليح الجيش وإمداده بمتطلباته « ففتح رصيدًا كبيرًا من أموال

(١) المصدر نفسه ، دوسيه ٥ ، محفظة ١ ، دوسيهات ١٥ ، ١٨ ، ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٤ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٧ ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٩ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٣ فى ٩ سبتمبر ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٦٣ فى ٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٤٠ .

الوقف لذلك »[1] ، وفى نفس الوقت استطاع الملاك بحكم ثقلهم المادى والأدبى فى المجتمع أن يتولوا حث الأهالى على التبرعات ، فإبراهيم الشريعى « كان يتبرع بالخيول ويحرض الناس مع بعض أشخاص إتحدوا على مساعدة الجيش ، وأحدث توريد نقود للجيش مع الأهالى بدل الخيول » ، وشاركه أحمد أباظة فى تنظيم هذه المسألة « وكل من تقابل معهم يخبروه بأن يتبرع بما يملكه للدفاع عن وطنه » ، وكانت أغلب أوقات الشريعى مقيمًا فى الزقازيق مكونًا قوة مع أمين الشيمى ومديرى المنطقة من أجل « تنجيز طلبات العسكرية » ، هذا وقد وُجدت المعاونة والمآزرة الكاملة من الأمة « فالجميع يتسابقون بالتبرعات » ، وحتى عندما فرضت ضريبة عشرة قروش على كل فدان « على أن تحسب الأموال لمن يدفعها من ضرائب الأطيان التى تستحق عليهم فى المستقبل »[2] لبى الجميع ذلك النداء عن طيب خاطر .

وكان للنساء الأرستقراطيات زوجات الباشوات نشاط متقد فى الميدان الحربى، فشكلوا الجمعيات لعمل النسالات للجرحى ، وأصبح دورهن كبيرًا فى التمريض ، فشاركن فى إسعاف جرحى المعارك ورعايتهم ، وقدمن من لدنهن القطن والأربطة والغيارات على طول خطوط القتال ، كما تبرعن بحليهن لتكون ثمنًا للعتاد الحربى ، هذا بالإضافة إلى تلك الأموال التى قدمنها[3] . إذ استحوذ الغضب على الجميع ، وراح كل يساهم وفقًا لمقدرته وهو سعيد بتلك المشاركة « وتباهت الأمة المصرية ، وتفاخر سكان المدن والأقاليم فى جميع أنحاء القطر المصرى فى جمع الإعانات اللازمة للعساكر ، وكذا الستات والهوانم والبرنسات »[4] .

وبذلك لم يحدث فى تاريخ أمة أن غطت تكاليف حربها مما قُدِّم من أفرادها ، وحتى إيرادات الدولة التى تعتبر من حق الحالة الحربية كان يذهب بعضها للخديو ، ففى خطاب مرسل إلى عرابى من لواء ٣ ، ٤ بيادة يخبره « تأكد لنا أنه صار إرسال نحو الأربعة آلاف جنيه من إيراد فنار بورسعيد إلى توفيق باشا بالإسكندرية ، وذلك

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، مجموعة ٢٧/٣١ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، ص ٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ ، أحمد عرابى ، مذكرات ، جـ ٢ ، ص ٣٣٥ .

(٣) الوطن ، عدد ٢٤٦ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ ، Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 232 , 373 , 502 ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٣ .

(٤) محمود فهمى ، المصدر المذكور ، ص ٢٢٧ .

بواسطة ليمان ريس البور بما أنه إنكليزى ، وحيث إن الوطن أحق بهذا فنؤمل صدور الأوامر بما يوافق نحو ذلك ورفع ليمان ريس الإنكليزى »[1] .

ولم يبخل ملاك الأراضى على المهاجرين السكندريين ، إذ فتحوا بيوتهم واستأجروا أخرى لاستقبالهم وقدموا لهم جميع المساعدات « فنجل المرحوم راتب باشا فتح أبواب فضله لمائة وستين من المهاجرين وأسكنهم منازله وتكفل بالمأكل والمشرب ، ومحمد بك السيوفى ومذكور النمرسى كل واحد أخذ ١٢٠ من المهاجرين وأنزلوهم فى محلات استأجروها لهم ، وعلى بك القريعى أخذ ٥٠ من المهاجرين إلى المنصورة وأنزلهم منازل السعة ، وعلى أبو سلامة بك هو وجملة وجوه البندر قاموا بإنزال ما يزيد عن المائة »[2] .

أما عن مسألة تطوعهم فى جيش مصر المحارب فلم يكن ذلك التيار جارفًا كبقية قوى مصر لكنه أثبت وجوده ، فكانت ترد على عرابى وحتى قبل أن تعلن الحرب طلبات من « الأفاضل والأعيان للرغبة فى التطوع والدخول فى تعليمات الأسلحة » ، واشترك أبناء الأعيان فى الحرب كمتطوعين فتعلق صحيفة الوقائع المصرية على أحد المتقدمين « قد دلنا صنيع هذا الشاب خصوصًا وأنه ليس من الفقراء ولا من المحتاجين بل من الأغنياء الموثرين ، على أن نفوس الوطنيين قد زال منها ما كان مرتكزًا فيها من خوف الدخول فى العسكرية والتباعد عنها ، والآن أصبح المرهوب مرغوبًا والمبغوض محبوبًا ، وأقبلت أبناء الديار على الانتظام فى سلك العسكرية طوعًا واختيارًا » وتنشر خبر جاءها من القيادة العسكرية « حضر إلينا حضرة أحمد بك نجل سعادة حسين باشا يكن نجل المرحوم إبراهيم باشا يكن طائعًا مختارًا بالديوان ، وكتب عريضة يلتمس بها انتظامه فى سلك المتطوعين ، فالحق بآلاى برنجى بيادة برنجى فرقة لتمرينه على التعليمات الحربية أسوة الأنفار »[3] .

واتسع نطاق هذه المسألة ، فأعيان مديرية جرجا يحضر منهم ٧٠٠ متطوع من أجل الجهاد فى سبيل الله « هؤلاء المتطوعون من ذوى البيوت الرفيعة والأنساب الفخيمة والثروة العظيمة » ، كذلك فقد وفد على مقر القيادة أعيان من مديرية المنيا وبنى سويف وأسيوط « يصحبهم ألفان وستمائة بطل ومعهم الشيخ محمد

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ ، ٩ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ، عدد ١٤٦٠ فى ١٧ يوليو ، عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٨ ، الوقائع المصرية عدد ١٣٤٢ فى ٢٥ فبراير ، عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ .

عبد الجواد وأحمد عبد الجواد أتوا متطوعين ومعهم عدد الحرب من أسلحة وذخيرة وخيام وجمال وزاد » ، وبذلك غدا التطوع مقرونًا بالتجهيز الحربى ، وتذكر أوراق الثورة العرابية أن أحد الأعيان «اشترك فى الحرب، وأحضر مدفعًا تبرعًا »(١).

وطرق ملاك الأراضى ميدانًا آخر للوقوف بجوار الثورة ، فخرجت منهم صيحات التحميس والحث على التطوع فى مناطقهم ، وبذل البعض الجهد الكبير فى جمع وتجنيد العربان ، فعندما أراد عرابى جمع خمسة عشر ألف أعرابى خيالة ، وكل هذه المهمة إلى أحمد بك أباظة ، ومن بين الاتهامات التى وجهت للبعض منهم « كان يحث الناس على الجهاد وبالفعل أغرى كثيرًا من الأهالى حتى أنهم ذهبوا إلى الحرب متسلحين ومعهم خيولهم »(٢) ، وبذلك أمكنهم توثيق ربط القوى الاجتماعية للمشاركة الفعلية فى الثورة .

كما أنهم أسهموا فى المحافظة على الأمن ، فقد حدث فى المنصورة أن « رتب على بك القريعى والأعيان والتجار أربعة رؤساء من الضباط وجعلوا مع كل واحد منهم أربعة من العمد وجملة من العساكر وأهالى البلاد على هيئة عساكر الداورية لملاحظة الضبط ودوام المرور ليلاً ونهارًا »(٣) ، ولم يكن ذلك يختلف عما رآه عرابى من تكوين حرس أهلى للمحافظة على أمن البلاد .

ونُصّب البعض منهم دعاة للثورة ، فكانوا جهازها الإعلامى الناجح ، فمن يكتب المقالات ويرسلها للصحافة وتنشرها ، ومن ينظم قصائد تشجيعًا للثوار وتأييدًا للثورة ، ومن يردد الأقوال والأخبار عن انتصارات القوات المصرية فى المعارك ، وتلك الاستعدادات الحربية الهائلة للجانب المصرى والهزائم المتكررة للقوات الإنجليزية ، فكان أحد أعيان المنوفية يجمع الأهالى حوله ويفهمهم بأن « عساكر الإنجليز هم فى أعين العساكر المصرية كالناموس » ، ويردد إبراهيم الشريعى القول « إن دولة إيتاليا ستبعث مقاتلين مجانًا ، وإنها ستتوسط الدول لدى السلطان بتنصيب عرابى خديويًا على مصر » ، كما لم يترك ملاك الأراضى مناسبة تمضى ، إلا وتفيض برقيات التهانى التى يرسلونها إلى القادة العسكريين محمَّلة بالتأييد والتشجيع(٤) .

(١) المصدر نفسه ، عدد ١٤٧٥ فى ٢٧ أغسطس ، عدد ١٤٨٠ فى ٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيهات ١٤ ، ١٥ ، ٢٢ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٤ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٦ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٩ ، دوسيهات ٦٥ ، دوسيه ٦٥ ، ٦٩ ، ٨٥ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٣٨ .

وكان لهذا الالتحام أثره على مجريات الأحداث ، فمن بين الهاجمين على منزل قنصل الإنجليز بدمياط أحد أعيانها ، وبدراية عبد العال حلمى ، إذ طغت الرغبة فى الانتقام على من اعتدى عليهم ، وحتى بعد الإنكسار كان الرفض بالتسليم ، فاحتفظ البعض بالسلاح رغم طلبه منهم ، وضغطوا على الأهالى المتطوعين فى التمسك بسلاحهم ، ويضبط منهم عقب الهزيمة من ينقل الأخبار للقواد ، ويوصل المحاضر الموقع عليها من الأهالى ضد الخديو ، وكانت منطقة عبد العال حلمى فى دمياط آخر موقع استسلم ، وعليه كان النشاط فيها مستمرًا . وبفضل مجهودهم مضت بعض القرى ترفض الاستسلام ، كما حدث فى قرية مليج التى انقسمت إلى قسمين، القسم الأول رفع الرايات البيضاء على المساجد ومنزل شيخهم ، والقسم الآخر لم يرفع ، مطيعًا لأعيانها[١] .

ومن هنا أصبح واضحًا أن دور ملاك الأراضى كان إيجابيًا للغاية ، وبذلك غدت جميع الأمة المصرية « ذوات وأعيان وتجار وعلماء روحانيين مسلمين وأقباط وغير مستخدمين ومتوظفين أصحاب رتب سامية ومديرين ووكلاء مديرين ونظار الأقلام والأقسام وسائر الحكام منكبين أناء الليل وأطراف النهار يساعدون الجيش »[٢] ، ولم تكن المسألة مساعدة الجيش فقط ، بل تلك الثورة الجارفة والمتأججة فى الصدور التى فرضت نفسها على كل شىء حتى النهاية .

وإحقاقًا للحق يجب أن نذكر تلك الوقفة التى وقفها أمراء الأسرة الحاكمة كشريحة لكبار ملاك الأراضى مع الثورة ، رغم أنها ضدهم فإنهم أيدوها ، فمنذ بداية وقوع الأزمة بين نظارة الثورة الثانية والخديو كان موقف الأمراء - إبراهيم، أحمد ، كامل - متعاطفًا مع عرابى وطالبوا بما أقره الثوار من مواصلة الحرب وبقاء قائد الثورة فى منصبه دون أى اعتبار لأوامر الخديو[٣] ، ويجب أن نسجل لهم الدور الذى قاموا به أثناء اجتماعى المجلس الوطنى ، وإعلانهم خيانة توفيق الذى انضم لأعداء الأمة وإنكارهم عليه أى سلطة يمكن له أن يمارسها .

كان الأمير إبراهيم وطنيًا حقًا ولم يكن يعيب على توفيق تصرفاته فحسب ، وإنما راح ينتقد تصرفات إسماعيل مرارًا ، فيذكر بعض شهود العيان « أنه فى أحد

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٩ ، دوسيه ٨٥ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/أ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٤ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ب .

أيام رمضان ١٢٩٩ بينما كان الأمير إبراهيم باشا وسعادة محمد عاصم باشا جالسان بدكان حسن أغا الجزمجى بخان الخليلى ، قد حضرنا نحن وجلسنا ، وفى هذه الأثناء تفوه الأمير المشار إليه بعبارة أن إسماعيل باشا الخديو السابق وكذلك أفندينا الخديو قد كانا سببًا لخراب مصر بسوء إدارتهما »[١] .

وأثناء الحرب كانت خطاباته تصل إلى عرابى فى كفر الدوار معتزًا فيها بهؤلاء القادة الرجال الذين يقدمون أنفسهم دفاعًا عن مصر ضد الأعداء ، وتفيد بالتمنيات بالنصر . ومساندة منه للثورة كان يقوم بتلك الزيارات للقوات العسكرية « زار ديوان الجهادية ، وأعلن تأييده بما حصل من الضباط والعساكر وزار استبالية العباسية لمواساة فرساننا المجروحين ومعه الهدايا وكان يحمسهم ويشجعهم » ، حتى لقد وصل الأمر أنه عقب نهاية الثورة اختبأ خادم عرابى « عثمان السودانى والذى له معلومات وإطلاع على أشغاله السرية داخل سراية دولتلو البرنس إبراهيم باشا »[٢] .

وأسهم هؤلاء الأمراء أيضًا فى مسألة التبرعات ، فقد كانت خيولهم التى أهدوها للقوات المحاربة هى من أجود أنواع السلالات ، وقدموا تلك الهبات التى لم تكن تنتهى أبدًا ، وعقب التل الكبير صمموا على استمرار الدفاع عن مصر ، وكان للأميرات دورهن فى تأييد الثورة وقائدها ، فكن يطلقن عليه المدافع عن مصر، بينما يذكرن أن توفيقًا سيخلد اسمه فى التاريخ بأنه هو الذى جلب الإنجليز لمصر ، حتى والدة توفيق وزوجته لم يخفيا شعورهما القوى بالميل تجاه عرابى ، فازدادت الهبات منهما للجيش ، وقدمت الخيول حتى من أم إسماعيل ، وأسهمت الأميرة جميلة والأميرة نازلى فى هذا المضمار ، ويؤكد بلنت أن طريقة إعجابهن بعرابى ظهرت فى تلك الهدايا التى قدمت له ، وفى حديث له مع الأميرة الأخيرة بينت « أن لو كان عرابى رجلاً عنيفًا مثل محمد على لأخذ توفيقًا مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رءوسهم ، وصار أميرًا على البلاد »[٣] .

وأثناء محاكمة الثوار ، كان يصل برودلى ونابيير المحامين عن القادة الخطابات التى هى فى مصلحة عرابى من الأميرات ومعها الهدايا ، واعترفت الأميرة إنجى

(١) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين المصريين والأجانب إلى لجنة التحقيق ، تقرير ١ ، ص ١ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , PP.183, 184. ، الوقائع المصرية، عدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/جـ .

(٣) Ibid, pp. 373, 379, 502 ، أحمد عرابى ، مذكرات جـ ٢ ، ص ٣٢٥ ، Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 394 .

أرملة سعيد لبرودلى « إن كل فرد منا كان مؤيدًا لعرابى منذ البداية سرًا ، لأننا نعلم أنه ينظر إلى مصلحة المصريين فقط ، وعندما رأينا توفيق يغدر بمصر بل ويخونها ويذهب للإسكندرية ليكون بجوار الإنجليز ، كرهناه من كل قلبنا ، وكنا نرسل لعرابى الخطابات والبرقيات لنهنئه ونشجعه ونبين له أنه منقذ مصر ، وكل منا ساهمت فى النفقات بما تملك ، ونحن الأميرات كنا نحتل الخط الخلفى للقوات وكنا نخاف على عرابى من أن يقتله الإنجليز ، وعندما عاد إلى القاهرة سمعنا أنه أحضر معه رأسى ولسلى وسيمور ، ولكن لم تكن هذه حقيقة ، وكم تأسفنا لما حدث »(١) .

وكان ذلك الدور الإيجابى الذى قُدم للثورة بعد أن حركته النوازع الوطنية ، فأصبحت مصر جبهة موحدة من أعلى طبقاتها إلى عامتها باستثناء قلة خانت القضية الوطنية بعد أن وضعت مصلحتها فوق كل اعتبار .

العمد والمشايخ

قبل أن يعطى العمد والمشايخ للثورة ، كانت قد أغدقت عليهم وهيأت لهم الظروف التى مكنتهم من الإفصاح عما فى داخلهم حتى مكنتهم من الإنضمام لها ، وقد استطاعوا بحكم مركزهم المرموق فى الريف سواء من الناحية الإدارية أو القضائية أو الدينية أن يشكلوا درعًا واقيًا للثورة ، ويؤثروا على الفلاحين ليسلكوا الطريق الثورى ، وبالتالى فالفلاحون كانوا يرون فيهم الممثلين الشرعيين لهم « والناس على دين آبائهم » ، هذا ويجب أن نذكر أنهم كانوا من ملاك الأراضى وكان لذلك أهمية فى النفوذ .

ومع بداية الثورة بدأ الإحساس يتبلور وينذر بأن عهد الاستبداد والفساد فى طريقه إلى الزوال ، إذ كانت السجون ممتلئة بمن كان قد تجرأ وتفوه بكلمة أو صدر منه أى تصرف لم يعجب المسئولين ، فنرى أن بعضًا من عمد ومشايخ بالشرقية كانوا قد أودعوا فى السجن بأمر مديرها لا لشىء سوى أنهم رفعوا أصواتهم بالشكوى من تصرفاته ، تلك التى ترمى بكل القيم عرض الحائط ، وعقب قصر النيل تقدم هؤلاء العمد - محمد أبو عبد الله عمدة الصنافين وبركات ديب عمدة القرين ، واثنا عشر شخصًا من مشايخ وعمد نواحى مديرية الشرقية - بمذكرة إلى الحقانية يلتمسون فيها العفو ومنع الضرر الذى لحقهم من حكم مجلس المنصورة المحلى القاضى بسجن الأول ثلاث سنوات والثانى سنتين والباقين سنة(٢) ، ويتم العفو ليكونوا فى الصفوف الأولى التى شاركت بكل قواها فى الثورة .

(١) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 374 - 377 .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٣٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨١ .

وكان للشهرة التى حصل عليها عرابى أثرها فى أهالى الريف ، فلم يكن إلا ابنًا لأحد المشايخ ، فهو من دمهم ولحمهم ، ثم التدين العميق الذى كان من سماته - سواء صح نسبه إلى الإمام الحسين أو لم يصح - ذلك قد جعل له المركز الروحى الكبير وأوجد تلك العلاقة الوثيقة التى ربطت بينه وبين فلاحى مصر بما فيهم العمد والمشايخ، كما أن إحساس الأخيرين بأصالته ووطنيته زادتهم حبًا وتقديرًا له، وكان للمبادئ التى أذاعتها الثورة وانتشرت على أرض مصر صداها فى القرى المصرية ، ومن هنا عُدَّ عرابى بالنسبة لهم منقذهم المنتظر من مستغليهم ، فكان معنى الإنضمام للثورة هو الخلاص بعينه ، ومن ثم ارتفع لواء العصيان على الأوضاع الموجودة والتى قاسى منها العمد والمشايخ فى فترة ما قبل الثورة .

وكان للوعى الذى انتشر على الأرض المصرية الأثر فى الموقف الثورى ، فقد نزلت الصحافة إلى القرى عارضة المظالم والأمراض الاجتماعية المصاب بها المصريون طارحة الحلول لها ، وبينت أحوال الأمم الأخرى وعقدت المقارنة ، وكان على رأسها صحف يعقوب بن صنوع الذى حثهم على الثورة ورفض ما يخضعون له من استبداد وظلم وقسوة ، ثم كتابات النديم التى أنارت لهم طريق العدالة ، ونقدت الظروف التى يعيشونها ، وخاصة تحكم الأجانب فيهم وغطرسة الأتراك عليهم .

كذلك فقد كانت للجمعيات التى تعقد فى المديريات أثرها على الريف المصرى، وخاصة على تلك الفئة التى نحن بصددها ، فأعضاء تلك الجمعيات انتشروا فى داخل البلاد واستمالوا كبار العمد وأثرياءهم « وأصبح لا يكاد بندر من بنادر القطر يخلو من عقد جمعية على نسق العهود والمواثيق »(*) . وعلى أثر ذلك استوعبوا المبادئ الثورية ، وراحوا بدورهم يلقونها للفلاحين يساعدهم مثقفو القرى من أنصاف المتعلمين .

وبعد أن اتجهت النية أن يتصدر العسكريون المطالبة بحقوق الأمة عقب قصر النيل ، كان للعمد والمشايخ الدور الفعال من أجل ذلك ، وحتى التاسع من سبتمبر تزايد نشاطهم ، فاشتركوا فى تلك الاجتماعات التى كان يقيمها كبار ملاك الأراضى وعلى رأسهم سلطان ، وساهموا فى توقيع المحاضر التى دار بها النديم لتوكيل عرابى نائبًا عن الأمة فى مطلبها للحياة النيابية ، وقد مثلت توقيعاتهم نيابتهم عن مناطقهم ، وعندما تمنع شريف عن قبول النظارة ، قدَّم له حوالى الألفين من العمد الترجيات من أجل القبول ، وكانوا من بين الذين تعهدوا وضمنوا أن يطيع الجيش أوامر الحكومة .

(*) الحجاوى ، العدد الأول فى ٥ فبراير ١٨٨٢ .

وكانت ممارسة السلطة من خلال مجلس النواب الذى أوجدته الثورة قد أعطتهم الأهمية ، وخاصة بعد أن حصل على الحقوق الأكثر حرية من سابقه ، حتى لقد قال شريف للخديو « إن رأى عمد الأهالى هو بالنيابة عن عمومهم »[١] ، ومن هنا برزت القوة التى ساهمت مع الثورة .

وتمشيًا مع السياسة الثورية ، تسرد لنا صحيفة الوقائع المصرية أسماء العمد والمشايخ الذين أصدرت لهم نظارة الثورة أوامر العفو وعادوا من منفاهم وخرجوا من سجونهم[٢] ، هذا بالإضافة إلى إحساس الأهالى بانقضاء عهد الظلم ، ومع العهد الجديد طلبوا الإفراج عن ذويهم من هذه الشريحة ، كما التمس العمد والمشايخ العفو عما أصاب ناسهم « فقد طلب شيوخ الكوم الأحمر بالمنوفية الإفراج عن ابن شيخ زميل لهم مسجون فى سجن المديرية »[٣] .

وأنصفتهم الثورة ، فكثرت شكاواهم لها ، حقيقة أنها سبق وأن عرضت قبيل الثورة ، لكنها كانت أصوات ترتفع فى الهواء ، فلا يسمعها أحد ولا حتى ينظر فيها ، أما مع الثورة فكل شىء يخضع للتحقيق والعدالة بصرف النظر عن الأطراف المتنازعة ونوعياتها ، ومن هنا كان التجاؤهم إلى مجلس النواب الذى لهم الباع فيه ، يتظلمون بشأن الأراضى التى استولت عليها الجفالك منهم ومن تكليف نواحيهم بتطهير بعض الترع بالرغم من أن إختصاص انتفاعها للجفالك التابعة للسنية ، ومن بعض المديرين بشأن إكراههم على إخراج أنفار نواحيهم للتعليمات[٤] .

ومما هو معروف أنه بتولى الثورة الأمر ، أبعدت المديرين والمأمورين الذين كانوا يفسدون فى الأرض قبل الثورة ، وولت العناصر الجديدة التى أعطت المزيد من القوة للعمد والمشايخ ، فيذكر روسل مدير الدومين أن سلطة المديرين تجاه مشايخ البلد قد انعدمت ، وعندما طلب من مدير طنطا استدعاء اثنين منهم وسجنهما لتحريضهما الفلاحين على الثورة رفض[٥] .

ومضى العمد والمشايخ يعلنون ثورتهم ، ويطالبون بحقوقهم التى كانت قد سلبها رجال ما قبل الثورة ، فعلى سبيل المثال « حنفى شنب عمدة ناحية الخانكة يشكو من معاون أول المديرية سابقًا » وفى الحال يجرى التحقيق ، ويرفع أربعة مشايخ من

(١) المحروسة ، عدد ٢٩٣ فى ٦ أكتوبر ١٨٨١ .
(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٥٢ فى ٨ مارس ، عدد ١٣٦١ فى ١٩ مارس ١٨٨٢ .
(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٢٩ ديسمبر ١٨٨١ .
(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ أبريل ١٨٨٢ .
(٥) Egypt, No. 7 (1882), Inclosure 4 in No. 51, Feb. 15, 1882, pp. 42, 43 .

ناحية جزيرة الحجر شكواهم على ما جرى لهم على أيدى مأمور مركز منوف » ، وكان حسم الأمر يتم فى الحال ، وخاصة ما يتعلق بمشكلات الأرض » فقد حدث لعائلة الفقى المتوظفين مشايخ بتلا منوفية ، وكانت قد نزعت منهم أطيانهم وأعطيت لآخرين ، وضعوا اليد عليها وسددوا عليها من مقابلة وسهام وكافة أقلام التحصيلات وعاد المشايخ يطالبون بها » وبالتحقيق أمكن التوصل إلى « مناصفة ما كان متكلف على عائلة الفقى من الأطيان قبل نزعها » ، هذا فى الوقت الذى ضربت فيه حكومة الثورة على اليد الظالمة إنصافًا للحق « اشتكى مشايخ تاجة سماروته أنهم مسددون كامل الأموال الأميرية ، وأن مأمور المالية يجبرهم على تسديد الأموال على أطيان الذوات ، وأنه عندما أحضروا له وكلاء هذه الأطيان لم يقبل منهم » فاهتمت نظارة الداخلية بالأمر وفتح المحضر عند مدير المنوفية لإنزال العقاب بالمستحق[1] .

وبذلك أعطتهم الثورة العدالة التى كانوا يفتقدونها ، وأصبح لهم المركز والقوة ، ومنحتهم المزيد من السلطات ، وألقت عليهم مهمة التنظيم الثورى فى الريف ، فحملتهم مسئولية ضمان الأمن فى مناطقهم ، وخصوصًا فى تلك التى انتشرت وسرت فيها روح الثورة[2] .

وشارك العمد فى الأحداث السياسية وشكلوا عنصرًا أساسيًا فيها ، فعقب استقالة نظارة الثورة الثانية ، يُظهر عرابى قوتهم التى اعتمد عليها منذ البداية ويعدهم النواب الحقيقين عن الفلاحين ، فيرى أنه كان لهم الدور فى إعادته لمنصبه « إن العمد تراموا بأجمعهم على أعتاب الحضرة الخديوية لبقائى فى نظارة الداخلية حين إنحلت نظارة محمود باشا سامى » وعندما أعيد إلى منصبه كانت الفرحة الكبرى ، وانهالت برقيات التهنئة إليه من عمد ومشايخ مصر كلها[3] ، لإحساسهم بأنه فرد منهم ، مهموم بشئون بلادهم ، فيجب أن يبقى ويستمر ليس فقط للعسكريين وإنما لقوى الأمة جميعها .

واستمر نشاطهم فى المشاركة الفعلية مع الثورة وقائدها ، ومثلما وكلوه فى المطالبة بحقوق الأمة في التاسع من سبتمبر ، أعطوه النيابة عنهم فى الدفاع عن مصر ، وأضفوا عليه الصفة الشرعية ليتصرف وفق ما يراه صالحًا لها ، خاصة بعد مذكرة مايو التى أجمعوا على رفضها ورفض من قبلها ، ووردت على القاهرة

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٩ ، ١١ ، ١٥ يناير ١٨٨٢ ، محفظة ٤١ فى ٢١ مارس ١٨٨٢ .

(٢) Arch de maison, de Cour et d'etat, Vienne, Fasz XXXI/9, No. 37, 6 Mars, 1882, p. 2.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/أ ، دوسيه ٥٣/د/٤ .

المحاضر المختومة من جميع مديريات مصر لتؤكد تلك الحقيقة « نحن عمد ومشايخ وأهالى مركز أشمون نقول بالأصالة عن أنفسنا وعن أهالى بلادنا أنه لما سمعنا باللائحة المتقدمة فى حق الوطن ، حصل لنا قلق واضطراب وضنك شديد ، فهى مجحفة بحقوق دولتنا العلية وحقوقنا الوطنية وموكلين فى ذلك أحمد عرابى للمدافعة عنا »[١] .

وأعقب ذلك التختيم على محاضر ضد توفيق ، فقد قاموا بذلك فى طول البلاد وعرضها « إذ أنه انضم إلى أعداء الدين وسيسلم البلد للإنجليز »[٢] . إذن فلابد من عزله لأنه خائن ومستبد ، وجاءت أختام الفلاحين بجوار أختامهم لتعبر عن تلك الرغبة القوية ، ولما كان من العمد أعضاء فى مجلس النواب ولهم كلمتهم المسموعة ، فعند عودتهم إلى قراهم يصرحون بأن « الخديو خلع بأمر السلطان » ، وقد وضح موقفهم فى الاجتماع الذى أعلن فيه عرابى ضرورة عزل توفيق ، فكان ذلك يتفق مع هواهم ، ورأوا أن عرابيًا خير من يحكم عقب إسقاط عرش توفيق « فيكون خديويًا على مصر لأنه محام عن العرض والدين والشرف » ، بل وقد ذهب البعض منهم بالاتحاد مع بعض العلماء الأزهريين لإعلان أن عرابيًا من سلالة الرسول ﷺ ، وأنه بناء على نصوص وإرادة سينتصر ويتولى زمام الأمور فى مصر ، هذا فى الوقت الذى كانوا يداومون فيه التردد على قادة الثورة وخاصة الزعيم[٣] ، ليثبتوا تأييدهم الثورى ، وليستمدوا المعلومات التى شكلت دعاية منظمة عند عودتهم إلى بلادهم .

ومن منطلق هذا المنطق ، أصبح كل طريق وشارع وحارة وعطفة مزدحمًا بالمهللين والداعين بالنصر لعرابى والإسلام ، بينما مُثِّل توفيق وأتباعه بالكلاب والخنازير التى شنقونها رمزًا لخيانتهم كما سبق ذكره ، وكان عرابى عند تنقلاته وفى حله وترحاله محاطًا بهذه الشريحة ، وخاصة فى الزقازيق المقر الدائم للاجتماعات التى يعقدها أمين الشمسى مع عمد المنطقة ، وتلقى فيها الخطب الحماسية ، ودائمًا بعد إلقاء كل خطبة كانوا يعقبون عليها بالدعاء لعرابى ، ونبع ذلك من قلوبهم، وقد بلغت ثقة عرابى بهم أنه ولاهم الإشراف على شون الغلال الخاصة بالجيش أثناء الحرب[٤] .

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٠ .   (٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٧ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٠٠ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، دوسيه ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٣ ، دوسيه ١٢٧ .

وكان المثقفون من العمد والمشايخ يعملون على خلق وحدة متكاملة متعاونة تشكل حاكم القرية وهو العمدة ثم الشيخ والمهندس وناظر المحطة والتاجر والحكيم البيطرى من أجل إشعال الحماس داخل النفوس إبان اللقاءات ، إذ تجرى فيها المناقشات والآراء المؤيدة للثورة ، بينما كان البعض منهم يجلس فى الديوان وتتكون حوله الحلقة المعتادة من الفلاحين ليقرأ عليهم صحيفتى الطائف والوقائع المصرية وما شملتهما من أخبار وانتصارات للثورة[١] .

وعن فكرهم فى مجال التطبيق الثورى فوضح بين المشتركين منهم فى مجلس النواب أثناء ممارستهم للحياة النيابية ، كذلك وجدت أبعاد سياسية ظهرت فى عدم رغبتهم فى الحاكم ، وضرورة تبديله بمن هو من دمهم « وتغيير الحكومة بقطع دابر الأتراك وغيرهم وجعلها من الفلاحين الذين هم رؤساؤها ، كما أن يكون بعضهم مديرين والبعض وكلاء والبعض نظار أقسام »[٢] ، وبذلك تصبح « مصر للمصريين » حقيقة واقعة بعد أن يجلو الأجانب عنها .

أما الأبعاد الاجتماعية فقد ظهرت كترجمة عملية على أرض مصر كلها ، لكنها أخذت طابعًا أكثر عنفًا فى صعيد مصر ، حيث بؤرة الإقطاعيات الكبيرة بما فيها أراضى الأسرة المالكة ، ومن هنا غمرت العمد والمشايخ الرغبة الداخلية فى أن يصبحوا أصحاب أراض واسعة ليس فقط وإنما أصحاب سلطان ، فهم مصريون وأقرب إلى الفلاحين الذين سيكون من السهل رضاهم عنهم ، فطيلة ما مضى يعدون أنفسهم ملوكهم ، فلو تم لهم ما أرادوا لعادت الأرض إلى أصحابها وانتزعت من غير المصريين ، وأن هذا لن يتأتى إلا إذا انتصرت الثورة على يد قائدها ، ومن هنا راح بعضهم يؤكد للفلاحين - وهم أدوات عملهم - بأن النصر قريب والراحة آتية ، وذلك بعودة أطيان الجفالك إلى بلادها الأصلية ، وأن أطيان الذوات والباشوات ستصبح للفلاحين ، ومضى هذا الترديد طوال فترة الحرب ، وإذا تصادف ووجد من عارض تلك المبادئ كان جزاؤه « التهديد والترذيل » ، والنتيجة « حصول الهيجان فى المنيا »[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ .

ولم يكن الأمر إعلان مبادئ فقط فهناك التطبيق ، فقد أوقف المشايخ الفلاحين الذين يعملون فى أراضى الباشوات ، وقاموا بتقسيمها وبزراعاتها لحسابهم ، وحدث هذا فى أراضى حيدر باشا بالبحيرة عندما أعلنوا « أن الباشا حكم بفك زمام الجفالك وتقسيم الأطيان على الأهالى والمشايخ »[١] ، كذلك كانوا وراء ما أقدم عليه الفلاحون من الأعمال الثورية[٢] ، كما عمد البعض منهم إلى تقسيم الأراضى التى تخص الملاك من العنصر التركى بالقول « فيقول بعضهم للآخر: هذه القطعة لك وهذه لى ، ثم يلتفتون إلى صاحب الأرض ويقولون له أخرج من البلاد كما جئتها ، فكان أصحاب الأراضى يزدادون خوفًا وحسبانًا لبلاء أعظم ، فانقطع كثيرون منهم عن التردد إلى أراضيهم ولزموا منازلهم » ، وهناك من العمد من أراد تطبيق العدالة الاجتماعية حتى على الفلاحين وذلك بأن توزع عليهم الأراضى بدون ثمن وأن ترفع الضرائب عنهم[٣] ، وكان هذا تعاطفًا منهم على من غبنوهم قبل ذلك .

وتدور الدوائر ويطلب العمد والمشايخ محاسبة من ظلموهم وأثروا على حساب شعب مصر من أصحاب الحمايات الأوربية الذين استولوا على أراضيهم وقاموا بعمليات الاستغلال الواسعة النطاق ، فاليوم أصبحوا يطالبون بحقوقهم المسلوبة ورد أطيانهم إليهم ، أيضًا طالب العمد برد الأرباح التى استولى عليها التجار الأوربيين منهم وضرورة تسديدها والتهديد لمن يتأخر فى دفعها[٤] ، ثم كانت اعتداءات المشايخ على أراضى الأجانب وبخاصة اليونانيين زبانية الربا « مثلما حدث مع الخواجة مانولى وقيامهم بالهجوم على غيطانه ، وطرد الأنفار الأجرية وإطلاق سراح الأهالى والمواشى »[٥] ، وذلك بعد أن انتشر فى الريف أن الثورة ستضع حدًا لجبروت الأجانب ، وأن الديون ستكون لها نهاية ، ومما لا شك فيه أن عرابيًا كان من الذكاء لتجميعه لتلك القوى حول الثورة عن هذا الطريق .

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٥ .

(٢) الفصل الحادى عشر ، عنصر التنفيذ الثورى .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ٤٩ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ .

(٥) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، أول مارس ١٨٨٢ .

وعندما أراد عرابى أن يفرض ضريبة دفاع على معدل قيمة الفدان ، عهد بذلك إلى المشايخ ، فكانوا خير من يقوم بهذا الأمر ، إذ ملكهم السلطة على من اذاقوهم العذاب فمضوا « يظلمون أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ، ويأخذون فى بعض البلاد اثنى عشر قرشًا عن كل فدان ، وفى بعض آخر ١١ وفى غيرها ١٠ ، وكانوا يأتون صاحب الأرض ويطلبون منه ما يريدون بقحة وسماجة لا مزيد عليهما ، فإذا طلب إليهم أن يمهلوه ساعة أوسعوه شتمًا وسبًا ، ثم أتوه بعد حين بواحد أو اثنين من الجند فيساقون جميعًا إلى المدير أو الضابط أو وكيل المديرية فينهاه عن التماهل فى أداء المطلوب ، فإذا اعتذر أودع فى السجن فلا يخرج منه ما لم يؤد مال الضريبة ، إما برهن ما لديه ، وإما باستدانة القيمة ممن تأخذه الشفقة عليه ، وإلا أخرجه الحاكم من السجن وأصحبه باثنين من الجند فيرفقانه إلى حيث يتحصل على القيمة ، فيدفعها إليهم وينصرف نافضًا عنه غبار الموت ، وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر أو طالب المهلة : هل أتيت من بلادك بأطيان فما هذه إلا أطيان القطر ، ونحن أبناء الوطن لا يحق لغيرنا أن ينتفع بها ، أتيتمونا فقراء لا تملكون أرضًا ولا فلسًا ، فصرتم الآن أصحاب أراضى وأملاك وتحرموننا من خيرها »[1] . وبذلك يتضح لماذا أصبحت هذه الشريحة ثورية .

أما عن الدور المادى ، فقد كان ضروريًا للثورة والمعركة ، خاصة وقد تسلم عرابى خزينة الدولة خاوية ، فلابد من ملئها بالمشاركة بين قوى مصر ، وغيرت طبيعة الثورة من نفسيات العمد والمشايخ لدرجة أننا نجد أحد شيوخ « مصطهاى غربية » قد قام بتسديد ديون لكثير من الأهالى كانت عليهم للأوربيين[2] ، وذلك لم نسمع عنه قبل الثورة ، وبهذه الروح أسهموا فى مسألة التبرعات ، فحثوا فلاحيهم على التبرع ، وأفهموهم واجب الوطنية والتضحية من أجل مصر « لمنع الاستبداد الحاصل » وأثاروا الحمية الدينية والوطنية ، وأسرعوا فى تشهيل طلبات العسكرية ، فكانت تصل على الفور للشون والمخازن[3] ، وقدموا الكثير من التبرعات وقد سمحت

---

(١) سليم النقاش ، المصدر المذكور ، جـ ٤ ، ص ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣١٠ فى ١٧ يناير ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٣ ، دوسيه ١٢٧ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٣٢٤ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٤ ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٩ ، محفظة ١ ، دوسيه ١٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ .

إمكاناتهم بذلك ، وصحافة الفترة تسجل صفحاتها وتزدحم بأسماء العمد والمشايخ التى لا تحصى ، والذين أعطوا عن طيب خاطر ، وجاء النشر بناء على أوامر عرابى، وذلك حتى يعطى الإحساس للجميع بأن الحرب يساهم فيها المصريون جميعًا ، ويعطى للمسألة نوعًا من التشجيع والتحميس للمزيد.

وشملت التبرعات آلاف الأرادب من الحبوب والخيول والأبقار والضأن والجمال والدواجن والمسلى والتبن والخضر والفواكه ، وزاد عليها البنادق والرصاص ، حتى الأسماك فقد تبرع بها عمدة المطرية ، وامتلأت الخزائن بالأموال ويعلق نينيه على ذلك « تلك التبرعات كانت تأتى للمعسكرات من قمح وشعير وحبوب وخضر وزبدة وخيول وفاكهة وأموال من جميع عمد مصر ، فقد أظهروا كرمًا للغاية »[١] .

وكانت البرقيات التى تصاحب التبرعات ملؤها الرضا وطيب الخاطر والنفس المطمئنة ، وتحمل بين طياتها معانى حب الوطن وإعلاء كلمة الدين وتأكيد النصر بعون الله ، ويرد القائد الذى أحبه شعبه بكلمات الامتنان للعمد والمشايخ « متشكرين لحضراتكم حيث أخذتكم الغيرة الإسلامية والحمية الدينية لمساعدة المجاهدين فى حفظ وصيانة الوطن »[٢] .

وحينما صدرت الأوامر لمديرى المديريات لجمع العمد بشأن التشهيلات من مؤن وخلافه للقوات المحاربة ، والإتفاق على الأثمان والكميات ، يجيب العمد بأنهم « رأوا موافقة توريد كافة الأصناف المطلوبة للجيش تبرعًا من طرفهم هم وأهالى بلادهم » ، وبذلك وصلت معرفة الواجب إلى أقصاها وتبلورت داخل شخصيات العمد والمشايخ، وقد أبان عرابى فى محضر التحقيق معه «أن المساعدات والتبرعات التى كانت ترد للجيش المدافع عن البلاد مدافعة شرعية ، لم نكن بتهديدات بل من الناس من تبرع بنصف ماله ومنهم تبرع بماله ابتغاء مرضاة الله »[٣] .

وجاء بعد ذلك التضحية بالنفس وتقديمها فى الميدان الحربى بالتطوع مع القوات المقاتلة ، فتلاحقت الطلبات من العمد والمشايخ للإنخراط فى السلك

---

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٥ ، دوسيه ٣٤ ، محفظة ٩، دوسيه٥٩ ، دوسيه٨٤ ، محفظة٣ ، دوسيه٣٩ ، Ninet , Arabi Pacha , p. 216

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيات ١٥ ، ١٩ ، ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ، دوسيه ١٩ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢/ب .

العسكرى ، منها على سبيل المثال « بحسب ما تبالغ لنا من حصول الجهاد مع الإنجليز والجيش المصرى ، واشتياقنا لاكتساب الثواب وهبنا أنفسنا نحن والخمسمائة نفر من الناحية بلدنا فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، متطوعين محامين عن الديانة الإسلامية وحفظًا لأنفسنا وأموالنا نسأل الله أن ينصر الإسلام بمشيئة الله » ، وقد انتفع بنفوذ العمد والمشايخ فى اصطحاب الفلاحين لميدان المعركة ، وحثهم على الجهاد والحض على التطوع ، وذلك بالاستعداد والتدريب على حمل السلاح فى الطوابى القريبة ، فكانت النتيجة تلك الوفود المحاربة التى وصلت إلى القيادة بخيولها وأسلحتها ، وبذات الوقت فقد بلغ الأمر أن هدد العمد والمشايخ بأن من لم يلب نداء الوطن « تسلب موجوداته ويخرب محله »[1] .

تم ذلك أمام إعلانهم لقادة الثورة وتعهدهم بمسئولية « تأدية كافة طلبات ما يلزم الجهادية » ، وكانت تقارير المديرين التى تصل مركز القيادة تؤكد ذلك النشاط المتزايد لتلك الشريحة « إن العساكر واردة أفواجًا وأن عمد ومشايخ المديرية باذلين الهمة بتأدية طلبات العسكرية بكل سرعة وجميعهم يهنئوا سعادتكم بالنصر »[2] .

وشارك البعض فى التجهيزات الحربية ، فقدم عمدة المطرية أربعين سفينة لتحمل ما يلزم العمال والعساكر لطابيتى الجميل والعربية دون أجر ، وبعث بخمسمائة رجل من رجاله لمساعدة العاملين فى الطوابى ، ويذكر مراسل صحيفة الوقائع المصرية عن أحمد الوكيل عمدة النخيلة بالبحيرة « أنى شاهدته غير مرة يحث عمد البلاد ويبعث فيهم الحمية على القيام بالتجهيزات الحربية ، وقد لباه عدد كثير ونحا نحوه حسنين حمزة عمدة كوم حمادة » . كذلك كان لهم دورهم فى إقامة استحكامات وطوابى منطقة بحيرة المنزلة[3] .

واعتمد رجال الثورة على العمد والمشايخ فى مسألة الخفر والأمن والدفاع ، وسُلمت إليهم الأسلحة من أجل ذلك ، فعندما أراد عرابى تعبئة قوى الفلاحين أعطى تنظيمهم لقيادة العمد والمشايخ للدفاع عن شواطئ بحيرة المنزلة وحمايتها إذا اعتدى عليها من جانب الإنجليز ، فأرسل لمديرى الدقهلية والشرقية يطلب منهما

(١) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ١٩ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١٨٦ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ٥ ، دوسيه ٨ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ . عدد ١٤٧٠ فى ١٠ أغسطس ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٢٣٠ .

استحضار العمد والمشايخ « ويأخذ عليهم التعهد القوى باستخراج أنفار بلادهم من الذين لهم إلمام باستعمال الأسلحة النارية ويجعلهم فى النقط المهمة من بحيرة المنزلة »[١] .

وقسمت شواطئ البحيرة إلى ثلاث مناطق ، وأنيطت كل منطقة بمسئولية عمدة أو شيخ يكون رئيساً على الفلاحين ، وخضع جميعهم لعمدة البصراط الذى كان تحت إشراف عبد العال حلمى قائد فرقة دمياط ، وأرسل إليهم ٢٠٠٠ بندقية وزعت عليهم . وبذلك تولى العمد والمشايخ فى هذه المنطقة خفر السواحل والدفاع عنها ، ولوحظ نشاطهم المتزايد ، وترددت أسماؤهم ، فكان منهم محمد بن شداد عمدة ناحية الكردى دقهلية ، ورضوان إبراهيم عمدة ميت خضير ، ومحمود جلبى طوبار عمدة المنزلة ، وأبو المعاطى سعيد عمدة العصافرة ، وعقب الحرب وجدت لديهم الأسلحة ، فقد عثر فى منزل عمدة المنزلة على ستين بندقية وثلاثة صناديق جبه خانة ، ووجدت طرف عمدة الكردى ومشايخ برمبال القديمة ومشايخ منية سليل بنادق فشنك وكبسول وصناديق جبهخانة ، وآخرين من المشايخ والعمد وجدت لديهم الأسلحة[٢] ، وبذلك وضح أن عرابياً قد طرق باب تسليح الشعب ، كما استعان بالعمد والمشايخ فى معاينة الطرق بالقنطرة ، فيخطر محافظ العريش عرابى باستخدامهم من بين المرابطين على سواحل البحر الأحمر لنهاية الحدود المصرية من ناحية خان يونس لحفظ الحدود والدركات[٣] .

أما عن الدور الروحى الذى شاركوا به فقد كان ملموساً ، فكثر ترددهم على المراكز الحربية للاطمئنان على الجيش وتشجيعه ورفع معنوياته ، كما كانت التنبؤات بالانتصار وإظهار قوة الجيش وتفوقه تتردد على ألسنتهم ، فمثلوا خير جهاز دعائى للثورة ، وكثرت الرؤى التى ظهرت لهم وتدور حول « أن عرابيًا يحارب الخديو وينتصر عليه ، وأن أولياء الله متداركون إياه بنصرته ، وأنه سيكون الحاكم على مصر » . وأقاموا الصلوات وقرأوا القرآن ورددوا الأدعية من أجل انتصار القائد وقواته[٤] .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٠ ، دوسيه ٤٠ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٢٣٠ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٢٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ .

(٤) المصدر نفسه، محفظة ١، دوسيه ٨ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٤٤، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤، دوسيه ٣٥.

وعندما ظهرت خيانة سلطان وصدر أمر عرابى بأنه « حاضر ومعه مائتان عسكرى إنجليزى من طريق البحر الأحمر لقصد الدخول من أحد الدروب بالوجه القبلى » على الفور تصدى للأمر سعداوى عبد الرحيم عمدة المطاهرة بمديرية المنيا، وجمع بقية العمد والمشايخ لعمل الاحتياطات اللازمة ، وتوجه للجبل ومعه الخيالة والهجانة مسلحين للبحث عن سلطان وأتباعه[1] ، وتمت الاستعدادات لملاقاة الأعداء ، لكنهم لم يأتوا من هذا الجانب .

ونظرًا لهذا التأييد الثورى ، فقد تعرض بعض العمد والمشايخ لضربات المعسكر المضاد الذى نجح فى جذب البعض القليل ، لكنه لم يستطع أن يحول المسار الثورى لتلك الشريحة رغم ما وجه إليهم ، فحاربهم بعض مفتشى الجفالك وطردوهم من الأراضى مثلما حدث مع عمد ومشايخ « كفور نجم » حينما أمرهم چاهين بك الشركسى بقطع ما يرسلونه للجيش ، لكنهم لم يطيعوا أوامره واستمروا فى العطاء « ولما علم بذلك حرر تلغراف فى حقنا للدايرة الإلهامية بإخراجنا من أوطاننا بالتفتيش وحرمنا من التعيش ووزع أطياننا بمعرفته مع أنها مؤجرة لنا من مدة جدودنا لحد تاريخه » هذا ما أبلغوه إلى منقذهم كما أبانوا له أن هذا المتسلط سجن أحد شيوخهم بطرفه ، وعلى الفور يحيل عرابى المسئول على مجلس عسكرى[2] . واستمروا فى طريقهم الثورى حتى النهاية ، ففى البحيرة تمكنوا من الاستيلاء على المنتجات من أراضى حيدر باشا وورودها للجيش رغمًا عن أنف مفتش الزراعة[3] ، ومضت المقاومة لسلبية الحاقدين والرافضين جتى بعد دخول الإنجليز ، كانت الأصوات تردد بأنه لا يمكن أن يكون عرابى قد هزم .

البـــــدو

عندما رأى مجلس النواب أن البدو أصبحوا يكونون طبقة من الملاك الزراعيين شأنهم فى ذلك شأن الفلاحين الملاك ، ومن ثم يجب أن يعاملوا بالمثل ، كان معنى ذلك سحب تلك الامتيازات التى تمتعوا بها طوال الفترة السابقة ، وهنا ظهر تمردهم ورفضهم لذلك ، وفى ١٨ أبريل ١٨٨٢ عقد مشايخ البدو للشرقية والغربية والبحيرة والفيوم والوجه القبلى اجتماعًا كبيرًا فى طنطا وقرروا فيه أنهم لن يسمحوا بتدخل

(١) المصدر نفسه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨١ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٥ .

مجلس النواب فى شئونهم ، وأنهم متمسكون بالامتيازات التى منحهم إياها محمد على، وقدموا مذكرة لممثلى بريطانيا وفرنسا فى مصر والباب العالى بنفس المعنى[١].

وأحست الثورة بما فى الموقف من خطورة عليها ، فأرسلت حكومتها ألفين من الجنود ، نصفهم إلى الزقازيق والآخر إلى البحيرة للقضاء على هذه الحركة المناوئة، ولحماية مصر من تجمع مثل هؤلاء الذين تصفهم صحيفة التيمز بقولها « المفترسين الرحل الذين يعيشون على السلب والنهب ويصل عددهم إلى عشرة آلاف مقاتل مسلحين ، ويكمدون العداء الشديد لما يسمونها حكومة الفلاحين »[٢] .

ووجدت حكومة الثورة أنه من الأفضل لها - لتتفرغ لما هو أهم - أن تصفى الموضوع وتهادن البدو ، ودعت مشايخهم أصحاب النفوذ إلى القاهرة ، وتمت المصالحة ، وأقرت الحكومة امتيازاتهم « أن يعافوا من القرعة العسكرية ، ومن أشغال العونة ، وأن سكان العزب والكفور والبلاد من العربان يدفعون بدلية للعونة »[٣] .

ومن هنا بدأ طريق التعاون والصداقة مع الثورة والنقمة على التدخل الأجنبى ، فيسارع شيوخ البدو بتأييد عرابى ويطالبون بعودته عقب استقالة النظارة ويرفضون مذكرة مايو المشتركة ، وعندما حضر درويش ورأى استمالتهم لم يوافقه الكثير منهم « وعقد جلسة مع المجلس الأكبر للعربان وحين وجد أن عددًا كبيرًا من أعضاء المجلس يقفون ضده ، أخبرهم بأنه قد يتولى نظارة الجهادية »[٤] ، معنى هذا أنهم كانوا مصرين على التمسك بعرابى .

ورأى قادة الثورة وعلى رأسهم عرابى إمكانية الاستفادة والاستعانة بالبدو عقب قيام الحرب ، حيث أصبح من الضرورى تعبئة أكبر قوة حربية ممكنة للوقوف أمام الإنجليز - رغم معرفة طبيعتهم - فصدرت الأوامر للمديريات ، وخاصة عندما ارتبكت الأمور واحتل الإنجليز القناة بالتنبيه على كافة العربان الذين فى إمكانهم استعمال السلاح بأن يتوجهوا للخط الشرقى ، كما عُين لهم مأمور لنفس الغرض .

(١) Egypt, No. 7 (1882), No. 122, April 15, 25, 1882, p. 98 .

(٢) The Times , April, 22, 1882 .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٢ ، جمادى الآخرة ١٢٩٩ (١٨٨٢) ،
Egypt, op. cit., May 18, 1882, p. 140 .

(٤) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , p. 175 . ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢٣ .

وكان من الضرورى تحصين شواطئ البحر الأحمر وحراستها ، فيرسل مدير قنا إلى عرابى ليبلغه « بحضورنا القصير حسب أمر الجهادية صار ترتيب الغفر اللازم من عربان العبابدة والعزايزة على ثمان وأربعين نقطة مهمة منها ثلاثين نقطة على ساحل البحر الأحمر من سفاجة لحد برنس والباقى فى دروب الطوف من نقط البحر لحد اللقيطة ، ومقدار الغفر الذى جرى ترتيبه ألف وخمسمائة نفر من الهجن ، وأخذت التعهدات اللازمة على مشايخهم حسب اللزوم »(١) .

وقد أيد المجلس العرفى هذا الموقف وساعد عليه وقدم التسهيلات ، إذ خصص قطار لنقل عرب السعداوى والجبالى وعبد القوى والحرابى بالفيوم لانتظامهم فى سلك الجنود المحاربين وصرف السلاح لهم ، ويقدم عمد عربان فوايد قبلى ومشايخ عربان الرماح بالمنيا التعهدات لإحضار « الأنفار للمقاومة ضد العدو والمدافعة عن الوطن »(٢) .

وجاءت طلبات شيوخ العربان تحمل الرغبة فى الالتحاق بالقوات العسكرية من جميع مناطق البدو وتزخر بها بعض محافظ الثورة العرابية ، ومن بينهم شيخ عربان الكريمات ، وطحاوى بالواسطة ، وقبائل أولاد على والنجمة والبراعصة والفرجان والمعازة ، وكانوا متحمسين وهم فى طريقهم إلى المعسكرات ، فيذكر مراسل صحيفة الوقائع المصرية فى كوم حمادة « شاهدت كثيراً من العربان يمرون بقطار الوابور إلى مركز الجيش ، وهم فى غاية الفرح والسرور ويدقون الطبول ويغنون »(٣) .

حقيقة لقد كان منهم الصادقون ، فيذكر نينيه أنه اجتمع بشيوخهم المترددين على المعسكرات كبقية وفود قوى مصر التى كانت تتلاقى فيها ، ودار بينهم الحديث « فقالوا له : نحن نؤيد عرابى لا لأنه فلاح ، فإننا لا نحب هذا الجنس ، لكن بسبب أن الخديو الصغير الفاقد لعقله قد اتحد مع الإنجليز كما فعل باى تونس مع الفرنسيين »(٤) .

أما عن لقاءاتهم الحربية مع الإنجليز على أرض المعركة فقد سجلت لهم الكفاءة ، فيظهرون كمجموعات « ليوقفوا الضربات » ، وكانت البلاغات تصل مقر القيادة لتسجل لهم النصر « فقد قاموا وتلاقوا مع العدو ، وأطلقت النيران حتى

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ٢١ ، دوسيه ٥ ، محفظة ١ ، دوسيه ٦ ، دوسيه ١٤ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٠ فى ١٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٤) Ninet, Arabi Pacha, p. 218.

أبعدوه عن نقطة المقدمة ، بعد أن قتلوا نحو المائة واغتنموا خمسة وأربعين ثورًا وخمسمائة متر من سلك الترويبدو »[١] .

وقد نُشر ذلك وزيد عليه فى صحيفة الطائف التى كان قادة الثورة يوزعونها عليهم ، حتى يرفعوا من روحهم المعنوية ويشجعوهم على المزيد من العمل ، ففى برقية من طلبة عصمت يستعجل إرسال أعداد منها « حيث إن النسخ لم تعد تكفى بعد أن تم توزيعها على قبائل العربان الموجودين بالطرق ونقط أبو قير ومريوط »[٢].

وفى الميدان الشرقى ، يقف البعض منهم أمام تقدم الإنجليز لدرجة أنهم لم يستطيعوا التفرقة بين الإنجليزى وغيره من الأجانب ، ففى أثناء مرور بحار أحد رعايا النمسا والمجر بقاربه فى منطقة طوسون جنوب بحيرة التمساح « أطلق عليه النيران من البدو المتحصنين وراء الشاطئ فأصابوه »[٣] .

وكان لبدو سيناء دور فعال أثناء الحرب ، وقفوا فيه مع الثورة ، ففى المنطقة بين القنطرة والعريش ، وعندما ذهب أحد تجار الإسماعيلية لمشترى جمال «فبوصوله لجهة العربان ناحية قاطية أشيع هناك أن المذكور يشترى جمالاً للإنجليز، فلذلك قصد العربان الفتك به ، فاحتمى بأسطى التلغراف بالجهة المذكورة » ، وبذات الوقت راحوا يهجمون على إمدادات الجيش الإنجليزى ، فقد وردت إفادة من مأمور القنطرة « أن عربان السماعنة والعقايلة هجمت على جمال كانت محضرة للقنطرة على ذمة الجيش الإنجليزى » هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن يخرج من تحت أيديهم من يشعرون أنه يحيك الدسائس « فأثناء مرور ثلاثة شوام ما بين القنطرة وبورسعيد ، حضرت بعض العربان وضربت عليهم الرصاص » ، ومما لا شك فيه أن ثورية محافظ العريش كان لها الأثر فى المنطقة ، فيذكر سلطان « أن محافظ العريش هو الذى يحث ويسلط هذه العربان على هذه الأفعال »[٤] .

وأدرك الإنجليز عقب استيلائهم على بعض مدن القناة أنه لابد من استغلال مبدئهم « قسم تحكم » وذلك لوضع نهاية للثورة ، فيقول تقرير نمساوى « إنه لم يكن

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٢٨/٢١ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

هناك بادرة أمل أمام الإنجليز فى حروبهم البرية مع الوسائل العسكرية التى تضغط عليهم ، وما يبديه العرب (المصريين) من نشاط ومهارة فى ميادينهم وهجماتهم العديدة وتنظيمها بما لم يكن معه أن يتنبأ الإنسان بانهيارهم أو تخاذلهم » . ويمضى التقرير ليبين ما بذله الإنجليز من محاولات الرشوة وخاصة مع بدو سيناء لتأمين جانب المفاجأة التى ممكن أن تأتيهم من الشاطئ الآسيوى لقناة السويس بواسطة البدو القانطين بالبرزخ ، ورأوا أن يتصلوا بهم عن طريق الأوربيين المتوطنين ، وذلك بحجة شراء الجمال منهم ، وكانت النتيجة فشلاً ذريعًا ، وهجم البدو على الضياع والبيوت التى أشيع عن أصحابها بصداقتهم للإنجليز ، فنبهوها ودمروها من أساسها ، وكذلك فعلوا بالمبانى والنخيل الذى امتد حولها(١) .

وعاد الإنجليز مرة أخرى لإجراء محاولات عقد الصداقة مع البدو ، ووضعت الخطة فى لندن لمحالفتهم ، واختير بالمر - مستشرق وله معرفة باللغة العربية - ليجئ بخطة مرسومة ومعه أربعين ألفًا من الجنيهات الإسترلينية لشراء خمسين ألف بدوى ، كما أسندت له مهمة أخرى يذكرها « أن أقلع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تنقطع المواصلات بين عرابى وتركيا »(٢) .

وصاحب بالمر فى تلك المهمة « قبطان جيل والملازم شارنجتون » وكان توفيق على دراية بذلك ، إذ أصدر أوامره إلى محافظ الإسماعيلية ومشايخ البدو بتسهيل مهمة البعثة ومساعدتها وتقديم الاحترام لها « وأن القصد هو التفرج »(٣) ، أى السياحة .

وخرج الجواسيس الثلاثة مع خادم ومترجم ، وأعلنوا أن الرغبة « شراء الجمال » وأوغلوا داخل سيناء حتى وصلوا إلى قلعة نخل ، وهناك أمر ناظرها - وهو عربى ملتاث - بالقبض عليهم ، وخيرهم بين الموت ذبحًا أو القفز من أعلى قمة جبل التيه إلى السفح ، فاختار بالمر وجيل الحل الأخير ، بينما ترك الباقون أنفسهم يذبحون ، وعثر على جثتى الأولين مهشمتين عند سفح الجبل . وأرسل الإنجليز بعثة مؤلفة من خمسين بحارًا التحق بها ياوران الخديوى والقنصل الإنجليزى والقنصل

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٢) Ninet , Arabi Pacha, p. 144 , Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , p. 405 .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ٣ .

اليونانى للبحث عن المفقودين والمذنبين ، وتم القبض على ستة شر بدويًا ، وعين كولونيل ورن الإنجليزى للتحقيق معهم ، وتم سجنهم « ووجد مع ناظر القلعة زوج طبنجات وسيف من متعلقات الميرى » ، وثبت أن له علاقة بمحافظ العريش[١] .

وفشلت الخطة الإنجليزية فى تلك المنطقة ، إذ كان موقف البدو فيها مؤيدًا للثورة ، ومن المحتمل أن تلك الإجراءات التى قاموا بها مع البعثة الإنجليزية هدفت أيضًا سلب أموالها ، ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يلجأوا للحصول على الأموال بخيانة الثورة ، كما حدث مع بعض البدو داخل ميدان المعركة ؟ وبصفة عامة، فإن هناك بدوًا قد سجلوا المواقف الطيبة ، فإنه حتى بعد الهزيمة ، كان منهم من رفض الاستسلام مع بقية العسكريين الذين امتنعوا عن التسليم بالمنوفية مثل « حسن مطاريد البدوى من عربان البراعمة »[٢] .

أضف إلى ذلك تلك التبرعات والهدايا التى قدموها للجيش المحارب ، فكان على قائمة المتبرعين « مشايخ قبائل البراعمة والجهمة والحرابى والعمايم وترحونة والفوائد » فأعطوا الخيل والأغنام والفاكهة والأسلحة ، تلك التى كانت تنقل تباعًا إلى كفر الدوار[٣] .

وفى النهاية كان هناك الكثير من البدو الذين قدموا للمحاكمة وحوكموا ، وهذا دليل على مشاركتهم الفعالة فى الثورة ، ويشاء القدر أن يكون أيضًا من البدو من أسهم فى إجهاض الثورة ومثّل ركيزة فى هزيمتها[٤] .

■ ● ■ ● ■

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، رقم ١٩١ ، ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢ ، محفظة ١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٧٥/أ .

(٣) المصدر نفسه ، محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢١ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٦٨ .

(٤) الفصل السابع ، عنصر البدو وأصحاب الخيانة .

المشـــهد الأخـــير

... تحطمت الثورة ، وامتلأت سجون القاهرة والإسكندرية والأقاليم بقوى مصر الاجتماعية التى شاركت فى الثورة ، ونجحت يد البطش فى استرجاع حسن موسى العقاد وسليمان داود بعد لجوئهما إلى كريت ، وفشلت فى القبض على عبد الله النديم عقب هروبه .

ومثلت السجون قبوراً للثوار ، واتسعت دائرة الإنتقام ، فنرى توفيق يرسل « أعوانه وحواشيه ومماليكه الجراكسة يهددون المحبوسين ويزعجونهم ويسلبون ما عندهم من المصاحف والنقود ، ويدخلون على عرابى وعبد العال فى أود الحبس ويضربونهم » ، ويؤكد بلنت « أن أغوات الخديو كانوا يزورون المتهمين فى السجن ويضربونهم ضرباً مبرحاً » ويذكر عرابى فى محضر التحقيق الإهانة التى لحقته « ودخل على الأودة أغوات من القواصة الترك ثم تقدم أحدهم بصورة هائلة مزعجة، وقال لى قم فقمت فقلت له ماذا تريد فقال أريد أفتشك » ويمضى فى وصف السب واللعنات التى نزلت عليه ، ويقول « وسمَّروا النوافذ ومنعوا عنا السراج ليلاً » ، هذا فى الوقت الذى قاست فيه عائلاتهم فلم تصرف لهم مرتبات مما اضطرهم « لبيع أدوات منازلهم »(*) .

وكان لرياض اليد الطولى فى هذا العذاب ، فالحقد يملأ قلبه ويسيطر عليه ، إذ يقول « إن المصريين ثعابين والطريقة الوحيدة لمنع تفشى الثعابين هو سحقها

(*) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 447 . محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/أ ، دوسيه ٤٨ ، أحمد عرابى ، مذكرات جـ ٢ ، ص ٤١٠ .

بالأقدام ، وسأسحق أنا المصريين »[١] ، وهذا ما فعله فإنه لم ينس أبدًا أن الثورة أطاحت به وسلبته سلطته .

وتشكلت لجان التحقيق بالقاهرة والإسكندرية وطنطا « للتحقيق وإقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان أو التعدى على السلطة الخديوية أو الإهانة للذات الخديوية » ، كذلك كونت محكمة عسكرية بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية .

وكان هناك اتجاهان ، الأول مثلته لندن والثانى انحصر فى الخديو وأعوانه ، أما عن الاتجاه الأول ، فبعد أن حققت بريطانيا هدفها - الذى سعت إليه منذ سنوات وسنوات - واستقرت على الأرض المصرية أدارت الأمور وفقًا للسياسة الإنجليزية ، فنراها توافق على تسليم أسرى الحرب المصريين إلى الخديو وهى تعلم نياته لذا فتشترط « ألا يعدم أحد إلا بموافقة السلطات البريطانية »[٢] ، وجاءت التعليمات من لندن بإعطاء قادة الثورة الحرية لاختيار محامين عنهم وأن تكون المحاكمة علنية ، ووكل بلنت محامين للثوار وحضر من لندن للدفاع ، وذلك بعد أن أوضح لجلادستون أن هذا الدفاع سيكون على حسابه الخاص ، ومما يذكر أن بعض الإنجليز اكتتب بمبالغ للغرض نفسه .

أما الاتجاه الثانى ، فقد أراد الخديو تقديم الثوار لمحاكمة عسكرية إنجليزية لكن بريطانيا رفضت ، وعارض شريف فى وجود محامين عنهم إذ قال « إن الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ، ولا إجراء التحقيق معهم علانية » ، أما رياض فكان يردد « ما جدوى محاكمتهم إذا كنا نعرف جميعًا أنهم مذنبون »[٣] .

وبطبيعة الحال لابد من انتصار الاتجاه الأول ، وتولى الدفاع عن الثوار محامون إنجليز « برودلى ، نابيير ، إيدى » ، ووضع رياض العراقيل أمامهم ، فرفض أن يسمح لهم بالاقتراب واللقاء مع الثوار برغم أن هذا مناف للقانون المصرى ، وكان

---

(١) Ibid , p. 459 .

(٢) Egypt, No. 18 (1882), No. 73, F.O., August 28, 1882 .

(٣) فارمان ، المرجع المذكور ، ص ٢١٧ .

يعـارض بشـدة إتصـال أى أحـد بالمسـجونين ، لكن كـان من السـهل الوقـوف أمـام تصرفاته . ولما كانت المحاكمة علنيـة ، فقد ظهر فيها لقاء الشعب مع زعيمه حتى بعد الهزيمة ، فيذكر تقريرنمساوى « أقبل الكثيرون في الاندفاع على طلب بطاقات الحضور بين الجمهور »[١] ، وامتـلأت قاعـة المحكمـة بالحـاضـرين حتـى النسـاء المحجبات كن من بين الصفوف ، وكان الشارع الذى تقع فيه المحكمة مكتظًا بالناس ، كـذلك احـتـشـد الطريق المؤدى إلى السـجن بالذين يبـكون ويصـيحـون « من أجل عرابى »[٢] .

وضعت المحكمة العسكرية أمامها القانون العسكرى العثمانى وحكمت على سليمان داود بالإعدام بناء على تهمته فى حرق ونهب الإسكندرية ، وذلك فى ميدان القنصليات بها بعد أن رفض توفيق طلب العفو عنه الذى التمسه الدفاع ، كذلك نفذ حكم الإعدام فى يوسف أبو ديه بتهمة أنه المتسبب فى الشغب الذى حدث فى طنطا إبان الحرب ، هذا بخلاف أشخاص غير عسكريين تعرضوا لنفس المصير بسبب اشتراكهم فى حوادث الإسكندرية .

وجاء الحكم على باقى الثوريين ، واشتـدت المعارضـة فى البرلمان الإنجليـزى ، وكثف حزب الأحرار نشاطه لإنقاذ عرابى من الإعدام الذى حكم به عليه ، وخفف بقرار من توفيق إلى النفى المؤبد ، وطبق ذلك على غير إرادة الخديوى ، إذ كان يصر بقـوة مع شـريف ورياض على ضـرورة تطبـيق العـقـوبة القـصـوى على « زعـمـاء المجرمـين» . ويرفض أى بديل لحكم الإعدام ، لكن بعد أن وجه إنذار إنجليـزى إلى الحكومـة المصـرية ، تغـيـر الموقف ورضخ المعـارضـون ، مـا عـدا رياض الذى قـدم استـقـالتـه ، احـتـجـاجًـا على تخـفـيـف الحكم ، حيث آمن أنه طالما بقى القـادة على الحياة، فستعيش معهم القصة القومية ، وقد تؤتيها لحظة تظهر فيها من جديد بشكل مضاعف .

وفى الواقع فإن الحكومة الإنجليـزية كانت تضع أمامها عدة اعتبارات فى هذه المسـألة ، فـمنذ البـداية كـان جـلادسـتـون يرى مع جـرانفـيل السـعى لإعـدام عـرابى

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٦ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، رقم ٧٠ ، ٤ نوفمبر ١٨٨٢ ، محفظة ١٥ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢ ، رقم ١٨٩ فى ٢٣ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٢) Broadly , How We Defended Arabi And His Friends , pp. 122, 133, 340 .

بمعرفة الخديوى[١] ، لكن مصير عرابى قرره الرأى العام فى بريطانيا الذى كان يميل إلى إعطائه محاكمة عادلة ، إذ أقر أن ما فعله هذا الزعيم لم يكن إلا أول نهضة للحرية فى الشرق ، كما كانت صحافة الأحرار تصف عرابى بصورة أنه مكافح ومن أبطال الحرية، وذلك ما جعل الحكومة الإنجليزية تعمل له حسابًا على غير إرادتها ، هذا بالإضافة إلى أن التقارير الواردة من الهند كانت تشير بذلك التفاعل الإسلامى العام تجاه المحاكمة مما حتَّم وضعه فى الاعتبار وعدم إغفاله[٢] ، وأمام ذلك كله أصبح لابد من تخفيف المحاكمة والحد من الانتقام الكلى . وصدر حكم النفى المؤبد إلى جزيرة سيلان ورحل قواد الثورة السبعة[٣] ، وأوصلهم للسويس « ضابطان وثلاثين من عساكر الإنجليز »[٤] .

ووقع النفى والتشريد والفصل من الوظائف ورقابة البوليس وتحديد الإقامة على الثوريين جميعهم وفق مشاركتهم فى الثورة دون تفرقة بين قوة وأخرى ، وجرد العسكريون من الرتب والأوسمة وحجج الأملاك والأطيان الخاصة بهم ، وبيعت الأراضى التى تمتلكها زوجات الثوار ، وحتى أملاك الإرث حُجزت وصودرت ، ولم تراع نصوص الحرمان ، لدرجة نزع « أملاك الوقف الموقوفة » ، أيضًا فإن الكتب التى وجدت لديهم صُودرت ، وأعلن عن بيعها[٥] .

واعتُقد أنه بتلك الإجراءات التى اتخذت قد تم استئصال جميع الاتجاهات الثورية ، لكن مضى الكفاح من أجل الانتقام ممن تسببوا فيما حاق بمصر وقادتها ، وتكونت جمعية لأجل هذا الغرض « جمعية الانتقام » وكان شعارها « تحرير الوطن ، المدنية ، التقدم » وشهر كل عضو فيها سلاحه ، ومضت فى إصدار التهديدات سواء

(١) Blunt , Secret History of the English Occupation of Egypt , P. 450 .

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٤ ، رقم ١٢ جـ ، لندن ٢٢ فبراير ١٨٨٣ ، محفظة ١٥ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٣) أحمد عرابى ، محمود سامى البارودى ، على فهمى ، عبد العال حلمى ، محمود فهمى ، طلبة عصمت ، يعقوب سامى ، عن الحياة فى المنفى ، انظر الدراسة الوثائقية « عرابى ورفاقه فى جنة آدم » ١٨٨٣ – ١٩٠١ ، لطيفة محمد سالم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٧ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/جـ .

(٥) المصدر نفسه ، محفظة ٢٤ ، دوسيه ١ ، محفظة ٢٦ ، دوسيه ٣٥ ، محفظة ٢٧ ، دوسيه ٤٦ ، محفظة ٢٨ ، دوسيه ٥٨ ، محفظة ٣، دوسيه ٨٣ ، محفظة ٣٣ ، دوسيهات ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ .

لتوفيق أم الباشوات أتباعه وعلى رأسهم شريف ، ومن أعضائها محمد فنى وله تاريخه فى العمل الثورى ، وحسين صقر الكاتب بالداخلية ، وسعد زغلول ، ومحمد توفيق ، ووكيل دائرة البارودى ، ومحمد بك طاهر ، وعبد الرحمن بك فوزى ، وعبد الرازق بك ، ومصطفى بك صدقى ، والشيخ أحمد نور ، وكان رئيسها « محمد سعيد وهو مغربى الأصل » لكن تم القبض عليهم ، ونفى بعض منهم وعثر فى منازلهم على أسلحة وأوراق تدين النظام القائم(*) ، وأُجهز على تلك الحركة ، واعتقد أعداء مصر أنهم قضوا على الثورة ، لكنها بقيت كامنة فى النفوس حتى تفجرت مرة أخرى على يد سعد زغلول أحد المشتركين فى ثورة القوى الاجتماعية .

ولم تكن الثورة العرابية ثورة « مشئومة » كما وصفها محمد فريد ومن تبعه ، ولكنها ثورة اعترف بها من قامت ضدهم من غلاة المستعمرين ، فيسجل جرانفيل فى خطاب له مؤرخ فى ٣ يناير ١٨٨٣ إلى الدول الأوربية بشأن قناة السويس قوله « إن الثورة المصرية قد ظفرت بنجاح » ، ولو أنه يصفه بأنه قصير المدى ، لكنه اعتراف بنجاح الثورة ، ثم يأتى كرومر ليقر ويعترف فى تقريره لعام ١٩٠٤ أى بعد مرور اثنين وعشرين عامًا على تحطيم الثورة ، وحين هدأت الأوضاع ، ووضحت الحقائق فيقول « حدثت ثورة عظيمة فى القطر المصرى عام ١٨٨٢ وإنما قلت ثورة عن عمد وقصد ، فقد كان الظن الغالب على كثير من الأذهان فى ذلك الزمان أن الحركة العرابية كانت فتنة عسكرية لا غير ، وذلك خطأ مبين لأنها كانت فى جوهرها ثورة صحيحة على العسف وسوء الحكم كالثورات التى حدثت فى البلدان الأخرى ، وهى تستنكر وتذم أو تجوز وتمدح حسب أدلة الذم والمدح التى تقام عادة على الذين يحاولون تغيير نظام الأحكام فى بلادهم تغييرًا جوهريًا بوسائط العنف والإكراه » .

والواقع أنه كان من الأمور المستغربة أن تسمى فتنة عسكرية أو تمرد عسكرى ، وهى الثورة التى اشتركت فيها قوى شعب مصر من أعلى الطبقات إلى عامتها ، قدمت من أجلها كل شىء للتخلص من كابوس التدخل الأجنبى ، والشفاء من حمى

(*) المصدر نفسه : محفظة ٣٣ : دوسيهات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، محفظة ٤٠ ، دوسيه ١٩٢ .

السياسة الأوربية ، والنجاة من شرك المطامع الاستعمارية ، وأيضًا من سيطرة الأتراك الاستبدادية والخديوية الأوتقراطية ، إذن فهى ثورة وطنية أصيلة ، وفى خطاب لعرابى وهى بسجن الدائرة السنية إلى شينرى مدير صحيفة التيمز بلندن يذكر له ما جاء فى مقال بالعدد ١١٠٥ من صحيفة الجوائب التركية تحت عنوان « القبض على المفسدين فى مصر » والذى تناول القوى التى إنضمت إلى الثورة ليثبت أنه لم يعد على أرض مصر أحد لم يشترك فيها ، ويمضى عرابى فى خطابه ليبين أن الأمة كلها كانت معه « على رأى واحد فى أمر واحد هو تحرير البلاد والمدافعة عنها » ، وبذلك توحدت جهود المصريين من أجل تحقيق آمالهم فنزلوا جميعًا إلى الميدان الثورى للعمل الموحد ، وغدت ثورتهم ثورة شعبية صادقة تشهد لها ثورات شبيهة فى أوربا ، قامت مطالبة بالاستقلال نازعة للحرية ساعية إلى الدستور ، وهى بذلك تعد أولى الثورات الدستورية فى المنطقة .

وأخيرًا فإن لكل ثورة أنصارها وخصومها ، لكن بيان الحقائق ووضعها فى مكانتها وعدم التحيز لاتجاه أو لآخر ، وقياس الأحداث بالفترة الزمنية التى عاشتها يجعل الحكم أقرب إلى الصواب ، وهذا ما حاولت تلك الصفحات أن تسطره ، ومن ثم فقد نقلت لنا صورة حية لثورة شعب جمعته ظروف ، وإن اختلفت فى مضمونها ، لكنها دفعت المصريين إلى التعبير عما يجيش فى صدورهم ، فالتقوا جميعًا فى أحضان الثورة العرابية التى كانت المخرج مما يعانون منه ، والأمل فيما يريدون تحقيقه . ولكن انتهى الأمر بالإحتلال الإنجليزى لمصر ، ولم تكن الثورة هى السبب كما يحلو للبعض أن يردد ذلك ، لأن بريطانيا كانت قد خططت منذ وقت بعيد ، ووضعت نصب عينيها الاستحواذ على مصر ، وسلكت كل الطرق المؤدية للوصول إلى هدفها حتى حان وقت التنفيذ ، بمعنى أنه لو لم تكن الثورة العرابية قد قامت ، لكانت بريطانيا احتلت مصر ، وحققت الحلم الذى راودها والأمنيات التى صاحبتها زمنًا طويلاً .

■ ● ■ ● ■

الببليوجرافيا

... أولا - الوثائق غير المنشورة :

١ - الوثائق العربية ، محفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، وهى مرتبة حسب اهميتها .

* محافظ الثورة العرابية ، المحافظ ١، ٢، ٣، ٥، ٧، ٨ ، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٤١، ٤٣ .
* تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين المصريين والأجانب إلى لجنة التحقيق عن معلوماتهم عن الحوادث العرابية
* محافظ الأبحاث ، المحافظ ٤٢ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٠ .
* محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار (١٨٨٠ - ١٨٨٢) ، المحافظ ، ٥/جـ ، ٥/حـ ، ٥/ز ، ٥/و ، محافظ الداخلية ، عربى ، محفظة ٥٤ ، تركى ، المحفظتان ٦٤، ٦٧ .
* البرقيات الواردة من إستانبول والصادرة إليها أثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفترين ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
* معية سنية ، عربى ، دفتر صادر التلغرافات ، أعوام ١٨٧٩ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ .
* مجموعة مجلس الوزراء ، المجموعة ١٠ حربية ، محفظة ٣٨ .
* محافظ الداخلية ،،محفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة ، المحافظ ٣٦ ، ٣٧، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .
* دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محفوظ بمجلس الشعب .

٢ - الوثائق الأجنبية ، محفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

- الأرشيف النمساوى :

(أ) المحافظ المترجمة إلى اللغة العربية ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠

(ب) المحافظ المترجمة إلى اللغة الفرنسية :

* Correspond , Affairs Egypt, 1881, Politisches Archiv , Alex. Fasz XXXVIII/195, Haus, Hol-u-Staot, Sarchiv Wien .
* Archives de maison, de cour et d'etat , Vienne, Actes , Politico , Commerciaux , Finances, Fasz XXX/9 , Fasz XXXI/24 .

- الأرشيف الإنجليزى :

* F.O. 78, 2998 , 3000 , 3001 , 3011 .

- مجموعة برودلى :

* The Trial And Pardon of Arabi Pacha .
Sammarco , No , 241 , Le Coup d'etat , 1878 . -

ثانيًا - الوثائق المنشورة :

١ - الوثائق العربية

* تقرير أحمد عرابى باشا المصرى المقدم إلى المحامين برودلى ونابيير فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢، مطبعة الجامعة بمصر ، د . ت .
* تقرير عام مرفوع من اللورد دوفرين إلى اللورد جرانفل وزير خارجية إنجلترا بشأن إصلاحات مصر ، مطبعة الأهرام ، الإسكندرية ١٨٨٣ .
* لائحة مرفوعة إلى جلالة الأمير توفيق الأول خديو مصر ، خدمة من جمعية إتحاد مصر الفتاة ، الإسكندرية ١٨٧٩ .

٢ - الوثائق الأجنبية

* Blue Books :
Egypt , 1880 , 1881 , 1882 .
* Hansard's Parliamentary Debates , 1882 .
* Ministere des Affaires Etrangers , Documents Diplamatique Francaise , 1880 , 1881 , 1882 .
* Affaires Etrangeres , Documents Diplamatique Affaires d'Egypte , 1878 , 1879 , 1880 , 1881 , 1382 .

ثالثا - المذكرات :

* إبراهيم الهلباوى ، مذكرات تاريخ حياة إبراهيم بك الهلباوى ، الجزء الأول ، وتم الاعتماد على الأصل المخطوط والمحفوظ بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
* أحمد شفيق ، مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الأول ، مطبعة مصر ، ١٩٣٤ .
* أحمد عرابى ، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، جزءان ، وتم الاعتماد على الأصل المخطوط والمحفوظ بدار الكتب بالقاهرة .
* عبد الله النديم ، مذكرات جمعها محمد أحمد خلف الله تحت عنوان « عبد الله النديم ومذكراته السياسية » ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
* قلينى فهمى ، مذكرات قلينى فهمى باشا ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، مطبعة صادق ، المنيا ، ١٩٤٧ .
* محمد عبده ، مذكرات جمعها وقدمها طاهر الطناحى تحت عنوان « مذكرات الإمام محمد عبده » ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦١ .

رابعًا - المصــادر :

* سليم النقاش ، مصر للمصريين، الجزءان الرابع والخامس ، الإسكندرية، ١٨٨٤ .
* فؤاد كرم ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، النظارات والوزارات المصرية ، الجزء الأول ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
* محمود فهمى ، البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٨٩٤ .

خامسًا - الدوريات :

١ - الدوريات العربية

* أبو نظارة زرقاء ، ١٨٧٩ ، أسبوعية ، باريس ، يعقوب بن صنوع .
* أبو نظارة زرقاء لسان حال الأمة المصرية الحرة ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، باريس، يعقوب بن صنوع .
* الإسكندرية ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠، ١٨٨١، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، الإسكندرية، سليم حموى .

* الأهرام ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، يومية ، القاهرة ، سليم وبشارة تقلا .
* التجارة ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، يومية ، الإسكندرية ، أديب إسحق وسليم النقاش .
* التنكيت والتبكيت ، ١٨٨١ ، أسبوعية ، الإسكندرية ، عبد الله النديم .
* الجنة ، ١٨٨٢ ، نصف أسبوعية ، بيروت ، سليم البستانى .
* الحاوى ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، باريس ، يعقوب بن صنوع .
* السلام ، ١٨٧٩ ، أسبوعية ، الآستانة ، جبرائيل دلال .
* الطائف ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، الإسكندرية ، عبد الله النديم .
* العصر الجديد ، ١٨٨٠ ، أسبوعية ، القاهرة ، عبد الغنى مدنى وإبراهيم سراج .
* الكوكب المصرى ، ١٨٧٩، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، أسبوعية ، القاهرة ، موسى كاستلى والسيد وفا .
* المحروسة ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، القاهرة ، سليم النقاش وآخرون .
* المفيد ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، نصف أسبوعية ، القاهرة ، مصطفى ثاقب وحسن الشمسى .
* الوطن ، ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، يومية ، القاهرة ، جندى إبراهيم وميخائيل عبد السيد .
* الوقائع المصرية ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، نصف أسبوعية ، القاهرة ، إدارة نشر المطبوعات بنظارة المالية .
* الوقت ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، يومية ، الإسكندرية ، سليم تقلا .
* صدى الأهرام ، ١٨٧٩ ، يومية ، الإسكندرية ، سليم تقلا .
* مرآة الشرق ، ١٨٧٩ ، نصف أسبوعية ، القاهرة ، سليم عنحورى .
* مصر ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، أسبوعية ، القاهرة ، أديب إسحق .

٢ - الدوريات الأجنبية

* The Times , 1879 , 1882 , London .

سادساً - المراجع :

١ - المراجع العربية

* إبراهيم عبده ، (أ) أبو نظارة ، إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر ١٨٣٩ - ١٩١٢ ، الطبعة الأولى ، مكتب الآداب ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
(ب) تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة ، جريدة الأهرام ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٥١ .
(جـ) تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضة الفكرية والاجتماعية ، الطبعة الثانية ، مطبعة المتوكل ، القاهرة، ١٩٤٥.

* إبراهيم فوزى ، السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٣١٩هـ (١٩٠١م) .

* أحمد أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

* أحمد تيمور ، تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، القاهرة ، ١٩٤٠ .

* أحمد زكى بدوى ، تاريخ مصر الاجتماعى ، مطبعة صلاح الدين ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

* أحمد عبد الرحيم مصطفى ، (أ) تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
(ب) الثورة العرابية ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، ١٩٦١ .
(جـ) مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦ - ١٨٨٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

* أحمد فتحى زغلول ، المحاماة ، مطبعة المعارف ، مصر ، ١٩٠٠ .
* السيد محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الجزء الأول ، مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٩٣١ .
* إلياس زاخورة ، مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر ، المطبعة العمومية ، القاهرة ، ١٨٧٩ .
* جرجس حنين ، الأطيان والضرائب فى القطر المصرى ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٠٤ .
* راشد البراوى ، محمد حمزة عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٤٤ .
* رؤوف عباس حامد ، النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٣٧- ١٩١٤ ، الطبعة الأولى ، دار الفكر الحديثة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
* صلاح عيسى ، الثورة العرابية ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
* عبد الرحمن الرافعى ، (أ) الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى ، الطبعة الأولى ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، ١٩٣٧ .
(ب) عصر إسماعيل ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
(جـ) مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٢ .
* عبد العاطى أحمد ، الفكر السياسى للإمام محمد عبده ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨ .
* عبد العزيز الرفاعى ، فجر الحياة النيابية فى مصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
* عبد الفتاح نديم ، سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩١٤ .

* عبد اللطيف حمزة ، (أ) أدب المقالة الصحفية فى مصر ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

(ب) العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

* على الحديدى ، عبد الله النديم خطيب الوطنية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، أعلام العرب ٩ ، القاهرة ، د. ت .

* على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ - ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

* محمد أنيس ، السيد رجب حراز ، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د. ت .

* محمد خليل صبحى ، تاريخ الحياة النيابية فى مصر من عهد ساكن الجنان محمد على باشا ، الجزء الرابع ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

* محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

* محمد كامل مرسى ، الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن ، مصر ، ١٩٣٦ .

* محمود الخفيف ، أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ، الجزء الأول ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٧١ .

* محمود متولى ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

* ميخائيل شاروبيم ، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، الجزء الرابع، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٠٠ .

* نفوسة زكريا ، عبد الله النديم بين الفصحى والعامية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٦ .

* يوسف نحاس ، الفلاح ، حالته الاقتصادية والاجتماعية ، مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة ، ١٩٢٦ .

٢ - المراجع المترجمة

* بير ، ج ، دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة وتقديم عبد الخالق لاشين ، عبد الحميد فهمى الجمّال ، مكتبة الحرية الحديثة ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

* روثستين ، تيودور ، تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠ ترجمة عبد الحميد العبادى ، محمد بدران ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

* فارمان ، ألبرت ، مصر وكيف غدر بها ، ترجمة عبد الفتاح عنايت ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

* لاندز ، داڤيد ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

* مارلو ، چون ، تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ١٧٩٨ - ١٨٨٢ ، ترجمة عبد العظيم رمضان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

* هنرى عيروط ، الفلاحون ، ترجمة محيى الدين اللبان ، وليم داود مرقص، مؤسسة الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢ - المراجع الأجنبية

* Bear , G. , A History of Londownership in Modern Egypt 1880 - 1950 , Oxford University Press , London , 1962.
* Bemlan , V. L'Egypte et L'Europe , London , 1881.
* Biovès , A., Francais et Anglais en Egypte 1881 - 1882 , Paris , 1910.
* Blunt , W . S ., A - My Diaries , 2 vols , First Published , London .
  B - Secret History of the Englis Occupation of Egypt, Second Edition, London , 1907 .
* Bréhier , L. , L'Egypte, de 1798 - 1900 , Paris 1900 .
* Broadly , A . M., How We Defended Arabi And His Friends , London , 1884 .
* Chaillé - Long - Bey , Les Trois Prophétes : le Mahdi , Gordon , Arabi, Second Edition , London , 1906 .
* Cromer , The Earl of , Modern Egypt , 2 Vols, London , 1908 .
* Dicey , E . , The Story of the Khedivate , London , 1902.
* Duse , M ., In the Land of the pharaohs , First Edition , London , 1911.
* Malet , S . E . , Egypt 1879 - 1882 , London , 1909 .
* Malortie , Baron de , Egypt , Native Rulers and Fareign Interference , Second Edition , London , 1883 .
* Milner , Sir A. , England in Egypt , Seventh Edition , London , 1899.
* Ninet , J . , A - Arabi Pacha , Paris , 1884 .
  B - Origin of the National Party in Egypt , the Nineteenth Century , Vol . XIII , London , 1883 .
* Sabry , M. , La Genèse de L'Esprit National, 1863-1882 . Paris , 1924.
* Scotides , N . , L'Egypte Contemparaine et Arabi Pacha , Paris , 1880.
* Wallace , D . M . , Egypt and The Egyption Question , London , 1883 .

■●■●■

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة

المؤلفة فى سطور

أ.د. لطيفة محمد سالم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ بكلية آداب بنها

أهم المؤلفات :

- القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١.
- صحافة الثورة العرابية ، دراسة ضمن كتاب مصر للمصريين ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٨١ .
- الحكم المصرى فى الشام (١٨٣١ - ١٨٤١) ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب الجامعى ، ١٩٨٣ ، الطبعة الثانية ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٠ .
- مصر فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .
- المرأة المصرية والتغيير الاجتماعى (١٩١٩ - ١٩٤٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .
- النظام القضائى المصرى الحديث (١٨٧٥ - ١٩١٤) ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، ١٩٨٤ . الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١ .
- النظام القضائى المصرى الحديث (١٩١٤ - ١٩٥٢) ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، ١٩٨٦ . الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١ .
- عرابى ورفاقه فى جنة آدم (١٨٨٣ - ١٩٠١) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٧ .
- الصحافة والحركة الوطنية المصرية (١٩٤٥ - ١٩٥٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .
- فاروق وسقوط الملكية فى مصر (١٩٣٦ - ١٩٥٢) الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولى ، ١٩٨٩ ، الطبعة الثانية ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٦ .
- تاريخ القضاء المصرى الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ .
- أزمة السويس (١٩٥٤ - ١٩٥٧) جذور . أحداث . نتائج ، مكتبة مدبولى ، ١٩٩٧ .
- المؤلفة حائزة على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاجتماعية (تاريخ) لعام ١٩٨٤ .
- المؤلفة حائزة على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٠ .

القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية

الجذور والأحداث

كانت الثورة العرابية ضرورة اجتماعية وأمراً طبيعياً فرضتهما الظروف التى مر بها المجتمع المصرى من تسلط الأوتقراطية والانحراف والظلم واستغلال الأقلية المحدودة للأكثرية الساحقة ، وتدخل الأجانب الذى طمس معانى القومية ، وقضى على القيم ، واحتكر الاقتصاد ، وتغلغل فى السياسة ، فكان لابد من دفع هذا الجور الذى لا حدود لسلطانه . ومن هنا فُرضت الثورة على مصر لتكون حركة شاملة تسعى إلى تغيير جوهرى فى كيان المجتمع وتركيبه وإيديولوچيته ، إذن فالثورة عميقة وشاملة وعامة ، لا تحفل بالأشياء السطحية ، وإنما ركزت جهودها على أساسيات المجتمع ودعائمه . وقد اشتركت قوى مصر الاجتماعية فى الثورة ، ومن خلال ذلك كان الحكم على العمل الثورى الذى سعى لحياة تسودها العدالة التى لا تتحقق إلا بتحول جذرى يتضمن الشكل السياسى والبناء الاقتصادى والوضع الاجتماعى .